ساحة الإمام الحسين ﷺ
بأسيوط

# الدّروسُ الحُسَيْنِيَّة

## فِي شَرحِ الحِكَمِ العَطَائِيَّة


شرحها الفقير إلى عفو مولاه

**أ.د/ حسين عبد المجيد حسين أبو العلا**

أستاذ الفقه المقارن

ووكيل كلية الشريعة والقانون بأسيوط سابقًا

جمعها

**أ.د/ محمود صديق رشوان**

أستاذ ورئيس قسم الفقه المقارن

كلية الشريعة والقانون بأسيوط






1443هـ - 2022 م

ساحة الإمام الحسين ﷺ بأسيوط

# الدروس الحسينية

## في شرح الحكم العطائية


شرحها الفقير إلى عفو مولاه

**أ.د/ حسين عبدالمجيد حسين أبو العلا**

أستاذ الفقه المقارن

ووكيل كلية الشريعة والقانون بأسيوط سابقا

جمعها

**أ.د/ محمود صديق رشوان**

أستاذ ورئيس قسم الفقه المقارن

كلية الشريعة والقانون بأسيوط



**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣هـ- ٢٠٢٢م**

بسم الله الرحمن الرحيم

**تقريظ**:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، منبع العلوم والأنوار، ومعدن المعارف والأسرار، وترياق الأغيار، ومفتاح باب اليسار، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، عدد نعم الله وأفضاله.

وبعد:

فإننا نعيش في زمن قد ابتلينا فيه بطغيان المادة، وهيمنة الرغبات الدنيوية، فانطفأت فيه جذوة الإخلاص بين جوانحنا، وأصبحت القلوب فيه منطوية على الأمراض التي يسميها الله باطن الإثم، ولم يعد هناك من سبيل لعلاج هذه المشكلة إلا بتزكية القلوب وتطهيرها.

وأفضل سبيل الى ذلك هو في كتاب "حكم سيدي أحمد ابن عطاء الله السكندري" والذي هو مجموعة مقاطع من الكلام البليغ، الجامع لأوسع المعاني بأقل العبارات، كلها مستخلصة من كتاب الله تعالى، أو من سنة رسول الله ﷺ، حتى قيل فيها: كادت حكم ابن عطاء الله أن تكون وحيا(١).

وقد قيل إنه لما صنفها عرضها على شيخه أبي العباس المرسي، فتأملها، وقال له: لقد أتيت يا بني في هذه الكراسة بمقاصد الإحياء وزيادة.

ولذلك تعشقها أرباب الذوق، لما رقّ لهم من معانيها وراق، وبسطوا القول فيها وشرحوها كثيرا.

وإنني لم أجد وليا من أولياء الله الصالحين أو عالما ربانيا إلا وله مع الحكم وقفة وتأمل، وسبحان ربي كل منهم يأتي بجديد في شرحه لها، حسبما يفيض الله عليه من تجلياته.

ولعلي أذكر هنا ما كتبه فضيلة الإمام الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله، عندما أراد أن يحقق شرحا للحكم للشيخ زروق، فقال: إن الشيخ زروق رضي الله عنه

---

(١) فوق كلام الخلق، ودون كلام الخالق، فهي إلهام من الله تعالى.

كان مدمنا للحكم، وشرحها نيفا وثلاثين مرة، وأن الشرح الذي حققه هو الشرح السابع عشر.

وها نحن الآن بين أيدينا شرح جديد تكاد الروح الكامنة فيه أن تنطق بروعته وجماله، وهو لفضيلة العالم الرباني الدكتور/ **حسين عبد المجيد**، الذي جمع الله له بين فقه الظاهر وفقه الباطن، وجمع الله له بين الشريعة والحقيقة، ويجب التنويه أن شرح فضيلته لم يكن مسبوقا، حيث قد انفرد بمقدمة بين يدي الحكم قبل أن يبدأ بشرحها أوضح فيها الفرق بين فقه الظاهر وفقه الباطن، ثم أفاض مما فتحه الله عليه في شرح "الحقيقة المحمدية" وإن شئت قلت "الروحانية المحمدية"، فأفاد وأجاد.

مما يجعلني أقول: إذا كانت الحكم العطائية هي الباب لفهم التصوف الصحيح، والتحقق بمقام الإحسان، فإن الشرح الماتع الذي انفرد به فضيلة مولانا الدكتور حسين عبدالمجيد عن الحقيقة المحمدية هو المفتاح لفهم الحكم العطائية، والتحقق بأنوارها وأسرارها.

كما لا ننسى المجهود الرائع الذي بذله تلميذه المخلص أستاذنا الدكتور/ **محمود صديق**، في نقل هذا العلم إلينا، وتبسيط هذا الشرح بأسلوبه السهل الممتنع، وبخبرته الأكاديمية، حتى يرضي طالب العلم، والسالكين في الطريق، والعوام من أمثالي، ولكي يحفظ لهذه الحكم إشراقها وتأثيرها.

وخلاصة القول في هذه الحكم عمن صنفها، وشرحها، ونقلها إلينا هو ما قاله ابن عطاء الله نفسه: تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ... فحيث صار التنوير ... وصل التعبير.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله.

محبكم/ **إسماعيل سري الدين**

**مدخل**:

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا محمدا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وآل بيته الطيبين الأطهار، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

**أما بعـد؛؛؛؛**

فلقد كانت الحكم العطائية –ولا زالت– روح العلم والفكر، ونورا من نور الإسلام اقتبسه صاحبها –رضي الله عنه– من تعاليم الكتاب والسنة بأسلوب موجز بديع، فأصبحت في جمل هي منتهى البلاغة والفصاحة، مع دقة العبارة، وحلاوة الإشارة، وحسن المدخل، ولطف المأخذ، وقد تلقفها الشارحون والقرآء قديما وحديثا في كتب كبيرة وصغيرة، ونقلها كثيرون استشهادا، وعُني بها الناس في جميع بلاد الإسلام، وكانت كل حكمة منها موضوعا لخطب عديدة لكثير من البلغاء النابهين والخطباء الماهرين، ولا زالت هذه الحكم مثل الجواهر البديعة الخالدة، كلٌّ يأتي فيصف جانبا منها، فهناك من يأخذه بريقها ولمعانها، ومنهم من يخلب لبّه لونها وجمالها، وهناك من يطير سرورا بجوهرها ومعدنها، وهناك من يأسره ندرتها ونفاستها، ولا زال لكلٍّ مشربه، ولكلٍّ محبوه.

وهذا شرح جديد مسهب مبسط في آن واحد لشيخنا وأستاذنا الأستاذ الدكتور/ **حسين عبدالمجيد حسين أبو العلا**، وهو إحدى بركات الساحة الحسينية، حفظ الله صاحبها ومؤسسها أستاذنا وشيخنا، ومتعه بموفور الصحة والعافية.

ولم يكن شيخنا يقصد من الشرح الكتابة، بل هي فيوضات ودروس ألقاها على محبيه بعد إلحاح عليه في مناسبات مختلفة، فقد طولب بشرحها كثيرا، ورغب إليه في ذلك كل محب، وطلبها منه كل متشوق، وهفت نفسه إليها كل مريد، وكم طلبتُ منه أن

يشرحها شرحا كاملا، فكان ينتقي بعضها ويشرحها في دروس رمضان من كل عام، فكان ذلك الشرح يلهب روح وحماس محبيه، ويستزيدونه أن يكمل، ولكنه كان يقول: لكل شيءٍ أوان وإذن، فإن أذن الله بالشرح شُرحت.

ولما تأسست ساحة الإمام الحسين ﷺ المباركة في منطقة المعلمين الجديدة بأسيوط ازدادت الرغبة، وشرح الله صدر شيخنا لتناول هذه الحكم بدروس بليغة موجزة بعد عصر كل جمعة إلى مغربها، ثم من بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر، إضافة إلى شرح بعضها في دروس رمضان من بعد صلاة العصر، ولم يكن يقصد منها الكتابة كما ذكرت، ولكن تلاميذه ومحبيه تمنوا أن لو كتبت فحفظت لهم بدلا من أن تتسرب من ذاكرتهم، ويبقى أثرها دون عبارتها، وودوا لو حفظت للأجيال التالية، خاصة وأن شرح بعض هذه الحكم كانت تفوت عددا منهم لبعد المكان، أو لشواغل الحياة، فكان تلامذته ومريدوه يتفاخرون على بعضهم بما سمعوا من جمال شرحها، ويزهو من سمعها على من لم يسمعها، وودّ من لم يسمعها أن لو فقد أي شيء في سبيل سماعها، وقد قام بعض الفضلاء بتسجيل كثير من شروحها، ولكنها لم تكن كافية، لأن بعض هذه التسجيلات قد يُفقد أو يضيع من الهواتف التي سُجلت بها، أو يكون التسجيل غير واضح، فرغبت إليه أن أجمع هذه الشروح، وأن أقوم بتفريغ هذه الدروس بأسلوب يتفق وطريقة الكتابة، لأن الإلقاء غالبا ما يكون له طبيعته، وقد تتخلله بعض الأسئلة والاستفسارات مما يقطع تواصل الحديث، فأذن شيخنا بذلك، فكان هذا الكتاب الذي أدعو الله تعالى أن يوفق إليه، وأن ينفع به، وأن يكون صيبا نافعا يبل الغلة إن لم ينقعها، وأن يكون ذخرا وصدقة جارية لأستاذنا وشيخنا الحبيب، أكرمه الله في الدنيا والآخرة، وأكرم ذريته إلى يوم الدين.

وهذا الكتاب بما حواه من علم هو من شرح شيخنا، ولا دخل لي فيه إلا الصياغة بأسلوب يتفق وطريقة الكتابة لا الإلقاء، فأنا كجامع ماء المطر قد ألقى بإنائه ليجمع فيه فيشرب، ويحفظ الماء لغيره ليشرب وينتفع، فقد ألقيت سمعي، وحرصت على

حضور هذه الدروس، وحاولت طاقتي فهم ما فيها ونقلها إلى طريق الكتابة بدلا من الشرح، فليس لي فيها أي فضل، وليس لعقلي ولا قلمي فيها أي عمل، وإن كان لي من شيء أفرح به وأفخر، وأسر به وأجهر، فهو أني سعدت بسماعها من شيخنا وأستاذنا أمد الله في عمره، ومتعنا به، ومتعه بالصحة والعافية، ومتعه بسمعه وبصره وصحته، وجعلها الوارث منه، ونفع بعلمه، وأسعدُ بأنه أذن لي بجمعها وصياغتها في هذا الكتاب.

وحرصا مني على أن تكون الشروح كما أُلقيت، وألا تكون الصياغة قد غيرت منها فقد عرضتها بعد الانتهاء من صياغتها على أستاذنا وشيخنا، واستمعت منه إلى ملاحظاته حولها، وصوبتها كما كان يريد، إبعادا لما قد أكون فهمته خطأ، أو سمعته على غير مراده، أو فعل النسيان والسهو فيها فعلا، وذلك حتى تصل لقارئ الكتاب كما شرحها وأرادها حفظه الله.

وإن كان من كلمة لي في مقدمة هذه الشروح فالحق أني سعيد كل السعادة بهذا الكتاب، فأنا منذ صغري محب للحكم العطائية، متيّم بكل ما جاء فيها، متتبع لما كتب عنها، وعلى كثرة ما قرأت وسمعت عن هذه الحكم كان كلام أستاذنا وشيخنا له طعم خاص، ومذاق مختلف، فهو شرح فيه صدر إيمانٍ يجيش وروحٍ تتوثب، وهو حين يتكلم عنها يتدفق كالبحر، وتعذب كلماته كالنهر، وتتوالى عباراته كأنها سلاسل الذهب، ويغمض عينيه أحيانا لكأنما يتلقى شرحها من ابن عطاء الله، أو أنه يراه أمامه وهو يشرح حكمه، أو أنه يتلقى إلهاما من الخالق جل وعلا، فهو لا يُعد للشرح، ولا يقول إلا ما يجري به لسانه دون تحضير مسبق، ولذا كان كثيرا ما يستعين بالمعنى في بعض النقولات، ورجعت إلى الأصل لنقلها ضبطا لها.

ومما كان مبعثا للغرابة والتعجب عندي –ولعلها من بركات ابن عطاء الله وبركات أستاذنا بارك الله لنا فيه– أنه قد يكون مريضا مجهدا، أو عائدا من سفر متعبا، أو يعاني من أرق أو ألم، أو غير ذلك من عوارض الحياة، ولكنه حين يبدأ الحديث عنها يتلون وجهه، وتتبسط أساريره، وتتبعث الأنوار من محياه، ويعلو صوته،

ويتدفق كالسيل النافع، يجرف بروحه ما علق بنفوسنا من الغثَّ، ويزرِع فينا السمين، وإذا سألته عن سر ذلك قال: والله لا أدري، فأنا حين أتكلم عن الله عز وجل أو عن حبيبه ﷺ أشعر كأن روحا أمدتني، أو نورا قذفه الله في قلبي، وأود أن أُسمِع صوتي للإنس والجن، وأن يعم نور الله وفضله العالمين، فالناس لا يعرفون الله تعالى، أفلا نكون أدلاء عليه؟.

وأستاذنا حريص على تعريف الناس بالله في كل أوقاته، وما أجمل سؤاله الذي سأله لطلابه يوما حين قال لهم: ما الفرق بين اليتيم الحقيقي واليتيم المجازي؟، وتفرقت إجابات الطلاب بين يتم الأب أو الأم أو الاثنين معا، ولكنه كان يود لفت أنظارهم إلى ما هو أهم، فقال لهم: اليتيم في عرف الشرع والناس من فقد أباه، ولكنه يتيم مجازي، أما اليتيم الحقيقي فهو من فقد معرفته بالله تعالى، وكان ينظر لأعلى، وتغرورق عيناه بالدموع أمامي، وهو يقول مخاطبا الله عز وجل: وعزتك وجلالك من لا يعرفك حزين، حزين، حزين، ويظل يكررها، ثم يقول: ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك، والله من بَعُد عنك محروووووم.

لقد عرفت في أستاذنا –حفظه الله– الإخلاص والتجرد، وحب الخير والمنفعة، وقد تتلمذت عليه وصحبته حلا وترحالا سنين طويلة، فما رأيته اشترك في ضرر، أو حرّض على بغضاء، أو نال من إنسان بغيبة، وما رأيت منه حرصا على دنيا، أو رغبة في منصب أو جاه، بل هو حيي متواضع، يؤثر الغير على نفسه، ويعزف عن مباهج الدنيا وزينتها، وقد أراد الله أن يجعل الدنيا جاثمة تحت قدميه، فهو يلقى من التحية والتكريم والتجلة والاحترام في كل مكان ما لا يحصل على جزء منه كل حريص، وجاءته الدنيا بزخرفها تحت قدميه، وفتح الله –عز وجل– عليه أبواب الرزق، فما غيّرته الدنيا، ولا نالت منه الأغراض، بل ازداد تواضعا وفتحا لباب الخير، ورأيته كثيرا يردد قائلا: لو أن الدنيا كلها سيقت إليّ لا تخرجني من صفتي الذاتية وهي الفقر، لأن

الغنى عارض والفقر ذاتي، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾[١]، والعارض لا يزيل الذاتي.

رأيته محبا لطلابه وتلاميذه ومريديه، حتى إنه نفعهم بأشياء مادية كثيرة، وكان مشيرا عليهم بآراء كانت سببا لتوفيقهم ورزق الله تعالى لهم، وحين فتح الله له باب الرزق لم ينس العلم وأهله، فساعد الكثيرين من الفقراء ومن طلاب العلم، وأنفق على مئات ممن اضطرتهم الحاجة، وخصص من ماله أوقافا كنت شاهدا عليها، وبنى الساحة المباركة (ساحة الإمام الحسين ﷺ) رغم أنه أسس غيرها في شارع رياض سابقا ولا زالت موجودة، ولكن حين وسع الله عليه وسع هو على غيره، وجعل مما رزقه الله نصيبا للعلم وللفقراء، وليس هنا مجال إطرائه أو مدحه، فنحن نقول نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله تعالى، وقد كتبت كتابا خاصا عن حياته ونشأته، وهو جهد المقل، وأدعو الله أن يرى النور قريبا.

ولن أطيل على القارئ بتلك المداخل والمقدمات، وإنما أردت فقط أن يعرف أصل الكتاب، وكيف كان، وأن يعذرني إن زل قلمي في النقل والتعبير، أو خانني عقلي في الفهم والتفكير، فنحن بشر، ولكل منا خطؤه وصوابه، وأدعو الله تعالى في علاه أن يبارك في عمر أستاذنا، وأن يجعله ممن طال عمره وحسن عمله، وأن يتقبل منه ومنا صالح الأعمال، وأن ننتفع بعلمه وإخلاصه، فهو –ويعلم الله بصدق قولي– مدرسة حياة قلّ أن يجود الزمان بمثلها، فاللهم بارك لنا ولمحبيه فيه، وبارك في علمه وعمله وصحته وأهله، واجعل ذريته مباركة إلى يوم الدين، وأن يكون هذا الشرح بداية لشروح أخرى في كتب الأئمة الهداة والعلماء المخلصين.

اللهم لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أحمدك على نعمك التي لا تعد ولا تحصى، وأحمدك على نعمة إتمام هذا الكتاب، لقد كان حلما أن أكتب ولو سطورا عن

---

(١) سورة محمد الآية ٣٨.

ابن عطاء، وأن أقرأ هذه الحكم بتؤدة، وأنعم فيها النظر، فاجتمع لي قراءتها وسماعها شرحا من أحد الأعلام العارفين والفقهاء النابهين الذين يجمعون بين فقه الباطن وفقه الظاهر، بين الحقيقة والشريعة، ممن رد إلى التصوف مكانته، ونفى عنه في هذا الشرح وفي دروسه الأخرى ما نحله الضالون، وما وهمه الواهمون، وما افتراه على التصوف وأهله مفترون، وأدعو الله أن تبقى معانيها محفورة في قلبي وعقلي، وأحمده أن جعل من نصيب قلمي أن يخط هذه الكلمات، وأدعوه كما يسر كتابته وجمعه أن يكتب له القبول، ويجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يقبله في ميزان حسنات شيخنا، وأن يكون لي معه وبرفقته نصيبا من الأجر في الجمع والترتيب، إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

ولا يسعنا في النهاية إلا أن نردد مع ابن القيم رحمه الله ما قاله في خاتمة مقدمته لطريق الهجرتين، حيث أعذر من نفسه قائلا: فجاء الكتاب غريبا في معناه، عجيبا في مغزاه، لكل قوم منه نصيب، ولكل وارد منه مشرب، وما كان فيه من حق وصواب فمن الله هو المانُّ به، فإنما التوفيق بيده، وما كان فيه من خطأ وزلل فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء.

فيا أيها القارئ له، والناظر فيه، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك، وهذا فهمه وعقله معروض عليك، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه، ولك ثمرته، وعليه عائدته، فإن عدم منك حمدا وشكرا، فلا يعدم منك مغفرة وعذرا، وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح، وقد استأثر الله بالثناء وبالحمد، وولى الملامة الرجل، والله المسئول أن يجعله لوجهه خالصا، وينفع به مؤلفه وقارئه وكاتبه في الدنيا والآخرة، إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

اللهم إن هذا شرح شيخنا، وهذا جمعنا لما شرح، لم نرد به غير وجهك، ولا نبتغي به غير الوقوف ببابك، لا نريد منه مدحا، ولا نرجو من ورائه ثناء ولا فضلا، فاقبله اللهم بفضلك، واكلؤه بعنايتك ورعايتك، واجعله صيبا نافعا لكل من يبغي من ورائه

نفعا، اللهم اجعل منه هداية لنفوس حيرى، وفتحا لقلوب مقفلة، وثباتا لعقول تائهة، وردا لأناس شردوا في الحياة فأضاعتهم، اللهم اجعله لنا درعا ووقاية من عذابك، واجعل لنا منه وزنا ونفعا يوم لا ينفع مال ولا بنون، اللهم منا الدعاء ومنك الإجابة، وأنت أرحم الراحمين، اللهم آمين، آمين، آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله أولا وآخرا.

تلميذ الشيخ

أ.د/ **محمود صديق رشوان**

أسيوط في ٢٠٢٢/٤/١٢م

## العارف بالله ابن عطاء الله السكندري

## نبذة مختصرة[(١)]

هو العارف بالله أبو الفضل تاج الدّين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن عيسى بن الحسيني بن عطاء الله الإسكندري المالكي الشّاذلي، صحب الشيخ أبا العبّاس المرسي صاحب الشّاذلي، وصنّف مناقبه ومناقب شيخه.

وكان ابن عطاء الله المتكلّم على لسان الصّوفية في زمانه، قال الذهبي: كانت له جلالة عجيبة، ووقع في النّفوس، ومشاركة في الفضائل، وكان يتكلّم بالجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروح النّفوس، ومزج كلام القوم بآثار السّلف وفنون العلم، فكثر أتباعه، وكانت عليه سيما الخير، ويقال: إن ثلاثة قصدوا مجلسه، فقال أحدهم: لو سلمت من العائلة لتجرّدت. وقال الآخر: أنا أصلي وأصوم ولا أجد من الصّلاح ذرّة. وقال الثالث: أنا صلاتي ما ترضيني فكيف ترضي ربّي؟. فلما حضروا مجلسه، قال في أثناء كلامه: ومن الناس من يقول فأعاد كلامهم بعينه، فكان مثارا للعجب.

يقول العلماء في ترجمته: كان فقيها، عالما، ينكر على الصّوفية، ثم جذبته العناية، فصحب شيخ الشيوخ المرسي، وفتح عليه على يديه، وله عدّة تصانيف، منها "الحكم" وكلّها مشتملة على أسرار ومعارف، وحكم ولطائف، نثرا ونظما، وله كتاب قيم رائع فريد في بابه، وهو كتاب التنوير في إسقاط التدبير، وله كذلك لطائف المنن، وقد حققه شيخ الأزهر الراحل الدكتور عبدالحليم محمود رحمه الله، وله تاج العروس، ومفتاح الفلاح، والقول المجرد في الاسم المفرد.

وكان ابن عطاء الله –رحمه الله– أعجوبة زمانه في التصوف، أخذ العهد على

---

(١) اعتمدنا في إعداد هذه النبذة المختصرة على ما جاء في: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٣٦/٨، وما بعدها، الوافي بالوفيات للصفدي ٥٢/٢٠ وما بعدها، طبقات الأولياء لابن الملقن ٤٢١/١، الدرر الكامنة لابن حجر ٣٢٤/١.

الإمام الأكبر أبي العباس المرسي، وقد بين كيفية معرفته به في كتابه لطائف المنن، ولازمه وكانت بينهم أمور توضح شيئا من صلتهما، وقد كان في بدايته راغبا في ترك الأسباب والتجريد، ولكن الشيخ المرسي تلطف به حتى أفهمه، وكان جد ابن عطاء الله من الفقهاء الشديدين على الصوفية، فقال عنه المرسي يوما: صبرنا على جده الفقيه من أجل هذا الفقيه، يقصد ابن عطاء.

يقول الشيخ عبدالحليم محمود: وقد قدّر أبو العباس المرسي تلميذه النابه، وتبنى قيادته إلى المكانة الجدير بها، ثم كان رد التلميذ لأستاذه، فقد كان لابن عطاء الله الفضل الكبير في بيان كثير مما يعرفه الناس الآن من آثار أبي العباس المرسي، والكثير مما يعرفه الناس من آثار شيخهما أبي الحسن الشاذلي.

كما كان ابن عطاء محبا لكتب معينة يلقيها على تلاميذه ومحبيه، ومنها كتاب الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله "إحياء علوم الدين"، الذي قال عنه العلماء: كاد الإحياء أن يكون قرآنا.

وقد جند ابن عطاء الله قلمه السيال المتدفق في الدعوة إلى طريق الله عز وجل، وحشد الناس إليه زرافات ووحدانا، فقد شهد بعلمه وفضله العامة والخاصة، وتلقف الناس كتبه وآثاره بالحب والتقدير، ولاقت كلها قبولا عجيبا تدل على إخلاص صاحبها ونفسه الطيبة، ويعد كتاب الحكم من أشهرها، فقد كانت زبدة وخلاصة لما ورد في الإسلام، وهو منهج مختصر منير لمن يريد أن يعرف الإسلام، ويضع الضوابط لنفسه، ويكفي فيه قول الإمام الشيخ محمد عبده: كاد كتاب الحكم أن يكون قرآنا.

فقد كانت الحكم في هذا الكتاب جواهر ولآلئ نفيسة قلما يجود عدد منها لعشرات من العلماء فكيف بعالم يترك هذه الجواهر الخالدة في كتاب واحد؟.

وما كان طريق الوصول من ابن عطاء إلى هذه القمة من السمو الروحي والكمال النفسي طريقا مفروشا بالورد، ولا كانت دروبه سهلة ميسورة، بل واصل الليل بالنهار في العبادة وتلقي العلم، وكان له ثمنه الباهظ من مجاهدة النفس بقيام الليل، وصيام النهار، وطلب مرضاة الله تعالى في كل لمحة ونفس.

بل إن مناجاة الرجل لربه والتي أثبتها في كتبه تشهد بهذه النفس الرائعة التي فنيت في الله تعالى، فلا ترى في نفسها غير فضله سبحانه، وانظر إليه وهو يخاطب الله متضرعا مفتقرا قائلا:

إلهي: أنا الفقيرُ في غنايَ، فكيف لا أكونُ فقيراً في فقري؟

إلهي: أنا الجاهلُ في علمي، فكيف لا أكونُ جاهلاً جهولاً في جهلي؟

إلهي: إنَّ اختلافَ تَدْبِيركَ، وسرعةَ حلولِ مقاديركَ، مَنَعَا عبادَكَ العارفينَ بِكَ مِنَ السُّكونِ إلى عطاءٍ، واليأسِ منك في بلاءٍ.

إلهي: مني ما يليقُ بِلُؤْمي، ومنك ما يليقُ بكرمِكَ.

إلهي: وَصَفْتَ نفسَكَ باللُّطفِ والرَّأفةِ بي قبل وجودِ ضَعْفِي، أَفَتَمْنَعُنِي منهما بعدَ وجودِ ضَعْفِي؟

إلهي: إنْ أظهرتَ المحاسنَ مني فَبِفَضْلِكَ ولك المِنَّةُ عليَّ، وإنْ ظَهَرَتْ المَساوِىءُ مني فَبِعَدْلِكَ ولكَ الحجةُ عليَّ.

إلهي: كيف تَكِلُني إلى غيرك وقد تَكَفَّلْتَ لي؟ وكيف أُضامُ وأنت الناصرَ لي؟ أم كيف أَخِيْبُ وأنت الحَفِيُّ بي؟ ها أنا أَتَوَسَّلُ بِفَقْرِي إليك، وكيف أَتَوَسَّلُ إليك بما هو مُحَالٌ أنْ يَصِلَ إليك؟ أمْ كيف أَشْكُو إليك حالي وهو لا يَخْفَى عليك؟ أم كيف أُتَرْجِمُ إليك بمقالي وهو منك بَرَزَ؟ أم كيف تَخِيْبُ آمالي وهي وَفَدَتْ عليك؟ أم كيف لا تَحْسُنُ أحوالي وبك قامتْ وإليك؟

إلهي: ما أَلطَفَكَ بي مع عظيمِ جهلي، وما أَرْحَمَكَ بي مع قبيحِ فعلي.

إلهي: ما أَقْرَبَكَ مني وما أَبْعَدَني عنك، وما أَرْأَفَكَ بي، فما الذي يَحْجُبُنِي عنك؟.

إلهي: قد علمتُ باختلافِ الآثار وتَنَقُّلاتِ الأطوارِ أنَّ مُرادَكَ مني أنْ تَتَعَرَّفَ إليَّ في كلِّ شيءٍ حتى لا أَجْهَلَكَ في شيء.

إلهي: كُلَّما أَخْرَسَني لُؤْمي أَنْطَقَنِي كرمُكَ، وكلما أَيْأَسَتْنِي أَوصافي أَطْمَعَتْنِي مِنَنُكَ.

إلهي: من كانت محاسِنُهُ مساوئ فكيف لا تكون مساويه مساوئ؟ ومن كانت

حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى؟.

إلهي: حُكْمُكَ النافذُ ومشيئتُكَ القاهرةُ لم يترُكَا لذي حالٍ حالاً ولا لذي مقالٍ مقالاً.

إلهي: كم من طاعةٍ بَنَيْتُها وحالةٍ شيَّدْتُها هَدَمَ اعتمادي عليها عدلُك، بل أقالني منها فضلُك.

إلهي: إنَّكَ تعلم وإنْ لم تَدُم الطاعةُ مني فعلاً جازماً، فقد دامت محبةً وعزماً.

إلهي: كيف أعزِمُ وأنت القاهر؟ أم كيف لا أعزِمُ وأنت الآمر؟

إلهي: ترددي في الآثار يوجبُ بُعْدَ المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك.

إلهي: كيف يُسْتَدَلُّ عليك بما هو في وجوده مُفْتَقِرٌ إليك؟ أيكونُ لغيركَ من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو الْمُظْهِرَ لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بَعُدت حتى تكون الآثارُ هي التي تُوصل إليك؟

إلهي: عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقةُ عبدٍ لم تجعلْ من حُبِكَ نصيباً.

إلهي: أمرتَ بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار، حتى أرجع إليك منها كما دخلت عليك منها مصون السِّر عن النظر إليها، مرفوع الهمَّة عن الاعتماد عليها، إنَّك على كل شيء قدير.

إلهي: هذا ذلي ظاهرٌ بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدلُ عليك، لا بغيرك، فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلهي: علمني من علمك المخزون، وصِنّي بسر اسمك المصون.

إلهي: حققني بحقائق أهل القُرب، واسلك بي مسَالِكَ أهل الجذب.

إلهي: أغنني بتدبيركَ عن تدبيري، وباختياركَ عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري.

إلهي: أخرجني من ذُّلِ نفسي، وطهرني من شَكِي وشِرْكِي، قبلَ حلول رمسي.

إلهي: تقدَّسَ رضاكَ أن تكونَ لهُ عِلَّةٌ منك، فكيف تكون له علة مني.

إلهي: إنَّ القضاءَ والقدرَ قدْ غلبني، وإنَّ الهوى بِوَثائِقِ الشَّهوةِ أَسَرَني، فَكُنْ أنت الناصر لي، حتى تنصُرَني، وتنصُرَ بي، وأغنني بفضلكَ حتى أَسْتَغني بِكَ عن طَلَبي، أنت الذي أَشْرَقْتَ الأنوارَ في قلوبِ أوليائِكَ، وأنت الذي أَزَلْتَ الأغيارَ من قلوبِ أحبائك، وأنت المؤنس لهم حيث أَوْحَشَتْهُمُ العوالِم، أنت الذي هَدَيْتَهُم حتى اسْتَبَانَتْ لهم المعالم، ماذا وَجَد من فَقَدَكَ؟ وما الذي فَقَدَ من وَجَدَكَ؟ لقد خابَ من رضِيَ دونَكَ بدلاً، ولقد خَسِرَ من بَغَى عنكَ مُتَحَوَّلاً، كيف يُرجَى سِواكَ وأنت ما قطعتَ الإحسان؟ أم كيف يُطْلَبُ من غَيرِكَ وأنت ما بَدَّلْتَ عادةَ الامتنان؟ يا من أذاق أحبابَهُ حلاوةَ مُؤانَسَتِهِ فقاموا بين يديه مُتَمَلِّقِينَ، يا من أَلْبَسَ أَولياءَهُ ملابِسَ هيبتِهِ فقاموا بعزَّتِهِ مستَعِزِّين، أنت الذاكرُ من قبلِ الذاكرين، وأنت البادئُ بالإحسانِ من قبلِ تَوَجُهِ العابدين، وأنت الجَوادُ بالعطاءِ من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب، ثم أنت لَمَّا وَهَبْتَنَا مِنَ المسْتَقْرِضين.

إلهي: اطْلُبْنِي برحمتكَ حتى أَصِلَ إليك، واجذِبني بمنتِكَ حتى أُقبِلَ عليك.

إلهي: إنَّ رجائي لا ينقطعُ عنكَ وإنْ عَصيتُك، وإنَّ خوفي لا يُزَايِلُني وإنْ أطعتُك، قد دفَعَتْني العوالم إليك، وقد أوقفني علمي بكرمكَ عليك.

إلهي: كيف أَخيبُ وأنت أملي؟ أم كيف أُهانُ وعليكَ مُتَّكَلي؟

إلهي: كيف أَستعِزُّ وفي الذِّلةِ أركزتني؟ أم كيف لا أستَعِزُّ وإليكَ نَسَبْتَني؟

إلهي: كيف لا أفتقرُ إليكَ وأنت الذي في الفقر أَقمتني؟ أم كيف أَفتقرُ إلى غيرِكَ وأنت الذي بجودِكَ أَغنيتني؟ أنت الذي لا إله غيرُكَ، تَعَرَّفتَ لكل شيء، فما جَهِلَكَ شيء، وأنت الذي تعرَّفتَ إليَّ في كل شيء، فرأيتُكَ ظاهِراً في كل شيء، فأنت الظاهرُ لكل شيء، يا من استوى برحمانيتِهِ على عرشه، فصارَ العرشُ غيباً في رحمانيتِهِ، كما صارت العوالم غيباً في عرشِهِ، مَحَقْتَ الآثارَ بالآثارِ، ومَحوتَ الأغيارَ بمُحيْطاتِ أفلاكِ الأنوار، يا من احتجبَ في سُرَادِقاتِ عِزِّهِ عن أن تُدْرِكُهُ الأبصار، يا من تجلَّى بكمالِ بَهائِهِ فتحققَتْ عظمَتَهُ الأسرارُ، كيف تَخْفَى وأنت الظاهِرُ؟ أم كيف تَغيبُ وأنت الرقيبُ الحاضِرُ؟

إلهي: ما أعطفك بي مع عظيم جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي، وما أقربك

مني وما أبعدني عنك.

إن هذه المناجاة التي تصيب الإنسان بالرعشة والدوار، وتنهمر من معانيها الدموع، وتهفو إلى سماعها القلوب، وتوجل منها النفوس، وتجعل الجسد فانيا في الروح، لتدل بلسان الحال والمقال على تلك النفس الرائعة، وذلك الجوهر النادر، والمعدن النفيس، ويدل على تلك الروح التي ذابت في محبة خالقها جل وعلا.

وبعد حياة حافلة بالعلم والعمل، ونقل العلم لآلاف المحبين والمريدين والتلاميذ توفي ابن عطاء الله -رحمه الله تعالى- بمصر في منتصف جمادى الآخرة سنة ٧٠٩هـ، ودفن بالقرافة بالقاهرة، وكانت جنازته مشهودة، وقبره بها معروف، وقد نشأ بجواره مسجد جميل البنية، واسع التهوية، له سحر خلاب، وجلال ومهابة، لامتلائه بالأنوار والأسرار، ودفن بجواره إمام الحنفية في عصره كمال الدين بن الهمام الحنفي، صاحب شرح فتح القدير، وقد كان لدفنه بجواره قصة كتبت في مسجد ابن عطاء الله نقلا عن رواية العلماء لها، فقد كان الكمال بن الهمام جالسا يوما بجوار قبره ويقرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[(١)]، فسمع صوتا من القبر يقول له: يا كمال، ليس فينا شقي، فكاد يغمى عليه، وقال: ادفنوني تحت قدميه، فدفنوه كذلك.

رحم الله ابن عطاء رحمة واسعة، ونفعنا بما ترك من كتب وحكم تشرح وستظل زادا لكل شارح، وعونا لكل متكلم بليغ، وموضعا لكل خطيب مفوه، ومتاعا لكل متنعم، وثمارا طيبة لكل آكل، وأعظم الله أجر من شرحها سابقا، وأعظم أجر شارحها في هذا الكتاب شيخنا الأستاذ الدكتور/ **حسين عبدالمجيد حسين أبو العلا**، وبارك في عمره وعمله وعلمه، ونفعنا به، وجعل هذا الشرح في موازين حسناته.

---

(١) سورة هود الآية ١٠٥.

## **العارف بالله**: **أ.د/ حسين عبدالمجيد حسين أبو العلا**

## **نبذة مختصرة**(١)

كما ترجمنا لسيدي ابن عطاء الله في الصفحات السابقة ترجمة مختصرة، فإن من حق أستاذنا وشيخنا الأستاذ الدكتور/ **حسين عبدالمجيد حسين أبو العلا**، شارح الكتاب أن نعرف القارئ به، وإن كان في غنى عن هذا التعريف لشهرته التي طارت في الآفاق، وتلاميذه المنتشرين في بقاع الأرض المختلفة، يحملون سيرته العطرة أينما حلوا وارتحلوا، كما أني أعد كتابا وافيا عن سيرته حفظه الله ورعاه، وأدعو الله أن يرى النور قريبا بإذن الله تعالى.

* ولد شيخنا في قرية الفيما مركز الفتح بمحافظة أسيوط في يوم الخميس ١٨ جمادى الأولى ١٣٧١هـ، الموافق ١٩٥٢/٢/١٤م.

* نشأ في بيت علم ونسب وشرف، فهو شريف من عائلة الأشراف، وينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما، وكان والداه من المعروفين بمحبة الخير والإنفاق على الفقراء والمساكين وطلبة العلم وخاصة أهل القرآن، حتى إن والده أنفق جل ماله على كل هؤلاء، وبذل النفيس من ماله ووقته وجهده لتعليم أبنائه، وكان يتمنى أن يرى أحد أبنائه من علماء الأزهر الشريف، ليدرس ويعلّم الحقيقة والشريعة، ولكن وافته المنية –رحمه الله– وقد جاوز الخمسين من عمره بقليل، وكان شيخنا وقتها في السنة الأولى الإعدادية.

* رغم صعوبة الحياة بعد وفاة والده –رحمه الله– إلا أنه تدرج في التعليم حتى حصل على الثانوية العامة، والتحق بكلية التربية بالقاهرة، ثم جاءته الفرصة لينتقل إلى التعليم الأزهري طالبا في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة.

---

(١) اعتمدنا في إعداد هذه النبذة المختصرة على السيرة المختصرة المنشورة لشيخنا والمعروفة في الوثائق الرسمية لكلية الشريعة والقانون بأسيوط، إضافة إلى بعض المعلومات المستقاة من الجلسات معه حفظه الله ورعاه.

* حصل على ليسانس الدراسات الإسلامية والعربية بتقدير جيدا جدا مع مرتبة الشرف، وعين معيد بالكلية في قسم الفقه المقارن.

* تتلمذ خلال دراسته بالكلية على أعلام التصوف في العصر الحديث، ومنهم الشيخ الدكتور عبدالحليم محمود شيخ الجامع الأزهر سابقا، ودرس علوم الحديث والتفسير والعروض والأدب على نخبة من الأساتذة الكبار، منهم الدكتور عبدالله المشد، والدكتور محمد القناوي والدكتور الفضالي والدكتور درويش وغيرهم من أعلام العصر في فنونهم العلمية المختلفة.

* كان يميل قليلا إلى ناحية التشدد في الأقوال والأفعال إلى أن التقى زميله ورفيق دربه الأستاذ الدكتور علاء دعبس، فلازمه فيقرآن معا، لكون رفيقه كفيف البصر، وكان له أثر في نفسه، وذكر أنه استفاد منه في الفقه وعلومه، وكان سببا في لقائه بشيخه في التصوف الشيخ كامل عبدالودود، وكان رجلا دينا ورعا ملما بكثير من علوم الحديث والتفسير والتصوف، وكان شيخا للطريقة الأحمدية السلامية، وهي طريقة سيدي أحمد البدوي، فأخذ عليه شيخنا العهد خلال عام واحد، بل وذهب الشيخ كامل إلى بلد أستاذنا وأعطاه الخلافة أمام جمع غفير من الناس في يوم مشهود، ثم انشغل بعد ذلك في تحصيل دراساته الفقهية التخصصية.

* حصل على الماجستير في الفقه المقارن بتقدير ممتاز من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر، في رسالة عنوانها: ابن حجر الهيتمي وأثره في الفقه الإسلامي.

* حصل على الدكتوراه في الفقه المقارن بتقدير مرتبة الشرف الأولى من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر، في رسالة عنوانها: العيب وأثره في العقود اللازمة، دراسة فقهية مقارنة.

* رقي إلى درجة أستاذ مساعد، ثم درجة أستاذ في الفقه المقارن عام ١٩٩٨م.

* عمل رئيسا لقسم الفقه المقارن، ووكيلا لكلية الشريعة والقانون بأسيوط.

* عين عضوا باللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة أكثر من مرة، ولا يزال

محكما لبحوث الترقيات فيها.

* محكم لبحوث الترقية وللبحوث في مجلات عديدة داخل مصر وخارجها.

* قام بالتدريس في عدد كبير من الهيئات العلمية، منها:

- كلية الشريعة والقانون بأسيوط، مقر عمله، حيث درس فيها كل مقررات الفقه المقارن والقضايا الفقهية المعاصرة وتاريخ التشريع.

- التدريس في كلية الحقوق جامعة أسيوط، في مرحلة الدارسات العليا.

- التدريس في كلية دار العلوم بجامعة المنيا، مرحلة الدراسات العليا.

- تدريس التأهيل التربوي للمدرسين لمدة أربع سنوات.

- التدريس في كلية البنات الإسلامية بأسيوط.

- التدريس في كلية الدراسات الإسلامية بسوهاج.

- التدريس في كلية الدراسات الإسلامية بقنا.

- التدريس في معهد إعداد الدعاة بأسيوط.

- التدريس في معهد إعداد الدعاة بسوهاج.

- التدريس في معهد إعداد الدعاة بقنا.

- التدريس في كلية الدراسات العليا بالقاهرة.

* أعير إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة أم القرى بمكة المكرمة لمدة ست سنوات من عام ١٩٩٢م إلى عام ١٩٩٨م، أستاذا في مرحلة الدراسات العليا، ومشرفا ومناقشا للعديد من رسائل الماجستير والدكتوراه هناك.

* له العديد من البحوث والكتب العلمية في الفقه والتصوف، منها:

١- ابن حجر الهيتمي وأثره في الفقه الإسلامي.

٢- العيب وأثره في العقود اللازمة.

٣- فقه الطلاق في الشريعة الإسلامية.

٤- اللقطة وأحكامها.

٥- الوصية الواجبة وأحكامها.

٦- حكم صلاة الجماعة وتكرارها.

٧- الشبهات المسقطة لحد السرقة.

٨- بعض الأحكام التي تتعلق بالنجاسات.

٩- مختارات من مسائل المعاملات.

١٠- القربات، إهداؤها إلى الموتى والاستئجار عليها.

١١- فقه الربا وأهم شبه القائلين بحل بعض صوره.

١٢- فقه الصيام، بطريقة سؤال وجواب.

١٣- أحكام الحج والعمرة، بطريقة سؤال وجواب.

١٤- أحكام الطهارة، بطريقة سؤال وجواب.

١٥- حكم الجناية على الجنين.

١٦- شركة المضاربة في الشريعة الإسلامية.

١٧- الرضاع المحرم وبنوك اللبن.

١٨- أحكام الحوالة في الفقه الإسلامي.

١٩- هداية الأنام في معرفة أسباب اختلاف الصحابة والفقهاء في الأحكام، بالاشتراك مع الدكتور علاء دعبس.

٢٠- الحصن الحصين من أعداء المسلمين.

٢١- لطائف الحنان المنان في معرفة ماهية الإنسان.

٢٢- دليل الحيران إلى بر الأمان.

٢٣- الدروس الحسينية شرح الحكم العطائية.

٢٤- مراقي السالكين شرح منازل السائرين. (تحت الطبع)

٢٥- سلسلة مفاهيم حول التصوف (صدر منها ١٥ كتابا). (تحت الطبع)

٢٦- راجع سلسلة اختصار الفقه الإسلامي. (تحت الطبع)

* أشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وناقش العديد من منها في

جامعات مصر المختلفة، ويزيد ما أشرف عليه وناقشه على (٣٠٠) رسالة ماجستير ودكتوراه.

* اتبع منهج الطرق الصوفية الصحيح منذ كان طالبا في الثانوية، وتابع العمل فيه حتى الآن.

* عالج مئات الحالات من المس والسحر والحسد، وله في ذلك قصص تروى جعلها الله في ميزان حسناته.

* ألقى مئات المحاضرات اليومية في الفقه والتصوف في مسجده العامر في شارع رياض، ثم في مسجد المؤسسة بالمعلمين الجديدة، وفي مساجد وندوات مختلفة في أماكن متعددة.

* له حضرة ولقاء دوري يوم الجمعة من كل أسبوع عقب صلاة الجمعة.

* أسس مسجدا في برج الرياض بشارع رياض في أسيوط كانت تقام فيه الحضرة الأسبوعية، ويعالج فيه المرضى بالمس والسحر، واستمر منذ عام ٢٠٠١م، ولا تزال الصلاة تقام به، ولا يزال موجودا حتى الآن.

* أسس ساحة الحسين الخيرية متبرعا بأرضها التي بلغت ٣٦٠ مترا مربعا، أقيم بها مسجد من طابقين على مساحة ١٨٠ مترا، يعلوه طابق ثالث يتم تجهيزه لإنشاء عيادات طبية متخصصة، كما تبرع بمعظم تكلفته الإنشائية التي بلغت مئات الالاف من الجنيهات، إضافة إلى مبنى سكني على مساحة ١٨٠ مترا تبرع منه بعدد ١٠ شقق سكنية وقفا على المؤسسة، إضافة إلى وقفه عدد خمسة أفدنة بوادي النقرة في مدينة كوم أمبو بأسوان، لتكون وقفا على الفقراء ودعما للمؤسسة، إضافة إلى أنه يشترك بعدد وافر من الأسهم هو وأسرته كاملة كل فرد بنفسه يتبرع بعدد كبير من الأسهم[١].

---

(١) هناك كتاب كامل تحت الإعداد حاليا عن شيخنا وسيرته العلمية والعملية وحياته، لتكون دروسا لتلاميذه ومحبيه، وسوف يصدر قريبا بإذن الله تعالى، وفيه تفصيل واف عن حياة الشيخ حفظه الله ورعاه.

**منهجه في التصوف:**

لشيخنا حفظه الله منهج في التصوف يتوافق وصحيح الكتاب والسنة، وهو يؤكد فيه على الأخذ بالحقيقة والشريعة معا، ولا يصح الأخذ بأحدهما دون الآخر، وأن من أخذ بالحقيقة وترك الشريعة فقد كفر، ومن أخذ بالشريعة وأنكر الحقيقة فقد فسق، ومن أخذ بهما معا فقد نجا وفاز.

وهو يؤكد على أن منهجه في التصوف هو الافتقار إلى الله تعالى في كل شيء، وأنه لا حق لك ولا فضل لك في أي شيء، وأن الفضل كله لله، منه وإليه، وأن خير معرفة هي معرفة الله عز وجل في كل شيء.

وهو منهج يقوم على عدم التحدث بالمكاشفات والكرامات والرؤى، وأن أكبر كرامة للإنسان أن يكون عبدا لله تعالى، وأنه تراب ومن التراب يعود، وأن من زاد عليك في الأدب فقد زاد عليك في التصوف، وأن التواضع الحقيقي ألا يرى نفسه أعلى من أي أحد، وأن يترك الخلق للخالق فلا يعيب أحدا، ولا يعلو بنفسه عن أحد.

وهو منهج لا يقبل أي شخص يترك الحياة بدعوى الزهد، ولا يقبل أن تكون الحياة أكبر همّ المرء، أو أن تكون شغله الشاغل، وأن الزهد الحقيقي أن تملك الدنيا في يديك دون أن تملك عليك قلبك، الزهد الحقيقي أن تسعى في الحياة كما أمر الله، وأن تلبس وتأكل وتتنعم بنعم الله تعالى دون أن تأخذ بنفسك بعيدا عن الله تعالى، ودون أن تنسيك حقيقتك وأنك عبد لله تعالى، وأن التصوف الحقيقي قوة حياة ونشاط وعمل، ولا تكاسل ولا تخاذل ولا تواكل فيه، بل هو توكل على الله مع الأخذ بالأسباب، لأن الله تعالى أمر بها، وليس لأنها فاعلة بذاتها أو مؤدية إلى النتيجة بنفسها.

وهو منهج يقوم على الثقة بالله تعالى والتعلق به كليا، وأنه لا نافع ولا ضار إلا الله، وأن يتعلم الإنسان معنى العبودية ويقوم بحقوق الربوبية، ولا منهج له غير ذلك، فلا أهمية للظهور ولا التعلق بالدنيا ولا بالخلق، وشيخنا قد ملك متاع الدنيا بين يديه ولكن زهدتها نفسه حبا لله تعالى، وهكذا ينبغي أن يكون الصوفي الحق، فليس التصوف ثوبا مرقعا متسخا، وجسما مهملا، وكسلا عن الحياة، وعيشا على كفاح

الآخرين، بل التصوف الحق حركة حياة مع ثقة بالله تعالى وتوكل عليه، دون أن تملك الدنيا عليه نفسه، بل ما يهمه ويحزنه ابتعاده عن الله تعالى أو كسله في العبادات أو تراخيه في الطاعات، أو حزنه على مفقود مع وجوده في حضرة الله.

وشيخنا حفظه الله ما يلبث ليل نهار وفي كل الأوقات على تثبيت هذه الحقائق في نفوس مريديه حتى لا يتخبطون في الحياة، فهو يرشد إلى العمل، ويشارك في الكفاح، ويتحرك في سبيل الله شرقا وغربا، شمالا وجنوبا من أجل عمل الخير وإيصال الحقوق للغير، ودعم الفقراء والمحتاجين، وهو يسبق تلاميذه ومريديه في نشاطه وكفاحه دون كلل أو ملل، بل إن راحة جسده لا تأخذ من وقته الكثير، فهو بفضل الله وحسبما رأيته قائما صائما ذاكرا مرددا، لا يضيع وقته فيما لا ينفع، ولا يبدد ساعات عمره دونما فائدة.

وندعو الله تعالى أن يجعل ما قدم وما يقدم من علم وفهم ودفاع عن التصوف الصحيح في ميزان حسناته، فهو لا يبغي من وراء ذلك شهرة، ولا يحب من ورائها مجدا زائفا، وقد كتبنا هذه السطور بعد استئذان وإلحاح منا عليه، وهو يؤكد فيها دوما على التركيز على هدف التصوف لا على شخصه هو، فهو يرى نفسه عبدا فقيرا إلى عفو الله تعالى، ودوما يصدر أي عمل علمي بهذا اللقب الذي يفخر به، وندعو الله أن يبارك لنا فيه وفي علمه، وألا يحرمنا منه ومن فضله، وأن يزيدنا في شروح النصوص المهمة، وإماطة اللثام عن كثير من المفاهيم التي زاغت فيها قلوب، وفتنت بها نفوس، وخفيت معانيها عن كثير من الناس، فوضعوها في غير موضعها، اللهم بارك لنا فيه، ومتعه اللهم بالصحة والعافية، واجعله ممن طالت آماده واتسعت أمداده، اللهم آمين، آمين، آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## مقدمات بين يدي الشرح

قبل أن يتناول شيخنا الحكم العطائية بالشرح قدم بين يديها عدة مقدمات رآها مهمة للمريد، وينبغي عليه فهمها، لكي يكون على بينة من المعاني التي يشرحها ابن عطاء الله، وقد جعل هذه المقدمات في عدة موضوعات مترابطة باطنا ومتعلقة بالحكم العطائية، وإن بدت للبعض في ظاهرها مختلفة أو متباعدة، وسوف أبين هذه المقدمات قبل الشرح في النقاط الآتية:

**س**: **ما العوالم الثلاثة**؟.

**ج:** يقول العلماء والعارفون إن العوالم ثلاثة هي عالم الأزل، وعالم الزمن، وعالم الأبد، وليست عالما واحدا كما يتوهم البعض، وقد خص الله تعالى كل عالم منها بخصائص تختلف عن العالم الآخر:

**أولا: عالم الأزل:** ويسمى بعالم الله، وعالم الأسرار، وعالم العدم، وعالم الجبروت، وعالم الإرادة، وهذا العالم لم يخرج إلى حيز الوجود، ولم يعرفه أحد، لأنه لا يسعه وجود، ومنه انبثق عالم الزمن وهو عالم الملك، وعالم الأبد وهو عالم الملكوت، وعالم الأزل يُدرك بالوجد والكشف، من دخله عاد إلى العدم الأول، وهو عالم لم يكن فيه إلا الله عز وجل وحده، وليس معه شيء، وكان اسمه الأحد، والأحد لا يقبل معه أحد، ولا يقبل القسمة ولا التعدد، وكانت جميع المكونات من سماء وأرض وما فيهن في علم الله لم تخرج إلى حيز الوجود، لأنها لو خرجت لاحترقت، فشاءت إرادة الله عز وجل أن يخلق من يرحم المكونات حال خروجها، ويخرجها في أمن وأمان، لتظهر وتؤدي مهمتها التي خلقت من أجلها، فقبض الله عز وجل من نور الجبروت قبضة وقال لها كوني رحمة للعالمين، فمكثت بجوار الأحدية ما شاء الله لها أن تمكث من الزمان حتى تشبعت بالأنوار والأسرار والرحمة، ثم أخرج من علمه إلى حيز الوجود ميم المكونات، فأصبحت القبضة النورانية روحانية أحمدية، وصارت الأحدية أحمدية، واحتجبت الأحدية في سرادقات الكبرياء وظهرت الأحمدية، فأراد الله عز وجل إمداد

الأحمدية بما قدره للمكونات من إيجاد وهداية ورزق، وغير ذلك، فحذف الألف في أحمد لأنها قاطعة، ووضع ميم الإمداد مكانها فأصبحت محمدا، وحجبت الروحانية الأحمدية وظهرت الحقيقة المحمدية، فأصبحت الحقيقة المحمدية هي الواسطة والبرزخ بين الأحدية والواحدية، وبين البطون والظهور، وبين الذات والصفات، ومنها ظهرت المكونات، وهديت ورزقت ومدت بالأسرار والأنوار، فكانت الروحانية المحمدية رحمة للعالمين ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(١)، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾(٢)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٣)، فبها سعدت جميع المكونات، وأمدت المكونات بنعمتين اختصت بهما الأحدية، وهما نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، فكانت الروحانية المحمدية بمثابة المحول الذي يحول نور الله العالي إلى نور تتحمله المكونات فتنتفع به، نعم هذه هي الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والصراط المستقيم، ولذلك لما تجلى الله على العرش لم يتجل بالأحدية، وإنما تجلى بالرحمانية، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(٤)، فغاب العرش في رحمانيته كما صارت العوالم غيبا في عرشه، وكانت الروحانية المحمدية أول العابدين لله عز وجل، فقد سجدت لله في الأزل، وكان الله عز وجل أول المعبودين، وأخذت الروحانية المحمدية نعمة الإيجاد من الأحدية، فظهر منها جميع الأرواح، فكانت الروحانية المحمدية أبا للأرواح جميعا، كما أن آدم أب الأشباح أي الأجساد، فلولا الله ما ظهرت الروحانية المحمدية، ولولا الروحانية المحمدية ما ظهرت الأكوان، وما أمدت الأسماء والصفات بالإمدادات الإلهية، لذا يقول سيدي أبو الحسن الشاذلي في صلاته على النبي ﷺ: اللهم صل وسلم على النور الذاتي، والسر الساري في سائر الأسماء والصفات، وعن طريق الأسماء والصفات مدت المكونات بما قدره

---

(١) سورة الشورى الآية ٥٢.

(٢) سورة المائدة الآية ١٥.

(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

(٤) سورة طه الآية ٥.

الله لها في عالم الأزل، فلا قيومية إلا قيوميته، فلولاه ما قام شيء في الأرض ولا في السماء، فهو قيوم السماوات والأرض، وأنه يهدي من يشاء، وتستمر هذه المكونات تنعم بالرحمة المهداة في ظل نور الله إلى أن يأتي عالم الأبد، فتظهر الأحدية، فلا يبقى من المكونات شيء، فيقول الله عز وجل: لمن الملك اليوم فترد ذاته العلية وتقول: لله الواحد القهار، وهناك الحساب، والجنة والنار، والنعيم المقيم، والجحيم الأليم، نسأل الله العظيم أن يقينا وجميع المسلمين برحمته.

**ثانيا: عالم الزمن:** ويسمى عالم الشهادة، وعالم الملك، وعالم الأثر، وعالم الفرق، وعالم الحكمة، وعالم المباني والأواني، وعالم الأغيار والأكدار، وهو ما يدرك بالحس والوهم، وهو العالم الذي ظهرت فيه المكونات من أرض وسماء، وإنسان وحيوان، وهو العالم الذي نعيش فيه الآن، وقد اختصه الله سبحانه بظهور الإسلام على الأبدان، حيث تظهر أوامر الإسلام ونواهيه على المسلم، فترى منهم المصلي والمزكي والصائم والحاج، فأهل الملك هم أهل الحجاب، لا يرون إلا الملك لوقوفهم مع حس الكائنات، فاحتجبت عنهم أنوار الملكوت، فمن يعمل بما فرض عليه في عالم الملك، ويصدق ويعتقد بما في عالم الملكوت كان مؤمنا حقا.

**ثالثا: عالم الأبد:** ويسمى بعالم الغيب، وعالم الأنوار، وعالم القدرة، وعالم الملكوت، وعالم الأرواح، وعالم اللطيف وعالم المعاني، وهو ما يدرك بالعلم والذوق، وقد اختصه الله سبحانه بالغيبيات، كالإيمان، حيث يجب على الإنسان أن يؤمن بكل ما فيه من غيبيات أخبر عنها النبي ﷺ وأخبر عنها قبله الرسل المكرمون، كالإيمان بالقضاء والقدر، والجنة والنار، والصراط والحساب والميزان، وهو يبدأ بيوم القيامة وما بعدها، وأهل الأبد هم أهل البقاء، يرون الملكوت ويسرحون في بحار الجبروت.

هذا ما ذكره العلماء عن العوالم الثلاثة، ولكن ورد في قلبي أن الأمر على غير ذلك، وتتبعت الآيات والأحاديث التي تؤيد هذا الخاطر الوارد إلي فوجدت أن العالم

عالم واحد، ولكن جعله العلماء ثلاثة بسبب ترقي الإنسان فيه، فقد يكون في عالم المباني، ثم يترقى إلى عالم المعاني، ثم يترقى إلى عالم الجمع، وهو عالم الأسرار، لكنه هو عالم واحد، وهو عالم الأزل، وقد كان الله ولم يكن معه شيء، وقدر فيه كل شيء، فدخل الجنة فيه من سعد، ودخل النار من شقي، واختارت الأرواح فيه خياراتها، ثم اعترضت على أقدارها، فأراد الله سبحانه أن يبين لها أنها هي التي اختارت، وأنه ما كتب عليها وما قدر لها إلا ما اختارته، ثم أدخل الله هذه الأرواح في عالم الأزل لكمال علمه بأنها لا تعمل في الدنيا إلا ما اختارته في الأزل، فدخلت هذه الأرواح في الجنة أو النار، ثم خلق الله آدم عليه السلام على صورته، وجعل له ذاتا وصفات وأفعالا وتدبيرا واختيارا، وجعله ظله في الأرض، وأرسل رسله وكتبه ليقيم عليه الحجة، ويبين له أنه غير ظالم له، وذلك لكمال حكمته، فيعلم بكمال حكمة الله أن الله كان في الأزل كامل العلم حين أدخل الأرواح الجنة أو النار، فلكمال علمه في الأزل علم من يدخل الجنة ومن يدخل النار، لكن أراد الله أن يقيم حجته، فخلق آدم، وأسكنه في أرضه، ليقيم عليه كمال حكمته، فنحن ظل الله في أرضه، والدليل على أن الله عز وجل أدخل من خلقه في الأزل جنته أو ناره هذه النصوص الشرعية من الكتاب والسنة:

١- قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[(١)]، فإن الله تعالى يسجد له من في السماوات والأرض، وظلالهم، والعطف يقتضي المغايرة، فكان الأصل غير الظل الساجد، وأنه قد يكون في عالم غير الذي يعيش فيه الأول، فإذا كان الظل الأول في الجنة أو النار فالظل الثاني يقوم بما اختاره من عمل في الأزل لتقوم عليه الحجة بالجنة أو النار، وإذا كان الله تعالى قد خلق ظلين فلا يبعد عليه، ولا يعجزه أن يخلق ألف ظل في عوالم مختلفة، فهو القادر على كل شيء سبحانه.

٢- قول الله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا

---

(١) سورة الرعد الآية ١٥.

رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ * وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(١).

٣- وقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٢).

فهذه الآيات قد وردت بصيغة الماضي، أي أنها حكت واقعا موجودا لا واقعا سيوجد، وإلا لجاءت بصيغة المستقبل، والأصل إجراء الظاهر على ظاهره حتى يرد ما يصرفه، ولم يرد ما يصرفه، فإن قيل: المراد حكاية ما سيكون. قلنا: لقد وردت في القرآن الآيات التي تكلمت عن المستقبل بالنسبة لمن يعملون عقولهم فقط دون أن يكون

---

(١) سورة الأعراف الآيات من ٤٤ إلى ٥١.

(٢) سورة الحديد الآيات من ١٢ إلى ١٥.

العقل متعلقا بعالم الجبروت، فقد قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١)، وقال: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾(٢)، فدل على أن حكاية الماضي كانت لواقع بالفعل، لا لما سيقع.

٤- الأحاديث التي وصفت قصة الإسراء والمعراج، ومنها:

أ- عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لما أسري بي مررت برجال تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون)(٣).

ب- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (رأيت ليلة أسري بي، لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوق فإذا أنا برعد وبرق وصواعق، قال: فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا)(٤).

ج- عن أبي هريرة ﷺ (أن رسول الله ﷺ أتي بفرس، فجعل كل خطوة منه أقصى بصره، فسار وسار معه جبريل عليه السلام، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال: يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبع مائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر، فلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين تثاقلت رءوسهم عن الصلاة، ثم أتى على قوم على أدبارهم رقاع، وعلى أقبالهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع، والزقوم، ورضف جهنم، قلت: ما هؤلاء يا

(١) سورة فصلت الآية ٥٣.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٧.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم١٣٤٢١، المسند ١٠٤/٢١.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم٨٦٤٠، المسند ٢٨٥/١٤.

جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله، وما الله بظلام للعبيد، ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم في قدر نضيج ولحم آخر نيء خبيث، فجعلوا يأكلون الخبيث ويدعون النضيج الطيب قال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هذا الرجل من أمتك يقوم من عند امرأته حلالا، فيأتي المرأة الخبيثة، فيبيت معها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا، فتأتي الرجل الخبيث، فتبيت عنده حتى تصبح، ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يريد أن يزيد عليها، فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا الرجل من أمتك عليه أمانة الناس لا يستطيع أداءها، وهو يزيد عليها، ثم أتى على قوم تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: يا جبريل ما هؤلاء؟ قال: خطباء الفتنة، ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة فيندم عليها، فيريد أن يردها فلا يستطيع)[(١)].

فهذه الأحاديث برواياتها المختلفة تبين أن النبي ﷺ قد مر بهم، ورآهم يعذبون، وكلٌّ يعذب على عمل قام به، وجبريل عليه السلام يقول له إنهم أناس من أمتك، فكيف ذلك، ولما تكن له أمة تفعل هذا بعد؟!، إنه رآهم وشاهد عذابهم، فدل على أن هذه حقيقتهم، وما سيأتي صورهم وظلالهم.

٥- ما رواه سليمان بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لبلال: (الغداء يا بلال، فقال: إني صائم، قال رسول الله ﷺ: نأكل أرزاقنا، وفضل رزق بلال في الجنة)[(٢)]، فكيف أكل النبي ﷺ حسب قوله من فضل رزقه في الجنة، ولم يدخلها بلال بعد.

٦- ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: يا بلال،

---

(١) أخرجه البزار في الحديث رقم٩٥١٨، البحر الزخار ٥/١٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم١٧٤٩، سنن ابن ماجه ٥٥٦/١.

حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة)(١)، فكيف سمع النبي ﷺ دف نعليه في الجنة، ولما يدخلها بعد، إلا إذا كانت حقيقته فيها وصورته أو ظله على الأرض.

٧- ما رواه أنس بن مالك قال: كانت شجرة في طريق الناس تؤذي الناس، فأتاها رجل فعزلها عن طريق الناس، قال: قال النبي ﷺ: (فلقد رأيته يتقلب في ظلها في الجنة)(٢)، إن النبي ﷺ يقول رآه في الجنة بصيغة الماضي، أي شاهده، ولم يقل سيجعل الله جزاءه في الجنة، فافهم يا رعاك الله.

٨- ما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدثني الصادق المصدوق ﷺ: (إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات، فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار)(٣)، لا شك أن الحديث يبين هنا أن الرجل حسب ما عليه أصله في جنة أو نار، وهو في الدنيا ينزع إلى أصله، فلو كان أصله منعما وفي الجنة فإنه يكون في داخله الطيبة والتقوى، ومهما عمل من سيئات فربما احتقر نفسه، وحزن على هذا العمل، فكتب الله له الجنة، والآخر يكون مرائيا في عمله، فيكون كأصله من أهل النار، وإلا بغير هذا التفسير قد يقول قائل: هل يعمل طوال عمره بعمل أهل الجنة ثم يكون من أهل النار؟، وهل يعمل طوال عمره بعمل أهل النار وفي آخر عمره يكون من أهل الجنة؟، إن العقل الآدمي يقول هذا، ولكن لما كان كل

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم١١٤٩، الصحيح ٥٣/٢.

(٢) أخرجه أحمد في الحديث رقم١٢٥٧١، المسند ٣٤/٢٠.

(٣) أخرجه البخاري في الحديث رقم٣٣٣٢، الصحيح ١٣٣/٤.

واحد ظلا لأصله فإنه يعمل بما اختارته روحه في الأزل، فلابد أنه اختار السعادة، ولو أذنب كان ذلك من غير طبيعته، والآخر اختارت روحه الشقاوة، فمهما أطاع كان عمله ظاهرا لم يصل إلى قلبه.

٩- ما رواه سهل ﷺ قال: (التقى النبي ﷺ والمشركون في بعض مغازيه، فاقتتلوا، فمال كل قوم إلى عسكرهم، وفي المسلمين رجل لا يدع من المشركين شاذة ولا فاذة إلا اتبعها فضربها بسيفه، فقيل: يا رسول الله، ما أجزأ أحد ما أجزأ فلان، فقال: إنه من أهل النار، فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار؟ فقال رجل من القوم: لأتبعنه، فإذا أسرع وأبطأ كنت معه، حتى جرح، فاستعجل الموت، فوضع نصاب سيفه بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فجاء الرجل إلى النبي ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، فقال: وما ذاك؟. فأخبره، فقال: إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وإنه لمن أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة)[١]، فكيف حكم عليه النبي ﷺ بأنه من أهل النار رغم أنه يجاهد أشد ما يكون الجهاد، وفاز بإعجاب الصحابة ﷺ لولا أن أصله في النار، إن النبي ﷺ لم يقل سيحدث له كذا، وسيكون في النار، بل قال هو في النار، فأخبر عن أمر واقع قبل أن يقتل الرجل نفسه.

وعلى هذا فإن العوالم الثلاثة إنما هي اثنان في الحقيقة عالم الأصل وعالم الصورة أو الظل، وكل امرئ يستمد منها حسبما كانت عليه حقيقته، فمن الناس من يحجبه الكون عن المكون، فيعيش طوال حياته في الملك، ويحدث له الفرق، ومنهم من يحجبه عالم الملكوت عن عالم الجبروت، فيرى الملكوت كثيفا نورانيا ولم يضمه إلى أصله في اللطافة، ومنهم من ضمه إلى أصله ولم يفرق بين النور الكثيف والنور اللطيف، فهو في عالم الجبروت.

ولتوضيح ذلك أكثر أضرب مثالا واقعيا من الحياة، فقد يكون هناك ثلاثة أخوة

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٤٢٠٧، الصحيح ١٣٣/٥.

كلهم متفقون في نوع العمل والوظيفة، ولكل منهم رزقه المحدد منها، وهم متساوون في ذلك تماما، ولكن تختلف منزلتهم وما كتب لهم من البركة حسب اختلاف مكانتهم عند الله، وحسب استعداده وإرادته واختياره من الأزل، وكل يطبق فعل أصله في الأزل.

فأما **الأول:** فيكون قلبه معلقا بالأكوان، أي معلقا بعالم الملك، فيرى أن الأسباب هي الفاعلة في حياته، وأنه لولاها ما استقامت، فيرى الوظيفة التي يعمل بها هي كل شيء، فمنها يأكل ويشرب، ولولاها ما أكل، ولا شرب، ولا عاش، فهو يعيش مع الأسباب، ولم ير المسبب والمكون سبحانه، ولذا هو في عذاب دائم، وهمّ وغمّ لا ينقطع، لأنه يعيش في عالم المباني فقط، عالم الأغيار والأكدار، وهو ما عليه أغلب الناس في هذا العصر، فقد حدث لهم الفرق قبل الجمع، فلم يروا إلا الأسباب، فيعيشون فيها، ويموتون فيها، ولا يخرجون بأرواحهم عن عالم الملك، ولا ترى عالم الملكوت أو الجبروت أبدا.

وأما **الثاني:** فيكون قلبه ونفسه وروحه معلقة بعالم الملكوت، وهو عالم المعاني والأنوار، فهو يأخذ بالأسباب كسابقه، ولكنه يأخذها بطريق آخر، فهو يأخذها لأن الله جعلها كذلك، فلديه اعتقاد بأن الله علق الأرزاق بهذه الأسباب، فهو يأخذ بها، لأن الله أمره بذلك، فعلم أن الرزق من الله، ولابد من الأخذ بالأسباب تكليفا، وهؤلاء هم عامة المؤمنين الذين قالوا ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، فهم يطلبون الأرزاق بالأسباب، ويطلبون معها الطاعة والجنة، ولكن قد يعجبوا بطاعتهم أو يتكبروا على الخلق، فتكون حاجبة لهم عن الجنة، ويحدث لهم الفرق قبل الجمع كذلك.

وأما **الثالث:** فيكون قلبه ونفسه وروحه معلقة بعالم الجبروت، وهو عالم الأسرار وعالم الذات، فهو يعتقد أن الأسباب ليست فاعلة، وإنما الفاعل فيها هو الله سبحانه وتعالى، وهو يأخذ بالأسباب كذلك ولكنه يأخذها تعبدا لله تعالى، لأنه أمره بها، وهو قد يكون أكثر نشاطا وأخذا بالأسباب من السابقين، ولكن اعتقاده فيها مختلف، فهو يأخذ بها ويعتقد تماما أنها ليست فاعلة، وإنما الفاعل هو الله عز وجل، ولذا يأخذها تعبدا، ومتى تعارضت مع ما هو أفضل منها من ذكر أو فكر أو صلاة تركها، لأنه يعلم أن

الأسباب لا تأتي بالأرزاق، وإنما الأرزاق من عند مولاه، فهو يعيش بجسده في الدنيا، ويعيش بروحه في عالم الجبروت، فلم ير نفسه إلا عدما، ومن ثم لا يعتريه العجب ولا الكبر، وإنما يسعى إلى رضوان الله، ومتى ظهر عليه عمل حسن لم ينسب ذلك إلى نفسه، بل ينسبه إلى الله تعالى، فهو المصلي والمزكي والطائع في جسده، ولا يملك من ذلك شيئا، وهو ما يحدث مع الخاصة الذين حدث لهم الفرق بعد الجمع، وهذا النوع تسقط الأسباب في حقه تكليفا لا تشريفا، فهو يأخذ بها، بل قد يكون أكثر الناس أخذا بها، ولا يدع العمل بها، ولكن مع الاعتقاد الكامل بأنها ليست فاعلة، وأن الفاعل هو الله عز وجل.

ومما يجدر التنبه له هنا أننا نقع في خطأ كبير حين نحكّم العقل المجرد في كل شيء، فهو مهما بلغت قيمته، ومهما علا شأنه محدود، وحدود العقل مختلفة من شخص لآخر، فالعقل استمداد نوره من عالم الملك، وهو عالم الحس والمشاهدة، فمعرفته مقتصرة على الحواس الخمس، وهي في عالم الملك، والقلب والروح استمدادهما من عالم الملكوت، وسر الروح استمداده من عالم الجبروت، فالصنف الأول من الناس وهم من يتعلقون بالأسباب، ويظنون أنها الفاعلة لا يتعدى العقل عندهم حدود عالم الملك، ولذا يطلبون الأسباب، ويتعلقون بها، ويسبحون في تيارها.

وأما الصنف الثاني فحدود العقل تصل إلى عالم الملكوت الذي يأخذ منه نور الإيمان الذي يوصلهم إلى اليقين، فمعرفتهم أوسع، وإدراكهم أعلى، ولكنهم يظلون معلقين بالأسباب وإن اعتقدوا أنها ليست فاعلة، ولكنهم يتبعونها لأمر الله بها.

وأما الصنف الثالث فحدود العقل تصل إلى عالم الجبروت، لأن روحه وصلت إلى هذا المكان، فأصبحت معرفته عالية ومعلقة بالله عز وجل، وتشاهد وترى ما لا يمكن للعقول الأخرى أن تراه أو تقدر أن تقترب منه، فقلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون، وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين، ولكل عالمه الخاص، فسبحان الله القدير العظيم.

لقد وردت لي هذه الخواطر، وكنت أحبسها في نفسي، وأخبرت بها الخاصة من

تلامذتي منذ زمن، وكنت أشرح العوالم الثلاثة للسالكين حسبما قال بها العلماء الكبار، ولكني عجبت حين وجدت ما دار بخلدي بعبارات أخرى مماثلة عند شرح ابن عجيبة للحكم العطائية، حيث يقول: قد رأيت كثيراً ممن شرح هذا الكتاب غلط في تفسير الملك والملكوت والجبروت، فزعموا أن الملك هو عالم الدنيا، والملكوت هو عالم الآخرة، والجبروت ما لا يعمله أحد، وهذا غلط، إذ لو كان كما زعموا ما صح الترقي من ملك إلى ملكوت وإلى جبروت، إذ يلزم على تفسيرهم أن الملك لا يرجع ملكوتاً، والملكوت لا يصير جبروتاً، وهو غير سديد، إذ قد مضى كثير من المحققين أن أهل الملكوت لا يرون الملك لا يرجع ملكوتاً، والملكوت لا يصير جبروتاً، وهو غير سديد، إذ قد نص كثير من المحققين أن أهل الملكوت لا يرون الملك أصلاً، وأهل الجبروت يحجبون عن الملكوت، هكذا ذكره النقشبندي في شرح الهائية، والصواب أن المحل واحد، وهو الوجود الأصلي والفرعي، فما لم يدخل عالم التكوين من عظمة الباري تعالى فهو عالم الجبروت، وما دخل التكوين فمن ألحقه بأصله وجمع فيه فهو في حقه ملكوت، ومن فرقه وحجب به فهو في حقه ملك، فتحصل أن المحل واحد، والأمر إنما هو اعتباري، تختلف التسمية والنظرة باختلاف الترقي في المعرفة، فمن وقف مع الكون كان في حقه ملكاً، ومن نفذ إلي شهود النور الفائض من الجبروت إلا أنه رآه كثيفاً نورانيا، ولم يضمه إلى أصله في اللطافة سمي في حقه ملكوتاً، ومن ضمه إلى أصله ولم يفرق بين النور الكثيف سمى جبروتاً.

فحقيقة الملك ما يدرك بالحس والوهم، وحقيقة الملكوت ما يدرك بالعلم والذوق، وحقيقة الجبروت ما يدرك بالكشف والوجدان، فالوجود واحد، وإنما تختلف التسمية باعتبار الرؤية والترقية، فمن وقف مع حسن الكائنات، وحجب بها عن المعنى سمي في حقه ملكا، ومن نفذ إلى شهود المعاني سمي في حقه ملكوتا، ومن نظر إلى أصل القبضة التي برزت منه سمي في حقه جبروتا.

فإن انضم الفرع إلى الأصل وتلطفت الأواني حتى صارت كلها معاني، وانطبق بحر الأحدية على الكل صار الجميع جبروتا، فكل مقام يحجب عما قبله، فالملكوت

يحجب عن شهود الملك، والجبروت يحجب عن الملكوت إلا بالتنزل في حال السلوك، وهو ما يطبق عليه قاعدة المباني والمعاني، أو الأواني والمعاني، وسوف أزيدها تفصيلا في مقدمة شرح منازل السائرين بإذن الله تعالى.

وإذا كان عالم الجبروت متعلقا بالإحسان الذي هو المرحلة الثالثة من مراحل الترقي فإن من المهم أن أتبع ذلك ببيان هذه المراتب الثلاث في السؤال التالي.

**س**: **ما الإسلام**، **والإيمان**، **والإحسان**؟.

**ج**: نزل جبريل على النبي ﷺ ليبين له الفرق بين هذه الثلاث أمام الصحابة ﷺ، ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (سلوني، فهابوه أن يسألوه، فجاء رجل، فجلس عند ركبتيه، فقال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: لا تشرك بالله شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، قال: صدقت، قال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتابه، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث، وتؤمن بالقدر كله، قال: صدقت، قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك، قال: صدقت. قال: يا رسول الله، متى تقوم الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأحدثك عن أشراطها: إذا رأيت المرأة تلد ربتها، فذاك من أشراطها، وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض، فذاك من أشراطها، وإذا رأيت رعاء البهم يتطاولون في البنيان، فذاك من أشراطها، في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١)، قال: ثم قام الرجل، فقال رسول الله ﷺ: ردوه علي، فالتُمس، فلم يجدوه، فقال رسول الله ﷺ: هذا جبريل، أراد أن تعلموا إذ لم تسألوا)(٢).

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٤.

(٢) متفق عليه ولفظه لمسلم، أخرجه في الحديث رقم١٠، الصحيح ١/٤٠، وأخرجه البخاري في الحديث رقم٤٧٧٧، الصحيح ٦/١١٥.

ومن هنا نعلم أن هذه الأمة مكلفة بثلاثة أشياء، بالإسلام والإيمان والإحسان، وهذا ما بينه رسول الله ﷺ بعد ذلك لأمته، وكان فيه القدوة الحسنة والأسوة لمن أراد التأسي، ولذا يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(١).

ومن هذه الآية نعرف أنه لا يتأسى برسول الله ﷺ إلا من توافرت فيه شروطها المذكورة فيها، وهي أن يكون ممن يرجو الله، واليوم الآخر، وأن يذكر الله كثيرا.

وقد وقع للنبي ﷺ تطبيق الإسلام والإيمان والإحسان في رحلة واحدة هي معجزة من معجزاته، وهي رحلة الإسراء والمعراج، فقد تحقق له مقام الإحسان حين رأى الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾(٢)، لأنه رأى الله بعين قلبه، وهي البصيرة لا البصر، وحدث هناك ما حدث من الجمع والسكر والفناء والفرق والصحو، ثم كلفه الله تعالى بالصلاة التي سوف تكون معراجا له ولأمته إلى الله عز وجل، ففي فرض الصلاة الظاهرة الإسلام، وفي اليقين بالغيبيات الإيمان، وفي رؤية الله تعالى الإحسان، فتحققت الثلاثة للنبي ﷺ في هذه الرحلة.

وعلّم النبي ﷺ أصحابه ذلك، وتركهم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

ونقلها عنه الصحابة الكرام ﭫ إلى التابعين، ونقلوها لمن بعدهم، ونقلها العلماء من كل طائفة في تسلسل الزمن، وستظل تتناقل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وتعميقا لمعاني الإسلام والإيمان والإحسان لدى المؤمنين بيّن النبي ﷺ للصحابة ﭫ أن الدنيا دار اختبار وامتحان، لا دار بقاء واستقرار، وعلمهم ألا يحرصوا عليها، ولا يتهالكوا في طلبها، وأنها جيفة وطلابها كلاب، وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ليزهد الناس فيها، ويرغبهم في دار البقاء والخلود.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٢) سورة النجم الآية ١١.

كما بين ﷺ أن عالم الملك بكل ما فيه من سعة هو عبارة عن حلقة في فلاة بالنسبة لعالم الملكوت، وعالم الملك وعالم الملكوت والكرسي كحلقة في فلاة بالنسبة للعرش، وكل ذلك عدم بالنسبة لأحدية الله عز وجل، وبذلك يكون النبي ﷺ قد بين لهم كل شيء، ولم يتركهم غنيمة للشياطين، ولا حيارى في الدنيا الفانية، بل أعطاهم الأسلحة الماضية، واليقين الراسخ الذي إذا تمسكوا به فازوا في دنيا الناس بالعزة، وفازوا في الآخرة بالنجاة ورضا الله تعالى.

ولكن الحديث عن تناقل هذا العلم من لدن النبي ﷺ إلى يومنا هذا يدعونا إلى التساؤل عن كيفية نقله، ومن يكون مسؤولا عن نقله، ومن يتحمل نقل هذا العلم، ويتحمل تعلمه والعمل به، فلكل طاقته، وكل ميسر لما خلق له.

لا شك أن من يقوم بهذا النقل شيخ له دراية بعلوم الشريعة والحقيقة، وله باع واسع في الاطلاع على مصادر الإسلام، والفهم الواسع لها، كي يعلم الناس الأركان والشروط التي تصلح بها العبادات، فيحتاج إلى تعلم الفقه الظاهري الذي يصلحها، وكذا يكون خبيرا بفقه القلوب وأدوائها، من الكبر والعجب، والحقد والحسد، والرياء والنفاق، وحب الظهور، إلى غيرها من علل النفوس المتطلعة، والمحملة بالشهوات الجامحة، وكيفية علاجها، ليصل الخلق بالخالق جل وعلا، وليضع أيديهم على الإخلاص الذي هو السر في قبول العبادات.

وإذا كنا في حياتنا نلجأ لمن له خبرة في كل شيء، فمن يصيبه مرض عضوي يلجأ للطبيب، وليس أي طبيب بل المتخصص في مجال شكايته، ومن يريد بناءً يلجأ إلى مهندس يخططه له، ويتابع تنفيذه، وهكذا في كل شيء من أمور الحياة، من سباكة ونجارة ونقاشة، وحتى صناعة الخبز والحلوى، لكل منها خبير يقوم عليها، ويعلّم من يقوم بها من تلاميذه بعده، أقول إذا كان الأمر كذلك في أمور الدنيا البسيطة فما بالك بالدلالة على الرحمن، لا شك أن الدين بما له من خطر هو أولاها جميعا بأن يكون له خبير عالم به، خاصة وأن الدلالة على الله تعالى ليست سهلة، ولا هي أمر يسير المنال، وإذا كان الله تعالى في كل علم نبهنا إلى سؤال أهل الذكر فقال عز وجل:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

ورغم أنه سبحانه قد أورد هذا التأكيد في موضعين متتاليين من القرآن إلا أنه بالنسبة لمعرفته سبحانه خصه بخبير آخر، ولم يرض أن يكتفي بالآية السابقة، أو أن يدخل فيها، قد يدخل ضمنها فقيه الظاهر لا فقيه الباطن، فاختص جل جلاله معرفته بخبير من نوع خاص وطراز فريد، فقال عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾[٢]، فقد طلب ربنا عز وجل ممن يريد معرفته أن يسأل عنه خبيرا، إذ كيف لعقل تافه، أو لنفس معتلة أن تصل إلى الله؟، أم كيف لرجل تائه في حياته، يحكم عالم الملكوت وعالم الجبروت بعقله الضعيف أن يستدل على الله تعالى أو يفنى فيه بله أن يعرّف به؟، ومن هنا لا يصلح كل شخص أن يقول أنا الدال على الله، أو الخبير به، بل يجب عليه أن يعرف الله تعالى، وأن يستمع للدلالة عليه عن طريق شيخ له مواصفات وشروط معينة، ومن ثم يشترط فيه شروط ينبهنا عليها السؤال التالي.

**س: ما شروط وصفات الشيخ المربي العارف بالله؟.**

ج: لكي يكون الشيخ أهلا لتربية مريديه، وأهلا لتعليم فقه الظاهر وفقه الباطن، وأن تطلق عليه كلمة شيخ أصلا يلزم توافر شروط وصفات معينة فيه، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولذا لما أهمل الناس في التأكد من هذه الشروط والصفات، وذهبوا إلى من لا تتوافر فيه ضاع كثير من الخلق، وكان من يظنونه شيخا سببا لبلائهم، حتى لبستهم الجِنّة، وسكنت داخلهم الشياطين، وضاعوا وأضاعوا، وأساؤوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ومن الشروط التي يجب توافرها في الشيخ المربي العارف بالله أن يكون تقيا نقيا، خالص القلب لله تعالى، لا يبغي من ورائهم نفعا، لقول الله عز وجل:

---

(١) جزء من الآية ٤٣ من سورة النحل، والآية ٧ من سورة الأنبياء.

(٢) سورة الفرقان الآية ٥٩.

﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[١]، لا يهمه تبجيل، ولا يؤثر فيه ثناء، ولا يغتر بمدح، ولا يعجب بمكانة، بل يرى نفسه دوما أقل مما يصفون، وأدنى مما يقولون، ويحشدهم إلى الله حشدا، ويوجههم إليه تعالى فردا ووفدا، ويوقن أن الفضل ليس منه، بل من الخالق جل وعلا، ولذا فإن هذا الشيخ أو المريد اختاره الله في الأزل، وجعل فيه صفات لا توجد في غيره، وهو محب لمريديه، حتى ولو هجره بعضهم لا يتركه حتى لا تتخطفه المردة والشياطين.

وللشيخ العارف بالله الذي يُتّبع في هذا الطريق صفات يمكن عن طريقها التعرف عليه بسهولة، وهذه الصفات هي:

١- لابد أن يكون الشيخ المربي جامعا بين الشريعة والحقيقة، أي جامعا بين العلوم الشرعية والعلوم الباطنية، ولا يفرق بينهما.

أما علم الشريعة فالغرض منه أن يصلح ظاهرهم، وأما علم الحقيقة فالغرض منه إصلاح باطنهم، وبذلك يستطيع الشيخ أن ينهض بمريديه، وأن يصل بهم إلى الغاية التي يريد وهو معرفة الله عز وجل، وأما غير ذلك فهو عبث وتهريج لا يصل بأتباعه إلى بر الأمان، بل يجعلهم ينتكسون بدلا من أن يرتقوا، ويبتعدون عن الإيمان من حيث يظهر لهم أنه يقربهم.

فإن كان الشيخ أهلا للشريعة والحقيقة، وكان الأتباع والمريدون ملتزمين بذلك تولدت فيهم لطائف نورانية تدفعهم دفعا إلى الإيمان بالغيب، وبذلك ينتقل المريد من الإسلام إلى الإيمان بهذه النورانيات، وبغير ذلك لا ينتقل أبدا.

فإن انتقل بهم جاءت المرحلة الثانية، وهي مرحلة الإيمان بالغيب، وهو علم اليقين، أي يعلم علم اليقين بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، ثم تنقله هذه العبادات وهذا التصديق بالغيب إلى عين اليقين، وهي عين القلب أو البصيرة التي يشهد بها كل ذلك ببصيرته، وبهذه القوة النورانية الإيمانية تتولد فيه

---

(١) سورة يس الآية ٢١.

التقوى، وهي نور اليقين، وهي التي وصفها سيدنا علي ﷺ بقوله: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وإنما كانت هذه الصفة لأن الذي أتى بعلوم الشريعة هو الذي أتى بعلوم الحقيقة، ومن المحال أن يتناقض الله مع نفسه، فأي شيء يأتي للشيخ في الباطن لابد من عرضه على الشريعة، فإن وافقها كان من الله، وإن خالفها كان من الشيطان، وكذلك جميع الواردات التي ترد على الشيخ.

٢- أن يكون الشيخ عارفا بالله عز وجل، ومن صفات العارف بالله -عز وجل- أن يكون دائم الاضطرار إليه في جميع أموره، ولا يكون قراره إلا عند مولاه، فهو دائم الذكر والفكر، لا يكثر من الحديث عن الدنيا، ولا ينكب عليها، بل يكون واثقا من رزقه وأجله، مطمئنا قلبه بذلك، محبا لله تعالى ولرسوله ﷺ وآل بيته ﷺ، متأدبا بآداب الإسلام الرفيعة، راضيا بقضاء الله وقدره فيه، غير ساخط ولا متبرم، واقفا عند صفات الله الجلالية والجمالية والكمالية، متأسيا ومتبعا لرسول الله ﷺ، لديه خصوصية يعرفه بها أهل الخصوص فيهتدون إليه بها.

٣- ألا يسأل الناس أجرا على جهده ووعظه وإرشاده لمريديه، بل يبذل جهده كله لله عز وجل، وهو غني بمولاه جل وعلا.

٤- أن يكون قد هداه الله إلى الصراط المستقيم، وتظهر عليه صفات الهداية، فإن لم يكن كذلك لم يكن شيخا، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(٢).

٥- لابد أن يكون الشيخ على خلق قويم من التواضع، وعدم رؤية النفس على الإطلاق في أي شيء دائم الإدانة لها، لأن النفس أعدى الأعداء، غير متكبر ولا

---

(١) سورة الأنعام الآية ٨٢.

(٢) سورة يس الآية ٢١.

معجب بنفسه، ولا محبا للظهور والرياء والنفاق وما إلى ذلك من الأمراض القلبية والنفسية، متحليا بالخصال الحميدة، من الصدق والوفاء والحياء والكرم والإيثار والنجدة والنصرة والمواساة، وغير ذلك من الخصال الكريمة.

٦- ألا يكون له علاقة من قريب أو من بعيد بالعالم السفلي، وهم الجنة والشياطين، مسلمهم وكافرهم، صالحهم وطالحهم، فهم الذين طردهم الله ولعنهم، فالأسلم للمرء البعد عنهم وعن معاملتهم أو الاستعانة بهم، فقد قال الله عز وجل: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(١)، فكل شيء في كتاب الله عز وجل، وقد أنزل سبحانه في القرآن ما هو شفاء للناس ورحمة للمؤمنين، فشفاء المؤمنين ورحمتهم في كتاب الله عز وجل، فلا داعي للاستعانة بغيره، وقد قال النبي ﷺ: (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)(٢)، والعارف لا يسأل إلا ربه، ولا يستعين إلا به وحده، لأن الاستعانة بهم مناف لقول الله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٣).

٧- أن يكون الشيخ مخلصا ذا بصيرة نافذة، فطنا يقظا، خبيرا بأدواء النفوس وعللها، يمكنه معرفة شخصيات مريديه وما يصلحهم، ويعامل كلا منهم بما يصلح له وما يصلحه، لأنه هو قائد السفينة، ولابد أن يصل بأتباعه ومريديه إلى بر الأمان، وقائد السفينة لابد أن يكون فطنا للرياح التي تأتي من كل مكان، متيقظا للأعداء، لديه الخبرة بلجاج البحار والأنواء، وإلا غرق وأغرقهم معه.

٨- أن يتبرأ من حوله وقوته دائما إلى حول الله وقوته، مستخيرا الله -عز وجل- في جميع شؤونه، مفتقرا إليه في جميع أحواله كل الافتقار.

٩- أن يكون غاية أمل الشيخ ومقصوده وجه الله -عز وجل- ورضاه، ولا يبتغي سوى ذلك، فلا يطلب جنة ولا غيرها، وإنما أمله وجه العزيز الغفار ورضوانه فقط.

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٣٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٢٥١٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح، سنن الترمذي ٢٤٨/٤.

(٣) سورة الفاتحة الآية ٥.

١٠- أن يكون زاهدا بقلبه في متاع الدنيا القليل، وعلامة ذلك ألا تجده مقبلا عليها، صارفا وقته في طلبها والانشغال بها، لأن الدنيا رأس كل خطيئة، ولا يعني ذلك أن يكون فقيرا أو يهمل ما يعطيه الله من متاعها، بل المقصود أن تكون الدنيا في يده لا في قلبه، ولذا قد تجد الشيخ غنيا وجاءته الدنيا جاثمة له، مسخرة من الله -عز وجل- ليغنيه الله تعالى عن مجرد الوسوسة بالنظر إليها أو البحث عنها والاضطلاع بهمومها.

١١- أن يكون ساترا لما يطلعه الله عليه من عيوب المريدين، فلا يتتبع عوراتهم، ولا يخزيهم بعيوبهم وسيئاتهم، بل هو يعالجها لهم دون أن يؤذيهم، أو يؤنبهم بما ينفرهم، ويتخللهم بالموعظة العامة والخاصة، وقد يصلح عيبا لأحدهم بطريق المزاح، أو طريق الموعظة للجميع، ويذكر العيب ليتنبه من وقع فيه، كما كان النبي ﷺ عندما يخطئ أحد الصحابة ﵁ أو ينفلت من طريق السنة الصحيح يقول: ما بال أقوام يقولون كذا، ولا يذكرهم بأسمائهم، وقد وقع ذلك كثيرا في سنة النبي ﷺ، فكان يداري بحلمه الشطط، ويرد المتعثر بأجمل مدخل.

**س: ما الفرق بين الشيخ المربي والشيخ المعلم؟.**

**ج:** لابد أن يعرف الإنسان أن الشيخ المربي يختلف عن الشيخ المعلم، فالأول معلم ومربٍّ، والثاني معلم فقط.

والشيخ المربي عارف بالله عز وجل، وهو قد اختاره الله من الأزل واصطفاه، وله نصيب من قسمة رسول الله ﷺ من الأسرار والأنوار، وعنده العلم اللدني، وتعلم من العلوم الشرعية الظاهرة وعلوم الحقيقة الباطنة الكثير، وعنده الاستعداد من الأزل لتلقي الأنوار والأسرار والقسمة، ولديه القدرة لتوصيلها لأهل الخصوص والمريدين.

بخلاف الشيخ المعلم، فهو شيخ عادي، حصل العلوم الشرعية، وبلغها إلى خلق الله عز وجل، وليس لديه الاصطفاء ولا القسمة في الأنوار والأسرار، هذا هو الفرق بين الشيخين.

**س**: **ماذا يستفيد المريد من الشيخ المربي**؟.

**ج:** إذا كانت تلك صفات الشيخ المربي، وما يتعاهد به مريديه، فإن السؤال الذي يثور هنا: ما الذي يستفيده المريد من شيخه إن اتبعه بحق وبحب؟.

يستفيد المريد من شيخه أشياء كثيرة منها ما يلي:

١- أن الشيخ أمان لأتباعه من أعدائهم، وهم الدنيا والشيطان والنفس والهوى، فهو دائما ما يبصرهم بذلك ويحذرهم منهم، ويأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة والفوز في الآخرة، وإلى طريق الراحة والسعادة في الدنيا.

٢- أن الشيخ دائما وأبدا ما يحبب المريد في الله -عز وجل- بذكر نعمه ومننه التي لا تعد ولا تحصى، ويحضه على شكرها، فتزيد عند المريد وتفرخ وتبيض.

٣- أن الشيخ دائما يحبب المريد في الله ورسوله ﷺ وآل بيته الأطهار، لقول النبي ﷺ: (إن لله عباداً يجلسون بين يدي الرحمن يوم القيامة على منابر من نور، ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء، لقرب مجالسهم من الله. قلنا: يا رسول الله من أولئك؟ قال: هم الذين يمشون في الأرض بالنصيحة، ويحببون الناس إلى الله؟ قال: يأمرون بطاعة الله، فإذا أطاعوا الله أحبهم)[(١)].

وقول أبي الدرداء رضي الله عنه: إن شئتم لأقسمن لكم، إن أحب العباد إلى الله الذين يحبون الله، ويحببون الله إلى عباده، والذين يراعون الشمس والقمر والنجوم والأظلة لذكر الله.

فمتى أحببت آل البيت فإنك تكون معهم يوم القيامة، لأن المرء مع من أحب، فيفوز بالجوار، وذلك لقوله ﷺ: (أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي)[(٢)].

٤- أن حب الشيخ يجعل المريد تحت لوائه يوم القيامة، لقول الله عز وجل:

---

(١) أخرجه الحافظ المنذري في الحديث رقم٢٤٥٤، الترغيب والترهيب ٢٤٧/٣.

(٢) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٣٧٨٩، سنن الترمذي ١٣٤/٦.

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[١]، وهذه الألوية تكون يوم القيامة تحت لواء رسول الله ﷺ الأعظم في ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[٢].

٥- كذلك يستفيد المريد من شيخه السلوك إلى الطريق المستقيم، لأن الاستقامة أكبر كرامة.

٦- أن الشيخ يرعى مريده حال الإلهامات والمبشرات والواردات، فيعرضها على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فإن وجدها موافقة بشر المريد بذلك، وإن وجدها غير موافقة فإنه يعلم أنها من الشيطان ويحذره منها.

٧- أن الشيخ مرشد وموجه وحارس للقلوب بقوة، فيشعر المريد بالإنس والأمن والأمان، ويزهد في الدنيا، ويخلع حبها من قلبه، فدائما يستشعر الجلوس على بساط الأنس في حظيرة القدس عند مليك مقتدر.

٨- أن الشيخ يختصر الطريق على المريد، فيصل إلى الله بسهولة ويسر، بخلاف من لا شيخ له فإنه يتخبط، وربما لا يصل مع وجود المواهب والملكات فيه، وقد ينكص على عقبه في أول اختبار، أو يغتر بما يحدث له من واردات، فيزيغ ويهلك.

٩- أن الشيخ يتحمل عن المريد بعض نوازله الشديدة التي لا يستطيع أن يتحملها بالنظرة والمدد، وهذا بالنظرة التي أخذها من كينونة الله عز وجل، فهو يقصر الطريق على المريد، لقول الله في الحديث القدسي: (فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها)[٣]، وكما أن نظرة الحسود الظلماني تدخل الجمل القدر والرجل القبر، فإن نظرة الشيخ

---

(١) سورة الإسراء من الآية ٧١.

(٢) سورة عبس الآيات من ٣٤ إلى ٣٧.

(٣) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٥٠٢، الصحيح ١٠٥/٨.

العارف الذي أمده الله بأنواره وأسراره أشد في حفظها، فإن كانت نظرة الحسود موتا، فإن نظرة الشيخ حياة، نظرة ومدد يا رسول الله، يدل على هذا قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾(١).

١٠- ومن أهم الفوائد التي يستفيدها المريد أن روحه لا تستطيع الدخول إلى عالم الجبروت إلا عن طريق عين قلب الشيخ، أما من دخل بدون الشيخ والسلسلة النورانية والنظر بعين قلب رسول الله ﷺ فإنه ينجذب أو يصعق، كذلك من كان شيخه ليس له عين للقلب أي ليس لديه البصيرة فلا يستطيع المريد معه أن يصل إلى درجة الإحسان، فيلجأ هذا الشيخ إلى التحدث عن الكرامات والإهانات.

وخلاصة هذا الأمر أن عالم الجبروت الذي هو درجة الإحسان والذي ترى فيه الله ويراك فيه الله سبحانه لا يمكن لكل واحد الدخول فيه، بل لم يدخله إلا النبي ﷺ وحده، حيث إنه اخترق ورأى الله عز وجل بعين البصيرة لا عين البصر، ومن هنا إذا أراد المريد أن يدخل عالم الجبروت فلابد أن يتصل برسول الله ﷺ، ورسول الله متصل بآل بيته، وعن طريق آل البيت انتقل هذا الخير إلى من اختصه الله برحمته وقدرته في عالم الأزل من الأولياء، وهؤلاء يأخذ عنهم تلاميذهم ممن اختارهم الله، ومنهم إلى تلاميذهم وهكذا، فمتى اتصلت السلسلة النورانية ولم يدخل فيها شيخ فاسد لم تكتمل فيه شروط الشيخ كان للمريد أن يخترق إلى عالم الجبروت بطريق عين بصيرة رسول الله ﷺ ويخرج آمنا من الحرق، وبغير هذا لا يمكنه الدخول والرؤية أبدا.

وهنا تظهر فائدة العارف بالله عز وجل الخبير به الذي قال فيه المولى عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾(٢)، وتظهر الحكمة من أن الله في الأزل خلق الخلق

---

(١) سورة الحديد الآية ١٢.

(٢) سورة الفرقان الآية ٥٩.

واختار منهم واصطفى من يشاء، لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١)، اختار من العباد من يوصلك إلى الله، كما اختار من الأماكن ما يوصلك إلى الجنة، واختار من الأزمان ما يوصلك إلى الرضوان.

وتظهر الحكمة من قول النبي ﷺ: (النجوم أمان لأهل السماء، فإذا ذهبت أتاها ما يوعدون، وأنا أمان لأصحابي ما كنت، فإذا ذهبت أتاهم ما يوعدون، وأهل بيتي أمان لأمتي، فإذا ذهب أهل بيتي أتاهم ما يوعدون)(٢).

فالمريد الذي وصل إلى درجة الإيمان ويريد الوصول إلى درجة الإحسان لابد له من شيخ عارف بالله من خلال عين قلبه، أي بصيرته، وعين قلب السلسلة النورانية التي يتصل بها إلى أن يصل إلى آل بيت رسول الله ﷺ إلى عين قلب رسول الله ﷺ، على أن تكون السلسلة كلها صحيحة، فلو توسط بينها شيخ فاسد تنقطع، فلا تصل للشيخ الأنوار، وبالتالي لا يستطيع أن يوصل غيره إلى درجة الإحسان، لأن السلسلة لم تتصل، فهي سلسلة نورانية، والنور ينقطع بتوسط ظلام فيه، وهذه الأشياء كلها تتم دون أن يشعر الإنسان، بل يرى أثرها على قلبه وأفعاله.

ومتى تواصلت تلك السلسلة بطريق صحيح على النحو السابق هنا يستطيع أن يدخل حظيرة القدس في عالم الجبروت، ويرى الله من خلال عين قلب رسول الله ﷺ، فيحدث له الجمع ثم السكر ثم الفناء ثم الفرق ثم الصحو، وكل ذلك في أمن وأمان، فتحترق صفاته في صفات خالقه، وذاته في ذاته، صفات الفقر والذل والضعف في صفات الغنى والعز والحول والقوة، فيخرج الإنسان بعدها في حرية كاملة من جميع الأكوان، عبدا لله عز وجل، لقول الله سبحانه وتعالى لنبيه وصفيه محمد ﷺ بعد أن فني فيه وحدث الصحو: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ

---

(١) سورة القصص الآية ٦٨.

(٢) أخرجه الحاكم في الحديث رقم٣٦٧٦، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، المستدرك ٤٨٦/٢.

عَائِلًا فَأَغْنَى﴾[١]، فيخرج الإنسان أغنى ما يكون، إما حسيا وإما معنويا، وأقوى ما يكون، وأعز ما يكون.

وبذلك أصبح الشيخ ضرورة للمريد للوصول إلى الله عز وجل، وإلا اختل عقله وتخبط، أو انجذب إن دخل في عالم الجبروت بدون عين شيخه التي تصل إلى عين قلب نبيه ﷺ عن طريق آل بيته الكرام الأطهار.

وهذا الذي يدخل عالم الجبروت بدون عين قلب رسول الله ﷺ لولا أن تدركه الرحمة العامة من رسول الله ﷺ لتفحم ومات في الحال، لقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٢].

وبذلك أيها المريد تكون قد فهمت تماما قيمة الوصول إلى رسول الله ﷺ، وقيمة آل بيته الأطهار، وقيمة الشيخ العارف بالله عز وجل، لكن كثيرا من أفهام الناس الذين تعلقت قلوبهم بالمحسوسات فقط لا تفهم هذا الكلام ولا تتصوره أصلا فهم معذورون، نسأل الله التوفيق لنا ولكم ولجميع المسلمين آمين.

**س**: **ما شروط المريد وآدابه**؟.

**ج:** إذا كنا نشترط في الشيخ المربي شروطا ومواصفات معينة، وذكرنا ما يستفيده المريد من شيخه، فهل يصلح كل مريد لذلك، أم أن له شروطا ينبغي توافرها فيه، وآدابا يجب عليه التحلي بها؟

لا شك أن المريد يلزم أن تتوافر فيه الشروط والآداب التالية:

١- أن تكون لدى المريد الرغبة الشديدة في طلب السلوك إلى الله، والاقتناع التام بطلبه، فيصبر على ذلك الطريق، ويتجرد من إرادته إلى ما يريده الله عز وجل، فيمحوا إرادته في إرادته، فلا يريد إلا ما يريده مولاه، ولا يحب إلا ما يحبه مولاه، وهذا يكون باستعداد فطري للشخص خلق به ومنحه الله إياه في الأزل.

---

(١) سورة الضحى الآيات ٦، ٧، ٨.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

٢- الاقتناع التام بمن يسلك الطريق على يديه، وعدم التطلع إلى غيره، وعدم الشك فيه مهما كان حتى يستطيع الإفادة منه وسريان الحال إليه، وتقصير الطريق عليه.

٣- الصدق والإخلاص، وامتثال أمر شيخه، وكتمان سره، وتعظيم قدره، والصبر معه، والطاعة والتسليم له.

٤- التأدب التام مع الشيخ ومع إخوانه، ومع جميع المسلمين، فمن زاد عليك في الأدب زاد عليك في التصوف.

٥- قوة محبة المريد لشيخه حتى يكون أحب إليه من نفسه، لأنه هو الذي جمعه على ربه، وهو مناط سعادته، والحب ينتقل من القلب إلى القلب بلا واسطة، فإن رآك الله في قلب الشيخ أحبك.

٦- ألا يكتم عن شيخه أمره أو ما يكشف له من الواردات والإلهامات، سواء كانت يقظة أو مناما، حتى يحسن توجيهه وتحذيره.

٧- أن يكون مع شيخه كالميت أمام المغسل، فلا يعترض عليه، ولا يطلب منه الحديث حتى يتحدث هو، ولا يكثر السؤال، ولا يكون لحوحا له، فربما وردت له واردات فيقطعها بسؤاله، وربما أثقل عليه بمناقشاته في وقت مناجاته لله تعالى وتلقي الواردات، وأن يعلم أن الشيخ يأخذ من نفسه ليعطيه، فلا يتكئ عليه بما يرهقه ويضنيه.

٨- الصبر على امتحانات الشيخ عند أخذ الطريق أو بعده، فقد يختبر الشيخ مريده بأشياء ثقيلة وامتحانات صعبة على النفس ليرى مدى صدقه وإخلاصه وشدة حبه، فإن وجد من إخلاصه سأل الله له الإعانة في الاختبار، فقام في وقت قصير بما تطلبه أعمار غيره، وقد قال سيدي عبدالوهاب الشعراني: ومن شأنه إذا سافر لشيخ ليأخذ عنه العهد فقابله الشيخ بالجفاء والعبس في وجهه أن يصبر ولا يتزلزل، بل يجلس مطروح النفس على بابه حتى يرحمه شيخه، ولو مكث على ذلك الجفاء سنة أو أكثر لا يبرح عنه، فإن الطريق عزيزة عند أهلها لا يجوز لهم الترخيص فيها لكل من ورد عليهم، والمريد لا يمل ولا يكل، لأن مطلوبه الله عز وجل، وهي سلعة غالية تحتاج

للتحمل والصبر بدرجة لا نهاية لها.

وقد قال الشاعر:

أخاطر في محبتكم بروحي وأترك في هواكم أبا وأما

وما أجمل ما قاله أبو النجيب السهروردي -رحمه الله- في كتابه آداب المريدين: أول ما يجب على المريد بعد الانتباه من الغفلة قصد شيخ مؤمن ناصح عارف بالطريق، فيسلم نفسه لخدمته، ويعتقد ترك مخالفته، ويتخذ الصدق حالا في صحبته، ويلزم الشيخ حتى يعرفه كيفية الرجوع إلى سيده، ويدله على الطريق المؤدية إلى رشده، ويسهل عليه سلوكها. أ.هـ.

ولا يجوز للمريد مفارقة الشيخ قبل انفتاح عين قلبه، بل عليه أن يصير تحت أمره ونهيه في خدمته حتى يكمل.

ومما يلزمه من الأدب معه كونه يصحبه بالاحترام والتعظيم، ويتابعه على المنشط والمكره، ويكشف له عما يعرض له في حاله، أو يخطر على ضميره وباله، ولا يعترض عليه فيما يكون منه، ولا ينظر في الأفعال الصادرة عنه، ولا يتعدى له أمرا، ولا يتأول عليه كلاما، بل يقف عند ظاهر كلامه، ولا يطلب علة الأمر الذي يأمره به، بل يبادر إلى امتثاله، عقل معناه أو لم يعقله، بل وإن تيقن خطأه، وليعتقد أن نفعه في خطأ شيخه أن لو أخطأ أكثر من نفعه لنفسه ولو أصاب.

وليحذر من الاعتراض عليه بباطنه، فإنه السم القاتل، والاعتراض سبب الانقراض، وأصل كل خير الانقياد، وأصل كل شر الانتقاد، فقل أن يكون مريد يعترض على الشيخ بباطنه فيسلم (جد صادقا تجد مرشدا).

واعلم أن المريد إذا كانت همته فوق معرفة الشيخ فلابد أن يفتح الله للشيخ في المعرفة التي تعلقت بها همة المريد، وترقى إليها بركة صدق المريد، لأن الباطن يسري بين المريد والشيخ، كما يقتبس السراج من السراج، إذ كلام الشيخ يلقح باطن المريد، فيترقى المريد بترك الاختيار مع الله.

واعلم أن المريد إذا فارق الشيخ وتركه قبل أوان انفطامه يناله من الاعتلال في الطريق بالرجوع إلى الدنيا ومتابعة الهوى ما ينال الصبي المفطوم قبل أوان انفطامه.

وقد قال القرطبي رحمه الله: من لم يجتمع برؤيته لم تنتفع بصحبته، ومن لم يأخذ كلام شيخه بالقبول خرج نور الاقتداء من قلبه، ومن لم ير شيخه نائبا عن الحق فيما يأمره به لا يصل إلى الحق، ومن تأدب مع شيخه تيسر له الأدب مع ربه، وكل من أهله الحق لمعرفته قيض له عالما وليا يقتدي به.

**س**: **ما المقصود بشعاع وعين البصيرة**؟ **وكيف تحدث**؟.

**ج:** قلت فيما سبق إن الإحسان يصل بالإنسان إلى عين اليقين، وهي تتصل بعين قلب رسول الله ﷺ، وأن النبي ﷺ قد رأى الله بعين البصيرة، وهنا نعطي لمحة أخرى عن شعاع وعين البصيرة وكيف تكون.

يقول الله –عز وجل– لحبيبه ومصطفاه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[(١)]، فبهدايته ﷺ هدى أمته إلى التكاليف والإيمان بالغيب، ويدخل بك عن طريق عين بصيرته إلى عالم العزة، وهو عالم الصفات، وإلى عالم الجبروت، وهو عالم الوحدانية.

والتكاليف التي فرضها الله –عز وجل– من صلاة وصيام وزكاة وحج، والتي تتعلق بالبدن في عالم الملك مناطها العقل، هذه التكاليف تحدث للعقل نورا يسمى بنور العقل، وهو ما يسمى بعلم اليقين، يستطيع به أن يدخل عالم الملكوت، ويشاهد ما به من غيبيات، ويؤمن بها وبما فيه من المقدرات، فيحدث له من ذلك التصديق نور يسمى بنور الإيمان، وهو ما يسمى بشعاع البصيرة، أو علم اليقين، ومناط كل ذلك هو القلب، ثم يتولد من شعاع البصيرة نور يسمى بنور اليقين، أو بعين البصيرة، أو بعين اليقين، يشهد به عالم العزة، وهو عالم الصفات، ومناط ذلك الروح، وهنا تحترق صفات العبد في صفات الرب، أي صفات الفقر والضعف والذل في صفات الغنى والقوة والعزة، فيخرج من عالم العزة أعز ما يكون، وأقوى ما يكون، وأغنى ما يكون، ثم ينتقل

---

(١) سورة الشورى من الآية ٥٢.

من نور اليقين إلى نور المعرفة في عالم الجبروت، وهو عالم الوحدانية، وهو ما يسمى بحق اليقين أو بحق البصيرة، وهنا تجمع الذات بالذات، فيحدث الجمع والسكر والفناء، ثم الفرق والصحو، وكل ذلك يكون عن طريق هداية عين بصيرة رسول الله ﷺ، كل ذلك يحدث بدون أن يشعر به الإنسان، ولكن تظهر عليه آثاره. والله تعالى أعلم.

## بين يدي الحكم العطائية(١)

إن الحكم العطائية كانت قبسات نور قذفت في قلب رجل من الصالحين، أخذها من الكتاب والسنة، فأنا أعدها منهاج الحياة الذي جاء بعد الكتاب والسنة، فلو شبهنا الإسلام بالجسد لقلنا إن القرآن هو الروح، والسنة هي القلب، والحكم العطائية بمثابة الجهاز العصبي الذي يتحكم بهذا الجسم.

ولو شبهناها بسيارة لقلنا إن القرآن هو الموتور، والسنة هي الدينامو اللذان تقوم بهما السيارة، والحكم العطائية بمثابة الفرامل التي تتحكم في سرعتها.

فالرجل الكبير –ابن عطاء– قد كتب هذه الحكم لصنوف من الناس لو انتفعت به لانتفعت بما جاء في القرآن والسنة، فهي منهاج حياة قويم، وطريق سير مستقيم، وعبر لمن يعتبر، ودليل لمن يريد أن يهتدي، فيعرف نفسه أي صنف من الناس هو، فقد قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(٢).

وللحديث عن الحكم العطائية ينبغي معرفة من توجهت له تلك الحكم، ومن خاطبته من الناس، وهذا يستلزم مقدمة بسيطة في الحديث عنها وعمن كان يقصد بها فأقول:

ذكرت لك أيها المريد سابقا أن العوالم ثلاثة، عالم الأزل، وعالم الزمن، وعالم

---

(١) هذه المقدمة من شرح شيخنا للحكم العطائية، فقد قال إن هذه المقدمة ضرورية قبل البدء في الشرح.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٩.

الأبد، وقد بينت لك المراد منها وما حدث فيها.

ونعود منها إلى بداية الخلق، فحين انبثقت الأرواح من الروحانية المحمدية في الأزل قال لها المولى عز وجل: أيتها الأرواح، من ربكم، قالوا ربنا الذي خلق كل شيء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(١).

ثم قال الله سبحانه للأرواح بعد أن اعترفت بربوبيته: هل ترون أني أظلم أحدا منكم، قالوا: لا، ما أنت بظلام للعبيد، فقال: أيتها الأرواح، اجلسي على مائدة الأقدار واختاري ما تشائين قبل أن يكتب القلم، فانقسمت الأرواح إلى أربعة أقسام:

قال القسم الأول: يا ربنا لا نختار شيئا سواك، فقال لهم: كونوا ملائكة مقربين.

وقال القسم الثاني: يا ربنا اختر لنا، فما كان لهم الخيرة، فاختار الله لهم فرضوا باختياره، وهم الأنبياء والأصفياء والأولياء.

وقال القسم الثالث: يا ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فنحن نريد متاع الدنيا ونعيم الآخرة، وهم المؤمنون.

وقال القسم الرابع: نحن نختار الدنيا ومتاعها، سواء أكان حراما أم حلالا، وهم الكفار.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: أيتها الأرواح قد اخترت ما شئت من الأقدار، قالت: بلى، قال: يا قلم، اكتب ما اختارته الأرواح، فكتب القلم، وجف القلم، ورفعت الصحف، ورضيت كل الأرواح بما اختارته في الأزل، وسوف يطبق عليهم هذا الاختيار في عالم الزمن، فلما نزلت الأرواح في الأشباح أي الأجساد في عالم الزمن وجدت النفوس جامحة متطلعة، غير راضية بما كتبه الله لها واختارته بنفسها، هنا بدأت المعركة الحقيقية بين الروح والنفس، فالنفس تشتهي وتتطلع، والروح تقول لها هذا غير مكتوب لك من الأزل فاقنعي، فتأبى النفس وتجعل صاحبها في جحيم لا يطاق بسبب التطلع،

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢.

أما إذا رضيت النفس بما كتبه الله للأرواح اطمأنت النفس، ورضيت الروح، فيرضى الله عنها وترضى عنه، وهي التي يأمر الله ملائكته يوم القيامة بدخولها الجنة، لقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(١).

ومن هنا علمنا أن الخلائق درجات، كما أن الجنة درجات، وأن النار دركات كما أن بعض الناس دركات، وأن الله فضل بعضنا على بعض، كما فضل بعض الأزمنة على بعض، وبعض الأمكنة على بعض، فمن الأحجار ما يداس، ومنها ما يباس، ومنها ما يضرب بالفاس، ومنها ما يحمل على الراس، كذلك الخلق، لكن نفوس الخلق المريضة أنكرت ذلك، وظنت أن الأمور بكثرة العمل والعبادة فقط، فأراد ابن عطاء الله السكندري -رضي الله عنه وأرضاه- أن يصحح هذه المفاهيم المغلوطة، ويهدي هذه النفوس الجامحة، ويبين أن من الناس مَنْ تطلبهم الأنوار، ومنهم من يطلب الأنوار، ومنهم من يشتاق الله لصوته، ومنهم من يود سكوته، ومنهم من تطلبه الأرزاق، ومنهم من يطلب الأرزاق، هؤلاء يرزقون بغير حساب، وهؤلاء يرزقون بالأسباب، كما قال النبي ﷺ: (من أشرب قلبه حب الدنيا التاط(٢) منها بثلاث: شقاء لا ينفد عناه، وحرص لا يبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه، فالدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يأتيه الموت فيأخذه، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه)(٣)، وفرق بين الطالب والمطلوب، فسيدنا محمد ﷺ كان مطلوبا فحُمل بالبراق، وقطع السبع الطباق، ووصل إلى رب الأرباب عند البساط، وعند سدرة المنتهى، وسيدنا موسى كان طالبا، فقال الله له: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ

---

(١) سورة الفجر الآيات من ٢٧ إلى ٣٠.

(٢) **التاط:** أي التصق بقلبه منها.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم ١٠٣٢٨، المعجم الكبير ١٠/١٦٢.

تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

ومنهم من يدخل الجنة بغير حساب، ومنهم من يحاسب خمسين ألف سنة واقفا في العذاب، ومنهم من جعله الله لمحبته، ومنهم من جعله لخدمته، ومنهم من تأتيه الأنوار والأسرار فتدخل قلبه، ومنهم من تأتيه الأنوار والأسرار فتجد قلبه مغلقا بالأكدار والأغيار والآثار، فتعود من حيث أتت، ومنهم من يريد النعيم في الجنة، ومنهم من يريد وجه الله الكريم ورضوانه العميم، ومنهم من تشتاق الجنة إليه، ومنهم من يشتاق إلى الجنة.

بل إن الإنسان لا يعرف نفسه وقلبه وروحه وربه وما المراد منه في هذه الحياة إلا بعد قراءة هذه الحكم العظيمة الجليلة.

لقد بين ابن عطاء الله هؤلاء وهؤلاء، ومكانتهم في الدنيا، وأحوالهم، وأعمالهم، ومعرفتهم حتى نهتدي إليهم، ونحبهم فنكون معهم يوم القيامة، فهم القوم الذين لا يشقى جليسهم، لقول الصادق الأمين سيدنا محمد ﷺ: حين جاءه رجل يسأله عن الساعة، فقال: (ما أعددت لها؟، فكأنه لم يذكر كثيرا إلا أنه قال: إني أحب الله ورسوله، قال: فإنك مع من تحب)[٢]، فالحب لا تجبره العبادة إذا نقص، والعبادة يجبرها الحب إذا نقصت، يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[٣]، واعلم أن هؤلاء المحبين لله –عز وجل– جعل رزقهم لا يتعلق بالأسباب كسائر البشر، بل يرزقهم بغير حساب، والذي يرزقه الله بغير حساب لا يحاسبه على رزقه أبدا يوم القيامة، فهم يدخلون الجنة بغير حساب، يجلسون على منابر من نور والناس في حساب، اللهم اجعلنا منهم والسامعين

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

(٢) أخرجه ابن المبارك عن أنس بن مالك ﷺ في الزهد والرقائق ص٣٦٠.

(٣) سورة المائدة الآية ١٨.

برحمتك يا أرحم الراحمين.

ولما أراد ابن عطاء الله شرح هذه الحكم توجه إلى كل طائفة من الطوائف السابقة بحِكَمٍ تليق بحالها، وتتناسب ومقامها، فذكر الحِكَم الأولى لطائفة الأولياء والأصفياء والصالحين، ثم مَنْ بعدهم من المؤمنين، وإن كان كل فريق منهم مخاطبا بكل الحكم، مشمول بها.

والإمام ابن عجيبة يرى أن الحكم تتضمن أربعة من علوم القوم، أولها: علم التذكير والوعظ، وقد حاز منه بأوفر نصيب، وثانيها: تصفية الأعمال، وتصحيح الأحوال بتحلية الباطن بالأخلاق المحمودة، وتطهيره من الأوصاف المذمومة، وهذا حظ المتوجهين الصادقين والمبتدئين من السالكين، وثالثها: تحقيق الأحوال والمقامات، وهو نصيب المبتدئين من العارفين، ورابعها: المعارف والعلوم الإلهية، وهي ثمرات التصفية والتطهير، فإذا تطهرت الأسرار ملئت بالعلوم والمعارف والأنوار، لذا فإن ابن عطاء الله جمع في حكمه ما في كتب الصوفية المطولة.

بينما يرى بعض الشارحين المعاصرين للحكم(١) أن ابن عطاء قد جعلها تدور على ثلاثة محاور، المحور الأول عن التوحيد، والثاني عن الأخلاق، والثالث عن آداب السلوك وتطهير القلب.

ولا يزال كل شارح يرى فيها تقسيما، وفضلا، ولذا تعددت شروحها، فقد اتسعت أمداد الحكم، وزادت بركاتها، وسيظل فيها جديد لكل شارح.

وقد بيّن ابن عطاء الله في حكمه أسباب الفلاح والنجاح، وأشار إلى أسباب الهلاك والبوار، وحدد ما يهجم على القلب من الأكدار والأغيار، وكيف ينجو المؤمن منها، ويستعين بالله عليها، وربط بين كل حكمة والتي تليها ربطا بليغا لتصبح كل حكمة مكملة للتالية بعدها لا منفصلة عنها، ولا بعيدة في المعنى عن مجالها، وهذه الحكم حسب ما عددها الشارحون له مائتان وأربع وستون حكمة.

---

(١) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله في شرحه للحكم.

وسوف أبدأ بشرح هذه الحكم، فأقول وبالله التوفيق وعليه التكلان، ومنه المدد والخير والفيوضات:

**١- مِنْ عَلَامَةِ الاعْتِمادِ عَلَى العَمَلِ، نُقْصانُ الرَّجاءِ عِنْدَ وُجودِ الزَّلَلِ**

هذه أول حكمة ذكرها ابن عطاء الله رحمه الله في حكمه، وقد قصد بها فريق الأولياء الصالحين العارفين بالله عز وجل، من اختاروا أن يختار لهم الله تعالى، وإنما بدأ بهم ولم يبدأ بغيرهم مع أن الأولى أن يبدأ بالأقل ويتدرج إلى الأعلى، أقول بدأ بهم حتى ينشط المريد، ويشحذ همته من البداية، ويقتدي بمن ترقى في مدارج السلوك حتى وصل إلى القمة، فلا تفتر همته، ولا يخذل نشاطه أو ينقص، ولا يجعله يعتمد على عمله الصالح، وإنما يعتمد على فضل مولاه، وحتى لا يقع في براثن العجب والكبر بعبادته فيكون من الهالكين، وقد قال ابن عطاء: رب معصية أورثت ذلًا وانكسارًا خير من طاعة أورثت عجبًا واستكبارًا، ولما سئل سعيد بن جبير رضي الله عنه: من أعبد الناس؟، قال: رجل اجترح من الذنوب، وكلما ذكر ذنبه احتقر نفسه.

ومن هنا تشرق بداية المريد إذا اعتمد على فضل مولاه، ولم يكن اعتماده على محض عمله، ومن أشرقت بدايته كانت فألا لإشراق نهايته، ولا يعتمد الإنسان على عمله في نيل جنة ربه، فإن دخول الجنة يكون بمحض فضل الله جل وعلا.

ولذا يقصد بهذه الحكمة أن العمل بلا شك مطلوب تعبدا، ولكن ليعرف العامل أنه مهما عمل لابد من أن يكون قلبه معلقا بالله تعالى، وليعلم أن عمله لن يبلغ به درجات الكمال، ولن يكون سببا لدخوله الجنة، بل هو وسيلة وليس مقصدا، فالمقصد هو معرفة الله تعالى وحبه، فليست العبرة بكثرة العمل ولا قلته، وإنما العبرة بقدر الإخلاص فيه، والتجرد لله به، والبعد عن الزهو والغرور، وحب الشهرة والظهور.

ومن علامات الاعتماد على العمل أن ينقص رجاؤه في الله عند وجود الزلل أي المعاصي، لكن الله الذي قدر له العمل الطالح قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[(١)]، وهو

---

(١) سورة الصافات الآية ٩٦.

الذي قدر عليه العمل الطالح فلابد أن يرضى بما قدره الله لكن يخاف من وقوع ذلك منه، فلما عرف العارفون أن الله خلقهم وما يعملون تخلوا عن تدبيرهم واختيارهم، وفوضوا الأمر إلى مولاهم، فهم غرقى في بحار الرضا بالأقدار، وعلموا من نبيهم ﷺ أنه قال: (لن يدخل أحدا عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا)(١).

ولو سأل سائل: هل يعني ذلك أننا نتكاسل عن العمل؟ وكيف نوفق بين هذا الحديث وقول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢)؟.

أقول له: نعم، إن العمل الصالح شيء عظيم، يرفع الدرجات في الجنة، لكن دخول الجنة بمحض فضل الله عز وجل، والعمل الصالح لا يكون معتبرا إلا إذا كان مقبولا، وقبول العمل يكون بمحض فضل الله جل جلاله، فيكون دخول الجنة بمحض فضل الله سبحانه، قال ﷺ: (لو وضع إيمان أبي بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها)(٣)، لكن ليس ذلك بكثرة صيامه ولا صلاته، ولكنه شيء وقر في قلبه ﷺ، فما وقر في قلبه هو محض فضل الله واليقين، وعلمه بالله حق اليقين، وأنه هو الكريم، ومع ذلك كان يخاف من الله -جل وعلا- ويخشاه، مع أنه يدخل الجنة بغير حساب، وقد بشره النبي ﷺ بذلك، بل قال فيه ربه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾(٤).

فاعلم أن المقصود من تلك الحكمة أنك تجتهد في العمل، وتزيد منه، وأن تكثر

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث ٥٦٧٣، الصحيح ١٢١/٧، وأخرجه مسلم في الحديث ٢٨١٦، الصحيح ٢١٦٩/٤.

(٢) سورة النحل الآية ٣٢.

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٣٥٨/٧.

(٤) سورة الليل الآيات من ١٧ إلى ٢١.

من عمل الصالحات صلاة وصياما وصدقة، فقد كان سيد الخلق ﷺ أكثر الناس صلاة وصياما وعملا حتى تورمت قدماه من الصلاة، وكان يصوم حتى لا يكاد يفطر، ولكن لا تجعل العمل هو الوسيلة الوحيدة لدخول جنته، أو أن تحسب أن عملك هو منقذك فقط بغير رضا الله تعالى، فيزيدك ذلك تجردا وإخلاصا وعلوا وتقربا من الله سبحانه، وأن تعرف أن عملك ليس منك، وإنما هو توفيق الله لك، وسبب رضاه عنك، فهذه الحكمة تناسب العارفين الزهاد الذين يعرفون ويدركون أن الأعمال كلها من الله تعالى وليست منهم، فلا يفرحون بالأعمال الصالحة، ولا يعظم رجاؤهم بسببها، ولا تغمهم الأعمال السيئة، ولا ينقص أملهم في الله بسببها.

## ٢- إرادَتُكَ التَّجْريدَ مَعَ إقامَةِ اللّهِ إيّاكَ في الأسْبابِ مِنَ الشَّهْوَةِ الخَفيَّةِ، وإرادَتُكَ الأَسْبابَ مَعَ إقامَةِ اللّهِ إيّاكَ فِي التَّجْريدِ انْحِطاطٌ عَنِ الهِمَّةِ العَلِيَّةِ

كثير من الناس لا يرضى بما قدره الله له، ولا يقنع بما أقامه الله فيه، وقد يكون عدم الرضا هذا بإقامة النفس في غير مكانها، أو التطلع إلى ما لم يقمها الله فيه، وقد يجر عليه هذا التطلع الخيبة في الدنيا، أو أن يجني من ورائه الهم والكدر، والمؤمن البصير من يقوم حيث أقامه الله، ويرضى بمراد الله فيه، فإن أقامه في محل بتوفيقه وفقه الله، ومن طلب شيئا أوكل إليه، ومن طلبه الله وفقه فيما أوكل إليه.

وهذه الحكمة التي معنا مكملة للحكمة السابقة عليها، فمن أقامه الله في الأسباب لابد أن يأخذ بالأسباب الظاهرة من السعي الحلال والعلم الظاهر، ولا يتجرد من ذلك، فإن تجرد منه كان ذلك من الشهوة الخفية، والشهوة تعني عدم وقوفه عند مراد الله، وكونها خفية، لأنه لا حظ للنفس فيها ظاهر، فيوكله الله إلى نفسه، فتنقلب حياته من الحلاوة إلى المرارة، ومن الصفاء إلى الكدر، ومن الانبساط إلى الانقباض، فيتذوق طعم مرارة مخالفة أوامر مولاه (قم حيث أقامك)، واعلم أن مقامك حيث أقامك.

ومن أقامه مولاه في التجرد عن الأسباب ورزقه من حيث لا يحتسب فلا يكون له أن يأخذ بالأسباب، لأن ذلك من انحطاطه عن الهمة العلية، لأنه انحطاط من الخالق

إلى الخلق، ونزول من الأعلى إلى الأسفل، فإذا جعلك الله لمحبته فلا تطلب خدمته، وإن جعلك من أوليائه فلا تكن من عباده، وليقم كل إنسان حيث أقامه الله، فمن جعلهم لمحبته غرقى في بحار الحب والأنس بالله.

وهذه الحكمة تذكرنا بما نراه اليوم في عالم الظاهر حين رق دين المرء، وانفتحت الدنيا بابتلاءتها خيرا أو شرا، فجمحت النفوس كالوحوش الضارية، وارتكبت المخالفات الشرعية التي يندى لها الجبين من التملق والمحسوبية، والنفاق والرياء، والعجب والكبر، وحب المناصب ورغبة الظهور، وعدم الرضا بما أقامه الله فيه، فأوكله الله إلى نفسه، فأصبح ولا أرض تقله ولا سماء تظله، فهو هالك لا محالة في الدنيا والآخرة، نسأل الله السلامة والعافية.

ومن علامة الإقامة حصول الاستقامة، وتيسر الأسباب، وراحة القلوب لما قضاه علام الغيوب، وعكسها لا تحصل استقامة، ولا تتيسر أسباب، ولا ترتاح قلوب.

ويجدر التنبيه لمن أقامه الله في الأسباب أن يعلم تمام العلم أن الأسباب ليست فاعلة بنفسها، ولا قائمة بذاتها، فلا فعال إلا الله عز وجل، وهو الفعال لما يريد، فالأسباب مخلوقة، حيث يقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(١)، فيخلق الله الإنسان، ثم يقدر له الرزق، فيتعلق بالسبب، فيهديه إلى السبب، فيحصل ما كتبه الله له وقدره، فالأسباب لا تتعلق بها الأرزاق، لأن الأرزاق عند الله تعالى، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(٢)، فهنا قال سبحانه: من رزقه، ولم يقل من رزقها، كما أنه قال: امشوا، ولم يقل فروا أو أسرعوا كما هو الحال عند طلب الفرار إلى الله، أو المسارعة إلى محبته ورضاه.

فيا من كتب الله له الأخذ بالأسباب، وكتب عليه السعي للعلم والأرزاق خذ

---

(١) سورة الأعلى الآيتان ٢، ٣.

(٢) سورة الملك الآية ١٥.

بالأسباب بتؤدة، وأقدم عليها باطمئنان وثقة، واعلم أن الله مقدر لك رزقك، ولن يأخذه غيرك، ولن تموت حتى تستوفيه، ومهما بالغت في السعي، أو تكالبت على المشي، فإن الدنيا لن تنال منها إلا ما قدره الله لك وعليك، ولن تخرج منها إلا بما سطره لك، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[1]، وإياك أن تترك ما طلبه منك من أسباب، وأن تقيم نفسك في غير ما أقامها الله، وتدعي أنك من أهل الولاية والصفاء، فتخسر في الدنيا والآخرة.

ويا من أقامه الله في التجريد، حريٌّ بك أن تقوم حيث أقامك، ولا تنحط عن الهمة العلية إلى الدنيا الفانية، فتهلك بطلب أسباب قد أغناك الله عنها، وتجري وراء أغراض قد تكفل لك بها، وتغرق في دنيا أراد الله لك النجاة منها.

## ٣- سَوَابِقُ الهِمَمِ لا تَخْرِقُ أَسْوارَ الأَقْدارِ

الهمم في الناس متفاوتة، والسعي لديهم متباين، فهناك من همته عالية، ودأبه على العمل متواصل، والأخذ بالأسباب عنده عال، وهناك من همته خافتة، وإرادته ضعيفة، فهل لكل ذلك من أثر؟.

إن هذه الحكمة تأتي في هذا الإطار لتوضح مفاهيم، وتبني أسسا، وهي حكمة لها علاقة قوية بما سبقها وما يلحقها من حكم ابن عطاء الله، ويريد أن يقول في هذه الحكمة إن أقدار الله التي قدرت في عالم الأزل لابد نافذة على كل البشر في عالم الزمن، ولا يوجد ما يمنع من ذلك أو يحول دون ما قدره الله أزلا باختيار الإنسان ورضاه.

وقد جعل الأقدار وكأنها مدينة محاطة بالأسوار، مستغلقة المداخل، محصنة بأقوى الأحجار، ممنوعة من التسلق إلا بإرادة الله جل وعلا، وأن الهمم مهما بلغت من علوها، ومهما ارتفعت في مظانها لا يمكنها أن تخرق هذه الأسوار، ولا أن تتسلق قممها العالية، وهو يريد من ذلك الاستسلام الكامل لما قدره الله عز وجل بعد بذل

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢٢.

الوسع في الأخذ بالسبب، وعدم التهالك وراء النتائج، ولابد أن تسلم لأمر مولاك وقضائه وقدره، فلا حيلة لك في ذلك، ومهما اتخذت من أسباب، أو قصدت من ترتيب، أو سعيت في جلب الخير أو دفع الضرر لن يكون إلا ما قدره الله لك وكتبه عليك، فأرح نفسك واترك تدبيرك واختيارك، وهذا قمة التوحيد لله عز وجل.

وما أشبه من يريد أن يسبق بهمته أسوار الأقدار بنملة وقعت لدى قطرة عسل فشربت منها ما قدر الله لها، لكن الطمع أعماها، والتهالك في السبب أرداها، فانغمست في قطرة العسل حتى تشبع أكثر وتستمع بدرجة أكبر فما كان إلا أن التصقت قدماها ولم تخرج منها حتى غرقت وماتت، فكان السبب قاتلها، والتهالك جانيا عليها، وعدم الرضا بما قدره الله سببا لموتها وفناها.

ولا يعني ذلك التواكل والتكاسل، ولكن ليأخذ الإنسان بالأسباب قدر وسعه دون مبالغة أو إفراط في الاعتقاد بها والتوكل عليها، ولكن مع إيمان بأن ما قدره الله سيكون، وما كتبه سينزل به خيرا أو شرا، فلا يطغيه خير يحدث، ولا يبعده شر يقع، بل هو راض بالسراء والضراء، مقيم على فضل الله، غنيا وفقيرا، صحيحا ومريضا، قادرا وعاجزا، ذا منصب أو مسلوب المنصب، وأختم بهذا الأثر عن الحسن البصري رحمه الله تعالى حيث كان يقول: رأيت سبعين بدريًا كانوا والله فيما أحلّه الله تعالى لهم أزهد منكم فيما حرّم اللّه تعالى عليكم، كانوا بالبلاء والشدة تصيبهم أشد فرحاً منكم بالخصب والرخاء، لو رأيتموهم قلتم مجانين، ولو رأوا خياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا شراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب، وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه، ويقول أخاف أن يفسد على قلبي.

أرأيتم هذا الحب الصادق لله، والتوكل الخالص عليه من قدوة المؤمنين وخاصتهم، فمن كان له قلب صافٍ فليعمل على حفظه من فساده، وأن يخاف من تغيرّه وإبعاده، وأن يجتهد في صلاحه وإرشاده، ثبت الله قلوبنا على دينه، وحفظنا من شرور الأغيار والأكدار والآثار.

### ٤- أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبيرِ، فَما قامَ بِهِ غَيرُكَ عَنْكَ لا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ

إن هذه الحكمة تأتي في مدارج الرقي التي بدأها ابن عطاء الله رحمه الله، فهي مكملة للسابقة عليها، وحلقة من حلقات الدلالة على الرضا، فحكم ابن عطاء الله سلسلة متصلة، كل واحدة تكمل ما بعدها، وتفتقر إلى ما قبلها، وهذه الحكمة تثير سؤالا للنفس ترتاح له، وتركن إليه، وتطمئن به: إذا كانت الأقدار لا تخرقها الهمم العالية فما فائدة التدبير والاختيار؟، إذن لا بد أن يريح الإنسان نفسه من قهر التدبير، ومرارة الاختيار، وعناء البحث والتفكير، ويفوض أمره إلى مولاه، فقد قام بذلك عنه؟.

ومما يجب التنبه له هنا أن ابن عطاء الله ﷺ يقصد من التدبير هنا التدبير المنافي للعبودية، بأن يقول الإنسان لو فعلت كذا لكان كذا، فإن (لو) تفتح باب الشياطين، وتنهار منها النفوس القلقة، والقلوب الخاوية، أما التدبير الذي لا ينافي العبودية، المصحوب بالتفويض للعليم الخبير فهو مطلوب، حتى لا يتناقض ذلك مع ما جاء به الإسلام من طلب الأخذ بالأسباب، والسعي في الأرض للكسب والمعيشة، والتدبير لكفاية النفس والأهل، وترتيب ظروف الحياة.

فالإنسان إذا همّ لفعل شيء لابد أن يستخير الله تعالى فيه، مهما كان صغره أو قل أمره، لأن النبي ﷺ كان يعلم أصحابه الاستخارة كما يعلمهم الآية من القرآن، ثم يدبر أمره ويفوض الأمر إلى الله، ويرضى بعد ذلك بما قدره وقضاه، وهذا هو التدبير غير المنافي للعبودية.

ولذا كان سهل بن عبدالله التستري يقول: من خَدَم خُدِم، ومعناه من ترك التدبير والاختيار وُفّق، ومن لم يوفق لم يترك التدبير، فإن الفرج كله في تدبير الله لنا برضاه، والشقاء كله في تدبيرنا، ولا نجد السلامة حتى نكون في التدبير كأهل القبور.

وكان يقول: ذروا التدبير والاختيار، فإنهما يكدران على الناس عيشهم.

وورد عنه كذلك قوله: البلوى من الله على وجهين: بلوى رحمة، وبلوى عقوبة، فبلوى الرحمة تبعث صاحبها على إظهار فقره إلى الله تعالى وترك التدبير، وبلوى العقوبة تبعث صاحبها على اختياره وتدبيره.

وكان العلماء يقولون: الزاهد من لا يملك شيئا ولا يملكه شيء.

فليعلم المرء أن الله هو الفعال لما يريد، وأنه المدبر لكل شيء، فالأمر أمره، والنهي نهيه، والإرادة إرادته، ولا معقب لحكمه، يقول بعض العارفين ترجمة لهذه الحكمة: لا تدبر لنفسك أمرا فأولي التدبير هلكى، وفوض الأمر إلينا تجدنا أولى بك منك.

وقال آخر: اطرق باب ربك، واترك كل دون، واسأله السلامة من دار الفتون، همك واهتمامك دعهما وراءك والتفكير، وأحسن في الظنون، الذي لغيرك لا يصل إليك، والذي قسم لك قائم لديك، الزم باب ربك.

وقال آخر: ما كان لك خرق الحجب، وطرق عليك الباب، وما لم يكن لك لن تناله ولو بالغت في الأسباب.

وقد مر القوم على سيدي أبي الحسن الشاذلي في وقت الحر الشديد فوجدوه يرتعش من شدة البرد فقالوا: ما هذا؟ قال: هذا شدة التسليم لله عز وجل.

نسأل الله نعمة التسليم لأمره، والرضا بقضائه، والتفويض إليه، والتوكل عليه.

## ٥- اجْتِهادُكَ فيما ضُمِنَ لَكَ وَتَقصيرُكَ فيما طُلِبَ مِنْكَ دَليلٌ عَلى انْطِماسِ البَصيرَةِ مِنْكَ

عجيب أمر الإنسان، يلهث وراء ما هو مضمون، يأكل نفسه لنيل ما هو مكتوب، ويحرق أعصابه فيما قدره الله له وعليه، يمضي الليل والنهار يرتب ويجتهد، ويدبر ويحكم، ويسر ويعلن، ويحزن ويفرح، ولا يدري أنه يفرح بما كتب له، ويحزن مما قدر عليه، ولا حيلة له في كل منهما.

لقد ضمن الله –عز وجل– للإنسان الرزق والأجل، فلا اجتهاد فيهما، ولا تغيير لما كتب عليه منهما، وطلب منه الطاعة والعبادة، والحب والقيام بحقوق الربوبية له، لكن الإنسان قلب الحقائق، وضل السبيل، فاجتهد فيما هو مكتوب، وقصر فيما هو مطلوب، ولذلك شقي في حياته، وانطمست بصيرته، وفقد بوصلته لطريق النجاة،

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١)، ولذا لا تجد لمثل هذا الشخص نورا في حياته، أو بركة في عمره أو ماله، أو توهجا في وجهه، بل ظلمة حالكة، وحرص مميت، وقلب أعمى، فقد انطمست بصيرته بإقباله على الدنيا، وانشغاله بها عن الله عز وجل، وهذا حال كثير من الناس ممن أصابهم الهم الذي لا ينقطع، والغم الذي لا ينتهي، فأصبحت حياتهم كئيبة، وقلوبهم متحجرة، وبركة أعمارهم وأموالهم ممحوقة، وسعيهم غير مبارك، وأولادهم وزوجاتهم فتنة وليست نعمة، وغرقوا في أوحال الشهوات، وابتلوا بحب الفانيات، وحجبت عنهم الأنوار والأسرار، وأصبحت حياتهم جبالا من الأكدار، وهما بالأغيار، وتعلقا بالآثار، وذلا للعباد، وبعدا عن رب العباد.

ولذلك يقول ابن عطاء الله ﷺ: النعم وإن تنوعت مظاهرها إنما هي بشهوده واقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه، فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم.

فسبب العذاب وجود الحجاب من الله عز وجل، فالناس محجوبون عن الله سبحانه وتعالى بانكبابهم على الدنيا، وبانشغالهم بشهواتهم وملذاتهم.

وليعلم الإنسان أن رزقه الذي يجتهد فيه ليلا ونهارا مضمون عند الله عز وجل، وأنه لن يخطئه، وأن نفسه لن تموت حتى تستوفي رزقها وأجلها كما قال المعصوم صلوات الله وسلامه عليه.

ولقد أقسم الله على ذلك فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾(٢)، لكن الناس عميت قلوبهم عن التصديق، وغفلت نفوسهم عن الاعتقاد، وران حب الدنيا عليهم، فأعماهم، وجعلهم يلهثون وراءها، ولو صدقوا ما كان حالهم هكذا، إننا نتكالب على الدنيا أكثر من الوحوش الضارية

---

(١) سورة الحج من الآية ٤٦.

(٢) سورة الذاريات الآيتان ٢٢، ٢٣.

والطيور الجارحة، وظننا أن الدنيا مغالبة ومطالبة، ونسينا أن الله قدر كل شيء فيها ودبره.

ولا يعني ذلك أن يكون المؤمن كسولا خاملا، ولا متواكلا متوانيا، ولكن كما تجتهد في الأخذ بأسباب الدنيا وهي مضمونة لا تقصر فيما هو مطلوب وغير مضمون، ففي الحديث الذي رواه عون بن أبي جحيفة عن أبيه، قال: (آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال: كل؟ قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال: سلمان قم الآن، فصليا فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: صدق سلمان)[١]، فلو أنعمنا النظر في هذا الحديث لوجدنا أن النبي ﷺ أقر سلمان على تقسيم وقت المرء إلى ثلاثة، فنصيب ربه الثلث ليقضيه في الذكر والعبادة، ونصيب نفسه الثلث ليقضيه في طعامه وشرابه ونومه، ونصيب أهله الثلث ليقضيه في السعي عليهم والنظر في حالهم، وإذا كان اليوم أربعا وعشرين ساعة، فمعنى ذلك أن لكل ثلث منها ثمان ساعات، فأين الناس من ذلك ومن هذا الهدي النبوي؟، نسأل الله السلامة والعافية.

وليعلم المرء أن له أولادا ثلاثة يقسم وقته بينهم، أولاد الصلب أو النفس أو الولادة، وأولاد الإفادة، وأولاد الذكر، فأما أولاد النفس أو الصلب فهم أولاده الذين تناسلوا بالنكاح، وهؤلاء يرثون ماله وكل كثيف منه.

وأما أولاد الإفادة فهم تلاميذه ومريدوه الذين ينهلون من علمه، وقد يكونون أكثر فائدة له ووفاء ومحبة من أولاد الصلب، حيث يحبونه ويجلونه ويخدمونه، ويود كل

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم١٩٦٨، الصحيح ٣/٣٨.

منهم بوفائه أن لو وضعه فوق رأسه، خدمة له، وبرّاً به، ووفاء لحقه عليهم بما علمهم وقربهم من الله عز وجل، وهؤلاء يرثون علومه وكتبه وأفكاره.

وأما أولاد الذكر أو أولاد الروح فهم من يخلقهم الله من أذكاره، لأن الروح إذا صفت واستنارت بأنوار الملكوت فإنه يخرج منه موجب من الفم، فيكون كلاما طيبا يتكون منه الروحانيون، فيكونون أولادا له من اللطيف، فإذا توفي فإنهم يقتسمون أذكاره وأوراده، فمنهم من يأخذ الصلاة على النبي ﷺ، ومنهم من يأخذ التهليل أو التكبير، فيجلس على قبره حتى القيامة يكبر ويهلل، ومنهم من يرث التسبيح أو الاستغفار، وكل واحد منهم يجلس على قبره يذكر الله بما كان يذكره به إلى يوم القيامة، فيجب على الإنسان أن يقسم وقته على أولاده الثلاثة، فيجمع المال لأولاد الولادة، ويجمع العلم لأولاد الإفادة، ويكثر الذكر لأولاده الروحانيين.

فإذا جمع ابن الولادة ما يقوم به أولاد الإفادة وأولاد الروح كانوا أفضل منهم.

## ٦- لا يَكُنْ تَأَخُّرُ أَمَدِ العَطاءِ مَعَ الإلْحاحِ في الدُّعاءِ مُوْجِباً لِيأْسِكَ، فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الإجابَةَ فيما يَخْتارُهُ لَكَ لا فيما تَخْتارُهُ لِنَفْسِكَ، وَفي الوَقْتِ الَّذي يُريدُ لا في الوَقْتِ الَّذي تُريدُ

خُلق الإنسان من عجل، والحرص على الخير يُعميه عن رؤية الأقدار، والرضا بما قدره الخالق الجبار، فهو في لهاثه نحو الخير واجتهاده فيما ضمن له يتخذ وسائل عديدة، ومنها وسيلة الدعاء والتضرع لله تعالى، فكانت هذه الحكمة متعلقة بما سبق لها وما يلحقها تعلقا وتواصلا كسلسلة ذهب، تصل كل واحدة منها بأختها فتكملها، ولا تنفصل عنها.

فالإنسان خلال حرصه على الدنيا ورغبته فيما ضمن له يتخذ كل الوسائل الموصلة والطرق الممكنة التي تصل به إلى ما يريد، ومنها بلا شك الدعاء والتضرع لله تعالى، ورغم أنها وسيلة مطلوبة ومشروعة حتى كانت مخ العبادة والصلة بين العبد وربه إلا أنها تظل وسيلة لا غاية، فيجب على الإنسان أن يدعو ربه، ويسأله كل

شيء، ويلح عليه في الدعاء، فالله سبحانه يحب العبد اللحوح، ويجيب الله العبد في كل دعوة وإن اختلفت طريقة الإجابة، فقد تأتي الإجابة مطابقة للدعاء في الحال أو بعد زمان، فإن تأخرت الإجابة إلى وقت معين يقدره فلا يكون ذلك مدعاة ليأس الداعي، ولا لقنوط الطالب الراجي، فقد ضمن الله لك الإجابة في كل أحوالك، ووعده حق لا يتخلف، وقد قال في كتابه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١]، ولكن الإنسان تنسيه عجلته، ويطغى عليه حب الشهوة والرغبة في العاجلة، ولا يهتدي لمصلحة نفسه كما يعرفها خالقه، فيريد الإجابة العاجلة، ولكن الله يعلم أن ذلك فيه هلاكه وبواره، وهو لا يدري، فيؤخر الله له الإجابة فيما يختاره له، لا فيما يختاره هو لنفسه، وفي الوقت الذي يريده الله له، لا في الوقت الذي يريده لنفسه، ولكنه لا نور عنده، فقد انطمست بصيرته، وطغت عليه شهوته، وران على قلبه حب ملذات الدنيا وشهواتها، فيتعجل ما في المصلحة تأخيره، ويريد ما في الخير له تأجيله، وأن يكون بكيفية يريدها الله عز وجل هي له الخير في الأولى والعقبى.

ويود ابن عطاء في هذه الحكمة أن يربط قلب المريد، فيستأنيه فيما يتعجل، وينصحه ألا يكون تأخير الإجابة موجبا ليأسه، بأن يقول دعوت الله ولم يستجب لي، كلا لقد استجاب الله لك حسب علمه وحسب مصلحتك، فهو سبحانه يعلم ولا تعلم، فربما طلبت شيئا كان الأولى منعه عنك، فيكون المنع عين العطاء، وقد قال ابن عطاء رحمه الله: ربما منعك فأعطاك، وربما أعطاك فمنعك، ويؤيد ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]، وها هو نبي الله موسى وأخوه هارون عليهما السلام يدعوان على فرعون بالهلاك والثبور سنين عددا، ويلجآن إلى الله طلبا لأخذه مددا بلغت أربعين عاما حتى استجاب الله لهما، ولم ييأسوا من روح الله، أو يكفوا عن الدعاء، أو يكون

---

(١) سورة البقرة من الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة من الآية ٢١٦.

تأخير الإجابة سببا لليأس، أو مدخلا للقنوط.

وليجعل المرء في ذهنه أن تأخير الإجابة قد تكون عنوانا للمحبة، فإن الله تعالى يؤخر إجابته حبا في سماع صوته، ففي الحديث الذي رواه جابر ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد ليدعو الله عز وجل وهو يحبه، فيقول الله عز وجل: يا جبريل اقض لعبدي هذا حاجته وأخرها، فإني أحب أن لا أزال أسمع صوته، قال: وإن العبد ليدعو الله عز وجل وهو يبغضه، فيقول الله عز وجل: يا جبريل اقض لعبدي هذا حاجته وعجلها، فإني أكره أن أسمع صوته)(١).

فلا تيأس أيها المحب من كثرة دعائك، ولا تقنط من تأخير إجابتك، فيكون ذلك داعيا لنفورك، أو سببا لقلة دعائك وعزوفك عن مخاطبة ربك، فإنه سبحانه كريم مجيب غفور، واعلم أنه إذا لم يستجب لك عاجلا فربما كان الخير في ذلك، وأنه يدخر لك ما هو أولى وأفضل، فكن مطمئنا بوعد مولاك الذي هو أرحم بك من والديك.

وكان ابن السماك يقول: الزاهد قد خرجت الأفراح والأحزان من قلبه، فهو لا يفرح بشيء من الدنيا أتاه، ولا يحزن على شيء منها، فإنه لا يبالي على عسر أصبح أم على يسر.

وإن كان من تنبيه أخير فاعلم أن الدعاء مهما كثر والطلب مهما زاد لا يكون سببا في العطاء رغم طلبه وفضله، فإن المولى جل جلاله يعطي من غير طلب، ويرزق من غير سبب، وإلا سل نفسك أين كان دعاؤك وأنت ترزق وتحفظ في بطن أمك، فاجعل دعاءك تحقيقا لمعنى العبودية، وقياما بحقوق الربوبية، جعلنا الله وإياك من المقبولين العابدين.

---

(١) أخرجه الطبراني في كتابه الدعاء برقم ٨٧، كتاب الدعاء ص٤٥، وفي المعجم الأوسط برقم ٨٤٤٢، المعجم الأوسط ٢١٦/٨.

## ٧- لا يُشَكّكَنَّكَ في الوَعْدِ عَدَمُ وُقوعِ المَوْعودِ، وإنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ؛ لِئَلّا يَكونَ ذلِكَ قَدْحًا في بَصيرَتِكَ وإخْماداً لِنُوْرِ سَريرَتِكَ

يرمي ابن عطاء الله من هذه الحكمة الرائعة تثبيت قلب المريد، والشد على يديه ونفسه، وكأنه يقول له أيها المريد السالك لا تشك أبدا في وعد مولاك، وإن لم يتحقق الموعود، حتى ولو تعين زمن ذلك الوعد، بأن أعلمك الله تعالى عن طريق الإلهام، أو عن طريق رجل صالح أنه سوف يتحقق لك ما وعدك الله به، أو يكمل لك رجاء، ولكنه لم يتحقق ولم يكتمل، فلا يكن ذلك سببا للشك في وعد الله، أو الانصراف عن جاهه ورضاه، فقد تكون شروط إجابة الدعاء غير متحققة فتخلف الوعد، فارجع إلى نفسك واعرف ما بها.

ولذا ذكر العلماء في الدعاء آدابا وللطلب سلوكا ينبغي للمحب أن يسلكها ويتأدب بها، ومن ذلك الطهارة والتوجه إلى القبلة، وأن يتحرى الأوقات الفاضلة كيوم الجمعة أو عند نزول المطر، أو ملاقاة الأعداء، وفي أوقات السفر، وأن يكون خالي القلب من الأكدار، وهي الكبر والعجب، والرياء والنفاق، وعدم حضور القلب وقت الدعاء، وعدم الإلحاح فيه، وحب الظهور، وعدم تحقيق معنى العبودية الكاملة، أو عدم القيام بحقوق الربوبية، فإن كل ذلك يمنع الإجابة، فإن شككت في وعد الله عز وجل كان ذلك سببا في إخماد نور سريرتك، وقدحا في بصيرتك، فمن لديه البصيرة ونور السريرة يعرف دائما مراد الله منه، فلا يشك أبدا في مولاه، بل يدين نفسه، تحقيقا لقول النبي ﷺ: (الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله)(١).

وليعلم المرء أنه متى خمدت بصيرته، وانطفأ نور سريرته ابتعد عن الله تعالى، والتصق بحب الدنيا، فران على قلبه ما كسب، وغلب على عقله ما طلب، واختفى إيمانه بما ابتغى، وكان شكه في موعود الله عز وجل سببا في ضياعه في وديان التيه

---

(١) سبق تخريجه.

والغرور، وسببا في دخوله بحار الأكدار، وتمكنت منه الأغيار والآثار، فضاع إيمانه، وذهب يقينه، فكان ابن عطاء الله تعالى في هذه الحكمة مرتبطا بما قبلها، حتى لا يكون الدعاء فقط سببا للإجابة، ولا يكون اليأس من موعود الله سببا للشك والقنوط.

ولذا لا يسمع الله تعالى دعاء مفرط ولا شاك ولا متبلد الشعور فاقد الحس بنعم الله تعالى، يقول عبدالله بن مسعود ﷺ: إن الله لا يسمع من مسمع ولا مراء ولا داع إلا داع دعاء ثبتا من قلبه، ولا يقبل إلا الناخلة من الدعاء.

وروي عن سيدنا عيسى عليه السلام أنه قال: أكثروا ذكر الله عز وجل وحمده وتقديسه، وأطيعوه، فإنما يكفي أحدكم من الدعاء، إذا كان الله عز وجل راضيا عنه أن يقول: اللهم اغفر لي خطيئتي، وأصلح لي معيشتي، وعافني من المكاره، يا إلهي.

وكان من دعاء داود عليه السلام: سبحان مستخرج الشكر بالعطاء، ومستخرج الدعاء بالبلاء.

وإن أردت أن تحفظ دعاء تدعو به فعليك بأدعية النبي ﷺ وهي كثيرة، وقد كان دائما يسأله العفو والعافية في الدين والدنيا، ويسأله السلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر، فعن أنس بن مالك ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان يدعو: (أعوذ بك من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات)[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان النبي ﷺ يدعو عند الكرب يقول: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض، ورب العرش العظيم)[٢].

واسمع لهذا الدعاء من بكر المزني مقتفيا فيه أثر دعاء النبي ﷺ: اللهم افتح لنا من خزائن رحمتك لا تعذبنا بعدها أبدا في الدنيا والآخرة، ومن فضلك الواسع رزقا حلالا طيبا، ولا تفقرنا بعده إلى أحد سواك أبدا، تزيدنا لك بها شكرا، وإليك فاقة وفقرا، وبك عمن سواك غنى وتعففا.

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٤٧٠٧، الصحيح ٨٢/٦.

(٢) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٣٤٥، الصحيح ٧٥/٨.

**٨- إذا فَتَحَ لَكَ وِجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ فَلا تُبَالِ مَعَهَا إِنْ قَلَّ عَمَلُكَ. فإِنّهُ ما فَتَحَهَا لَكَ إلا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِليْكَ؛ أَلَمْ تَعلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ والأَعْمالَ أَنْتَ مُهدِيها إليهِ، وأَينَ ما تُهْديه إلَيهَ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ** ؟!

لله ما أروع هذه الحكمة، وما أدق صياغتها، وما أقربها لفهم وقلب العاقل الواعي، لقد جمعت في كلماتها البسيطة وعباراتها الموجزة ما يمكن شرحه بين دفتي مجلدات كبار، ويحتاج في إيصاله للعامة إلى كتب وشروح كثيرة، بل إن هذه الحكمة مدار الأعمال كلها.

فمن عظمة الله عز وجل أنه يقلب عبده بين صفاته كلها، صفات القهر وصفات الرحمة، حتى يذيقه من جميع صفاته، ولا يحرمه من شيء منها، فإذا فتح على العبد بابا من أبواب القهر، كالأمراض، والأسقام، والبلايا، وقلة الرزق، وشح الموارد، فإنما أراد من ذلك التعرف على جلد العبد، وأن يعلم مدى صبره وتحمله وعدم جزعه، وهل يقل عمله من ذلك ويغضب أم يصبر ويثابر، فهذه الأمراض والبلايا والأسقام التي تقلل من صلاة العبد وصيامه تكون نعمة إذا كان العبد المبتلى بها صابرا حامدا، لأن الله قد فتح باب الامتحان والابتلاء ليتعرف على مدى صبره وشكره لله عز وجل، وهذا أكثر ثوابا من العبادات التي يؤديها الإنسان وهو سليم معافى، وذلك لأن العبادات تحتاج إلى الإخلاص لقبولها، أما هذه الفاقات فلا تحتاج إخلاصا بل رضا وحمدا، إذ ربما كانت هدية من الله إلى العبد، بخلاف العبادات فهي هدية العبد إلى الله تعالى، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك، لذلك يقول الله سبحانه في الحديث القدسي: (إذا ابتليت عبدي المؤمن، ولم يشكني إلى عواده أطلقته من أساري، ثم أبدلته لحما خيرا من لحمه، ودما خيرا من دمه، ثم يستأنف العمل)[١]، أي أنه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ولا يحاسبه على الأعمال السابقة، وقد روي أن رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الحاكم في الحديث رقم١٢٩٠، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، المستدرك ١/٥٠٠.

قال: (من مرض أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحا مقيما)(١).

فهذا هو الذي يليق بكرم الله على عبيده، وهذا العطاء من الله عز وجل، فكن أيها المؤمن صابرا محتسبا وقت البلاء، ولا تشكون الرحيم إلى من لا يرحم، ولا تشكون الغني إلى الفقير، ولا تبين ما أنزله العزيز بك إلى الأذلاء، فلن تقوم من مرضك، ولن يزول عنك فقرك، ولن يذهب ما جاء لك من ابتلاء إلا بقدرة الغني الكريم الحليم القادر، فإن شكواك العظيم إلى العباد كبيرة في حق نفسك، كيف ونعم الله عليك لا تعد ولا تحصى، فإذا ما أراد أن يتعرف عليك بشيء من البلاء جزعت وشكوت، وأصابك اليأس والهم والغم!!!، لا شك أن هذا لا يليق بمن عنده أدنى معرفة بالله عز وجل، ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، واغفر لنا وارحمنا، إنك على كل شيء قدير.

## ٩- تَنَوَّعَتْ أَجْناسُ الأَعْمالِ لِتَنَوُّعِ وارِداتِ الأَحْوالِ

الثبات في الحياة مستحيل، والتغير فيها سنة كونية، والمرء متقلب بين إيمان يزيد وينقص، وأعمال خير تقل وتكثر، وأعمال شر ترد على باله وتأخذ طريقها إلى الواقع، أو يردها بشيطانها مدحورة، وفي كل الأحوال تتغير أعماله، والعمل معبر عما في القلب.

واعلم أيها المريد أن جميع الأعمال الظاهرة الصالحة والطالحة نتيجة لما في القلب، فإن كان في القلب سالب أي ظلام، فإن الأفعال والأقوال التي تخرج من الإنسان تكون خبيثة مظلمة، وإن كان في القلب موجب أي نور فإن الأفعال والأقوال التي تخرج منه تكون طيبة، فقد قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم ١٠٨٠٥، المصنف ٢/٤٤١.

(٢) سورة إبراهيم الآيات من ٢٤ إلى ٢٦.

فالأعمال الظاهرة تابعة لأحوال القلب وما يرد عليه من الأسرار والأنوار والأحوال، والوارد قد يكون واردا ملائكيا كالإلهام، أو واردا شيطانيا كالوسوسة للنفس، والبصيرة هي التي تميز نوع الوارد، وقد قال النبي ﷺ: (ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)(١).

وهذه الأنوار والأحوال التي ترد على القلب لا تدخل فيه إلا إذا كان نقيا من الأكدار، صافيا من الأغيار، غير مشغول بالآثار، وإلا عادت من حيث أتت، وولت من حيث ولجت، ولذا اهتم النبي ﷺ في الحديث السابق بالقلب، فالله تعالى يغار أن يرى في قلب عبده المؤمن غير محبته، ولا يجد فيه غير التعلق به ولذة طاعته، والتذلل له طلبا لرضاه.

وقد تنبه الصحابة ﷺ إلى لذة القرب وحلاوة العبادة، ففي الأثر عن أبي ذر ﷺ قال: (إن الله تعالى يقول: يا جبريل انسخ من قلب عبدي المؤمن الحلاوة التي كان يجدها، فيصير العبد المؤمن والهاً طالباً الذي كان يعهد من نفسه، نزلت به مصيبة لم ينزل به مثلها قط، فإذا نظر الله تعالى إليه على تلك الحال قال: يا جبريل، رد إلى قلب عبدي ما نسخت منه، فقد ابتليته فوجدته صادقا، وسأمده من قبلي بزيادة، وإذا كان عبدا كذابا لم يكترث ولم يبال)(٢).

وقال بعض الحكماء: لا يجد الرجل حلاوة العبادة حتى يدخل في العبادة بالنية، ويرى المنة لله، ويعمل بالخشية، ويسلمه بالإخلاص، لأنه إذا دخل فيه بالنية، فيعلم أن الله تعالى قد وفقه لذلك العمل، وإذا رأى لله عليه المنة فيدخل فيه بالشكر، فكان له من الله الزيادة.

وإن كنت تريد حلاوة العبادة ولذة القرب فاتبع طريق الفالحين، واسمع لنصيحة العقلاء والحكماء، وضع في قلبك أعمالهم الزاكية ونفوسهم الراضية، واسمع لقول بعض

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه ابن المبارك برقم١٥٤٣، الزهد والرقائق ص٥٤٠.

الحكماء: ترك فضول الكلام يثمر النطق بالحكمة، وترك فضول النظر يثمر الخشوع والخشية، وترك فضول الطعام يثمر حلاوة العبادة، وترك الضحك يثمر حلاوة لهيبة، وترك الرغبة في الحرام يثمر المحبة، وترك التجسس عن عيوب الناس يثمر صلاح العيوب، وترك التوهم في الله ينفي الشك والشرك والنفاق.

ويقول الشاعر:

الصمت نفع والكلام مضرة — فلربّ صمت في الكلام شفاء

فإذا أردت من الكلام شفاء — لسقام قلبك فالقرآن دواء

وقال بشر بن الحارث: لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد.

وكان ذا النون يقول: سقم الجسد في الأوجاع، وسقم القلوب في الذنوب، فكما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه، كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع الذنوب.

ويقول بعض الحكماء: إذا لم يستعمل القلب فيما خلق له من الفكر في اجتلاب المصالح في الدين والدنيا واجتناب المفاسد تعطل، فاستترت جوهريته، فإذا أضيف إلى ذلك فعل ما يزيده ظلمة كشرب الخمر وطول النوم وكثرة الغفلة صار كالحديد يغشاه الصدأ فيفسده.

فيا أخي المؤمن، عليك بمراقبة قلبك، ولا تجعل الدنيا تبيض فيه وتفرخ، فتظل في حيرة من أمرك، وتعيش مخدوعا بالعبادات حتى ينتهي أجلك، ويكشف عنك الغطاء، وترى حقيقة فعلك أمام الله عز وجل، فهناك لا ينفع ندم، ولا تقبل توبة، ولا يدفع عنك ما يحيق بك مال أو بنون، نسأل الله بأنواره وأسراره أن ينقذ قلوبنا من الفرق قبل الجمع، وأعمالنا من الشرك، وأقوالنا من الكذب، إنه نعم المولى ونعم النصير.

## ١٠- الأَعْمالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ، وَأَرْواحُها وُجودُ سِرِّ الإِخْلاصِ فِيها

لم يكن الإسلام يوما صورة بلا معنى، ولا قولا بلا فائدة، ولا أفعالا صامتة تجريها الجوارح دون أن تمر على القلب وتنطبع فيه، ولا يمكن لفعل أن يقبل من غير

إخلاص لله تعالى، فأول شيء يحاسب عليه المرء كلمة التوحيد، ولا تقبل إلا إذا كانت من القلب، ولذا سمى الله تعالى السورة الخاصة بها الإخلاص.

وقد بين ابن عطاء رحمه الله في هذه الحكمة أن الأعمال صور وأشباح، قائمة بلا أرواح، والشيء بلا روح ميت لا قيمة له، وأرواح الأعمال هو الإخلاص الذي يكون في القلب، لا يطلع عليه ملك مقرب، ولا جني مارد، وإنما يطلع عليه المولى عز وجل فقط، فهو سر بين العبد وربه، وهو يختلف باختلاف الأشخاص.

فإخلاص العوام أو عامة المسلمين يعني سلامة أعمالهم من الرياء الجلي والخفي، وكل ما فيه حظ للنفس في الدنيا، فهم يعملون العمل من أجل الله طمعا في ثوابه والخوف من عقابه.

وإخلاص المحبين هو العمل لله إجلالا وتعظيما وحبا، لا يريدون غير ذلك من ثواب وعقاب، وإنما يريدون فقط رضوان الله عليهم.

وإخلاص المقربين بأنهم لا يرون لأنفسهم عملا حتى يخلصوا فيه، فهم يتبرأون من حولهم وقوتهم إلى حول الله وقوته، وهم لا يشاهدون إلا انفراد الحق في كل شيء، حتى إنهم يفنون في حب الله تعالى، وقد تخرج منهم عبارات يظنها البعض شركا وليست بشرك، ولا يقصدون منها الشرك، فحين قال بعضم: أنا الله، لم يقصد أنه إله كما يظن العامي من ظاهر العبارة ويعده كافرا، وإنما يقصد أنه أخلص في حب الله حتى صار فانيا فيه، ويوقن أن عمله ما كان منه إنما كان من خالقه الذي خلقه وما يعمل.

وقد أدرك السلف الصالح سر الإخلاص في الأعمال، فاهتموا بعمار القلب، وسلامة النية، يقول الحارث المحاسبي: أعمال البر كلها على وجهين، سر وعلانية، فمن لم يقدر على تصحيح السر فيما يعمل من السر كان للتصحيح فيما يعمل من العلانية أبعد، ومن قوي على تصحيحه في العلانية كان فيما يسر من أعماله أقوى، وهكذا في القليل والكثير، من لم يقدر على تصحيح النية في القليل من العمل كان في الكثير منه أبعد.

وقيل لبعض الحكماء: من المخلص؟ قال: المخلص الذي كتم حسناته كما يكتم سيئاته.

وقيل لبعضهم: ما غاية الإخلاص؟ قال: أن لا يحب محمدة الناس.

وقيل لذي النون المصري: متى يعلم الرجل أنه من صفوة الله تعالى؟ يعني من خواصه الذين اصطفاهم الله تعالى، قال: يعرف ذلك بأربعة أشياء: إذا خلع الراحة، يعني ترك الراحة، وأعطى من الموجود، يعني يعطي من القليل الذي عنده، وأحب سقوط المنزلة، واستوت عنده المحمدة والمذمة.

وثمرة الإخلاص في العبادة تظهر على اللسان، ولذا يقول ﷺ: (من أخلص لله العبادة أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)(١).

وكذا تظهر في ميزان الحسنات، فقد روى أبو حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الملائكة يرفعون عمل عبد من عباد الله فيستكثرونه ويزكونه حتى ينتهوا به حيث شاء الله تعالى من سلطانه فيوحي الله تعالى إليهم: أنكم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي هذا لم يخلص لي عمله، فاكتبوه في سجين، ويصعدون بعمل عبد فيستقلونه ويحتقرونه حتى ينتهوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي هذا أخلص لي عمله فاكتبوه في عليين)(٢).

وعن أبي ذر: إن رسول الله ﷺ قال: (قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليما، ولسانه صادقا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة، فأما الأذن فقمع، والعين مقرة بما يوعي القلب، وقد أفلح من جعل قلبه واعيا)(٣).

---

(١) ذكره الهناد السري في كتابه الزهد ٣٥٧/٢.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الحديث رقم٤٥٢، الزهد والرقائق ص١٥٣.

(٣) أخرجه أحمد في الحديث رقم٢١٣١٠، المسند ٢٣٩/٣٥.

وعن الضحاك بن قيس الفهري قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله عز وجل يقول: أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكي، يا أيها الناس، أخلصوا أعمالكم لله عز وجل، فإن الله لا يقبل إلا ما أخلص له، ولا تقولوا: هذا لله وللرحم، فإنها للرحم، وليس لله منها شيء، ولا تقولوا: هذا لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، وليس لله منها شيء)(١).

ويقول ابن مسعود ﷺ: طوبى لمن أخلص دعاءه وعبادته لله، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينسه ذكر الله ما تسمع أذناه، ولم يحزن نفسه بما أعطي غيره.

وعن عطاء بن دينار الهذلي أن عبد الملك بن مروان كتب إلى سعيد بن جبير فأجابه: سألت عن الإسلام، فالإسلام الإخلاص، قال تبارك وتعالى لإبراهيم: ﴿أَسْلِمْ﴾ يقول: أخلص ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يقول: من أخلص دينه لله، وتسأل عن الإخلاص؟ فالإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله، فلا يرائي بعمله أحدا، ويكون ذلك في سبيل الحق كله فذلك الإخلاص.

تلك حقيقة الإخلاص، وهذه صفة المخلصين، فإني رأيتها في نفسك فاجتهد أن تزيدها، ونق نفسك من الرياء والكبر وغش النفس وخديعة الناس بحقيقة غير ما أنت فيه، واعلم أن ما فيك يظهر على فيك، ومهما تكن فيك من خصلة تظهر، وقد صدق الشاعر حين قال:

ومهما تكن في امرئ من خليقة      يخالها تخفى على الناس تظهر

وإن شعرت بأن الإخلاص بعيد عنك فارحم نفسك من يوم تتساقط فيه حسناتك كتساقط الشجر، لم تأخذ منها غير تعبك وجهدك، وليس لله فيها شيء، فالله أحق أن تخلص له، فجرد نفسك من الهوى والرياء يوفقك الله إلى صالح الأعمال، ويتقبل منك ما أنت فاعله.

---

(١) أخرجه الدارقطني في الحديث رقم١٣٣، سنن الدارقطني ٧٧/١.

## ١١- ادْفِنْ وُجودَكَ فِي أَرْضِ الخُمولِ، فَما نَبَتَ مِمّا لَمْ يُدْفَنْ لاَ يَتِمُّ نِتَاجُهُ

كثير من الناس يستعجل العاقبة، ويود لو أمسك ثمرة عمل الليل قبل جلاء الصبح، ونال ثمرة عمل الصباح قبل غروب الشمس، بل ويود لو ظهر على الناس قاطبة فمدحوه بما فيه وما ليس فيه، وأطروه بما ليس من صفاته، وأثنوا عليه بما لم يفعل وما لم يظهر من ملكاته، يتمنى أن يكون حديث المجالس، وأن يكون له قول مسموع، وشأن مرفوع، وقيمة عالية ولو كانت زائفة، فهو يتصنع من ذلك الرياء، ويكره من لا يصفه بألقاب فخمة ومنزلة عالية، بل ويعادي من لا يلقاه بذلٍ، أو يقف بين يديه بخضوع، وكأنه رب قدير وليس بعبد فقير.

والحكمة رغم كونها موجهة للمريد، لكنها تصح أن تكون عامة في كل شيء في الدنيا، فمن يستعجل قطف الثمرة قبل أوانها يعاقب بحرمانها، ومن يريد أن يجني العاقبة فلابد أن يطول صبره في الأولى، ومن أكل بباطل جاع بحق.

وقد بين ابن عطاء الله ﷺ في هذه الحكمة أضرار الظهور قبل أوانه، فإنه يؤدي إلى الرياء والنفاق، وقد سقط في ذلك الكثير من الناس، منهم من يريد المناصب، ومنهم من يتطلع إلى الوجاهة، ومنهم من يهفو إلى الغنى، فيقول ابن عطاء لهم جميعا ادفنوا وجودكم في أرض الخمول، أي ابتعدوا عن كل هذه المظاهر الكاذبة والأمور الخداعة التي تؤدي بكم إلى الانخلاع من دين الله عزو جل، وتجردكم من الإخلاص.

ثم يضرب لنا مثلا حسيا على أثر الظهور في غير موعده، وحب الوصول إلى النتيجة قبل اكتمال السبب، وكان مثله بشيء كثير الظهور في حياة الناس وهو النبات، فإنه إذا لم يدفن في التربة جيدا وظهر إلى سطح الأرض قبل اكتمال نموه تحتها أصبح أصفرا ضعيفا، يشوبه الهزال، وسرعان ما ييبس ويموت، ولا يتم له نتاج، فكذلك الذي يحب الظهور والشهرة سرعان ما يهلكه هذا الظهور، ويدفنه الغرور، ولن ينفع في بدايته، ولن تحمد نهايته.

ولو أجلنا النظر في واقع الحياة لأدعياء الدين ومحبي الشهرة والظهور لرأينا العجب العجاب، فكم ناعقٍ في التلفاز يريد الشهرة على حساب دين الله، وكم من

صارخ بالفتاوى الشاذة يريد لفت الانتباه، وكم من مجود للقرآن في صلاته وقراءته يبغي من ورائه جناية الشهرة وكسب الزهيد من المال، وكلهم يتعجل الشهرة، ويرنو إلى الظهور، وكلهم مآلهم إلى البوار وعذاب النار، بل وبعضهم يتخذ من الملبس ما يصنع له تلك الشهرة وذلك المجد الزائف المتعجل، ولذا يقول أبو ذر ﷺ: من لبس مشهورا من الثياب، أو ركب مشهورا من الدواب أعرض -عز وجل- عنه وإن كان كريما عليه مادام عليه.

ولو كانت الشهرة مجدا يخلد المرء في الدنيا لما أخفى الله أسماء أنبيائه ورسله، فقد أرسل الله عز وجل ما يزيد على ثلاثمائة رسول ومائة ألف نبي، ولم يحفظ لنا القرآن منهم إلا عددا قليلا، لا يزيد على خمس وعشرين، فهل هناك أكرم على الله منهم وقد أخفاهم، نسأل الله الخفاء حتى نلقاه.

وحظوظ المختفين في زمن الفتن كبيرة، ومكانتهم يومها عظيمة، ويكفيهم بعدهم عنها ونجاتهم من شرورها، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (أسعد الناس في الفتن كل خفي نقي، إن ظهر لم يعرف، وإن غاب لم يفتقد، وأشقى الناس فيها كل خطيب مسقع، أو راكب موضع، لا يخلص من شرها إلا من أخلص الدعاء كدعاء الغرق في البحر)(١).

وقد تمكن النبي ﷺ من نزع داء الفخر من صحابته ﷺ، ونبههم إلى سوء التفاخر بالشرف والحسب، وحب الظهور والرياء، ولكنه ﷺ يعلم أن هذا الداء متمكن من البشر، مستوطن في قلوبهم، فنبه أمته على خطورة ذلك في أحاديث كثيرة، فعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (أربع من الجاهلية لا يتركن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران أو درع من جرب)(٢).

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في الحديث رقم٧٢٠، الفتن ٢٥٥/١.

(٢) أخرجه مسلم في الحديث رقم٩٣٤، الصحيح ٦٤٤/٢.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها، مؤمن تقي، أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله عز وجل من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن)(١).

ويقول سفيان الثوري: الزهد زهدان، زهد فريضة وزهد نافلة، فأما الفريضة فإنه واجب عليك، وهو أن تدع الفخر والكبر والعلو والرياء والسمعة والتزين للناس، وأما زهد النافلة فهو أن تدع ما أعطى الله تعالى من الحلال، فإذا تركت شيئا من ذلك صار فريضة عليك ألا تتركه إلا لله عز وجل، وإن أردتم أن تدركوا ما عند الله عز وجل فكونوا في هذه الدنيا بمنزلة الأضياف.

## ١٢- ما نَفَعَ القَلْبَ شَيءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِها مَيْدانَ فِكْرَةٍ

مخالطة الناس أمر صعب، والمعاشرة لهم تحتاج جهدا وسعة صدر، فإنك لا ترضى عنهم ولا يرضون عنك أبدا، وإذا كانوا لا يرضون عن الخالق جل وعلا، ويسخطون من قدره، ويتبرمون من قضائه فما بالك بالناس؟، إن الحرص على الدنيا والتهالك في طلب ملذاتها يفسد بين الأحبة، ويجعل القلوب تنام على هم وتصحو على غم، ولا يزال بها الفكر ليل نهار حتى يسلبها لذة الحياة ومتعة العبادة، وينسيها ما بها من نعم، فبدلا من الشكر تكفر، وبدلا من الرضا تسخط، ومن هنا كانت هذه الحكمة في غاية الأهمية للمريد.

وهي حكمة لها علاقة قوية بالتي قبلها، وكأنه قد سبق إلى علم ابن عطاء الله ﷺ أنه سيأتي زمن تنشغل فيه القلوب، وتغرق في الهموم، فبادر بهذه الحكمة المنقذة للبشرية جمعاء من الهلاك، فمن أخذ بها نجا من غوائل هذا العصر الذي فتحت فيه الدنيا جميعها بجميع وسائلها الحديثة من الانترنت وغيره، فزادت أبواب الانشغال، وكثرت الفتن التي تغمر النفوس وتلهي القلوب، ناهيك عن الانشغال بتدبير أمر الحياة

---

(١) أخرجه الطحاوي في الحديث رقم٣٤٥٨، شرح مشكل الآثار ٩/٨٠.

للزوجة والأولاد، وما يشغل بال المرء في عمله وجهاده في الحياة مما ملأ القلوب هما وغما لا ينقطع، وغرقت في بحار ملذات الدنيا ونسيت كل شيء، فأنساها الله كل شيء، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١]، فلا يمكنه التفكر في دينه أو نفسه أو ربه وفي اليوم المحتوم الذي فيه ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٢]، فما كان من ابن عطاء الله رحمه الله إلا أن بين ما الخلاص من هذه الأوهام، والخروج من هذه الأوحال، فقال هذه الحكمة: ما نفع القلب مثل عزلة، فإن هذه العزلة مطهرة له من الغفلات والملاهي، منقذة له من الشرود والمعاصي.

والعزلة نوعان، عزلة بالقلب، وعزلة بالقلب والقالب، فعزلة القلب أن يعتزل الناس وهو معهم بقالبه، فدائما قلبه مشغول بربه وبذكره وشكره، والتفكير في آلائه ونعمه، وأما العزلة بالقلب والقالب فهي البعد عن الخلائق بالحس، والنأي عنهم بالجسد والقلب، وهذه العزلة يدخل بها ميدان التفكير، فهو يفكر دائما وقت العزلة في الله، وفي مصنوعاته ومخلوقاته، ونعمه وآلائه، ويفكر في نفسه من هو، ولماذا خلق، وما المطلوب منه، وما إلى ذلك، وقد شبه ابن عطاء الله الفكرة بالميدان لتردد القلب فيها كتردد الخيل في الميدان، وهذا الفكر مع العزلة خير من عبادة مدة، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: تفكر ساعة خير من قيام ليلة[٣].

ألا ترى أن العبادات تتعلق بالجسد، وأن الفكر يتعلق بالعقل والقلب، كما أن الفكر لطيف فجعل الله ثوابه مضاعفا، فإنك ترى في الحياة العملية أن العامل الذي يعمل بجسده أجره قليل، وأن الإنسان الذي يعمل بفكره أجره كبير، كذلك الحال في العبادة، إذا جلس يفكر في مخلوقات الله مع الخلوة التي تجلب الجلوة فإن ثوابه

---

(١) سورة الحشر من الآية ١٩.

(٢) سورة الحج من الآية ٢.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، المصنف ٧/١٩٠.

يتضاعف أضعافا مضاعفة.

فلابد لكل من أراد وجه الله تعالى من خلوة يدخل بها ميدان فكره، ولابد أن يعلم تمام العلم ما قاله الإمام أحمد بن سهل: أعداؤك أربعة، أولهم: الدنيا وسلاحها الخلق، وسجنها العزلة، فلقاء الناس ليس يفيد شيئا سوى الهذيان من قيل وقال، فقلل من لقاء الناس إلا لأخذ علم أو إصلاح حال، وثانيهم الشيطان، وسلاحه الشبع، وسجنه الجوع، وثالثهم النفس، وسلاحها النوم، وسجنها السهر، ورابعهم الهوى، وسلاحه الكلام، وسجنه الصمت.

وقالت رابعة العدوية رحمها الله:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي        وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس        وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

فعليك أيها الغريق في بحار الشهوات طلب الإنقاذ بالبعد عن الشهوات ولو ساعات، لكي تنجو من عذاب الله الأليم، فمتى تكون الزوجة والأولاد فتنة ومتى يكونون نعمة؟، إذا أعانوك على العزلة وعلى ذكر الله عز وجل فإنهم نعمة، وإن شغلوك عن الخلوة مع الله والذكر فإنهم فتنة، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٢)، نسأل الله أن يجعلهم نعمة لنا، ومن تواصل وتناسل منهم إلى يوم الدين.

---

(١) سورة التغابن الآيتان ١٤، ١٥.

(٢) سورة المنافقون الآية ٩.

**١٣- كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ في مِرآتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللّهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلاَتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ؟**

لقد أبدع ابن عطاء الله في أسلوبه الذي اختطه لهذه الحكمة المشرقة، حيث عمد إلى الاستفهام الاستنكاري ليثير الدهشة والعجب عند القارئ، ويقرع ذهن السامع، ويخاطب نفس المقصر المهمل، ويضرب فيه على النقاط الحساسة بقلبه، وهي حكمة متعلقة بما قبلها، لأن الهدف من الخلوة والعزلة تنقية القلوب من الأكدار والأغيار والآثار، فالدنيا زخرف، يغلب الجوارح ما لم تغلبه الألباب، والحكيم من يغضي عنه، ولم يشغل به قلبه، اطلع من أدناه فيما وراءه، وذكر لواحق شره، فأكل مره، وشرب كدره؛ ليحلو له، ويصفو في طول من إقامة العيش الذي يبقى ويدوم، غير عائف للرشد إن لم يلقه برضاه، ولم يأته من طريق هواه.

وقد نبهنا معاذ ﷺ إلى هذه الأغيار وكيف يكون علاج أصعبها حين قال: كيف أنتم عند ثلاث: دنيا تقطع رقابكم، وزلة عالم، وجدال منافق بالقرآن؟ فسكتوا، فقال معاذ بن جبل: أما دنيا تقطع رقابكم، فمن جعل الله غناه في قلبه فقد هُدي، ومن لا فليس بنافعته دنياه، وأما زلة عالم، فإن اهتدى فلا تقلدوه دينكم، وإن فتن فلا تقطعوا منه آناتكم، فإن المؤمن يفتن ثم يفتن، ثم يتوب، وأما جدال منافق بالقرآن، فإن للقرآن منارا كمنار الطريق لا يكاد يخفى على أحد، فما عرفتم فتمسكوا به، وما أشكل عليكم فكلوه إلى عالمه.

فإذا ما تخلص الإنسان من هذه الموانع التي تحجب نور الله وأسراره عنه بالجهاد والعزلة المصحوبة بالفكر فإن القلب يشرق بالأنوار، ويتحلى بفهم دقائق الأسرار، ويرى من المكاشفات ما لا يخطر على البال، ويدخل حظيرة القدس، ويجلس على بساط الأنس، ويرى ربه بعين بصيرته في كل شيء، وتحت كل شيء، ولا يتحد بشيء، ولا يختلط مع شيء، لأنه ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

فهذه الأغيار هي الحاجبة للقلب عن كل ذلك، لقول الله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(١)، ما يستوجب جهادا لا ينقطع، من باب واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

ولذا قيل: لا أعلم خصلة أكثر في الناس ولا أغلب عليهم ولا أكثر ضررا ولا أشد عليهم تركا على الخاص والعام والعالم والمتعلم والجاهل من الغفلة.

وقد عرف العلماء التيقظ والغفلة فقالوا: التيقظ تقريب الأجل، ومراقبة الموت، والفكر فيما يصير إليه العبد من بعد الموت، ومن هذا يفتح لك باب العمل، فتبتدر إليه قبل أن يبتدر إليك الموت، وتستغنم كل ساعة من حياتك قبل انقضاء الأجل، فإن رزق العبد الدوام عليه نبع من ذلك ينابيع الخير إن شاء الله عز وجل.

وأما الغفلة فطول الأمل، ونسيان ذكر المعاد إلا بالخاطر، ولا يدوم عليه العبد ولا يدوم عليها العبد إلا رمى بالخير وراء ظهره، ومنها يتولد التسويف، والوقوع في بحر الآثام.

فإن كنت تريد النجاة من ذلك فطريقك إخلاص الدعاء، ومصاحبة من يريد ما تريد، ومفارقة من لا يريد ما تريد، فإن صحبة من لا يريد ما تريد تضرك وأنت لا تشعر، وصحبة من يريد ما تريد تنفعك ولا تضرك وإن كنت لا تشعر، وإنما الناس يؤتون من ثلاثة أشياء: من الغفلة، والغلبة، والجهالة.

وعلامة من انتبه من رقدة الغفلة أربعة أشياء:

أولها: أن يدبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف.

والثاني: أن يدبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل.

والثالث: أن يدبر أمر الدين بالعلم والاجتهاد.

والرابع: أن يدبر أمر الخلق بالنصيحة والمداراة.

وقد نصح العارفون مريديهم بتجنب الغفلة وبينوا لهم أسباب وجودها، فهذا أحدهم

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٩.

يقول: اعلم يا أخي أن الذنوب تورث الغفلة، والغفلة تورث القسوة، والقسوة تورث البعد من الله، والبعد من الله يورث النار، وإنما يتفكر في هذه الأحياء، وأما الأموات فقد أماتوا أنفسهم بحب الدنيا، واعلم أنه كما لا يغني ضوء النهار الأعمى كذلك لا يضيء بنور العلم إلا أهل التقى، وكما أن الميت لا ينفعه الدواء كذلك لا يفيد الأدب في أهل الدعوى، وكما لا ينبت الوابل الصفا، كذلك لا تثمر الحكمة بقلب محب الدنيا.

واعلم أنك مقبل على غفور رحيم ينتظر أوبتك، ويفرح بتوبتك، ويفتح لك طريق الخير دوما، ويقبلك متى رجعت إليه خالصا، وانظر إلى هذا الأعرابي الذي شوهد في عرفة يقول: اللهم إن كنت مددت يدي إليك راغبا، فطالما كفيتني ساهيا، نعماك تظاهر علي عند الغفلة، فكيف آيس منك عند الرجفة، لست أقطع رجاءك من عظيم آثامي، وإن كنت لا أصل إليك أبدا.

فيا من ترك قلبه وأهمله، وترك الدنيا تطويه وتنشره، وتلهيه وتشجيه، وتبسطه وتقبضه، وتملك من أمره ما لا يملك، وكان جل همه بل كل همه الدنيا، متى تفيق من غفلتك؟ أم متى تتيقظ من نومتك؟ أم متى تلين من جفوتك؟ فإن الآجال منقضية، والأعمار منتهية، ولقاء الله مرتقب قريب، فلا تدري إن كنت ممسيا هل تصبح أو لا، وإن كنت مصبحا هل تمسي أو لا، فقد تصبح وتبيت في القبر، أو تمسي وتصبح في القبر، وكل شيء عنده بمقدار، نسأل الله لنا ولكم العفو والعافية وللمسلمين أجمعين.

ألا طوبى لمن رزقه الله الفهم، وأيقظه من سنة الغفلة، ووفقه للتفكير في أمر خاتمته، فنسأل الله تعالى أن يجعل خاتمتنا في خير، ويجعل خاتمتنا مع البشارة.

## ١٤- الْكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ، فَمَنْ رَأَى الْكَوْنَ وَلَمْ يَشْهَدْهُ فِيهِ أَوْ عِنْدَهُ أَوْ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ فَقَدْ أَعْوَزَهُ وُجُودُ الأَنْوَارِ، وَحُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ بِسُحُبِ الآَثَارِ

إذا كانت القلوب المشرقة ترى ما لا يراه غيرها فإنما كان ذلك لعلة، وهي أن الأصل في الكون الظلمة، ولم يُرى النور إلا بظهور الحق فيه، فكانت هذه الحكمة

مكملة للسابقة، شارحة لسبب النور في كون الله تعالى.

وقد قلت سابقا إن الأكوان كلها عدم محض، وليس في هذا الكون إلا الله عز وجل، وإنما خلق روحانية محمد ﷺ لتظهر هذه الأكوان بنور الله الذي أمره به، فبنور الله ظهرت هذه المكونات، وظهور الحق في هذا الكون إنما هو ظهور إيجاد وتعرف، لا ظهور حلول واتحاد وتكييف كما يقول الفلاسفة، فهؤلاء قد شغلتهم المكونات عن المكون، وتخطفت أبصارهم المظاهر عن الظاهر، وملأت قلوبهم المخلوقات عن الخالق، ولذلك ظنوا أن المكونات فاعلة بذاتها، قائمة بنفسها، فعبدوها وتركوا المكون لها، والموجد لذاتها، وهو الله عز وجل، وهؤلاء لم يشاهدوا تأثير الله فيها، لأنهم لا نور لهم من الله يكشف لهم الحقيقة، وقد غابت عنهم شموس المعارف التي تظهر لهم عظمة الله في كل شيء، وأنه مع كل شيء، وفوق كل شيء، وبعد كل شيء، ولولاه ما كان شيء، لكن سحب الآثار التي طمست مرآة القلوب هي التي عمت بصائرهم عن رؤية آثار ربهم في كل شيء، فلولاه ما كان شيء، فهو الدال بذاته على كل شيء، فكيف نستدل عليه بدليل وهو أظهر من الدليل، رأيناه أوضح من الشمس في وسط النهار، فأحببناه وعبدناه، لا نشرك به شيئا، جل في علاه.

عن ابن مسعود ﷺ قال: (تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾[(١)] ثم قال رسول الله ﷺ: إن النور إذا دخل الصدر انفسح، فقيل: يا رسول الله هل لذلك من علم يعرف؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله)[(٢)].

ومن هذا يعلم أن الأنوار التي أذن لها في الوصول هي عامة لجميع المؤمنين، فلو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فما بالك بنور الطائع، وأما الأنوار التي أذن لها بالدخول فهي خاصة بالخواص أهل التفرغ من

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٥.

(٢) أخرجه الحاكم في الحديث رقم٧٨٦٣، المستدرك ٣٤٦/٤.

الأغيار، الخالية صدورهم من الآثار، وهذه هي أنوار الجبروت، فقد ترد عليك أنوار الجبروت فتجد قلبك محشوا بأنوار الملكوت، فرحة بها، قانعة ببهجتها، فتتركك واقفا معها، وتنادي عليك: القناعة من الله حرمان، فالذي تطلبه أمامك، ولو كان العلم ينتهي عند حد محدود، ألم يقل الله تعالى لسيد العارفين: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[١]، ولذلك قال ﷺ: (إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علما، فلا بورك في طلوع شمس ذلك اليوم)[٢].

فالمانع للقلب من دخول الأنوار هو وجود الأغيار، وكل ما سوى الله غير.

ولذا نصح أحد العارفين محبيه قائلا: تعاهد يا أخي قلبك بأسباب الآخرة، وعرضه لذلك، وصنه من أسباب الدنيا ومن ذكر يجر إلى الحرص والرغبة، ولا تأذن لقلبك في استصحاب ما يعسر طلبه، وينطفئ نور القلب من أجله، وكن في تأليف ما بينه وبين محمود العواقب حريصا، وخوّف نفسك عقوبة ما في يديه من الدنيا، وقلة أدائك لما يجب عليك فيه من الشكر، واستكثر ما في يديك لما تعلم من ضعف شكرك، فتشتغل النفس بما في يديها عن الفكر في أمر الدنيا والمحبة للزيادة منها، فإذا أجممتها من ذكر الزيادة من الدنيا، وحملتها على درجة الخوف مما في يديها قنعت ورضيت، وعفت عن طلب الدنيا بالحرص والرغبة، ورجعت الى الآخرة بالحرص عليها والرغبة فيها، فإن النفس مبنية على أساس الطمع.

وقال ابن مسعود ﷺ: للقلوب شهوة وإقبال، وفترة وإدبار، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها.

وقال بعض الحكماء: القلب مثل بيت له ستة أبواب، ثم قيل لك احذر ألا يدخل عليك من أحد الأبواب شيء فيفسد عليك البيت، فالقلب هو البيت، والأبواب العينان واللسان والسمع والبصر واليدان والرجلان، فمتى انفتح باب من هذه الأبواب بغير علم ضاع البيت.

---

(١) سورة طه من الآية ١١٤.

(٢) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٦٦٣٦، المعجم الأوسط ٣٦٧/٦.

وقال آخر: أوصيكم بتقوى الله والقرآن، فإنه نور الليل المظلم وهدى النهار، فاعملوا به على ما كان من جهد وفاقة، وإن عرض بلاء فقدم مالك دون نفسك، فإن تجاوز البلاء فقدم مالك ونفسك دون دينك، فإن المحروب من حرب دينه، والمسلوب من سلب دينه، إنه لا غنى بعد النار، ولا فاقة بعد الجنة، وإن النار لا يفك أسيرها، ولا يستغني فقيرها.

فإن كنت تريد دخول الأنوار وإشراق شهود الله في قلبك فنقه مما به من دنس، واغسله بالتوبة والمغفرة، وعمره بذكر الله، ليكون جديرا باستقبال نوره جل جلاله.

## ١٥- مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ قَهْرِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ مَعَهُ

بالغ كثير من الناس في الماديات، وجروا وراء المحسوسات، وتسلطت عليهم عيونهم، فعبدوا المظاهر، ونسوا الظاهر، فحجبوا عنه، وكان هذا الحجب دليلا على قهره سبحانه، حيث حجب الناس بما ليس موجود معه.

ولذا جاء ابن عطاء الله في هذه الحكمة ليقرع الأسماع الصماء، وينبه القلوب المغلقة، فبين أن الله سبحانه أظهر من الظهور، فهو القاهر فوق عباده، فليس مع القاهر شيء، فالأكوان ليست موجودة معه، لأنها ظلمة وعدم محض من حيث ذاتها، فقد خلقت لتفنى، ووجدت لتزول، وإنما الوجود الحقيقي لله سبحانه وتعالى، وهو الذي أظهرها فظهرت، فليس في الوجود إلا الواحد الحق، فلا يوجد معه غيره، لثبوت أحديته، ومما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بالأكوان العدم التي ليست موجودة معه، فتَوَهُّمُك أن مع الله شيء هو الذي حجبك عن الله عز وجل، لأنه في الحقيقة ليس معه شيء، فهو الظاهر الذي اختفى فيه كل شيء، وهو الباطن الذي أظهر كل شيء، وهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، وهو بكل شيء عليم، تعالى الخالق العظيم.

وأما عن الحجب بين الله تعالى وخلقه فانظر فيها ما ورد في السنة النبوية، حيث

روى سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال: (إن بين الله وبين الخلق سبعين ألف حجاب، وأقرب الخلق إلى الله سبحانه وتعالى جبريل وميكائيل واسرافيل، وبينهم وبين الله أربعة حجب، حجاب من نار، وحجاب من ظلمة، وحجاب من غمام، وحجاب من الماء)(١).

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول ﷺ: (دون الله تعالى سبعون ألف حجاب من نور ومظلمة، وما تسع من نفس شيئا من حسن تلك الحجب إلا زهقت)(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وقف جبريل على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: (يا جبريل سل ربك أي البقاع خير؟ وأي البقاع شر؟ فاضطرب جبريل تلقاءه، فقال له عندما أفاق: يا محمد، هل يُسأل الرب؟ الرب أجل وأعظم من ذلك، ثم غاب عنه جبريل، ثم أتاه، ثم قال له: يا محمد، لقد وقفت اليوم موقفا لم يقفه ملك قبلي ولا يقفه ملك بعدي، كان بيني وبين الجبار تبارك وتعالى سبعون ألف حجاب من نور، الحجاب يعدل العرش والكرسي والسماوات والأرض بكذا وكذا ألف عام، فقال: أخبر محمدا ﷺ أن خير البقاع المساجد، وخير أهلها أولهم دخولا، وآخرهم خروجا، وشر البقاع الأسواق، وشر أهلها أولهم دخولا، وآخرهم خروجا)(٣).

فإن قيل: ما الحكمة في هذه الحجب والله سبحانه وتعالى غني عنها؟ فالجواب أن من بعض فوائدها رأفة الله تعالى بعباده، وشفقته على خلقه، ولولا احتجاب عن عوامله لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه جلت عظمة الله وتعالى جده.

وإذا كانت هذه الحجب فإن الحجاب الحقيقي لا يكون إلا لمن حجب قلبه عن الله بطاعة أو معصية، فهناك حجاب ونور وحجاب ظلمة، ولكن هناك من لم يحجبه الله تعالى، فق خص الله سبحانه المتوكلين عليه بمنازل السلامة، وحجب عنهم كل

---

(١) ذكره ابن الجوزي في التذكرة ص٧٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٥٨٠٢، المعجم الكبير ١٤٨/٦.

(٣) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في كتابه العظمة ٦٧٥/٢.

ندامة، فهم ينظرون الى الله فيما يأملون، قد حجب قلوبهم عما سواه لما يرجون من إحسانه، واستغنوا بذكره عن ذكر غيره.

والقناعة من نور الله تحجبك، فلا تقنع من الله ومن طاعته والوصول إليه، وقد كان أبو يزيد يقول: إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فاطلب ما وراء ذلك، فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة، فإن سكنت إلى ذلك حجبك به.

وإذا كانت الطاعة حاجبة لك أحيانا فإن المعصية حجاب ظلمة يمنعك من الوصول إلى الله سبحانه ومشاهدة نوره، وأول ما يمنع أن يفسد قلب المرء فلا يكون له تعلق بالله تعالى ولا مراقبة له، وفساد القلب وخراب الصدر من الفرح بالدنيا، وأحوال النفس كلما ازدادت النفس فرحاً بهذه الأشياء قويت واحتدت، واشتد سلطانها، حتى تصير شرهة أشرة، بطرة مستبدة، فإذا هويت شيئاً من الشهوات لم يملك القلب من أمرها شيئاً، ولم يتورع عن الحرام، وإن تورع عن الحرام لم يتنزه عن الفضول، وإن تنزه عن الفضول، يتناول ما احتاج إليه على غفلة، وفقد النية والحسبة، فإن تناول بنية وحسبة تناول على فقد ذكر المنة، وإن تناول على ذكر المنة، تناول على فقد رؤية المنة واللطف والبر، فهو أبدا في نقصان، في أي درجة كان، لأنه محجوب عن الله عز وجل، وإنما حجبه عن الله عز وجل الفرح بغير الله عز وجل.

وإذا كان سبحانه قد حجب نفسه بما ليس بموجود معه فقد حجب أولياءه بحجاب آخر عن غيره، فإن الله سبحانه خص المتوكلين عليه بمنازل السلامة، وحجب عنهم كل ندامة، فهم ينظرون إلى الله فيما يأملون، قد حجب قلوبهم عما سواه، لما يرجون من إحسانه، واستغنوا بذكره عن ذكر غيره.

والسعيد بحق من كتب الله له السعادة، وقدر له الهناء، واختار الله من الأزل، وابتعد عن السوء والزلل، ولم يحجبه الله تعالى عنه، فهذا حكيم يقول: من حكم له بالسعادة لا يشقى أبدا، وإن ألح غاويه، وكثر معاديه، وأحيط به من جميع نواحيه،

ومن حكم له بالشقاوة لا يسعد أبدا، وإن عمر ناديه، وأخصب واديه، وحسنت أواخره ومباديه، كم من عابد ظهرت عليه أنوار العبادة، وآثار الإرادة، وبدت منه مخايل السعادة، وارتفع صيته، وانتشر في الآفاق ذكره، وعظم في الناس شأنه وقدره، جمحت الأقدار به جمحة ردته على عقبيه، وسلبته ما كان في يديه، وأخذت بناءه من قواعده فألقته عليه، فنعوذ بالله من درك الشقاء، وجهد البلاء، وشماتة الأعداء برحمته إنه جواد كريم.

اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وعضال الداء، ومن سعادة يعقبها شقاء، ومن خير لا يعقبه هناء، ومن كل داء وبلاء، إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

**١٦- كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَهُوَ الَّذي أَظْهَرَ كُلَّ شَيءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ لِكُلِّ شَيءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَهُوَ الظّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَهُوَ الواحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيءٌ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ! وكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَلَوْلاهُ ما كانَ وُجودُ كُلِّ شَيءٍ! يا عَجَباً كَيْفَ يَظْهَرُ الوُجودُ فِي العَدَمِ! أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ الحادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ القِدَمِ!**

لله درك يا ابن عطاء، لم تكن هذه حكمة تصيغها بقدر ما كانت غوصا في بحار الوحدانية، لقد غاب ابن عطاء عن الشهود، وهام في حب الله واجد الوجود، وظل يصفه ويسبح بحمده، ويلوم على من ضل عن سبيله، وكانت كلماته واقعة بصيغة الاستفهام ليقرع الآذان الصامة، ويسمع القلوب المقفلة، ويفتح الأبصار المغلقة، لتشاهد عظمة الخالق وتجليه، وإذا كان قد تحدث عن المحجوبين في الحكمة السابقة وحكمة

الحجب فهو هنا قد هام في حب الله، وأخذ يقرع سمع وقلب من غفل عن ذلك الظهور الإلهي، ويقيم الحجج على من أُغلق قلبه وعميت بصيرته.

إن الله عز وجل بيّن أن الأكوان مخلوقة فكيف تحجب الخالق؟، وبرهن على ذلك بأنه ظهر لكل شيء من حيث: إن كل شيء يدل عليه، فإن الأثر يدل على المؤثر.

وبأنه ظهر في كل شيء: بأنه تجلى في كل شيء، فالأشياء كلها مجالي ومظاهر لمعاني أسمائه وصفاته، فيظهر في أهل القوة أنه قوي، وفي أهل الرحمة أنه رحيم، وما إلى ذلك.

وبأنه ظهر لكل شيء: أنه سبحانه وتعالى تجلى لكل شيء، فلم يجهله شيء، فسبح الجميع بحمده، وأقر بربوبيته.

وبأنه الظاهر قبل وجود كل شيء: فهو الأزلي الأبدي الذي ليس قبله شيء، ووجوده ذاتي، فهو ذات وليس بعرض، فلا يصح أن يكون العرض حاجبا للذات.

وبأنه أظهر من كل شيء: ظهر في كل شيء فاشتد ظهوره حتى أعمى العيون من رؤيته، لقد ظهر فأبهر فلا تراه العيون.

وبأنه الواحد الذي ليس معه شيء: فما سواه من المكونات عدم محض.

وبأنه أقرب إليك من كل شيء: بذاته وعلمه وإحاطته وتدبيره ونوره، فليس كمثله شيء، وهو أقرب إليك من حبل الوريد.

وبأنه لولاه ما كان وجود كل شيء: لأنه الخالق لكل شيء، فمنه نعمتان نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد.

ثم يتعجب ابن عطاء الله فيقول: فيا عجبا كيف يظهر الوجود في العدم، أي كيف يجمع بينهما وهما ضدان، أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم حتى يكون الحادث حجابا للعظيم المتعال، سبحان العظيم الأعظم والكبير الأكبر، فالعظمة إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن نازعه فيهما ألقاه في النار ولا يبالي، سبحان الله عما يشركون.

وهذا الوصف من المؤلف فيه غاية من الإبداع والتنزيه لله عز وجل، فعرفنا

بالذات العلية، وأوقفنا على صفات الألوهية، وأعلمنا بتحقيق الإنسان والمكونات، فجزاه الله خير الجزاء.

يقول الغزالي رحمه الله عند وصفه التوحيد الخالص: أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق ورزق، وعطاء ومنع، وحياة وموت، وغنى وفقر، إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره، بل كان منه خوفك، وإليه رجاؤك، وبه ثقتك، وعليه اتكالك، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر، وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغي به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات.

إن معرفة الله تعالى لا تحتاج إلى دليل، ووجوده لا يفتقر إلى إثبات وشهود، فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى، كما قال بعضهم: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي.

فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة، ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوز والمستعير في كلامه.

وما أجمل وأشمل حديث العارفين بالله عنه سبحانه، حيث قالوا: إن الله تعالى لا يحجبه شيء عن شيء، ولا يبعد عليه شيء، وهو سبحانه وتعالى قد جاوز المقدار والأحكام، وفات العقول والأوهام، وسبق الأقدار، واحتجب بعزه عن الأفكار، لا يصوره الفكر، ولا يملكه الوهم، حجب عن العقول تشج ذاته، ولم تحكم العقول بدرك صفاته، إذ ليس كمثله شيء فيعرف بالتمثيل، ولا له جنس فيقاس على التجنيس، وهو الله في السموات وفي الأرض، ثم استوى على العرش، وهو معكم أينما كنتم، غير متصل بالخلق ولا مفارق، وغير مماس لكون ولا متباعد، بل متفرد بنفسه متحد بوصفه، لا

يزدوج إلى شيء، ولا يقترن به شيء، هو أقرب من كل شيء بقرب هو وصفه، هو محيط بكل شيء بحيطة هي نعته، وهو مع كل شيء، وفوق كل شيء، وهو أمام كل شيء، ووراء كل شيء، وهو أقرب من حبل الوريد الذي هو الروح، وهو مع ذلك فوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، وليس يحيط به شيء، لا شريك له في ملكه، ولا معين له في خلقه، ولا نظير له من عباده، لا يتوجه عليه التضاد، ولا تجري عليه الحوادث والآباد، ولا ينتقص ولا يزاد، هو على عرشه باختياره لنفسه، فالعرش حد خلقه الأعلى وهو غير محدود بعرشه تعالى، والعرش محتاج إلى مكان، والرب غير محتاج إليه، كما كان الرحمن على العرش استوى، الرحمن اسمه والاستواء نعته، متصل بذاته، والعرش خلقه منفصل عن صفاته، ليس بمضطر إلى مكان يسعه، ولا حامل يحمله، ولا حيطة تجمعه، ولا خلق يوجده، هو حامل للعرش وللحملة بخفي لطفه، وجامع للعرش وللحفظة بلطيف صنعه، وموجد ما أحب لمن يحب من التجلي بمعالي أسمائه وصفاته بخفي لطفه ولطيف قربه، لاختصاص رحمته، وهو أظهر الكون من وراء الحول، هو ممكن للعرش ببسطه في توسعة الحول، وهو محيط بالعرش والحول بالقدرة والطول، لا يسعه غير مشيئته ولا يظهر إلا في أنوار صفته، ولا يوجد إلا في سعة البسطة، فإذا قبض أخفى ما أبدى، وإذا بسط أعاد ما أخفى، وكذلك جعله في كل رسم كون، وفعله بكل اسم مكان مما جل فظهر، ومما دق فاستتر، لا يسعه غير مشيئته بقربه، ولا يعرف إلا بشهوده، ولا يرى إلا بنوره، هذا لأوليائه اليوم بالغيب في القلوب، ولهم ذلك غدا في المشاهدة بالأبصار، ولا يعرف إلا بشيئته إن شاء وسعه أدنى شيء، وإن شاء لم يسعه كل شيء، إن أراد عرفه كل شيء، وإن لم يرد لم يعرفه كل شيء، إن أحب وجد عند أي شيء، وإن لم يحب لم يوجد بشيء، تعالى الله في علاه، سبحانه سبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه، اللهم قربنا إليك، واجعلنا من العابدين الخاشعين القانتين.

## ١٧- ما تَرَكَ مِنَ الجَهْلِ شَيْئًا مَنْ أرادَ أنْ يَحْدُثَ في الوَقْتِ غَيْرُ ما أظْهَرَهُ اللّهُ فيهِ

ما أكثر الأدعياء في حياتنا، وما أكثر المتشبعين بما لم يعطوا، المتفيهقين الثرثارين، يحدث أحدهم في حياة الناس جلبة، ويثير بينهم الصوت العالي، وينعق بما لم يعلم، ويهرف بما لا يعرف.

ولا يعلم أن من أشد الناس جهلا بربه من لم يقف عند مراد الله فيه، ويريد أن يقيم نفسه بهواه، ويسخط على الحالة التي أقامه الله فيها.

فيجب على المريد ألا يسخط على الحالة التي يكون عليها وأقامه الله فيها، ويتشوف إلى الانتقال عنها بنفسه، فبذلك يكون قد أحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه، فيجر على نفسه البلاء والتعب، لأن الله سيوكله إلى نفسه، ومن أوكله إلى نفسه هالك لا محالة، نسأل الله السلامة والأدب والقناعة.

وهذه الحكمة لكأنها مأخوذة من حديث أسماء، أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي ضرة، فهل علي جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال رسول الله ﷺ: (المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)[١]، قال شراح الحديث: المتشبع بما لم يعط، يعنى المتزين بأكثر مما عنده، يتكثر بذلك ويتزين بالباطل، كالمرأة تكون للرجل ولها ضرة، فتتشبع بما تدعيه من الحظوة عند زوجها بأكثر مما عنده لها، تريد بذلك غيظ صاحبتها، وإدخال الأذى عليها، وكذلك هذا في الرجل أيضًا، وأما قوله: كلابس ثوبي زور، فإنه الرجل يلبس ثياب أهل الزهد في الدنيا، يريد بذلك الناس، ويظهر من التخشع والتقشف أكثر مما في قلبه، فهذه ثياب الزور والرياء.

فحال كثير من الناس كذلك، يدعي التقى والعفاف، ويظهر الزهد والترفع، وليس ذلك مستقرا في قلبه، ولا متشبعا في نفسه، ولا هو صادر عن نفس راضية وقلب تقي

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث رقم٥٢١٩، الصحيح ٣٥/٧، وأخرجه مسلم في الحديث رقم٢١٣٠، الصحيح ١٦٨١/٣.

نقي، بل هو زهد مقنع، وتقوى زائفة، ولو ظهرت له الدنيا لالتهمها، ولو لاح له منصب أو جاه لسارع إليه رافعا راية النفاق والرياء، ولو برقت له صبابة مال لسال لعابه للحصول عليها والوصول إليها، ثم يعود ويقيم نفسه مقام الزهد والورع، كلا، إن الله تعالى ليس بمخدوع ولو خدعت كل الناس، وليس بمغلوب، ولو غلبت كل الناس، فلتقم حيث أقامك الله، ولا تدع ما ليس فيك، ولا تلبس ثوبا لم يُخصص لك، فالله عز وجل هو من يقيم ويزيل، وهو من يرفع ويخفض، ويقبض ويبسط، وإليه المصير.

وما أجمل قول الشاعر:

لا تأتيــن نذالــة لمنالــة      فليأتينـــك رزقك المقـــدور
واعلم بأنك آخذ كل الذي      لك في الكتاب محبر مسطور
والله ما زاد امرءً في رزقه      حـرصٌ ولا أزرى به التقصير

وهذه الحكمة كما تصدق على أحوال الناس ومقاماتهم عند الله تصدق كذلك في سخطهم على القضاء والقدر، واستعجال ما لم يرده الله في غير وقته، ولا يدري أن كل ذلك موكول إلى الله تعالى، ولا يزيده أو ينقصه حلاوة لسان، ولا طلاوة عبارة، ولا ذكاء عقل أو قوة همة، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء)[١].

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من مات على غير هذا فليس مني)[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في الحديث رقم٢٦٥٣، الصحيح ٢٠٤٤/٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الحديث رقم٤٧٠٠، سنن أبي داود ٢٢٥/٤.

وقد كان سلف هذه الأمة أرضى الناس بحالهم، وأحسن الناس في مقاماتهم، ما طلب أحدهم منزلة غير ما أنزله الله، ولا طمع في غير ما آتاه الله، ولا وضع نفسه في مكان غير ما أراده الله، بل كان يطلب رضا الله تعالى وأن يرضيه في مقامه، يقول إبراهيم بن محمد بن بكر: سمعت الساجي، يقول: إن أحببتم أن تكونوا أبدالا فأحبوا ما شاء الله، فإنه من أحبه لم ينزل به شيء من مقادير الله وأحكامه إلا أحبه، وأوحي إلى موسى عليه السلام: يا موسى، ما استحثني عبد على قضاء حاجته بمثل قوله: ما شاء الله، وحبي بأنك تعلم، فهو ما شئت.

فليعلم الناس أن الله تعالى قدر مقادير الخلائق كلها قبل خلق السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة، وعلم بها أزلا، وأن أول ما خلق الله القلم، ثم أمره بكتابة ما سيكون إلى قيام الساعة من خلق ورزق، وبر وفجور، ورطب ويابس، ثم ختم الله عليه بعد الفراغ من كتابة المقادير، فكل ما يجري في الدنيا لم يكن إلا بالقضاء والقدر السابقين في الأزل، فهو تعالى عالم بكل شيء قبل وجوده جملة وتفصيلا كعلمه به بعد وجوده، فعلم أهل الجنة من أهل النار، وأهل السعادة من أهل الشقاء، وكتب حياة كل نفس وأجلها، وما يصيبها في الدنيا من خير أو شر، وما تعمله كل نفس في حياتها، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار، والناس يعملون في الدنيا فيما فرغ منه كتابة وتقديرا وعلما، فلا يوجد شيء خارج قضاء الله وقدره، لم يسبق به علمه، ولم يجر به قلمه.

ويقول الشاعر:

ورزق الخلق مقسوم عليهم    مقاديـــر يقدرها الجليـــل
فلا ذو المال يرزقه بعقـل    ولا بالمـــال تقتسم العقول

وانظر إلى هذه الثقة في الله في ذلك العارف يمان النجراني، وكان لا يدخر شيئا يقول: مررت براهب في قارعة فلاة من الأرض وأنا جائع، فقلت: يا راهب، هل عندك من فضل، فأدلى إلي زنبيلا فيه فلق من خبز، فأكلت منها ورميت إليه الباقي، فقال:

تزوده، قلت: الذي أطعمني في هذا الموضع وليس فيه إنسي يطعمني إذا جعت ولا يكون معي شيء.

ولست هنا أدعو إلى التواكل وإنما إلى التوكل، وألا يتعجل المرء ما لم يقدره الله، فكل شيء بمقدار، وكل شيء له عند الله أجل مسمى، فلا تهلك نفسك بالحرص، ولا ترديها بالتطلع، ولا تقمها في غير ما أقامها الله فيه من ولاية دين أو حلاوة دنيا.

فثبوت القدر الأزلي والإيمان به لا يسقط المسؤولية عن المكلفين، فلا يجوز لأحد الاحتجاج بالقدر في ترك العمل بتكاليف الشريعة أمرا أو نهيا، لأن ذلك ما تقتضيه نصوص الكتاب والسنة وهو الإيمان بالقدر مع العمل بتكاليف الشريعة دون احتجاج بالقضاء والقدر في ارتكاب المعاصي وترك الواجبات.

ولما التبس الأمر على بعض الصحابة ﷺ سألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأمرهم بالعمل، فقد روى عمران بن حصين، قال: (قيل: يا رسول الله، أعُلِم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: فقال: نعم، قال: قيل: ففيم يعمل العاملون؟ قال: كل ميسر لما خلق له)(١).

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: (لما نزلت هذه الآية ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبي الله، فعلى ما نعمل؟ على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له)(٢).

والمعنى أن ذلك لا ينافي وجود الأعمال التي بها تكون السعادة والشقاوة، وأن من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فإنه ييسر لعمل أهل الشقاوة، وقد نهى ﷺ أن يتكل الإنسان على القدر السابق ويدع العمل،

---

(١) أخرجه مسلم في الحديث رقم٢٦٤٩، الصحيح ٢٠٤١/٤.

(٢) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٣١١١، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث عبد الملك بن عمرو، سنن الترمذي ١٤٠/٥.

ولهذا كان من اتكل على القدر السابق وترك ما أمر به من الأعمال هو من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وكان تركهم لما يجب عليهم من العمل من جملة المقدور الذي يسروا به لعمل أهل الشقاوة.

يقول ابن تيمية رحمه الله: إن القدر نؤمن به ولا نحتج به، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول، ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولا لقبل من إبليس وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة لم يقطع سارق، ولا قتل قاتل، ولا أقيم حد على ذي جريمة، ولا جوهد في سبيل الله، ولا أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر.

نسأل الله العفو والعافية، وأن ييسرنا لكل قدر خير عميم، وييسرنا لعمل الصالحين، وأن يجعلنا من الراضين الشاكرين العاملين المخلصين، إنه جواد كريم.

## ١٨- إِحالَتُكَ الأَعْمالَ عَلَى وُجودِ الفَراغِ مِنْ رُعُوناتِ النَفْسِ

إن الهمة العالية، واليقظة التامة لا تأتي من فراغ، بل هي حصيلة سهر وتعب، ونتيجة اختبارات متعددة، وانتهاز للفرص المتاحة، واغتنام لأوقات الفراغ، وابتعاد عن التسويف والتأجيل، فآفة الأمم تضييع الأوقات في غير طاعة الله عز وجل، وهي مسؤولية عظيمة يسأل عنها كل إنسان يوم القيامة، لذلك قال ابن عطاء الله رحمه الله: إحالتك الأعمال، أي تأخيرك الأعمال الصالحة عن وقتها مع وجود الفراغ من الانشغال بالدنيا من رعونات النفس، أي من الحماقة، لما في ذلك من الانشغال بالفانية على الباقية، وقد بين لنا المصطفى ﷺ أنه: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)(١)، فماذا تقول للحكم العدل يوم القيامة؟، أتقول له أفنيته أمام التلفاز، أم ضيعته في اللهو واللعب، أم أهدرته في النميمة والانكباب على الشهوات، أم تقول قضيته نافخا في الفتنة، متباهيا بما أنعمت علي، متكبرا بما رزقتني وأعطيتني، شارد

---

(١) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٢٤١٧، وقال: حديث حسن صحيح، سنن الترمذي ١٩٠/٤.

الذهن في النوادي والملاهي، إن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وهو نعمة من الخالق جل وعلا، يقول ﷺ: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)(١)، فلتحذر أيها المسلم من ضياع الوقت، ومن إهدار النعم، وحذار أن تكون مغبونا في استغلال أوقات فراغك، أو استخدام نعمة الوقت والصحة.

وقد أمر النبي ﷺ أصحابه بالبدار في العمل، حيث روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي وقال: (يا عبد الله، كن في الدنيا كأنك غريب أو كعابر سبيل، وعد نفسك في أهل القبور، وإذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من شبابك قبل هرمك، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن غناك قبل فقرك، ومن فراغك قبل شغلك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غدا)(٢).

وعن عمرو بن ميمون قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: (اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)(٣).

وعن غنيم بن قيس قال: كنا نتواعظ في أول الإسلام بأربع، كنا نقول: اعمل في شبابك لكبرك، واعمل في فراغك لشغلك، واعمل في صحتك لسقمك، واعمل في حياتك لموتك.

وقد كانت الوصية بغنيمة الوقت تذكار الصحابة والعلماء والحكماء والعارفين، فهذا أبو الدرداء يكتب إلى سلمان: أن يا أخي اغتنم صحتك وفراغك، قبل أن ينزل بك من البلاء ما لا يستطيع العباد رده، واغتنم دعوة المبتلى، ويا أخي ليكن المسجد بيتك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن المسجد بيت كل تقي، وقد ضمن الله لمن

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٤١٢، الصحيح ٨٨/٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٢٣٣٣، سنن الترمذي ١٤٦/٤.

(٣) أخرجه النسائي في الحديث رقم١١٨٣٢، السنن الكبرى ٤٠٠/١٠.

كانت المساجد بيوتهم بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله) ويا أخي ارحم اليتيم، وادنه منك، وامسح برأسه، وأطعمه من طعامك، فإني سمعت رسول الله ﷺ وأتاه رجل يشكو قسوة قلبه، فقال له رسول الله ﷺ: (أتحب أن يلين قلبك؟، قال: نعم، قال: فادن اليتيم إليك، وامسح برأسه، وأطعمه من طعامك، فإن ذلك يلين قلبك، وتقدر على حاجتك)[١].

وعن طارق بن شهاب، أنه بات عند سلمان لينظر ما اجتهاده، قال: فقام يصلي من آخر الليل، فكأنه لم ير الذي كان يظن، فذكر ذلك له، فقال سلمان رحمه الله: حافظوا على هذه الصلوات الخمس، فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تصب المقتلة، فإذا صلى الناس العشاء صدروا على ثلاث منازل: منهم من عليه ولا له، ومنهم من له ولا عليه، ومنهم من لا له ولا عليه، فرجل اغتنم ظلمة الليل في غفلة الناس، فركب رأسه في المعاصي، فذلك عليه ولا له، ومن له ولا عليه فرجل اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس، فقام يصلي فذلك له ولا عليه، ومنهم من لا له ولا عليه فرجل صلى ثم نام، فذلك لا له ولا عليه، وإياك والحقحقة[٢]، وعليك بالقصد والدوام.

وكتب محمد بن يوسف إلى أبي الحسن الأشهب: اغتنم ساعتك لا تغفل عنها، فإنك إن اغتنمتها شغلت عن غيرها.

وقال بعض الصلحاء: اغتنم تنفس الأجل، وإمكان العمل، واقتطع ذكر المعاذير والعلل، فإنك في أجل محدود، ونَفَس معدود، وعمر غير ممدود.

ويقول بزرجمهر الحكيم: إن يكن الشغل مجهدة، فالفراغ مفسدة.

وقال بعض الحكماء: إياكم والخلوات فإنها تفسد العقول، وتعقد المحلول.

وقال بعض البلغاء: لا تمض يومك في غير منفعة، ولا تضع مالك في غير

---

(١) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٦١٤٣، المعجم الكبير ٢٥٤/٦.

(٢) **الحقحقة:** السير الشديد الذي يؤدي إلى هلاك الدابة، والمراد هنا التوسط في العبادة، فلا إفراط ولا تفريط.

صنعة، فالعمر أقصر من أن ينفد في غير المنافع، والمال أقل من أن يصرف في غير الصنائع، والعاقل أجل من أن يفني أيامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره، وينفق أمواله فيما لا يحصل له ثوابه وأجره.

وأبلغ من ذلك قول عيسى ابن مريم على نبينا وعليه السلام: البر ثلاثة: المنطق والنظر والصمت، فمن كان منطقه في غير ذكر فقد لغا، ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمته في غير فكر فقد لها.

فينبغي عليك أيها المريد أن لا تضيع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك، والثقة بسالف عملك، فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك، والعمل فرصة فراغك، فليس كل الزمان مستسعدا، ولا ما فات مستدركا، وللفراغ زيغ أو ندم، وللخلوة ميل أو أسف.

## ١٩- لا تَطْلُبْ مِنْهُ أن يُخْرِجَكَ مِنْ حالةٍ لِيَسْتَعْمِلَكَ فيما سِواها. فَلَوْ أرادَ لاسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إخْراجٍ

جُبل الإنسان على حب التطلع إلى ما ليس في يده، والطمع فيما ليس عنده، والرغبة في تملك ما لا يملك، والاستحواذ على ما لا يصل إليه، فكل إنسان لا يرضى بالمكانة التي أقامه الله فيها، ولا يسعد بما أنعم الله عليه من مكان أو مكانة، وهذا سر التعب والعذاب في هذه الدنيا، ولذا اهتم ابن عطاء الله -رحمه الله- بهذه الحكمة الجليلة، وقدم لها بحكم سابقة تسوق المرء إلى الرضا بما قدره الله تعالى عليه، فكل ميسر لما خلق له، ومفطور بما جبل عليه، فمن العناء والعذاب أن يطلب ما لم يخلق له، أو أن يرغب فيما لم يكتب له، فيعيش شاعرا بالحرمان وهو غير محروم، ضالا عن الهدى القويم مع توافر أسباب الهداية له، فلا تطلب من الله ولا من أحد أن يخرجك من هذه الحالة إلا إذا كانت هذه الحالة لا ترضي الله عز وجل، فهنا يجوز لك أن تطلب من الله أن يخرجك منها ابتغاء مرضاته.

أما إن كانت هذه الحالة التي وضعك فيها مباحة ولا شيء فيها يغضب الله عز

وجل فلا تطلب من الله أن يخرجك منها، حتى ولو كان العطاء قليلا، فلو أراد الله أن يوسع عليك فيها لفعل من غير إخراج، ويجعلك من أهل إرادته وخاصته، ولأفاض عليك من بركاته ورحماته، فالإنسان لا يتعجل، فقد قال الله سبحانه ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾(١)، فالرضا سبب السعادة، والوقوف عند مراد الله سبب النجاة، ولكن أنى للإنسان أن يبلغ الرضا أو يتحقق من القناعة.

والرضا بالحالة هنا إنما كان لأنك لا تأمن مكر الله تعالى، ولا بما يقضي لك به، فكن من نفسك على حذر، واشكره أن جعلك على التوحيد، وادعه أن يميتك عليه، وألا ينقلك عنه، وانظر إلى أفضل خلق الله صحابته رضوان الله عليهم ومن بعدهم من أفاضل التابعين والعارفين يقنعون بما أقامهم الله فيه، ويقدمونه على غيره، فهذا أحدهم يقول: لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام، لأني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار.

وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عن الموت إلا سلبه.

وكان سهل يقول: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة، وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال وقلوبهم وجلة.

ولما احتضر سفيان الثوري جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبد الله عليك بالرجاء، فإن عفو الله أعظم من ذنوبك، فقال: أوعلى ذنوبي أبكي؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا.

وحكي عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال: إذا حضرتني الوفاة فاقعد عند رأسي، فإن رأيتني مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزا وسكرا، وانثره على صبيان أهل البلد، وقل هذا عرس المنفلت، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتي، ليحضر جنازتي من أحب

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٧.

على بصيرة، لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة، فقال: وبم أعلم ذلك، فذكر له علامة، فرأى علامة التوحيد عند موته، فاشترى السكر واللوز وفرّقه.

وكان سهل التستري يقول: المريد يخاف أن يُبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يُبتلى بالكفر.

وروي في أخبار الأنبياء أن نبيا شكى إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين، وكان لباسه الصوف، فأوحى الله تعالى إليه: عبدي أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا، فأخذ التراب فوضعه على رأسه، وقال: بلى، قد رضيت يا رب فاعصمني من الكفر.

ويقول أبو يزيد البسطامي ﷺ: حججت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام، فجعلت أدعو وأتملق تملقاً، وإذا بهاتف يقول: يا أبا يزيد، لو دعوتنا بهذا الدعاء ألف سنة، وحججت ألف حجة ما قبلنا ولا ذرة واحدة، فقلت: لماذا؟ قال: لأنك ترى عملك ولا ترى من استعملك، قلت: يا رب، إذا لم تقبل مني عبادتي ولا عبري، وعزتك لأتقطعن الوصال بيني وبينك، فقيل له: يا أبا يزيد إن كان بيدك فاقطعه، نحن أوصلناك نسيتنا، فقلت: وعزتك لا أبرح من حرمك حتى أعلم رضاك عني، فقل لي: قل يا أبا يزيد، ما تريد؟ وعزتي وجلالي لو يعلم العالم ما أعلمه من باطنك لرجوك، فقلت: وعزتك وجلالك، لو يعلم العالم ما أعلمه من كرمك ما عبدوك، وإذا بهاتف يقول: يا أبا يزيد، لا نقول ولا تقول، أنت عندنا مقبول.

فإن كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء؟، فارض بما أقامك الله فيه، ولا تطمع في غيره، فلو رأى خيرا في ذلك لأقامك فيه، نسأل الله التوفيق.

**٢٠- ما أرادَتْ هِمةُ سالكٍ أنْ تَقِفَ عنْدَ ما كُشِفَ لَها إلا وَنادَتْهُ هَواتِفُ الحَقيقةِ: الَّذي تَطْلُبُ أَمامَكَ، وَلا تبَرَّجَتْ ظَواهِرُ المُكَوَّناتِ إلا وَنادَتْهُ حَقائِقُها: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾**

إذا كنت أيها المريد راغبا إلى الله، متمسكا بوصاله فإنه سيهديك، ويحيطك بعمله، ويكلؤك بعنايته، ولن يتركك فريسة للأوهام، ولا يسد أمامك طريق الترقي إلى الملكوت الأعلى، ومتى فترت همتك أو خذلتك نفسك أقام الله لك من الدعائم ما يقويك ويسندك، وما يشد ظهرك ويسددك.

وفي هذا الزمان الذي فتن فيه الناس بما حوى من زخرف، وما امتلأ من لآلئ الباطل ومغريات الحياة ومتعها كذلك فتن السالكون بما كشف لهم من مكاشفات، وما تبرج لهم من ظواهر المكونات، فوقفوا عند ذلك، وظنوا أن هذا هو نهاية المطاف، وأنهم قد بلغوا من الله شأوا، وأصبحوا عنده بمكانة، وقد خدعتهم هذه المكونات ببهرجتها لهم وكشفها لحقائق الملكوت، لكن السالك إلى الله لا تخدعه هذه الأشياء، لأن أمله هو الله وغايته هي: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾(١)، يتمنون أن تطأهم أقدام الخلائق ويرضى عنهم الخالق، لا يريدون ظهورا ولا استكبارا، ولا يرومون مكانة زائفة، وإنما همهم كله رضا مولاهم وسيدهم عنهم.

وقد حذر ابن عطاء الله -رحمه الله- من وعورة الطريق، وسوء المسلك، والانخداع بالمظاهر والمكونات، فذكر هذه الحكمة الجليلة، وبيّن لنا أن أي سالك يسلك الطريق إلى الله لابد أن يكون حذرا من الفتن التي قد تحدث له أثناء مسيره إلى الله تعالى، فلا تقف همته عندما يكشف لها من الأنوار والأسرار في أثناء سيره ظانا منه أنه وصل إلى نهاية المعرفة إلا ونادته هواتف الحقيقة، وهو ما يسمع صوتها، ولا يرى شكلها، فإنها تقول بلسان الحال: الذي تطلبه أمامك، فلا تقف، ولا تبرجت أي أظهرت له زينتها ظواهر المكونات، كالنجوم والكواكب والسيارات الفارهة والمساكن الطيبة،

---

(١) سورة النجم الآية ٤٢.

وغير ذلك من الفتن التي في الأكوان إلا ونادته حقائقها وبواطنها بلسان الحال: إياك أن تفتن وتركن إلينا، فنحن ابتلاء واختبار فلا تكفر، أي فلا تفتن بنا، ولا تقف عندنا، فتحجب بنا عن مولاك القدير.

فهمة السالك لا يوقفها شيء حتى يأتيها اليقين، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(١).

ولذا قسم العلماء عمل العباد على أربعة وجوه: فأشرفها وأفضلها قوم عملوا لله على التعظيم له، فحسنت أعمالهم، وكرمت فعالهم على وجه عظمته في صدورهم وعظم قدره في قلوبهم، فلم يكن شيء أحب إليهم ولا ألذ عندهم من شيء يتقربون به إليه، وآخرون عملوا على وجه الرغبة والحرص على جواره، فلم تكن لهم همة إلا ترك ما نهاهم عنه، لعظيم ثوابه، وخافوا فوات خير ما عنده من عظيم ما أعد من الثواب لأهل ولايته.

وآخرون عملوا مخافة منه ومن عقابه، فكانت همتهم في الرهبة من العقاب قد حالت بينهم وبين الرغبة في الثواب، وكانت الأعمال منهم على وجه الفرار من العقاب، وليس يخطر الثواب على قلوبهم لعظم العقاب في صدورهم، ويقولون في أنفسهم إن بلغتنا أعمالنا إلى الخلاص من العقاب لقد ظفرنا بالفوز العظيم، فخرجت الرغبة من قلوبهم من كثرة الرهبة، فما تخطر الجنة بقلوبهم من عظم العقاب في صدورهم.

وآخرون عملوا على وجه الحياء من الله سبحانه، استحيوه في ليلهم ونهارهم إذا غلقت الأبواب، وأرخيت الستور عليهم، لما أيقنوه أنه هو الذي يلي عرضهم ومساءلتهم، فاستحيوا من كل قبيح يعملونه في سرائرهم، حتى كأنهم ينظرون إليه، ولما استيقنوا بنظره إليهم قالوا سواء علينا نظر إلينا أو نظرنا إليه، وأيقنوا أنه أقرب إليهم من حبل الوريد، فلما أيقنوا بذلك حال يقينهم بينهم وبين مثاقيل الذر وموازين الخردل مما يكره المطلع عليهم، وكان الحائل بينهم وبين اعتقاد القلب على شيء مما يكره سيدهم

---

(١) سورة الحجر الآية ٩٩.

معرفتهم بأنه مطلع في ضمائرهم، وينظر إليهم في كل حركة تكون منهم، وكل سكون، وكل خطرة، وكل طرفة عين، وكل همة، وكل إرادة، وكل نية، وكل محبة، وكل شهوة.

ولذا يقول النبي ﷺ: (من اشتاق إلى الجنة سارع في الخيرات، ومن أشفق عن النار لهى عن الشهوات، ومن ترقب الموت هانت عليه اللذات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات)(١).

وعن قبيصة بن جابر الأسدي قال: قام رجل إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، ما الإيمان؟ قال: الإيمان على أربع دعائم على الصبر، واليقين، والجهاد، والعدل، فالصبر منها على أربع شعب: على الشوق، والشفق، والزهادة، والترقب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات، ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات، واليقين على أربع شعب: على تبصرة في الفطنة، وتأويل الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين، فمن تبصر في الفطنة تأول الحكمة، ومن تأول الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين، والعدل على أربع شعب: على غايص الفهم، وزهرة العلم، وروضة الحلم، فمن فهم فسر جميع العلوم، ومن علم عرف شرائع الحكم، ومن حلم لم يفرط أمره وعاش في الناس، والجهاد على أربع شعب: على أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنأ الفاسقين وغضب لله غضب الله له، فقام السائل عندها، فقبل رأس علي رضي الله عنه.

وأما من كان همه الدنيا فإنه لا يزال عبدا لها، مهموما فيها، فقيرا في طلبها، مستعصية عليه أن ينالها، فقد قال ﷺ: (إن العبد إن كان همه الآخرة كف الله عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وإن كان همه الدنيا أفشى الله عليه ضيعته، وجعل فقره

---

(١) أخرجه الإمام الجنيد في الحديث رقم٤٢، الفوائد ٢٨/١، والبيهقي في الحديث رقم١٠١٣٤، شعب الإيمان ١٧٥/١٣.

بين عينيه؛ فلا يمسي إلا فقيرا، ولا يصبح إلا فقيرا)[١].

وإن أردت علامة على ما يقف به السالك ويظهر في الجاهل، أو أردت علامة على ما يتقدم به العالم ويسلك به العامل فاستمع إلى هذه البلاغة النبوية في الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (صفة العاقل أن يحلم عمن جهل عليه، ويتجاوز عمن ظلمه، ويتواضع لمن هو دونه، ويسابق من هو فوقه في طلب البر، وإذا أراد أن يتكلم فكر، فإذا كان خيرا تكلم فغنم، وإن كان شرا سكت فسلم، وإذا عرضت له فتنة استعصم بالله تبارك وتعالى، وأمسك يده ولسانه، وإذا رأى فضيلة انتهزها، لا يفارقه الحياء، ولا يبدو منه الحرص، فتلك عشر خصال يُعرف بها العاقل، وصفة الجاهل أن يظلم من يخالطه، ويعتدي على من هو دونه، ويتطاول على من فوقه، كلامه بغير تدبير، فإن تكلم أثم، وإن سكت سها، وإن عرضت له فتنة سارع إليها فأردته، وإن رأى فضيلة أعرض عنها وأبطأ عنها، لا يخاف ذنوبه القديمة، ولا يرتدع فيما بقي من عمره عن الذنوب، يتوانى عن البر، ويبطئ عنه غير مكترث لما فاته من ذلك أو ضيعه، فتلك عشر خصال من صفة الجاهل الذي حُرم العقل)[٢].

نسأل الله حسن الخاتمة، وألا يجعلنا ممن أخلد إليها، وأن يجعلنا ممن سارع إلى ما شوقه إليه من ثوابه، وعصمنا مما خوف به من عقابه، ورزقنا الصبر في مواطن الصبر، حتى يبلغنا القيام بأمره، ويذل أنفسنا من الدنيا فيها لمرضاته.

## ٢١- طَلَبُكَ مِنْهُ اتِّهامٌ لَهُ، وَطَلَبُكَ لَهُ غَيْبَةٌ مِنْكَ عَنْهُ، وَطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ لِقِلَّةِ حَيائِكَ مِنْهُ، وَطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ لِوُجودِ بُعْدِكَ عَنْهُ

قد يظن بعض الناس أن التمتع بمباهج الحياة، وتملك ما حوته من ظواهر ومكنونات إنما هو بالحيلة والطلب، وأن الدنيا تأتي لمن يسعى خلفها ولو لم يكن الله معطيا له، وأن التلهف في الطلب يحقق الأمل، وقد خاب من وراء ذلك وخسر.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم٨٠، كتاب الزهد ص٣٠.

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في الحديث رقم٨٤٧، المسند ٨١٥/٢.

إن الله عز وجل أقام الدنيا على الأسباب، فكل مسبب له سبب، ولكنه أناط بنفسه جعل هذه الأسباب مؤدية لدورها، فما عليك إلا اتخاذ السبب مع اليقين بالمسبب، وليعلم أنه ما من سبب يحقق نتيجة إلا إذا أراد الله بذلك وكتبه، فلا ترهق نفسك بكثرة الطلب، ولا تذلها لغيرك بالحاجة، واجعل نصب عينيك رضا المولى عز وجل وحده، فما أراده لك كائن ولو وقف العالم كله ضدك، وما كتبه عليك واقع بك ولو وقف كل الناس خلفك، ولن يصيبك إلا ما كتبه لك، لقد أراد النبي ﷺ غرس هذه المثل في الإنسان صغيرا، فاختار لهذه الحكمة الجليلة صبيا أردفه خلفه وعلمه، فقال له: (يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[١].

وإنما علمه النبي ﷺ وعلم الأمة سؤال الله تعالى دون حسن ظن، لأن عزة الإسلام تأبى الذلة والخضوع لغير الخالق الذي له المنة، فإن سؤال شخص مثلك يسوقك إلى الخمول، واعتبار المسئول إما أعلى من البشرية، وهذا يخالف التوحيد الصرف، وإما أنه في مرتبة الإنسانية، فيكون السائل أحط قدرا من الإنسان مع أنه تعالى خلقه بشرا سويا.

لقد بين ابن عطاء الله رضي الله عنه الآداب التي يتأدب بها المريد مع ربه الرحيم الجليل، فقال له: طلبك منه اتهام له بأنه لولا الطلب ما أعطاك، وما تحقق مطلوبك، وهذا اتهام له عز وجل بأنه لا يعطيك ما تطلبه منه إلا بالسؤال والطلب، لكنك لو وثقت فيه بأنه سيعطيك بغير طلب وسؤال لما طلبت منه شيئا، فالله سبحانه وتعالى يعطي ما قدر للإنسان بدون طلب منه، فما فائدة الطلب في قول الله عز وجل ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ

---

(١) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٢٥١٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح، سنن الترمذي ٢٤٨/٤.

لَكُمْ﴾[١]، فائدته أن الطلب يُقصد به إظهار العبودية لله عز وجل، والخضوع والتذلل له سبحانه، وليس معناه أنه لن يعطيك حتى تطلب.

وكذلك قوله: وطلبك له تعالى غيبة منك عنه: يقصد به أن طلبك من الله تعالى أن يقربك إليه بعملك الصالح هذا غيبة منك عنه، لأنك لو علمت الله لعرفت أنه أقرب إليك من حبل الوريد وبدون عمل منك.

ولذا يقول النبي ﷺ: (من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق مما في يده، وقال: أفأنبئكم بشر من هذا؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: من لا يقيل عثرة، ولا يقبل معذرة، ولا يغفر ذنبا، أفأنبئكم بشر من هذا؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره)[٢].

وقد قال لقمان لابنه: يا بني ارج الله رجاء لا تأمن فيه مكره، وخف الله مخافة لا تيأس فيها من رحمته، فقال: يا أبت وكيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد؟ قال: يا بني، إن المؤمن لذو قلبين: قلب يرجو به، وقلب يخاف به.

وقوله: طلبك لغيره لقلة حيائك منه: أي طلبك لغير الله عز وجل من الأغراض الدنيوية والمراتب الأخروية دليل على عدم حيائك منه، إذ لو كان عندك حياء ما طلبت في دنياك ولا أخراك إلا الله، فهو كافيك عن كل شيء، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[٣]، ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[٤].

وقوله وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه: إذ لو كنت قريبا منه لوجدت كل شيء بعيدا عنك إلا الله عز وجل، فهو أقرب إليك من حبل الوريد، فكيف تطلب من البعيد

---

(١) سورة البقرة من الآية ٦٠.

(٢) أخرجه الحاكم في الحديث رقم٧٧٠٧، المستدرك ٤/٣٠٠.

(٣) سورة الزمر من الآية ٣٦.

(٤) سورة الأنعام من الآية ٩١.

العاجز وتترك القريب المجيد القادر؟.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم من التابعين والعارفين قدوة الناس في إجمال الطلب، وحلاوة المسألة، وعدم التهالك في طلب الدنيا، وألا يجعل طلبها سببا في سخط الله، وأن يكون طلبه الرضا من الله تعالى قبل كل شيء، فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: من اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله، ولا تحمدن أحدا على رزق الله، ولا تلومن أحدا على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهة كاره، وإن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

وروي أن رجلا لزم باب عمر بن الخطاب ﷺ كل غداة، فشهد عمر منه مجيئه لأجل الطلب فقال له: يا هذا، هاجرت إلى عمر، أو إلى الله، إذهب فتعلم القرآن، فإنه سيغنيك عن باب عمر، فذهب الرجل فغاب زمانا حتى افتقده عمر، فسأل عنه فدل عليه فأتاه، فإذا هو قد اعتزل الناس وأقبل على العبادة، فقال له عمر ﷺ: إني قد افتقدتك حتى اشتقت إليك، فما الذي شغلك عنا؟ فقال: إني قد قرأت القرآن فأغناني عن عمر وعن آل عمر، فقال له عمر: رحمك الله فما الذي وجدت فيه؟ فقال: وجدت فيه ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، فقلت: رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض، فبكى عمر، وكانت موعظة له منه، فكان عمر بعد ذلك يشابه في الأحايين فيجلس إليه ويستمع منه.

وجاء رجل إلى بشر بن الحارث فقال: إني قد عزمت على سفر إلى الشام وليس عندي زاد فما ترى؟ فقال: يا هذا أخرج فيما قصدت له، فإن لم يعطك ما ليس لك لم يمنعك ما لك.

وشكا رجل إلى فضيل حاله فقال: يا هذا، مدبّر غير الله تريد؟.

وعن الحسن رحمه الله قال: والله، لقد أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت

أهون في أعينهم من هذا التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة لم يطو له ثوب قط، ولا نصب له قِدْرٌ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا، ولا أمر في بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أطرافهم يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم، وسألوا الله أن يغفرها، فما زالوا كذلك على ذلك، فوالله ما سلموا من الذنوب، ولا نجوا إلا بالمغفرة، وإنكم أصبحتم في أجل منقوص، والعمل محفوظ، والموت والله في رقابكم، والنار بين أيديكم، فتوقعوا قضاء الله عز وجل في كل يوم وليلة.

وذكر عن داود عليه الصلاة والسلام أنه قال لابنه سليمان عليه السلام: يا بني، إنما يُستدل على تقوى الرجل بثلاث: حسن التوكل، فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات.

وذُكر عن أبي مطيع البلخي أنه قال لحاتم الأصم: بلغني أنك تجاوز المفاوز بالتوكل بغير زاد؟ قال: بل أجاوزها بالزاد. قال: وما زادك؟ قال: زادي فيها أربعة أشياء. قال: وما هي؟ قال: أرى الدنيا بحذافيرها مملكة لله، وأرى الخلق كلهم عيال الله، وأرى الأسباب والأرزاق كلها بيد الله، وأرى قضاء الله نافذا في جميع خلقه. قال أبو مطيع: نعم الزاد زادك يا حاتم، وإنك لتجاوز بها مفاوز الآخرة، فكيف مفاوز الدنيا؟!.

وذُكر أن رجلا جاء إلى شقيق الزاهد رحمه الله تعالى، فقال له: أوصني. فقال له شقيق: احفظ ثلاثة أشياء: اعبد الله فإنه يثبتك، وحارب عدو الله فإنه ينصرك، وصدقه بالوعد فإنه يأتي به إليك.

سبحان الله، إن الناس في غفلة لعدم معرفة الله عز وجل، فكلما اقترب الإنسان من ربه عرف من هو فلا يتعلق قلبه بغيره، وكلما ابتعد عنه تعلق قلبه بغيره، فالقرب نعمة النعم، والبعد جحيم لا يطاق، نسأل الله دوام المعرفة والقرب.

## ٢٢- مَا مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ إلاَّ وَله قَدَرٌ فِيكَ يُمْضِيهِ

لا يعيش الإنسان في الحياة هباءً، ولا تمر الأحداث عليه اعتباطا، بل هي مقدرة مسطرة، تمضي الحياة بحلوها ومرها، ومتعها ونصبها، وسرورها وحزنها، وتعترض طريق المرء الأحداث الكثيرة بين القبض والبسط، والعطاء والإمساك، والمنع والمنح، ولكل حادث حكمة، ولكل نعمة اختبار، ولكل نقمة ابتلاء، وأنفاس المرء معدودة عليه، وفي كل نفس لله عز وجل قضاء وقدر يمضيه وينفذه كائنا ما كان، فالإنسان رهين قضائه في كل لحظة من عمره، فيجب عليه أن يسلم أمره إلى مولاه في جميع الأحوال، وأن يرضى بقضاء الله فيه حتى يفوز برضاه ونعيمه، وهي حكمة واردة على منوال ما جاء في السنة النبوية، فعن أبي هند الداري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله تبارك وتعالى: من لم يرض بقضائي، ويصبر على بلائي، فليلتمس ربا سواي)[١].

ولذا نُقل عن الغزالي رحمه الله في التعليق على هذا الحديث قوله: كأن الله عز وجل يقول: هذا لا يرضانا ربا حتى سخط، فليتخذ ربا آخر يرضاه، وهذا غاية الوعيد والتهديد لمن عقل ولمن صدق.

وإنما كان الإيمان والتسليم هنا حتما لأن في كل قضاء الله تعالى حكمة بالغة وعدل، وحكم صادق وحق، وأن يصدق بجميع أقدار الله تعالى خيرها وشرها أنها من الله تعالى سابقة في علمه، جارية في خلقه بحكمه، وأنهم لا حول لهم عن معصيته إلا بعصمته، ولا قوة لهم على طاعته إلا برحمته، وأنهم لا يطيقون ما حملهم إلا به، ولا يستطيعون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا بمشيئته، وأن يساعد القضاء ويستسلم للمقدور، ولا يُرى أن يغالب قضاء الله فيرجع مغلوبا، ولا أن يعارضه في أمره فيرد محروما مسلوبا.

وقد سئل أحد العارفين: ما العبودية والربوبية؟، فقال: الرب يقضي والعبد يصبر، وليس في السخط إلا الهم والضجر في الحال، والوزر والعقوبة في المآل، بلا فائدة، إذ القضاء نافذ، فلا ينصرف بالهلع والجزع، كما قيل:

---

(١) أخرجه الطبراني في الحديث ؤقم٨٠٧، المعجم الكبير ٣٢٠/٢٢.

ما قد قضى يا نفس فاصطبري له ولك الأمـــان من الذي لم يُقدرِ
وتيــقني أن المقــدّر كائـــــن حتمٌ عليك صبرتِ أو لم تصبري

وقد كان الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم من الراضين بقضاء الله وقدره، المسلّمين لله في كل حال، ولم يكن واحد منهم يتمنى غير ما قدره الله له، فهذا الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: ما كنتُ على حال من حالات الدنيا فيسرنى أني على غيرها، ويقول في موقف آخر: أصبحت وما لي سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر، وكان من دعائه المعروف الذي يروى عنه قوله: اللهم رضّني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أُحب تعجيل شيء أخّرته، ولا تأخير شيء عجّلته.

ورأى علي بن أبى طالب رضي الله عنه أحد المبتلين فقال له: يا عدي إنه من رضي بقضاء الله جرى عليه، فكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه، فحبط عمله.

ولما قدم سعد ﵁ إلى مكة وكان قد كف بصره جاءه الناس يهرعون، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام، فتعرفت إليه فعرفني، وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم، فذكر قصة قال في آخرها فقلت له: يا عم، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك، فتبسم ثم قال: يا بني، قضاء الله عندي أحسن من بصري.

وروي عن بعض العباد أنه قال: أذنبت ذنبا فأنا أبكي عليه منذ ثلاثين سنة، وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب، قيل له: وما هو؟ قال: قلت مرة لشيء كان ليته لم يكن.

وقال بعض السف: لو قرض جسمي بالمقاريض كان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله: ليته لم يقضه.

وعن بشر الحافي قال: رأيت بـ (عبّادان) رجلا قد قطعه البلاء، وقد سالت حدقتاه على خديه، وهو في ذلك كثير الذكر، عظيم الشكر لله، قال: وإذا هو قد صرع من حبه به، قال: فوضعت رأسه في حجري، وجعلت أسأل الله عز وجل كشف ما به، وأدعو له، فأفاق فسمع دعائي، فقال: من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي، ويعترض عليه في نعمه علي؟ قال: ونحى رأسه، قال بشر: فاعتقدت أن لا أعترض على عبد في نعمة أراها عليه من البلاء.

ودخل الحسن بن علي -رضوان الله عليهما- على عليل قد أَبَّلَ (يعني اشتد مرضه) فقال: إن الله تعالى أقالك فاشكره، وذكرك فاذكره.

ومن علامات الصبر على القضاء، عدم مشقته على النفس عند ورود المصائب، وكف الكف عن تمزيق الثياب ولطم الخدود، وحبس اللسان عن الاعتراض على المقادير والتسخط، والامتناع من كل شيء يوجب إظهاره، حتى إن السلف كرهوا الأنين.

قال أحد الحكماء: العاقل يفعل أول يوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام.

وقال عمر بن عبد العزيز ﵁: أما الرضا، فمنزلة عزيزة أو منيعة، ولكن قد جعل الله في الصبر معولاً حسناً.

قال أبو مسلم: دخلت على أبي الدرداء في اليوم الذي قبض فيه، وكان عندهم في العز كأنفسهم، فجعل أبو مسلم يكبر، فقال أبو الدرداء: أجل، فهكذا فقولوا، فإن الله إذا قضى بقضاء، أحب أن يرضى به.

فانظر أيها المريد إلى خير هذه الأمة من الصحابة والأولياء كيف يرضون بالقضاء، وكيف تسعد أرواحهم بتقدير الله لهم وفيهم، وكن بهم مقتديا تسعد في حياتك ومعادك، اللهم اجعلنا من الراضين بقضائك، الشاكرين لعطائك.

## ٢٣- لا تَتَرَقَّبْ فَرَاغَ الأَغْيَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ المُرَاقَبَةِ لَهُ فِيمَا هُوَ مُقِيمُكَ فِيهِ

كثير من الناس تلتهمه الشواغل، وتأكله الواجبات، ويصغر الوقت أمام ما يريد من أعمال وما يود إنجازه من مهمات، وكلما دار في خلده الرجوع إلى الله أو مراقبته فيما يفعل علل التقصير بالشواغل وانتظار الفراغ منها، وشواغل الإنسان الدنيوية لا تنتهي أبدا، فلو انتظر فراغه من الأغيار ما عبد الله عز وجل، فنبه ابن عطاء الله رحمه الله إلى ذلك، فقال: لا تنتظر أيها المريد فراغك من الشواغل، بل راقب الله عز وجل في أوقات فراغك، ولا تسوف فإن تسويفك هذا يمنعك من القيام بحق الوقت الذي أنت فيه، والعبد الفقير إلى الله الصادق يكون في كل وقت بحسبه.

وقد سئل بعض العارفين: متى يستريح العبد الفقير إلى الله؟ فقال: إذا لم ير وقتا غير الوقت الذي هو فيه.

فلو قال الإنسان إنني سوف أعبد الله في الكبر، أو بعد أن أنهي دراستي، أو بعد عودتي من السفر، أو غير ذلك، فإن هذا التسويف يقطعه عن مراقبة الله وعن طاعته، ولكن لا بد من أن يستغل وقت فراغه ولا يسوّف، فقد تعتريه أحوال كثيرة من صحة ومرض، وغنى وفقر، وشدة ورخاء، لقول الله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(١)، فليستعن الإنسان بربه في كل حال ولا يعجز، ويأخذ من صحته لسقمه، ومن شبابه لهرمه، ومن غناه لفقره، وليعلم أن الله قد أقامه في مقام هو مبتليه فيه، فإن سوّف فإنما يريد أن يقيم نفسه في غير ما أقامه الله فيه.

وقد سبق في شرح حكمة سابقة أن إقامتك في غير ما أقامك الله فيه نوع من الجحود لله، والاعتراض على قضائه وقدره، وقد كان من رحمته سبحانه أن جعل المراقبة في كل حال أقامك فيها نوع خيرٍ وبرٍ، بل جعل من كل عملٍ تعمله في شغلك بمراقبة الله نوع عبادة، فعن كعب بن عجرة ﷺ قال: (مر على النبي ﷺ رجل، فرأى

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٣٥.

أصحاب النبي ﷺ من جلده ونشاطه ما أعجبهم، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟! فقال رسول الله ﷺ: إن كان خرج يسعى على ولده صغارا، فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء وتفاخرا، فهو في سبيل الشيطان)[١]، إن ما قام فيه هذا الرجل مرتبط بنيته وإقباله على الله تعالى، فلو انتظر مثل هذا الفراغ لينشغل بالعبادة ما فرغ، ولأقبلت الدنيا عليه من كل اتجاه، وإنما ينظر إلى حاله، ويرضى بما أقامه فيه، ويراقب الله عز وجل ويعبده على حاله دون انتظار زوال شواغل، أو إقامة مرتحل، أو عودة غائب، أو صحة مريض، فكم من فرائض ضاعت بسبب التسويف، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان النبي ﷺ يحث صحابته دوما على المبادرة في الفعل، وينهى عن التسويف والمماطلة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا، ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل)[٢].

وعن عبس الغفاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بادروا بالموت ستا: إمرة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، واستخفافا بالدم، وقطيعة الرحم، ونشوا يتخذون القرآن مزامير يقدمونه يغنيهم، وإن كان أقل منهم فقها)[٣].

وروي أنه ﷺ قال: (بادروا بالأعمال خمسا: هرما مقترا، وسقما مفسدا، وغنى مطغيا، وفقرا مسيئا، وموتا مجهزا)[٤].

وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: (بادروا بالأعمال هرما ناغصا، وموتا

(١) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٦٨٣٥، المعجم الأوسط ٥٦/٧.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم٨٠٣٠، المسند ٤٠٠/١٣.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم١٦٠٤٠، المسند ٤٢٧/٢٥.

(٤) ذكره الكلاباذي في بحر الفوائد ص١٣٥.

خالسا، ومرضا حابسا، وتسويفا مؤيسا)[١].

وقد وعى الصحابة والعارفون هذه السنن، فدأبوا على الإيقاظ والتيقظ، واغتنام فرصة الفراغ والصحة والشباب، ومبادرة الحسنة عقب السيئة لتمحوها.

فعن أبي عبيدة بن الجراح: أنه كان يسير في الجيش وهو يقول: ألا رب مبيض لثيابه مدنس لدينه، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم أساء ما بين السماء والأرض ثم عمل حسنة لعلت سيئاته حتى تقهرهن.

ويقول ذو النون المصري: الكيس من بادر بعمله، وسوف بأمله، واستعد لأجله.

وكان يوسف بن أسباط يقول: بادروا يا معشر الشباب بالصحة قبل المرض؛ فما بقي أحد أحسده إلا رجل أراه يتم ركوعه وسجوده، وقد حيل بيني وبين ذلك.

وعن يحيى بن معاذ أنه قال: المغبون يوم القيامة من فيه ثلاثة خصال: من قرض أيامه بالبطالات، وبسط جوارحه على الحسرات، ومات قبل إفاقته من السكرات.

وإن كان من نصيحة خاتمة فهاك هي على لسان أحد العارفين: يا هذا إذا هممت بخير فبادر هواك لئلا تغلب، وإذا هممت بشر فسوف هواك لعلك تغلب، لله در أقوام بادروا الأعمال واستدركوها، وجاهدوا النفوس حتى ملكوها، وتأهبوا لسبيل التوبة ثم سلكوها، وعرفوا عيوب العاجلة فتركوها.

ولله در أقوام بادروا أيامهم وحاذروا آثامهم، جعلوا الصوم طعامهم، والصمت كلامهم، فالأبدان بين أهل الدنيا تسعى، والقلوب في رياض الملكوت ترعى.

أخواني نصيحيت لكم فاقبلوها، واجعلوا هذه الحكمة دستورا لكم في حياتكم، وأقول لكم: بادروا قبل العوائق، واستدركوا فما كل طالب لاحق، واشكروا نعمة من ستركم عن الذنوب، واعرفوا فضله، فقد أعطاكم كل مطلوب، ما أعم وجوده لجميع خلقه، وما أكثر

---

(١) أخرجه البيهقي في الحديث رقم١٠٠٩٠، شعب الإيمان ١٤٩/١٣.

تقصيرهم في حقه، عم إحسانه الآدمي والبهائم، والمستيقظ والنائم، والجاهل والعالم، والمتقي والظالم، والغني والفقير، والضاحك والباكي، جعل الله همتنا وإياكم عالية، وسعينا إليها مبادرا، وعملنا منه متقبلا، وغفر لنا ولكم الذنوب، وستر العيوب، وعفا عن المعاصي، إنه جواد كريم.

## ٢٤- لا تَسْتَغْرِبْ وُقُوعَ الأَكْدَارِ مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَإِنَّهَا مَا أَبْرَزَتْ إلا مَا هُوَ مُسْتَحَقٌّ وَصْفِهَا وَوَاجِبُ نَعْتِهَا

لما غلبت الدنيا على القلوب، وظن كثير منهم أنها دار متاع أو محل استمتاع جاء ابن عطاء الله بصوته العالي وحكمته الدقيقة لينبههم على خطأ معتقدهم، وبوار مقصدهم باللهاث خلفها، والتذلل في طلبها، والاهتمام بأمرها على حساب دين المرء وعفته وتقواه، فالإنسان جاهل بطبعه، لا يعرف طبيعة الأشياء، فينخدع في الدنيا، ظانا أنها خلقت للمتاع لا للاختبار، وأنها ليست دار ممر بل دار استقرار، فتراه مهموما بها، مبالغا في طلبها، مهلكا نفسه حرصا عليها وعلى متاعها، ولا يدري أن الله قال في شأنها: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(١).

ولما كانت الحياة دار ابتلاء فليس من الغريب ظهور الأكدار فيها، ولا تراكم الهموم والأحزان وتواليها، لأنها دار امتحان واختبار، وهذه الأكدار من لوازم هذا الاختبار، وهذا وصفها المستحق، وواجب نعتها اللازم لها، إذ كيف يُعرف دين المرء إن لم يقلب بين الخير والشر، والغني والفقر، والقبض والبسط، فكل حال تظهر معدنه، وتبين صنفه، وتجلي جوهره، ليظهر أذهبٌ هو يجلو ويصفى بالاختبار، أم حديد يصدأ من موقف، ويميل بقلبه إلى الدنيا، فتهلكه بحرصها، وتأكله بأكدارها، ويظل مهموما بها ليل نهار، لا يتذكر إلا غرورها، ولا يجذبه إلا بهرجها، ولا تلهيه إلا أموالها، ولا تلفت نظره إلا فتنتها، ويغيب عن ناظره وجود الله تعالى وعبادته، فيصبح كلبا من

---

(١) سورة الملك الآيتان ١، ٢.

كلابها، وعبدا من طلابها، ومع ذلك لا يناله منها إلا ما قدره الله له، فمن شاء الله متعه، ومن شاء منعه، ومن شاء الله أغناه، ومن شاء أفقره، وفي كل اختبار وابتلاء ليرى الله موضع عبده في مقام الشكر على النعمة، ومقام الصبر على المصيبة، ليكون عبدا شاكرا صابرا، حامدا لله في كل حال، راضيا بكل قضاء.

وقد قيل: إنما جعلها الله محلا للأغيار ومعدنا للأكدار تزهيدا لك من البوار، فأذاقك الأكدار، فمن عرف ذلك ثم ركن إليها فما هو إلا أسفه الأشرار؛ لأنه آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم المقيم، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة هي ظل زائل وحال حائل.

وقيل: لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدار.

ولذا فإن على العاقل أن لا يحزن على شيء فاته من الدنيا أو تولى، وينزل ما أصابه من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب، وينزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب، ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها، ولا يبلغن ذلك سكرا ولا طغيانا، فإن مع السكر النسيان، ومع الطغيان التهاون، ومن نسي وتهاون خسر.

يقول أحد العارفين: وجدنا البلايا في الدنيا إنما يسوقها إلى أهلها الحرص والشره، ولا يزال صاحب الدنيا يتقلب في بلية وتعب؛ لأنه لا يزال بخلة الحرص والشره.

وعن عمر بن الخطاب ﵁ قال: اللهم لا أرى شيئا من الدنيا يستقيم، ولا حالا من حالها يدوم، اللهم لا تكثر علي فيها فأطغى، ولا تقل لي فيها فأنسى، واجعل رزقي منها كفافا.

وقال عامر: وجدت الدنيا أربع خصال: المال، والنساء، والنوم، والمطعم، فأما اثنتان فقد عزفت نفسي عنها، أما النساء فلا أبالي امرأة رأيت أو حمارا، وأما المال فما أبالي ما أصبت منه، وأما النوم والمطعم فلا بد منهما، وأيم الله، لأضرن بهما –أحسبه قال: جهدي–، فكان إذا كان الليل قام، وإذا كان النهار نام وصام.

وعن محمد بن كعب القرظي قال: إذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا، وفقهه في الدين، وبصره عيوبه، ومن أوتيهن أوتي خير الدنيا والآخرة.

وقال أبو واقد الليثي: تابعنا الأعمال فلم نجد شيئا أبلغ في طلب الآخرة من زهادة في الدنيا.

ولما علموا حقيقة الدنيا صرحوا بها محذرين، فهذا أحدهم يقول: ما ينتظر من الدنيا إلا كل محزن أو فتنة تنتظر.

وقال عبد الله بن مسعود: وددت أني في الدنيا فرد كالراكب الغادي الرائح.

وقال: من أراد الدنيا أضر بالآخرة، ومن أراد الآخرة أضر بالدنيا.

وعن الحسن قال: إياكم وكثرة الأشغال، فإنه من فتح على نفسه باب شغل من الدنيا فتح الله عليه أكثر من ذلك.

فحذار أيها المريد من الدنيا، فإنها تقول لك على لسان الشاعر:

هي الدنيا تقول بملء فيها      حذارٍ حذارٍ من بطشي وفتكي
فلا يغرركمو مني ابتسام      فقولي مضحك والفعل مبكي

وما أعجب هذه الحكمة حين قال سلطان لرجل حكيم: أريد عبارة أنقشها على خاتمي، لا أفرح إن حدث خير، ولا أحزن إن حدث سوء، فقال له اكتب عليه: كل ذلك سيمضي ويزول.

وقال أبو العتاهية في وصفها:

نأتي إلى الدنيا ونحن سواسية      طفلُ الملوك هنا كطفل الحاشية
ونغادر الدنيا ونحن كما ترى      متشابهون على قبور حافية
أعمالنا تُعلي وتَخفض شأننا      حسابُنا بالحق يوم الغاشية
حورٌ، وأنهارٌ، قصورٌ عالية      وجهنمٌ تُصلى، ونارٌ حامية
فاختر لنفسك ما تُحب وتبتغي      ما دام يومُك والليالي باقية
وغداً مصيرك لا تراجع بعده      إما جنان الخلد أو في الهاوية

فالحياة كلها أكدار وإن صفت يوما، وكلها أغيار وإن راقت زمنا، وكلها حسرات

وإن أراحت مدة، وكلها نقص وإن كملت وقتا، فهونها على نفسك بالأذكار، واملأها بفعل الخيرات وصحبة الأخيار، وذللها بالصلاة على المختار، واجعل ليلك فيها موصولا بنهارك شكرا لله على النعم، وحمدا لله على ما قدر وقضى.

وأنى لك التمتع بالزائل ولو جاءت قطرة من الدائم لأزالته، وأنى التألم من الزائل ولو كانت صبغة في النعيم الدائم أزالته، فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (يؤتى بأشد الناس كان بلاء في الدنيا من أهل الجنة، فيقول: اصبغوه صبغة في الجنة، فيصبغ فيها صبغة، فيقول الله له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسا قط، أو شيئا تكرهه؟ فيقول: لا وعزتك، ما رأيت شيئا أكرهه قط، ثم يؤتى بأنعم الناس كان في الدنيا من أهل النار، فيقول: اصبغوه فيها صبغة، فيقول: يا ابن آدم، هل رأيت خيرا قط، قرة عين قط؟، فيقول: لا وعزتك، ما رأيت خيرا قط، ولا قرة عين قط)(١).

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: (لو أن دلوا من غساق يهراق في الدنيا، لأنتن أهل الدنيا)(٢).

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: لو أن قطرة من زقوم جهنم نزلت إلى الدنيا، لأفسدت على الناس معاشهم.

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾، الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت وصاروا إلى الله تعالى، استأنفوا في بكاء لا ينقطع عنهم أبدا.

## ٢٥- مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ وَلَا تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ

عجيب أمر الإنسان، يعلم أن الأمر بيد الله وحده، له المرد وإليه المنقلب، منه الخير، وإليه المتاع، يعطي ويمسك، يمنع ويمنح، يكمل وينقص، يضحك ويبكي،

---

(١) أخرجه أسد بن موسى في كتاب الزهد ص٣٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ففي الحديث رقم١٣٦٦٠، المسند ٢١/٢٤٣.

يصح ويمرض، ومع ذلك يضل عن الإله العظيم القادر، ويلجأ إلى أفراد لا يملكون له ضرا ولا نفعا.

إن هذه الحكمة العالية التي صدرت من همة سامقة، ونفس صافية تجعل المريد متعلقا بربه فقط، غير مشرك به ولو في أمور بسيطة تافهة، حيث ينبه المرء إلى أنه لابد أن يكون متعلقا بالله في جميع حوائجه الدنيوية والأخروية، وأن يطلبها منه وحده، فهو القادر على كل شيء، وغيره عاجز عن كل شيء، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

وقد بين ابن عطاء الله -رحمه الله- هذا فقال: ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، أي مستعينا فيه برب العزة والجبروت، والملك والملكوت، من بيده كل شيء، والقادر على كل شيء، والمحيط بكل شيء.

ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك: أي لا يتيسر أمر اعتمدت فيه على حولك وطولك وقوتك، أو طول غير الله وحوله وقوته.

وأين قوة المخلوق من قوة الخالق!!، وأين بسط المرزوق من بسط الرازق!!!، وأين قدرة المخلوق من جبروت القادر!!!.

إن اللجوء إلى غير الله عز وجل والتذلل لعبد في مطلب ذل ينبغي على المؤمن البعد عنه، فإن الحرص أذل أعناق الرجل، إذ كيف يحرص المسلم الحق على أمر هو له ذل وقد أغناه العزيز!!!، أم كيف يطلب غنى من عبد مثله وله رب غني كبير!!!، أم كيف يحرص على قضاء حاجة وهو يعلم أن كل الأمور بيد العليم الخبير!!!.

مهلا أيها المريد، قف عند حدود الأدب، واعلم أن الله قاض ما أراد، ومحكم ما دبر، ولن تنال من مطالبك إلا ما قدره لك، فاطلب بعزة الله، ولا تطلب بنفسك، فأنت ضعيف عاجز فقير، واطلب بالله وبقوة الله، وإذا قدمت ما تطلب فقل باسم الله، وتوكل على الله، ولا يعني ذلك انعدام الطلب من الغير، بل اعلم أن الله إذا أراد سخره لك، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بإذنه سبحانه.

وقد فطن الأخيار من هذه الأمة قضية الدنيا ومطالبها، فما طلبوا غير الرشد إذا

وجدوا استجابة، فعن عبيد الله بن أبي بكر عن أبيه عن جده قال: (أتت الأنصار النبي ﷺ بجماعتهم، فقالوا: إلى متى ننزع من هذه الآبار؟ فلو أتينا رسول الله ﷺ فدعا الله لنا، ففجر لنا من هذه الجبال عيونا، فجاءوا بجماعتهم إلى النبي ﷺ، فلما رآهم قال: مرحبا وأهلا، لقد جاء بكم إلينا حاجة، قالوا: إي والله يا رسول الله، فقال: فإنكم لن تسألوني اليوم شيئا إلا أوتيتموه، ولا أسأل الله شيئا إلا أعطانيه، فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: الدنيا تريدون؟ اطلبوا الآخرة، فقالوا بجماعتهم: يا رسول الله، ادع الله لنا أن يغفر لنا، فقال: اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار، قالوا: يا رسول الله، وأولادنا من غيرنا. قال: وأولاد الأنصار، قالوا: يا رسول الله وموالينا، قال: وموالي الأنصار)(١).

وعن أبي الدرداء قال: استعيذوا بالله من خشوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع.

ونصح أحد العارفين مريده فقال: الزم الخلوة بالذكر، واصحب النعم بالشكر، واستعن بالله في كل أمر، واستخر الله في كل حال، وما أرادك الله له فاترك الاعتراض فيه، وكل عمل تحب أن تلقى الله به فألزمه نفسك، وكل أمر تكرهه لغيرك فاعتزله من أخلاقك.

ومتى كان المطلب بالله نفذ ولو وقف في وجهك كل الخلق، ومتى كان بغيره وقف ولو أعانتك السماوات والأرض ومن فيهن، إن قدر الله في عباده نافذ، ومطلوبه فيهم متحقق، ووعده لهم لا ينخرم، ومشيئته فيهم ماضية، ومتى كان المطلب بالله جاءته الإعانة من كل صوب وحدب، ومتى كان بغير الله كان الخزلان نهايته مهما نجح في بدايته، ولذا نقل عن وهب بن منبه أنه كان يقول: يقول الرب تبارك وتعالى: إذا توكل علي عبدي، لو كادته السماوات والأرض، جعلت له من بين ذلك المخرج.

فالمتوكل الصادق في توكله لا يجد قلبه يخضع لمخلوق، لأن قلبه مملوء بالثقة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم١٣٢٦٨، المسند ٤٦٤/٢٠.

بضمان الله، والمتوكل الصادق في توكله القليل من عطايا الله عظيم عنده عند صغر قدره، لمعرفته بعظيم قدر الله، فهو ساكن إلى روح اليقين، وهي المنزلة التي يغبطه بها أهل الحرص على الدنيا، فمن سكن قلبه إلى أنه ليس نعمة في السماء والأرض إلا وهي لله استراح قلبه من عذاب الحرص.

فإذا ألزمت الثقة قلبك فإنما أنت ناظر إلى الله، لأن الملك لله دون خلقه، وبقدر تركك الثقة يعظم حرصك على الدنيا، فخالف حرصك على الدنيا بالقنوع بما قسم لك، فإنك تسرع في عداوة الحرص على الدنيا، لأن الحرص لا يعطي ولا يمنع، والمتوكل على الله استغنى بالمعطي المانع عمن ليس بمانع ولا معط، فهو غني بالله عمن سواه، فقير إلى الله قد سكن قلبه عن الاضطراب، فليس لمخلوق في قلبه خطر، فمن وثق بغير الله لا يغنيه، والمتوكل لزم التقوى فجعل الله له مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب، ولم يقل من حيث يحتسب.

وقال مسلم بن يسار: اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب الله له.

ويقول الربيع بن برة: إن الدنيا تقول: أنا المركب المقوم، وأنا البيت ذو الأفاعي، أنا حية الوادي، أنا الذي أهين من أكرمني، وأكرم من أهانني، وأؤمن من توكل.

وكان ذو النون يقول: من صحح استراح، ومن تقرب قُرّب، ومن صفا صُفي له، ومن توكل وثق، ومن تكلف ما لا يعنيه ضيع ما يعنيه.

فإذا علمت أن الله حسب من توكل عليه فكيف لا تطلب الكفاية بالتوكل على الله عز وجل؟ ألست تعلم أن الرزاق قد قسم بين عباده معايشهم، وقد فضل بعضهم على بعض في الرزق، وقد فرغ مما قضى وقدر من ذلك؟ فكيف تعنى بعد علمك بطلب ما قد فرغ لك من مقداره؟.

ألا ما أبدع قول الشاعر مخاطبا قلبه:

أيا قلب لا تجزع من البين واصطبر ... فليس لما يقضى عليك بدافع
توكل على الرحمن إن كنت مؤمنا ... يجرك ودعني من نحوس الطوالع

وكلُّ الـــذي قد قــدر الله واقـــــع          ومــا لـم يقدره فليـــس بواقـــــع

اللهم اجعل مطالبنا بك، ولا تكلنا إلى سواك طرفة عين، اللهم آمين.

## ٢٦- مِنْ عَلاماتِ النَّجَاْحِ في النِّهاياتِ، الرُّجوعُ إلى اللّهِ في البِداياتِ

إن البدايات مبشرات بالنهايات، فمن كانت بدايته طيبة، وعلاقته بالله وطيدة، مخلصا في عمله، متوجها إلى الله بقلبه لابد وأن تكون نهايته سعيدة، وإذا أهمل الإنسان في بداية حياته، ولم يجعل الله نصب عينيه في جميع أعماله وأقواله فإنه يندم كل الندم في نهاية حياته، ولا ينفع الندم، فقد فات ميعاده، وانقضى أوانه.

وهنا يبين ابن عطاء الله رحمه الله أن من علامات نجاح المريد في جميع أمور النهايات أن يتكل على الله ويستعين به في كل أمر من أمور الحياة في البدايات، فمن استعان بالله أعانه، ومن استعان بغيره أوكله إليه، ومن عمل في بدايته كان ذلك علامة على توفيقه في نهايته ونجاحه عند الله جل وعلا، إذ كيف ينجح كسول متراخٍ!!، أم كيف يصل إلى الله كل لاهٍ وعاصٍ!!.

ولذا يقول العارفون بالله: من لم يكن مستقيما في صفته لم يرتق من مقامه إلى غيره، ولم يبن سلوكه على صحة، فمن شرط المستأنف الاستقامة في أحكام البداية، كما أن من حق العارف الاستقامة في آداب النهاية، فمن أمارات استقامة أهل البداية أن لا تشوب معاملتهم فترة، ومن أمارات استقامة أهل الوسايط أن لا يصحب منازلتهم وقفة، ومن أمارات استقامة أهل النهاية أن لا تتداخل مواصلتهم حجبة.

على أن المقولة هنا تمثل القاعدة في كل شيء، فمن اجتهد في علم في بداية حياته أدرك النجاح متى استمر في اجتهاده، ومثله من اجتهد في عمل أو غيره، فلكل مجتهد نصيب.

وقد تعجب الإمام الشافعي ممن يحسدونه على وفرة علمه وسعة فقهه، وأنهم يرومون اللحاق به والمنافسة له وهم كسالى، لا يقومون لعلم، ولا ينشطون لطاعة، فقال لهم بيته المشهور:

أبيت سهران الدجي وتبيته نوما وتبغي بعد ذاك لحاقي

لقد أقام الله الدنيا على سنن لا تتخرم، وقواعد لا تتصرم، فقد جعل لكل ساع في أمر نصيبه، وكل مجتهد في شيء قدره، وجعل لكل صاحب همة سبقا ورفعة، فكيف بمن كانت همته منذ بدايته رضا الله تعالى خالصا من قلبه، راضية بها نفسه، متلهفة عليها روحه، لا شك أن الله تعالى يرقيه ويصطفيه، ويعليه وينجيه، ويجعل نهاية حياته نجاحا تدل عليها بداياته.

ومن أراد تعلم كيفية البداية فلأذكر له هنا ما قاله أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتابه بداية الهداية: الق صديقك وعدوك بوجه الرضا، من غير مذلة لهما ولا هيبة منهما، وتوقر من غير كبر، وتواضع من غير مذلة، وكن في جميع أمورك في أوسطها، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم، كما قيل:

عليك بأوساط الأمور فإنهـا طريق إلى نهج الصراط قويم

ولا تك فيها مفرِطا أو مفرّطا فإن كـلا حـال الأمور ذميـم

ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر إلى ورائك الالتفات، ولا تقف على الجماعات(١)، وإذا جلست فلا تستوفز(٢)، وتحفظ من تشبيك أصابعك، وكثرة بصاقك ونخمك، وطر الذباب عن وجهك، وكثرة التمطى والتثاؤب في وجوه الناس في الصلاة وغيرها، وليكن مجلسك هادئا، وحديثك منظوما مرتبا، واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط، ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك والحكايات، ولا تحدث عن إعجابك بولدك وشعرك، وكلامك وتصنيفك، وسائر ما يخصك، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تتبذل تبذل العبد، وتوق كثرة الكحل، والإسراف في الدهن، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع أحدا على الظلم، ولا تعلم أحدا من أهلك وولدك فضلا عن غيرهم مقدار ما لك، واجفهم من غير عنف، وَلِنْ لهم من غير ضعف، ولا تهازل أمتك

---

(١) أي لا يكثر الالتقاء بجماعات الناس.

(٢) أي لا تقعد منتصبا غير مطمئن.

ولا عبدك، فيسقط وقارك من قلوبهم، وإذا خاصمت فتوقر، وتحفظ من جهلك وعجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا تجث على ركبتيك، وإذا هدأ غضبك فتكلم، وإذا قربك السلطان فكن منه على حد السنان، وإياك وصديق العافية، فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك.

فهذا القدر يا فتى يكفيك من بداية الهداية، فجرب بها نفسك، فإنها ثلاثة أقسام: قسم آداب الطاعات، وقسم في ترك المعاصي، وقسم في مخالطة الخلق، وهي جامعة لجمل معاملة العبد مع الخالق والخلق.

فإن رأيتها مناسبة لنفسك، ورأيت قلبك مائلا إليها، راغبا في العمل بها، فاعلم أنك عبد نوّر الله تعالى بالإيمان قلبك، وشرح به صدرك، وتحقق أن لهذه البداية نهاية، ووراءها أسرارا وأغوارا ومكاشفات.

وإن رأيت نفسك تستثقل العمل بهذه الوظائف، وتنكر هذا الفن من العلم، وتقول لك نفسك: أنى ينفعك هذا العلم في محافل العلماء، ومتى يقدمك هذا على الأقران والنظراء؟! وكيف يرفع منصبك في مجالس الأمراء والوزراء؟ وكيف يوصلك إلى الصلة والأرزاق وولاية الأوقاف والقضاء؟ فاعلم أن الشيطان قد أغواك، وأنساك متقلبك ومثواك، فاطلب لك شيطانا مثلك، ليعلمك ما تظن أنه ينفعك، ويوصلك إلى بغيتك، ثم إنه قط لا يصفو لك الملك في محلتك، فضلا عن قريتك وبلدتك، ثم يفوتك الملك المقيم والنعيم الدائم في جوار رب العالمين.

اللهم اجعلنا ممن حسنت بدايتهم وحسن ختامهم.

## ٢٧- مَنْ أَشْرَقَتْ بِدايَتُهُ أَشْرَقَتْ نِهايَتُهُ

إن هذه الحكمة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالسابقة عليها، بل هي تطبيق لها، وشرح مختصر لفحواها، فإذا كان الرجوع إلى الله في البدايات علامة على النجاح في النهايات فهنا يذكر ابن عطاء الله رضي الله عنه ويؤكد على أهمية الاهتمام بالبدايات، بأن يتم غرس القيم الصالحة في الإنسان منذ بداية حياته حتى تشرق في النهاية.

إذ لا يمكن أن ينمو ثمر طيب من غرسِ حنظلٍ، ولا أن تزدهر وردة يانعة من بذرة شوكٍ، فمن اهتم ببدايته حسنت نهايته.

وكل من لم يستعمل قلبه في بدايته، ويجعل الخوف حشو إرادته لم ينجب في خاتمته، ولم يكن إماما للمتقين عند علو معرفته.

ومن هنا اهتم علماء المسلمين بالنشء، وعالجوا تربيته من بداية حياته، فألف أبو حامد الغزالي كتابيه أيها الولد، وبداية الهداية ليوضح للمريد كيف يبدأ يومه وعمله، وكيف يكون تعامله مع الناس، وكيف يخلص نيته لله الواحد القهار حتى تشرق نهايته بختام سعيد.

وقد بين الإمام الهروي رحمه الله في منازل السائرين كيف تشرق بداية الإنسان، فذكر أن البدايات تصح بسبعة أشياء، وهي:

١- إقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص، أي الإخلاص لله عز وجل في جميع الأقوال والأفعال، فتكون جميع حركاتك وسكناتك خالصة لله عز وجل.

٢- متابعة السنة، بأن تقتدي برسول الله ﷺ في جميع أقواله وأفعاله.

٣- تعظيم النهي على مشاهدة الخوف، بأن تعلم تماما من الذي تعصيه، فإذا ما نهاك عن شيء لا تقترب منه تعظيما وتكريما لصاحب الفضل والمنة، لا للخوف من ناره وعذابه، وتقدم التعظيم على الخوف والرجاء.

٤- رعاية الحرمة، فإن لله حرمات فلا تقربوها، وحدودا فلا تعتدوها.

٥- الشفقة على العالم ببذل النصيحة وكف المؤنة.

٦- مجانبة كل صاحب يفسد الوقت.

٧- مجانبة كل سبب يفتن القلب، فكل ما يستميل قلبك ويصده عن سبيل الله لابد أن تجتنبه.

فالإنسان الموفق دائما يحافظ على أوقاته، ويستغلها في طاعة الله عز وجل، ولا

تكون لـه صبوة، كما قال ﷺ: (إن الله ليعجب من الشاب ليست لـه صبوة)[١]، فتشرق بدايته بذكر الله عز وجل، فهو دائما ملازم للأوراد، مجتهد في الطاعات، فيفيض الله عليه من أنواره وأسراره، فتسعد حياته، وتذلل أرزاقه، وتتحقق آماله، وبهذا تشرق نهايته.

أما من كان قليل الإقبال على الله في البداية فإنه لا ينال من الله الإشراق في النهاية، فتصبح حياته كما قال المثل العامي: "أهل الهنا للهنا يا رب هنيهم، راحوا يجيبوا الشقا شبط الهنا فيهم، وأهل الشقا للشقا يا رب تشقيهم، راحوا يجيبوا الهنا شبط الشقا فيهم".

يقول أبو علي الدقاق رحمه الله: من لم يكن له في بدايته قومة لم يكن له في نهايته جلسة.

ويقول: اعلم أن من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة، لم يجد من هذه الطريقة شمة.

ويقول ابن القيم رحمه الله: لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى كانت نهايته الذل والصغار، والحرمان والبلاء، المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابا يعذب به في قلبه كما قيل:

مآرب كانت في الشباب لأهلها    عذابا فصارت في المشيب عذابا

فلو تأملت حال كل ذي حال شينة رزية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه، وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايته العز والشرف والغنى، والجاه عند الله وعند الناس.

وقال أبو علي الدقاق: من ملك شهوته في حال شبيبته أعزه الله في حال كهوليته.

وقيل للمهلب بن أبي صفرة: بم نلت ما نلت؟ قال: بطاعة الحزم، وعصيان الهوى.

---

(١) أخرجه أحمد في الحديث رقم١٧٣٧١، المسند ٦٠٠/٢٨.

وهذا كله في بداية الدنيا ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله سبحانه وتعالى الجنة نهاية من نهى نفسه عن هواه، والنار نهاية من اتبع هواه.

وانظر إلى هذه الكلمات العذبة التي تروي الظامئ في طريق الله تعالى، والتي خرجت من فم عالم رباني أبدع في كتابه وأحيا النفوس، واستحق أن يطلق عليه الإحياء، حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله وهو يقول: فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له في آخرته، وهي لذات الدنيا وزهرتها، فارتضى منها بالقليل، واختار النحول والذبول، والوحشة والحزن، والخوف وترك المؤانسة بالخلق، خوفا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك، ورجاء أن ينجو من عذابه، فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره وبما أعد له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد، ثم علم أن الله كريم رحيم لمن يزل لعباده المريدين لمرضاته عونا، وبهم رءوفا، وعليهم عطوفا، ولو شاء لأغناهم عن التعب، ولكن أراد أن يبلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلا، ثم إذا تحمل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير، وحط عنه الأعباء، وسهل عليه الصبر، وحبب إليه الطاعة، ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات، ويقويه على إماتة الشهوات، ويتولى سياسته وتقويته، وأمده بمعونته، فإن الكريم لا يضيع سعي الراجي، ولا يخيب أمل المحب، وهو الذي يقول: من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، ويقول تعالى: لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقائهم أشد شوقا، فليظهر العبد في البداية جده وصدقه وإخلاصه، فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته.

نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين من أهل الهنا والتوفيق، وممن أشرقت نهايتهم بإشراق بدايتهم.

## ٢٨- مَا اسْتُودِعَ في غَيْبِ السَّرائِرِ ظَهَرَ في شَهادةِ الظَّواهِرِ

كثير من الناس يحسب نفسه ذكيا فطنا، يمكنه المداراة والمماراة، وأن يظهر أمام

الناس تقيا ورعا، حريصا على الخير، محبا لأهله، ولا يحسب أن الظاهر يكشف ما استودع في غيب السرائر، وأن ما في قلبه يظهر على فلتات لسانه وفي حركات جسمه، فالقلب وإن كان مستودعا للسرائر لكن شهادة الظواهر تكشف عما فيه من خير أو شر، وما يحتوي عليه من حُسن أو سوء.

فدائما وأبدا الظاهر هو عنوان الباطن، فإن وجدت إنسانا ميسرة حياته، مستورة عاقبته، حاله مع الله كبير، وذكره له دائم، فاعلم أن باطنه سليم من الأكدار، نقي من الأغيار، لأنه كما قال ابن عطاء الله ﷺ ما استودع في السرائر، أي ما استودع في قلب الإنسان في الباطن من خير أو شر فإنه يظهر على جوارحه، ولذا لما رأى سعيد بن المسيب رجلا وهو يعبث بلحيته في الصلاة، قال: لو خشع قلب هذا، لخشعت جوارحه(١).

فمن ادعى طاعة الله ومحبته ولم تظهر على ظاهره ثمرات ذلك فهو مدع وغير صادق، لأن من طابت سريرته حمدت سيرته، وقالوا: ما فيك يظهر على فيك.

وقال الشاعر:

ومهما تكن في امرئ من خليقة    يخالها تخفى على الناس تظهر

وقد وعى المتقدمون من علماء الأمة ذلك، وتنبهوا لأهمية الظاهر والباطن، فجعلوا الناس درجات، فقالوا: الظالم لنفسه مَن ظاهره خير من باطنه، والمقتصد مَن استوى ظاهره وباطنه، والسابق مَن باطنه خير من ظاهره.

يقول ابن القيم رحمه الله: والجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تك ذات جمال، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتست روحه من تلك الصفات، فإن المؤمن يعطى مهابة وحلاوة بحسب إيمانه، فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه، وهذا أمر مشهود بالعيان، فإنك ترى الرجل الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورة وإن كان أسود أو غير جميل، ولا سيما إذا رزق حظاً من صلاة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في الأثر رقم٦٧٨٧، المصنف ٨٦/٢.

الليل، فإنها تنور الوجه وتحسنه.

وضرب مثالا على ظهور الباطن على أعمال الظاهر فقال: اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعر في وجهه، ونظره شزراً، وإطراقة رأسه، وجلوسه متربعاً أو متكئاً، وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته، وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره، وقيامه وجلوسه، وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله.

يقول أحد العلماء لمريده: اعرف تواضعك في وقت ما جفاك جاف وأكرمك مكرم، فإن فيهما الفتنة، فإن العبد ربما أظهر التواضع عند الكرامة ليزداد منها، وربما تواضع عند الجفاء ليثبت له بالتواضع عند ذلك منزلة بين الناس، فتوقف عند ذلك كله وفاتش الهمة.

وقد اهتم العلماء والعارفون بالباطن، وحذروا من المراءاة، واتباع العمل حبا في الظهور أو رغبة في المديح، وأن يفعل الإنسان الاعتدال ويهتم بإصلاح باطنه ينصلح ظاهره، وألا يقدم الظاهر من أعمال بغية الرفعة وحسن المنزلة بين الناس.

ولذا خطب عمر ﵁ الناس يوما فقال: أيها الناس، إنما كنا نعرفكم إذ بين أظهرنا رسول الله ﷺ وإذ ينزل الوحي وينبئنا الله من أخباركم، فقد ذهب برسول الله ﷺ وانقطع الوحي، وإنما أعرفكم بما أقول لكم، من أظهر منكم خيرا ظننا به خيرا وأحببناه عليه، ومن أظهر منكم شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه، وسرائركم بينكم وبين ربكم، ألا وإنه قد أتى علي حين وأنا أرى أنه من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده، وقد خيل إلي بآخرة أن رجالا يقرءونه يريدون به ما عند الناس، فأريدوا الله بقراءتكم وأعمالكم.

ويقول وهب بن منبه: إن عالما من علماء بني إسرائيل جاء إلى عالم فوقه في العلم، فقال: ما آكل؟ فقال: ما تطفئ به جوعك، قال: فما ألبس؟ قال: ما تواري به سوأتك، قال: فما أبني؟ قال: ما يكنك من الشمس، وما يسترك من الريح، قال: فكم أضحك؟ قال: ما يسفر منه وجهك، قال: فكم أبكي؟ قال: لا تمل أن تبكي من خشية الله عز وجل، فقال: فما أظهر من عملي؟ قال: ما يقتدي به الحريص، ولا يصدق

عليك قول الناس، قال: فما أستر من عملي؟ قال: ما يظن أنك لا تعمل حسنة.

وروي عن شقيق بن إبراهيم الزاهد أن رجلا سأله فقال: إن الناس يسمونني صالحا فكيف أعلم أني صالح أو غير صالح؟، فقال له شقيق رحمه الله: أظهر سرك عند الصالحين، فإن رضوا به فاعلم أنك صالح، وإلا فلا، والثاني: اعرض الدنيا على قلبك، فإن ردها فاعلم أنك صالح، والثالث: اعرض الموت على نفسك، فإن تمنته فاعلم أنك صالح، وإلا فلا؛ فإذا اجتمعت فيك هذه الثلاثة فتضرع إلى الله تعالى لكيلا يدخل الرياء في عملك، فيفسد عليك أعمالك.

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إذا أظهر الناس العلم، وضيعوا العمل، وتحابوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا بالأرحام، لعنهم الله، فأصمهم وأعمى أبصارهم.

فإياك أيها المؤمن والقواطع الشاغلة عن الله عز وجل، وإياك أن تهتم بجمال الظاهر وتنسى إتقان الباطن، فالله مطلع عليك بكل حال، محاسب لكل على كل الفعال.

**٢٩- شَتَّانَ بَينَ مَنْ يَستَدِلُّ بِهِ أَوْ يَستَدِلُّ عَلَيهِ، المُسْتَدِلُّ بِهِ عَرَفَ الحَقَّ لأَهْلِهِ، فَأَثْبَتَ الأَمْرَ مِنْ وُجودِ أَصْلِه، وَالاستِدْلالُ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ الوُصولِ إِليهِ، وَإِلّا فَمَتى غابَ حَتّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ؟! وَمَتى بَعُدَ حَتّى تَكونَ الآثارُ هِيَ الَّتي تُوْصِلُ إِلَيْهِ؟!.**

الناس صنفان في الاستدلال على الله عز وجل، الصنف الأول وهم السالكون، وهم أهل الاستدلال، والصنف الثاني أهل المعرفة والبصيرة.

فأهل السلوك يستدلون على الله بمخلوقاته وآثاره، وأهل المعرفة والبصيرة يستدلون على الله بأنواره وأسراره، وهم لا يحتاجون إلى دليل يدلهم عليه، فهم يرون الله ببصائرهم، إذ هو أظهر عندهم من الظهور، فكيف يستدلون بالمعدوم على الموجود، وبالمجهول على المعلوم، وبالمظاهر على الظاهر، لذلك تعجب ابن عطاء الله رحمه الله فقال: الاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، لأن هؤلاء الذين يستدلون على الله

كالأعمى الذي يستدل على الطريق بالعصاة، أما البصير فلا يحتاج إلى هذه العصا، هل تستدل أنت على مكونات شقتك بالمصباح أم بالمكونات، لا شك أنك تستدل عليها بالمصباح، لذلك قال رحمه الله: شتان بين من يستدل به ومن يستدل عليه، شتان بين الأعمى والبصير.

فمتى غاب عنا حتى نستدل عليه؟، أو متى بعد عنا حتى تكون الآثار التي خلقها هي التي توصل إليه؟.

أيها الإنسان إن توهمك أن هناك شيء مع الله هو الذي أعماك عنه، فليس مع الله شيء حتى يحجبه عنك، لكنك أنت المحجوب عنه بمعاصيك وشهواتك، فقد خلدت في دار الملك، وغرقت في بحور الشهوات، ولم تستطع الصعود إلى عالم الملكوت لترى الأنوار والأسرار، انشغلت بجسمانيتك ونسيت روحانيتك، فأخلدت إلى الأرض تلهث على المناصب والشهوات التي حجبتك عن الله عز وجل، فلا تنكر على أصحاب البصائر، وعش مع شهواتك إلى أن تلاقي الله عز وجل، وهناك تعلم من هو الخاسر ومن هو الرابح.

فائدة: كان سيدي عبدالقادر الجيلاني -رحمه الله- يشرح لطلاب العلم، وفجأة توقف ثم قال: قل له نحن عرفناه بغير دليل، فتعجب الطلاب، وقالوا: ما هذا يا شيخنا، فقال: أحد العباد السالكين أتاه إبليس وهو في سكرات الموت، وفند أدلته التي استدل بها على الله، فكاد الشيخ أن يموت على الكفر لتشككه في الأدلة، فلحقته أنوار سيدي عبدالقادر الجيلاني، وجعلته ينطق، ويقول لإبليس: نحن عرفنا الله بغير دليل، عرفناه بأنواره، فخسأ إبليس وابتعد، وأنقذ هذا الشيخ من الكفر.

من كان عنده نور من الله صدق بذلك، ومن لم يكن عنده نور أنكر ذلك وتهكم، فإياك والتهكم وإلا أصابك ما قدره الله لك، وهذا تحذير نسأل الله لنا ولكم الثبات عند سكرات الموت، إنه جواد كريم.

ومعرفة الله تعالى رأس كل عبادة، وملاك كل أمر، ولذا قال بعض الحكماء: من عرف الله تعالى فماذا جهل؟ ومن جهل الله تعالى فماذا عرف؟.

وقال الصديق رضي الله عنه: الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته.

وقيل: من عرف الله تعالى صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله تعالى.

وقيل: من عرف الله تعالى ذهب عنه رغبة الأشياء، وكان بلا فصل ولا وصل.

فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى، كما قال بعضهم: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي.

## ٣٠- ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِه﴾ الواصلونَ إليهِ ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ السّائِرونَ إلَيْهِ

استمرارا لتصنيف الشيخ رحمه الله للناس ودرجاتهم ومنازلهم التي يسيرون فيها، ودرجات قربهم من الله عز وجل قسّم الناس هنا كذلك إلى صنفين بالنسبة للعلم والمعرفة.

الصنف الأول: هم أهل المعرفة والبصيرة، وهم أهل السعة، لديهم معرفة بالله فأفاض عليهم من علومه وأسراره وأنواره فهم الواصلون إليه، يغرفون من بحور أنواره وأسراره، فيفيضون من بحورهم على غيرهم من الخلائق مما آتاهم الله، ويتصرفون في العوالم كيف شاءوا، فتحدث لهم المعجزات والكرامات، فالرسل والأنبياء جميعهم عباد الله الربانيون كانوا يقولون للشيء بإذن الله: كن فيكون، فقد سخر الله لهم الأسباب، وفتح لهم الأبواب، فمنهم من كان يسير على الماء، ومنهم من كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، ومنهم من كان يكلم الطيور والحشرات والنباتات، ومنهم من سخر الله لهم الجن يعملون له ما يشاء.

لقد أعطاهم الله -عز وجل- ومنحهم الكينونة، وهذه الكينونة كينونة حال لا كينونة مقام، فإن كينونة المقام لا تكون إلا لله عز وجل، وكينونة الحال تكون للولي،

لقول الله عز وجل في الحديث القدسي: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)(١)، فهذه الكينونة التي أعطاها الله للولي تسمى البصيرة، أو السر، أو سر السر، ولذلك قيل: لا يتحدث أحد عن الله إلا من عرف الله، لأنهم يتحدثون عنه بالعلم اللدني الذي أفاضه الله عليهم.

ومن هنا متى وصلوا إلى الله فتحت لهم أبواب الطاعة، ولذة المعرفة والنجوى، ولم يعودوا من طريق الوصال، يقول ذو النون رحمه الله: ما رجع من رجع إلا من الطريق، ولو وصلوا إلى الله ما رجعوا، فازهد يا أخي ترى العجب.

وسئل يوما: بما يعرف العارفون ربهم عز وجل؟ قال: إن كان شيء، فبقطع الطمع، والإسراف منهم على الإياس، مع التمسك منهم بالأحوال التي أقامهم عليها، وبذل المجهود من أنفسهم، وما وصلوا بعد إلى الله إلا بالله.

أما كيف وصلوا فتجيب عنه هذه القصة الطريفة العجيبة، فقد قال أبو الجوال المغربي: كنت ببيت المقدس جالساً مع رجل صالح وإذا قد طلع علينا شاب والصبيان حوله يقذفونه بالحجارة، ويقولون: مجنون، فدخل المسجد وهو ينادي/ اللهم أرحني من هذه الدار. فقلت له: هذا كلام حكيم فمن أين لك هذه الحكمة؟ فقال: من أخلص له في الخدمة أورثه طرائف الحكمة وأيده بأسباب العصمة، وليس بي جنون وولق؛ بل قلق وفرق. ثم جعل يقول:

هجرت الورى في حب من جاد بالنعم — وعفت الكرى شوقاً إليه فلم أنم
وموهت دهري بالجنون عن الورى — لأكتم ما بي من هواه فما انكتم

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٥٠٢، الصحيح ١٠٥/٨.

فلما رأيت الشـوق والحب بائحـاً　　كشفت قناعي ثم قلت: نعم نعم
فـإن قيل: مجنون فقد جنني الهوى　　وإن قيل: مسقام فما بي من سقم
وحق الهوى والحب والعهد بيننـا　　وحرمة روح الأنس في حندس الظلم
لقد لامني الواشون فيك جهالة　　فقلت لطرفي أفصح العذر فاحتشم
فعاتبهم طرفي بغير تكلم　　وأخبرهم أن الهوى يورث السقم
فبالحلم يا ذا المن لا تبعدنني　　وقرب مزاري منك يا بارئ النسم

فقلت له: أحسنت، لقد غلط من سماك مجنوناً، فنظر إلي وبكى، وقال: أو لا تسألني عن القوم كيف وصلوا فاتصلوا؟ فقلت: بلى أخبرني؟ فقال: طهروا له الأخلاق، ورضوا منه بيسير الأرزاق، وهاموا من محبته في الآفاق، وائتزروا بالصدق، وارتدوا بالإشفاق، وباعوا العاجل الفاني بالآجل الباقي، وركضوا في ميدان السباق، وشمروا تشمير الجهابذة الحذاق، حتى اتصلوا بالواحد الرزاق، فشردهم في الشواهق، وغيبهم عن الخلائق، لا تؤويهم دار، ولا يقرهم قرار، فالنظر إليهم اعتبار، ومحبتهم افتخار، وهم صفوة الأبرار، ورهبان أخيار، مدحهم الجبار، ووصفهم النبي المختار، إن حضروا لم يعرفوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن ماتوا لم يشهدوا، ثم أنشأ يقول:

كن من جميع الخلق مستوحشاً　　من الورى تسري إلى الحق
واصبر فبالصبر تنال المنى　　وارض بما يجري من الرزق
واحذر من النطق وآفاته　　فآفة المؤمن في النطق
وجِد في السير ممراً كما　　شمر أهل السبق للسبق
أولئك الصفوة ممن سما　　وخيرة الله من الخلق

قال: فأنسيت الدنيا عند حديثه، ثم ولى هارباً فأنا متأسف عليه.

أما النوع الثاني من الناس فهم السالكون الذين قدر الله عليهم أرزاقهم، والعلم رزق من الله، فلينفقوا مما أعطاهم الله، فهم يتحدثون بعلومه الظاهرة التي حصلوها من

الكتب، وهذه إذا كانت وحدها دون عبادة لله وتضرع إليه وتوفيق منه فإنها لا تزيدهم إلا كبرا وعجبا وبعدا، نسأل الله العلم اللدني والرزق الهني لنا ولجميع المؤمنين.

ولهؤلاء يقول العلماء: تلاوة القرآن تعمل في أمراض الفؤاد ما يعمله العسل في علل الأجساد، مواعظ القرآن لأمراض القلوب شافية، وأدلة القرآن لطلب الهدى كافية، أين السالكون طريق السلامة والعافية.

| | |
|---|---|
| يـا لاهيـا بالمنايـا قـد غـره الأمـل | وأنـت عمـا قليـل سـوف ترتحـلُ |
| تبغـــي اللحـــوق بـلا زاد تقدمـه | إن المخفين لمـا شمروا وصلوا |
| لا تـركنن إلـى الـدنيا وزخرفهـا | فأنت من عاجل الدنيا ستنتقلُ |
| أصبحت ترجو غدا يأتي وبعد غد | ورُبّ ذي أمل قد خانه الأملُ |
| هــذا شـبابك قـد ولـت بشاشـته | ما بعد شيبك لا لهو ولا جدلُ |
| ماذا التعلل بالدنيا وقد نشـــرت | لأهلها صحة في طيها عـــللُ |

### ٣١- اهْتَدَى الرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ، وَالْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارُ الْمُوَاجَهَةِ، فَالأَوَّلُونَ لِلأَنْوَارِ، وَهَؤُلاَءِ الأَنْوَارُ لَهُمْ؛ لأَنَّهُمْ للّهِ لاَ لِشَيْءٍ دُونَهُ، ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

لا يزال ابن عطاء الله رحمه الله يتحدث عن الفروق بين الصنوف من الناس، وذكر هنا صنفين من أهل العلم والقرب، فتكلم عن تصنيفهم بالنسبة للأنوار، فبيّن أن أهل السلوك هم عبيد للأنوار يجلبونها بالتعب والمجاهدة والمشقة في الطاعات والعبادات، لقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(١)، وينتظرون من الله ثمرتها في الدنيا والآخرة، ولذلك سماهم عبيدا، لأن العبد يريد الأجر، فهؤلاء الناس قاموا بالعبادات والرياضات والمجاهدات، وتوجهوا بها إلى مولاهم الجليل، ويطلبون بها المغفرة، والفوز بالجنة والعيشة السعيدة في الدنيا، ويقولون ربنا آتنا في الدنيا حسنة

---

(١) سورة العنكبوت من الآية ٦٩.

وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
ارجع إلى النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وكن بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان

أما الصنف الثاني وهم العارفون بالله الواصلون إليه فلهم أنوار المواجهة، أي التقرب والتحبب، فقد خلقهم الله للأنوار، فالأنوار تأتيهم بغير اجتهاد ولا عبادة، وإنما تأتيهم بالحب والاجتباء والاصطفاء، وهم أحباب الله، فالأنوار لهم هدية من خالق البرية، لأنهم لله لا لشيء دونه، لا تشغلهم الأموال، ولا الأولاد، ولا العيشة الجميلة، ولا القصور الفارهة، ولا المناصب العالية عن الله عز وجل، لا يريدون متعا في الدنيا، ولا يريدون جنة ولا نارا، وإنما هم سكارى في حبهم لمولاهم العظيم المتعال، آه آه كيف يطلبون الـ (سوى) وهم مع من استوى، تقطعت أكبادهم ولم تنم عيونهم، حبا لربهم صاحب النعم الجليلة والعطايا النفيسة (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)، أي: توجه إليه بالكلية، ولا يمل قلبك للأنوار والعطايا والمكاشفات والكرامات، ثم ذرهم واتركهم في خوضهم يلعبون، أي أفرد التوحيد بالله بعد فناء الأغيار(١)، هو حق اليقين، ورؤية ما سوى الله خوض ولعب، أين هؤلاء دلونا عليهم لنقتبس من أنوراهم وأسرارهم، فقد قال فيهم المعصوم ﷺ: (هم القوم لا يشقى جليسهم)(٢)، أين ديارهم أحياء أو منتقلين، أين بلادهم وأوطانهم، يا رب اجعلنا ترابا لأحذيتهم، هم القوم الذين قال فيهم الشاعر:

لي سادة من عزهم أقدامهم فوق الجباه
إن لم أكن منهم فلي في حبهم عز وجاه

---

(١) أي بعد فناء ما سوى الله من المكونات.

(٢) أخرجه ابن حبان في الحديث رقم٨٥٧، صحيح ابن حبان ١٣٩/٣.

وكفى ذلك، فإن العقول لا تطيق أكثر منه، ولقد نهينا أن نتجاوز الشواطئ فنغرق في بحار الأنوار، يا الله، يا سر الأسرار، ويا منبع الأنوار، اعتق قلبي من الأكدار والأغيار والآثار، واملأه بالفيوضات والأنوار ومحبة المختار وآل بيته الأطهار، يا عزيز، يا غفار، اللهم آمين.

## ٣٢- تَشَوُّفُكَ إلى ما بَطَنَ فيكَ مِنَ العُيوبِ خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إلى ما حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الغُيوبِ

كثير من الناس يتشوف إلى معرفة ما حجب عنه، ويهفو للوصول إلى ما غيب عنه، غير مدرك أن الأفضل له أن يعمل جاهدا على تبصر ما فيه من العيوب، والتماس ما يشوبه من نواقص، والعمل على تلافيها، وتدريب نفسه على تداركها، والأوبة إلى الله منها.

فهذه الحكمة تطالب المرء أن يتطهر من جميع أنواع الرذائل الظاهرية والباطنية، وهي الأمراض القلبية من كبر وعجب، وحقد وحسد، ورياء وسمعة، ومداهنة وظهور، وحب الرياسة والجاه، وغيرها من أمراض القلوب التي لابد من مجاهدتها ومعرفتها، ولا يكون ذلك إلا بمصاحبة شيخ بصير بعيوب النفوس، خال من آفاتها، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، لذلك قال ابن عطاء الله رحمه الله: تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب، أي تطلعك بعين البصيرة إلى ما خفي فيك من العيوب والأمراض الباطنة خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب، أي عدم تطلعك إلى ما حجب عنك من الغيوب، والذي حجب عنك من الغيوب هو الأسرار الإلهية، والكرامات الكونية والإشراقات الربانية، لأن هذا من حظ النفس، والآخر وهو تطهير الباطن واجب عليك لربك، فإن نفسك تطلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة، فخير كرامة الاستقامة، ولأن تقوم بحق مولاك خير من أن تقوم بحظ نفسك وهواك.

واعلم أنه لا يصل الإنسان إلى أنوار مولاه وأسراره بحق إلا إذا طهر باطنه من هذه الأمراض، وأن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه، فمن كانت

بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عين نفسه.

ولذا قيل: من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه، فإن من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره، ومن خفي عليه عيب نفسه، ومحاسن غيره، فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرف، ولن ينال محاسن غيره التي لا يبصر أبدا.

وعن محمد بن كعب القرظي، قال: إذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا، وفقهه في الدين، وبصره عيوبه، ومن أوتيهن أوتي خير الدنيا والآخرة.

وكان الحسن يقول: ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تغيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا.

وقال السري: أحسن الأشياء خمسة: البكاء على الذنوب، وإصلاح العيوب، وطاعة علام الغيوب، وجلاء الرين من القلوب، وأن لا يكون لكل ما يهوى ركوب.

وأما كيف يعرف الإنسان عيوب نفسه، فقد حدد العلماء لذلك طرقا منها:

١- أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، مطلع على خفايا الآفات ويتبع إشارته في مجاهدته، وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه، فيعرفه أستاذه عيوب نفسه، ويعرفه طريق علاجه.

٢- أو أن يطلب صديقا صدوقا، بصيرا متدينا، يلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه ينبهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمة الدين، فكل من كان أوفر عقلا وأعلى منصبا، كان أقل إعجابا وأعظم اتهاما لنفسه، وفرحا بتنبيه غيره على عيوبه، ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس فقيل له: لم لا تخالط الناس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي، فكانت شهوة ذوي الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم.

٣- أو أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساويا، ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه، ويخفي عنه عيوبه.

فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرح به، وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها، فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له، وذمك إياه، فإنه غاية الجهل، وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله، إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به، وذكرك عيبك إن كنت غافلا عنه، أو قبحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته، وكل ذلك أسباب سعادتك، وقد استفدته منه، فاشتغل بطلب السعادة، فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة.

ولذا قيل: اعلم أن من عدوك من يعمل في هلاكك، ومنهم من يعمل في مصالحتك، ومنهم من يعمل في البعد منك، فاعرفهم على منازلهم، ومن أقوى القوة لك على عدوك، وأعز أنصارك في الغلبة له، أن تحصي على نفسك العيوب والعورات، كما تحصيها على عدوك، وتنظر عند كل عيب تراه، أو تسمعه لأحد من الناس: هل قارفت ذلك العيب؟ أو ما شاكله، أو سلمت منه؟ فإن كنت قارفت شيئا منه، جعلته مما تحصي على نفسك، حتى إذا أحصيت ذلك كله، فكاثر عدوك بإصلاح نفسك، وعثراتك، وتحصين عوراتك، وإحراز مقاتلك، وخذ نفسك بذلك ممسيا ومصبحا.

قال أبو حاتم ﵁: لا يجب على العاقل أن يكافيء الشر بمثله، وأن يتخذ اللعن والشتم على عدوه سلاحا، إذ لا يستعان على العدو بمثل إصلاح العيوب، وتحصين العورات، حتى لا يجد العدو إليه سبيلا، والعاقل لا يرحم من يخافه، ولا يترك إحصاء معائب العدو، ويتفقد عثراتهم مع السكوت عن ثلبه، ولا يستضعف عدوا بحيلة، فإن من استضعف الأعداء اغتر، ومن اغتر لم يسلم، اللهم إلا أن يكون العدو ذليلا، فإذا كان كذلك عطف عليه بالإغضاء، لأن العدو الذليل أهل أن يُرحم، كما أن المستجير الخائف أهل أن يُؤمّن، والمماداة للعاقل خير من المصافاة للجاهل.

نسأل الله الطهارة وحسن الاستقامة لنا ولجميع المسلمين.

**٣٣- الْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ، وَإِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ، إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسَتَرَهُ مَا حَجَبَهُ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ لَكَانَ لِوُجُوْدِهِ حَاصِرٌ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لِشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾**

لابد أن تعلم جيدا أن الله عز وجل لا يحجبه شيء، لأنه ليس معه شيء يحجبه، فكل هذه الأكوان بالنسبة له عدم محض، فكيف يحجب العدم من له وصف القدم؟! وقد بين ابن عطاء الله أن الحق ليس بمحجوب، لكن المحجوب أنت عن النظر إليه، حجبتك شهواتك الجسدية، وصفاتك النفسانية عن النظر إليه، فلو أردت أن تصل إلى مقام المشاهدة فعليك بمجاهدة نفسك وشهواتك، وعالجها، وابدأ بتنقية الباطن من عيوبه ومن أكداره، لأن الحجاب سبب العذاب، وبالمجاهدة والتنقية تتولد لديك البصيرة التي بها تصل إلى مقام المشاهدة، وهو مقام الإحسان.

واعلم أن كمال النعيم في النظر إلى وجه الله الكريم، وقد استدل ابن عطاء الله رحمه الله على استحالة حجب الله عز وجل بأنه لو حجبه شيء لستره ما حجبه عن النظر إليه، ولو كان له ساتر لوجود ذاته سبحانه وتعالى لكان له حاصر، وكل حاصر لشيء فهو قاهر له، وذلك لا يصح ولا يجوز في حق الله، لأنه هو القاهر فوق عباده، لقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾(١)، فالفوقية فوقية معنوية لطيفة، وليست كثيفة، ولا مكانية، لأنه منزه عن المكان والزمان، جل في علاه، وتعالى في ذاته العلية وأسراره الذاتية.

ولذا كانت الأحاديث كلها تدلك على مقام الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه لأنه سبحانه لا يحجبه عنك شيء وإنما حجبه عنك ضعف إيمانك وقلة يقينك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ بارزا يوما للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله وتؤمن بالبعث. قال: ما

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٨.

الإسلام؟ قال: الإسلام: أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[١].

وهذا ما أدركه فقهاء هذه الأمة وعلماؤها والعارفون بالله فيها، فقد كانوا يتواصون بذلك، فقد روى أبو عبد الله الجسري أن رجلا انطلق إلى أبي الدرداء فسلم عليه فقال: أوصني فإني غاز، فقال له: اتق الله كأنك تراه حتى تلقاه، وعد نفسك في الأموات ولا تعدها في الأحياء، وإياك ودعوة المظلوم.

وقالوا: إن المراقبة في ثلاثة أشياء: مراقبة الله في طاعته بالعمل، ومراقبة الله في معصيته بالترك، ومراقبة الله في الهم والخواطر، وإن مراقبة القلب لله عز وجل أشد تعبا على البدن من مكابدة قيام الليل، وصيام النهار، وإنفاق المال في سبيل الله.

وقد ذكر عن علي بن أبي طالب ﵁ أنه كان يقول: إن لله في أرضه آنية، وإن من آنيته فيها القلوب، فلا يقبل منها إلا ما صفي وصلب ورق.

وعن خالد بن معدان قال: ما من عبد إلا وله أربع أعين، عينان في وجهه يبصر بهما أمر دنياه، وعينان في قلبه يبصر بهما ما وعد الله بالغيب، فإذا أراد الله بعبد خيرا فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما ما وعد الله بالغيب، وهما غيب، فأبصر الغيب بالغيب، وإذا أراد الله بعبد سوى ذلك ترك القلب على ما فيه، وقرأ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، وما من إنسان إلا له شيطان متبطن فقار ظهره، لاوي عنقه على عاتقه، فاغر فاه على قلبه.

وإنما يكثف الحجاب بغلظ القلب واعتلاله، ووسوسة الشيطان فيه، فإن أردت جلاءه فاجله بالقرآن، كما قال ﷺ: (إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد. قيل: يا

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث رقم٥٠، الصحيح ١٩/١، وأخرجه مسلم في الحديث رقم٩، الصحيح ٣٩/١.

رسول الله، فما جلاؤها؟ قال: تلاوة القرآن)[١].

وقال بعض الحكماء: كما أن الحديد إذا لم يستعمل غشيه الصدأ حتى يهلكه، كذلك القلب إذا عطل من الحكمة غلب عليه الجهل حتى يميته.

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي. قال: أدنه من الذكر.

وقيل: الكسل سبب الغباوة، والغباوة سبب الوقاحة، والوقاحة سبب الانهماك في الباطل، كما أن الزيغ يوجب الرين، والرين يوجب القساوة، والقساوة توجب الختم والإقفال.

وقال الحسن البصري: حادثوا هذه القلوب، فإنها سريعة الدثور، وأفزعوا هذه النفوس فإنها طلعة، فإن لم تفعلوا هوت بكم إلى شر غاية.

وقال غيره من الحكماء: حادثوا هذه القلوب بالذكر، فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد.

وروي أن لقمان الحكيم أوصى ابنه، فقال: يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

قال عبد الله: إن لهذه القلوب شهوة وإقبالا، وإن لها فترة وإدبارا، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها.

وإن كان من نصيحة أخيرة لرفع هذه الحجب ومشاهدة ظهور الله تعالى فاسمع لهذه النصيحة البديعة: لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا، وإذا أحب الله عبدا اصطنعه لنفسه، واستخلصه لعبادته، فشغل همه به، ولسانه بذكره، وجوارحه بخدمته، وصرف قلبه عما سواه، والقلب يعمل، والبدن يعمل، والقلب يمرض كما يمرض البدن، وشفاؤه بالتوبة والحمية، والقلب يصدأ كما تصدأ المرآة، وجلاؤه بالذكر، والقلب يعرى كما يعرى الجسم، وزينته بالتقوى، والقلب يجوع ويظمأ كما يجوع البدن ويظمأ، وطعامه وشرابه العلم بالله والمعرفة، والمحبة والتوكل، والإنابة والعبادة.

---

(١) أخرجه البيهقي في الحديث رقم١٨٥٩، شعب الإيمان ٣/٣٩٢.

والوصول إلى المطلوب المحبوب موقوف على ثلاثة أمور:

هجر العوائد، وقطع العلائق، وإزالة العوائق.

فالعوائد: ما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والعادات التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع.

والعلائق: كل ما تعلق به القلب من دون الله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياساتها، وصحبة الناس، والتعلق بهم.

والعوائق: أنواع المخالفات التي تعوق القلب عن سيره إلى الله، وهي الشرك، والبدعة، والمعصية.

فحق الإنسان أن يراعي نفسه في الابتداء، ولا يترخص في ارتكاب الصغائر فيؤديه ذلك إلى ارتكاب الكبائر.

## ٣٤- اخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ، لِتَكُونَ لِنِدَاءِ الْحَقِّ مُجِيباً وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً

كثير من الناس يركن إلى بشريته، وتغلبه بهيميته، فيهيم في الدنيا على وجهه باحثا عن ملذاته، متهالكا في مطامعه ومتعه، غافلا عن مهمته التي خُلِق من أجلها، ووظيفته التي أُوجِد لوفاء حقها، ومن هنا جاء ابن عطاء بهذه الحكمة العظيمة الجليلة منبها المريد كيف يوقف نفسه عن شهواتها ومطامعها، لأن الإنسان إذا خرج من أوصاف بشريته يكون ملاكا، وأوصاف البشرية إما ظاهرة كأعمال الجوارح، وإما باطنة كأعمال القلب، وكل منها إما طاعة، وإما معصية، لكن المقصود أن تخرج من أوصاف بشريتك القبيحة التي تسمى بالمعصية ظاهرا وباطنا، أما الأعمال الطيبة التي تسمى طاعة فإن كانت ظاهرة فهي تفقه، وإن كانت باطنة فإنها تسمى تصوفا.

لذلك قال ابن عطاء الله لا تخرج من أوصاف بشريتك على الإطلاق، ولكن اخرج فقط من الأوصاف التي تناقض العبودية، من كبر وعجب ورياء وظهور، وما إلى ذلك، أما التي لا تناقض العبودية فهي محمودة لا تخرج منها وإلا كنت ملاكا.

واعلم أنه متى صلح الباطن صلح الظاهر، فإن القلب كالملك والجوارح كالجنود التي لا تتخلف عن طاعته، وكما قيل لو تنقى القلب من الأكدار أبت الجوارح أن تعصي القهار.

ولذا يقال: ثلاثة يزرعون لأنفسهم في القلوب المقت، ويوجبون السخط، ويهدمون ما يبنون: أحدهم: المشتغل بعيوب الناس، والثاني: المعجب بنفسه، والثالث: المرائي بعمله، وثلاثة أصناف يزرعون المحبة في القلوب، ويرثون العافية والمنزلة في أهل السماء: أحدهم: صاحب الخلق الحسن، والثاني: المخلص بعمله، والثالث: المتواضع.

وإذا أبت الجوارح أن تعصي الله عز وجل وصفت بالصفات المحمودة التي تقربه من مولاه العزيز القدير.

والصفات المحمودة مثل التواضع، والرضا، والحلم، والإخلاص، وعدم العجب، وترك المظاهر الكاذبة الخادعة، وما إلى ذلك من الفضائل، فإذا تخلق المريد بهذه الصفات الحميدة ناداه الحق بقوله يا عبدي، ونسبه إليه، فلا يخاف على نفسه من عدوه إبليس اللعين، لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾(١)، ولا يخاف من العوارض، لأنه في مأمن من الله عز وجل، وهذه هي عبودية المحبة والقرب، لا عبودية الملك والقهر، فقد قال الشاعر معربا عن ذلك:

وممـا زادني شــرفا وتيـها    وكدت بأخمصٍ أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي    وأن صيّرت أحمد لي نبيا

فيكون لنداء الحق مجيبا، ومن حضرته قريبا، ولطاعته محبا، ولذاته راغبا راهبا، فتأتيه الأنوار والأسرار من حضرة مولاه، فتنور حياته ومماته ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)، ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ

---

(١) سورة الحجر الآية ٤٢.

(٢) سورة التحريم من الآية ٨.

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١).

كذلك تستجيب أرواحهم لنداء الحق، وتأمر الأنفس بالعمل الصالح، فتكون كل أعماله طاعة لله عز وجل، وأقوالهم صادقة، وحياتهم جنان وارفة، وحدائق يانعة طيبة، ثمارها لذيذة طعومها، وقد قال بعض العارفين: من لم يدخل جنة المعارف في الدنيا لا يدخل جنة المكارم في الآخرة.

نسأل الله أن نكون منهم بفضله وكرمه والمسلمين أجمعين.

**٣٥- أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةِ الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ، وأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ وَيَقَظَةٍ وَعِفَّةٍ عَدَمُ الرِّضَا مِنْكَ عَنْهَا. ولأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لا يَرْضَى عَن نفسه خيرٌ لكَ مِن أنْ تَصْحَبَ عَالِماً يرضى عَنْ نَفْسِه، فأيُّ عِلْمٍ لعَالِمٍ يَرْضَى عَنْ نفسِه؟! وَأَيُّ جَهْلٍ لجَاهِلٍ لا يَرْضَى عَنْ نَفْسِه؟!.**

لله درك يا ابن عطاء، أي حكمة منك هذه، وأي سبر لأغوار النفس قد أتاه الله لك لتصيغ هذه الحكمة الرائعة، وتبدع الوصف بهذه الكلمات الموجزة المعجزة، لقد جمعت فضائل النفس ورذائلها في هذه الكلمات القصار، والجمل القليلة، لكأنما أطعمتنا كتبا كاملة في وصف النفس، ولكأنما حاضرتنا سنين عددا في بيان حالها والتحذير منها.

لقد بين ابن عطاء الله رحمه الله في هذه الحكمة مكمن الخطر في كل نفس، وهو الرضا عنها، والتيه بها، والعجب بصفاتها، والقبول بأعمالها، فمن وصل إلى هذه الدرجة فقد زلت قدمه، وبارت سلعته، وأصبح الطريق إلى النار مفتوحا أمامه ولو أتى بكل أفعال الطائعين، ومن غمط نفسه، وأنزلها منزلتها من الدونية والعبودية فقد رفع قدرها، وأعلى مكانتها، وفتح لها طريقا إلى العمل المقبول وإلى جنة الله العظيم.

لقد حذر الله –عز وجل– ورسوله الكريم ﷺ من النفس وأغوالها، ومن الرضا عنها، والركون إليها، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا

---

(١) سورة الحديد الآية ١٢.

مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١]، ويقول النبي الكريم ﷺ: (ليس عدوك الذي إذا قتلك أدخلك الجنة، وإذا قتلته كان لك نورا، أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك)[٢].

ولذا يقول الشاعر:

قلبي إلى ما ضرني داعي    يكثـــر أحزاني وأوجاعي
لقل ما أبقى على مـا أرى    يوشـــك أن ينعاني النــاعي
كيف احتراسي من عـدوي    إذا كان عدوي بين أضلاعي

فالرضا عن النفس أصل كل معصية، وأساس كل بلية، لأنها أمارة بالسوء، والنظر إليها بعين الرضا يوجب تغطية عيوبها، ويصير قبيحها حسنا، يقول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة    لكن عين السخط تبدي المساويا

وقال الإمام البوصيري رحمه الله:

وخالف النفس والشيطان واعصهما    وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطـع منهما خصما ولا حكمــا    فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

ولذلك بين ابن عطاء الله -رحمه الله- أن أصل كل معصية وغفلة وشهوة هو الرضا عن النفس، هذه هي المصيبة التي أصابت الجميع في هذا الزمن، فقد فتحت الشهوات أبوابها على مصراعيها، وسُخرت القنوات التلفازية لإعداد أصناف المأكولات والمشروبات، فانكب الناس عليها راضين بما تفعله نفوسهم، فيحذر ابن عطاء الله -رحمه الله- كل التحذير من الرضا عن النفس، والركون إليها، فأي معصية تحدث من الإنسان، وأي غفلة تصيبه، وأي شهوة تقهره وتذله، فإن سببها هو الرضا عن النفس، وهذا شأن أهل الظاهر وعلماء الظاهر الذين يأخذون العلوم الشرعية فقط، ولا يهتمون بالعلوم الباطنية، لذلك حذر ابن عطاء الله منهم قائلا: ولئن تصاحب جاهلا لا يرضى عن نفسه، فهو دائما يجاهدها، وينقي باطنها، ويحجم شهواتها، خير من أن تصحب

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٣.

(٢) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب ص٢٦.

عالما يرضى عن نفسه، لأنك لا تستفيد من صحبة العالم الذي يرضى عن نفسه، وتستفيد من صحبة الجاهل الذي لا يرضى عن نفسه، لأن خير الأصدقاء من إذا نسيت الله ذكرك، ومن إذا ذكرته أعانك، فالجاهل الذي يدين نفسه خير صاحب، والعالم الذي يرضى عن نفسه أسوأ صديق، فأيهما أولى بالصداقة.

ثم يبين أن عدم الرضا عن النفس سبب النجاة في الدنيا والآخرة، فيقول: وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها، فسبب السعادة في الدنيا والآخرة، وسبب الراحة والطمأنينة والسكينة هو عدم رضاك عن نفسك، ولكن الناس لا يعلمون، نسأل الله أن يعيننا على أنفسنا، إنه قادر على كل شيء.

واعلم أن رضاء الخلق غاية لا تدرك، فرضاء الخلق في سخط الله، يسخط عليك الله، ويسخط عليك الخلق، ورضاء الله في سخط الخلق يرضي عنك الله، ويرضي عنك الخلق، فافهم إن كنت ذا لُبٍّ، والسلام.

## ٣٦- شُعَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ، وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ، وَحَقُّ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وُجُودَهُ، لاَ عَدَمَكَ وَلاَ وُجُودَكَ

بعد أن نبه ابن عطاء الله المريد لعدد من الحكم بدأ يتحدث عن مراتب عديدة يبلغها المريد، وهو هنا يتحدث عن ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: وهي شعاع البصيرة، ويعبر عنها بعلم اليقين، فعلم اليقين يعلمك قرب الله منك قرب علم وإحاطة، فتستحي منه أن يراك حيث نهاك، وأن يفقدك حيث أمرك، فتقوم بأوامره كما ينبغي، وتنتهي عما نهاك عنه.

وعلم اليقين هو آخر علم الإيمان، وآخر نصيب العبد من علم اليقين، أعني نهايته أول عين اليقين، وهو شهادة المعرفة، والمعرفة على هذا الوصف أول المشاهدة؛ وهذا هو مقام المقربين، وهو وصف قريب يحيط ببعد النفس، فيستولي عليها، فيغيب بعدها في قربه، وينتبه عقله تحت ظنه، وتنطوي حكمته في قدرته، كمحو نور القمر في ضياء الشمس.

ولبلوغ هذه الدرجة يقول العلماء: إن سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين، فاحتل في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله.

والمرتبة الثانية: عين البصيرة، ويعبر عنها بعين اليقين، فعين البصيرة تشهدك أنه لا يوجد في الكون سواه، وأنك أنت عدم محض، فلا تستطيع أن تستعين بشيء سواه، ولا تتوجه إلى شيء إلا إياه، فأنت عدم، وجميع ما حولك عدم.

والمرتبة الثالثة: حق البصيرة، ويعبر عنها بحق اليقين، وحق اليقين يشهدك وجوده، لا عدمك ولا وجودك، وهذا حال الفناء الكامل مع الله عز وجل الذي تفنى فيه عن فنائك، أي تفنى أفعالك في أفعاله، وصفاتك في صفاته، وذاتك في ذاته، فتخرج بعد ذلك حرا لا يقيدك شيء، لا دنيا ولا آخرة، وهذا حال المجذوب، فإذا قال لك أنا الله فهو صادق، لأنه لا يتحدث عن نفسه، لأن نفسه فنيت في ذاته العلية، فهو يتكلم عن ربه، ولذا قال الشاعر:

وبعد الفنا في الله كن كيفما تشأ فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر

أي أنه لا يحاسب على طاعة ولا معصية.

وقد كفّر كثير من الناس الحلاج وابن عربي، وهم لا يعلمون الفناء ولا غيره، سلمهم الله لجهلهم، فالفناء في الله مرتبة عالية لا يبلغها كثير من الناس، بل هم قلة لا تعلم، وبضعة لا تسلم من ألسنة الناس.

أما الوصول إلى هذه المراتب الثلاث فليس بسهل، ولا ميسور لكل أحد، بل لمن اختصه الله بذلك، يقول الحسن بن علي رضي الله عنهما: من اتقى الكفر والنفاق نال من الله معرفة يقال لها علم اليقين، ومن اتقى الكبائر نال من الله معرفة يقال لها عين اليقين، ومن اتقى الصغائر نال من الله معرفة يقال لها حق اليقين.

وقال القشيري: علم اليقين ما كان بشرط البرهان، وعين اليقين ما كان بحكم البيان، وحق اليقين ما كان بنعت العيان، فعلم اليقين لأرباب العقول، وعين اليقين لأصحاب العلوم، وحق اليقين لأصحاب المعارف.

وكان أبو علي الدقاق رحمه الله يقول: العبودية أتم من العبادة، فأولا عبادة، ثم عبودية، ثم عبودة، فالعبادة للعوام من المؤمنين، والعبودية للخواص، والعبودة لخاص الخاص.

ويقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين.

ويقول: العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابدات، والعبودة صفة أهل المشاهدات، فمن لم يدخر عنه نفسه فهو صاحب عبادة، ومن لم يضن عليه بقلبه فهو صاحب عبودية، ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة.

فانظر نفسك من أنت فيهم، أم أنك خارج القوم ووددت لو كنت منهم؟.

## ٣٧- كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ

إن هذه الحكمة الخالدة هي خلاصة التوحيد والتمجيد لله عز وجل، فهي تتحدث عن وجوده سبحانه في العوالم كلها، وقد قلنا إن الله عز وجل اسمه الأحد، والأحد لا يقبل معه شيئا، فثبوت أحديته تمحو كل شيء، فلا شيء مع الله في عالم الأزل، ولا شيء مع الله في عالم الزمن، ولا شيء مع الله في عالم الأبد، وهذه الكينونة لا يتعلق بها زمن ولا مكان، لأن الزمان والمكان من المخلوقات، والمخلوقات كلها عدم، فلا شيء مع الله، لذا قال هو معكم ولم يقل أنتم معي، لأننا نحن عدم محض بالنسبة له، سبحانه وتعالى عما يشركون.

فقد دخل عالم الملك ومكوناته في عالم الملكوت ومكوناته، وتلاشى واضمحل عالم الملكوت بدخوله في عالم الجبروت، فأصبح لا شيء مع الله، فهو عدم بالنسبة لله عز وجل، فلولا إمداده وإيجاده للروحانية المحمدية ما ظهر هذا الوجود.

## ٣٨- لا تَتَعَدَّ نية هِمَّتُكَ إلى غَيْرِه، فالكريم لا تَتَخطَّاهُ الآمال

إن الإنسان العاقل المؤمن، الولي النقي، لا يعلق مطالبه إلا بربه، فهو الكريم، ومن قصد الكريم لا يضام، وهو الغني، والغني لا تتخطاه الآمال، فالطمع دائما في

كرمه وجوده وغناه، فمن طلب من غيره ضل وزل، وأصيب بالذل والهوان، ومن ركن إليه كفاه وأغناه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(١)، فصاحب الهمة العالية يأنف أن يرفع حوائجه إلى غير الكريم المتعال سبحانه وتعالى، فعزة الإسلام تأبى الذلة والخضوع لغير الخالق الذي له المنة، فإن سؤال شخص مثلك يسوقك إلى الخمول، واعتبار المسئول إما أعلى من البشرية، وهذا يخالف التوحيد الصرف، وإما أنه في مرتبة الإنسانية فيكون السائل أحط قدرا من الإنسان مع أنه تعالى خلقه بشرا سويا.

ولذا كان هذا ما علمه النبي ﷺ لابن عباس ليكون منهاجا لأمته، فقد روى ابن عباس قال: (كنت خلف رسول الله ﷺ يوما، فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)(٢).

وعن أبي ذر قال: (بايعني رسول الله ﷺخمسا، وواثقني سبعا، وأشهد علي تسعا، أن لا أخاف في الله لومة لائم. قال أبو المثنى: قال أبو ذر: فدعاني رسول الله ﷺ فقال: هل لك إلى بيعة، ولك الجنة؟ قلت: نعم. وبسطت يدي، فقال رسول الله وهو يشترط علي: أن لا تسأل الناس شيئا. قلت: نعم. قال: ولا سوطك إن يسقط منك، حتى تنزل إليه فتأخذه)(٣).

وعن ثوبان عن النبي ﷺ قال: (من يتكفل لي بواحدة وأتكفل له بالجنة. قال ثوبان: أنا. قال: لا تسأل الناس، يعني شيئا. قال: نعم. قال: فكان لا يسأل)(٤).

---

(١) سورة الزمر من الآية ٣٦.

(٢) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٢٥١٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح، سنن الترمذي ٢٤٨/٤.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم٢١٥٠٩، المسند ٤٠١/٣٥.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم٢٢٣٦٧، المسند ٥٠/٣٧.

وعن عمر قال: (قلت: يا رسول الله، أليس قد قلت لي: إن خيرا لك أن لا تسأل أحدا شيئا؟ قال: إنما ذاك أن تسأل الناس، وما آتاك الله من غير مسألة، فإنما هو رزق رزقكه الله عز وجل)[1].

وشكا رجل إلى الفضيل حاله، فقال: يا هذا، مدبّرا غير الله تريد؟!.

وقال إبراهيم بن أدهم: لا تجعل بينك وبين الله منعما عليك، إذ سألت؛ فاسأل الله أن ينعم عليك ولا تسأل المخلوقين، وعد النعم منهم مغرما.

وروى صفوان بن سليم أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له: يا ابن حنظلة احفظ عني شيئا أعلمك به، فقال: لا حاجة لي به، قال: انظر، فإن كان خيرا أخذت، وإن كان شرا رددت، يا ابن حنظلة لا تسأل أحدا غير الله سؤال رغبة، وانظر كيف تكون إذا غضبت، فإني أملكك إذا غضبت، ومن أبوابه العظيمة العجلة، وترك التثبت في الأمور.

نسأل الله عز وجل ألا يجعلنا سائلين غيره، ولا متجهين إلى سواه، ولا لائذين بغير حضرته القدسية، وذاته العلية، وأبوابه الهنية.

## ٣٩- لا تَرْفَعَنَّ إلى غَيْرِهِ حاجَةً هُوَ مُورِدُها عَلَيْكَ، فَكَيْفَ يرفَعُ غَيْرُهُ ما كانَ هُوَ لَهُ واضِعًا! مَنْ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَرْفَعَ حاجَةً عَنْ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَسْتَطيعُ أَنْ يكونَ لَها عَنْ غَيْرِهِ رافِعاً؟!

كثير من الناس يغفل عن الخالق بالخلق، ويرضى بسؤالهم عن سؤاله، ويركن إليهم مع سندهم الواهي، ولا يركن إلى من سنده لا يزول ولا يهون، ويتذلل للخلق وينسى المذلة للخالق، وهنا يعجب ابن عطاء رحمه الله كيف يرفع حاجته إلى ضعيف مثله، وينسى القوي الذي أبوابه لا تغلق، وهو القادر على كل شيء، وبيده كل شيء، فالله عز وجل يحذر الإنسان من أن يرفع إلى غيره حاجته التي هو موردها عليه، كالمرض والفقر، فهو الذي أوردها عليه اختبارا منه له، فكيف يرفع غيره العاجز الذي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رق١٣٠، الزهد ص٢٣.

لا يملك من أمره شيئا المرض أو الفقر أو البلايا التي تأتي من الله، إن من أنزل المرض قادر على رفعه، أما هذا الإنسان المسكين فلا يستطيع أن يرفع النوازل التي تتزل من الله عليه، فكيف يستطيع أن يرفع هذه النوازل عن غيره.

وانظر إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام وخذ منه الدرس في ذلك، كيف لم ير غير الله في محنته، فقد روي أنه (لما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار، جأرت عامة الخليقة إلى ربها؛ فقالوا: يا رب، خليلك يلقى في النار، فأذن لنا نطفئ عنه، قال: هو خليلي، ليس لي في الأرض خليل غيره، وأنا ربه، ليس له رب غيري، فإن استغاث بكم فأغيثوه، وإلا فدعوه. قال: فجاء ملك القطر، فقال: يا رب، خليلك يلقى في النار، فأذن لي أن أطفئ عنه بالقطر. فقال: هو خليلي؛ ليس في الأرض خليل غيره، وأنا ربه، ليس له رب غيري، فإن استغاثك فأغثه، وإلا فدعه، فلما ألقي في النار، دعا ربه بدعاء، نسيه أبو هلال (راوي الحديث). قال: فقال الله عز وجل: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: فبردت يومئذ على أهل المشرق والمغرب، فلم ينضج منها كراع).

ويقول الحسن: قال الله عز وجل: بني آدم، خلقتك وتعبد غيري، وتدعو إلي، وتفر مني، وتذكر بي، وتتساني، هذا أظلم ظلم في الأرض.

وعن ابن عباس قال: أوحى الله تبارك وتعالى إلى عيسى: اجعلني من نفسك كهمك، اجعلني ذخرا لمعادك، وتوكل علي أكفك، ولا تول غيري فأخذلك.

وروى بعض العلماء عن الله تعالى: لو أن ابن آدم لم يخف غيري ما أخفته من غيري، ولو أن ابن آدم لم يرج غيري ما وكلته إلى غيري.

وفي أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى قال: يا داود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسي، وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من

غرورها، وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي وأنسوا بي أؤانسكم، وأسارع إلى محبتكم، فإني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي، وموسى نجيي، ومحمد صفيي، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري، ونعمتها بجلالي.

وجاء في بعض الكتب المنزلة أن الله عز وجل يقول: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني، لأقطعن أمل كل مؤمل أمل غيري باليأس، ولألبسنه ثوب المذلة بين الناس، ولأبعدنه من قربي، ولأقطعنه من وصلي؛ أيؤمل غيري للشدائد والشدائد بيدي، وأنا الحي القيوم، ويرجى غيري ويطرق بالبكرات، وبيدي مفاتيح الخزائن وبابي مفتوح لمن دعاني، من ذا الذي أملني لنائبة فقطعت به؟، أو من ذا الذي رجاني لعظيم فقطعت رجاءه؟، أو من ذا الذي طرق بابي فلم أفتحه له؟، جعلت آمال عبادي متصلة بي، ورجاءهم مذخورا عندي، أفلم يثقوا بقولي؟؛ ألم يعلموا أن من حلت به نائبة من نوائبي لا يملك أحد كشفها إلا بإذني؟، فمالي ألقاه لاهيا عني؟، أعطيه بجودي ما لم يسألني، ثم أنزعه منه فلا يسألني رده، وهو يسأل غيري، أفتراني أبتدئ بالعطية قبل المسألة؟ ثم أسأل فلا أجيب سائلي؟، أنا غاية الآمال، فكيف تنقطع الآمال دوني؟ أبخيل أنا فيبخل عبدي؟ أليس الدنيا والآخرة والكرم والفضل كله لي؟ فما يمنع المؤملين أن يؤملوني؛ لو جمعت أهل السموات والأرض، ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع، وبلغت كل واحد منهم أمله لم ينقص ذلك من ملكي عضو ذرة، وكيف ينقص ملك أنا قيمه؟ يا بؤسا للقانطين، ويا بؤسا لمن عصاني؛ وتوثب على محارمي.

وهنا يجب على الإنسان أن يتعلق بالله في كل شيء، ويطلب منه كل شيء، فهو القادر على كل شيء، ويفهم تماما أن العاجز الذي لا يستطيع رفع ما أنزله الله عليه لا يستطيع أن يرفع هذا الشيء عن غيره، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولذا قال الشاعر:

لا تسألنّ بني آدم حاجةً ... وسل الذي أبوابه لا تحجبُ

فالله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يُسأل يغضب

**٤٠- إنْ لم تحسِّنْ ظنَّكَ بهِ لأجلِ وَصْفِه، فحَسِّنْ ظنَّكَ بهِ لأجْلِ معاملتِهِ مَعَكَ، فهَلْ عوَّدكَ إلاَّ حَسَناً؟ وهَلْ أسدى إليْكَ إلاّ مِنناً؟**

كثير من الناس سيء الظن، سريع الغضب، كثير الشكوى، قليل العمل، لا تجده عن الله راضيا، ولا لنعمه ذاكرا، ولا لمننه شاكرا، بل إنه أنّان منان، شكاء بكاء، إن أصابته السراء فرح ولم يشكر، وإن أصابته الضراء جأر بالشكوى ولم يصبر، فلا يعرف الذكر للسانه طريقا، ولا الحمد إلى قلبه مستقرا، مع أن نعم الله عليه سابغة، وفضله عليه عميم، ولكن من أين تجد للقلب الخالي من الله نعمة الحمد، وأين تجد للسان الهاجر للذكر شكرا للخالق.

ومن هنا يجب على الإنسان دائما وأبدا أن يحسن الظن بالله -عز وجل- في أمور الدنيا والآخرة، وحسن الظن بالله من مقامات اليقين، وينقسم الناس فيه قسمين:

القسم الأول: العارفون، وهم أهل الصفا والصفاء دائما، يحسنون الظن بالله، وهذا يقينهم الذي أوصلهم إلى ذلك، لاتصاف ربهم بالصفات العلية والنعوت السنية، فهو الكريم الحنان المنان، قديم الإحسان، الرؤوف الرحيم الرحمن، غافر الذنب وقابل التوب سبحانه وتعالى.

أما القسم الثاني: وهم عامة المسلمين، فإنهم يحسنون الظن بالله من أجل معاملته الطيبة معهم، وإحسانه إليهم، وأفضاله وآلائه وأنعامه التي تغمرهم ليلا ونهارا، فهؤلاء يحسنون الظن بالله من أجل هذه النعم، أما العارفون فيحسنون الظن بالله من أجل صفاته ونعوته، فحسن الظن بالله في أمر الدنيا أنك لا تيأس من شيء مهما كان، وإنما دائما وأبدا ترجو من الله في قبول جميع أعمالك وأفعالك، وهذا يستوجب الامتثال لأوامر الله، والإكثار من عمل البر، والإقبال على الله عز وجل، كي يواجه نعم الله عليه بالإحسان ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾(١)، وحسن الظن بالله في أمور الآخرة أن يكون قوي الرجاء والطمع في مغفرة الله ورضوانه، وعند سكرات الموت

---

(١) سورة الرحمن الآية ٦٠.

يحسن الظن بالله أنه سيدخله الجنة، لقول النبي ﷺ: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن)(١)، وقد قال الله في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن بي خيرا فله، وإن ظن شرا فله)(٢).

وقال: يا مستورا على الذنب انظر في ستر من أنت، لو عرفتني أعرضت عن غيري، لو أحببتني أبغضت ما سواي، لو لاحظت لطفي لتوكلت ضرورة علي، خاصمت عنك قبل وجودك ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تعلمون﴾، واستكثرت قليل عملك ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾، واعتذرت لك في زللك ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾، وغطيت قبيح فعلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾، ولقنتك عذرك عند زللك ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم﴾، وأربحتك معاملتك ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، من خاصم عنك وأنت مفقود لا يسلمك وأنت موجود، فاعرف عليك حقي، ولا تكن من شرار خلقي، فكم أرى زلة فأحلم وأبقي.

وقال: أيها المعرض عن شكر الإفضال والنعم، زاحمت على حوض الغفلة النعم، تمد يد الجهل بالإنعام إلى أخذه واقتباسه، وتنسى عقوبة ما قد جنيته في وقت باسه، أين الهرب بخطاك، عجبا منك وعيني تراك، تراك تستحي من غيري ومني لا تراك، من الذي ستر على القبيح فيما مضى؟، من الذي لطف بك في دين دينه إذا اقتضى؟، يا هذا إن وجدت من يصلح لك غيرنا فاذهب، وإن رأيت مشربا يلذ غير حلمنا فاشرب، لو أعلمت أباك ما نعلم منك أباك، ولو أريت أخاك ما أريتنا جفاك، نعمنا عليك قديمة كم نبعث لك ديمة لطف بعد ديمة، أتراك تحن إلى ودنا، أو تراعي عهد عهدنا.

فيا أخي: جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، فواعجبا ممن لم ير محسنا سوى الله عز وجل كيف لا يميل بكليته إليه، يا منعما عليه بالعافية بئس ما أنفقت فيه رأس المال، كم ذنبا لك فعله غيرك فهتك ذاك وسترت.

---

(١) أخرجه مسلم في الحديث رقم٢٨٧٧، صحيح مسلم ٢٢٠٥/٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم٩٠٧٦، المسند ٣٦/١٥.

ألا قف ببابي عند قرع النوائب وثق    بي تجـــدني خيــر خلّ وصاحب
ولا تلتفت إلى غيري فتصبح نادما    ومن يلتفت إلى غيري يعش خائب

اللهم ارزقنا حسن الظن بك، وأمتنا على ذلك، اللهم آمين.

## ٤١- العَجَب كُلُّ العَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّنْ لا انْفِكاكَ لَهُ عَنْهُ، وَيَطْلُبُ ما لا بَقاءَ لَهُ مَعَهُ ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

في هذه الحكمة العظيمة الجليلة يتعجب ابن عطاء الله -رحمه الله- كل التعجب ممن عميت بصائرهم عن الحقيقة التي لا ينفك عنها، وهي ملاقاة الله عز وجل، وعن الحساب الذي تشيب منه الولدان، وتضع منه كل ذات حمل حملها، وترى الناس فيه سكارى وما هم بسكارى، ولكنه عذاب الله الشديد الذي يذهلهم عما هم فيه، يتناسون ذلك ويهربون بأفكارهم من هذه الحقيقة المؤلمة التي لو علمها الحيوان ما أكلوا منه لحما، ولا رأوا فيه سمينا، ويتجاهل كل ذلك، ويتجرأ على الله، ويفرح بشبابه، ويقبل على الدنيا وشهواتها وإغرائها، ويطلب ما لا بقاء له معه من التكالب على المناصب والظهور، ويتبع شيطانه وهواه حتى يأتيه اليقين، وهناك لا يفيد الندم، وهناك حكم عدل لا يظلم أحدا، وهناك الحسرة والندامة على ترك العدل، والبعد عن المغريات، وعدم الإقبال على الله عز وجل بكل أوجه الطاعة والعبادة، وما أجمل ما قيل في هذا الشأن:

تفنى اللذائذ يا من نال شــهوته    من المعاصي ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء لا انفكاك لها    لا خيــر في لذة من بعدها النار

وطلب الدنيا ليس معيبا متى كان المراد منها عفة النفس، وسلوك سواء السبيل، وإعالة الأهل، إنما المعيب أن يكون طلبها تهالكا، ومنافسة الناس فيها، والحزن على ضياعها وفواتها ولو بفوات الدين والخلق.

فعن أبي هريرة ﵁ يرفعه قال: (من طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسألة، وسعيا على أهله وتعطفا على جاره، جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ومن طلب الدنيا حلالا مفاخرا مكاثرا مرائيا لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان).

أما من يطلب الدنيا بغير ذلك فقد جاءت نصوص كثيرة تبين مصيره، وتبشره بالويل والثبور، فقد روى أبو حميد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: (أجملوا في طلب الدنيا، فإن كلا ميسر لما خلق له)(١).

وعن ابن عباس أحسبه رفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: (منهومان لا تنقضي نهمتهم: منهوم في طلب العلم لا تنقضي نهمته، ومنهوم في طلب الدنيا لا تنقضي نهمته)(٢).

وقال عيسى ابن مريم عليهما السلام: ألا إن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، وإلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميت قلوبهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: الناس طالبان يطلبان: فطالب يطلب الدنيا فارفضوها في نحره، فإنه ربما أدرك الذي يطلبه منها فهلك بما أصاب منها، وطالب يطلب الآخرة، فإذا رأيتم طالبا يطلب الآخرة فنافسوه فيها.

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: من طلب الآخرة أضر بالدنيا، ومن طلب الدنيا أضر بالآخرة، فأضروا بالفاني للباقي.

وقيل: الدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة، حتى يأتيه الموت فيأخذه بغتة.

وقيل: قيمة كل إنسان ما يطلب، فمن كان يطلب الدنيا فلا أدنى منه، فإن الدنيا دنية، وأدنى منها من يطلبها، وهي خسيسة، وأخس منها من يخطبها.

وقال بعضهم: القلوب جوالة، فقلب يجول حول العرش، وقلب يجول حول الحش، الدنيا كلها حش، وكل ما فيها من مطعم ومشرب يؤل إلى الحش، وما فيها من أجسام

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم٢١٤٢، سنن ابن ماجه ٧٢٥/٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٥٦٧٠، المعجم الأوسط ٢٠/٦.

ولباس يصير ترابا.

وقال بشر بن الحارث: قل لمن طلب الدنيا تهيأ للذل.

وما أجمل قول بلال بن سعد: عباد الرحمن، أما ما وكلكم الله به فتضيعون، وأما ما تكفل الله لكم به فتطلبون، ما هكذا نعت الله عباده المؤمنين، أذوو عقول في طلب الدنيا، وبله عما خلقتم له؟ فكما ترجون الله بما تؤدون من طاعته، فكذلك أشفقوا من عقاب الله بما تنتهكون من معاصي الله.

ألا عجبا لمن يطلب العاجل بالآجل، ويبيع الغالي بالرخيص، لكن ماذا أقول بعد قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١)، هؤلاء لا بصيرة لهم، ولا نور يهديهم، ولا كشف للحقيقة أمام قلوبهم، إنهم كالخفافيش لا يرون إلا في الظلام، طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون، نعوذ بالله منهم ومن أعمالهم وأقوالهم وأبعدنا عنهم.

ظُلمنا وما كنا بظالمينا ورضينا بقضاء الله فينا

والمنصف التقي يعلم ما فعله هؤلاء الخفافيش فينا وفي أتباعنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، فقد أكرمنا ربنا بما لا مزيد عليه في الدنيا، ونسأله حسن الخاتمة وحسن اللقاء، إنه نعم المولى ونعم النصير.

## ٤٢- لا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إلى كَوْنٍ فَتَكونَ كَحِمارِ الرَّحى؛ يَسيرُ وَالمَكانُ الَّذي ارْتَحَلَ إلَيْهِ هُوَ الَّذي ارْتَحَلَ عَنْهُ، وَلَكِنِ ارحَلْ مِنَ الأَكْوانِ إلى المُكَوِّنِ، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾

وانظر إلى قوله ﷺ: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه).

اعلم أخي الحبيب أن الأكوان هي ما سوى الله عز وجل، حتى الجنة والنار واليوم الآخر من الأكوان، لأنها أغيار وإن وجد فيها نعيم وعذاب، فلا تؤدي العبادات

---

(١) سورة الحج الآية ٤٦.

والطاعات ثم تخلص وتطلب بها الجنة ونعيمها، فإنك بذلك تكون قد ارتحلت من كون إلى كون، أي ارتحلت من عبادة إلى جنة، وكل هذا مخلوق ومن الأكوان، وبذلك تكون كحمار الرحى أي الطاحونة يسير ولا ينتقل عما سار منه لرجوعه إليه، وهذا التشبيه فيه تنفير من هذا الأمر، لأنه شبه المنتقل من كون إلى كون بحمار الرحى الذي يسير ولا ينتقل عن مكانه، حتى إنهم يضعون على عيونه ما يحجب عنه تلك الحقيقة، وإذا كان هذا شأن من ينتقل بالعبادة ويخلص فيها ليطلب بها الجنة ومتاعها فما بالك بمن ينتقل من دنيا إلى دنيا، ومن ينتقل من وظيفة إلى وظيفة، ومن مظلمة إلى مظلمة، يا الله، يا الله، يا الله، سلم يا رب سلم.

ثم أراد ابن عطاء الله أن يبين مكانة العارفين بالله عز وجل، الذين دائما ينتقلون من الأكوان إلى المكون، فهم لا يرضون بغير ذلك بديلا، ولا يرغبون في الجنة ونعيمها، بل يريدون وجه الله عز وجل، وحياتهم كلها تمضي حسب قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾(١)، تحقق لديهم وحدة الوجود ووحدة الشهود، فلا يرون إلا الله في هذا الوجود وفاعليته في الكون، فهو الفعال الحقيقي لما يريد، وهدفهم الوصول إليه، وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾(٢)، ولذلك كانت حياتهم كلها (لا حق لك ولا فضل لك) لا حق لك، لأنك عدم، ولا فضل لك، لأن الفضل كله لله عز وجل.

وضرب ابن عطاء الله لذلك مثلا بالحديث، فمن كانت نيته وقصده الهجرة إلى الله ورسوله وصولا، فهجرته إلى الله ورسوله، وهذا هو معنى الارتحال من الأكوان إلى المكون، لا يطلبون بذلك ثوابا، ولا يرغبون من ورائه جنة ونعيما، ولا يريدون بالهجرة غير وجه الله، وإنما يطلبون وجه الله عز وجل، ثم يكمل الحديث فيقول (ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)(٣)، أي أن هجرته

---

(١) سورة النجم الآية ٤٢.

(٢) سورة النجم الآية ٤٢.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث رقم٥٤، الصحيح ٢٠/١، وأخرجه مسلم في الحديث رقم١٩٠٧، الصحيح ١٥١٥/٣.

مع الأكوان، ولم تكن إلى المكون، فيوكله الله إلى نفسه، فيرى الحيرة التي تقطع أكباده، والتعب الذي لا ينقضي، والراحة التي لا تدرك، فقد قال الله للأكوان: يا دنيا اخدمي من خدمني، واستخدمي من خدمك، يا حسرة وندامة من استخدمته الدنيا، فإنه لا سماء تظله، ولا أرض تقله، فإنه هالك لا محالة، لأن هذا الكون يرميه من فوق السماوات، والأرض تبلعه، فيلجلج فيها إلى يوم القيامة، عافانا الله وإياكم بجوده وكرمه، آمين.

## ٤٣- لا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حالُهُ وَلا يَدُلُّكَ عَلَى اللّهِ مَقالُهُ

لقد دلت الحكمة السابقة على الطريق، وجاءت الحكمة التالية لتدلك على صديق الطريق، ومن يعينك في السير إلى الله تعالى، إذ من الآفات التي تصيب المجتمعات الإيمانية عدم وجود الصحبة الصالحة الرشيدة، والشيخ العارف بعيوب النفوس، والمربي ذي البصيرة الذي يوجه ويرشد، وإن وجد فإن غالبية الخلق ينصرفون عنه، خاصة في هذه الأيام التي ظهرت فيها الفتن في كل مكان، كما قال النبي ﷺ: (ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد منها ملجأ، أو معاذا، فليعذ به)(١).

وسيأتي زمان تدخل فيه الفتنة كل بيت، وأظنها الاستخدام السيء للتلفاز والانترنت، وقد كثرت الملاهي التي شغلت هذه الأمة أن يبحث أهلها عن الصالحين والمرشدين والمربين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فساء حال الجميع، وتحكم فيهم الهوى والشيطان، ولا نكاد نرى بيتا سليما معافى من هذه الأمراض التي قطعت الأرحام، وأوصلت الأبناء إلى عقوق الآباء.

فالصحبة الطيبة لها ما لها في الفرد والأسرة والمجتمع، وهي التي نطلبها من الله في كل صلاة، نقول: اهدنا الصراط المستقيم، صراط من؟ صراط الذين أنعمت عليهم، فإنك في كل صلاة تطلب طريق الذين أنعم الله عليهم، وأنت كاذب في ذلك، فلو كنت

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث رقم٧٠٨١، صحيح البخاري ٥١/٩، واخرجه مسلم في الحديث رقم٢٨٨٦، صحيح مسلم ٢٢١١/٤.

صادقا لبحثت عنهم، ولصاحبتهم، وجالستهم، وانتفعت منهم، سواء أكانوا أحياء أم أمواتا منتقلين إلى رحمة الله، فهم كما شبههم النبي ﷺ بحامل المسك، ففي الحديث عنه ﷺ (مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة)[١]، وهنا ينبه ابن عطاء الله رحمه الله ويبين من الذي يصاحب، ومن الذي لا يصاحب، فقال لا تصحب من لا ينهضك حاله، أي من لا يرقيك حاله الذي هو عليه، لعدم علو همته، وعدم معرفته بالله عز وجل، وارتكابه المعاصي والآثام، فإن صاحبت هذا فإنه سيصيبك بالأخلاق السيئة، لأن الصاحب ساحب، والطبع سراق.

يقول علي ﷺ: لا تصحب الفاجر فيزين لك فعله، ويود لو أنك مثله.

وقال جعفر الصادق ﷺ: لا تصحب خمسة: الكذاب، فإنك منه على غرور، وهو مثل السراب يقرب منك البعيد، ويبعد منك القريب، والأحمق فإنك لست منه على شيء، يريد أن ينفعك فيضرك، والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها، فقيل: وما أقل منها، قال: الطمع فيها ثم لا ينالها.

وقد قيل: إياك ومجالسة الأشرار، فإن الطبع يسرق من الطبع وأنت لا تدري.

وقد قال الشاعر:

بُنَي اجتنب كل ذي بدعة ولا تصحبن من بها يوصف

فيسرق طبعك من طبعه وأنت بذلك لا تعرف

وهذه حقيقة، ولكن الناس في غفلة.

وأيضا لا تصحب من لا يدلك على الله مقاله، وهنا يدعو ابن عطاء الله رحمه

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث رقم٥٥٣٤، صحيح البخاري ٩٦/٧، وأخرجه مسلم في الحديث رقم٢٦٢٨، صحيح مسلم ٢٠٢٦/٤.

الله إلى مصاحبة العلماء العاملين العارفين بالله عز وجل، لأنك بمصاحبته ينهض حالك، وتستقيم حياتك، فهم القوم الذين لا يشقى جليسهم، فصحبة الأخيار أصل كبير في طريق القوم، فكم من محتاج قضوا حاجته، وكم من مكروب فرجوا كربته، وكم من مريض عالجوه من مرضه، لأن هؤلاء الأشياخ همتهم متعلقة بالله عز وجل، فلا يلجأون في حوائجهم وحوائج من يصاحبهم إلا إليه، ولا يتوكلون في جميع أمورهم إلا عليه، فهم دائما في اضطرار إليه، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾(١).

يقول العلماء: لا تصحب إلا أحد رجلين: رجلا تتعلم منه شيئا من أمر دينك فينفعك، أو رجلا تعلمه شيئا من دينه فيقبل منك، والثالث اهرب منه.

وقال أحد العلماء لمريده: لا تصحب إلا أحد رجلين: رجل ترتفق به في دنياك، أو رجل تزيد معه وتنتفع به في آخرتك، والاشتغال بغير هذين حمق كبير.

ومن أحسن الختام هنا ما ورد من تشبيه الأصحاب بقولهم: مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات، فمنها ما له ظل وليس له ثمر، وهو مثل الذي ينتفع به في الدنيا دون الآخرة، فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال، ومنها ما له ثمر وليس له ظل، وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا، ومنها ما له ثمر وظل جميعا، ومنها ما ليس له واحد منهما، كأم غيلان تمزق الثياب ولا طعم فيهما ولا شراب، ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب.

نسأل الله لنا ولأبنائنا ولجميع المسلمين حسن الصحبة، آمين.

## ٤٤- رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئًا فَأَرَاكَ الإِحْسَانَ مِنْكَ صُحْبَتُكَ مَنْ هوَ أَسْوَأُ حَالاً مِنْكَ

هذه هي صحبة الأشرار، فقد يصاحب إنسان مرتكب للذنوب والآثام من هو حاله أسوأ منه في ارتكاب المعاصي والآثام، فيقول أنا أحسن منه، لأنني لم أرتكب إلا كذا وكذا، ويستصغر ذنبه، فيظن أنه محسن.

---

(١) سورة النمل من الآية ٦٢.

ولذا كان التوجيه النبوي بصحبة التقاة واجتناب العصاة، لأن صحبة العصاة تهيء للمرء أنه تقي فيغوى، أو أنه مهتد فيضل، وقد قال النبي ﷺ: (لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي)[١].

ويقول العلماء: صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار.

ويقول آخر: دخلت الآفة من ثلاث: سقم الطبيعة، وملازمة العادة، وفساد الصحبة، فسألته: ما سقم الطبيعة؟ قال: أكل الحرام، قلت: ما ملازمة العادة؟ قال: النظر في العينين، والاستماع بالأذنين ما لا يليق بالحق والغيبة والبهتان، قلت: وما فساد الصحبة؟ قال: كلما هاج في النفس شهوة تتبعها.

فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال، أن يكون عاقلا، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

وإنما كانت صحبة الأشرار سيئة، لأن الفاسق المصر على الفسق، لا فائدة في صحبته، لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، ولا يوثق بصداقته، بل يتغير بتغير الأغراض.

وما أجمل وصية علقمة العطاردي لابنه حين حضرته الوفاة قال: يا بني، إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى سيئة سدها، اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإن حاولتما أمرا أمرك، وإن تنازعتما آثرك.

فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة، وشرط أن يكون قائما بجميعها، فما أجمل الصاحب الصالح الصادق، إنه يدلك على الخير، ويرغبك في فعله، وينهاك عن الشر، ويجنبك التفكير فيه بله القيام به، فاتبع ما أمرك به نبيك، ولا تصاحب إلا مؤمنا.

---

(١) أخرجه أبو داود بإسناد حسن في الحديث رقم٤٨٣٢، سنن أبي داود ٢٥٩/٤.

### ٤٥- مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ، وَلَا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ

إن الإنسان إذا زهد في الدنيا التي هي رأس كل خطيئة فإن أعماله كلها تكون خالصة لوجه الله عز وجل، فيؤديها بلا عجب، ولا كبر، ولا رياء، فتكون مقبولة وإن كانت قليلة، أما الراغب في الدنيا المشغول بها الذي باض في قلبه إبليس وفرخ، فإن أعماله تكون كلها رياء وعجب وكبر، فلا تقبل وإن كانت كثيرة، وقد قال المعصوم صلوات ربي وسلامه عليه: (إن الرجل ليصلي الصلاة له نصفها، ثلثها، ربعها، خمسها، سدسها، سبعها، ثمنها، تسعها، عشرها)(١)، فافهم مراد الله منك تنجو.

وقد سئل رسول الله ﷺ: (أي المؤمنين أفضل؟ قال: مؤمن مغموم القلب ليس فيه غل ولا حسد، قالوا: يا نبي الله، لا نعرف ذلك فينا، فأي المؤمنين بعد هذا أفضل؟ قال: المؤمن الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، قالوا: يا نبي الله، لا نعرف ذلك فينا إلا ما كان من رافع بن خديج فأي المؤمنين بعد هذا أفضل؟ قال: مؤمن حسن الخلق)(٢).

وقال أحد العارفين: العباد في موازين العلماء، والعلماء في موازين الزهاد يوم القيامة، فلا يطمعن طامع في محبة الله تعالى وهو محب للدنيا، لأن الله تعالى يمقتها.

وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قال: الدنيا جيفة، فمن أرادها فليصبر على مزاحمة الكلاب.

ولذا كان عمل الزاهد مضاعفا، لأنه زهد في الزينة والدنيا، وأقبل على الله تعالى لا يروم إلا رضاه، ولا يبغي إلا فضله، فكان عمله في كل وقت كسبا له وفضلا يزيد به عن كثير من أعمال غيره.

فميزة القلب الزاهد أنه مخموم نقي تقي، فعن عبد الله بن عمرو قال: (قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب، صدوق اللسان، قالوا: صدوق

---

(١) أخرجه البزار في مسنده، حديث رقم٢٣٠٣، مسند البزار ٦/٢٧٤.

(٢) أخرجه أحمد في الحديث رقم ٢٣٥١، كتاب الزهد ص٣٢٢.

اللسان، نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد)[١].

وقال بعض السلف: أفضل الأعمال سلامة الصدور وسخاوة النفوس.

فإن أردت أن تعرف من الزاهد بحق فهاك وصفه الذي قاله العلماء: الزهد الذي لابد منه وبه تظهر صفة الزاهد، وينفصل به عن الراغب، هو أن لا يفرح بعاجل موجود من حظ النفس، ولا يحزن على مفقود من ذلك، وأن يأخذ الحاجة من كل شيء عند الحاجة إلى الشيء، ولا يتناول عند الحاجة إلا سد الفاقة، ولا يطلب الشيء قبل الحاجة، وأول الزهد دخول غم الآخرة في القلب، ثم وجود حلاوة المعاملة لله تعالى، ولا يدخل غم الآخرة حتى يخرج هم الدنيا، ولا تدخل حلاوة المعاملة حتى تخرج حلاوة الهوى، وكل من تاب من ذنب ولم يجد حلاوة الطاعة لم يؤمن عليه الرجوع فيه، وكل من ترك الدنيا ولم يذق حلاوة الزهد رجع في الدنيا، ولا يدخل حلاوة المعاملة حتى يخرج حلاوة الهوى، وخالص الزهد إخراج الموجود من القلب، ثم إخراج ما خرج من القلب عن اليد، وهو عدم الموجود على الاستصغار له والاحتقار والتقالل، لهوان الدنيا عنده، وصغرها في عينه، فبهذا يتم الزهد، ثم ينسى زهده في زهده، فيكون حينئذ زاهدا في زهده لرغبته في مزهده، وبهذا يكمل الزهد، وهذا لبه وحقيقته، وهو أعز الأحوال في مقامات اليقين، وهو الزهد في النفس، لا الزهد لأجل النفس، ولا للرغبة في الزهد للزهد، وهذه مشاهدة الصديقين، وزهد المقربين عند وجد عين اليقين.

والسخاء وصف الزاهد، ولا يكون الزاهد إلا سخيا، والبخل وصف الراغب، ولا يكون الحريص إلا بخيلا، ولا يكون البخيل زاهدا.

وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله: متى يكون الرجل زاهدا؟ فقال: إذا بلغ حرصه في ترك الدنيا حرص الطالب لها كان زاهدا.

وقيل: : إنما الزاهد من تخلى عن الدنيا واشتغل بالعبادة والاجتهاد، فأما من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم٤٢١٦، سنن ابن ماجه ١٤٠٩/٢.

تركها وتبطل فإنما طلب الراحة لنفسه.

ووصفوا القلب السليم والقلب الزاهد بأنه: القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى، وقالوا: إنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، والحريص محروم، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب، والعجب يحبط العمل.

## ٤٦- حُسْنُ الأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الأَحْوَالِ، وَحُسْنُ الأَحْوَالِ مِنَ التَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ الإِنْزَالِ

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١]، هذا القلب السليم من الأكدار، ومن الكبر والعجب، والحسد والنفاق والرياء، فإنه يخرج منه أعمال طيبة، وأفعال زاكية، فحسن الأعمال نتائج لحسن الأحوال القائمة بالقلب السليم الخالي من حب الدنيا والزاهد فيها، ولا يطلب حظا عاجلا، ولا ثوابا آجلا، وإنما يبتغي بذلك وجه الله عز وجل، فما فيك يظهر على فيك، وهذه الأحوال الحسنة التي حلت بالقلب ناشبة من التمكن في مقامات الإنزال، والمقامات هي المعارف الإلهية التي يوردها الله عز وجل على قلوب العارفين، وتكون سببا في رفع الدرجات والإقبال على الله بالكلية، فلابد لكل مقام من مقامات اليقين من علم وحال وعمل، فالعلم ينتج الحال، والحال ينتج العمل، وهكذا كان دأب العارفين يتلقون من الله العلم اللدني الذي يتولد منه الحال، والحال يتولد منه العمل الصالح النافع.

وقد حرص العارفون على العمل دون اللوم على الغير أو السخرية منهم، أو التندر بهم، وربوا أولادهم وتلاميذهم على ذلك، فلم يسمحوا لهم قط بالاستهزاء بالغير أو التقليل من شأنهم وعملهم، أو الإعجاب بما يؤدون من طاعة، ولا بما يقومون به

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٨٨، ٨٩.

من عمل.

فهذا أبو إسحاق الشيرازي الفقيه الشافعي يقول: سهرت ليلة مع أبي وحولنا نِيام، فقلت: لم يقم من هؤلاء من يصلي ركعتين! فقال: يا بني، لو نمتَ لكان خيراً لك من وقوعك في الخلق، استقامتك لا تُعطيك الحقّ في السخرية من ضلال غيرك، فلا تنظر إلى العاصي نظرة استعلاء، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كما يشاء، فحين اختارك اللهُ لطريق هدايته، ليس لأنك مميز أو لطاعةٍ منك، بل هي رحمة منه شملتك، قد ينزعها منك في أي لحظة، لذلك لا تغتر بعملك ولا بعبادتك، ولا تنظر باستصغار لمن ضل عن سبيله، فلولا رحمة الله بك لكنت مكانه.

ومما ينبغي التنبه له هنا أن يقر في نفس الطائع الخالص أن ما وقع منه إنما هو محض فضل الله تعالى، فإياك أن تظن أن الثبات على الاستقامة أحد إنجازاتك الشخصية، أو من فضل أعمالك الصالحة، فإن الله قد قال لنبيه وهو خير البشر: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيْلا﴾ فكيف بك وأنت من أنت؟.

ويقول عمر بن عبد العزيز: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس، فقائم الليل وصائم النهار إن لم يحفظ لسانه أفلس يوم القيامة.

فإن كنت تروم حسن الأعمال وحسن النتائج، فاكفف نفسك ولسانك، وقدّر ما وضعه الله فيك من خير، واشكره عليه ليدوم عليك فضله، اللهم اجعلنا من الطائعين الشاكرين، اللهم آمين.

**٤٧- لا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضورِكَ مَعَ اللهِ فيهِ، لأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ في وُجودِ ذِكْرِهِ. فَعَسى أَنْ يرفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَفْلَةٍ إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقَظَةٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقَظَةٍ إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَيْبَةٍ عَمّا سِوى المَذْكورِ، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾**

قد يشتكي المريد أنه يذكر الله كثيرا لكن بدون حضور القلب، فهل يعد هذا الذكر مقبولا، أم أن تركه أفضل، وهنا يجيبك ابن عطاء الله رحمه الله فيقول في هذه الحكمة العظيمة التي تعلمك أيها السالك عدم اليأس، وتجنبك القنوط من رحمة الله وفضله، يقول لك لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك مع وجود ذكر.

فيحذر كل التحذير من ترك الذكر، لأن ذكر الله أكبر من كل شيء، وذاكر الله بين الغافلين له فضل عظيم كما قال المعصوم صلوات ربي وسلامه عليه: (ذاكر الله في الغافلين كالذي يقاتل عن الفارين، وذاكر الله في الغافلين مثل المصباح في البيت المظلم، وذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الشجر اليابس، وذاكر الله في الغافلين يعرفه الله مقعده من الجنة، وذاكر الله في الغافلين يغفر الله له بعدد كل فصيح وأعجمي، فالفصيح بنو آدم، والأعجمي البهائم)(١).

وغير ذلك من الأحاديث التي لا تعد ولا تحصى في فضل الذاكرين، حتى ولو كان هذا الذكر بدون حضور القلب مع الله، وعلل ذلك بأن غفلتك عن وجود ذكره، وترك الذكر نهائيا أشد من غفلتك مع وجود ذكره، حتى ولو لم يكن هناك حضور للقلب، فما السبب؟.

يبين ابن عطاء الله أن الله كريم، لا يقطع رجاء من ارتجاه، فلعلك إذا داومت على ذكره جاءك المدد من الله عز وجل، فينقلك ويرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى

(١) أخرجه ابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال ص٦٠.

ذكر مع وجود يقظة، وتتوالى عطايا الحنان المنان، فيرفعك من ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، وهذا كله في حالة الصحوة للمريد، فإنه يذكر الله وهو منتبه باللسان، ثم ينقله من ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور، فتفنى أفعالك في أفعاله، وصفاتك في صفاته، وذاتك في ذاته، وفي هذا المقام ينقطع ذكر اللسان، فتكون في ذهول تام، وينقلب الذكر إلى الخلايا والأعضاء، فيذكر الله نفسه على جميع أعضائك، وفي جميع خلاياك، وهذا ما قاله الله عز وجل في الحديث القدسي: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)[١].

وهذه المراقي والدرجات لا يعرفها إلا من ذاقها، وهم السالكون إلى الله، فلا تنكرها إن كنت لست من أهلها، فتبوء بالخسران والحرمان وعذاب النار، وقد حذر الله عز وجل من هؤلاء فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

وقديما قال الحكماء: إذا أراد الله ظهور الحق جعل من خلقه من يعانده، ويريد إخفاءه، فيكون ذلك سببا لظهوره ووضوحه، ولذلك سلط الله على كل نبي عدوا من المجرمين، وعلى الأولياء كذلك، ليظهر فضلهم، ويتضح للناس مقامهم.

اللهم تفضل علينا بهذه الرتب العلية بمنّك وجودك وكرمك يا رب العالمين، وما ذلك على الله بعزيز.

## ٤٨- مِنْ عَلَامَاتِ مَوْتُ الْقَلْبِ عَدَمَ الْحُزْنِ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنَ الْمُوَافِقَاتِ، وَتَرْكُ النَّدَمِ عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنْ وُجُودِ الزَّلَّاتِ

المؤمن دائما وأبدا تسره الحسنة وتسوؤه السيئة، كما قال المصطفى ﷺ: (من

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٥٠٢، صحيح البخاري ١٠٥/٨.

(٢) سورة الجاثية الآية ١٨.

سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن)[١]، ولكن عدم حزن المؤمن على ما فاته من الطاعات والموافقات، وعدم الندم على ما فعله من معاص وآثام وزلات دليل على موت قلبه، فيعلم من ذلك أن سرور المؤمن بالطاعة، وحزنه على المعصية من علامة حياة القلب.

لكن انتبه: لا يكن سرورك بالطاعة وحزنك على المعصية لأنك أنت الذي أديتها وفعلتها، ولكن سرورك بها لأن الله هو الذي أخرجها على يدك، فهو الذي خلقكم وما تعملون، فالفضل لله وحده، فيكون فرحك بالله لا بالطاعة، فلا تنس وتنسب ذلك لنفسك، فتكون من المبعدين.

عن الأحنف بن قيس أنه قال: قال لي عمر بن الخطاب ﷺ: من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه كانت النار أولى به.

وعن عبد الله بن أبي زكريا قال: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه حرم الله عليه الجنة.

وقال أحد الصالحين: يا عجباً من الناس يبكون على من مات جسدهُ، ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد.

وأي مصيبة أعظم من موت القلب الذي هو دليل على غضب الرب سبحانه، فإن الذي مات قلبه لا يخشع، ولا فيه المواعظ قط تنجع، وإذا تليت عليه آيات ربه أصر مستكبرا كأن لم يسمع، فبشره بعذاب أليم وخطب عظيم جسيم حين قسا قلبه وران عليه ذنبه.

وإنما يموت القلب إذا سيطر عليه الشيطان، وتمكن من وسوسته، ولذا يجول الشيطان في القلب دوما، ولذا كانوا يقولون: إن الشيطان يقول: كيف يغلبني ابن آدم؟

---

(١) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٢١٦٥، سنن الترمذي ٣٥/٤.

إذا رضي كنت في قلبه، وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه.

ومن مات قلبه لم يبال الله به، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: (إن من قلب ابن آدم في كل واد شعبة، من اتبع قلبه الشعب كلها لم يبال الله به في أي واد هلك، ومن توكل على الله وأقبل إليه كفاه تلك الشعب كلها)(١).

فإن أردت إحياء قلب وإبعاد الشيطان عنه وتخليصه من سيطرته فاقتد بهداة هذه الأمة، وتتبع فعالهم، فعن عبدالله بن مسعود قال: طوبى لمن أخلص دعاءه وعبادته لله، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينسه ذكر الله ما تسمع أذناه، ولم يحزن نفسه بما أعطي غيره.

واسمع لما رواه أبو ذر قال: إن رسول الله ﷺ قال: (قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليما، ولسانه صادقا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة، فأما الأذن فقمع، والعين مقرة بما يوعى القلب، وقد أفلح من جعل قلبه واعيا)(٢).

وسبيل ذلك أن تؤثر هوى الله على هواك، ورضاه على رضاك، ففي الأثر عن وهيب بن الورد يقول الله تعالى: وعزتي وعظمتي وجلالي؛ ما من عبد آثر هواي على هواه؛ إلا أقللت همومه، وجمعت عليه ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر، وعزتي وعظمتي وجلالي؛ ما من عبد آثر هواه على هواي؛ إلا كثرت همومه، وفرقت عليه ضيعته، ونزعت الغنى من قلبه، وجعلت الفقر بين عينيه، ثم لا أبالي في أي أوديتها هلك.

ويقول أبو العباس بن العطاء: من ألزم نفسه آداب السنة غمر الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه، والتأدب بآدابه قولا وفعلا، ونية وعقدا.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الحديث رقم١٥٤٥، الزهد ص٥٤٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم٢١٣١٠، المسند ٢٣٩/٣٥.

ويقول: القلب إذا اشتاق إلى الجنة أسرعت إليه هدايا الجنة، وهي المكروه؛ لأن المكاره هدايا الجنة إلى أبدان الصادقين، ومن فر بنفسه إلى حصن المكروه رحلت شهوات الطمع عن قلبه، ومن علامة الصدق رضا القلب بحلول المكروه.

وكتب الجنيد إلى بعض إخوانه: من أشار إلى الله وسكن إلى غيره ابتلاه الله، وحجب ذكره عن قلبه، وأجراه على لسانه، فإن انتبه وانقطع عمن سكن إليه، ورجع إلى من أشار إليه، كشف الله ما به من المحن والبلوى، فإن دام، نزع الله على سكونه من قلوب الخلق الرحمة عليه، وألبسه لباس الطمع، لتزداد مطالبته منهم مع فقدان الرحمة من قلوبهم، فتصير حياته عجزا، وموته كدا، ومعاده أسفا، ونحن نعوذ بالله من السكون إلى غيره.

نسأل الله العافية لنا ولجميع المسلمين، وأن يوفقنا لطاعته أجمعين، وأن يجعلنا من الخاشعين المتعظين.

## ٤٩- لا يَعْظُم الذَنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ باللّهِ تَعالى، فإنَّ مَنْ عرفَ ربَّهُ اسْتَصْغَرَ في جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ

هذه الحكمة لها علاقة بالتي قبلها، فلما بين ابن عطاء الله رحمه الله أن الحزن والندم على ترك الطاعات والموافقات دليل على حياة القلب، خشي من أن يصل الإنسان العاصي إلى سوء الظن بالله عز وجل، فقال: إن الذنب مهما كان لا يعظم في نفسك حتى يصدك عن حسن الظن في الله عز وجل، فلا تيأس أبدا من كرم الله عز وجل، لأنه هو الغفور الرحيم، الذي لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، فمن عرف ربه حق المعرفة استصغر في جنب كرمه ذنبه، فهو صاحب الفضل والإحسان، ورحمته وسعت كل شيء، فلا تيأس من روح الله، وكن حسن الظن به.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت

إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)(١).

وقد ذكر العلماء أن حسن الظن بالله هو اليأس عن كل شيء سوى الله عز وجل.

فليظن العبد بربه خيرا، ولا يستكثر ذنوبه إلى جوار عفو الله وغفرانه، ولكن لا يعني ذلك الاتكال على حسن الظن، فإن حسن الظن يستدعي حسن العمل، ومن علامة حسن الظن بالله شدة الاجتهاد في طاعة الله، ففي الحديث عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: (إن حسن الظن من حسن العبادة)(٢).

وعلى هذا فإن من كان مقبلا على الله في فواته فليحسن الظن، ومن كان حيا فيقبل على الله خائفا، فلكل مقام مقال وحال.

ولذا روى جابر ﵁ قال: سمعت النبي ﷺ، قبل وفاته بثلاث، يقول: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن)(٣).

وقال عبد الله بن عباس: إذا رأيتم الرجل بالموت، فبشروه حتى يلقى ربه وهو حسن الظن به، وإذا كان حيا فخوفوه بربه عز وجل.

وقيل: قتل القنوط صاحبه، وفي حسن الظن بالله راحة القلوب.

ودخل وائلة بن الأسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنك بالله؟ قال: أغرقتني ذنوب لي، وأشرفت على هلكة، ولكني أرجو رحمة ربي، فكبر واثلة، وكبر أهل البيت بتكبيره.

ومرض أعرابي فقيل له: إنك تموت، فقال: أين يُذهب بي؟ قالوا: إلى الله، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يُرى الخير إلا منه.

وعن محمد بن مطرف قال: دخلنا على أبي حازم الأعرج لما حضره الموت،

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٧٤٠٥، الصحيح ١٢١/٩.

(٢) أخرجه أحمد في الحديث رقم٨٠٣٦، المسند ٤٠٦/١٣.

(٣) أخرجه مسلم في الحديث رقم٢٨٧٧، الصحيح ٢٢٠٥/٤.

فقلنا: يا أبا حازم كيف تجدك؟ قال: أجدني بخير راجيا حسن الظن به، ثم قال: إنه والله لا يستوي من غدا وراح يعمر عقد الآخرة لنفسه، فيقدمها أمامه قبل أن ينزل به الموت حتى يقدم عليها فيقوم لها وتقوم له، ومن غدا وراح في عقد الدنيا يعمرها لغيره ويرجع إلى الآخرة لا حظ له فيها ولا نصيب.

وما أجمل قول ذي النون: ثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء، وثلاثة من أعمال الأنس بالله: استلذاذ الخلوة، والاستيحاش من الصحبة، واستحلاء الوحدة، وثلاثة من أعلام حسن الظن بالله: قوة القلب، وفسحة الرجا في الذلة، ونفي الإياس بحسن الإنابة، وثلاثة من أعلام الشوق: حب الموت مع الراحة، وبغض الحياة مع الدعة، ودوام الحزن مع الكفاية.

## ٥٠- لاَ صَغِيرَةً إذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ، وَلَا كَبِيرَةً إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ

لله درك يا ابن عطاء ما هذه الجملة التي تصرخ منها الروح، وتذهل لها الألباب، وما هذه البلاغة والفصاحة الربانية التي اختصرت جملا من المعاني في كلمات قصار، وتأكيدا على ما نبه عليه من اتساع فضل الله عز وجل، أراد التأكيد على المعنى السابق بالتنبيه على أن الإنسان لا يعتمد على عمله، وإنما دائما وأبدا يعتمد على فضل الله وكرمه، فقال: لا صغيرة إذا قابلك عدله، أي لا صغير من الذنوب، بل كلها كبائر إذا عاملك الله بالعدل، فقد أخطأت في حق عظيم، فكانت الصغيرة في مواجهة عدله كبيرة تستحق العقاب والعذاب، فإن صفة العدل إذا ظهرت على العبد يوم القيامة تلاشت حسناته في مقابل نعمه التي أنعم بها عليه، فإن النعمة الواحدة لا يساويها عمل العمر كله، وتصبح كبائر في حق من له العظمة والكبرياء.

ولا كبيرة إذا واجهك فضله، وفضل الله أن يجازيك بغير حساب بفضله وكرمه وإحسانه، فإذا ظهرت صفة الفضل من الله اضمحلت سيئاته وظهرت حسناته، لذلك كان سيدي أبو الحسن الشاذلي يقول: اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل

حسناتنا حسنات من أبغضت، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضر مع الحب منك.

والسيئة إذا نظرت إلى من ارتكبت في حقه كانت كبيرة، والكبيرة إلى جوار عفو الله صغيرة، ولذا كان العارفون يستكثرون الصغيرة خوفا من عقاب الله تعالى، فإن ذكروا رحمته وعفوه رأوا كل شيء صغير، ولذا قال بعضهم: حرفة العارف ستة أشياء: إذا ذكر الله افتخر، وإذا ذكر نفسه احتقر، وإذا نظر في آيات الله اعتبر، وإذا هم بمعصية أو شهوة انزجر، وإذا ذكر عفو الله استبشر، وإذا ذكر ذنوبه استغفر.

وقال سري السقطي: ثلاث من أخلاق الأبرار: القيام بالفرائض، واجتناب المحارم، وترك الغفلة، وثلاث من أخلاق الأبرار يبلغن بالعبد رضوان الله: كثرة الاستغفار، وخفض الجناح، وكثرة الصدقات، وثلاث من أبواب سخط الله: اللعب، والمزاح، والغيبة، والعاشر من هذه الثلاث عمود الدين وذروته وسنامه، حسن الظن بالله.

وكان عبد الأعلى التيمي يقول لجار له قد حضره الموت: أيا فلان ليكن جزعك لما بعد الموت أكثر من جزعك من الموت، وأعد لعظيم الأمور حسن الظن بالله عز وجل.

وعن الهيثم بن عدي قال: سمعت خويل بن محمد، وكان عابداً يقول: كأن خويلاً قد وقف للحساب، فقيل له: يا خويل قد عمرناك ستين سنة، فما صنعت فيها؟ فجمع نوم سنة مع قائلة النهار، فإذا قطعة من عمري نوم، وجمعت ساعات أكلي، فإذا قطعة من عمري قد ذهبت في الأكل، وجمعت ساعات وضوئي، فإذا قطعة من عمري قد ذهبت فيه، ثم نظر في صلاتي، فإذا صلاتي منقوصة، وصوم مخرق، فما هو إلا عفو الله أو الهلكة.

وقال يحيي بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف.

ومن هنا جاءت الأحاديث التي تبين أن كل من يدخل الجنة إنما يدخلها بفضل الله لا بعمله، فلو رأينا أعمالنا لوجدناها تافهة ولا قيمة لها ولا وزن لثقلها إلى جوار نعم الله تعالى وفضله، وقد روى أبو هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لن يدخل أحدا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت: إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب)(١).

فيا ربي نحن عبيدك المساكين، لا حول لنا ولا طول، فالحول حولك، والطول طولك، أعمالنا قليلة، وذنوبنا كثيرة، ولكن طمعنا في فضلك وكرمك جرأنا على الطلب منك، فعاملنا بالإحسان في الدنيا والآخرة، إذ الفضل منك وإليك، ولا طاقة لنا لامتحانك يا رؤوف يا رحيم، يا صاحب الجود والمن، يا أرحم الراحمين.

## ٥١- لا عَمَلَ أَرْجى لِلْقُلوبِ مِنْ عَمَلٍ يَغيبُ عَنْكَ شُهودُهُ، ويُحْتَقَرُ عِنْدَك وُجودُهُ

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(٢)، وإذا صعد الكلام الطيب ورفع العمل الصالح إلى الله عز وجل غاب عنك شهوده، لأنه رفع إلى مولاك، كما أن العمل الصالح الذي يجريه الله على أعضائك هو من الله، وإنما نسب إليك تفضلا، فيجب أن تنساه، لأن الفضل كله لله، لذا قال ابن عطاء الله لا عمل من أعمال البر والطاعة أرجى للقبول عند الله عز وجل من عمل يغيب عنك شهوده، فلا تتذكره، وإنما تتذكر فقط فضل ربك عليك أن أجراه على يديك، وصار وجود العمل إذا تذكرته محتقرا عندك، لاتهامك لنفسك أنها هي لم تفعل شيئا، وإنما الفعال في الحقيقة هو الله عز وجل، وهذا هو اعتقاد أهل التصوف،

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث رقم٥٦٧٣، الصحيح ١٢١/٧، وأخرجه مسلم في الحديث رقم٢٨١٦، الصحيح ٢١٦٩/٤.

(٢) سورة فاطر الآية ١٠.

أنهم لا ينسبون شيئا إلى أنفسهم، بل يقولون بوحدة الوجود ووحدة الشهود، فوحدة الوجود تعني أن القيومية والفاعلية لله وحده، لأنه لا شيء معه، فهو قيوم السماوات والأرض، ووحدة الشهود تعني أنه لا يوجد في الكون إلا الله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(١)، وهذه هي عقيدتهم، ففرحهم بالله لا العبادة والطاعة، وإنما يفرحون بها، لأنها ظهرت من الله على أعضائهم بدون حول ولا قوة منهم.

فعمل البر المقبول هو ما كان خالصا لله تعالى، أما ما كان مقصودا به الرياء، أو كان الغرض منه المدح فلا وزن له ولو كان كبيرا، ولا قيمة لعدده ولو كان كثيرا، ففي الحديث عن ضمرة بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الملائكة يرفعون أعمال العبد من عباد الله، يستكثرونه، ويزكونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي هذا لم يخلص لي، ولم يخلص عمله فاجعله في سجين، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه، ويحقرونه حتى ينتهوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي هذا أخلص عمله فاكتبوه في عليين)(٢).

وسئل ذو النون يوما: فيم يجد العبد الخلاص؟ فقال: الخلاص في الإخلاص، فإذا أخلص تخلص، فقيل: فما علامة الإخلاص؟ قال: إذا لم يكن في عملك صحبة المخلوقين، ولا مخافة ذمهم، فأنت مخلص إن شاء الله تعالى.

وقال بعض العلماء: ما أخلص العبد لله إلا أحب أن يكون في جب لا يُعرف.

وكان أبو يوسف بن الحسين يقول: أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر.

وقال عبد الله بن حنيف الأنطاكي: يقول الله تعالى لعبده يوم القيامة إذا التمس

---

(١) سورة البقرة الآية ١١٥.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الحديث رقم٤٥٢، كتاب الزهد ص١٥٣.

ثواب عمله: ألم نعجل لك ثوابك؟ ألم نوسع لك في المجالس؟ ألم تكن المرأس في دنياك؟ ألم نرخص بيعك وشراءك؟ ألم تكن مثل هذا وأشباهه.

وقيل لبعض الحكماء: من المخلص؟ قال: المخلص الذي كتم حسناته كما يكتم سيئاته.

وقيل لبعضهم: ما غاية الإخلاص؟ قال: أن لا يحب محمدة الناس.

وفي الأثر: لا تجلسوا عند كل عالم، إلا الذي يدعوكم من الخمس إلى الخمس: من الشك إلى اليقين، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد.

وإنما يجد حلاوة الإخلاص الزاهدون في الدنيا، وفي مدح الناس لهم به، ويتلذذون بنصح المعاملة، وصدق الخدمة، المحبون لله عز وجل، الخائفون منه، واعتبار فقد ذلك بأحد شيئين: سقوط النفس باستواء المدح والذم، وهذا حال في مقام الزهد، أو الخلو من القلب بشهادة اليقين، وهذا في مقام المعرفة، وفي هذين المقامين يستوي السر والعلانية، وقد تكون العلانية أفضل لأئمة التقوى والعدل.

## ٥٢- إِنَّمَا أَوْرَدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وَارِدًا

إن القلب السليم من الأغيار والأكدار والآثار دائما يرد عليه الوارد، وهي المعارف الربانية واللطائف الرحمانية، لتكون بهذا الورد عليه واردا، أي مقبلا عليه بالذكر والطاعة والعبادة وكافة أعمال البر، فلولا وارد ما كان ورود.

والوارد ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة، مما لا يكون بتعمد العبد، وكذلك ما لا يكون من قبل الخواطر، فهو أيضا وارد، ثم قد يكون واردا من الحق، وواردا من العلم، فالواردات أعم من الخواطر، لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب، أو ما يتضمن معناه، والواردات تكون وارد سرور ووارد حزن، ووارد قبض ووارد بسط، إلى غير ذلك من المعاني.

ولذا يقول العارفون: واعلم أن التغير بما يرد على العبد يكون لأحد أمرين: إما

لقوة الوارد، أو لضعف صاحبه، والسكون من صاحبه لأحد أمرين: إما لقوته، أو لضعف الوارد عليه.

وقد نبه العلماء على أن يضع الإنسان كل شيء في موضعه، وبينوا أن فعل الأقوياء أن يضع كل شيء موضعه: السرور في موضعه، والحزن في موضعه، ويتقرب إلى الله بذلك الحزن، كما يتقرب بالسرور؛ لأن ذلك كله لله وبالله، ولو أن رجلا شكر في موضع الصبر لكان لشكره موضع هناك، ولو قال عند الذنب: الحمد لله، لكان لقوله هناك موضع، ولكن الحمد في موضع النعمة، والاستغفار في موضع الذنب، والشكر في موضع النعمة، والصبر في موضع الشدة، فإذا حولته وجدت لكل منه متسعا في الآخر؛ ولكن هذا نقص في التدبير، ونكس للأمور.

وروى أن عمر بن الخطاب مر بعثمان رضى الله عنهما وهو قاعد، فبدأه عثمان ﷺ بالسلام، فقال عمر ﷺ: يا أبا محمد، ولم تنكس السنة؟! ففي هذا القدر عتب عليه عمر ﷺ؛ السلام من المار على الجالس؛ لأنه هو الوالج عليه، والسلام أمان من العباد، فإنما ينبغي الأمان من الوارد، فإذا أزلته عن موضعه انتقض.

فمتى أورد الله عليك واردا فإنما أورده لتكون به عليه واردا، فإن وضعته في غير موضعه أو جعلته في غير محله فقد بعدت بوصلتك، وتغير عند الله اتجاهك، لذا قالوا: اعلم أن التغير بما يرد على العبد يكون لأحد أمرين: إما لقوة الوارد، أو لضعف صاحبه، والسكون من صاحبه لأحد أمرين: إما لقوته أو لضعف الوارد عليه.

ولا يعني ورودك عليه أن يظهر الفعل، وإنما أن يوجد في قلبك، ولذا فإن عدم الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان، وتارة يكون مع قوة الوجد في الباطن، لكن لا يظهر لكمال القوة على ضبط الجوارح فهو كمال، وتارة يكون لكون حال الوجد ملازما ومصاحبا في الأحوال كلها، فلا يتبين للسماع مزيد تأثير، وهو غاية الكمال.

والمروي عنه عليه الصلاة والسلام وعن أصحابه ﷺ عند سماعهم للقرآن أن حضور الوارد إنما هو فيض الدموع، واقشعرار الجلود، ولين القلوب، ففي الحديث عن

عبد الله بن مسعود، قال: (قال لي النبي ﷺ: اقرأ علي، قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك، وعليك أنزل؟!، قال: نعم، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[١]، قال: حسبك الآن، فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان)[٢].

وأما الصعق والغشي ونحو ذلك فحدث في التابعين، لقوة الوارد، وضعف المورود عليه، والصحابة ﷺ لقوتهم وكمالهم لم يحدث فيهم، فالحال الذي يلحق المتواجد، إنما يقع له من ضعف حاله عن تحمل الوارد، وذلك لازدحام أنوار اللطائف في دخول باب القلب، فيلحقه دهش فيبعث بجوارحه، ويستريح إلى الصعقة والصرخة والشهقة.

وقد حدث هذا لكبار التابعين، ومن أعيان التابعين الكبار الربيع بن خيثم سمع عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ فصعق، وكان قبل الظهر، فلم يفق إلى الليل.

وكذا الإمام القاضي التابعي المتوسط زرارة قرأ في الصلاة فلما بلغ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾، شهق فمات، وكان هذا الحال يحصل كثيرا للإمام يحيى بن القطان، وقال الإمام أحمد: لو دفع أو لو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه دفعه يحيى.

وحدث ذلك لغير هؤلاء، فمنهم الصادق في حاله، ومنهم غير ذلك، والصادق منهم عظيم القدر؛ لأنه لولا حضور قلب حي، وعلم معنى المسموع وقدره، واستشعار معنى مطلوب يتلمح منه، لم يحصل ذلك.

وأكثر ما يكون من الشهقة والصرخة وغير ذلك لأهل البدايات، وأما أهل النهايات فالغالب عليهم السكون والثبوت لانشراح صدورهم، واتساع سرائرهم للوارد عليهم، فهم في سكونهم متحركون، وفي ثبوتهم متقلقلون، كما قيل لأبي القاسم الجنيد ﷺ: ما لنا لا نراك تتحرك عند السماع؟ فقال ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ

---

(١) سورة النساء من الآية ٤١.

(٢) أخرجه البخاري في الحديث رقم٥٠٥٠، الصحيح ١٩٦/٦.

مَرَّ السَّحَابِ﴾.

ويحكى أنه سئل عن السماع ولأي شيء يكون الرجل ساكنا قبل السماع، فإذا سمع اضطرب وتحرك؟ فقال: السماع خطاب الروح من الميثاق الأول حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ فسمع حين سمع، لا حد ولا رسم ولا صفة إلا المعنى الذي سمع حين سمع، فبقيت حلاوة ذلك السماع فيهم، فلما أخرجهم وردهم إلى الدنيا ظهر ذلك فيهم، فإذا سمعوا نغمة طيبة وقولا حسنا طارت هممهم إلى ذلك الأصل، فسمعوا من الأهل، وأشاروا إلى الأصل.

## ٥٣- أَوْرَدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِيَتَسَلَّمَكَ مِنْ يَدِ الأَغْيَارِ، وَلِيُحَرِّرَكَ مِنْ رِقِّ الأَثَارِ

لقد أورد عليك المولى تبارك وتعالى الوارد لينقذك قهرا من يد من اغتصبك، ويحررك من الرق والهوان، والوارد هنا هي المعارف الربانية، واللطائف الرحمانية، والأنوار السرمدية، والذي اغتصبك هي الدنيا وما فيها من أغيار وآثار، فكل ما سوى الله عز وجل وكل شيء رسم في قلبك من الدنيا وحبها وحب ما فيها، فهي التي استعبدتك، فجاء الوارد من الله لينقذك من قهر العبودية لغير الله، ويحررك من الآثار التي رسمت في مرآة القلب من زوجة وأولاد ومتاع، وغير ذلك.

وإنما يكون التحرر من الآثار عندما تترك الشيء وهو في يدك تواضعا لله تعالى، ففي الأثر: من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى خيره الله تعالى من حلل الإيمان أيها شاء.

وجاء عامر بن عبد الله بن ربيعة إلى أبي ذر ﷺ في بزته، فجعل يتكلم في الزهد، فوضع أبو ذر راحته على فيه، وجعل ينفخ به، فغضب عامر، فأتى ابن عمر رضي الله عنهما فقال: ألم تر ما لقيت من أخيك أبي ذر؟ قال: وما ذاك؟ قال: جعلت أقول في الزهد، فأخذ يهزأ بي، فقال ابن عمر: أنت صنعت بنفسك، تأتي أبا ذر في هذه البزة وتتكلم في الزهد.

وقال علي ﷺ: إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى

أحوال الناس ليقتدي بهم الغني، ولا يزري بالفقير فقره.

وقد عوتب عمر ﷺ في لباسه، وكان يلبس الخشن من القطن، قيمة قميصه ثلاثة دراهم وخمسة دراهم، ويقطع ما فضل عن أطراف أصابعه، وقال: هذا أدنى إلى التواضع، وأجدر أن يقتدي بي المسلم.

وقدم على معاوية ﷺ رجل من نجران عمره مائتا سنة، فسأله عن الدنيا كيف وجدها؟، فقال: سنيات بلاء، وسنيات رخاء، يوم فيوم، وليلة فليلة، يولد ولد، ويهلك هالك، فلولا المولود لباد الخلق، ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها، فقال له: سل ما شئت، قال: عمر مضى فترده، أو أجل حضر فتدفعه، قال: لا أملك ذلك، قال: لا حاجة لي إليك.

وقال داود الطائي رحمه الله: يا ابن آدم، فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء أجلك، ثم سوفت بعمل كان منفعته لغيرك.

وقال بشر: من سأل الله الدنيا، فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه.

وقال أبو حازم: ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك.

وقال الحسن: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: أنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه.

وقيل لبعض العباد: قد نلت الغنى، فقال: إنما نال الغنى من عُتق من رق الدنيا.

ولا يعلم عظم ذلك إلا من فقه ما تكون الآخرة، وهو ما وقع من العارفين والعلماء المخلصين، فقد روي أن مطرفا قال: لو كانت لي الدنيا فأخذها الله مني بشربة من ماء يسقيني بها يوم القيامة كان قد أعطاني بها ثمنا.

فيا أيها المريد: عالج قلبك حتى تعتقه من رق النفس بما وصفت، فإذا كان كذلك صفا قلبك من كدورة الأخلاق، وطهر من شهوة الآثام، فاستقر اليقين فيه، لأن اليقين لا يستقر حتى يرى مكانا ظاهرا، فتحيا القلوب وتصلب، لأنه من الله، قد قرب عبده واصطفاه، فيصير حينئذ ما غاب عن العين من أمور الآخرة، وأمور الملكوت، بعين

قلب، فهو كالبرق في ليلة ظلماء، إذا برقت أبصرت بعين رأسك جميع ما غاب عنك في تلك الظلمة، من بئر أو جرف أو واد، وانظر إلى ما رواه أنس ﵁ (أن النبي ﷺ لقي رجلا، يقال له حارثة في بعض سكك المدينة، فقال: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا، قال: إن لكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأظمأت نهاري، وأسهرت ليلي، وكأني بعرش ربي باديا، وكأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون، وأهل النار في النار يعذبون، فقال النبي ﷺ: أصبت فالزم، مؤمن نور الله قلبه)[١].

أفلا ترى أن النبي ﷺ أنكر قوله: أصبحت مؤمنا حقا، حتى سأله عن حقيقة إيمانه ما هو، فلما أخبره بالعلامات التي تدل على حقائق الإيمان واستكماله أجاز ذلك له حينئذ، وقال: عبد نور الله الإيمان في قلبه، فحقيقة الإيمان واستكماله لا يجوز إلا بأداء الأعمال المفترضة، واجتناب المحارم، فأما اسم الإيمان وحكمه فإنه يلزم بالدخول في الإيمان، وإن لم يكن يستكمله، وكذلك جميع الأعمال إذا دخل الناس فيها استحقوا اسمها عند ابتدائها والدخول فيها، ثم يتفاضلون في استكمالها بالازدياد في الأعمال، فمن ذلك القوم يصلون، فمن بين مستفتح للصلاة قائم وراكع، وساجد وجالس، فيقال لهم جميعا: مصلون، قد لزمهم الاسم بالدخول في الصلاة، وإن لم يستكملوها، وكذلك الصيام والحج وسائر الأعمال، لو أن نفرا أمروا أن يدخلوا دارا فدخلها أحدهم، فلما تغيب داخل الباب أقام مكانه ولم يجاوزه، وجاوزه الثاني بخطى، ومضى الثالث إلى وسطها، وذهب الرابع إلى منتهاها، لقيل لهم جميعا: داخلون، وإن كان بعضهم أكثر دخولا من بعض، فكذلك الإيمان الدخول فيه في سائر الأعمال.

وأخيرا اسمع لهذا النداء الذي خرج من فم عالم طاهر ناصحا محذرا: يا غريقا في لجج لجاجه، يا راحلا عما قليل عن أهله وماله وأزواجه، يا مسئولا ما له جواب في احتجاجه، متى يأتي الهدى من طرقه وفجاجه؟، متى تنير القلوب بإيقاد سراجه؟، متى

---

(١) أخرجه البزار في الحديث رقم٦٩٤٨، مسند البزار ٣٣٣/١٣.

يكتم هذا الجرح بانتساجه؟، متى يفتح باب يا طول ارتياجه؟، متى يستدرك عمر قد مر باندماجه؟، متى يرجع سفر الندم بقضاء حاجه؟، إلى متى يقال فلا تقبل؟، أليس الموت نحوك قد أقبل؟، أليس العمر أيام تنهب؟، أليس الساعات أحلام تذهب؟، أليس المعاصي تضر الكاسب؟، أليس الخطايا شر المكاسب؟، أبعد احتجاج الشيب ما ترعوي؟، أبعد اعوجاج الصلب ما تستوي؟.

إلى كم يكون العتب في كل لحظة ولـم لا تملون القطيعة والهجرا
رويدك إن الدهـر فيه كفايـة لتفريق ذات البين فانتظر الدهرا

## ٥٤- أَوْرَدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجُودِكَ إِلَى فَضَاءِ شُهُودِكَ

لا زال ابن عطاء محلقا بمريده في فضاء الوارد من الله تعالى على عبده المقرب منه، وهو هنا يبين أن الوارد إنما يرد عليه ليخلصه من سجن وجوده إلى فضاء شهوده، ويلحقه بالأنوار والأسرار.

فيقول له: أورد عليك الوارد، أي إنما أورد عليك وارد الوصال بعد أن جعل نفحات الإقبال تهب عليك ليخرجك من سجن رؤية وجودك إلى اتساع شهودك لربك، فرؤيتك وجودك مانعة لك من شهود ربك، فمن المحال أن تشهده سبحانه وتشهد معه سواه.

ولذا أنقذك من يد لصوص الأغيار بعد أن شدوا أوثاقك بحبل هواك، وسجنوك في سجن حظوظك ومناك، فشبه هذه الأهواء بالسجن، وأنت فيها السجين، وكانت الأوراد محررة لك من هذا السجن، وقد أوردها عليك ليحررك ويعتقك من رق الآثار بعد أن ملكتك بما أظهرته لك من زخارف الاغترار، فإذا سلم المرء من يد الأغيار أفضى إلى شهود الأنوار، وإذا تحرر من رق الآثار ترقى إلى شهود الأسرار، فالأنوار أنوار الصفات، والأسرار أسرار الذات، فالأنوار لأهل الفناء في الصفات، والأسرار لأهل الفناء في الذات.

ولذا يقول الجنيد رحمه الله:

وجودي أن أغيب عن الوجود     بما يبدو عليّ من الشهود

فالفناء عن النفس وزوالها من أصعب الأشياء، فمهما زالت النفس وهدمت انهدم الكون، ولم يبق له أثر، وقد يهدم الكون وتبقي في النفس بقية، فلذلك قدم الشيخ رق الأكوان على سجن وجود الإنسان.

وقد تنبه العارفون لهذه السجون، فكانت مواعظهم عظيمة وكلماتهم حكيمة، وفرارهم من الدنيا وسجونها إلى حرية العبودية لله أمثلة تحكى وقصصا تروى، فعن مالك بن دينار قال: اصطلحنا على حب الدنيا، فلا يأمر بعضنا بعضا، ولا ينهى بعضنا بعضا، ولا يدعنا الله على هذا، فليت شعري أي عذاب الله ينزل علينا؟.

وقال أبو حازم: يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة.

وقال الحسن: أهينوا الدنيا، فو الله ما هي لأحد بأهنأ منها لمن أهانها.

وقال أيضا: إذا أراد الله بعبد خيرا أعطاه من الدنيا عطية، ثم يمسك، فإذا نفد أعاد عليه، وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطا.

وقال أبو حازم: اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعوانا، وأما مؤنة الدنيا فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلا وجدت فاجرا قد سبقك إليه.

وقال أبو هريرة: الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشن البالي تنادي ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها: يا رب، يا رب لم تبغضني؟ فيقول لها: اسكتي يا لا شيء.

وقال عبد الله بن المبارك: حب الدنيا والذنوب في القلب قد احتوشته، فمتى يصل الخير إليه.

وقال وهب بن منبه: من فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله، ومن غلب علمه هواه فهو الغالب.

وقيل لبشر: مات فلان، فقال: جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة، ضيع نفسه، قيل له: إنه كان يفعل ويفعل، وذكروا أبوابا من البر، فقال: وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا.

وقال بعضهم: الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نحبها، فكيف لو تحببت إلينا؟!.

وعن أبي بكر بن عياش قال: قال لي رجل مرة وأنا شاب: خلص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رق الآخرة، فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبداً، قال أبو بكر: فما نسيتها أبداً.

أيها الغافل: ربح القوم وخسرت، وساروا إلى الحبيب وما سرت، وقاموا بالأوامر وضيعت ما به أُمرت، وسلموا من رق الهوى واغتررت فأُسرت، فالدنيا تخدمهم والسعادة تقدمهم حين يحشرون، لقد شُوقتم إلى الفضائل فما اشتقتم، وزُجرتم عن الرذائل وأنتم في سكر الهوى ما أفقتم، فلو حاسبتم أنفسكم وحققتم، علمتم أنكم بغير وثيق توثقتم، فاطلبوا الخلاص من أسر الهوى فقد جد الطالبون.

أيقظنا الله وإياكم لمصالحنا، وعصمنا من ذنوبنا وقبائحنا، واستعمل في طاعته جميع جوارحنا.

## ٥٥- الأنْوارُ مَطايا القُلوبِ وَالأَسْرارِ

إن المطايا جمع مطية، والمطية هي التي تصل براكبها إلى مطلوبه، فالأنوار هنا هي المطية التي توصل القلوب والأسرار (جمع سر وهو باطن الروح) إلى مطلوبها ومحبوبها ومعشوقها، فيدخل سر الروح إلى حظيرة القدسي، وإلى الحضرة الربانية، ولا تتولد الأنوار إلا من الطاعات والأذكار والمجاهدات، وهذا بالنسبة للمريد، أم المراد فهي تأتي من رب الأرباب بدون جهاد.

فالقلب يكون رطبا بالأنوار، لأن النور هو من الله تعالى رحمة، والرحمة باردة، والقلب لين منقاد برطوبة تلك الأنوار، فإذا احترق النور صلب القلب وقسا ويبس، فخف عن ذكر الله، ولهى عنه.

وقد سئل أحد العارفين: ما بالنا نسمع هذا العلم فنفهمه ونعقله، ولا يبقى على القلب منه شيء؟ قال: لأن نيران الشهوات في الخوف قد التهبت، فهي نيران سود، مظلمة بالهوى، وهي مؤدية إلى نار الله الكبرى، فإذا التهبت ارتفع إلى القلب، وأحرق تلك الأنوار، فخلا القلب من الموعظة والعلم الذي عليه، وهي شبيهة بالنار التي تلهب

حمرتها، فتحتاج إلى ماء كثير حتى تطفئه، كلما ألقيت عليه قبضة من شيء، أو رششت عليه قليل ماء، انطفأ قليلا ثم التهب، فكذلك صاحب الشهوة، إذا سمع الموعظة ذبل قلبه، وتخسفت نفسه، لما يصل إليه من الخوف، لأن الوعيد مما تتكسر به النفس، وتخمد شهواتها، ألا ترى أن الرجل يكون في لذة من لذات الدنيا ونشاط، فإذا بلغه وعيد من السلطان انكسر، وذهب نشاطه، فوعيد الله تعالى لو خلص إلى القلب، لكانت النفس والشهوات أشد انكسارا، ولكن لا يصل ذلك إلى القلب، فهو صلب أبدا، فرح مرح، أشر بطر، فهو ينور بلهب، فإنما يطفأ بالماء الكثير الغالب، وهو العلم المؤدي إلى الخوف والوعيد، وليس يوجد هذا، فما الحيلة في ذلك؟ قال: إنا لا نعلم له حيلة، إلا أن يمنع من إلقاء الحطب عليه، فإنه متى زاده وقودا اتقد، ونار والتهب وقوى، ومتى ما حبس عنه وقوده خمد، حتى يصير رمادا، ويذهب حر التنور، كذلك ههنا، يحبس عنها الشهوات حتى تخمد، فتذهب فورتها والتهابها، فحينئذ تتخلص أنوار القلب، ويقوى ويعمل العقل عمله.

وإنما يقوى القلب بكثرة الذكر، وترك فضول الكلام وفضول الأشغال، والتزود بالأنوار، فقد روي عن بعض التابعين أنه قال: ألزمت نفسي الصمت بحصاة جعلتها في فمي، وكان إذا أكل أخرجها، وإذا فرغ وضعها في فيه، وكذلك إذا صلى، فبقى في ذلك أربعين سنة، حتى لزمت نفسه الصمت، فرمى بها.

وإنما يخشع القلب بما يتجلى له من عظمة الله عز وجل وجلاله، ويهيج من النفس الخوف والخشية والحياء منه، فيوجل القلب، فإذا خافت النفس وخشيت، فوجل القلب واستحيا، سكنت الجوارح، وملك القلب جوارحه، ووقف بها على الحدود.

فإذا ترك الرياضة أحاطت بالقلب فورات الشهوات، وحلاوتها، وزينتها، كالدخان والغيم، فلم يستبن إشراق الأنوار، وانكمنت الأنوار بما فيها من السرور والبهجة والزينة، والحلاوة واللذة، فلم يتجل في الصدر نور العظمة والسلطان، وافتقد صاحبه الخوف والخشية والحياء أن يعملوا على القلب والنفس، فأصابت النفس نهمتها بما زين لها العدو، ومناها الغرور والأماني الكاذبة، يعدها سعة المغفرة، ووفارة الرحمة، وفيض

العفو والتجاوز، ويحدث نفسه بالتوبة، ليتجرأ على الذنب.

والأكياس من هذه الأمة بحثوا عن أصل هذه الأمور، ووجدوه على هذا النحو، فخلصوا إلى الرياضة، فقالوا: إنا لما وجدنا النفس تأشر وتبطر، وتستمر على الفرح، حتى تصير بحال من امتلائها بالفرح بالأشياء، كالسكران الذي لا يفيق من سكره، فكل شيء نالت من الدنيا من حال أو عرض أو حال، مطلق لها أو غير مطلق فرحت، فذلك الفرح سم يجري في العروق حتى يشتمل على الجسد، يمتلئ القلب من حلاوة ذلك الفرح، ويصير أشراً بطراً، لا يذكر موتاً، ولا قيامة، ولا حساباً، ولا شيئاً من أهوال القيامة، فذلك فرح يميت القلب، وتستمر النفس عليه وتطيب، وتقوى الشهوة وتحتد، فهذا فرح مذموم، ذمه الله عز وجل في تنزيله، فقال: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾[١]، ودل على الفرح المحمود، وندب إليه فقال عز وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٢]، فإذا فرح العبد بما فضله الله عز وجل على سائر العبيد، فمنّ عليه بالمعرفة والعقل، فاستنار قلبه، وطابت نفسه، فتعاونا على الشكر والحمد، فاستوجب المزيد، فقال عز وجل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٣]، ففرحه بذلك يجلب عليه المزيد، فهذا الفرح ترياق، وذلك الفرح سم، فمن شرب الترياق لم يضره السم، ومن هنا من ملك الدنيا في يديه ولم تستقر في قلبه فلا ضير ولا ضرر عليه.

واعلم أن الإيمان في القلب، ولا يستنير في الصدر، لإحاطة غيوم الشهوات، ورين الذنوب بالقلب في الصدر، حتى إذا تاب العبد صقل قلبه بالتوبة، فإذا جاهدها وراضها حتى ينقطع دخان شهواتها، وفوران الهوى، جاءت الأنوار مدداً للإيمان الذي في القلب، فصار القلب ذا شعاع وإشراق في الصدر، فإذا أشرق في صدره، فذلك عبد

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٦.

(٢) سورة يونس الآية ٥٨.

(٣) سورة إبراهيم الآية ٧.

نوّر الله عز وجل الإيمان في قلبه، فلما نوّره استنار في صدره، فصدرت الأمور إلى الجوارح من ذلك النور، مع الخوف والخشية والحياء، فعملت الجوارح على الحدود والمقدار الذي أمر، مع البهاء والزينة.

وهذه الأنوار كانت مطلب النبي ﷺ في دعائه ففي الحديث الذي رواه ابن عباس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ليلة حين فرغ من صلاته: (اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء، اللهم أعطني إيمانا ويقينا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك الفوز في القضاء، ونُزُل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، اللهم إني أنزل بك حاجتي، وإن قصر رأيي وضعف عملي، افتقرت إلى رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور، ويا شافي الصدور، كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور، اللهم ما قصر عنه رأيي، ولم تبلغه نيتي، ولم تبلغه مسألتي من خير وعدته أحدا من خلقك، أو خيرا أنت معطيه أحدا من عبادك، فإني أرغب إليك فيه، وأسألكه برحمتك رب العالمين، اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، الركع السجود، الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وإنك تفعل ما تريد، اللهم اجعلنا هادين مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، سِلما لأوليائك، وعدوا لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، اللهم اجعل لي نورا في قلبي، ونورا في قبري، ونورا من بين يدي، ونورا من خلفي، ونورا عن يميني، ونورا عن شمالي، ونورا من فوقي، ونورا من تحتي، ونورا في سمعي، ونورا في بصري، ونورا في شعري، ونورا في بشري، ونورا في لحمي، ونورا في دمي، ونورا في عظامي، اللهم أعظم لي نورا، وأعطني نورا، واجعل لي نورا، سبحان الذي تعطف العز وقال به، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي الفضل والنعم،

سبحان ذي المجد والكرم، سبحان ذي الجلال والإكرام)[١].

نسأل الله أن يجعل قلوبنا منيرة بنوره، بعيدة عن الآثار والأكدار والأغيار، متجملة بحبه وحب نبيه ﷺ وصحابته وآل بيته الأطهار.

## ٥٦- النُّورُ جُنْدُ القَلْبِ كَمَا أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْسِ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أَمَدَّهُ بِجُنُودِ الأَنْوَارِ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ الظُّلَمِ وَالأَغْيَارِ

هذه الحكمة معناها مقارب لما سبقها، فهي مكملة لها متممة لمعناها، لكن ابن عطاء الله أراد أن يأتي بألفاظ مختلفة لأهمية ذلك، لأن القلوب مناط رحمة الله عز وجل، لذا اهتم ابن عطاء الله بها كل الاهتمام، فالقلب هو الملك الذي يأمر الجنود، والأعضاء كلها جنود للقلب، ثم قال النور جند القلب، لأن القلب لا يستطيع أن يتوصل إلى بغيته، وهي الوصول إلى حضرة الرب، ودخول حظيرة قدسه إلا بهذه الأنوار، وهذه الأنوار التي تحل بالقلب تذهب بالبصيرة إلى الحكم على الأشياء، كما أن الظلمة التي تحل بالنفس الأمارة بالسوء من وساوس الشيطان وارتكاب المعاصي والآثام جند النفس، فتنكب النفس على بغيتها من الشهوات والملذات العاجلة والدنيا، فتحدث حرب حامية الوطيس بين النفس والعقل والروح، فإذا أراد الله عز وجل أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار التي تأتيه من العزيز الغفار ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[٢]، فيعين العبد بهذه الأنوار على قمع شهوات النفس، ويتفضل الله عليه بقطع مدد الظُلَم والأغيار، أي يمحو هذا الظلام بالأنوار، وقطع الأغيار بالمجاهدة والمراقبة لله عز وجل، والمنة والفضل من الله عز وجل.

ومن هنا كان اهتمام النبي ﷺ بالقلوب وحياتها، والتحذير من انطفاء النور فيها، ففي الحديث عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت

---

(١) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٣٤١٩، سنن الترمذي ٣٥٧/٥.

(٢) سورة القصص الآية ٥٦.

فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز، مجخيا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه)(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء) ثم قال رسول الله ﷺ: (اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)(٢).

وكذا كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعارفين محذرين من أدواء القلوب، مهتمين بعلاجها، مداومين على ما ينيرها، فعن الحسن قال: حادثوا هذه القلوب بذكر الله، فإنها سريعة الدثور، واقدعوا هذه الأنفس فإنها طلعة، وإنما تنزع إلى شر غاية، وإنكم إن تطيعوها في كل ما تنزع إليه لا تبقي لكم شيئا.

وقال كذلك في وصف المؤمنين: المؤمنون قوم ذلل، ذلت والله الأسماع والأبصار والجوارح، حتى يحسبهم الجاهل مرضى، والله ما بالقوم من مرض، وإنهم لأصحاء القلوب، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، وقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، والله ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله عليه نعمة إلا في مطعم، أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه.

وقال أبو حاتم: لن تضفو القلوب من وجود الدرن فيها حتى تكون الهمم في الله هما واحدا، فإذا كان كذلك كفي الهم في الهموم إلا الهم الذي يؤول متعقبه إلى رضا الباري جل وعز بلزوم تقوى الله في الخلوة والملاء، إذ هو أفضل راد العقلاء في داريهم، وأجل مطية الحكماء في حاليهم.

---

(١) أخرجه مسلم في الحديث رقم١٤٤، الصحيح ١/١٢٨.

(٢) أخرجه مسلم في الحديث رقم٢٦٥٤، الصحيح ٤/٢٠٤٥.

وعن يحيى بن معاذ الرازي قال: الحكمة تهوي من السماء إلى القلوب، فلا تسكن في قلب فيه أربع خصال: الركون إلى الدنيا، وهمّ غدٍ، وحسد أخ، وحب شرف.

اللهم أمددنا بأنوارك وأسرارك التي تقطع ظلمات النفوس، وتكبح جماحها، آمين.

## ٥٧- النُّورُ لَهُ الْكَشْفُ، وَالْبَصِيرَةُ لَهَا الْحُكْمُ، وَالْقَلْبُ لَهُ الإِقْبَالُ وَالإِدْبَارُ

هذه الحكمة تبين أن نور القلب هو الذي يكشف الأشياء، فيبين قبيحها وحسنها، ويبين أن الطاعة لله حسنة، وأن المعصية قبيحة.

والبصيرة لها الحكم، أي إدراك الأمر الذي شاهدته وكشف لها عنه بالنور، فكما لا يمكن إدراك البصر للمحسوسات إلا بالأنوار الظاهرة كالشمس والسراج، كذلك لا يمكن إدراك البصيرة لشيء من المعاني إلا بالأنوار الباطنة، وللقلب الإقبال أو الإدبار عما كشفت له البصيرة، وحكمت بحسنه أو قبحه، فيقبل على الطاعة، ويدبر ويمتنع عن المعصية.

ومن أراد لبصيرته أن تزيد، ولقلبه أن ينير ويقبل على الله تعالى، فليحاسبها على ما تفعل، وليردها عن غيها إن زلت، ويقصيها عن خطئها إن وقعت، فقد سئل أحد العارفين: بم تحاسب النفس؟ قال: بقيام العقل على حراسة جناية النفس، فيتفقد زيادتها من نقصانها فقيل له: ومم تولد المحاسبة؟ قال: من مخاوف النقص، وشين البخس، والرغبة في زيادة الأرباح، والمحاسبة تورث الزيادة في البصيرة، والكيس في الفطنة، والسرعة إلى إثبات الحجة، واتساع المعرفة، وكل ذلك على قدر لزوم القلب للتفتيش، فقيل له: من أين تخلف العقول والقلوب عن محاسبة النفوس؟ قال: من طريق غلبة الهوى والشهوة؛ لأن الهوى والشهوة يغلبان العقل والعلم والبيان.

وقيل: فأي عبد أتعس جدا، ولا أعظم نكدا، ولا أطول شقاء وعناء من عبد حرم البصيرة بنور القرآن، والهداية بدلالته، والزجر بموعظته.

وقال بعض العلماء: لما خلق الله تعالى اللسان قال: هذا معقل خبري، إن صدقني نجيته، ولما خلق الله تعالى القلب قال: هذا موضع نظري، إن صفا لي

صافيته.

ويقال: إن الله تبارك وتعالى وكّل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم، فيعطي كل واحد على نحو نيته، فمن كانت نيته طلب الدنيا أعطي منها، ونقص من آخرته أضعافه، وفرق عليه همه، وكثر بالحرص والرغبة شغله، ومن كانت نيته طلب الآخرة وأهلها أعطي من البصيرة والفطنة، وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته، وجمع له همه، وملك من الدنيا بالقناعة والزهد شغله، ودعت له الملائكة واستغفرت له.

ولذا شنع الله تعالى على من فقد البصيرة، وعذر من فقد البصر، وكيف لا يكون فقدان البصيرة أعظم ضررا من فقدان البصر، وقد علم أن البدن بمنزلة فرس، والنفس بمنزلة راكبه، وضرر عمى الراكب نفسه أشد عليه من ضرر عمى فرسه.

والبصيرة لا يمكن إدراكها بقلب غافل أعمى، ولذا قالوا: اعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا، والتكالب عليها، والحرص على التمزيق لأعراض الناس، كلب في المعنى، وقلب في الصورة، وفي الآخرة تتبع الصور المعاني وتغلب المعاني، فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية، فيحشر الممزق لأعراض الناس كلبا ضاريا، والشره إلى أموالهم ذئبا عاديا، والمتكبر عليهم في صورة نمر، وطالب الرياسة في صورة أسد.

وعلى هذا فإن مفتاح السعادة التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة.

**٥٨- لا تُفْرِحكَ الطَّاعَةُ؛ لأنَّها بَرَزَتْ منْكَ، وَافْرَحْ بِهَا لأنَّها بَرَزَتْ مِنَ اللَّه إليكَ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١]**

الإنسان العادي تسره الحسنة وتسوؤه السيئة، وهذا من علامات الإيمان، فأراد ابن

---

(١) سورة يونس الآية ١٠.

عطاء الله أن يلفت نظر المريد السالك إلى الله بأن فرحه بالطاعة يكون لأنها برزت من الله على أعضاء العبد، ولا يكون فرحه بها لأنها برزت منه هو، فلا ينسب الطاعة لنفسه، لأن الله قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(١)، ثم يبين أن الفرح يكون بفضل الله على العبد، لا بما يكتسبه من أعمال صالحة، فيقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

ومن وفقه الله للهدى، وأعطاه قوى لبلوغ المدى فراعى نفسه وزكاها، فقد أفلح، ومن حرم التوفيق فأهمل نفسه ودساها فقد خاب وخسر.

فكل عمل وإن قل لا بد فيه من ثلاثة معان قد استأثر الله تعالى بتوليها: أولها: التوفيق، وهو الاتفاق أن يجمع بينك وبين الشيء، ثم القوة، وهو اسم لثبات الحركة التي هي أول العقل، ثم الصبر، وهو تمام الفعل الذي به يتم.

وقد عرف العلماء والفقهاء من هذه الأمة معنى أن يكتب الله لك التوفيق للشيء، وأنه لولا توفيق الله لك ما كان منك حسنة، فليفرح المؤمن بهذا التوفيق لا بالعمل.

قال الفقيه ﷺ: من أراد أن يكسر العجب فعليه أربعة أشياء: أولها أن يرى التوفيق من الله تعالى، فإذا رأى التوفيق من الله تعالى، فإنه يشتغل بالشكر، ولا يعجب بنفسه، والثاني: أن ينظر إلى النعماء التي أنعم الله بها عليه، فإذا نظر في نعمائه اشتغل بالشكر عليها، واستقل عمله، ولا يعجب به، والثالث: أن يخاف أن لا يتقبل منه، فإذا اشتغل بخوف القبول، لا يعجب بنفسه، والرابع: أن ينظر في ذنوبه التي أذنب قبل ذلك، فإذا خاف أن ترجح سيئاته على حسناته فقد قل عجبه، وكيف يعجب المرء بعلمه، ولا يدري ماذا يخرج من كتابه يوم القيامة، وإنما يتبين عجبه وسروره بعد قراءة الكتاب.

ويقال من علامات التوفيق ثلاث: دخول أعمال البر عليك من غير قصد لها، وصرف المعاصي عنك مع الطلب لها، وفتح باب اللجوء والافتقار إلى الله عز وجل

---

(١) سورة الصافات الآية ٩٦.

في الشدة والرخاء، ومن علامات الخذلان ثلاث: تعسر الخيرات عليك مع الطلب لها، وتيسر المعاصي لك مع الرهب منها، وغلق باب اللجوء والافتقار إلى الله عز وجل في كل حال.

والصبر على التوفيق والعافية لا يحسنه كل الناس، ولذا قال بعض السلف: البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا صديق.

وقال عبد الرحمن بن عوف ﵁: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

وفي الأثر: قليل من التوفيق خير من كثير من العلم.

وهذا التوفيق قد جعله الله تعالى علامة على قبول العمل وحسن الخاتمة، فإن أردت معرفة موردك يوم القيامة أو قلت: ماذا موردي؟ وإلى ماذا مآلي ومرجعي؟ وما الذي سبق به القضاء في حقي؟ فلك علامة تستأنس بها، وتصدق رجاءك بسببها، وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإن كلا ميسر لما خلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير، فأبشر، فإنك مبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيرا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه، ولا تقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه، فاعلم أنك مقضي عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات، ودلالة الدخان على النار.

ولن يتحقق لك ذلك بغير الفرح بنعم الله أن وفقك لطاعته، وشكره على أن جعل جوارحك تطيعه، وقد قال بعض العلماء: شكر القلب المعرفة بأن بالنعم من المنعم لا غير، وشكر العمل كلما وهب الله عز وجل لك عملا أحدثت له عملا ثانيا شكرا منك للعمل الأول، وعلى هذا يتصل الشكر بدوام المعاملة.

## ٥٩- قَطَعَ السَّائِرِينَ لَهُ وَالْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِمْ وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ، أَمَّا السَّائِرُونَ فَلأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ مَعَ اللَّهِ فِيهَا، وَأَمَّا الْوَاصِلُونَ فَلأَنَّهُ غَيَّبَهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْهَا

إن الله عز وجل أسبغ نعمه على السائرين له بعدم رؤية أعمالهم، وكذلك

الواصلون بعدم شهود أحوالهم، وهذه نعمة من الله عز وجل عليهم، فالسائرون إليه خصهم بالأعمال الظاهرة، وخص الواصلين بالأحوال الباطنة، وإن كانت لهم أعمال فإن أحوالهم الباطنة الصالحة أفضل من أعمالهم الظاهرة، فخصهم بالأفضل، كما أنه عبر في جانب السائرين بالأعمال الظاهرة وإن كانت لهم أحوال، فالسائر إلى الله لا يرى شيئا من أعماله اتهاما لنفسه بعدم الكمال، ويعتبر كل هذه الأعمال من الله تفضل بها الله، فالفضل له وحده.

أما الواصلون فقد غابوا عن أعمالهم بشهود الله فيها، فهم لا يرون هذه الأعمال أنها لهم، وإنما يرون أن الله هو الذي يؤديها على أعضائهم، فالله هو الذي يصلي ويصوم، ويزكي، ويحج، وليس لهم أعمال لغيبتهم، وهذه هي الحقيقة التي يجب اعتقادها، فليس لك من الأمر شيء، وما قتلناهم ولكن الله قتلهم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[١]، وما إلى ذلك من الآيات والأحاديث التي تدل على ذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فالأمر أمره، والنهي نهيه، والعبد عبده، فتفضل علينا يا أرحم الراحمين.

وإنما كان ذلك لأن العجب إذا وقع في النفس قطعها عن الصالحات، وهؤلاء قوم ارتضاهم الله تعالى لعبادته فنفى عنهم هذه الآفة، وجعلهم لا يرون أعمالهم، وذلك لأن العجب ظن كاذب بالنفس في استحقاق مرتبة هي غير مستحقة لها.

يقول بعض الصالحين: العجب آفة العقل، واللجاجة قعود الهوى، والبخل لقاح الحرص، والمراء فساد اللسان، والحمية سبب الجهل، والأنف توأم السفه، والمنافسة أخت العداوة.

وروي عن شقيق بن إبراهيم الزاهد أنه قال: حسن العمل ثلاثة أشياء: أولها أن يرى أن العمل من الله تعالى ليكسر به العجب، والثاني أن يريد به رضا الله ليكسر به الهوى، والثالث أن يبتغي ثواب العمل من الله تعالى ليكسر به الطمع والرياء، وبهذه

---

(١) سورة الأنفال الآية ١٧.

الأشياء تخلص الأعمال.

وقال بعض الحكماء: يحتاج العمل إلى أربعة أشياء حتى يسلم: أولها العلم قبل بدئه، لأن العمل لا يصلح إلا بالعلم، فإذا كان العمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، والثاني النية في مبدئه، لأن العمل لا يصلح إلا بالنية، كما قال النبي ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) فالصوم والصلاة والحج والزكاة وسائر الطاعات لا تصلح إلا بالنية، فلا بد من النية في مبدئها ليصلح العمل، والثالث الصبر في وسطه، يعني يصبر فيها حتى يؤديها على السكون والطمأنينة، والرابع الإخلاص عند فراغه، لأن العمل لا يقبل بغير إخلاص، فإذا عملت بالإخلاص يتقبل الله تعالى منك، وتقبل قلوب العباد إليك.

فمن أراد أن يجد ثواب عمله في الآخرة ينبغي له أن يكون عمله خالصا لله تعالى بغير رياء، ثم ينسى ذلك العمل لكيلا يبطله العجب، لأنه يقال حفظ الطاعة أشد من فعلها.

وليعلم المرء أن العجب قد يضيع العمل، وأن التواضع يجلب الثواب والرضا من الله تعالى، فمن قطعه الله تعالى عن رؤية عمله الصالح فإنما أراد به خيرا.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن من صلاح توبتك أن تعرف ذنبك، وإن من صلاح عملك أن ترفض عجبك، وإن من صلاح شكرك أن تعرف تقصيرك.

وعن مطرف بن عبد الله قال: لأن أبيت نائما وأصبح نادما، أحب إلي من أن أبيت قائما، وأصبح معجبا.

وقد روى الشعبي رضي الله عنه: أنه كان رجل إذا مشى أظلته سحابة، فقال رجل لأمشين في ظله، فأعجب الرجل بنفسه، فقال: مثل هذا يمشي في ظلي، فلما افترقا ذهب الظل مع ذلك الرجل.

## ٦٠- ما بَسَقَتْ أَغْصانُ ذُلٍّ إلّا عَلى بَذْرِ طَمَعٍ

يجب على المؤمن أن يحرص دائما وأبدا على عزة نفسه، ولا يهينها مهما كانت

الشدائد، ومهما كانت الرغبات والآمال، لقول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]، فمن ذل نفسه لغرض من أغراض الدنيا قد أهان هدية الله التي أهداها إليه، وهذا من سوء الأخلاق، وهنا يبين ابن عطاء الله -رحمه الله- في هذه الحكمة العظيمة أن الطمع أصل جميع الآفات، لأنه يوصل إلى الذل والمهانة التي تؤدي إلى الوقوع في التهلكة، فلا يزال الطامع يتملق الناس حتى يحصل له الإفلاس، وينكشف أمره، فيجلس حزينا كئيبا، وقد مثل الطمع بالبذرة الصغيرة التي أنبتت شجرة كبيرة ممتدة الأغصان، ولكن ثمرتها كثمر شجر الزقوم لا تشبع ولا تغني من جوع، بل تزيده هوانا وصغارا، فالإنسان يطمع، ويطمع حتى يمتلأ قلبه بالطمع في الدنيا، فدائما يذل بها ويهان، فليكن الطمع في رحمة الله عز وجل.

وإنما كان ذلك لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس، حتى يجعل المطموع فيه كأنه معبوده، فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتحبب إليه، ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك، وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه، والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد حذر العارفون من الطمع وبذرته، فوردت عنهم نصائح كثيرة تبين للسالك خطره، فيقول أحدهم: لا يكون الإنسان تقيا حتى يكون نقي الطمع نقي الغضب.

وقيل لحكيم: ما آلة الطمع وجماع آفاته؟.

قال: الشره والحرص، وهيجان الرغبة، فعلى أيها أوقعت النفس طمعها أحضرت أداتها، وجمعت آلتها، وجدت في طلبها، فإذا قهرت صاحبها على موافقة هواها استعبدته، فأذهلته، وأذلته، وأدهشته، وأتعبته، وطيشت عقله، ودنست عرضه، وأخلقت مروءته، وفتنته عن دينه، وإن كان عالما لبيبا، عاقلا كيسا، فطينا فصيحا، حكيما فقيها لوثته وأسقطته وفضحته، فاحتمل لها ذلك كله وهو الأريب، العالم الأديب، فصيرته بعد

---

(١) سورة المنافقون الآية ٨.

العلم جاهلا سفيها، أحمق خفيفا، وذلك أنها سقته من موافقة هواها كأسا سمّا صرفا، فاستمالته فمال بعلمه وعقله وفهمه ونفاذ حكمته وبصره، فأجراه مجرى هوى نفسه، فعجلت له الفضيحة في عاجل الدنيا عند حكمائها وعقلائها، وأسقطته من عين الله وأعين عباده من أهل البصائر، وأخرت له آجل الندامة الطويلة عند مفارقة الدنيا وفي عرصات القيامة.

وقال عمر بن الخطاب في خطبته: أتعلمن أن الطمع فقر، وأن الإياس غنى، وأن المرء إذا أيس من شيء استغنى عنه.

وقال أبو حاتم ﷺ: الواجب على العاقل ترك الطمع إلى الناس كافة بكماله الإياس عنهم، إذ الطمع فيما لا يشك في وجوده فقر حاضر، فكيف بما أنت شاك في وجوده أو عدمه؟.

وسئل الجنيد عن القلب ما يفسده؟ قال: الطمع. قيل: ما يصلحه؟ قال: الورع.

وسئل إبراهيم بن أدهم بما يتم الورع؟ قال: بتسوية جميع الخلق في قلبك، والاشتغال عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل، واحسم الطمع إلا من ربك.

وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك.

وقال أبو الدرداء ﷺ: ما من أحد إلا وفي عقله نقص، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا، والليل والنهار دائبان في هدم عمره، ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص؟.

فإن كنت مريدا صادقا، تحب النظر في عواقب الأمور فأغلق على نفسك باب الطمع، وافتح لها باب الإياس، وانفرد لذلك بإرادتك كلها، وتجرد في طلبه كالذي ليس له من حوائج الدنيا كلها إلا حاجة واحدة، وتعزم عزما صحيحا على أن تهب نفسك لله في بقية عمرك إن كنت تراه لذلك أهلا، سبحانه وتعالى ما أغناه عن أهل السموات وأهل الأرضين وما أشد اضطرارهم اليه.

## ٦١- مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْوَهْمِ

هذه الحكمة لها علاقة بالتي قبلها، لأن الوهم الذي هو انقياد النفس إلى الأمور التوهم الباطلة يؤدي إلى الطمع الذي تحدثت عنه الحكمة السابقة، والوهم من أشد أمراض هذا العصر، فهو مرض خطير أصاب كثيرا من الناس وخاصة الشباب منهم، فأدى بهم إلى الذل والمهانة، لأنهم توهموا النفع من المخلوقين والطمع فيهم، وما دروا الحقيقة وهي أن الخلق لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا إعطاء ولا منعان فكيف يملكونه لغيرهم، فقد طمعوا إذن في غير مطمع.

أما أرباب الحقائق، وهم العارفون بالله عز وجل فلا تتعلق همتهم إلا بالله سبحانه، ولا يعتمدون إلا عليه، فدائما يتوكلون عليه، لأن قلوبهم خلت من الأكدار والأغيار، فصفت فلم يحل فيها الطمع، واتصفوا بالزهد والورع، فأحياهم الله عز وجل حياة طيبة بالقناعة والرضا، وهم لا أمل لهم إلا الله، فلا يصيبهم الوهم الذي يؤدي إلى طمعهم في الخلائق، فهم الأحرار الذين تخلصوا من رق الأغيار، وهم ملوك الأرض الذين لا تصيبهم الأمراض والأوهام، فارتاحت قلوبهم وسكنت نفوسهم، وهدأت خواطرهم، فهم في جنة المعارف غارقين، وبحب الله قائمين.

والوهم: انقياد النفس لقبول أثر ما يرد عليها، والفرق بينه وبين الخاطر أن الخاطر يقال فيما لا تقبله النفس، والوهم لا يقال إلا فيما تقبله النفس.

ومن عيوب النفس أن يتوهم أنه على باب نجاته، يقرع الباب بفنون الأذكار والطاعات، والباب مفتوح، ولكنه أغلق باب الرجوع على نفسه بكثرة المخالفات.

يقول ابن مسروق: مرت رابعة بمجلس صالح المري، فقال صالح: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له، فقالت رابعة: الباب مفتوح وأنت تفر منه، كيف تصل إلى مقصد أخطأت الطريق منه في أول قدم، فكيف ينجو العبد من عيوب نفسه، وهو الذى أطلق لها الشهوات؟ أم كيف ينجو من اتباع الهوى وهو لا ينزجر عن المخالفات؟.

ويقول الشاعر:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه     وصــدق مــا يعتــاده من توهم

وعادى محبيـــــه بقول عداتـــه    وأصبح في ليل من الشك مظلم

وسئل الشبلي فقيل له: أخبرنا عن توحيد مجرد، وبلسان حق مفرد، فقال: ويحك، من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد، ومن أشار إليه فهو ثنوي، ومن أومأ إليه فهو عابد وثن، ومن نطق فيه فهو غافل، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن توهم أنه واصل فليس له حاصل، ومن رأى أنه قريب فهو بعيد، ومن تواجد فهو فاقد، وكل ما ميز تموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم، محدث مصنوع مثلكم.

وما أجمل قول الشاعر:

لأجعلن سبيل اليأس لي سبلا    ما عشت منك ودار الهم أوطانا

والصبــر أجعله غرما أنال به    في الناس قربا وعند الله رضوانـا

فالنفس قانعة والأرض واسـعة    والـدار جامعــة مثنى ووحدانـــا

نسأل الله العظيم أن يطهر قلوبنا من الوهم والطمع، آمين.

## ٦٢- أَنْتَ حُرٌّ مِمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ

لا زال ابن عطاء رحمه الله في هذه الحكم يحلق بالمريد في أجواء عالية من الانعتاق الروحي والخلاص النفسي من كل أصفاد الحياة، وأغلال رقها وعبوديتها، إلى حرية العبودية لله وحده، والخضوع لجلاله وعظمته، فحرية الإنسان لا تقدر بثمن، ولقد عز ذلك في هذا الزمان، فيبين لك ابن عطاء الله رحمه الله في هذه الحكمة أن الحرية تكون باليأس مما في أيدي الناس، وهذه حرية نسبية، أما الحرية المطلقة فهي أن تيأس من الدنيا جميعها ذهبها ومدرها، وذلك يكون بفناء صفاتك في صفاته، فتخرج بعد ذلك حرا لا يتعلق بقلبك شيء سوى الله عز وجل.

ويقول ابن عطاء: وعبد لما أنت له طامع، لأن الطمع في الشيء دليل على حبك المفرط له، لاحتياجك إليه، فيستعبدك، ولا يخلو الطامع في الخلق من الذل والخيبة، أو من المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله تعالى برجاء كاذب ووهم فاسد

قد يصيب وقد يخطئ، على أنهم لو اطلعوا على ما في قلبه من الرياء لطردوه ومقتوه وذموه وأحرموه.

وكم من عبيد في هذا الزمن ويظنون أنهم أحرار، فالطامع عبد، واليائس من الدنيا وما فيها حر، لذا قال الشاعر:

العبد حر إن قنع والحر عبد إن طمع
فاقنع ولا تطمع فما شيء يشين سوى الطمع

وقال آخر:

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس واقنع بعز فإن العز في الياس
واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم إن الغني من استغنى عن الناس

ومن المجرب أن من استغنى بالله أغناه، ومن استعان بالله كفاه، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[١]، ولذا يقول بعض العارفين: أشرف المنى ترك الطمع إلى الناس، إذ لا غنى لذي طمع، وتارك الطمع يجمع به غاية الشرف، فطوبى لمن كان شعار قلبه الورع، ولم يعم بصره الطمع، ومن أحب أن يكون حرا فلا يهوى ما ليس له، لأن الطمع فقر كما أن اليأس غنى، ومن طمع ذل وخضع، كما أن من قنع عف واستغنى.

وقال أيضا: الطمع غدة من قلب المرء، له طرفان، أحدهما القيد في رجليه، والآخر الطبع على لسانه، فما دامت العقدة قائمة لا تنفك رجلاه، ولا ينطق لسانه، فإذا أخرج الطمع من قلبه انفك القيد من رجليه، وزال الطبع عن لسانه، فسعى إلى ما شاء، وقال ما أحب.

وروي عن بعض السلف أنه قال: الطمع هو الفقر الحاضر، والغني الطامع فقير، والفقير المتعفف غني، والطمع هو الذي يقطع الرقاب.

وفي الأثر: خير المؤمنين القانع، وشرهم الطامع.

وقيل: لو فكر الطامع في عاقبة الدنيا لقنع، ولو تذكر الجائع إلى فضول مآلها

---

(١) سورة الزمر الآية ٣٦.

لشبع.

فاستغن بالله يقنع قلبك، ويعز جاهك، ويقوى أمرك، ولا يمكن لامرئ أن يسومك بذلٍ أو سوء.

## ٦٣- مَنْ لَمْ يُقْبِلْ عَلى اللّهِ بِمُلاطَفاتِ الإحْسانِ قِيدَ إلَيْهِ بِسَلاسِلِ الامْتِحانِ

إن مراد الله من العبيد الرجوع إليه، والإقبال عليه طوعا أو كرها، فإذا ما أقبل الإنسان على الله طوعا أحبه، ثم ابتلاه، ثم اجتباه، فلا يكون الاجتباء إلا بعد الابتلاء، ثم يرى العبد لطائف إحسانه عليه، فلا يرى رحيما ولا كريما سواه، فيزداد إقباله.

أما من أدبر عنه وهو يحبه يجعله يقبل عليه بالامتحانات، وهي الأمراض والفاقة الشبيهة بالسلاسل، فالنفوس الكريمة تقبل على الله لأفضاله وإنعامه وإحسانه إليها، والنفوس اللئيمة لا تقبل على الله إلا بالامتحان والابتلاء.

فربما كان ابتلاؤك لينظر إلى صبرك، فإن صبرت فربما نقلك إلى محبته، ولذا يقول الشافعي: لا يكون التمكين إلا بعد المحبة، فإذا امتحن الإنسان فصبر مُكّن، ألا ترى أن الله تعالى امتحن إبراهيم ثم مكنه، وامتحن أيوب ثم مكن له.

فسبحان المتصرف في خلقه بالاغتراب والإذلال ليبلوا صبرهم، ويظهر جواهرهم في ذلك، هذا آدم عليه السلام تسجد له الملائكة، ثم بعد قليل يخرج من الجنة، وهذا نوح عليه السلام يضرب حتى يغشى عليه، ثم بعد قليل ينجو في السفينة ويهلك أعداؤه، وهذا الخليل عليه السلام يُلقى في النار، ثم بعد قليل يخرج إلى السلامة، وهذا الذبيح يضطجع مستسلما، ثم يسلم، ويبقى المدح، وهذا يعقوب عليه السلام يذهب بصره بالفراق، ثم يعود بالوصول، وهذا الكليم عليه السلام يشتغل بالرعي، ثم يرقى إلى التكليم.

فمن تلمح بحر الدنيا، وعلم كيف تتلقى الأمواج، وكيف يصبر على مدافعة الأيام، لم يستهون نزول بلاء، ولم يفرح بعاجل رخاء.

ولذا قيل: ليس المراد من الابتلاء أن نعذب، ولكنا نبتلي لنهذب.

وقال مريد لأستاذه: قد طولعت بشيء من المحبة، قال: يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرته عليه؟ قال: لا، قال: فلا تطمع في المحبة، فإنه لا يعطيها عبدا حتى يبتليه.

ومن هنا يظهر إيمان المؤمن عند الابتلاء، فهو يبالغ في الدعاء، ولا يرى أثرا للإجابة، ولا يتغير أمله ورجاؤه، ولو قويت أسباب اليأس، لعلمه أن الحق أعلم بالمصالح، أو لأن المراد منه الصبر أو الإيمان، فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم، لينظر كيف صبره، أو يريد كثرة اللجوء إليه والدعاء والتذلل بين يديه جل وعلا، لأنه يحب صوته.

وربما قال العقل: أي فائدة في الابتلاء، وهو قادر أن يثيب، ولا بلاء؟! وأي غرض في تعذيب أهل النار، وليس ثم تشف؟! فقل له: حكمته فوق مرتبتك، فسلم لما لا تعلم؛ فإن أول من اعترض بعقله إبليس، رأى فضل النار على الطين، فأعرض عن السجود، وقد رأينا خلقا كثيرا، وسمعنا عنهم أنهم يقدحون في الحكمة؛ لأنهم يحكمون العقول على مقتضاها، وينسون أن حكمة الخالق وراء العقول، فإياك أن تفسح لعقلك في تعليل، أو أن تطلب له جواب اعتراض، وقل له: سلم تسلم، فإنك لا تدري غور البحر، إلا وقد أدركك الغرق قبل ذلك، هذا أصل عظيم، متى فات الآدمي، أخرجه الاعتراض إلى الكفر.

فإن كنت مبتلى فإياك إياك أن تستطيل زمان البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء؛ فإنك مبتلى بالبلاء، متعبد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله، وإن طال البلاء.

قال أحمد بن حنبل: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنما أيام قلائل، فلا تنظر إلى لذة المترفين، وتلمح عواقبهم، ولا تضق صدرا بضيق المعاش، وعلل الناقة بالحدو تسر.

ويكفي المرء أن يعلم أن هذا الابتلاء الذي يضيق به ذرعا، ويتأفف منه بَرِماً، ويظهر التململ منه، ويتوق إلى العافية أنه قد يجره إلى الله تعالى بالسلاسل جرا، فلولا الابتلاء لركن إلى العافية، ولولا الاختبار لسكن إلى زهرة الدنيا، فخرج عن الغاية،

وضل عن السبيل، فكن بكل أقدار الله راضيا تسلم وتغنم.

## ٦٤- مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوالِها، وَمَنْ شَكَرَها فَقَدْ قَيَّدَها بِعِقالِها

إن الشكر من أعظم العبادات التي يتقرب بها العبد إلى مولاه المنعم على نعمه، لذا جعل الله للعبد ديوانا يسمى بديوان الشكر يحاسبه عليه يوم القيامة، ثم قال له في كتابه العزيز: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(١)، وقال أبو الدرداء: أحسنوا مجاورة نعم الله، لا تملوها، ولا تنفروها، فإنها لقلما نفرت عن قوم فعادت إليهم.

وهنا يبين ابن عطاء الله رحمه الله أن من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، لأن الشكر يكون لكل نعمة بحسبها، فشكر المال ببذله للفقراء والمساكين، وشكر الجسد بأن تعين المحتاج وتقضي له حاجته، وشكر العلم ببذله لأهله، وكذا كل شيء بحسبه، والشكر قد يكون باللسان، وقد يكون بالقلب، فشكر اللسان أن تنطق وتلهث بحمد الله وتشكره على النعم التي لا تعد ولا تحصى، بل إن ذكرك هذا يحتاج إلى شكر، لأنه نعمة فيعجز الإنسان عن شكر نعم الله عليه، والعجز نهاية الشكر، لأن العجز عن الإدراك إدراك، وشكر القلب بحسن الاعتقاد في الله عز وجل، وهذا يستوجب القيام بما أمر الله به، والانتهاء عما نهاه عنه، والوقوف عند حدوده، ومن شكر فإن النعمة تزاد عنده وتفرخ وتبيض، فتكون لا نهاية لها، وقد شبه ابن عطاء الله ذلك بالناقة التي عقلها صاحبها، فهي لا تبارحه بسبب عقلها.

وقد عرف الإمام الجنيد الشكر فقال: لا يعصى الله بنعمه.

وعرفه آخر فقال: هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله.

ومن علامة الشكر معرفة النعمة بالقلب أنها من الله لا من غيره، والحمد عليها باللسان، وألا يستعان بها على شيء مما يكره المنعم.

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٧.

والشكر على وجهين: شكر عام، وشكر خاص، فأما الشكر العام فهو الحمد باللسان، وأن يعترف بالنعمة من الله تعالى، وأما الشكر الخاص، فالحمد باللسان، والمعرفة بالقلب، والخدمة بالأركان، وحفظ اللسان، وسائر الجوارح عما لا يحل.

وأما تمام الشكر ففي ثلاثة أشياء: أولها: إذا أعطاك الله شيئا، فتنظر من الذي أعطاك فتحمده عليه، والثاني: أن ترضى بما أعطاك، والثالث: ما دام منفعة ذلك الشيء معك، وقوته في جسدك لا تعصه.

ومن الشكر أن يشكر الله تعالى على اليسير، لأن القليل من الحبيب كثير، ولأن الله تعالى حكيم، فمنعه حكمة وقدرة، فإذا عرف وجه الحكمة في المنع مع القدرة على العطاء علم أنه منعه ليعطيه، وهنا صار المنع قمة العطاء، وأصبح اليسير منه كثيرا، وعلم أن الذل والصبر عند المنع عز وشرف، لأنه من الله تعالى وإليه.

وهذه النعمة العظيمة نعمة الشكر اضمحلت في هذا الزمان، فأصاب الله الناس بالضيق والفقر والعوز، وما إلى ذلك من أنواع الهموم والأكدار، وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(١).

ولذا قيل: النعم أضياف وقراها(٢) الشكر، والبلايا أضياف وقراها الصبر، فاجتهد أن ترحل الأضياف شاكرة حسن القرى، شاهدة بما تسمع وترى.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمده عليها)(٣).

وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أنعم الله على عبد من نعمة صغيرة ولا كبيرة ، فقال: الحمد لله، إلا كان قد أعطي أكثر مما أخذ)(٤).

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٢.

(٢) **القرى**: إكرام الضيف وإطعامه والقيام عليه وخدمته، والمراد هنا أن إكرام النعم يكون بالشكر، وإكرام البلايا يكون بالصبر.

(٣) أخرجه الهناد بن السري في كتاب الزهد ٣٩٩/٢.

(٤) أخرجه الهناد بن السري مرفوعا في كتاب الزهد ٣٩٩/٢.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: (من رُزق خمسا لم يُحرم خمسا، من رُزق الشكر لم يحرم الزيادة لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾، ومن رزق الصبر، لم يحرم الثواب لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، ومن رزق التوبة لم يحرم القبول لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾، ومن رزق الاستغفار لم يحرم المغفرة لقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، ومن رزق الدعاء لم يحرم الإجابة لقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وقد روي السادس من رزق الإنفاق، لم يحرم الخلف لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾.

وقال ابن مسعود ﷺ: الشكر نصف الإيمان.

وكان من دعاء داود عليه السلام: سبحان مستخرج الشكر بالعطاء، ومستخرج الدعاء بالبلاء.

ويقال: كان من دعاء داود عليه الصلاة والسلام: اللهم إني أسألك أربعة، وأعوذ بك من أربعة: أما اللواتي أسألك، فلسانا ذاكرا، وقلبا شاكرا، وبدنا صابرا، وزوجة تعينني في دنياي وآخرتي، وأما اللواتي أعوذ بك منهن، فأعوذ بك من ولد يكون علي سيدا، ومن امرأة تشيبني قبل وقت المشيب، ومن مال يكون وبالا علي، ومن جار لو رأى مني حسنة كتمها، ولو رأى مني سيئة أفشاها.

وفي الأثر قال موسى: يا رب، كيف يستطيع ابن آدم أن يؤدي شكر ما صنعت إليه؟؛ خلقته بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنتك، ثم أمرت الملائكة فسجدوا له، فقال: يا موسى، علم أن ذلك مني فحمدني عليه، فكان ذلك شكر ما صنعت إليه.

وعن أبي قلابة قال: إن الله تبارك وتعالى قد أوسع عليكم، فليست بضائرتكم الدنيا إذا شكرتموها لله.

وروي عن بعض التابعين ﷺ أنه قال: من تظاهرت عليه النعم فليكثر ذكر الحمد لله، ومن كثرت همومه، فعليه بالاستغفار، ومن ألح عليه الفقر، فليكثر لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

حافظ على الشكر كي تستجزل القسما     من ضيع الشكر لم يستكمل النعما

الشـــكر لله كنز لا نفــــاد لـــــه من يلزم الشـــكر لم يكسب به ندما

## ٦٥- خَفْ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِه إِلَيْكَ وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَكَ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

كثير من الناس يقيس رضاه عن نفسه ورضا الله عنه بما أغدق عليه من نعم، وما أعطاه من جاه، وما أولاه من مال وبنين، ولا يدري أن النعم كما تكون منحة تكون محنة وابتلاء، ليرى الله مدى شكر العبد ومدى استخدامه لها وتعامله معها، ولذا حذر ابن عطاء رحمه الله مريديه من الاستدراج بالنعم، وأن الخوف من هذا الاستدراج من صفات المؤمنين، فهم دائما على وجل وخوف من الله عز وجل، وذلك لقوله في الحديث القدسي: (لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إن أخفته في الدنيا أمنته في الآخرة، وإن أمنته في الدنيا أخفته في الآخرة)[١]، وعدم الخوف من الاستدراج بالنعم مع الدوام على الإساءة من صفات الكافرين الجاحدين، نسأل الله السلامة من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وإذا أراد الله عز وجل خذلان من عصاه أمهله استدرجه، فإن زاد في طغيانه وقع له الاستدراج، والاستدراج أن يعامل الله العصاة والمجرمين باللطف والإحسان، مع تماديهم في الغي والإجرام، وذلك بأن يزيد الله نعمه عليهم، فيظنون أنها لطف من الله تعالى بهم، فيزدادون بطرا وانهماكا في الغي، حتى تحق عليهم كلمة العذاب، فكلما أحدثوا ذنبا، فتح الله عليهم بابا من أبواب الخير والنعم، فيزدادون بطرا وإمعانا في الغي والفساد، فتأتيه المرحلة الأخيرة وهي الأخذ دون إبطاء، فتكون رفعة الله له رفعة إهانة ليكون خفضه مهلكا وقاطعا، وليست رفعة تعزيز وتكريم.

وعلامة أصحاب الجاه في الدنيا وأصحاب الرياء المحبين لذلك أنهم إذا سمعوا الثناء والمحمدة أحبوا ذلك، وازدادوا عزة وإعجابا بأنفسهم، وغفلة عن الاستدراج، وتمادوا وتمنوا وطمعوا أن ما ظهر عليهم من أعمالهم كان أحب إليهم مما خفي، ولم يخافوا

---

(١) أخرجه البزار في الحديث رقم٨٠٢٨، مسند البزار ٣٤٢/١٤.

من فتنة ولا من آفة.

ولذا قيل: إن العبد بين تسع مخاوف، منها أن يخاف ويدعو الله ويتضرع إليه ألا يكله إلى حسناته التي يتعزز بها في عباد الله ظلما وعدوانا، وأن يخاف من كفران النعم التي قد غلب عليه البطر بها فأشغله عن الشكر عليها، وخوف الاستدراج بالنعم وتواترها.

وعن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾)(١).

والإبلاس اليأس من النجاة عند ورود الهلكة، وقال ابن عباس: أيسو من كل خير، وقال الزجاج: المبلس الشديد الحسرة اليائس الحزين.

وقال السري: من علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس.

وقيل: من علامات الاستدراج العمى عن العيوب، وصرف نعم الله في معاصيه.

وكان أبو بكر الوراق يقول: من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات.

وقال يحيى بن أبي كثير: علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس، ما ملكها عبد إلا عز، وما ملكت عبدا إلا ذل.

## ٦٦- مِنْ جَهْلِ الْمُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ الْأَدَبَ فَتُؤَخَّرُ الْعُقُوبَةُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَوْ كَانَ هَذَا سُوءُ أَدَبٍ لَقَطَعَ الإِمْدَادَ، وَأَوْجَبَ الإِبْعَادَ، فَقَدْ يَقْطَعُ المَدَدَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَنْعَ المَزِيدِ، وَقَدْ يُقَامُ مَقَامَ البُعْدِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يُخَلِّيَكَ وَمَا تُرِيدُ

إن الأدب هو أساس القوم، فمن زاد فيه فقد زاد في التصوف، فيجب على المريد

(١) أخرجه أحمد في الحديث رقم١٧٣١١، المسند ٥٤٧/٢٨.

أن يكون مؤدبا أولا مع الله عز وجل، ومع رسوله ﷺ، فلا يعترض عليه فيما قضاه، ولا يتبرم مما ابتلاه، ولا يجزع مما قدره، فيقول ليت هذا الأمر ما تم أو أنه وقع، أو يرفع صوته على النبي ﷺ، ولا يجله، ولا يقدره، ولا يسيده، أو يستهين بسنته، وثانيا أن يكون مؤدبا مع مشايخه، فلا يعترض على أفعالهم وأقوالهم، أو لا يقبل إشاراتهم فيما يشيرون به عليه، ويأخذ برأيه وهواه، أو أنه يسيء الأدب على بعض الناس بالازدراء بهم أو التهكم عليهم، فتؤخر العقوبة من الله عن هذا المريد، فلا يعاقب في الظاهر بالإفلاس والأسقام والأوجاع والبلايا، ولا في باطنه بحسب زعمه، فيقول: لو كان الذي فعلته سوء أدب لقطع الله عني الأمداد، وأغلق الأبواب، وأوجب الإبعاد، وإنما كان ذلك جهلا من المريد، لأن الله عز وجل قد يقطع المدد وأنت لا تشعر بذلك، ولو لم يكن من قطع المدد عنك إلا منع المزيد أي الزيادة في الإمداد، لكان ذلك كافيا في عقوبته.

وقد يقيمك الله في مقام البعد فتتخرط في الدنيا كالوحش، ومع الناس، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد وأنت لا تدري، فيسلط عليك نفسك، ويسلط الخلق عليك فيذيقوك العذاب، ويجعلوك في حيرة أو ترضى عن نفسك فتبتعد، وهذا جحيم لا يطاق، أو يسلط عليك السحرة والجن فتعرف أن الله حق، وأن سوء الأدب هو الذي جلب العطب، نعوذ بالله منه.

ولذا قال ابن عطاء: النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة، فمن أطلق عنانها فهو شريكها معها في فسادها.

وقيل: الراجون ثلاثة: رجل عمل حسنة، وهو صادق في عملها، مخلص فيها، يريد الله بها ويطلب ثوابه، فهو يرجو قبولها وثوابها ومعه الإشفاق فيها، ورجل عمل سيئة ثم تاب منها الى الله، فهو يرجو قبول توبته وثوابها، ويرجو العفو عنها والمغفرة لها، ومعه الإشفاق ألا يعاقبه عليها، وأما الثالث فهو الرجل يتمادى في الذنوب وفيما لا يحبه لنفسه، ولا يحب أن يلقى الله به، ويرجو المغفرة من غير توبة، وهو مع ذلك غير تائب منها ولا مقلع عنها، وهو مع ذلك يرجو، فهذا يقال له مفتر متعلق بالرجاء

الكاذب والأماني الكاذبة والطمع الكاذب، والقيام على هذا يقطع مواد عظمة الله من قلب العبد، فيدوم إعراضه عنه، ويأنس بجانب مكر الله، ويأمن تعجيل العقوبة، وهذا هو المفتر المخدوع المستدرج.

وإن من أشد العقوبة للمرء أن يخفى عليه عيبه، لأنه ليس بمقلع عن عيبه من لم يعرفه، وليس بنائل محاسن الناس من لم يعرفها.

وتعجيل العقوبة للمرء في الدنيا قد يكون رحمة له ونعمة من الله تستحق الشكر لو علم، فعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة)(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، قالت: قال رسول الله ﷺ: (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها)(٢).

ومن أصيب فصبر أو عوقب فحمد فإن الجائزة تناله والخير يكون عوضا له، فعن أم سلمة، زوج النبي ﷺ، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من عبد تصيبه مصيبة، فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها إلا أجره الله في مصيبته، وخلف له خيرا منها. قالت: فلما توفي أبو سلمة، قلت: من خير من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ. قالت: ثم عزم الله عز وجل لي، فقلتها، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها، قالت: فتزوجت رسول الله ﷺ)(٣).

ولذا قالوا: إن المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام كلها نعم من الله تعالى، إما أن تكون درجة وهذا للمقربين والمحسنين، وإما أن تكون كفارة، وهذا لخصوص أصحاب اليمين وللأبرار، أو تكون هذا عقوبة وهذا للكافة من المسلمين، فتعجيل العقوبة في الدنيا رحمة ونعمة ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين.

---

(١) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٢٣٩٦، سنن الترمذي ١٧٩/٤.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث رقم٥٦٤٠، الصحيح ١١٤/٧، وأخرجه مسلم في الحديث رقم٢٥٧٢، الصحيح ١٩٩٢/٤.

(٣) أخرجه أحمد في الحديث رقم٢٦٦٣٥، المسند ٢٤٧/٤٤.

**٦٧- إِذَا رَأَيْتَ عَبدًا أَقَامَهُ اللهُ تَعَالَى بِوُجُودِ الأَوْرَادِ، وَأَدَامَهُ عَلَيْهَا مَعَ طُولِ الإِمْدَادِ فَلاَ تَستَحْقِرَنَّ مَا مَنَحَهُ مَوْلاَهُ؛ لأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا الْعَارِفِينَ، وَلاَ بَهْجَةَ الْمُحِبِّينَ، فَلَوْلاَ وَارِدٌ مَا كَانَ وِرْدٌ**

إن ذكر الله في جميع الأوقات وعلى كل حال خير، وقد قسم الله الخلائق قسمين، منهم من أقامه في الأوراد، ومنهم من أقامه لمحبته فأورد عليه الأنوار.

فمن أقامه الله بوجوب الأوراد من صلاة وصيام وذكر وما إلى ذلك من أنواع الطاعات، وهؤلاء هم العباد والزهاد الذين عملوا من أجل رفع الدرجات في الجنات، فهم عملوا لحظوظهم، فإذا رأيت أحدا من هؤلاء أقامه الله بوجود الأوراد، وأدامه عليها مع طول الزمن والإمداد، أي مع التيسير في أدائها والمعونة على ذلك، فإياك أن تستحقر عمل هذا الشخص، لأن ذلك الذي هو عليه منحة من الله، فإنك ما فعلت ذلك معه إلا لأنك لم تر عليه سيما العارفين، أي علاماتهم من ترك حظوظ أنفسهم، والإقبال على ربهم، ولا بهجة المحبين من الشغف بمرضاته، ثم علل عدم الاستحقار بقوله: فلولا وارد ما كان ورود، أي فلولا تجلي المولى عز وجل على قلوب هؤلاء ما كان ورد، وكما يقولون لولا الأنوار ما كانت الأذكار، فما فيك يظهر على فيك، فهؤلاء لم يخرجوا عن دائرة العناية والرعاية، فهم مؤمنون بالله عز وجل، لكنهم لم يصلوا إلى درجة العارفين، فلا تحقرن أعمالهم ولا أحوالهم.

وقد نهى الله تعالى عن السخرية بأي حال، والاستهزاء بكل سبيل، وأمر المؤمن أن دع الناس وشأنهم، واتركهم وربهم، فلست تدري المقبول من غيره، ولا المعزز من الله من غيره، فرب من رأيته ذليلا يكون عند الله عزيزا، ومن رأيته عزيزا يكون عند الله أذل الأذلاء، وربما رأت مكثرا للخير ولكنه غير مقبول، ومقلا منه ولكنه عند الله محبوب مقبول، فالأمور بالنيات.

وقد حذر الله تعالى من السخرية فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ﴾[١].

وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: (دخلت علينا امرأة قصيرة، فلما خرجت قلت بيدي هكذا: ما أقصرها، فقال رسول الله ﷺ: اغتبتيها، قومي فتحلليها، قالت: فدخلت علينا امرأة تجر ذيلها، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، ما أطول ذيلها، فقال: اغتبتيها، فقومي فتحلليها)[٢].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، وحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)[٣].

وانظر إلى هذا الحديث الجليل في تطييب الخاطر، وعدم السخرية والتحقير، فقد روى خالد بن الوليد ﷺ قال: (ما أتى عليّ يوم قط كان أعظم علي من شأن عمار، لما كان يوم بعثني رسول ﷺ في أناس من أصحابه وأمرني عليهم، وكان في القوم عمار، فأصبنا قوما فيهم أهل بيت من المسلمين، فكلمني فيهم عمار وناس من المسلمين قالوا: خل سبيلهم، قلت: لا والله لا أفعل حتى يراهم رسول الله ﷺ، فيرى فيهم رأيه، فغضب علي عمار، فلما قدمت استأذنت على رسول الله ﷺ فهو يستخبرني وأنا أحدثه، فاستأذن عمار، فأذن له فدخل عمار، فقال: يا رسول الله، ألم تر خالدا فعل كذا وفعل كذا، فقلت: يا رسول الله، أما والله لولا مجلسك ما سبني ابن سمية، فقال رسول الله ﷺ: يا عمار اخرج، فخرج عمار وهو يبكي، ويقول: ما نصرني رسول الله ﷺ على خالد، فقال لي رسول الله ﷺ: ألا أجبت الرجل؟ قلت: ما منعني إن أجبته إلا محقرة له، فغضب رسول الله ﷺ فقال: إنه من يبغض عمارا يبغضه الله، ومن يسب عمارا يسبه الله، ومن يحقر عمارا يحقره الله، فخرجت من عند رسول الله ﷺ، فلم أزل

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٢.

(٢) أخرجه ابن وهب في الحديث رقم٥٥٨، الجامع ص٦٥٤، والبيهقي في الحديث رقم٦٣٤٣، شعب الإيمان ١١٥/٩.

(٣) أخرجه أحمد في الحديث رقم٨١٠٣، المسند ٤٦٦/١٣.

أطلب إلى عمار حتى استغفر لي)[١].

وإنما كان النهي عن التحقير لأن المسلم عزيز بإسلامه فكيف تحقره؟، يقول أبو بكر ﵁: لا تحقرن أحدا من المسلمين، فإن حقير المسلمين عند الله كبير.

وقيل: لا تحقرن أحداً مهما هان، فقد يضعه الزمان موضع من يرتجى وصاله وتخشى فعاله.

وقال بعض الحكماء: أربع من كن فيه فهو محروم من الخير كله: المتطاول على من تحته، والعاق لوالديه، ومن يحقر الغريب، ومن يعير المساكين لمسكنتهم.

وعن مطر الوراق قال: سألت الحسن عن مسألة، فقال فيها، فقلت: يا أبا سعيد يأبى عليك الفقهاء ويخالفونك، فقال: ثكلتك أمك مطر، وهل رأيت فقيها قط؟ وهل تدري ما الفقيه؟ الفقيه الورع الزاهد الذي لا يسخر ممن أسفل منه، ولا يهمز من فوقه، ولا يأخذ على علم علمه الله حطاما.

ومن يسخر من امرئ قد يصاب بما أصيب به من مرض أو عجز أو ما يدعو إلى السخرية به والاستهزاء منه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: مر رجل مصاب على نسوة فتضاحكن به يسخرن، فأصيب بعضهن.

ويكفي في وصف من يغتاب الناس ويعيبهم أنه لئيم، وقد سئل بعض الأدباء عن صفة اللئيم، فقال: اللئيم إذا غاب عاب، وإذا حضر اغتاب.

وجملة ذلك أن المؤمن الحق لا يمدح نفسه بما فيه، فكيف بما ليس فيه، يحذر من نفسه أن تغلبه على ما تهوى مما يسخط مولاه، لا يغتاب أحدا، ولا يحقر أحدا، ولا يسب أحدا، ولا يشمت بمصيبة، ولا يبغي على أحد، ولا يحسده، ولا يسيء الظن بأحد إلا بمن يستحق، يحسد بعلم، ويظن بعلم، ويتكلم بما في الإنسان من عيب بعلم، ويسكت عن حقيقة ما فيه بعلم.

نسأل الله الفهم والعلم، والتسليم لما يقضي ويقدر.

---

(١) أخرجه الحاكم في الحديث رقم٥٦٧٥، المستدرك ٤٤١/٣.

## ٦٨- قَوْمٌ أقَامَهُمْ الْحَقُّ لخدْمَته، وَقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّته، ﴿كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾

وهذه الحكمة لها علاقة قوية بالتي قبلها ومرتبطة بها، فلما تحدث ابن عطاء الله عن العباد الزهاد، وحذر من احتقار أعمالهم بيّن أن الناس صنفان، الصنف الأول وهم العباد والزهاد الذين أقامهم الله لخدمته، فصلحوا لجنته، وصنف آخر وهم العارفون، وقد اختصهم الله لمحبته حتى صلحوا لدخول حضرته، والكل منسوب إليه سبحانه وتعالى، لكن خدمة الأولين أكثرها بالجوارح، لأن الفعل يظهر على الجوارح، والآخرين أكثرها بالقلوب، لأن المحبة مكنونة في القلوب، وذلك بحسب القسمة الأزلية التي منحها لهم علام الغيوب، وهذا هو عطاء الله، ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[١]، فإذا علم العبد بهذه القسمة التي تمت في الأزل ما احتقر أحدٌ أحدا.

فإن أقامك الحق لخدمته وقمت بذلك فافرح، ولا تنظر لغيرك من أهل الحب فربما بلغت الدرجة يوما، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولكن العذاب الحقيقي أن يقيمك ويمنعك، يقول يوسف بن الحسين: إذا رأيت الله قد أقامك لطلب شيء وهو يمنعك ذلك فاعلم أنك معذب.

وقال: يتولد الإعجاب بالعمل من نسيان رؤية المنة فيما يجري الله لك من الطاعات.

ويقول أبو سليمان الداراني: ليس أعمال الخلق بالذي ترضيه ولا تسخطه، إنما رضي عن قوم، فاستعملهم بأعمال الرضا، وسخط على قوم، فاستعملهم بأعمال السخط.

وعن قتادة والحسن قالا: عرضت على آدم ذريته، فرأى فضل بعضهم على بعض، فقال: أي رب، أفلا سويت بينهم؟ قال: إني أحب أن أشكر.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٠.

فإن أردت أن تعرف من الذين يحبهم الله فانظر إلى ما يحب الله أن تفعله فافعله ولو كان أشق الأشياء إلى قلبك وبدنك، وانظر إلى ما يبغضه فاتركه ولو كان أحب الأشياء إليك.

وانظر إلى هذه الأقوال الناصعة في الحب، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: (إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانا فابغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فابغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض)[١].

وعن الحسن مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال: (ما جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ كتمها رجل، أو جرعة صبر عند مصيبة، وما قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع من خشية الله، وقطرة دم في سبيل الله)[٢].

وعن رجل من قريش رفع الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (يقول الله تبارك وتعالى: إن أحب عبادي إلي الذين يتحابون في، والذين يعمرون مساجدي، والذين يستغفرون بالأسحار، فأولئك الذين إذا أردت بخلقي عذابا ذكرتهم، فصرفت عذابي عن خلقي)[٣].

وإذا أردت أن يحبك الله فكن رفيقا بعباده، فعن عائشة قالت: (دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها، فقلت:

---

(١) متفق عليه ولفظه لمسلم، أخرجه في الحديث رقم٢٦٣٧، الصحيح ٢٠٣٠/٤، وأخرجه البخاري في الحديث رقم٧٤٨٥، الصحيح ١٤٢/٩.

(٢) أخرجه البيهقي في الحديث رقم٧٩٥٥، شعب الإيمان ٥٣٩/١٠.

(٣) أخرجه البيهقي في الحديث رقم٨٦٣٤، شعب الإيمان ٣٤٥/١١.

عليكم السام واللعنة، فقال النبي ﷺ: مهلا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله، قالت: فقلت: يا رسول الله، ألم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: فقد قلت: عليكم)(١).

إذا أردت أن يحبك الله فكن متخفيا متواضعا غير محب للظهور ولا متطلع للرياء والكبر، فعن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ قال لعروة بن مسعود الثقفي حين بعثته إليه قريش بالحديبية: (يا عروة، أللقوم رحم ليست لي؟ قال: إن الله ينهى عن عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، إن الله يحب الغني الخفي الخير التقي، ويبغض الفاحش البذيء السؤول الملحاف)(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن الله يحب ثلاثة، ويبغض ثلاثة: يبغض الشيخ الزاني، والفقير المختال، والمكثر البخيل، ويحب ثلاثة: رجل كان في كتيبة، فكَرَّ يحميهم حتى قتل، أو فتح الله عليه، ورجل كان في قوم فأدلجوا فنزلوا من آخر الليل، وكان النوم أحب إليهم مما يعدل به، فناموا وقام يتلو آياتي ويتملقني، ورجل كان في قوم فأتاهم رجل يسألهم بقرابة بينهم وبينه فبخلوا عنه، وخلف بأعقابهم فأعطاه حيث لا يراه إلا الله ومن أعطاه)(٣).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أنه خرج يوما إلى مسجد رسول الله ﷺ، فوجد معاذ بن جبل قاعدا عند قبر النبي ﷺ يبكي؟ فقال: ما يبكيك؟ قال: يبكيني شيء سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن يسير الرياء شرك، وإن من عادى لله وليا، فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يدعوا، ولم يعرفوا قلوبهم مصابيح

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٠٢٤، الصحيح ١٢/٨.

(٢) أخرجه ابن وهب في الحديث رقم١٥١، الجامع ص٢٣٠.

(٣) أخرجه أحمد في الحديث رقم٢١٣٥٦، المسند ٢٨٦/٣٥.

الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة)[١].

إذا أردت أن يحبك الله فليكن قلبك محزونا خوفا من الله تعالى وخشية منه، فعن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يحب كل قلب حزين)[٢].

إذا أردت أن يحبك الله فتخفى، واخش احتقار غيرك، ولا تبادر إلى الرياء وحب المدح والسمعة، فعن عائشة أم المؤمنين، قالت: (أهدت إليّ امرأة مسكينة هدية، فلم أقبلها منها رحمة لها، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: ألا قبلتيها منها وكافأتيها، فلا ترى أنك حقرتيها، تواضعي يا عائشة، فإن الله يحب المتواضعين، ويبغض المتكبرين)[٣].

ولنختم بهذا الدعاء الجميل لذي النون، والذي يقول فيه: تكلمت خدع الدنيا على ألسنة العلماء، وأماتت قلوب القراء فتن الدنيا، فلست ترى إلا جاهلا متحيرا، أو عالما مفتونا، فيا من جعل سمعي وعاء لعلم عجائبه، وقلبي منبعا لذكره، ويا مَنْ مَنّ علي بمواهبه، اجعلني بحبلك معتصما، وبجودك متمسكا، وبحبالك متصلا، وأكمل نعمتك عندي بدوام معرفتك في قلبي كما أكملت خلقي وسددتني للتي تبلغني إليك، واجعل ذلك مضموما إلى نعمائك عندي، واهدني للشكر حتى أعلم مكان الزيادة منك في قلبي، ولا تنزع محبتك من قلبي يا ذا الجلال والإكرام، والجمال والنور والبهاء، والحمد لله أولا وآخرا.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم٣٩٨٩، سنن ابن ماجه ١٣٢٠/٢.

(٢) أخرجه البزار في الحديث رقم٤١٥٠، مسند البزار ٨٣/١٠.

(٣) أخرجه الأصفهاني في حلية الأولياء ٢٠٤/٤.

## ٦٩- قَلَّمَا تَكُونُ الْوَارِدَاتُ الإِلَهِيَّةُ إِلاَّ بَغْتَةً، لِئَلاَّ يَدَّعِيَهَا الْعِبَادُ بِوُجُودِ الاسْتِعْدَادِ

يبين ابن عطاء الله أن الواردات لا تكون غالبا إلا منحة وعطية من الله عز وجل، وهي تأتي بغتة أي فجأة بدون استعداد لها بطاعة أو عبادة، لئلا يدعيها العباد أنها نتيجة لعباداتهم واجتهاداتهم واستعدادهم لها، فهي منح ربانية وهدايا قدسية، تعطى هدية بلا مقابل غالبا، وفي النادر تحصل بالاستعداد، فإذا عرف الإنسان ذلك تمسك بحب مولاه، لأنه ليس بعد الحب كرم، وليس بعد البعد إهانة.

والوارد ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون بتعمد العبد، وكذلك ما لا يكون من قبل الخواطر، فهو أيضا وارد، ثم قد يكون واردا من الحق، أو واردا من العلم، فالواردات أعم من الخواطر، لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب أو ما يتضمن معناه، والواردات تكون وارد سرور، ووارد حزن، ووارد قبض، ووارد بسط، إلى غير ذلك من المعاني.

فإن جعل الله تعالى لأحد واردا فعليك ألا تنكر عليه، ولا تحقره، ولا تدعي لنفسك مثله، فهذا فضل الله وحده، وفي الخبر: لا تحقروا عبدا آتاه الله تعالى علما، فإن الله تعالى لم يحقره إن جعل العلم عنده.

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا.

وفي مناجاة أيوب عليه السلام أن الله تبارك وتعالى أوحى إليه: ما من عبد لي من الآدميين إلا ومعه ملكان، فإذا شكر على نعمائي، قال الملكان: اللهم زده نعما على نعمه، فإنك أهل الشكر والحمد، فكن من الشاكرين قريبا، وزدهم شكرا، وزدهم من النعماء، وكفى بالشاكرين يا أيوب علو الرتبة عندي وعند ملائكتي، فأنا أشكر شكرهم، وملائكتي تدعو لهم، والبقاع تحبهم، والآثار تبكي عليهم، فكن لي يا أيوب شاكرا، ولآلائي ذاكرا، ولا تذكرني حتى أذكرك، ولا تشكرني حتى أشكر أعمالك، أنا أوفق أوليائي لصالح الأعمال، وأشكرهم على ما وفقتهم، وأقتضيهم الشكر، ورضيت به مكافأة، فرضيت بالقليل عن الكثير، وتقبلت القليل وجازيت عليه بالجزيل، وشر العبيد

عندي من لم يشكرني إلا في وقت حاجته، ولم يتضرع بين يدي إلا في وقت عقوبته.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ما استغنى أحد بالله إلا احتاج الناس إليه، وما عمل أحد بما علمه الله عز وجل إلا احتاج الناس إلى ما عنده.

ويقال: الناس يصبحون على ثلاثة أصناف، صنف في طلب المال، وصنف في طلب الإثم، وصنف في طلب الطريق، فأما من أصبح في طلب المال فإنه لا يأكل فوق ما رزقه الله تعالى، وإن كثر المال، ومن أصبح في طلب الإثم لحقه الهوان، ومن أصبح في طلب الطريق، آتاه الله تعالى الرزق والطريق.

## ٧٠- مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيباً عَنْ كُلِّ مَا سُئِلَ، وَمُعَبِّرًا عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ، وَذَاكِرًا كُلَّ مَا عَلِمَ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ جَهْلِهِ

إن أجهل الناس من رأيته مجيبا عن كل ما سئل عنه، وهذا يبين أنه عالم بكل شيء، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١)، ومعبرا عن كل ما شاهده، وهذا نوع من إفشاء أسرار الخلائق، وهو لا يجوز، وقد قال بعض العارفين: قلوب الأحرار قبور الأسرار، لذا اكتفى العارفون بالله بالإشارة دون العبارة.

وذاكرا لكل معلوم: وهذا لا يجوز، فقد يكون عنده علم لدني لا يجوز الإباحة به، كما قال عبدالله بن مسعود: علم يقال، وعلم إذا قيل قطع هذا، وأشار إلى رقبته، وكما قال بعض العارفين:

إني لأكتم من علمي جواهره ... كيلا يرى الحقَّ ذو جهلٍ فيُفتتَنا

ويكفي قول النبي ﷺ: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)(٢)، وهذا أمر مهم جدا للمريد، فافهم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه.

وقد قال الإمام الغزالي حين خروجه من خلوته:

قد كان ما كان مما لست أذكره ... فظن خيرا ولا تسأل عن السبب

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم٣٩٧٦، سنن ابن ماجه ١٣١٥/٢.

وقد كان الصحابة ﷺ ومن بعدهم من العارفين والتابعين يتدافعون الفتوى، ويخافون من التصدي لها، ونقل عنهم أنهم كانوا يتدافعون أربعة أشياء: الأمانة والوديعة والوصية والفتيا.

وقد قبض رسول الله ﷺ عن ألوف من صحابته كلهم علماء بالله، فقهاء عن الله تعالى، أهل رضوان من الله تعالى، ولم ينصب نفسه إلى الفتيا، ولا حملت عنه الأحكام والقضايا إلا بضعة عشر رجلا.

وكان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال: اذهب إلى الأمير الذي تقلد أمور الناس فضعها في عنقه.

وكان ابن مسعود يقول: إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يُسأل عن عشر مسائل، فيجيب عن مسألة، ويسكت عن تسعة.

وقال بعض العلماء: كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علما، وأشدهم دفعا لها وتوقفا عنها أروعهم.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومئة من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار إذا سئل أحدهم عن الشيء أحب أن يكفيه صاحبه.

وعن سفيان قال: أدركت الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا، ولا يفتون حتى لا يجدوا بدا من أن يفتوا.

ويقول: أدركت الناس ممن أدركت من العلماء والفقهاء، وهم يترادون المسائل، يكرهون أن يجيبوا فيها، فإذا أعفوا منها، كان ذلك أحب إليهم.

وقال بعض السلف: كان شغل الصحابة والتابعين بإحسان في خمسة أشياء: قراءة القرآن، وعمارة المساجد، وذكر الله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ورأى بعض أصحاب الحديث بعض فقهاء الكوفة من أهل الرأي بعد موته في المنام قال: فقلت له: ما فعلت فيما كنت عليه من الفتيا والرأي؟ قال: فكره وجهه وأعرض عني، وقال: ما وجدناه شيئا وما حمدنا عاقبته.

وعن علي بن نصر بن علي الجهضمي عن أبيه قال: رأيت الخليل بن أحمد في النوم بعد موته فقلت: ما أجد أعقل من الخليل لأسألنه، فقال لي: أرأيت ما كنا فيه؟ فإني لم أر شيئا ما رأيت أنفع من قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله، أكبر.

ولكن وقع التجرؤ بعد ذلك على دين الله تعالى، وتكلم الناس في كل شيء وأصبح الدين كلأ مباحا، ومرعى بلا حرس، فتصدى للعلم والفتوى من لا يفقه شيئا، ولقد كان الفقهاء والعلماء يسكتون وما بهم من عين ولا ينطقون وما بهم من جهل، ولكنه خوف التهجم على دين الله تعالى، وانتظار لمن هو أعلم منه أن يتكلم، فعن الحسن، قال: لقد أدركت أقواما، إن كان الرجل منهم ليجلس مع القوم فيرون أنه عيي، وما به من عي، إنه لفقيه مسلم.

وقال ابن حصين: إن أحدهم ليفتي في مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب ﵁ لجمع لها أهل بدر.

**٧١- إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الآخِرَةَ مَحَلاًّ لِجَزَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ لاَ تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ، وَلأَنَّهُ أَجَلَّ أَقْدَارَهُمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي دَارٍ لاَ بَقَاءَ لَهَا**

لقد روي أن آخر رجل يدخل الجنة له مثل الدنيا عشرة أضعاف، وهذا أقل أجر من الحنان المنان قديم الإحسان.

لقد أجّل الله عز وجل جزاء المؤمنين لأمرين:

الأمر الأول: أن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيه الله عز وجل لعباده المؤمنين من صنوف النعيم، فهذه الدار التي عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى، فتأمل نعيمها وسرورها، فإن من بَعُد من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى.

الأمر الثاني: أنه أجل أي أعظم لأقدارهم عن أن يجازيهم بها في دار الفناء، فإن الفاني لا قيمة له، ولو طالت مدته، فأراد الله عز وجل أن يعطيهم النعيم المقيم، وأن يمتعهم بالنظر إلى وجهه الكريم، وهذا غاية الغايات، وأكبر العطايا والهبات، نسأل

الله ألا يحرمنا والمؤمنين، آمين.

وإنما يكون ذلك بأن يضع الإنسان الآخرة والموت نصب عينيه ليفوز بهذا النعيم المقيم، يقول حجة الإسلام الغزالي رحمه الله: فإذا استيقظت، فارجع إلى ما عرفتك أولا، وداوم على هذا الترتيب بقية عمرك، فإن شقت عليك المداومة، فاصبر صبر المريض على مرارة الدواء انتظارا للشفاء، وتفكر في قصر عمرك، وإن عشت مثلا مائة سنة فهي قليلة بالإضافة إلى مقامك في الدار الآخرة، وهي أبد الآباد، وتأمل أنك كيف تتحمل المشقة والذل في طلب الدنيا شهرا أو سنة رجاء أن تستريح بها عشرين سنة مثلا، فكيف لا تتحمل ذلك أيام قلائل رجاء الاستراحة أبد الآباد! ولا تطيل أملك فيثقل عليك عملك، وقل قرب الموت، وقل في نفسك: إني أتحمل المشقة اليوم فلعلي أموت الليلة، وأصبر الليلة فلعلى أموت غدا؛ فإن الموت لا يهجم في وقت مخصوص، وحال مخصوص، فلا بد من هجومه؛ فالاستعداد له أولى من الاستعداد للدنيا، وأنت تعلم أنك لا تبقى فيها إلا مدة يسيرة، ولعله لم يبق من أجلك إلا يوم واحد، أو نفس واحد؛ فقدر هذا في قلبك كل يوم، وكلف نفسك الصبر على طاعة الله يوما فيوما، فإنك لو قدّرت البقاء خمسين سنة، وألزمتها الصبر على طاعة الله تعالى نفرت واستعصت عليك، فإن فعلت ذلك فرحت عند الموت فرحا لا آخر له، وإن سوفت وتساهلت جاءك الموت في وقت لا تحتسبه، وتحسرت تحسرا لا آخر له، وعند الصباح يحمد القوم السرى، وعند الموت يأتيك الخبر اليقين، ولتعلمن نبأه بعد حين.

وأما وصفها فيكفي أن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهي بها في مقام أمين، في جنات وعيون، في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لا يرهقهم قتر ولا ذلة، بل عباد مكرمون، وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون، فهم فيما اشتهيت أنفسهم خالدون، لا يخافون فيها ولا يحزنون، وهم من ريب المنون آمنون، فهم فيها يتنعمون، ويأكلون من أطعمتها، ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا في أنهار أراضيها من فضة، وحصباؤها مرجان، وعلى أرض ترابها مسك أذفر،

ونباتها زعفران، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور، ويؤتون بأكواب وأي أكواب، بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان، كوب فيه من الرحيق المختوم، ممزوج به السلسبيل العذب، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره، يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته، لم يصنعه آدمي فيقصر في تسوية صنعته، وتحسين صناعته، في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته، وحسن أصداغه، وملاحة أحداقه.

فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها، ويوقن بأنه لا يموت أهلها، ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها، ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها، كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها؟ ويتهنأ بعيش دونها؟.

والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان، مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها، وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته، كيف وأهلها ملوك آمنون، وفي أنواع السرير ممتعون، لهم فيها كل ما يشتهون، وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون، وإلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون، وهم من زوالها آمنون.

## ٧٢- مَنْ وَجَدَ ثَمْرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلاً فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ القَبُولِ آجِلاً

إن العاجل يدل على الآجل، والنهاية نتيجة للبداية، فمن وجد ثمرة عمله الصالح عاجلا من اطمئنان لقلبه، ورضا لنفسه، وزهد في الدنيا، وعدم الإقبال عليها، وحدوث الواردات له، والإلهامات، والإشراقات، والمكاشفات، وحلاوة المناجاة والأنس بالله، والوحشة من غيره، هذا كله دليل على وجود القبول آجلا، وذلك لقول الله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا

---

(١) سورة النحل الآية ٩٧.

بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(١).

لذا قال بعض العارفين: من لم يدخل في دنياه جنة المعارف لا يدخل في أخراه جنة المكارم، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(٢).

وإنما تكون ثمرة العمل بحلاوة العبادة، والتلذذ بالطاعة، ولا يوجد ذلك إلا بالإقبال على الله تعالى والإخلاص له، ولذا قال بعض الحكماء: لا يجد الرجل حلاوة العبادة حتى يدخل في العبادة بالنية، ويرى المنة لله، ويعمل بالخشية، ويسلمه بالإخلاص، لأنه إذا دخل فيه بالنية، فيعلم أن الله تعالى قد وفقه لذلك العمل، وإذا رأى لله عليه المنة فيدخل فيه بالشكر ، فكان له من الله الزيادة.

وقيل: أفضل سرور المؤمن في الدنيا سروره بربه، وبأنه عبده، وتصديق ذلك يكون بمراقبته ومناجاته، وبكل ما يعمل له، وعلامة أنسه بعمله وجود حلاوة العمل له وشدة الحب لخدمته، ومحال أن يستأنس العامل بعمله وهو غير مستأنس بمن يعمل له أو غير خائف منه.

ومن ادعى حلاوة العبادة وقبول الطاعة مع وجود ما ينافرها فإنما يضحك على نفسه، ويرائي بعمله، فقد قال بعض الحكماء: من ادعى ثلاثا بغير ثلاث فاعلم أن الشيطان يسخر منه، أولها: من ادعى حلاوة ذكر الله مع حب الدنيا، والثاني: من ادعى رضا خالقه من غير سخط نفسه، والثالث: من ادعى الإخلاص مع حب ثناء المخلوقين.

وقد يكون العبد واجدا لحلاوة الهوى في الصلاة والتلاوة، وهو يظن أن ذلك حلاوة الإخلاص، وهذا من دقيق شأن الشهوة الخفية ولطيف الانتقاص، وقد يلتبس ذلك على الضعفاء، ولا يفطن له إلا العلماء، وإنما يجد حلاوة الإخلاص الزاهدون في الدنيا وفي

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٨.

(٢) سورة الفجر الآيات من ٢٧- ٣٠.

مدح الناس لهم به، ويتلذذون بنصح المعاملة، وصدق الخدمة، المحبون لله عز وجل، الخائفون منه، واعتبارُ فقْدِ ذلك بأحد شيئين: سقوط النفس باستواء المدح والذم، وهذا حال في مقام الزهد، أو الخلو من القلب بشهادة اليقين، وهذا في مقام المعرفة، وفي هذين المقامين يستوي السر والعلانية، وقد تكون العلانية أفضل لأئمة التقوى والعدل.

وعن أبي العالية قال: يأتي على الناس زمان تخرب صدورهم من القرآن، ولا يجدون له حلاوة ولا لذاذة، إن قصروا عما أمروا به قالوا: إن الله غفور رحيم، وإن عملوا بما نهوا عنه قالوا: سيغفر لنا، إنا لم نشرك بالله شيئا، أمرهم كله طمع، ليس معه صدق، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أفضلهم في دينه المداهن.

وقد سئل وهيب بن الورد: هل يجد العاصي حلاوة الطاعة؟ قال: لا، ولا من همّ بمعصية.

وقال بشر بن الحارث: لا يجد من يحب الدنيا حلاوة العبادة.

واحذر أيها المريد فإن التغافل عما يكره الله قسوة في القلب، وفي قساوة القلب ذهاب حلاوة الأعمال، وفي ذهاب حلاوة الأعمال قلة الطاعات، وفي قلة الطاعات قلة الشكر، وفي ترك الشكر فساد ما عملت، وحرمان ما طلبت، وانقطاع الزيادة.

وأما علامة القبول للمذنب فهو صدق التوبة، وقد قال بعض السلف: من علامة صدق التائب في توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة، وبفرح ركوب الذنب الحزن عليه، والسرور بحسن الإنابة.

لكن أحذرك أيها المريد كل التحذير أن تجد الحلاوة والراحة في الدنيا والمكاشفات، فتركن إليها، فتكون كمن آثر النعمة على المنعم، فتهلك والعياذ بالله، نسأل الله السلامة.

## ٧٣- إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ فَانْظُرْ في مَاذَا يُقِيمُكَ

وهذ الحكمة توافق الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: (إن لله عز وجل سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في

الأرض، فارتعوا في رياض الجنة، قالوا: وأين رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا في ذكر الله عز وجل، واذكروه بأنفسكم، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله عز وجل ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه)(١).

فبقدر منزلة الله عندك تكون منزلتك لديه، وبقدر إقبالك على الله يكون إقبال الله عليك، وقد قيل: إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما أقامك، فإذا أقامك الله في الطاعة والعبادة والذكر، مع عدم الكبر والعجب والرياء، فهذا دليل على حبه لك، وإن أقامك الله في المعصية مع الكبر والعجب، فهذا دليل على غضبه عليك، وكذلك لو أقامك في الطاعة مع الكبر والعجب بها.

وإن أردت مقياسا لذلك فاستمع إلى ما جاء في الأحاديث والآثار وأقوال العلماء، وقس نفسك عليها، فإن وجدت خيرا فاحمد الله، وإن وجدت غير ذلك فظن بنفسك شرا واعدلها إلى وجهة سليمة.

فإذا أقامك في استعماله فهذا قدرك عنده، فعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله. قالوا: يا نبي الله وكيف يستعمله؟ قال: يوفقه لعمل صالح قبل موته ثم يقبضه عليه)(٢).

وعن عمرو بن الحمق ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إذا أراد الله بعبد خيرا عسله. قيل: يا رسول الله وما عسله؟ قال: يفتح له عملا صالحا قبل موته حتى يرضى عنه من حوله)(٣).

وإذا أقامك في موضع غنى في قلبك فقد أراد بك خيرا، فعن الحسن مرفوعا عن رسول الله ﷺ قال: (إذا أراد الله بعبد خيرا جعل غناه في قلبه، وكف عليه ضيعته، وإذا

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في الحديث رقم١١٠٧، المسند ص٣٣٣.

(٢) أخرجه أحمد في الحديث رقم٢٣٥٣، الزهد ص٣٢٢.

(٣) أخرجه البيهقي في الحديث رقم٨١٨، الزهد الكبير ص٣٠٨.

أراد الله بعبد شرا جعل فقره بين عينيه، وأفشى عليه ضيعته)[١].

وإذا أقامك في مقام الزهد في الدنيا فقد أراد بك خيرا، فعن محمد بن كعب القرظي، قال: إذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا، وفقهه في الدين، وبصره عيوبه، ومن أوتيهن أوتي خير الدنيا والآخرة.

وإذا جعل لك واعظا من نفسك فقد أقامك في مقام خير، فعن ابن سيرين قال: إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه يأمره وينهاه، قال: ويجري الله الخير على يدي من يشاء أو الشر على يدي من يشاء.

وإذا فتح لك باب العمل وألهاك عن الجدل فقد أراد بك خيرا، فقد قال بعض العارفين: إذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد سوءً أغلق عنه باب العمل، وفتح عليه باب الجدل.

وإذا بصرك بعيوبك فقد أقامك في مقام خير، فقد قيل: إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عين نفسه.

وقيل: إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه، ومن سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مرجو الحال، وأمره أقرب من المغرور المزكي لنفسه، الممتن على الله بعمله وعلمه، الظان أنه من خيار خلقه.

وإذا أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب، ولذلك قيل: لا يخلو المؤمن من علة أو قلة أو زلة.

وقد روي أن الله تعالى يقول: الفقر سجني، والمرض قيدي، أحبس به من أحب من خلقي، فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأي خير يزيد عليه، ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه، فالعافية في ترك

---

(١) أخرجه أحمد في الحديث رقم١٦٤٩، الزهد ص٢٣٢.

المعاصي، وقد قال بعض العارفين لإنسان: كيف كنت بعدي؟ قال: في عافية، قال: إن كنت لم تعص الله عز وجل فأنت في عافية، وإن كنت قد عصيته فأي داء أدوأ من المعصية، ما عوفي من عصى الله.

وإذا أقامك في مقام المتبصر بالدنيا والآخرة فقد أراد بك خيرا، فعن خالد بن معدان قال: ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيرا فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما ما وعد الله بالغيب، وإذا أراد الله به غير ذلك تركه على ما فيه.

وإذا أقامك في مقام الطاعة فقد أحبك وأراد بك خيرا، فقد كتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن مخلد: أما بعد: فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله، فإذا أحبه الله، حببه إلى خلقه، وإن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، فإذا أبغضه الله بغضه إلى خلقه.

وأخيرا إذا أقامك في مقام خير قبل موتك ليقبضك عليه فقد أراد بك الخير كله، فعن عائشة قالت: إذا أراد الله بعبد خيراً قيض به قبل موته بعام ملكاً فسدده ووفقه حتى يقول الناس: مات فلان خير ما كان، فإذا أحضر ورأى ثوابه تهوع(١) نفسه، أو قال تهوعت نفسه، فذلك حين أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإذا أراد الله بعبده شراً قيض له قبل موته بعام شيطاناً، فأضله وفتنه، حتى يقول الناس: مات فلان شر ما كان، فإذا أحضر ورأى ما ينزل به من العذاب تبلغ نفسه، فذلك حين يكره لقاء الله، وكره الله لقاءه.

نسأل الله عز وجل أن يقيمنا في خير، وأن يريد بنا الخير، ويرزقنا حبه وحب من يحبه، والعمل بكل ما يحبه.

---

(١) **تهوع**: يعني أخرج من نفسه هواعة، وهو استدعاء القيء، ويقصد أنه يريد إخراج نفسه عاجلا ليلقى الله عز وجل.

## ٧٤- مَتَى رَزَقَك الطَّاعةَ والغِنَى بِهِ عَنْهَا، فَاعلَمْ أَنَّهُ قَد أَسْبَغَ علَيكَ نِعَمَهُ ظاهِرةً وباطِنةً

يجب على الإنسان أن يؤدي العبادات والطاعات، وأن يأتمر بأوامر الله، وأن ينتهي عما حرمه الله، هذا في الظاهر، ولكن في الباطن لا يعتمد على هذه الطاعات، ويعلم تماما أن الله هو الذي وفقه إليها، فلولاه ما صلينا ولا زكينا، فأنزلن سكينة علينا، كان أبو بكر الصديق يقول: إني لأصلي الركعتين وأنصرف عنها كأني أنصرف عن السرقة استحياء من الله، فلا يباهي بطاعته، ولا يفتخر بها فهي منة من الغفور الرحيم، ففرح الإنسان بمولاه لا بالطاعة، فيجب على الإنسان أن يقيم الطاعات في الظاهر، وأن يتعلق بالله عز وجل في الباطن، وهذه غاية العارفين من رب العالمين.

ورزق الطاعة ليس بالأمر الهين، بل هو توفيق من الله تعالى يستحق الشكر أن هيأ جوارحك لعبادته، وملأ قلبك بحبه، ورزقك العبودية له جل وعلا، إذ لا حول لعبد عن معصيته إلا برحمته، ولا قوة لعبد على طاعته إلا بمحبته، ولفت النظر إلى هذا الأمر كان دأب العلماء والعارفين والصحابة الفقهاء الأجلاء، فهذا مجاهد يقول: قال لي عبد الله بن عمر: إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من حياتك قبل موتك، ومن صحتك قبل سقمك، فإنك لا تدري ما اسمك غدا، من قصر أمله أكرمه الله تعالى بأربع كرامات:

إحداها: أن يقويه على طاعته، لأن العبد إذا علم أنه يموت عن قريب لا يهتم بما يستقبله من المكروه، ويجتهد في الطاعات فيكثر عمله.

والثاني: يقل همومه، لأنه إذا علم أنه يموت عن قريب لا يهتم بما يستقبله من المكروه.

والثالث: يجعله راضيا بالقليل، لأنه إذا علم أنه يموت عن قريب فإنه لا يطلب الكثرة، وإنما يكون همه هم آخرته.

والرابع: أن ينور قلبه؛ لأنه يقال نور القلب من أربعة أشياء: أولها: بطن جائع، والثاني: صاحب صالح، والثالث: حفظ الذنب القديم، والرابع: قصر الأمل.

فإن من طال أمله عاقبه الله تعالى بأربعة أشياء: أولها: أن يتكاسل عن الطاعات، والثاني: أن يكثر همومه في الدنيا، والثالث: أن يصير حريصا على جمع المال، والرابع: أن يقسو قلبه، لأنه يقال قسوة القلب من أربعة أشياء: أولها: بطن ممتلئ، والثاني: صحبة صاحب السوء، والثالث: نسيان الذنوب الماضية، والرابع: طول الأمل.

ولن تتأتى لك الطاعة وحلاوتها، والعبادة ولذاذتها إلا بالخوف من الله والخشية له، ولذا قال بعض الحكماء: من أصبح لزمه أمران: الأمن، والخوف، فأما الأمن، فهو أن يكون آمنا بما تكفل الله له من أمر رزقه، وأما الخوف، فهو أن يكون خائفا فيما أمر به حتى يتمه، فإذا فعل هذين أكرمه الله بشيئين: أحدهما: القناعة بما يعطيه، والثاني: حلاوة طاعته.

وخرج أحد الزهاد في يوم عيد في هيئة رثة فقيل له: لم تخرج في مثل هذا اليوم في مثل هذه الهيئة، والناس متزينون؟ فقال: ما يتزين لله تعالى بمثل طاعته.

وقال لقمان لابنه: يا بني، اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة.

وعن أبي خيرة قال: دخلنا على بكر بن عبد الله نعوده، فوافقناه وقد قام لحاجته قال: فجلسنا في البيت، فأقبل إلينا يهادى بين رجلين، فسلم ثم نظر في وجوهنا، فقال: رحم الله عبدا أعطي قوة فعمل بها في طاعة الله، أو قصر به ضعف فكف عن محارم الله عز وجل.

وعن مجاهد قال: لو أن رجلا أنفق مثل أحد في طاعة الله لم يكن من المسرفين.

وكان يزيد بن ميسرة يقول: لا تضر نعمة معها شكر، ولا بلاء معه صبر، ولا بلاء في طاعة، طاعة الله خير من نعمة في معصية الله.

ومتى وفقك الله لطاعة فلا تغتر بها، ولا تلم غير الطائع، فإنك لا تدري على من رضي الله تعالى، ولا تدري من يختم الله له بالخير، فرب عامل بالشر ظاهرا، وقلبه مليء بالخير باطنا، ورب مظاهر بالخير وقلبه أسود من الدخل الذي فيه، ولذا قال محمد بن كعب القرظي: لا تعير أخا لي، واحذر شيطانك، وإذا رأيتم الأخ من إخوانكم

قد استحوذ عليه الشيطان، فإن استطعتم أن لا تكونوا عوانا للشيطان عليه فافعلوا، وسلوا ربكم العفو والعافية، ولا تعيروه، وادعوه، وآنسوه، وجالسوه، وإذا رأيتم الأخ من إخوانكم يعمل شيئا من طاعة الله عز وجل، فإن استطعتم أن تكونوا خيرا منه فافعلوا، فقد أمرتم أن تسابقوا بالخيرات.

## ٧٥- خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ

هذه الحكمة واضحة، لأن خير ما تطلبه من الله عز وجل هو ما طلبه منك وهو الاستقامة، وهي خير كرامة، وأن يقيمك في مقام العبودية المحضة لله عز وجل، وهذا خير ما يطلبه العبد من ربه، فإن تحقق له ذلك كان الكون بيديه.

وأصل الاستقامة في ثلاثة: اتباع الكتاب، والسنة، ولزوم الجماعة.

وحقيقة الاستقامة أن لا يقابل ما استقبل من عمره بمثل ما وقع الاعوجاج به، وأن يتبع سبيل من أناب إلى الله، وأن لا يصحب جاهلا فيرديه، ثم الاشتغال بإصلاح ما أفسد في أيام بطالته، ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوا، فإن الله عز وجل لا يصلح عمل المفسدين، كما لا يضيع أجر المحسنين، ثم الاستبدال بالصالحات من السيئات والصالحات من الحسنات، ليكون ممن تبدل سيئاته حسنات، لتحققه بالتوبة وحسن الإنابة، لأن التبديل يكون في الدنيا، يبدل بالأعمال السيئة أعمالا حسنة.

واعلم أن الذي قطع العباد عن التوبة، وعرج بالتائبين عن الاستقامة ثلاثة أشياء: الكسب، والإنفاق، والجمع، وهذه الأسباب متعلقة بالخلق، وموجودة بوجودهم، ومفقودة بالانفراد عنهم، فمن زهد في هذه الثلاثة فقد زهد في الخلق، ومن رغب في الخلق فقد رغب في هذه الثلاث، وقال الثوري: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راياهم، ومن راياهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا.

يقول الضحاك: سمعت بلال بن سعد يقول: عباد الرحمن، أما ما وكلكم الله به فتضيعون، وأما ما تكفل الله لكم به فتطلبون، ما هكذا نعت الله عباده المؤمنين، أذوو

عقول في طلب الدنيا، وبَلَهٍ عما خلقتم له؟ فكما ترجون الله بما تؤدون من طاعته، فكذلك أشفقوا من عقاب الله بما تنتهكون من معاصي الله.

وعن الهيثم بن عمران قال: سمعت كلثوم بن عياض القشيري، وهو على منبر دمشق ليالي هشام وهو يقول: من آثر الله آثره الله، فرحم الله عبدا استعان بنعمته على طاعته، ولم يستعن بنعمته على معصيته، فإنه لا يأتي على صاحب الحسنة ساعة إلا وهو مزاد صنفا من النعيم لا يكون يعرفه، ولا يأتي على صاحب العذاب ساعة إلا وهو مستنكر لشيء من العذاب لا يكون يعرفه.

أقامنا الله على طريق الحق والاستقامة، وهدانا إلى صراطه المستقيم.

## ٧٦- الحُزْنُ عَلَى فُقْدانِ الطّاعةِ مَعَ عَدَمِ النُّهوضِ إلَيْها مِنْ عَلاماتِ الاغْتِرارِ

هناك حزن صادق، وهناك حزن كاذب، فالحزن الكاذب على فقدان الطاعة وعدم وجودها في الحال مع عدم النهوض إليها في المستقبل، وهذا كجلوس الإنسان وبكائه على اللبن المسكوب، وهو من علامات الاغترار بالله عز وجل، والتعلق بما لا حقيقة له، وهذا شأن المنافقين.

وأما الحزن الصادق فهو البكاء على فوات الطاعات، والنهوض إليها، والحزن عليها، والتوبة منها، وهذا شأن الصالحين الأخيار، فهم بحزنهم هذا يقطعون من طريق الله تعالى في شهر ما لا يقطعه غيرهم في سنة، وهذا شأن النبي ﷺ في أغلب أحواله كان دائم الحزن، دائم الفكر، دائم الأوبة إلى الله عز وجل.

ولذا لما سئل أحد العارفين: من أرجا الناس لقبول التوبة منهم؟، قال: أشدهم خوفا، وأصدقهم ندامة على ما كان منه، وما شاهده الله واطلع عليه من زلله وخطله، وطول غفلته ودوام إعراضه، وأحسنهم تحفظا فيما يستقبل، وإن استووا في ذلك فأشدهم اجتهادا في العمل، لأن علامة صدق الندم على ما مضى من الذنوب، وشدة التحفظ فيما بقي من العمر، ومواثبة الطاعة بالجد والاجتهاد، واستقلال كثير الطاعة، واستكثار قليل النعمة، مع رقة القلب وصفائه، وطهارته، ودوام الحزن فيه، وكثرة البكاء

والتفويض الى الله تعالى في جميع الأمور، والتبري إليه من الحول والقوة، ثم الصبر بعد ذلك على أحكام الله عز وجل، والرضا عنه في جميعها، والتسليم لأموره كلها.

وقال حاتم الأصم: لا تغتر بموضع صالح، فلا مكان أصلح من الجنة، فلقي آدم عليه السلام فيها ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة، فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي، ولا تغتر بكثرة العلم، فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي، ولا تغتر برؤية الصالحين، فلا شخص أكبر قدرا من المصطفى ﷺ ولم ينتفع بلقائه أقاربه أو أعداؤه.

وقال السري: إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرات، مخافة أن يكون قد أسود وجهي.

وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال: إني اجترأت البارحة على الله، سألته الجنة.

وقال ذو النون المصري: قلت لعليم: لم سميت مجنونا؟ قال: لما طال حبسي عنه صرت مجنونا لخوف فراقه.

### ٧٧- مَا الْعَارِفُ مَنْ إذَا أَشَارَ وَجَدَ الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ، بَلِ الْعَارِفُ مَنْ لاَ إِشَارَةَ لَهُ لِفَنَائِهِ فِي وُجُودِهِ وَانْطِوَائِهِ فِي شُهُودِهِ

هذه الحكمة لها أهمية كبرى في طريق المعرفة والزهد، لأنها تحدثت عن العارف الحقيقي، وعن معنى الفناء في الله وكيفيته، فقال: ليس العارف الكامل المعرفة من إذا أشار إلى شيء من أسرار التوحيد وجد الحق تعالى وشهده قبل تلك الإشارة، لأنه حينئذ يكون باقيا مع نفسه، ونفسه من الأكوان، ويلاحظ أن هناك إشارة ومشير، فهو مع الأغيار، وليس مع الله عز وجل، إنما العارف الكامل من لا إشارة له أصلا مشهودة، لفناء صفاته في صفات الله عز وجل، فلا يشهد إلا الله، فانطوى في شهوده وأصبح لا شهود له، ولا إشارة له.

والإشارة عند الصوفية هي إفادة أسرار التوحيد بالكناية والتلويح، وهذا هو مقام

الجمع الذي تكلم عنه الصوفية، ولذلك قال بعضهم: من تكلم في مقام الجمع فليس بمتكلم، وإنما المتكلم هو الحق سبحانه على لسان عبده، لقول الله عز وجل في الحديث القدسي (فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها)(١).

وقال الشبلي ﷺ: وكل إشارة أشار بها الخلق إلى الحق فهي مردودة عليهم، حتى يشيروا إلى الحق بالحق، وليس لهم إلى ذلك طريق.

وتكلم بعضهم عن الفناء فقال: الفناء هو أن تبدو العظمة على العبد، فتنسيه الدنيا والآخرة، والدرجات والأحوال، والمقامات والأذكار، وتفنيه عن كل شيء، حتى عن نفسه، وعن الأشياء، وعن فنائه عن الفناء، فيستغرق في التعظيم.

وقد يحدث ذلك للأولياء، فيكون فناء جزئي أي بعض الوقت، ويسمونه بالجمع، ولا تطيب له الحياة الدنيا بعد ذلك، ثم يفرقه ليرى آلام ومرارة البعد التي تنقطع منها الأكباد، وقد يكون الفناء بالكلية كالمجذوب، ولعدم المعرفة بالفناء والجمع والتفريق فإن ذلك لا يعرف إلا بالمذاق، والكتابة في هذا لا يسعها مجلدات، ولكن خوفا من الغرق في بحار الأنوار جلسنا على الشاطئ حتى يأذن الغفار، وقد تكلم علماء الظاهر فيما لا يعرفون، وكفروا أنقياء وأصفياء هذه الأمة، نظرا لعدم معرفتهم بذلك، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

ولذا أدرك الصحابة ذلك مما علمهم النبي ﷺ، فقد كانوا يتخافون بالحب، ويستترون بالعبادة كما يستتر غيرهم من المعاصي، فقد مرّ عمر ﷺ على معاذ ﷺ وهو يبكي، قريبا من قبر رسول الله ﷺ فقال: (على نبيك تبكي؟ يعني النبي ﷺ، قال: لا، ولكني سمعته يقول في هذا المكان: قليل الرياء شرك، وسمعته يقول: إن خيار عباد الله الأتقياء الأخفياء، الذين إن شهدوا لم يعرفوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، قلوبهم

---

(١) سبق تخريجه.

مصابيح الهدى، ينجيهم الله من كل غبراء مظلمة)(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (بينا رسول الله ﷺ في حلقة من أصحابه إذ قال: ليصلين معكم غدا رجل من أهل الجنة. قال أبو هريرة: فطمعت أن أكون أنا ذلك الرجل، فغدوت فصليت خلف النبي ﷺ، فأقمت في المسجد حتى انصرف الناس وبقيت أنا وهو، فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل أسود متزر بخرقة، مرتد برقعة، فجاء حتى وضع يده في يد رسول الله ﷺ ثم قال: يا نبي الله، ادع الله لي، فدعا النبي ﷺ له بالشهادة وإنا لنجد منه ريح المسك الأذفر، فقلت: يا رسول الله أهو هو؟ قال: نعم، إنه لمملوك لبني فلان. قلت: أفلا تشتريه فتعتقه يا نبي الله؟ قال: وأنى لي ذلك، إن كان الله تعالى يريد أن يجعله من ملوك الجنة يا أبا هريرة، إن لأهل الجنة ملوكا وسادة، وإن هذا الأسود أصبح من ملوك الجنة وسادتهم، يا أبا هريرة إن الله تعالى يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء، الشعثة رءوسهم، المغبرة وجوههم، الخمصة بطونهم إلا من كسب الحلال، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإن خطبوا المتنعمات لم ينكحوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يدعوا، وإن طلعوا لم يفرح بطلعتهم، وإن مرضوا لم يعادوا، وإن ماتوا لم يشهدوا. قالوا: يا رسول الله، كيف لنا برجل منهم؟ قال: ذاك أويس القرني. قالوا: وما أويس القرني؟ قال: أشهل ذو صهوبة، بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة، آدم شديد الأدمة، ضارب بذقنه إلى صدره، رام بذقنه إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله، يتلو القرآن يبكي على نفسه، ذو طمرين لا يؤبه له، متزر بإزار صوف، ورداء صوف، مجهول في أهل الأرض، معروف في أهل السماء، لو أقسم على الله لأبر قسمه، ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء، ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد ادخلوا الجنة، ويقال لأويس: قف فاشفع، فيشفعه الله عز وجل في مثل عدد ربيعة ومضر، يا عمر، ويا علي إذا أنتما لقيتماه فاطلبا إليه أن يستغفر لكما، يغفر الله تعالى لكما. قال: فمكثا يطلبانه عشر سنين، لا يقدران عليه،

---

(١) سبق تخريجه.

فلما كان في آخر السنة التي هلك فيها عمر في ذلك العام قام على أبي قبيس فنادى بأعلى صوته يا أهل الحجيج من أهل اليمن أفيكم أويس من مراد؟ فقام شيخ كبير طويل اللحية فقال: إنا لا ندري ما أويس، ولكن ابن أخ لي يقال له أويس، وهو أخمل ذكرا، وأقل مالا، وأهون أمرا من أن نرفعه إليك، وإنه ليرعى إبلنا، حقير بين أظهرنا، فعمّى عليه عمر، كأنه لا يريده، قال: أين ابن أخيك هذا أبحَرَمِنا هو؟ قال: نعم. قال: وأين يصاب؟ قال: بأراك عرفات. قال: فركب عمر وعلي سراعا إلى عرفات، فإذا هو قائم يصلي إلى شجرة، والإبل حوله ترعى، فشدا حماريهما، ثم أقبلا إليه، فقالا: السلام عليك ورحمة الله، فخفف أويس الصلاة، ثم قال: السلام عليكما ورحمة الله وبركاته قالا: من الرجل؟ قال: راعي إبل وأجير قوم. قالا: لسنا نسألك عن الرعاية، ولا عن الإجارة، ما اسمك؟ قال: عبد الله، قالا: قد علمنا أن أهل السماوات والأرض كلهم عبيد الله، فما اسمك الذي سمتك أمك؟ قال: يا هذان ما تريدان إلي؟ قالا: وصف لنا محمد ﷺ أويسا القرني، فقد عرفنا الصهوبة والشهولة، وأخبرنا أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء، فأوضحها لنا، فإن كان بك فأنت هو، فأوضح منكبه فإذا اللمعة، فابتدراه يقبلانه، قالا: نشهد أنك أويس القرني، فاستغفر لنا يغفر الله لك. قال: ما أخص باستغفاري نفسي ولا أحدا من ولد آدم، ولكنه في البر والبحر، في المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، يا هذان قد أشهر الله لكما حالي، وعرفكما أمري، فمن أنتما؟ قال علي رضي الله عنه: أما هذا فعمر أمير المؤمنين، وأما أنا فعلي بن أبي طالب، فاستوى أويس قائما، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وأنت يا ابن أبي طالب، فجزاكما الله عن هذه الأمة خيرا. قالا: وأنت جزاك الله عن نفسك خيرا، فقال له عمر: مكانك يرحمك الله حتى أدخل مكة فآتيك بنفقة من عطائي، وفضل كسوة من ثيابي، هذا المكان ميعاد بيني وبينك. قال: يا أمير المؤمنين لا ميعاد بيني وبينك، لا أراك بعد اليوم تعرفني، ما أصنع بالنفقة؟ ما أصنع بالكسوة؟ أما ترى عليّ إزارا من صوف، ورداء من صوف، متى تراني أخرقهما؟ أما ترى أن نعلي مخصوفتان، متى تراني أبليهما؟ أما تراني أني قد أخذت من رعايتي أربعة دراهم، متى تراني آكلها؟ يا

أمير المؤمنين، إن بين يدي ويديك عقبة كئودا، لا يجاوزها إلا ضامر مخف مهزول، فأخف يرحمك الله، فلما سمع عمر ذلك من كلامه ضرب بدرته الأرض، ثم نادى بأعلى صوته: ألا ليت أن أم عمر لم تلده، يا ليتها كانت عاقرا لم تعالج حملها، ألا من يأخذها بما فيها ولها؟ ثم قال: يا أمير المؤمنين، خذ أنت هاهنا حتى آخذ أنا هاهنا، فولّى عمر ناحية مكة، وساق أويس إبله فوافى القوم إبلهم، وخلى عن الرعاية، وأقبل على العبادة حتى لحق بالله عز وجل)(١).

وقال عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: أحب عباد الله إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفارون بدينهم، يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام.

وقال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما يمن به على عبده: ألم أنعم عليك؟ ألم أسترك؟ ألم أخمل ذكرك؟

وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك.

وقال الفضيل: إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا تعرف، وما عليك أن لا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله تعالى.

فانظر يا رعاك الله إلى هذه النقول والأقوال المأثورة الخالدة، لتعرف مدى مذمة الشهرة، ومدى سوء معرفة الناس بحال طاعتك، وفضيلة الخمول عند الناس والمعرفة عند الله تعالى، ومدى الخسارة في أن تكون معروفا بالشهرة وانتشار الصيت رغبة في الجاه والمنزلة في القلوب، فإن حب الجاه هو منشأ كل فساد.

فإن قيل: فأي شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء، فكيف فاتهم فضيلة الخمول، فاعلم أن المذموم طلب الشهرة، أما وجودها من جهة الله

---

(١) ذكره الأصفهاني في حلية الأولياء ٢/ ٨١ وما بعدها.

سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم، نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم، فإنهم يتعلقون به، فيضعف عنهم، فيهلك معهم، وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به، فينجيهم ويثاب على ذلك.

يقول الهروي رحمه الله في منازل السائرين: أصحاب السر هم الأخفياء الذين ورد فيهم الخبر، وهم ثلاث طبقات على ثلاث درجات:

الطبقة الأولى: طائفة علت هممهم، وصفت قصودهم، وصح سلوكهم، ولم يوقف لهم على رسم، ولم ينسبوا إلى اسم، ولم تشر إليهم الأصابع، أولئك ذخائر الله عز وجل حيث كانوا.

والطبقة الثانية: طائفة أشاروا عن منزل وهم في غيره، ووروا بأمر وهم لغيره، ونادوا على شأن وهم على غيره، بين غيرة عليهم تسترهم، وأدب فيهم يصونهم، وظرف يهذبهم.

والطبقة الثالثة: طائفة أسرهم الحق عنهم، فألاح لهم لائحا أذهلهم عن إدراك ما هم فيه، وهيمهم عن شهود ما هم له، وضن بحالهم على علمهم معرفة ما هم به، فاستسروا عنهم مع شواهد تشهد لهم بصحة مقامهم من قصد صادق يهيجه غيب، وحب صادق يخفى عليهم علمه، ووجد غريب لا ينكشف لهم موقده، وهذا من أرق مقامات أهل الولاية.

## ٧٨- الرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ، وَإِلاَّ فَهُوَ أُمْنِيةٌ

الرجاء مقام سام شريف من مقامات اليقين التي تتعلق بالقلب، فالرجاء الحقيقي ما كان باعثا على العمل والاجتهاد، لأن من رجا شيئا جد في طلبه، وإلا فهي مجرد أمنية لا قيمة لها، وقد قال النبي ﷺ: (الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)(١)، وإدانة النفس بمحاسبتها.

---

(١) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٢٤٥٩، سنن الترمذي ٢١٩/٤.

وقد قال سيدي أبو الحسن الشاذلي: إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنة، يقول أحدهم أنا أحسن الظن بربي، وهو يكذب لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل، وتلا قوله تعالى ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١].

وقال بعض العارفين: الرجاء والخوف مطيتا المؤمن.

وحقيقة الرجاء أن ترجو قبول الأعمال وجزيل الثواب عليها، وتخاف مع ذلك أن يرد عليك عملك، أو يكون قد دخلته آفة أفسدته عليك.

والراجون ثلاثة: رجل عمل حسنة، وهو صادق في عملها، مخلص فيها، يريد الله بها، ويطلب ثوابه، فهو يرجو قبولها وثوابها، ومعه الإشفاق فيها، ورجل عمل سيئة ثم تاب منها إلى الله، فهو يرجو قبول توبته وثوابها، ويرجو العفو عنها والمغفرة لها، ومعه الإشفاق ألا يعاقبه عليها، وأما الثالث فهو الرجل يتمادى في الذنوب، وفيما لا يحبه لنفسه، ولا يحب أن يلقى الله به، ويرجو المغفرة من غير توبة، وهو مع ذلك غير تائب منها، ولا مقلع عنها، وهو مع ذلك يرجو، فهذا يقال له مفتر متعلق بالرجاء الكاذب، والأماني الكاذبة، والطمع الكاذب، والقيام على هذا يقطع مواد عظمة الله من قلب العبد، فيدوم إعراضه عنه، ويأنس بجانب مكر الله، ويأمن تعجيل العقوبة، وهذا هو المفتر المخدوع المستدرج، نعوذ بالله من ذلك.

ولذا قال لقمان لابنه: ارج الله عز وجل رجاء لا تأمن فيه مكره، وخف الله مخافة لا تيأس فيها من رحمته. قال: يا أبتاه، وكيف أستطيع ذلك؛ وإنما لي قلب واحد؟ قال: يا بني، إن المؤمن لذو قلبين: قلب يرجو به، وقلب يخاف به.

وعن معاوية بن قرة أنه جلس ورجل من التابعين، فتذاكرا، قال: فقال أحدهما: إني لا أرجو وأخاف، فقال الآخر: من رجا شيئا طلبه، وإنه من خاف من شيء هرب منه، وما أحسب امرأ يرجو شيئا لا يطلبه، وما أحسب امرأ يخاف شيئا لا يهرب منه.

---

(١) سورة فصلت الآية ٢٣.

ويقال: للمخادع نفسه ثلاث علامات، أحدها أن يبادر إلى شهوات ويأمن الزلل، والثاني: يسوف التوبة بطول الأمل، والثالث: يرجو الآخرة بغير عمل.

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: ما طلب رجل هذا الخير، يعني الجنة، إلا اجتهد ونحل وذبل، واستمر أي استقام حتى يلقى الله.

وأما علامة المستقيم الراجي فقد قال عنها بعض الحكماء: علامة الذي استقام أن يكون مثله كمثل الجبل، لأن الجبل له أربع علامات أحدها: أنه لا يذيبه الحر، والثاني: لا يجمده البرد، والثالث: لا تحركه الريح، والرابع: لا يذهبه السيل، فكذا المستقيم له أربع علامات.

## ٧٩- مَطْلَبُ العَارِفين مِنَ اللّهِ الصِّدْقُ فِي العُبُودِيَّة، والقِيَامُ بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَة

لقد مثلت هذه الحكمة غاية ما يتمناه العارف من ربه وهو أن يحقق له معنى العبودية، فيكون صادقا مخلصا فيها مع ربه عز وجل، ولا يتم ذلك إلا بأن يعلم الإنسان أنه لا حق له في أي شيء، فلا ينازع أحدا في الحقوق، ولا فضل له على أحد، وأن الفضل كله لله عز وجل، وإذا التزم بذلك فإنه يعيش في هدوء وسكينة وسعادة لا يعرفها إلا أهلها.

ثم القيام بحقوق الربوبية فقط بدون مراعاة حظ نفسه، ولا بقاء له مع نفسه، أما غير هؤلاء من علماء الظاهر والزهاد والعباد فلم يفارقوا الحظوظ والأغراض في مطالبهم، فعباداتهم معلولة، فهم يطلبون من الله عز وجل الحور والقصور، والعارفون يطلبون من الله رفع الستور، ودوام الحضور، وشتان بين هذا وذاك.

ومن وقع منه ذلك فقد رجع إلى الله، ورجوعك الى الله سكون قلبك عليه، وفي سكون قلبك عليه الازدياد من طاعته، والوصول الى خاصية عبادته، وفي الوصول إلى خاصية عبادته النزول عند درجة العبيد، وفي النزول عند درجة العبيد إصابة شرف العبودية، ومن إصابة شرف العبودية اكتساب القلب المذلة لله عز وجل، فأعزك بطاعته، وخضعت له فشرفك بعبادته، وهنا تكون العبادة تشريفا لا تكليفا، أي لا

يحاسبون عليها يوم القيامة، فهم يدخلون الجنة بغير حساب.

وقد وردت عن العارفين كلمات عظام عن المقصود بالعبودية، فقد قال بعضهم: العبودية التبري من الحول والقوة، والإقرار بما يعطيك ويوليك من الطول والمنة، ويقال: العبودية معانقة ما أمرت به، ومفارقة ما زجرت عنه.

وسئل محمد بن خفيف: متى تصح العبودية؟ فقال: إذا طرح كله على مولاه وصبر معه على بلواه.

وكان سهل بن عبد الله يقول: لا يصح التعبد لأحد حتى لا يجزع من أربعة أشياء: من الجوع، والعرى، والفقر، والذل.

وقيل: العبودية أن تسلم إليه كلك وتحمل عليك كلك.

وقيل: من علامات العبودية ترك التدبير وشهود التقدير.

وقال ذو النون المصري: العبودية أن تكون عبده في كل حال كما أنه ربك في كل حال.

وقال الجريري: عبيد النعم كثير عديدهم، وعبيد المنعم عزيز وجودهم.

وإنما كان ذلك لأن الله تعالى خص أهل ولايته بغبطة الانقطاع إليه، ليعرفهم تواتر نعمه، ودوام إحسانه وفضله، فانصرفت هموم الدنيا من قلوبهم، وعظم شغل الآخرة في صدورهم، لما سكنها من هيبة ربهم، فألزموا قلوبهم ذل العبودية، وطرحوا لأنفسهم في محجة التوكل على الله.

يقول الحسن: من صدق الله ورسوله باليقين طلبت الجنة، وباليقين هربت من النار، وباليقين أديت الفرائض، وباليقين صبرت على الحق، وفي معافاة الله خير كثير، قد والله رأيتهم يتفاوتون في العافية، فإذا نزل البلاء تساووا.

ونصح أحد العارفين مريده قائلا: كن بالحق عاملا، وبالله واثقا، وبالمعروف آمرا، وعن المنكر ناهيا، فإن من صدق الله نصحه، ومن تزين لغيره فضحه، ومن توكل عليه كفاه، ومن وثق بغيره مقته، ومن خافه أمنه، ومن شكره زاده، ومن أطاعه أكرمه، ومن آثره أحبه.

فإن أردت أن تعرف كيف تصدق الله في العبودية فانظر إلى ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من يأخذ مني خمس خصال فيعمل بهن، أو يعلمهن من يعمل بهن؟ قال: قلت أنا يا رسول الله. قال: فأخذ بيدي فعدهن فيها، ثم قال: اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب)[١].

وقال عبد الله: ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأد ما افترض الله عليك تكن أعبد الناس، واجتنب ما حرم الله عليك تكن من أورع الناس.

وسئل الأستاذ أبو سهل الصعلوكي عن حقيقة العبودية، فقال: الموافقة والمخالفة، وهو أن يوافق الحق ويخالف نفسه وهواه.

وقال أبو سعيد الخزاز: علامة العبودية ثلاث: الوفاء لله على الحقيقة، والمتابعة للرسول ﷺ في الشريعة، والنصيحة لجميع الأمة.

وقال ابن عطاء: العبودية في أربع خصال: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضا بالموجود، والصبر عن المفقود.

وكان الجنيد بن محمد يقول: سرعة الغضب، واحتقار الفقر، وحب المنزلة كل ذلك من حب النفس، وهو خلع العبودية، ومنازعة الربوبية.

وسئل أحد العارفين: ما الذي لا بد للعبد منه؟ قال: ملازمة العبودية على السنة، ودوام المراقبة.

وقيل لآخر: عظني، فقال: مدار العبودية على ستة أشياء: التعظيم، والحياء، والخوف، والرجاء، والمحبة، والهيبة، فمن ذكر التعظيم يهيج الإخلاص، ومن ذكر الحياء يكون العبد على خطرات قلبه حافظا، ومن ذكر الخوف يتوب العبد من الذنوب، ومن ذكر الرجاء يتسارع إلى الطاعات، ومن ذكر المحبة تصفو له الأعمال، ومن ذكر

---

(١) أخرجه أحمد في الحديث رقم٨٠٩٥، المسند ٤٥٨/١٣.

الهيبة يدع التملك والاختيار.

وكان إبراهيم بن شيبان يقول: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو المغاليط والزندقة.

وسأل رجل ذا النون فقال: ما التوكل؟، فقال: خلع الأرباب، وقطع الأسباب. فقال السائل: زدني. فقال: إلقاء النفس في العبودية، وإخراجها من الربوبية.

وربما كان صدق العبودية في الحزن على الذنب لا كثرة الطاعة، فقد قيل لسعيد بن جبير: من أعبد الناس؟ قال: رجل اجترح من الذنوب، فكلما ذكر ذنوبه احتقر عمله.

وللعبودية طعم ولذاذة لا يعرفها إلا من عبد الله حق عبادته، ونأى عن الكبر والرياء، يقول ذو النون: من عرف ربه وجد طعم العبودية، ولذة الذكر والطاعة، فهو بين الخلق ببدنه، قد نأى عنهم بالهموم والخطرات.

## ٨٠- بَسَطَكَ كيْ لا يُبْقِيكَ مَعَ القَبْضِ، وَقَبَضَكَ كَيْ لا يَتْرُكَكَ مَعَ البَسْطِ، وَأَخْرَجَكَ عَنْهُمَا كَيْ لا تَكُونَ لِشَيءٍ دُونَهُ

إن الله -عز وجل- يقلب العارف بين صفات البسط والقبض، ثم يخرجه منها ليستخلصه لنفسه، لذا قال ابن عطاء الله رحمه الله بسطك مولاك فنشر عليك صفات الرحمة، ثم قبضك، ولكيلا يبقيك مع القبض الذي هو قهر لنفسك فبسطك، وإن كان العارف له نفع في صفات القبض أكثر من صفات البسط، فصفات القبض والقهر، كالمرض والفاقات والبلايا فيها يكون العارف بالله قريبا من الله، أما صفات البسط كالصحة والغنى ربما تلهيه عن ربه عز وجل، لذا قيل: إذا جلست على البساط تأدب، وإلا طردت إلى الأبواب، وإلا لطردت لسياسة الدواب.

وقبضك كيلا يتركك مع البسط، أي أجرى عليك صفات القهر حتى لا يتركك مع صفات الرحمة، ثم أخرجك عنها بفنائك عن نفسك، وبقائك به كيلا تكون لشيء دونه، فالقبض والبسط من الأحوال التي تعتري السالكين إلى الله، وهما بمنزلة الخوف

والرجاء للمريدين المبتدئين، وسببها الواردات التي ترد على باطن العبد، فلو تجلى على العبد بصفات الجمال حصل له البسط، وإذا تجلى عليه بصفات الجلال حصل له القبض، وكل ذلك حجب يحجب به العارف عن مولاه، فيخرجه المولى من هاتين الصفتين إلى الفناء التام معه بعد أن أذاقه مرارة القبض وحلاوة البسط أذاقه شهد الفناء، وهذا غاية العارف.

وقد كان العارفون على فهم ودراية لحكمة الله عز وجل في القبض والبسط، والإعطاء والإمساك، والمنح والمنع، فهم حامدون شاكرون لله على كل حال، يقول الحسن: والله ما أحد من الناس بسط الله عز وجل له دنيا، فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه، وما أمسكها الله عز وجل عن عبد، فلم يظن أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه.

وقال: إن المؤمن أحسن الظن فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن فأساء العمل، وقال: ما بسط الله الدنيا لأحد إلا اغتر ولا زويت عنه إلا نظر.

وقال شقيق بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾، إن الله عز لو رزق العباد من غير كسب، لتفرغوا فتفاسدوا، ولكن شغلهم بالكسب حتى لا يتفرغوا للفساد.

وإنما كان ذلك لأن أحكامه سبحانه على نظام الحكمة جارية، وأقداره في جميع خلقه نافذة، وعليهم قاضية، مكرم من اتقاه، ومهين من عصاه، ويعز من انقطع إليه، ويذل من تمرد عليه، يداوي كل ذي داء بدوائه الذي هو له أوفق، ويقيم كل ذي قدر في مقامه الذي هو له أليق، فمن كان السقم أنفع لقلبه ابتلاه الله بالأسقام، ومن كان العدم أصلح لحاله ارتضى له الإعدام، يدبر عباده بحكم التدبير في مجاري التقدير، فلا تتهموا الله في قضائه، فإن قضاءه بزمام الحكمة مزموم، وسلموا له بالانقياد لأمره في حلو القضاء ومره، فإن المسلم له ليس بمحروم، وقابلوا إحسانه إليكم بدوام حمده وشكره، وانسبوا عدله عليكم إلى تقصيركم في القيام بواجب أمره، فإنه سبحانه على الدوام يعامل عباده بإحسانه وفضله، فإذا استغاثوا بإحسانه على عصيانه أدبهم بسوط

عدله، حتى لا يزال المخلوق مراقبا لخالقه، والمرزوق شاكرا لرازقه، متأدبا في معاملته، مقتديا في السلوك إلى ربه بأوليائه وأهل طاعته، فمن رزق ما يحب فليشكر الرزاق، ومن أصابه ما يكره فليتهم نفسه في معاملة الخلاق.

## ٨١- الْعَارِفُونَ إِذَا بُسِطُوا أَخْوَفُ مِنْهُمْ إِذَا قُبِضُوا، وَلاَ يَقِفُ عَلَى حُدُودِ الأَدَبِ فِي الْبَسْطِ إِلاَّ قَلِيلٌ

دائما وأبدا يكون العارفون بالله تعالى على حذر شديد من الله عز وجل، فلا يأمن مكره إلا القوم الكافرون، فيكونون وهم في مقام البسط أكثر خوفا من أنفسهم من أن تركن إلى ذلك، لأن في البسط هواها، فتتحدث عن النعم وعن الأحوال والكرامات وما إلى ذلك، فيكون الطرد من الله عز وجل، لهذا تأكد عليهم مراعاة شروط الأدب في هذا المقام مع الله، فقد زلت فيه أقدام كثيرة من أهل التصوف، وأما القبض ففيه السلامة، لأن النفس ليس لها هوى فيه.

والقبض والبسط حالتان بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف.

ويقصد بالبسط أن ترسل شواهد العبد في مدارج العلم، ويسبل على باطنه رداء الاختصاص، وهم أهل التلبيس.

والبسط الحقيقي أن يبسط لسانك بذكره، ويطلق قلبك لشكره، ولا يحبسك عن عبادته، لأن الدنيا ينالها البر والفاجر، ويحوذها المؤمن والكافر، فعن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تبارك وتعالى قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الدين فقد أحبه)[١].

وعن عبيد بن عمير قال: إن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب، فإذا أحب الله عبدا أعطاه الإيمان، فمن خاف العدوان

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في الحديث رقم٢٠٩، الزهد ص١٠٦.

يجاهده، وهاب الليل أن يكابده، وبخل بالمال أن ينفقه، فليكثر من التسبيح والتحميد والتهليل.

وعن ابن مسعود ﵁ أنه كان يقول إذا قعد: إنكم في ممر الليل والنهار في آجال منتقصة وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن يزرع خيرا يوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرا فيوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل الذي زرع، لا يسبق بطئ بحظه، ولا يدرك حريص ما لم يقدر له، فمن أعطي خيرا فالله أعطاه، ومن وقي شرا فالله وقاه، المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالسهم زيادة.

وعن أبي عبيدة بن عبد الله قال: لو أن رجلا جلس على ظهر الطريق ومعه خرقة فيها دنانير لا يمر إنسان إلا أعطاه دنانير، وآخر إلى جانبه يكبر، لكان صاحب التكبير أعظم أجرا.

وكان العارفون يخافون من البسط أكثر من القبض، فهم يرون البسط فتنة لا يدرون عاقبتها، لأن هذا ما جاء في الأثر، ووردت به أقوال الصحابة وسلف هذه الأمة ﵃، فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (أخوف ما أخاف عليكم من بعدي ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا)(١).

وعن علي ﵁ قال: إن أخوف ما أتخوف عليكم اثنان: طول الأمل واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا أن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل.

وعن حذيفة قال: أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون، وأن يضلوا وهم لا يشعرون.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في الحديث رقم١٨٠، الزهد ص٨٨.

## ٨٢- الْبَسْطُ تَأْخُذُ النَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ الْفَرَحِ، وَالْقَبْضُ لاَ حَظَّ لِلنَّفْسِ فِيهِ

إن النفوس دائما وأبدا تميل إلى البسط، وترغب في الاتساع، وتميل إلى الميسور من كل شيء، وفي هذه الحالة يكثر حديثها عن النعم، وخوارق العادات، وإدراك المقامات والكرامات وغير ذلك، حتى تقع في سوء الأدب مع الله تعالى وغيره من العباد، وهذا كله مناف لمقام العبودية لله عز وجل، لأن العبد دائما يفتخر بمولاه، ويتحدث عنه، ولا يتحدث عن نفسه، بخلاف مقام القبض فإنه لا حظ للنفس فيه على الإطلاق، وقد قال بعض العارفين: القبض حق الحق منك، والبسط حظك فيه، ولأن تكون بحق ربك خيرا من أن تكون بحظ نفسك.

ولذا من كان في نفسه القبض والبسط سواء كان من الله قريبا، ولدينه حافظا، وكان كل شيء في الدنيا هين في عينيه، وقد روي عن عمر بن الخطاب ﵁ أنه قال: ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء.

وقال ذات يوم لامرأته عاتكة وقد غضب: والله لأسوءنك، فقالت: أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام بعد أن هداني الله له؟ قال: لا، قالت: فأي شيء تسوءني إذا.

وقال فضيل بن عياض: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي.

وفي أخبار داود: ما لأوليائي والهمّ بالدنيا، إن الهمّ يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم.

وفي بعضها: يا داود، إياك والاهتمام بالدنيا، محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون، إياك والغم، ولا تهتم للخير وأنت تريدني.

ويقال: أكثر الناس هما في الدنيا أكثرهم هما في الآخرة، وأقلهم هما في الدنيا أقلهم هما في الآخرة.

فالأكياس من هذه الأمة صاروا إلى الله عز وجل في هذا الطريق، وتوقوا كل فرح، فما فرحوا بشيء من الدنيا، أو بشيء من أعمال البر، وقالوا: إنما فساد قلوبنا من فرح النفس، لأن النفس إذا فرحت بشيء استولت على القلب، فلم ينفذ له شيء، فليس

بنا التمييز بين الأعمال، لأنا لا نسير إلى الله تعالى بالأعمال، إنما نسير إليه القلوب نزاهة وطهارة، فإنما يدنس القلب بأفراح النفس؛ وصار القلب محجوباً عن الله عز وجل، فكانوا يصونون قلوبهم عن الفرح بكل شيء دق أو جل، للضرر الذي يحدث عنه.

كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا، وقالوا ما لنا وللدنيا وما يراد بها، فكأنهم على جناح خوف، وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا، وقالوا الآن تعاهدنا ربنا، فهذه أحوال السلف ونعتهم.

فعلى الموقن أن يشكر في القبض والمنع، كما يشكر في العطاء والبسط، ثم يشهد الشاكر بقلبه شهادة يقين، ويعلم أن وصفه وصف العبودية، وحكمه أحكام العبيد، محكوم عليه بأحكام الربوبية، وأنه لا يستحق على الله شيئا، وأن الله عز وجل يستحق عليه كل شيء، فالعبد خلقه وصنعته، والرب صانعه ومالكه، فإذا شهد العبد هذه الشهادة رأى لله عز وجل في كل شيء، فرضي منه بأدنى شيء، ولم ير له على الله تعالى شيئا، فلم يقنع لله تعالى منه بشيء، ولم يطالب مولاه بشيء.

## ٨٣- رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ

جُبل الإنسان على حب النفس، والميل لجلب الخير والملذات لها، وهي تدفعه إلى ذلك دفعا، فحببت إليه الشهوات، وزينت له ألوان المتاع وصنوف الزينة، فيقوم بالتدبير ويكثر التفكير في جلب الخير لها، ولذا نبه ابن عطاء –رحمه الله– المريد لذلك، ونصحه أن يترك التدبير والاختيار للعليم الخبير، لأنه يعلم الخير، ولا ينظر إلى ظواهر الأمور، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون، وهنا قال ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: ربما أعطاك مولاك ما تطلبه وتهواه من الشهوات فمنعك من التوفيق والتقرب إليه، ومنعك من الطاعات والأنوار والأسرار، وهذه الأشياء لا تقدر بثمن.

وربما منعك فأعطاك، أي منعك من شهوات النفس، وحظوظ الدنيا، وألوان المتاع، ولكنه أعطاك التوفيق إلى الطاعة، وأفاض عليك بالمعرفة، وهي بغية السالك،

فالإنسان لا يعرف الخير، ولا يدري أين مكمن الشر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١)، فارض بما أعطاك الله متى كنت موفقا للطاعة، ولا تستعجل من الدنيا شهوة فانية، ولذة زائلة، واقنع بما أعطاك، ولا تدبر لنفسك، فأولي التدبير هلكى، ولهذه الحكمة أمثلة لا تحصى.

ومن الجهل أن يخفى على الإنسان مراد التكليف، فإنه موضوع على عكس الأغراض، فينبغي للعاقل أن يأنس بانعكاس الأغراض، فإن دعا، وسأل بلوغ عرض، تعبد الله بالداء، فإن أعطي مراده شكر، وإن لم ينل مراده، فلا ينبغي أن يلح في الطلب، لأن الدنيا ليست لبلوغ الأغراض.

ولذا يقول بعض العارفين: الصبر ما ترك للناس عذرا ولا حجة، فمن لم يلق الله بما أمره بحلاوة الرضا فليلقه بالصبر وكراهته، ومن لم يلق الله ببغض ما نهاه عنه، فلا يلقاه بالحب له، بل بالصبر، فما ترك الصبر للناس حجة.

وقال شقيق بن إبراهيم رحمه الله تعالى: سألت سبع مائة عالم، عن خمسة أشياء فكلهم أجابوا بجواب واحد قلت: من العاقل؟ قالوا: العاقل من لم يحب الدنيا. قلت: من الكيس؟ قالوا: من لم تغره الدنيا. قلت: من الغني؟ قالوا: الذي يرضى بما قسم الله له. قلت من الفقيه؟ قالوا: الذي يمتنع من طلب الزيادة. قلت: من البخيل؟ قالوا: الذي يمنع حق الله تعالى من ماله.

ويقال: سخط الله تعالى على العبد في ثلاثة أشياء: أحدها أن يقصر فيما أمر الله تعالى، والثاني أن لا يرضى بما قسم الله تعالى له، والثالث أن يطلب شيئا فلا يجده فيسخط على ربه.

وروي عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: اثنتا عشرة خصلة من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. أولها: أنهم كانوا آمنين بوعد الله، والثاني: كانوا آيسين من الخلق،

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢١٦.

والثالث: كانت عدواتهم مع الشيطان، والرابع: كانوا مقبلين على أمر أنفسهم، والخامس: كانوا مشفقين على الخلق، والسادس: كانوا محتملين لأذى جميع الخلق، والسابع: كانوا موقنين بالجنة، يعني إذا عملوا عملا أيقنوا أن الله لا يضيع ثوابهم ولا ثواب عملهم، والثامن: كانوا متواضعين في مواضع الحق، والتاسع: كانوا لا يدعون النصيحة في موضع العداوة، والعاشر: كان رأس أموالهم الفقر، يعني كانوا لا يمسكون فضل المال وينفقون على الفقراء. والحادي عشر: كانوا يديمون على الوضوء، والثاني عشر: كانوا لا يفرحون بما وجدوا من الدنيا، ولا يغتمون على ما فاتهم من الدنيا.

اللهم متعنا برضاك، وزينا بتقواك، وامنحنا طاعتك وبرك، ولا تحرمنا فضلك.

## ٨٤- مَتَى فَتَحَ لَكَ بابَ الفَهْمِ في الَمنْعِ، عَادَ الَمنْعُ عَينَ العَطَاء

يا الله على روعة هذه الحكمة، وجمال هذا القول الذي يستحق أن يكتب بماء الذهب، وأن تتأمله العقول النيرة والفطر السليمة، فافهم أيها الإنسان، وقف عند حد مولاك الرحمن، فهو بك رحيم، فكن مطمئنا فإنه كريم، وبكم رؤوف رحيم.

متى فتح الله على العارف بمعرفة مراد الله فيه، وفتح من المنع له باب الفهم فإنه يحميه بذلك من الكبر والعجب، ويشهده قهره بمنعه، فيستشعر العبودية والعجز التام إلى مولاه، ففي هذه الحالة يكون المنع عين العطاء، لأنه إذا وصل إلى كمال العبودية فقد وصل إلى الخير كله، ولكن من يفهم ذلك قليل، فقد يكون المنع إجابة وقربا إذا كان العطاء شغلا عنه.

فإذا عرف وجه الحكمة في المنع مع القدرة على العطاء، علم أنه منعه ليعطيه، فثَمّ صار المنع عطاء، واليسير منه كثيرا، ويعلم أن الذل والصبر عند المنع عز وشرف، وهو أفضل وأنفس عند العلماء من التعزز بالعبيد والشرف بهم.

ومن الجهل أن يخفى على الإنسان مراد التكليف، فإنه موضوع على عكس الأغراض، فينبغي للعاقل أن يأنس بانعكاس الأغراض، فإن دعا، وسأل بلوغ عرض، تعبد الله بالداء، فإن أعطي مراده شكر، وإن يلم ينل مراده، فلا ينبغي أن يلح في

الطلب، لأن الدنيا ليست لبلوغ الأغراض.

ومن الذي حصل له غرض ثم لم يكدر؟! هذا آدم طاب عيشه في الجنة، وأخرج منها، ونوح سأل في ابنه فلم يعط مراده، والخليل ابتلي بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفقد الولد، ويوسف بمجاهدة الهوى، وأيوب بالبلاء، وداود وسليمان بالفتنة، وجميع الأنبياء على هذا، وأما ما لقي نبينا محمد ﷺ من الجوع والأذى وكدر العيش فمعلوم.

فالدنيا وضعت للبلاء، فينبغي للعاقل أن يوطن نفسه على الصبر، وأن يعلم أن ما حصل من المراد فلطف، وما لم يحصل فعلى أصل الخلق والجبلة للدنيا.

وما أجمل قول الشاعر:

ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب في الماء جذوة نار

والإنسان متى ارتقى فهمه إلى أن ما جرى مراد الحق سبحانه؛ اقتضى إيمانه أن يريد ما يريد، ويرضى بما يقدر، إذ لو لم يكن كذلك، كان خارجا عن حقيقة العبودية في المعنى.

ولذا جاء في الخبر: كفى باليقين غنى، لأنه حينئذ نظر إليه في كل شيء، ووثق به، واعتمد عليه دون كل شيء، وقنع منه بأدنى شيء، وصبر عليه، ورضي عنه، إذ لا بد له منه، فلا يطمع في سواه، ولا يرجو إلا إياه، ولا يشهد في العطاء إلا يده، ولا يرى في المنع إلا حكمته، ولا يعاين في القبض والبسط إلا قدرته، هناك حقت عبادته، وخلص توحيده، فعرف الخلق من معرفة خالقه، وطلب الرزق عند معبوده ورازقه.

قال سفيان الثوري يوما عند رابعة: اللهم ارض عنا، فقالت: أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت غير راض عنه؟ فقال: أستغفر الله، قال جعفر: فقلت لها: متى يكون العبد راضيا عن الله تعالى؟ قالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة، وقال فضيل بن عياض: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي.

اللهم انقذنا من الاعتراض، واجعلنا عبيدا لك على الدوام، من الراضين بمنعك وعطائك، آمين.

## ٨٥- الأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ، فَالنَّفْسُ تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ غِرَّتِهَا، وَالقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا

هذه الحكمة تحذر الإنسان من الدنيا وما فيها من أكوان، فيقول إن الأكوان بمعنى المكونات التي فيها حظ للنفس من مأكل ومشرب ومتاع مختلف الألوان والأصناف، وغير ذلك ظاهر هذه الأكوان غرة وفتنة، أما باطنها عبرة، أي سبب في الاعتبار بها، لما في الباطن من حقائق مرة.

وصدق الشاعر حين يقول:

هي الدنيا تقول بملء فيها     حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يغرركمو مني ابتسام     فقولي مضحك والفعل مبكي

وقد غلب على النفس في هذه الحياة أن تنظر إلى ظاهرها، وتغتر به، من عيشة رغدة، ومتع، وخلاف ذلك، والقلب والعقل ينظر إلى باطن عبرتها، فيتعبر بها، ويسلم من غوائلها، فظاهرها حلوة خضرة، وباطنها جيفة قذرة، ولذا حذر منها المصطفى ﷺ في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)(١).

وقال بعض البلغاء: إن الدنيا ربما أقبلت على الجاهل بالاتفاق، وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق، فإن أتتك منها سهمة مع جهل، أو فاتتك منها بغية مع عقل، فلا يحملنك ذلك على الرغبة في الجهل، والزهد في العقل، فدولة الجاهل من الممكنات، ودولة العاقل من الواجبات، وليس من أمكنه شيء من ذاته، كمن استوجبه بآلته وأدواته.

وللنجاة من غرة الدنيا وفتنتها اعتزل كثير من الأولياء صحبتها في آخر حياتهم، يقول أبو سليمان: ومن مناقب العزلة السلامة من آفات النظر إلى زينة الدنيا وزهرتها،

---

(١) سبق تخريجه.

والاستحسان لما ذمه الله تعالى من زخرفها، وعابه من زبرج غرورها، وفيها منع النفس من التطلع إليها والاستشراف لها، ومن محاكاة أهلها ومنافستهم عليها.

وفي أخبار داود عليه السلام إن الله تعالى قال: يا داود، أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسي، وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وائنسوا بي أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم، فإني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي، وموسى نجيي، ومحمد صفيي، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري، ونعمتها بجلالي.

ونصح أحد العارفين محبه قائلا: يا مغترا بالزخارف والتمويه، تعجب بما تجمعه من الدنيا وتحويه، هلك والله ذو عجب أو كبر أو تيه، ونجا والله أشعث أغبر؛ أنت في دار انزعاج فاحذر منها، لا تركن إليها ولا تأمنها، إنما أسكنتها لتخرج عنها، فتأهب للنقلة، فما يستوطن معبر، أين من كان يتنعم في قصورها قد فسح لنفسه في توانيها وقصورها؟، خدعته والله بغرير غرورها بعد أن ساس الرعايا ودبر، نقلته والله صريعا سريعا وسلبته والله ما جمعه جميعا، وبزته كبرا كبيرا وعزا منيعا، أتراه يفتخر في قبره أو يتكبر، خلا بعمله في ظلام لحده لم ينفعه غير اجتهاده وجده، لو قضي برجوعه إلى الدنيا ورده لحدثنا بهذا أو أخبر، فتنبه أنت من رقداتك، وكن وصي نفسك في حياتك، فلقد بالغت الزواجر في عظاتك، كم تسمع موعظة وكم تجلس تحت منبر، يا لها من نصيحة لو وجدت نفاذا، هي حجة عليك إذا لم تكن ملاذا، والشيء إذا لم ينفع فربما آذى، وأنت يا هذا بعد هذا بنفسك أخبر.

نسأل الله السلامة من غرورها، والعافية من شرورها، والرضا بقدره فيها، والمتعة بصالح أعمالنا، وأن يجعلها لنا عونا للآخرة، آمين.

## ٨٦- إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لاَ يَفْنَى، فَلاَ تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزٍ يَفْنَى

إن هذه الحكمة لها ما لها من معنى كبير، وعليها قوام غنى المرء وعزه في هذه الدنيا، فمتى عرفها الإنسان وعمل بها لن يضام في حياته أبدا، ويعيش عزيزا في حياته وبعد مماته، لأنه اعتز بمن عزه لا يفنى، فخلد ذكره، لأن ما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل، فهو سبحانه ملجأ المضطرين، وملاذ المستجيرين، وغياث المستغيثين، ومجيب دعوات الداعين، وقرة عيون المحبين، وأنيس المستوحشين، وهو الغني عن جميع العالمين، ميسر الأمور، وشارح الصدور، ومحكم الأحكام والمقدور، ومدبر المخلوقات ومصرف الدهور، اضمحلت في عظمته وكبريائه عظمة الملوك والعظماء، وتلاشت لديه مقدرة الأقوياء، وعلوم العلماء، وافتقرت إليه جميع الخليقة في كل شئونها الأغنياء منهم والفقراء، من توكل عليه كفاه، ومن دعاه أجابه، وأفاض عليه عطاياه، ومن اعتز به أسعده وتولاه، ومن انتصر به نصره على عداه، ومن اتقاه جعل له مخرجا وفرجا، وسهل أمور دينه ودنياه.

والعز الذي لا يفنى هو الغنى عن الأسباب كلها بوجود مسببها، فالأسباب ليست فاعلة بذاتها، وإنما الله الفعال فيها، فتعلق بمن له العزة والكبرياء، تعلق بالذي لا يفنى عزه، أما تعلقك بالأسباب مع الغيبة عن مسببها فهو العز الذي يفنى ويزول، وهما ضدان لا يجتمعان.

ومن اعتز بغير الله ذل، ومن استعان بغيره خاب، ومن توكل على غيره افتقر، ومن أنس بسواه كان في عيشة موحشة، ولو غمرته الأضواء وحفت به المواكب.

فإن تعلقت بمسبب الأسباب عشت عزيزا كريما لا تضام، وأعطاك من أسباب القوة ما يبهر العقول، وهذا –بفضل الله– ما أعيشه وأراه حقا وصدقا، أما إن اخترت التعلق بالأسباب والناس خذلتك، وأتعبتك، وكدرتك، وهذا حال من ركن إليها ولم يركن إلى الله عز وجل، ولذا تواترت النصائح من الشعراء والعقلاء والحكماء لتوجيه ابن آدم نحو العز الذي لا يفنى، وتحذيره من العز الذي يفنى ويعقبه ذل، فقد قال الشاعر:

اجعل بربك شأن عزّ ... ك يستقر ويثبت

فإن اعتززت بمن يمو ت فإن عزك ميت

ويقول أحد الصالحين: شرف المؤمن الصلاة في جوف الليل، وعزه استغناؤه عما في أيدي الناس، والمؤمن لا يجزع من ذل الدنيا، ولا ينافس في عزها.

وقال آخر: من أراد عزا بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فليخرج من ذل معصية الله عز وجل إلى عز طاعته.

وقال بعض الحكماء: ليس غنى أغنى من سكون القلب، وليس فقر أفقر من اضطراب القلب، وليس عز أعز من الزهد، وليس ذل أذل من الرغبة في الدنيا والطمع، وليس شرف أشرف من اليقين، وليس درجة أعلى من الصبر، وليس حلاوة أحلى من محبة الله عز وجل، وليس مرارة أمر من سخطه، وليس زين أزين من التواضع، وليس جهل أجهل من الكبر، وليس قوة أقوى من الجوع، وليس داء أدوى من التعرض لسخط الله، وليس كلام أحسن من قول لا إله إلا الله.

وقال بعض الحكماء: حرفة العارف ستة أشياء: إذا ذكر الله افتخر، وإذا ذكر نفسه احتقر، وإذا نظر في آيات الله اعتبر، وإذا هم بمعصية أو شهوة انزجر، وإذا ذكر عفو الله استبشر، وإذا ذكر ذنوبه استغفر.

وقال أبو عثمان: حق لمن أعزه الله بالمعرفة أن لا يذل نفسه بالمعصية.

فنقولها بملء أفواهنا: لا إله إلا الله، والحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته، والحمد لله الذي ذل كل شيء لعزته، والحمد لله الذي أخضع كل شيء لملكه.

## ٨٧- الطَّيُّ الحَقيقيُّ أَنْ تَطْوِيَ مَسافَةَ الدُّنْيا عَنكَ حَتى تَرى الآخِرَةَ أَقْرَبَ إِليْكَ مِنْكَ

لا زال ابن عطاء رحمه الله يتدرج بالمريد في تربيته، فبعد أن أراه مواطن العز والذل، وكيف يكون تعلقه بها لفت نظره إلى الزهد الحقيقي، وبين له قدر الدنيا، فلقد أقبلت على الناس بجميع ما فيها من بهارج، وفتنتهم بألوان الأموال، وصنوف المتاع، وفنون المأكولات والمشروبات والملبوسات حتى نسوا اليوم الآخر وما فيه من وعيد

شديد، وكذلك نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فعاشوا كالكلاب الضارية، لا يشبعون من مال، ولا يقنعون بمتاع، فسلط الله عليهم أنفسهم، حتى اعتقدوا أن الدنيا هي نهاية المطاف، وأنها كل المبتغى.

فنبه ابن عطاء الله -رحمه الله- بهذه الحكمة القلوب الغافلة، فقال: إن الطي الحقيقي ليس هو طي المسافات في الدنيا، فيكون من أهل الخطوة، وإنما الطي الحقيقي أن تطوي مسافة الدنيا عنك، بأن تغيب عنها بفكرك، وترى الآخرة بقلبك، وأنها أقرب إليك منك، فإنه متى أشرق نور اليقين في قلبك تنعدم الدنيا في نظرك، وترى الآخرة أقرب إليك من شراك نعليك، فإنها أنفاس إن لم يخرج النفس أو يدخل، فإنك تكون من أهل الآخرة، لكن النفوس اللاهية، والقلوب الخالية من نور اليقين لا تعلم ذلك، ففي الحديث الذي رواه مجاهد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي، فقال: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)، وكان ابن عمر، يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك[(١)].

قال جماعة من العلماء في تفسير هذا الحديث: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تغتر بها، فإنها غرارة خداعة، ولا تتعلق إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها إلا بما يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله، وبالله فاستعن.

ويقول أبو سليمان الداراني: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، فإذا كانت الدنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة، لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة.

وقال الأوزاعي: سمعت بلالاً بن سعيد يقول: والله لكفى به ذنباً، أن الله عز وجل يزهد في الدنيا ونحن نرغب فيها، فزاهدكم راغب، ومجتهدكم مقصر، وعالمكم جاهل.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: جعل الشر كله في بيت واحد، وجعل

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٤١٦، الصحيح ٨٩/٨.

مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت واحد، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

وكان ذو النون يقول: اعلموا أن المحب لله عز وجل لا يعظم عنده الإيثار لله؛ لأنه ليس شيء عنده أعظم من الله، فينبغي للمحب لله أن يرى عليه أثر ذلك من رفض الدنيا، لأنه من المحال أن يجتمع في القلب حب الله مع حب الدنيا، فمن أحب الله لم ينظر إلى ما يناله من الدنيا، ولا تكون له حاجة إلى غير من أحب.

ويقول مالك بن دينار: إن البدن إذا سقم لم ينجح فيه طعام، ولا شراب، ولا نوم، ولا راحة، كذلك القلب إذا علق حب الدنيا لم تنجح فيه المواعظ.

وقال ابن مسعود ﵁: سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب، فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه، فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة، فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة، ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم، فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور ظاهر في عمله، فما أخصب الألسن يومئذ وما أجدب القلوب، فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى، والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى.

## ٨٨- الْعَطَاءُ مِنَ الْخَلْقِ حِرْمَانٌ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللّهِ إِحْسَانٌ

ما فتئ ابن عطاء يوجه المريدين إلى الله، ويمنعهم من النظر إلى الخلق بعين الذل والحاجة والافتقار، فالعبد الصادق لا يركن لغير الله عز وجل، ويعلم دائما أن المنن والنعم كلها بيد الله وحده، لأن من لا يملك لا يعطي، وأن عطاء الناس عطاء مزعوم، فالمعطي الحقيق هو الله عز وجل، ولا يعرف ذلك إلا أهله وهم أهل محبته ومودته وقربه سبحانه وتعالى.

وقد بين ابن عطاء الله -رحمه الله تعالى- أن العطاء من الخلق مع الغفلة عن الحق حرمان، لأنه يوجب حبهم والتعلق بهم، ومكافأتهم على هذا العطاء، وهذا يوجب ضياع الوقت، وذهول القلب عن الحق إلى الخلق، فيفوته من المنافع ما لا يحصى ولا

يعد، ويكفيه ما في هذا العطاء من مَنّهم وفخرهم، وتفاخرهم بما أُعطوا، وتكبرهم بما مُنحوا، وهو ما لا ترضاه النفوس الكريمة والعقول الأبية، وهو همٌّ لا ينقطع.

وأما المنع من الله فهو إحسان، لأن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، وفي ذلك المنع منفعة لا تدرك للعبد، فهو يتذلل إلى مولاه، فتتحقق له معاني العبودية لله عز وجل، وهي قمة العطاء من الله تعالى، لأنها تؤدي به إلى رضوانه عز وجل.

ولكي يحقق العبد العبودية الكاملة لله تعالى فليجعل رضاه عن الله في العطاء والمنع، ويدرك أن لله تعالى حكمة في إعطائه ومنعه، ولا يدركها العبد في وقته، فليسلم إلى الله أمره ويشكره على كل حال، يقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن لله تعالى من خلقه صفوة، إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا، وإذا أنعموا شكروا، وإذا ابتلوا صبروا.

وعن ابن مسعود قال: في إعطاء هذا المال فتنة، وفي منعه فتنة، إن أعطيه عبد مدح غير الذي أعطاه، وإن منعه عبد ذم غير الذي منعه.

وفي وصية لقمان لابنه: يا بني اردد رغبتك إلى الله، إن شاء أعطاك، وإن شاء منعك، فإن حيلتك لن تزيديك ولن تنقصك من قسمة الله التي قسم لك، واعتبر رزقك بخَلْقك، فإن استطعت أن تزيد في خلقك بحيلتك فإنك إذا تزيد في رزقك، وإلا فاعلم أن الله هو الذي عدل الخلق وقسم الرزق، فلن تستطيع أن تزيد في أحد منها، فإن منهم المحتال الجلد البطوش ولا يزداد إلا فقرا، ومنهم المعيي الواهن المهين ولا يزداد ماله إلا كثرة، ولو كان من الحيلة لسبق القوي الضعيف إلى كل شيء، ولكن الله يخلق ويرزق، ولا يملك العباد من ذلك شيئا.

وحكى أن بعض الأكاسرة سأل حكيما في زمانه فقال: ما بالي أرى العاقل محروما والأحمق مرزوقا؟ فقال: أراد الصانع أن يدل على نفسه، ولو كان كل عاقل مرزوقا، وكل أحمق محروما، لوقع في العقول، إن العاقل يرزق نفسه، والأحمق حرم نفسه، فلما رأوا الأمر بخلاف هذا علموا أن الصانع هو الرازق.

ولا يعطى العبد حاجته ولا يعامل بالمجازاة حتى لا يرى لنفسه فضلا، ولا لعمله

منزلة إلا بقبول الله تعالى، فإن رأى نفسه كذلك قضى حاجته، وتقبل طاعته وأعانه ووفقه.

يروى عن ابن منبه قال: نبئت أنه كان فيمن قبلكم رجل تعبد زمانا، ثم طلب إلى الله عز وجل حاجة، وصام لله سبعين سبتا؛ يأكل كل سبت إحدى عشرة ثمرة يطلب حاجته إلى الله، فلم يعطها، فلما مضى ذلك ولم يعطها أقبل على نفسه، فقال: من قبلك أتيت، لو كان فيك خير أعطيت حاجتك، ولكن ليس فيك خير، فنزل إليه ملك من ساعته، فقال: يا ابن آدم، إن ساعتك هذه، التي أزريت على نفسك فيها، خير من عبادتك، قد أعطاك الله حاجتك.

## ٨٩- جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ الْعَبْدُ نَقْدًا فَيُجَازِيه نَسِيئَةً

كثير من الناس يعمل الشيء وينتظر المقابل، فإذا كان الأدب في عرف الناس أن تجازى الحسنة بالحسنة، ويجازى العاجل بالعاجل، فإن الله تعالى الرحمن الرحيم أولى بذلك العطاء، وهو سبحانه يجازي في الدنيا والآخرة، ولا يتوقف جزاؤه على الآخرة فقط كما يتوهم الناس، فمن يستطيع أن يجازي العبد في الآخرة قادر على أن يجازيه في الدنيا عاجلا، لأن الله قادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

لذا قال ابن عطاء الله رحمه الله: جل ربنا، أي تنزه ربنا جل في علاه عن الظلم وتأخير الحقوق، بأن يعامل العبد الضعيف نقدا، أي معاملة ناجزة، فيجازيه الله نسيئة، أي مجازاة مؤجلة، ويعلم ذلك العارفون به فإنه يجازيهم في الحال بكل أنواع المجازاة، ومن أعظم ما يجازيهم به هو توفيقهم لعبادته، وتحقيقه لعبوديتهم، وفتح باب محبته لمعرفة كنهه، فتهيم أرواحهم، وتطير نفوسهم في عالم الملكوت والروحانيات.

فمن وفقه الله للهدى، وأعطاه قوى لبلوغ المدى فراعى نفسه وزكاها، فقد أفلح، ومن حرم التوفيق فأهمل نفسه ودساها فقد خاب وخسر، ومن كان خائفا في الدنيا من العذاب، متحفظا مما يثبت عليه في الكتاب، متجنبا لمعصية رب الأرباب، وفقه الله

مولاه للحق والصواب، وييسر عليه برحمته الحساب، ومحيت أوزاره من الكتاب، ورضي عنه الملك الوهاب، وأمر به إلى الجنة وحسن المآب.

ومما يؤسف له أن كثيرا من الناس لا يعرف الله ولا معاملته مع الخلائق، ولا يعرف مراد الله عز وجل منه، تجده دوما ساخطا على قدره، غير راض بما أُعطي، قلّ عمله وكثرت شكواه، يعامل الله بالقلة ويريد أن يعامله الله بالكثرة، يعامله بالنسيان ويريد من الله ذكره، يعامل نعمه بالجفوة ويريد دوامها، يضج بالشكوى من قلة المال ويأمل في الزيادة، يسهو عن صلاته ويسهو فيها ويريد القبول، يخرج الصدقة مغلولة بها يده غير طيبة بها نفسه ويتمنى من الله قبولها، لا يرحم الخلق ويريد أن يرحمه الخالق، يشهّر بالناس ويطلب من الله الستر، يغلظ على أولاد الناس ويطلب من الله حفظ أولاده ورحمتهم، لا يعرف أن القاعدة الإلهية: كيفما تعامل الله يعاملك.

إن الله عز وجل ذو فضل عظيم وإحسان عميم، إن عاملته بالإخلاص عاملك بالقبول، وإن عاملت عباده بأمر سقاك منه، رحمة برحمة، وشفقة شفقة، وإعانة بإعانة، وظلما بظلم، ومكرا بمكر، ورياءً برياء، وتشهيرا بتشهير، وسترا بستر، إن ظلمت أحدا من العباد سلط عليك من يظلمك، وإن رحمت رحمك، وجعل في طريقك من يرحمك، وإن لم تَرحم لا تُرحم، إن نصرت ضعيفا نصرك، وإن جبرت خاطرا جبرك، وإن أقمت مكسورا أقامك، إن تواضعت لله رفعك، وإن تكبرت خفضك، وإن كنت له عبدا جعلك بين الناس سيدا، وإن لم تكن له خاشعا جعلك بين الناس ذليلا خاضعا، إن حرصت على رضاه حرص الخلق على رضاك، إن أحببته ألقى محبتك في قلوب عباده، وإن بعدت عنه ألقى الظلمة في وجهك، والبغضاء لك في قلوب الناس، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، ولا يعيش المرء ولا يموت إلا على ما اختار في أولاه من شقاوة أو سعادة.

يقول ذو النون: من صحح استراح، ومن تقرب قُرّب، ومن صفا صُفي له، ومن توكل وُثّق، ومن تكلف ما لا يعنيه ضيع ما يعنيه.

إن من يعامل الله بالإحسان يعامله بالإحسان: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا

الْإِحْسَانُ﴾(١)، ومن يقبل على الله يقبل عليه، ومن يذكره يجد الله له ذاكرا، ففي الحديث (إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)(٢)، فما ظننا بعبد يعقل بالله، وينطق بالله، ويسمع بالله، ويبصر بالله، ويبطش بالله، ويمشي بالله، كيف يكون سعيه وآثاره ومنقلبه في الدنيا.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هو خير منه، وإن اقترب إلي شبرا اقتربت إليه ذراعا، وإن اقترب إلي ذراعا اقتربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)(٣).

وفي المقابل من ينسى الله ينساه وينسيه نفسه، يقول تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾(٤)، أي تركوه فتركهم، وتركهم له ترك نصيبهم منه، وتركه عز وجل لهم ترك ما يحبون من أمور الآخرة، قال العلماء: إن الله يعاملهم معاملة المستهزئ، أما في الدنيا فبإجراء أحكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالإمهال، وأما في الآخرة فيروى أنه يفتح لأحدهم باب الجنة فيسرع نحوه فإذا سار إليه سُدّ دونه، ثم يُفتح له باب آخر، فإذا أقبل عليه سُدّ دونه.

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ

---

(١) سورة الرحمن الآية ٦٠.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث رقم٧٤٠٥، الصحيح ١٢١/٩، وأخرجه مسلم في الحديث رقم٢٦٧٥، الصحيح ٢٠٦١/٤.

(٣) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٥٠٢، الصحيح ١٠٥/٨.

(٤) سورة التوبة الآية ٦٧.

الْفَاسِقُونَ﴾[١]، أي تركوا عبادته وتوحيده فتركهم، فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسى الله، إذ ليس ذات الله مدركا في هذا العالم بالحواس الخمس، وكل من نسي الله أنساه الله لا محالة نفسه، ونزل إلى رتبة البهائم، وترك الترقي إلى الأفق الأعلى، وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه، ويصبح كافرا لأنعمه، ومتعرضا لنقمته، وهو أسوأ حالا من البهيمة، فإن البهيمة تتخلص بالموت وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها، فتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة، وإما زاهرة مشرقة.

ومثل ذلك تفريج الكروب، والستر على الناس، فمن يفرج كرب أخيه يفرج الله كربه، ومن يستر على أخيه يستره الله، ففي الحديث (من فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب الآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن ستر على أخيه المسلم ستره الله في الدنيا والآخرة)[٢].

وروي عنه ﷺ أنه قال: (أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تطرد عنه جوعا، أو تقضي عنه دينا، ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد – يعني مسجد المدينة– شهرا، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كتم غيظه، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يثبتها، أثبت الله قدميه يوم تزول الأقدام)[٣].

انظر إلى المقابل لكل فعل، إن الله عز وجل جعل الستر بالستر، والإعانة بالإعانة، والقبول بإخلاص العمل، وكف الغضب سبب رضا، وهكذا.

وفي المقابل من يشهر بالناس ويلوك أعراضهم وصفاتهم ونقائصهم بلسانه سلّط

(١) سورة الحشر الآية ١٩.

(٢) أخرجه النسائي في الحديث رقم٧٢٤٦، السنن الكبرى ٤٦٦/٦.

(٣) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٦٠٢٦، المعجم الأوسط ١٣٩/٦.

الله عليه من يشهر به ويفضحه على ملأ من الناس، فكيفما تعامل الله وعباده يعاملك، فقد روى ابن ماجه أن النبي ﷺ قال: (من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته)[١].

وعن النبي ﷺ: (من سمّع يسمّع الله به، ومن راءى راءى الله به وصغره وحقره)[٢].

وفي الحكم العالية يقال: من سمع بفاحشة، فأفشاها، كان فيها كالذي بدأها.

ولو عددنا في كل مجال ما كفانا كتاب كامل في هذا الأمر، فلنكتف بهذا القدر ونسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يعلمون فيعملون فيخصلون فيقبلون، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

## ٩٠- كَفَى مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيَكَ لَهَا أَهْلًا

إن من أعظم النعم على الإنسان أن يقبله الله ويرتضيه لعبادته، فلو رجعت لنفسك وسألتها: من أنت حتى يرتضيك مالك الملك وملك الملوك لعبادته، هذا الشرف لا يدانى ولا يبارى، فكفى مجازاته على الطاعة أن رضيك أيها العبد الضعيف أهلا لها، وهذا من أعظم النعم التي امتن الله بها عليك، نسأل الله العظيم دوامها.

ولذا قال أحد العارفين: من أحسن العبادة أن يمتلئ قلب العبد من حب الطاعة، فإذا فاض عملت الجوارح على قدر ما رأت من القلب، فربما كانت الجوارح في العبادة والقلب في البطالة.

قيل له: وكيف عبادة القلب دون الجوارح؟ وكيف يفيض القلب بالعبادة الى الجوارح؟.

قال: أن يصير وعاءً للهم والحزن، والافتقار والخوف، والندامة، والتواضع،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم٢٥٤٦، سنن ابن ماجه ٢/٨٥٠.

(٢) أخرجه مسلم في الحديث رقم٢٩٨٦، الصحيح ٤/٢٢٨٩.

والاضطرار الى الله عز وجل، والنصح له، وحب ما يحب الله، وبغض ما يبغض الله، فإذا عامل الله على هذا بقلبه هاجت الجوارح بمثل ما رأت من القلب، فانبعث على الطاعة، وإنما يكون ذلك من القلب إذا خالط سويداءه ما تأتي به القيامة.

وقال أبو بكر الواسطي: حفظ الطاعة أشد من فعلها، لأن مثلها كمثل الزجاج سريع الكسر، ولا يقبل الجبر، كذلك العمل إن مسه الرياء كسره، وإذا مسه العجب كسره، وإذا أراد الرجل أن يعمل عملا وخاف الرياء من نفسه، فإن أمكنه أن يخرج الرياء من قلبه فينبغي له أن يجتهد في ذلك، وإن لم يمكنه فينبغي أن يعمل ولا يترك العمل لأجل الرياء، ثم يستغفر الله تعالى مما فعل فيه من الرياء، فلعل الله تعالى أن يوفقه للإخلاص في عمل آخر.

وكان شميط بن عجلان يقول: والله ما رأيت أبدانكم إلا مطاياكم إلى ربكم عز وجل، قال: فأنضوها في طاعة الله عز وجل بارك الله فيكم.

وعن أبي خيرة قال: دخلنا على بكر بن عبد الله نعوده فوافقناه وقد قام لحاجته قال: فجلسنا في البيت، فأقبل إلينا يهادى بين رجلين، فسلم ثم نظر في وجوهنا، فقال: رحم الله عبدا أعطي قوة فعمل بها في طاعة الله، أو قصر به ضعف فكف عن محارم الله عز وجل.

وكان يزيد بن ميسرة يقول: لا تضر نعمة معها شكر، ولا بلاء معه صبر، ولا بلاء في طاعة، طاعة الله خير من نعمة في معصية الله.

وقال حذيفة: من أراد أنسا بلا جماعة، وعزا بلا عشيرة، فليتخذ طاعة الله بضاعة.

ولا تكون هناك طاعة من غير إصلاح القلوب، وتنقية السرائر، ومراعاة ما في الضمائر، فعليها مدار القبول، وبها يتم العمل المقبول، فقد قال أبو حاتم: قطب الطاعات للمرء في الدنيا هو إصلاح السرائر وترك إفساد الضمائر.

ومن أطاع الله بهذه الصورة جاءته المنح والمنن، ونزلت عليه العطايا، وهبت عليه رياح السكينة، وألبسه الله لباس الوقار، فقد قال لقمان لابنه: يا بني، اتخذ طاعة

الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله.

وكان سهل يقول: لا تطلق روح العبد في معرفة الله حتى تستقيم نفسه في طاعة الله.

## ٩١- كَفَى الْعَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ، وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤَانَسَتِهِ

إن أهل التصوف يفرحون باللطائف والمعاني التي تسعد بها أرواحهم، وتطير بها قلوبهم، فهم لا يريدون من الله المحسوسات ولا الشهوات المادية التي يبحث عنها أكثر الخلق، فهم للمعاني لا للمباني، فكفاهم من مولاهم جزاءً وأجرا ما هو فاتحه عليهم حال طاعته من إلهامات، ومواهب، وعلم لدني، ومكاشفات، وأنوار وأسرار، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته، ودخول حضرته وحظيرة قدسه، هذا هو بغيتهم وغايتهم، لذا قالت السيدة رابعة العدوية:

كلهم يعبدونك من خوف نار ويرون النجاة حظا جزيلا
وبأن يسكنوا الجنان فيحظوا بقصور ويشربوا سلسبيلا
ليس لي بالجنان والنار حظ أنا لا أبتغي بحبي بديلا

وقال بعض العارفين:

الأنس بالله لا يحويه بطال وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم نجب وكلهم صفوة لله عمال

والأنس بالله عز وجل له مظاهر عدة، منها الأنس بالعلماء، والتقرّب من الأولياء، وارتفاع الوحشة بمجالسة أهل الخير، وسعة الصدر والروح عندهم، وفي مقام الأنس يكون التملق والمناجاة، ومعه تكون المحادثة والمجالسة، ومعنى من البسط، ولا يحبّ الله تعالى هذا النوع من الإدلال إلاّ ممن أقامه مقام الأنس.

وسئل بعض العارفين: ما علامة الأنس بالله؟ قال: إذا رأيته يوحشك عن خلقه فإنه يؤنسك من نفسه، وإذا رأيته يؤنسك من خلقه فإنه يوحشك من نفسه.

وقال ذو النون المصري: إذا أحب القلب الخلوة فقد أوصله حب الخلوة إلى الأنس بالله، ومن أنس بالله استوحش من غير الله، فلله در قلوب أنست بجلال الله، وارتعدت فرقا لهيبته.

وما أجملها حكمة لبعض العارفين حين نصح مريده قائلا: إياك أن تطمع في الأنس بالله وأنت تحب الأنس بالناس، وإياك أن تطمع في حب الله وأنت تحب الفضول، وإياك أن تطمع في المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس.

ولما كان الأنس بالله مختلفا، والنفوس فيه متفاوتة قسم أبو حامد الغزالي القلوب الآنسة بالله والمستوحشة منه إلى أقسام، فقال: تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام: قلب لا يحب إلا الله تعالى، ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به، والفكر فيه، وقلب لا يدري ما لذة المعرفة، وما معنى الأنس بالله، وإنما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية، وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه، والتلذذ بمعرفته والفكر فيه، ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية، وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية، ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة، أما الأول فإن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية البعد، وأما الثاني فالدنيا طافحة به، وأما الثالث والرابع فموجودان ولكن على غاية الندور، ولا يتصور أن يكون ذلك نادراً شاذاً، وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة، وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام، فلا يزال يزداد العهد طولاً، وتزداد مثل هذه القلوب قلة إلى أن تقترب الساعة، ويقضي الله أمراً كان مفعولا.

اللهم اجعلنا من المحبين لك، واجعل قلوبنا تمتلئ بحبك والرغبة فيك وإليك، ولا تبعدنا عن أنسك ولا توحشنا منك، إنك خير مأمول.

## ٩٢- مَنْ عَبَدَهُ لِشَيءٍ يرجُوه مِنْهُ، أوْ لِيَدْفَعَ بِطَاعَتِهِ وُرُودَ الْعُقُوبَةِ عَنْهُ فَمَا قَامَ بِحَقِّ أوْصَافِهِ

ما هذا الجمال يا ابن عطاء؟، أنت عطية الله للخلائق، عرفتنا كيف يكون الحب في العالم المادي الذي طغى على القلوب، وامتلأت به النفوس، فلا نعرف المعاني الجميلة الجليلة التي بها تعيش العقول، وتسكر منها الأرواح، ولا يوقظها إلا الموت.

يا الله، أين نحن من هؤلاء الذين لا يعبدون الله لشيء يرجونه منه، أو ليدفع عنهم العقوبات، أو ليمتعهم بالنعيم، ما كان هذا بغيتهم من الجليل العظيم، وإنما بغيته من مولاهم أنهم يحبونه من أجل ذاته العلية، والقيام بحق صفاته الجمالية والجلالية والكمالية الذاتية، فما يأتي من الجميل إلا الجمال، لذلك قال أبو حازم المدني: إني أستحي من ربي أن أعبده خوفا من العذاب، فأكون مثل عبد سوء، إن لم يخف لم يعمل، وأستحي أن أعبده لأجل الثواب، فأكون كالأجير السوء، إن لم يعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبة له.

من أجل ذلك عاشوا سكارى بحبه، لا يحزنون، ولا يقنطون، ولا يتكدرون، ولا يتألمون، إنهم غارقون في حلاوة مولاهم الكريم الرحيم، هم في راحة لو علمها الملوك لقاتلوهم عليها، فهل يتركون من هذا شأنه وهو الله وتتعلق قلوبهم بالأكدار والأغيار، يا عجبا لذلك.

ولذا قال بعض العارفين: الورع يبلغ بالعبد إلى الزهد، والزهد يبلغ به حبّ الله تعالى، فهذان الحالان غاية الطالبين، الحبّ للجليل، والأنس باللطيف، فمن لم يتحقق بالزهد لم يبلغ مقام الحبّ، ولم يدرك حال الأنس.

وقال الشاعر مخاطبا الله عز وجل:

يا رب نفس قد تزايد شـــرها      واسترسـلت منقادة لهوائي
وتمكنت من غيها وتجاهلت      وتغافلت عن منتهى عقبائي
لا تأت للخيــرات إلا شهوة      فســلوكها أبدا سلوك مرائي

وانظر أيها المريد إلى كرم الكريم في هذه المناجاة:

يا من يرى العاصي فيستر حاله ... يا نعم ستّير عن الرقباءِ
يا من يقول إذا دعاه عباده يا ... لبيك عبدي وهاك عطائي
من إذا اشتد كرب قال ها ... أنا يا عبادي ألطفُ اللطفاءِ
يا مَن إذا الأسحار هب نسيمها ... نادى تنزله أجلَّ نداءِ
هل مَنْ مريد عطا وهل من تائب ... إني بخلقي أرحمُ الرحماءِ

يقول الغزالي رافعا التلبيس في حب الله: اعلم أن المحبة يدعيها كل أحد، وما أسهل الدعوى، وما أعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان، وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات، ولم يطالبها بالبراهين والأدلة، والمحبة شجرة طيبة، أصلها ثابت، وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح، وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار، ودلالة الثمار على الأشجار.

فهل بعد كل هذا نحب شيئا سواه، وهل تتعلق الروح بغيره، وهل نطلب إلا مودته وكرامته ورضاه، هذه نعمة نسأل الله دوامها.

## ٩٣- مَتَى أعطَاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ، وَمَتَى مَنَعَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ، فَهُوَ في كُلِّ ذَلِكَ مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ

يقلب الله –عز وجل– عبده في صفاته حتى يرى بره وقهره من صفات الجمال والجلال، فمتى أعطاك أيها المريد ما تريد أشهدك بره، أي صفات الجمال والبر من كرم وجود ولطف وعطف وقرب ورحمة، وما إلى ذلك، وعند المنع يريك صفات الجلال والقهر كالكبرياء والعزة والاستغناء وما إلى ذلك من صفات القهر، وفي كلتا الحالتين هو متعرف إليك، أي يريد منك أن تعرفه بجميع صفاته، فلم يحرمك من شيء، ومع هذا الجود والكرم من الإله المتفضل بجميع صفاته على عبده، فهو دائما يلاطفه بوجود لطفه عليه، ويتقلب في صفات المنع والعطاء، وهذا لطف عظيم منه، فإنه لا سبيل إلى معرفة الله عز وجل إلا بتعرفه لعباده عن طريق صفاته التي تعتريهم، سواء كان

ذلك موافقا لطبعهم، وهو العطاء، أو مخالفا، وهو المنع والحرمان، فالعارفون لم يفرقوا بين هذه الصفات، لأن المنع منه عطاء عندهم، فهم يرون اللطافة في كل شيء.

واعلم أن الواردات التي تتجلى بالحقائق والعلوم إنما هي واردات أهل النهاية، وأما واردات أهل البداية فإنها تأتي قوية قهارة، إما بخوف مزعج أو شوق مقلق، لترحله عن شهواته وعوائده.

واعلم أن الواردات هي الأحوال، والأحوال نتائج الأعمال في الغالب.

والمنع والعطاء بيد الله وحده، فهو المعطي والممسك، والمانع والمانح، والقابض والباسط، فمنعه عطاء كما أن عطاءه عطاء.

وقد كتب عمر بن الخطاب ﵁ إلى بعض عماله، فكان في آخر كتابه: أن حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة؛ فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة، عاد مرجعه إلى الرضاء والغبطة، ومن ألهته حياته وشغله مهواه عاد مرجعه إلى الندامة والحسرة، فتذكر ما توعظ به لكي تنتهي عما تنهى عنه.

وقال الحسن البصري رحمة الله تعالى عليه: إن التضرع في الرخاء استعاذة من نزول البلاء، ويجد صاحبه متكأ إذا نزل به.

وقال الثوري: منع الله عطاء، لأنه يمنع من غير بخل ولا عدم، فمنعه اختبار وحسن نظر.

وقال فضيل بن عياض: يا بشر الرضاء الأكبر عن الله عز وجل الزهد في الدنيا. قال: قلت: كيف هذا يا أبا علي؟ قال: يكون العطاء في قلبك والمنع بمنزلة واحدة.

وقال ذو النون: وُصِف لي رجل بالمغرب، وذُكِر لي من حكمته وكلامه ما حملني على لقائه، فرحلت إليه إلى المغرب، فأقمت على بابه أربعين صباحاً على أن يخرج من منزله إلى المسجد ويقعد، فكان يخرج وقت كل صلاة يصلي، ويرجع كالوالِه لا يكلم أحداً، فقلت له يوماً: يا هذا إني مقيم ها هنا منذ أربعين صباحاً، لا أراك تكلمني. فقال لي: يا هذا لساني سبع إن أطلقته أكلني. فقلت له: عظني رحمك الله

بموعظة أحفظها عنك. قال: وتفعل؟ قلت: نعم إن شاء الله، قال: لا تحب الدنيا، وعد الفقر والغنى والبلاء من الله نعمة، والمنع من الله عطاء، والوحدة مع الله أنساً، والذل عزاً، والطاعة حرفة، والتوكل معاشاً، والله تعالى لكل شديدة عدة.

فعلى الموقن أن يشكر في القبض والمنع كما يشكر في العطاء والبسط، ثم يشهد الشاكر بقلبه شهادة يقين، ويعلم أن وصفه وصف العبودية، وحكمه أحكام العبيد، محكوم عليه بأحكام الربوبية، وأنه لا يستحق على الله شيئا، وأن الله عز وجل يستحق عليه كل شيء، فالعبد خلقه وصنعته، والرب صانعه ومالكه، فإذا شهد العبد هذه الشهادة رأى لله عز وجل عليه كل شيء، فرضي منه بأدنى شيء، ولم ير له على الله تعالى شيئا، فلم يقنع لله تعالى منه بشيء، ولم يطالب مولاه بشيء.

## ٩٤- إنَّما يُؤلِمُكَ المَنْعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللّهِ فيهِ

بدهي أن يفرح الإنسان دوما بالعطاء ويتألم من المنع، فهذه طبيعته، لكن العارفين بالله يعلمون تماما أن المنع من الله عطاء، لأنه منعك ليصيرك من أحبابه الذين حماهم من دنس الدنيا، فلم يشغلهم بالفانية عنه، ولذلك لم تصبهم الأكدار فيها، فهمهم في الدنيا تحقيق معنى العبودية، والقيام بحقوق الربوبية، لذلك تغمرهم السعادة التي لا تنقطع ولا تكدر أبدا، نسأل الله دوامها، آمين.

وربما منعك ظاهرا وأعطاك باطنا، أو منعك حسيا وأعطاك معنويا، وأنت لا تشعر بهذا العطاء لانشغالك بالدنيا.

ولذا لما نصح لقمان ابنه قال له: يا بني، اردد رغبتك إلى الله، إن شاء أعطاك، وإن شاء منعك، فإن حيلتك لن تزيديك، ولن تنقصك من قسمة الله التي قسم لك، واعتبر رزقك بخلقك، فإن استطعت أن تزيد في خلقك بحيلتك فإنك إذا تزيد في رزقك، وإلا فاعلم أن الله هو الذي عدل الخلق، وقسم الرزق، فلن تستطيع أن تزيد في أحد منها، فإن منهم المحتال الجلد البطوش، ولا يزداد إلا فقرا، ومنهم المعيي الواهن المهين، ولا يزداد ماله إلا كثرة، ولو كان من الحيلة لسبق القوي الضعيف إلى كل

شيء، ولكن الله يخلق ويرزق، ولا يملك العباد من ذلك شيئا.

وقد جاء في الخبر: كفى باليقين غنى، فالمؤمن وثق بالله، واعتمد عليه دون كل شيء، وقنع منه بأدنى شيء، وصبر عليه، ورضي عنه، إذ لا بد له منه، فثم لا يطمع في سواه، ولا يرجو إلا إياه، ولا يشهد في العطاء إلا يده، ولا يرى في المنع إلا حكمته، ولا يعاين في القبض والبسط إلا قدرته، هناك حقت عبادته وخلص توحيده فعرف الخلق من معرفة خالقه.

ومن هنا فإن المؤمن الحقيقي لا يرى الإعطاء والمنع من العبد شيئا، فالله تعالى هو من يجعله يعطي أو يمسك، فالعطاء من العبد تسخير من الله، والإمساك منه منع من الله.

ولما سأل إبراهيم رجلا من أصحابه درهمين فلم يكن معه، فأخرج فتى في مجلسه كيسا فيه مائتا درهم، فعرضه عليه فلم يقبله وقال: أو كل من بذل لنا شيئا قبلناه منه؟ لا نقبل إلا ممن نرى نعمة الله عليه فيما أعطى أعظم من نعمته علينا فيما نأخذ.

وعن الحسن أن رجلا بذل له جملة من المال فرده، فلما انصرف قال له هاشم الأوقص: عجبت منك يا أبا سعيد، رددت على الرجل كرامته، فانصرف حزينا، وأنت تأخذ من مالك بن دينار ومحمد بن واسع الشيء بعد الشيء، فقال له الحسن: ويحك إن مالكا وابن واسع ينظران إلى الله فيما نأخذ منهما، فعلينا أن نقبل، وإن هذا المسكين ينظر إلينا فيما يعطي، فرددنا عليه صلته، وعندها لا تذم أحدا ولا تبغضه لأجل أنه كان سببا لمنعه، إذ كان الله هو المانع الأول، وإذ له في المنع من الحكمة مثل ما له من العطاء من النعمة، ولكن نذمه وننقصه ونبغضه إن كان استوجب ذلك من مولاه، فيكون موافقا له، والله تعالى يشهد يده في العطاء، ويمدح المنفقين نهاية في كرمه، ويشهد في المنع والمكروه مشيئته، ويذم الباخلين والعاصين قدرة من حكمته وحكما من تقديره لإظهار الأحكام، وتفصيل الحلال والحرام، وعود الثواب والعقاب على الأنام، فقد أظهر الأمر واستأثر بسر القدر فعمل المؤمن بما أمر وسلم له ما استأثر.

فاعقد قلبك أيها المريد لسيدك، لأنه إن أعطاك لم يقدر أهل الأرض أن يمنعوك، وإن منعك لم يقدر أهل الأرض أن يعطوك، لأن سلطانه عظيم وبتوكلك عليه يكفيك، فالمتوكل ساكن القلب الى المضمون، فمن قطع تعلق القلب بالأسباب لم ير شيئا إلا الله، لأن قدر الله جار على المتوكل وغيره.

## ٩٥- رُبَّما فَتَحَ لكَ بابَ الطّاعَةِ وَما فَتَحَ لَكَ بابَ القَبولِ، وَرُبَّما قَضى عَلَيْكَ بِالذَّنْبِ فَكانَ سَبَبَاً في الوُصولِ

يظن الناس أن الطاعة هي سبب قبول الله لهم، وأن المعصية تبعدهم عن الله عز وجل، فجاء ابن عطاء الله رحمه الله بهذه الحكمة التي تبين مراد الله من خلقه فقال ربما فتح لك باب الطاعة ولم يجعلك مخلصا فيها، أو اعتراها محبط من المحبطات، كالكبر والعجب، والرياء، أو احتقار من لم يفعل هذه الطاعة من العباد، فكان ذلك سببا في عدم قبولها، وربما قضى عليك بالذنب لكن قارن الذنب شدة الندم واستصغار النفس وحسن الاعتذار إلى الله فكان ذلك سببا في الوصول إلى الله عز وجل، نسأل الله التوبة، آمين.

ولذا قال بعض العارفين: من أراد أن يكسر العجب فعليه أربعة أشياء: أولها أن يرى التوفيق من الله تعالى، فإذا رأى التوفيق من الله تعالى، فإنه يشتغل بالشكر، ولا يعجب بنفسه.

والثاني: أن ينظر إلى النعماء التي أنعم الله بها عليه، فإذا نظر في نعمائه اشتغل بالشكر عليها، واستقل عمله، ولا يعجب به.

والثالث: أن يخاف أن لا يتقبل منه، فإذا اشتغل بخوف القبول، لا يعجب بنفسه.

والرابع: أن ينظر في ذنوبه التي أذنب، قبل ذلك، فإذا خاف أن ترجح سيئاته على حسناته فقد قل عجبه، وكيف يعجب المرء بعلمه، ولا يدري ماذا يخرج من كتابه يوم القيامة، وإنما يتبين عجبه وسروره بعد قراءة الكتاب.

وقيل: إن العبد لا يخلو من أربعة أحوال، إما أن يكون في الطاعة، أو في

المعصية، أو في النعمة، أو في الشدة، فإن كان في الطاعة، فينبغي أن يذكر الله تعالى بالتوفيق، ويسأله منه القبول، وإن كان في المعصية، فينبغي أن يدعو الله بالامتناع، ويسأله التوبة، وإن كان في النعمة يذكره بالشكر، وإن كان في الشدة يذكره بالصبر.

وقال بعضهم: إذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا، أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها.

وقال السوسي: مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط.

وقال الجنيد: إن لله عبادا عقلوا، فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع.

وقال محمد بن سعيد المروزي: الأمر كله يرجع إلى أصلين، فعل منه بك، وفعل منك له، فترضى ما فعل، وتخلص فيما تعمل، فإذن أنت سعدت بهذين، وفزت في الدارين.

والأمر كذلك في الذنوب، فربما كان سببا في التوبة والعودة إلى الله تعالى، فلا يكتبه الله عليه، ويجعله سببا في قبوله، فقد قال أيوب الفلسطيني: مكتوب في مزامير داود عليه السلام: تدري لمن أغفر من عبادي؟ قال: لمن، يا رب؟ قال: للذي إذا أذنب ذنبا ارتعدت لذلك مفاصله؛ ذاك الذي آمر ملائكتي أن لا تكتب عليه ذلك الذنب.

وقال عبد الله بن مسعود: إن من أحب الكلام إلى الله أن يقول العبد: اللهم أعترف بالذنب، وأبوء بالنعمة فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

وعن الربيع بن خثيم، أنه قال لأصحابه: ما الداء؟ وما الدواء؟ وما الشفاء؟ قالوا: لا نعرف، قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب فلا تعود.

وعن جعفر قال: قيل لسعيد: من أعبد الناس؟ قال: رجل اجترح من الذنوب فكلما ذكر ذنبه احتقر عمله.

والرجل الفاضل ينبغي له أن يخاف على نفسه ولا يثق بعمله، ويكون الغالب

عليه الخشية، ويصغر نفسه، لقوله: ليتني تخلصت من ذلك كفافا، وقد سئلت عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[١]، فقالت: نعم، الذين يعملون الأعمال الصالحة ويخافون ألا تتقبل منهم، وعلى هذا مضى خيار السلف، كانوا من عبادة ربهم في الغاية القصوى، ويعدون أنفسهم في الغاية السفلى خوفا على أنفسهم، ويستقلون لربهم ما يستكثره أهل الاغترار.

فقد ثبت عن عمر أنه تناول تبنة من الأرض، فقال: يا ليتني هذه التبنة، يا ليتني لم أك شيئا، يا ليت أمي لم تلدني، يا ليتني كنت نسيا منسيا.

وقال: لو كانت لي الدنيا لافتديت بها من النار ولم أرها.

وقال قتادة: قال أبو بكر الصديق: وددت أنى كنت خضرة تأكلني الدواب.

وقالت عائشة عند موتها: وددت أنى كنت نسيا منسيا.

وقال أبو عبيدة: وددت أنى كبش يذبحني أهلي يأكلون لحمي ويحسون مرقي.

وقال عمران بن حصين: وددت أنى رماد على أكمة تسفيني الرياح في يوم عاصف.

فانظر يا رعاك الله إلى هؤلاء العظام كيف يخشون الله فرقا من فتح باب الطاعة وغلق باب القبول مع أن منهم إن لم يكن كلهم مبشرون بالرحمة والرضوان وأعالي الجنان، فما بالنا ونحن لا نساوي خردلة منهم نتطاول ونتباهى بقليل العمل ونثق بالقبول، فانظر إلى ما وفقك الله إليه من عمل، واطلب منه القبول، فليست العبرة بالعمل وإنما بالإخلاص فيه، فمن أخلص كتب الله له القبول، لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك، نسأل الله صحة العمل والقبول له.

## ٩٦- مَعْصِيَةٌ أَورَثَتْ ذُلاً وافْتِقاراً خَيرٌ مِنْ طاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزاً وَاسْتِكْباراً

إن الكبر والتعالي أسوأ صفة تكون في المرء، ويكفي بها سببا لغضب الله تعالى ولو كان الكبر بسبب طاعة، ولأن يقع المرء في معصية تورثه التواضع والذلة لله خير

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٦٠.

من أن يقوم بعمل حسن يتباهى به ويتكبر على خلقه، وفي هذه الحكمة بين ابن عطاء الله رحمه الله سبب قبول المعصية وسبب عدم قبول الطاعة، فقال إن هذه المعصية أورثت العاصي الذل والافتقار، وهما من أوصاف العبودية، والعبودية قريبة من خير البرية، وخير البرية قريب من رب العطايا والهدية، أما الطاعة التي أورثت عزا واستكبارا فهما من أوصاف الربوبية، والتعلق بهما يبعدان الإنسان عن المراتب العلية، وموجبان للخذلان، ولذلك قال الله في الحديث القدسي: (الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما، قذفته في النار)[١].

وقال ابن مدين: انكسار العاصي خير من صولة المطيع.

وكان أبو العباس المرسي ربما دخل عليه المطيع فلا يعبأ به، وربما دخل عليه العاصي فيكرمه.

وإنما كان ذلك لمشاهدته أن الطائع أتى وهو متكبر بعلمه، معجب بطاعته، وأن العاصي دخل عليه بذل مخالفته، ومشاهدة معصيته.

وهنا يجب على العبد ألا تغريه المظاهر، بل عليه بالمخابر، والطاعات ليست مطلوبة لذاتها ولا لصورها، بل لما احتوت عليه من الخشوع والتذلل لله عز وجل، فإذا خلت من ذلك فخير منها المعصية التي تورث الخضوع والتذلل لله عز وجل، أما الطاعة التي فيها ذل وانكسار فهي خير من ألف معصية فيها ذل وانكسار.

وقد قال مجاهد: الاغترار هو أن يغتر بالله، فيعمل المعصية ويتمنى المغفرة.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: إن من صلاح توبتك أن تعرف ذنبك، وإن من صلاح عملك أن ترفض عجبك، وإن من صلاح شكرك أن تعرف تقصيرك.

وعن مطرف قال: لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إلي من أن أبيت قائما وأصبح معجبا.

وذُكر أن شابا من بني إسرائيل رفض دنياه، واعتزل عن الناس، وجعل يتعبد في

---

(١) سبق تخريجه.

بعض النواحي، فخرج إليه رجلان من مشايخ قومه ليرداه إلى منزله، فقالا له: يا فتى أخذت بأمر لا تصبر عليه، فقال الشاب: قيام الناس بين يدي الله، أشد من قيامي هذا. فقالا له: إن لك أقرباء، فعبادتك فيهم أفضل، فقال الشاب: إن ربي إذا رضي عني أرضى عني كل قريب، وصديق. فقالا له: أنت شاب لا تعلم، وإنا قد جربنا هذا الأمر، ونخاف عليك العجب، فقال الشاب: من عرف نفسه لم يضره العجب، فنظر أحدهما إلى صاحبه فقال: قم، فإنه وجد ريح الجنة فلا يقبل قولنا.

وذكر في الخبر أن داود عليه السلام خرج إلى ساحل فعبد ربه سنة، فلما تمت السنة قال: يا رب قد انحنى ظهري، وكلّت عيناي، ونفدت الدموع، فلا أدري إلى ماذا يصير أمري، فأوحى الله تعالى إلى ضفدع أن أجيبي عبدي داود عليه السلام، فقالت الضفدع: يا نبي الله: أتمن على ربك في عبادة سنة؟ والذي بعثك بالحق نبيا، إني على ظهر بردية منذ ثلاثين سنة، أو ستين، أسبحه، وأحمده، وإن فرائصي ترعد من مخافة ربي.

وقد جعل العلماء علامات على هذا الغرور والتجافي عن الحق سبحانه، فهذا أحدهم يقول: من علامة الاغترار أن تسئ فيحسن الله إليك، فتترك الإنابة والتوبة توهما أنك تسامح في الهفوات، وترى أن ذلك من بسط الحق لك.

والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا.

قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط.

وما أبدع قول الشاعر مخاطبا المتكبر:

يا مظهر الكبر إعجابا بصورته    انظر خلاك فإن النتن تثريب

لـو فكـر النـاس فيمـا فـي بطـونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل فـي ابن آدم مثل الرأس مكرمـة وهو بخمس من الأقذار مضروب
أنـف يسـيل وأذن ريحهــا ســهك والعين مرفضـة والثغر ملعوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا أقصر فإنك مأكول ومشـــروب

فمن أراد كسر هذا العجب، وإزالـة ذلك الاغترار فليسمع لهذه النصيحة البديعة للفقيه رحمه الله وهو يقول: من أراد أن يكسر العجب فعليه أربعة أشياء: أولها: أن يرى التوفيق من الله تعالى، فإذا رأى التوفيق من الله تعالى، فإنه يشتغل بالشكر، ولا يعجب بنفسه.

والثـاني: أن ينظـر إلـى النعمـاء التـي أنعم الله بهـا عليـه، فـإذا نظـر فـي نعمائـه اشتغل بالشكر عليها، واستقل عمله، ولا يعجب به.

والثالث: أن يخاف أن لا يتقبل منه، فإذا اشتغل بخوف القبول، لا يعجب بنفسه.

والرابع: أن ينظر في ذنوبه التي أذنب قبل ذلك، فإذا خاف أن ترجح سيئاته على حسناته فقد قل عجبه، وكيف يعجب المرء بعلمه، ولا يدري ماذا يخرج من كتابه يوم القيامة، وإنما يتبين عجبه وسروره بعد قراءة الكتاب.

نسأل الله العظيم أن يرزقنا الذل له والافتقار حتى نلقاه، آمين.

## ٩٧- نِعْمَتانِ ما خَرَجَ مَوْجودٌ عَنْهُما، وَلا بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ مِنْهُما: نِعْمَةُ الإيجادِ، وَنِعْمَةُ الإِمْدادِ

قلنا سابقا إن الله -عز وجل- قد اختص بنعمتين لا غنى لكل مخلوق عنهما، وكل الأكوان مخلوقة حتى الجنة والنار والعرش والكرسي، وهاتان النعمتان هما نعمة الإيجاد، أي أن الله عز وجل هو الذي أوجد وخلق وسوى جميع هذه الموجودات، وليس هناك خالق سواه، أوجد ذلك من العدم المحض، المجهول لدينا، المعلوم عنده سبحانه وتعالى.

والنعمـة الثانيـة نعمـة الإمـداد بالمنـافع التـي تبقـي هـذه المكونـات، والأنـوار التـي

تهتدي بها هذه المكونات، فلولا إمداده ما كان إيجاده سبحانه وتعالى عما يشركون.

فيا ابن آدم كيف لا تتقي مولاك وقد والى عليك النعم وأولاك وكيف لا تطيع من أوجدك وبراك وأنت تعلم أنه يسمعك ويراك، وكيف نسيت من خلقك وسواك وتغافلت كأن المخاطب سواك، وكيف أقبلت على الهوى إذ دعاك وأعرضت عمن يرحم افتقارك ويستجيب دعاك، وكيف بارزت من لطف بك ورباك، وهو الذي عطف عليك أمك وأباك.

وكل ما أوجد الله تعالى في هذا العالم فإنما أوجده لأجل الإنسان، إما لانتفاعه به كالخيل والبغال والحمير، أو للتغذية به، كالبقر والغنم والحبوب والثمار، وإما لانتفاع ما ينتفع به الإنسان كالعشب والحشرات، وما لا يعرف الإنسان نفعه فليس يخرج عن كونه نافعا، وقد بين الحكماء والعلماء نفع معظمها، وما لا سبيل لبعضنا أو لكلنا إلى معرفة نفعه فليس جهلنا به قادحا في حكمة الله تعالى في إيجاده، ورُبّ شيء جهلنا نفعه وقد سخر لمعرفته بعض الحيوان؛ كالشجر الذي فيه العسل بالقوة، وما سخر لمعرفته واستخراجه إلا النحل، وما أليق من أنكر حكمة الله تعالى لجهله إلا أن يقال له ما قاله الشاعر المبدع:

علي نحت القوافي من مقاطعها وما علي إذا لم تفهم البقر

وليعلم المرء أن كل ما أوجد لفعل من الأفعال فشرفه بتمام وجود ذلك الفعل منه، ودناءته بفقدان ذلك الفعل منه؛ كالفرس فإنه مخلوق للعدو، والسيف موجود للقطع والعمل المختص به في القتال، ومتى لم يوجد فيه المعنى الذي أوجد لأجله كان ناقصا، فإما أن يُطرح طرحا، وإما يُرد إلى منزلة النوع الذي هو دونه، كالفرس إذا لم يصلح للعدو في الكر والفر اتخذ حمولة، أو أُعد أكولة، والسيف إذا لم يصلح للقطع اتخذ منشارا، والقلب إنما يكون في الحقيقة قلبا إذا كان متخصصا بما قد أوجد لأجله، وما أوجد لأجله هو المعارف الحقيقية.

فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى، ولا لعبادته، ولا لعمارة أرضه فالبهيمة خير منه، ولذلك قال الله تعالى في ذم الذين فقدوا هذه الفضيلة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ

وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(١)، فلم يرض أن يجعلهم أنعاما ودواب حتى جعلهم أضل منها، وجعلهم من أشرارها، وأخرج كلامهم عن جملة البيان.

وإن الله تعالى أوجد أعراض الدنيا بُلْغةً فاتخذها الناس عقدة، وجعل الدنيا منزلا وممرا، فصيروها موطنا ومقرا، إلا قليلا منهم، فإنهم أنزلوها حيث أنزلها الله تعالى، وتاجروا بها مع ربهم.

إن ابن عطاء الله في هذه الحكمة البديعة يذكر الإنسان بنفسه، ويذكره بأصله ووصفه، وأنه مخلوق وجد بنعمة خلق الله له، ويعيش بإمداد الله له، فكيف يعملا عن هاتين النعمتين.

وقد زاد ابن عطاء الله هذه الحكمة تفصيلا بالحكم التالية لها، ليفهم الإنسان المقصود بالإيجاد والإمداد، وكيف أنهما النعمة التي لولاهما ما وجد شيء ولا استمر في وجوده.

## ٩٨- أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوَّلاً بِالإِيجَادِ، وَثَانِيَا بِتَوَالِي الإِمْدَادِ

لقد عرفنا في الحكمة السابقة معنى الإيجاد والإمداد، فلماذا يكررها ابن عطاء رحمه الله ثانية بهذا الترتيب؟.

لقد رتبها ابن عطاء الله رحمه الله للناس لكي يعلموا أن الإيجاد الذي جاء بعد نعمة متواصل الإمداد، ولا يتخلله انقطاع وإلا زال وانتهى، فإنه مفتقر دائما افتقار ذاتي للإمداد لبقائه واستمراره، فلولا نعمة الإيجاد ما كان، ولولا نعمة الإمداد ما بقي، فهو مفتقر إلى الله في جميع أحواله، وهذا ما قصده المؤلف.

يقول الشاعر:

لكل شيء إذا فارقته عوض     وليس لله إن فارقت من عوض

والمعنى ألا تركن إلى شيء دون الله، فإنه وبال عليك، وقاتل لك، فإن ركنت إلى

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٩.

العلم تتبعناه عليك، وإن أويت إلى العمل رددناه إليك، وإن وثقت بالحال وقفناك معه، وإن آنست بالوجد استدرجناك فيه، وإن لحظت الخلق وكلناك إليهم، وإن اغتررت بالمعرفة نكرناها عليك، فأي حيلة لك، وأي قوة معك، فارض بنا ربا نرضى بك عبدا.

ولا يجب للعاقل أن يعتمد على مجاورة نعم الله عنده فلا يقضي منها حقوقها، لأن من أساء مجاورة نعم الله أساءت مجاورته وتحولت عنه إلى غيره.

وفي الأثر: من لم يعرف نعم الله تعالى عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه.

ويقال: إن في باطن الجسم من النعم سبعة أضعاف النعم التي في ظاهره، وإن في القلب من النعم أضعاف ما في الجسم كله من النعم، وإن نعم الإيمان بالله تعالى والعلم واليقين أضعاف نعم الأجسام والقلوب؛ فهذه كلها نعم مضاعفة على نعم مترادفة لا يحصيها إلا من أنعم بها، ولا يعلمها إلا من خلقها، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، سوى نعم المطعم والمشرب والملبس والمنكح، من دخول ذلك وخروجه، وكثرة تكرره وتزايده، بأن أدخل مهناه، وأخرج أذاه، وبأن طيب مدخله، ويسر مخرجه، وبقى منفعته، وما أحال من صورته، وغيّر من صفته، فللتزهيد والذلة والاعتبار والتذكرة؛ وتلك أيضا نعم لا تحصى.

ولذا ليكن أملك أيها المريد وهدفك وصلاتك ونسكك لله رب العالمين، فما كان له دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل.

من عرف الله فلم تغنه     معرفة الله فذاك الشقي
ما يصنع العبد بعز الغنى     والعز كل العز للمتقي

## ٩٩- فَاقَتُك لَكَ ذَاتِيَّةٌ، وَوُرُودُ الأَسْبَابِ مُذَكِّرَةٌ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيكَ مِنْهَا وَالفَاقَةُ الذَّاتِيَّةُ لا تَرْفَعُهَا العَوَارِضُ

إن الإنسان مهما بلغ شانه، وعلت مكانته، ومهما ملك من أسباب القوة ووسائل المنعة فإنه مفتقر إلى مولاه افتقارا ذاتيا، ودائما مضطر إليه في كل نفس يدخل أو

يخرج، وفي كل لحظة وحين، وهنا جاء ابن عطاء الله رحمه الله بما يبين ذلك، فقال: فاقتك أي فقرك إلى الله فقر ذاتي، فلو ملكت الدنيا بما فيها وكل أسباب الغنى ما أخرجك ذلك عن صفتك الذاتية وهي الفقر، لأن العارض لا يزيل الذاتي، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1]، فالعدم سابق على وجودك، ووجودك مفتقر إلى المدد في كل وقت، وإلا تلاشى وانعدم، كالصورة في التلفاز لو انقطع عنها مدد الكهرباء لتلاشت وانعدمت، كذلك أنت، ومن نعمة الله عليك أن أورد عليك الأسباب التي تذكرك بذلك، فأورد عليك الفقر والمرض والاحتياج مذكرات لك بما خفي عليك من أنك عبد فقير إلى الله فقرا ذاتيا، فإن كثيرا من الناس يغفلون عن ذلك إذا دامت عليهم النعم والصحة، وما حمل فرعون على أن قال أنا ربكم الأعلى إلا دوام الصحة والعافية وزيادة النعم، فقد قيل إنه مكث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه، ولم يضرب عليه عرق، ولو أخذته الشقيقة ساعة واحدة لشغله ذلك عن دعواه الربوبية، ولأحس بالفقر الذاتي.

والرجل الفاضل ينبغي له عندما تجدد له نعمة وسلامة أن يقر لله بطاعته، ويسأله أن يديم له حال توبته وعبادته له، وإن كان الرسول قد تقرر عنده أنه لا يزال تائبا عابدا ساجدا حامدا لربه، لكن هذا هو أدب الأنبياء، لعلمهم بمواقع نعم الله عندهم يعترفون له بها، ويرغبون ويبرؤون إليه من الحول والقوة، ويظهرون الافتقار إليه مبالغة في شكره تعالى، ولتقتدي بهم أممهم في ذلك صلوات الله عليهم.

ولذا لما سئل أحد العارفين عن أحسن العبادة قال: أحسن العبادة أن يمتلئ قلب العبد من حب الطاعة، فإذا فاض عملت الجوارح على قدر ما رأت من القلب، فربما كانت الجوارح في العبادة، والقلب في البطالة.

قيل: وكيف عبادة القلب دون الجوارح؟ وكيف يفيض القلب بالعبادة الى الجوارح؟

قال: أن يصير وعاء للهم والحزن، والافتقار والخوف والندامة، والتواضع

---

(١) سورة فاطر الآية ١٥.

والاضطرار الى الله عز وجل، والنصح له، وحب ما يحب الله، وبغض ما يبغض الله.

فإذا عامل الله على هذا بقلبه هاجت الجوارح بمثل ما رأت من القلب، فانبعث على الطاعة، وإنما يكون ذلك من القلب إذا خالط سويداءه ما تأتي به القيامة، ولا يزال العبد مضطرا إلى مولاه في كل شيء، سواء كان في الدنيا أو في الآخرة، حتى ولو دخل الجنة، فهو محتاج إلى مولاه دائما وأبدا، وهذه هي سمة العارفين.

وقد كان أبو يزيد البسطامي يقول: سله بلسان الحاجة، لا بلسان الحكمة.

وقال الحسن: ادع بلسان الاستكانة والافتقار، لا بالفصاحة والانطلاق.

وقال ابن القيم رحمه الله: من أراد الله به خيرا فتح له باب الذل والانكسار، ودوام اللجوء إلى الله تعالى، والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه، وجهلها، وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه، ورحمته وجوده، وبره وغناه وحمده.

ويقال من علامات التوفيق ثلاث: دخول أعمال البر عليك من غير قصد لها، وصرف المعاصي عنك مع الطلب لها، وفتح باب اللجوء والافتقار إلى الله عز وجل في الشدة والرخاء، ومن علامات الخذلان ثلاث: تعسر الخيرات عليك مع الطلب لها، وتيسر المعاصي لك مع الرهب منها، وغلق باب اللجوء والافتقار إلى الله عز وجل في كل حال، فنسأل الله تعالى بفضله حسن التوفيق والاختيار ونعوذ به من سوء القضاء والأقدار، ونسأله الافتقار إليه، والغني عن الناس، اللهم ارزقنا ما رزقت أولياءك وفقراءك ومساكينك من الاستغناء بك، والافتقار إليك، واكرمنا بما تكرمنا به من كرامة أوليائك يوم القدوم عليك يا كريم، آمين.

**١٠٠- خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتٌ تَشْهَدُ فِيهِ وُجُودَ فَاقَتِكَ، وَتُرَدُّ فِيهِ إِلَى وُجُودِ ذِلَّتِكَ**

تعد هذه الحكمة إجابة عن سؤال قد يثور في النفس لكل إنسان، حيث يدور في ذهنه ما خير أوقاتي؟ وما خير أوقات الناس بصفة عامة؟.

لنفرض أن هذا سؤال قد ثار في ذهن الكثيرين وبحثوا عن إجابته، لا شك أن الإجابة هنا ستختلف، وتتعدد حسب أمزجتهم وأحوالهم، وتبعا لرغباتهم وشهواتهم

وأفكارهم، والكل مخطئ فيما قد يجيبه.

ولكن ابن عطاء بما أمده الله من نور، وبما حباه من تقوى وعلم يتكلم بلسان الحق فيقول إن خير أوقاتك وقت أن تشهد وجود فقرك واحتياجك إلى مولاك، ووقت تُرَد فيه إلى وجود ذلتك، وهذا أعظم أوقات المريد، وهو الوقت الذي يرى فيه غناه من ربه، لأن غير ذلك يحجبه عن الله عز وجل، وما أحسن ما قيل في هذا الشأن:

بنى الله للأحباب بيتا سماؤه     هموم وأحزان وحيطانه الضر

وأدخلهــم فيه وأغلــق بابــه     وقال لهم مفتاح بابكم الصبر

فمخدوع من ظن أن الدنيا متاع، ومغرور من انغمس فيها، فليس فيها إلا ذكر الله والافتقار إليه، والاضطرار لمن خلقك فسواك، وأكرمك فهداك، ومن كل ما سألته أعطاك، فله الحمد الجزيل والشكر العظيم على تفضله وعطاياه.

والصادق إذا نظر اعتبر، وإذا صمت تفكر، وإذا تكلم ذكر، وإذا مُنع صبر، وإذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي استرجع، وإذا جُهل عليه حلم، وإذا علم تواضع، وإذا علم رفق، وإذا سُئل بذل، شفاءٌ للقاصد، وعون للمسترشدٌ، حليف صدق، كهف بر، قريب الرضا في حق نفسه، بعيد الهمة في حق الله تعالى، نيته أفضل من عمله، وعمله أبلغ من قوله، موطنه الحق، ومعقله الحياء، ومعلومه الورع، وشاهده الثقة، له بصائر من النور يبصر بها، وحقائق من العلم ينطق منها، ودلائل من اليقين يعبر عنها.

وقد بلغ العلماء والعارفون المثل العالي والقدوة الصالحة في تجاهل الذات، وتواضع النفس، وحب خمول الذكر، وعدم البطر على الناس أو التكبر على الخلق، حتي قال بعض العارفين: من رأى لنفسه قيمة على الكلب فهو المتكبر الممقوت عند الله.

وعن عمر بن الخطاب ﵁ قال: إن الرجل إذا تواضع لله رفع الله حكمته.

وقال: انتعش نعشك الله، فهو في نفسه صغير، وفي أعين الناس كبير، وإذا تكبر العبد وعدا طوره وهصه الله إلى الأرض، وقال: اخسأ أخسأك الله، فهو في نفسه كبير، وفي أعين الناس صغير.

وبلغ من تواضع الشافعي أن قال: ما ناظرت أحدا فأحببت أن يخطئ، وما في قلبي من علم إلا وددت أنه عند كل أحد، ولا ينسب إلي.

وقال أبو اليزيد: ما دام العبد يرى في الخلق من هو أشر منه فهو متكبر، ولا يكون متواضعا حتى لا يثبت لنفسه حالا ولا مقالا.

وقال الإمام الجنيد: من رأى نفسه قد تواضعت فهو يحتاج إلى تواضع، ولو تبرأ منها ومن تواضعها لكان متواضعا.

وقيل: من كان في تواضع، ثم تواضع لله، كان من خالص الله يوم القيامة.

وعن جرير بن عبد الله قال: قال لي سلمان: يا جرير تواضع لله، فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة.

وعن نوف البكالي قال: أوحى الله إلى الجبال أني نازل على جبل منكن. قال: فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور؛ فإنه تواضع. قال: أرضى بما قسم الله لي. قال: فكان الأمر عليه.

وعن ابن منبه قال: طوبى لمن نظر في عيبه عن عيب غيره، طوبى لمن تواضع لله من غير مسكنة، ورحم أهل الذل والمسكنة، وتصدق بمال جُمِع من غير معصية، وجالس أهل العلم والحلم والحكمة، ووسعته السنة ولم يتعدها إلى البدعة.

وقال مجاهد مرسلا: قال: ما من بني آدم أحد إلا وملك آخذ بناصيته، فإن تكبر وضعه الله عز وجل، وملك آخذ بحكمته، فإن تواضع رفعه.

وقال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل لزوم التواضع ومجانبة التكبر، ولو لم يكن في التواضع خصلة تحمله إلا أن المرء كلما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعة لكان الواجب عليه ألا يتزيا بغيره.

وعن الفضيل بن عياض قال: إن الله عز وجل يحب العالم المتواضع، ويبغض الجبار، ومن تواضع لله ورثه الله الحكمة.

فالتواضع الحقيقي هو ما كان ناشئا عن شهود عظمة الحق، وتجلي ذاته وصفاته، وهو تواضع العارفين بالله تعالى.

اللهم لا تحرمنا محبتك، ولا تقطعنا من عبوديتك، آمين.

## ١٠١- مَتى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَ الأُنْسِ بِهِ

إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإن رضي اجتباه، فإن رضي أحبه واصطفاه، فيكون صفيه وحبيبه، لهذا بين ابن عطاء الله رحمه الله أن الله إذا أحب عبدا أوحشه من خلقه، بأن يسلطهم عليه، فيكثر أذاهم له حتى يسوقوه إلى ربه سوقا، فينفر من الخلق، ويقبل على الخالق فيفتح الله له باب أنسه، ليصير له وحده، ومتى فتح لك هذا الباب صيرك من الأحباب، وآنسك بالخطاب، فيترك الأغيار ويلزم الأعتاب.

ومن أحسن حالا ممن فتح الله له بابه، وألزمه عتبته، فهو به راضٍ، وبإقباله عليه سعيد شاكر، يرى العبادة لذة لأنها من أمر مولاه، ويرى المناجاة متعة، والتعلق بالله نجاة، ويرى الخلق وكأنهم لا وزن لهم ولا قيمة، وأين هم من عظمة الخالق؟، وأين رحمتهم من رحمته؟، وأين بابهم من بابه؟، هل يقارن اللاشيء بكل شيء؟، وهل يقارن العدم بالوجود؟، أم هل يُرى المُعدَم مع خالق العدم والوجود؟.

وصدق من قال: الواصلون هم المحبون، تتباهى بهم الملائكة في الملأ الأعلى، ألا إن حب الله عز وأمل، وحب غير الله خزي وخجل.

فمن أحب شيئا أكثر من ذكره، ولا تكون المحبة إلا عن ذوق ومعرفة، فلا يكون ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود، فكل من فني في ذكر الله فإن روحه شهدت جمال الحضرة، وهو وإن لم ير ذلك ولكنه يستشعره كالهواء.

وقد تفطن العارفون إلى أثر الصحبة الطيبة، فإن كانت أمسك المرء بتلابيبها، وإلا فالخلوة خير له من جليس السوء الذي لا يدل على خير، ولا يأمر بفضيلة.

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل إذا رزقه الله ود امريء مسلم صحيح الوداد محافظ، عليه أن يتمسك به، ثم يوطن نفسه على صلته إن صرمه، وعلى الإقبال عليه إن صد عنه، وعلى البذل له إن حرمه، وعلى الدنو منه إن باعده، حتى كأنه ركن من أركانه، وإن من أعظم عيب المرء تلونه في الوداد.

وقال أحد العارفين: من كان يحب القرب من الله فليترك ما يباعد من الله تعالى.

ومن يقلب بصره في مجالس الناس اليوم يجد عجبا، فإنه ما من أحد جالس الناس في هذا الزمان وعاشرهم إلا قلت سلامته من الغيبة، فإن من شأنهم اليوم أن يقع بعضهم في بعض، وأن يشبع بعضهم بعضا، وأن يتمضمضوا بذكر الأعراض، ويتفكهوا بها، ويتنقلوا بحلاوتها، فإما أن يساعدهم جليسهم على إثم وترك مروءة، وإما أن يخالفهم عن احتقار له وشنآن منهم، فمجالستهم داء يعدي، يضر ولا يجدي، لا يسلم مجالسهم من الغيبة ولا يفتك من النميمة، فإما أن يعينهم فيلقى غضب الله تعالى، أو يعظهم فيلقى من استهزائهم وبغضهم، فكانت السلامة بمصاحبة الله تعالى أجدى وأنفع، وكرههم في هذه الحالة وكره المريد لهم نعمة من الله تعالى يجب أن يشكره عليها، لأنه أراد أن يقربه منه سبحانه.

لأنه إذا خلا الوقت من صاحب خير فقد اختار الله له القرب منه، فليجعل من الله صاحبا وهاديا، وأفضل ما يكون ذلك في زمن الفتن وأوقات المحن، فالعزلة فيها خير من جليس لا يراعي حق الله تعالى، ولذا لما قال عقبة بن عامر الجهني للنبي ﷺ: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال ﷺ: (املك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)[١].

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: (كيف بكم وبزمان يوشك أن يأتي يغربل الناس فيه غربلة، وتبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم، وأماناتهم، فاختلفوا، وكانوا هكذا؟، وشبك بين أصابعه، قالوا: كيف بنا يا رسول الله إذا كان ذلك؟ قال: تأخذون بما تعرفون، وتدعون ما تنكرون، وتقبلون على خاصتكم، وتذرون أمر عوامكم)[٢].

وفي رواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد في الحديث رقم٢٢٢٣٥، المسند ٥٧١/٣٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم٣٩٥٧، سنن ابن ماجه ١٣٠٧/٢.

إذ ذكر الفتنة، أو ذكرت عنده، فقال ﷺ: (إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم، وخفت أمانتهم، وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه، قال: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ فقال ﷺ: الزم بيتك، وأملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع عنك أمر العامة)(١).

وعن أبي سعيد قال: قال رجل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ قال: (مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله. قال: ثم من؟ قال: ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب، يعبد ربه، ويدع الناس من شره)(٢).

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (ليأتين على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية، ومن شاهق إلى شاهق، ومن جحر إلى جحر، كالثعلب الذي يروغ. قالوا: ومتى ذاك يا رسول الله؟ قال: إذا لم تُنل المعيشة إلا بمعاصي الله عز وجل، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة. قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله، وقد أمرتنا بالتزوج؟ قال: لأنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يدي أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يدي زوجته وولده، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يدي قرابته. قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: يعيرونه بضيق المعيشة، فيتكلف ما لا يطيق حتى يورده موارد الهلكة)(٣).

والعزلة لها فوائدها، فمعرفة الله تحب في الخلوة والجلوة، ولكن الخلوة بعضا من القوت يجلو صحائف القلوب، ويحيي موات النفوس، ويجعلك تتأمل في آيات الله تعالى، فلا تغفل عن مطلوب، ولا تقرأ آيات الله وأنت مغلق القلب، معمى البصر، بعيد عن هديه سبحانه وتعالى.

وقد كان الصحابة ﷺ وغيرهم من التابعين والعرفين والعلماء يوصون بالعزلة

---

(١) أخرجه أحمد في الحديث رقم٦٥٠٨، المسند ٥٤/١١.

(٢) أخرجه مسلم في الحديث رقم١٨٨٨، الصحيح ١٥٠٣/٣.

(٣) أخرجه الأصفهاني ي حلية الأولياء ١١٨/٢.

وقتا، ويعلمون أنها توفيق من الله تعالى، يقول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: خذوا بحظكم من العزلة.

وكان يقول: في العزلة راحة من خليط السوء.

وقال أبو الدرداء: نعم صومعة الرجل بيته، يكف سمعه وبصره ودينه وعرضه، وإياكم والجلوس في الأسواق فإنها تلهي وتلغي.

وكان ابن إبراهيم بن أدهم يقول: لو لم يكن في العزلة أكثر من أنك لا تجد أعوانا على الغيبة لكفى.

وقال أيضا: لو لم يكن في العزلة إلا السلامة من آفة الرياء والتصنع للناس، وما يدفع إليه الإنسان إذا كان فيهم من استعمال المداهنة معهم، وخداع المواربة في رضاهم لكان في ذلك ما يرغب في العزلة ويحرك إليها.

ويقول الخطابي رحمه الله: وفي العزلة السلامة من المأثم في المنكر يراه الإنسان فلا يغيره، والأمان من غوائل أهله ومن عاديتهم إذا غيره، فقد أبى أكثر أهل هذا الزمان قبول النصائح، ونصبوا العداوة لمن دعاهم إلى هدى، أو نهاهم عن ردى، فلو لم يكن في الوحدة والتباعد منهم إلا السلامة من إثم المداهنة، وخطر المكافحة، لكان في ذلك الربح الرابح، والغنيمة الباردة.

ونقل عن الفضيل بن عياض أنه كان يقول: من خالط الناس لم يسلم من أحد اثنين: إما أن يخوض معهم إذا خاضوا في الباطل، أو يسكت إن رأى منكرا فيأثم، وقد جمع رسول الله ﷺ في الوعيد، وسوى في العقوبة بين من أتى المنكر وبين من رآه فلا يغيره ولا يأباه.

وعن مسروق قال: المرء حقيق أن تكون له مجالس يخلو فيها، فيذكر ذنوبه ويستغفر منها.

وقال: وفي العزلة السلامة من صحبة الثقيل، ومؤونة النظر إليه، فإن ذلك هو العمى الأصغر.

وعن ابن سيرين قال: سمعت رجلا، يقول: نظرت إلى ثقيل مرة فغشي علي.

والعزلة أفضل للعالم إذا أراد التأليف، ففي العيال وهموم الدنيا مشغلة، وقد روي أن محمد بن الحسن رحمة الله عليه لما أخذ في تصنيف الجامع الكبير خلا في سرداب، وأمر أهله أن يراعوا وقت غدائه ووضوئه، فيقدموا إليه حاجته منهما، وأن يؤخذ من شعره إذا طال، وأن ينظف ثوبه إذا اتسخ، وأن لا يوردوا عليه شيئا يشتغل به خاطره، وأقام على ماله وكيلا، وفوض إليه أمره، ثم أقبل على تصنيف الكتاب.

فإن حبب الله إليك الخلوة، وأوحشك من خلقه فأصبحوا ثقلاء عليك إلا في ذكر الله وتلقي العلوم فقد فتح لك باب الأنس به سبحانه، والأنس به هو أن تكون به أشد أنسا منك بخلقه، فمن عرفه وعرف لطفه وكثرة أياديه، وحكمه وبره وعطفه وتفضله أنس به، والعزلة من الخلق تورث الأنس بالحق.

وكان أبو محمد يقول: اجتمع الخير كله في هذه الخصال الأربع، وبها صار الأبدال أبدالا: إخماص البطون، والصمت، واعتزال الخلق، وسهر الليل.

وعن سهل رحمه الله قال: مخالطة الولي للناس ذل، وتفرده عز، وقلما رأيت وليا لله عز وجل إلا منفردا.

وقيل: ومن الرجاء الأنس بالله تعالى في الخلوات، ومن الأنس به الأنس بالعلماء، والتقرب من الأولياء، وارتفاع الوحشة بمجالسة أهل الخير، وسعة الصدر والروح عندهم.

فاجعلنا اللهم ممن أحبك، واستغنى بك عن خلقه، واجعلنا ممن يقف على أعتابك محبوبا مكرما، لا مطرودا مهانا، اللهم آمين.

### ١٠٢- متى أَطْلَقَ لسانَكَ بالطَّلبِ؛ فاعلَمْ أنَّه يُريدُ أنْ يُعطيكَ

إذا أحب الله عبدا رزقه الافتقار إليه، والاضطرار إلى بابه وجنابه، وخلّى قلبه من الأغيار، ثم أطلق لسانه بالدعاء، فإنه يجيبه فيما دعاه، ويعطيه ما يتمناه، وقد وعده الله بذلك فقال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ

الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[(١)]، وهنا ينطلق لسانه دائما بالطلب ليحقق له الله ما وعد، لأن من علامات الإجابة أن يطلق لسانك بالطلب، وقد قال بعض العارفين:

لو لم ترد نيل ما أرجوه من طلب    من فيض جودك ما ألهمتني الطلبا

والله تعالى خلق فسوى، وقدر فهدى، وإذا أراد شيئا قال له كن فيكن، فمتى انطلق لسانك بشكر الله عز وجل على نعمه، والحمد له على ما أعطاك من مننه، وأطلق لسانك بطلبه ومناجاته فخير ما تطلبه أن يجعلك في الدنيا من عباده، وأن يجعلك في الآخرة ممن رضي عنهم وأرضاهم.

على أن يعلم المرء أن الطلب من الله تعالى إنما أجراه على لسانه ليتحقق قدره فيه، ومن هنا كان الاعتقاد بقدر الله تعالى على كل حال، وأن الدعاء سبب وليس نتيجة، فهو من الله وإليه، ولذا قال الحكيم: الناس في الكسب على خمس مراتب، منهم من يرى الرزق من الله تعالى ومن الكسب فهو مشرك، ومنهم من يرى الرزق من الله تعالى، ولا يدري أيعطيه أم لا فهو منافق، شاك، ومنهم من يرى الرزق من الله تعالى، ولا يؤدي حقه ويعصي الله تعالى، فهو فاسق، ومنهم من يرى الرزق من الله تعالى ويرى الكسب سببا، وأخرج حقه، ولا يعصي الله تعالى لأجل الكسب، فهو مؤمن مخلص.

ولذا إذا أراد الله بعبده خيرا أطلق لسانه في طلب ما هو خير له، ولا يطلقه لطلب ما هو شر له، فإن أطلق الله لسانك بالدعاء فادع بالمغفرة والرحمة، والعفو والعافية في الدين والدنيا، وسل الله الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، والبعد عن النار وما قرب إليها من قول وعمل.

وإن أردت كيف كانت دعوة الصالحين وفائدة الدعاء فانظر إلى هذه الأقوال البديعة والقطوف الرائعة، فقد روى أوسط بن عمرو قال: قدمت المدينة بعد وفاة رسول

---

(١) سورة النمل الآية ٦٢.

الله ﷺ بسنة، فألفيت أبا بكر يخطب الناس على المنبر، قال: (قام فينا رسول الله ﷺ عام أول، فخنقته العبرة ثلاث مرات، ثم قال: يا أيها الناس، سلوا الله المعافاة، فإنه لم يؤت أحد مثل يقين بعد معافاة، ولا أشد من ريبة بعد كفر، وعليكم بالصدق؛ فإنه يهدي إلى البر وهما في الجنة، وإياكم والكذب؛ فإنه يهدي إلى الفجور، وهما في النار)[١].

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (سلوا الله من فضله، فإن الله عز وجل يحب أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج)[٢].

وقال عبد الله بن مسعود: سلوا الله العافية، فلستم بعباد بلاء، إن كان الرجل من قبلكم ليسأل الكلمة فيأباها حتى يوضع المنشار على رأسه، فيشق بنصفين وما يعطيها، أي يطلب منه كلمة الفكر فيأبى حتى لو نشر بالمناشير.

وقال يحيى بن معاذ في مناجاته: يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي إليك مع الأعمال، لأني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف؟ وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟.

وقال عبد الله بن الفرج: سلوا الله عفوا جميلا، فقال له أحدهم: يا أبا محمد أي شيء العفو الجميل؟ قال: أن يأمر بك من الموقف إلى الجنة، يعني لا يفتشك.

وكان الإمام أحمد يدعو ويقول: اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك.

وكان عامة دعاء إبراهيم بن أدهم: اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة.

وقال ابن رجب رحمه الله: من عمل طاعة من الطاعات وفرغ منها فعلامة قبولها أن يصلها بطاعة أخرى، وعلامة ردها أن يعقب تلك الطاعة بمعصية، ما أحسن الحسنة بعد السيئة تمحوها، وأحسن منها بعد الحسنة تتلوها، وما أقبح السيئة

---

(١) أخرجه أحمد في الحديث رقم٥٦١، كتاب الزهد ص٩٠.

(٢) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٣٥٧١، سنن الترمذي ٤٥٧/٥.

بعد الحسنة تمحقها وتعفوها، ذنب واحد بعد التوبة أقبح من سبعين ذنبا قبلها، النكسة أصعب من الضعفة، وربما أهلكت، سلوا الله الثبات على الطاعات إلى الممات، وتعوذوا به من تقلب القلوب، ومن الحور بعد الكور، وما أوحش ذل المعصية بعد عز الطاعة، وأوحش منه فقر الطمع بعد غنى القناعة، ارحموا عزيز قوم بالمعاصي ذل، وغني قوم بالذنوب افتقر.

وإذا أراد الله بقلبك خيرا، وأراد بك نعمة هداك إلى ذلك، وجعلك مفتاحا للخير، مغلاقا للشر، وإن أراد بك شرا والعياذ بالله لفت نظرك عنه، وأشغلك بدنياك، وأجرى الشر على يديك، فعن محمد بن سيرين قال: إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له من قلبه واعظا يأمره وينهاه، قال: ويجري الله الخير على يدي من يشاء، أو الشر على يدي من يشاء.

ومتى هداك الله إلى الحق فإياك ومعايرة من حاد عنه، أو التكبر بما أعطاك من نعمة الهداية، فلا تعيبنّ أحدا لعل الله يهديه ويضلك، فإن الأمور بخواتيمها، فكن من الله على حذر، يقول ابن مسعود ﵁: إذا رأيتم أخاكم قارف ذنبا فلا تكونوا أعوانا للشيطان عليه، تقولوا: اللهم أخزه، اللهم العنه، ولكن سلوا الله العافية، فإنا أصحاب محمد كنا لا نقول في أحد شيئا حتى نعلم على ما يموت، فإن خُتم له بخير علمنا أنه قد أصاب خيرا، وإن خُتم له بشر خفنا عليه عمله.

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، اللهم لا تجعلنا في غمرة، ولا تأخذنا على غرة، ولا تجعلنا من الغافلين، واجعلنا ممن أنعمت عليهم فرضوا وشكروا، فرضيت عنهم وزدتهم، اللهم آمين.

## ١٠٣- العَارِفُ لا يَزُولُ اضْطِرَارُهُ، وَلاَ يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللهِ قَرَارُهُ

إن العارف الحقيقي من تحقق من صفاته الذاتية، وهي الفقر والذل والاضطرار والضعف، فإذا تحقق من صفاته رأى صفات الله أمامه، وهي العزة والعظمة والاقتدار، وشملته هذه الصفات، فأصبح نداؤهم مجابا، لأنهم شهدوا قبضة الله المحيطة على

الأكوان، فأحبوه وركنوا إليه، وتوكلوا عليه، ولم يكن قرارهم إلا عند مولاهم، لوجود وحشتهم من المخلوقات، وأنسهم وقربهم من الله عز وجل، فهم دائمو الاضطرار إليه، والرغبة فيما عنده، والزهد فيما عند الناس.

ولذا تجد العارف بالله لا يأنس إلا بوجوده، ولا يستوحش إلا في قربه من الناس، فقربه من الله وخلوته معه جلوة، ولقاؤه به هناء وصفاء، والتجاؤه إليه عز وتمكين، وابتعاده عن الناس هناء وسرور، فهو من الله قريب، ومن بساطه داني، وفي حضرته شاهد مسرور، ولا تجد له في دنيا الناس قرارا، ولا في لقائه معهم انشراحا وسرورا متى شغلوه عن الله، أو أوحشوه من قربه وأنسه.

يقول سهل بن عبد الله: ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار.

وقال ذو النون: اعلموا أن المحب لله عز وجل لا يعظم عنده الإيثار لله؛ لأنه ليس شيء عنده أعظم من الله، فينبغي للمحب لله أن يرى عليه أثر ذلك من رفض الدنيا، لأنه من المحال أن يجتمع في القلب حب الله مع حب الدنيا، فمن أحب الله لم ينظر إلى ما يناله من الدنيا، ولا تكون له حاجة إلى غير من أحب.

ويقول: دلائل أهل المحبة لله أن لا يأنس بسوى الله، ولا يستوحش مع الله، لأن حب الله إذا سكن في القلب آنس بالله، لأن الله أجل في صدور العالمين من أن يحبوه لغيره.

وقال بعض أهل المعرفة: لا يطمع أحد في السهو مع الشبع، ولا يطمع في الحزن مع كثرة النوم، ولا يطمع في صحة أمره مع مخالطة الظلمة، ولا يطمع في لين القلب مع فضول الكلام، ولا يطمع في حب الله مع حب المال والشرف، ولا يطمع في الأنس بالله مع الأنس بالمخلوقين، ولا يطمع في الروح مع الرغبة في الدنيا.

وليس من شرط حب الله والأنس به أن لا يحب في العاجل حظا البتة، إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة، ومن ذلك قولهم: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

وقال عيسى عليه السلام في دعائه: اللهم لا تشمت بي عدوي، ولا تسؤ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي لديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي.

فدفع شماتة الأعداء من حظوظ الدنيا، ولم يقل ولا تجعل الدنيا أصلا من همي، بل قال لا تجعلها أكبر همي، فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضا لحب الله تعالى، فحب السلامة والصحة والكفاية والكرامة في الدنيا كيف يكون مناقضا لحب الله؟.

والعارف مع ذلك منشغل بالله تعالى مؤتنس به، حتى لا يكاد يجيب الخلق أو يخالطهم، فمن أنس بالله تعالى لم يكن مؤانسا لغيره، فقد روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغثيان، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب، وعذوبة ذكره، فيخرج من القلب عذوبة ما سواه.

ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه: يا من آنسني بذكره وأوحشني من خلقه.

وقال الله عز وجل لداود عليه السلام: كن لي مشتاقا، وبي متأنسا، ومن سواي مستوحشا.

وقيل لرابعة: بم نلت هذه المنزلة؟ قالت: بتركي ما لا يعنيني، وأنسي بمن لم يزل.

وقال عبد الواحد بن زيد: مررت براهب فقلت له: يا راهب لقد أعجبتك الوحدة؟ فقال: يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك، الوحدة رأس العبادة. فقلت: يا راهب ما أقل ما تجده في الوحدة؟ قال: الراحة من مداراة الناس، والسلامة من شرهم. قلت: يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفا الود وخلصت المعاملة. قلت: ومتى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم فصار هما واحد في الطاعة.

وقال بعض الحكماء: عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا، عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك.

ومتى أنس العبد بمولاه كانت له أسرار وله مناجاة لا يعلمها ولا يعرفها إلا الله

عز وجل، حتى ليحسب بعض العباد شيئا غير ما هو كائن، ففي الأثر أن موسى عليه السلام خرج ليستسقي لقومه في سبعين ألفا، فأوحى الله عز وجل إليه كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم؟ سرائرهم خبيثة، يدعونني على غير يقين، ويأمنون مكري، ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ، فقل له يخرج حتى أستجيب له، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف، فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله، بين عينيه تراب من أثر السجود في شملة، قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل، فسلم عليه، وقال له: ما اسمك؟ فقال: اسمي برخ، قال: فأنت طُلْبتُنا منذ حين أخرج، فاستسق لنا، فخرج فقال في كلامه: ما هذا من فعالك، ولا هذا من حلمك، وما الذى بدا لك؟ أنقصت عليك عيونك؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك؟ أم نفد ما عندك؟ أم اشتد غضبك على المذنبين؟ ألست كنت غفارا قبل خلق الخطائين؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعطف، أم ترينا أنك ممتنع؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة؟ قال: فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر، وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب، قال: فرجع برخ، فاستقبله موسى عليه السلام، فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربى؟ كيف أنصفني؟ فهمّ موسى عليه السلام به، فأوحى الله تعالى إليه: إن برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات.

وقال الجنيد رحمه الله: أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة.

وقال مرة: لو سمعها العموم لكفروهم، وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك.

### ١٠٤- أَنَارَ الظَّوَاهِرَ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ، وَأَنَارَ السَّرَائِرَ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِه؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ أَفَلَتْ أَنْوَارُ الظَّوَاهِرِ، وَلَمْ تَأْفَلْ أَنْوَارُ القُلُوبِ وَالسَّرَائِرِ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ: إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ وَشَمسُ القُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

لقد أنار الله عز وجل كل المكونات الظاهرة بأنوار الكواكب والشمس والقمر التي هي آثار قدرته، فترى المكونات جميعها بذلك النور، لتهتدي به في أمور معاشها، وأما

السرائر فهي بواطن القلوب الخالية من الأغيار، أي قلوب العارفين بأنوار أوصافه، أي بالعلوم اللدنية والمعارف والأسرار الربانية، لذلك تأفل وتغيب أنوار الظواهر، لكونها ناشئة من الحادث، وهي الشموس والأقمار والكواكب، ولا تأفل أنوار القلوب والسرائر، لكونها ناشئة عن الصفات القديمة، فيجب أن تهتدي بأنوار الباطن حتى تظهر آثاره على الظاهر.

وأنوار القلوب من أنوار الملكوت، وأنوار الأسرار من أنوار الجبروت، وهي غيبية لا يعلم قدرها إلا من ترقى إلى عالم الملكوت أو الجبروت، فحينئذ يدركها ويعلم قدرها علما وحالا.

فالرابحون هم الذين أنار الله قلوبهم للحق، فعرفوا الدنيا وقيمتها وقالوا ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها، فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم لا نسبة له إلى دار القرار ألبتة.

ومن كان مع الله فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل؛ وقذف في القلب من النور نورا عاجلا في دار الدنيا، حتى يوصله إلى ثواب الآجل؛ ألا ترى إلى ما جاء عن رسول ﷺ أنه قال: (إذا قذف النور في قلب عبد انفسح وانشرح، قيل: يا رسول الله، فهل لذلك من علامة؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله)[١]؛ وإنما تجافى عن دار الغرور بما قذف في قلبه من النور، فأبصر به عيوب الدنيا ودواهيها وآفاتها وخدعها وخرابها، فغاب عن قلبه البغي والرياء والسمعة، والمباهاة والفخر والخيلاء والحسد، لأن ذلك إنما كان أصله من تعظيمه الدنيا، وحلاوتها في قلبه، وحبه لها؛ وكان سبب نجاته من هذه آفات برحمة الله رياضته هذه النفس، بمنع الشهوات منها.

ولقد كان النبي ﷺ خير من يعرف صفات الله جل وعلا، وخير من قدس الله

---

(١) أخرجه الحاكم في الحديث رقم٧٨٦٣، المستدرك ٣٤٦/٤.

ودعاه، وخير من صوفه بعظيم الصفات ونعوت الجلال، فلنر هذه الرؤية الكاملة والتعظيم التام لله تعالى في هذه الدعوات المباركات، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ آخر ما يقول حين ينام، وهو واضع خده على يده اليمنى، وهو يرى أنه مقبوض في تلك الليلة: اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فالق الحب والنوى، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين، وأغنني من الفقر)(١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا استفتح الصلاة يكبر، ثم يقول: (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا، لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، اصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك، وإذا ركع قال: اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظامي وعصبي، وإذا رفع رأسه قال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، ملء السموات والأرض وما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، وإذا سجد قال: اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه، وصوره فأحسن صوره، فشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين، وإذا فرغ من الصلاة وسلم قال: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت،

---

(١) أخرجه النسائي في الحديث رقم١٠٥٥٧، السنن الكبرى ٢٩٠/٩.

وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت)(١).

وعن أبي صالح ﷺ روى عن النبي ﷺ أنه: (أمر إذا أراد أحدنا أن ينام، أن يضطجع على شقه الأيمن، ثم يقول: اللهم رب السماوات ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر)(٢).

وعن زيد بن أرقم قال: كان نبي الله ﷺ يقول في دبر صلاته: (اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك، قالها إبراهيم مرتين: ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك، ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة، اللهم ربنا ورب كل شيء، اجعلني مخلصا لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة، ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب، الله الأكبر الأكبر، الله نور السماوات والأرض، الله الأكبر الأكبر، حسبي الله ونعم الوكيل، الله الأكبر الأكبر)(٣).

إن هذه الأدعية التي تستشعر الله وتعظمه، وتدل عليه لهي أكبر بكثير من التعليق عليها، أو بيان روعتها، وإذا كان هذا النبي العربي العظيم العابد المتبتل مَنْ أعطاه الله البلاغة والفصاحة يكرر بعض الأدعية لا عجزا عن البيان ولكن لعدم اتساع أي لغة في الدنيا عن التعبير عما في هذا القلب الكبير لله من تعظيم وإجلال، فكيف نعبر نحن عن هذه الأدعية التي لم ولن يعرف التاريخ لها مثيلا؟، إنه الكشف الكامل، والعيان لله في كل شيء، فهو يراه ظاهرا وباطنا، نورا وبصرا.

---

(١) أخرجه مسلم في الحديث رقم٧٧١، الصحيح ٥٣٤/١.

(٢) أخرجه مسلم في الحديث رقم٢٧١٣، الصحيح ٢٠٨٤/٤.

(٣) أخرجه أحمد في الحديث رقم١٩٢٩٣، المسند ٤٨/٣٢.

## ١٠٥- لِيُخَفِّفْ أَلمَ البَلاءِ عَلَيْكَ عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ المُبْلِي لَكَ، فَالَّذي واجَهَتْكَ مِنهُ الأَقْدارُ هُوَ الَّذي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاخْتِيارِ

كثير من الناس يجزع من الابتلاء بما جُبل عليه من حب الخير لنفسه وأحبابه، ولا يعلم أن الدنيا دار عمل لا دار جزاء، ولا يعلم أن الله تعالى يبتلي من أحبه، فهو إذا أحب عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه وشكواه، وهو يحب صوت عبده، فإذا عرف ذلك السالك إلى الله لم يتضجر من عطايا مولاه، وهو يعلم أن الله هو أرحم به من أبيه وأمه والناس أجمعين، وهذا يجعله دائما لا يتألم من ابتلاءات الله له، فإذا كان يتلذذ بنعمه فلابد أن يصبر على بلائه.

لذا قال ابن عطاء الله رحمه الله: ليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه هو المبلي، وهو الرحيم بخلقه، وهذا يخفف ألم البلاء عنك، فإن الذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار، أي أن الأمور المقدرة عليك من مرض وفقر وغيره هو نفسه الذي عودك حسن الاختيار، أي اختيار الأمر الحسن الذي يلائمك، فافهم وسلم الأمر تسلم، فإن مولاك الحكيم هو بما يصلحك عليم، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١)، فكل هدايا مولاك جميلة، ولا يأتي من الجميل إلا الجميل، وما يأتي من الرحيم إلا الرحمة، فكن بنا يا مولانا رحيما، آمين.

وهل هناك أدل على ذلك من قوله ﷺ: (تنصب الموازين يوم القيامة، فيؤتى بأهل الصلاة، وأهل الصيام، وأهل الصدقة، وأهل الحج، فيؤتون بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، ويصب الأجر عليهم صبا بغير حساب)(٢).

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: (قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢١٦.

(٢) ذكره الأصفهاني في حلية الأولياء ٣/٩١.

قال: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس؛ يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة؛ خففت عنه، ولا يزال البلاء في العبد حتى يمشي في الأرض ليس عليه خطيئة)(١).

وعن أبي سعيد قال: وضع رجل يده على النبي ﷺ فقال: (ما أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حماك؟ فقال النبي ﷺ: إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء، كما يضاعف لنا الأجر، إن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالقمل حتى يقتله، وإن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالفقر حتى يأخذ العباءة فيحبو بها، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء؛ كما تفرحون بالرخاء)(٢).

وعن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله فما يبلغها بعمله حتى يبتلى ببلاء في جسده فيبلغها بذلك البلاء)(٣).

وعن وهب بن منبه قال: في كتب الحواريين: إذا سلك بك سبيل أهل البلاء، فاعلم أنه سلك بك سبيل الأنبياء والصالحين، وإذا سلك بك سبيل أهل الرخاء، فاعلم أنه سلك بك سبيل غير سبيلهم، وخلف بك عن طريقهم.

وعن مسروق قال: ليودن أهل البلاء يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض.

وقال في آخر: يود أهل البلاء في الدنيا إذا أثيبوا على بلائهم يوم القيامة حتى إن أحدهم يتمنى لو أن جلده كان قرض في الدنيا بالمقاريض.

وإن كان من تنبيه هنا أن هناك فرقا بين البلاء والابتلاء، فالبلاء يكون للعصاة تأديبا لهم وانتقاما منهم، والابتلاء يكون للأتقياء الأصفياء تطهيرا لهم وتزيكة لنفوسهم.

ولذا متى وجدت مبتليا من الصالحين فقف بجانبه، وأقل عثرته، وأعنه على نكبته، واجمع شتاته، وفرج كربه، فإن الله ينظر إليه بعطفه، فيقع نظر الله عليك معينا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد برقم٢٩٤، الزهد ص٤٧.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد برقم٣٣٦، الزهد ص٥٣.

(٣) أخرجه هناد بن السري في الحديث رقم٤٠٠، كتاب الزهد ٢٣٧/١.

له فتعان.

وروي عن عيسى ابن مريم عليه السلام أنه أوصى الحواريين فقال: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله عز وجل؛ فتقسو قلوبكم، وإن القاسي قلبه بعيد من الله عز وجل ولكن لا يعلم، ولا تنظروا إلى ذنوب الناس كأنكم أرباب ولكنكم انظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، والناس رجلان: معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء في بليتهم، واحمدوا الله على العافية.

وإذا رأيت من يداهمه البلاء من الظلمة فإياك أن تكون له معينا، أو لعثرته مقيلا، أو بيده آخذا، فإنك حينئذ تقع من نظرة غضب الله عليه فيصيبك من البلاء، ولذا يحذرنا الله عز وجل قائلا: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾(١).

وقد ورد في الأثر أن عيسى عليه السلام قام في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تكافئوا ظالما بظلم فيبطل فضلكم عند ربكم.

علما بأن هناك خطب فادح يجدر بك أن تنتبه له، وهو أن مساس العذاب في الميل للظالم قد ينفعه هو ويضرك أنت، فقد قيل: وقع التحابب بين صالح وظالم، فعذب الصالح بميله للظالم، وغفر للظالم بمحبته للصالح.

فكن على حذر، واعرف بلاء الظالم من ابتلاء المؤمن الشكور، فقف مع المبتلي واترك المبلي، عافانا الله بفضله وعفوه.

## ١٠٦- مَنْ ظَنَّ انْفِكاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ فَذلِكَ لِقُصورِ نَظَرِهِ

إن الله عز وجل قرن الابتلاء باللطف، فلا ينزل الابتلاء إلا ومعه اللطف، لجميل رحمته، ومعرفته بعجز عبده وضعفه، فهو لا يبتليه إلا وينزل مع البلاء لطفه بحاله، وحنوه عليه، ورحمته به، فالعارفون دائما يرون المنن في المحن، ويلمحون

---

(١) سورة هود الآية ١١٣.

العطايا في البلايا، فيتلذذون بذلك، ويشتد قربهم من مولاهم، ويعلمون دائما أن لطف الله لا ينفك عن قدره، فيقولون: اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير، ويلهثون بالدعاء إلى الله عز وجل، ويصبرون على ابتلائه، ويشكرون على عطائه، ويتذوقون كل ذلك.

ويضعون في حسابهم قول النبي ﷺ: (تنصب الموازين يوم القيامة، فيؤتى بأهل الصلاة، وأهل الصيام، وأهل الصدقة، وأهل الحج، فيؤتون بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، ويصب الأجر عليهم صبا بغير حساب)(١).

وروى مصعب بن سعد عن أبيه قال: (قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خففت عنه، ولا يزال البلاء في العبد حتى يمشي في الأرض ليس عليه خطيئة)(٢).

وهذا الابتلاء مع عظمه وشدة وروده لا يفارق لطف الله عز وجل، فلولا لطف الله لاشتد الابتلاء، وعظم أثره، وضاقت به النفس ذرعا، يقول أحد العارفين: لولا العلم لكان الإنسان بهيمة، ولولا اللطف لكانت البلية عظيمة، فاسألوا الله لطفه في جميع الأحوال، وليكن تعظيم القرآن منكم على بال، فبوجود اللطف وعدمه سعد من سعد، وشقي من شقي، وبالتقصير لقي المقصر ما لقي.

ويقول الشاعر:

إِلَيْك مددت الْكَفّ فِي كل شدَّة ... ومنك وجدت اللطف من كل جَانب

وَأَنت مـــلاذي والأنام بمعـزل ... هَل مُسْتَحِيــل فِي الرَّجَـــاء كواجب

وَإِنِّي لأرجـــو مِنْك مَا أَنْت أَهله ... وَإِن كنت خطــــاء كثير المعايب

---

(١) أخرجه الطبراني في الحديث رقم١٢٨٢٩، ولم يعلق عليه، المعجم الكبير ١٨٢/١٢.

(٢) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٢٣٩٨، وقال: هذا حديث حسن صحيح، سنن الترمذي ١٧٩/٤.

رجاؤك رَأس المَال عِنْدِي وَربحه | وزهـدي فِي الْمَخْلُوق أَسْنَى مَنَاقِب
فحقق رجائي فِيك يَا رب واكفني | شـماتة أعدائي وأســوة صَـاحب
وَمن أَيْن أَخْشَى عـدوا وإســاءة | وســترك خَلْفِي من جَمِيع الجوانب
فيا محسنا فِيمَا مضى أَنْت قَادر | على اللطف فِي حَالي فَحسن عواقب

أما قاصر الفهم فيظن انفكاك لطفه عن قدره، فهو ضعيف اليقين بالله رب العالمين، فدائما يتألم ويبكي ويشتكي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اللهم إنا نسألك من النعمة أتمها، ومن العصمة دوامها، ومن الرحمة شمولها، ومن العافية حصولها، ومن العيش أرغده، ومن العمر أسعده، ومن الإحسان أتمه، ومن الإنعام أعمه، ومن الفضل أعذبه، ومن اللطف أقربه، ونسألك أن تغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

## ١٠٧- لا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقُ عَلَيْكَ؛ وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ الهَوَى عَلَيْكَ

إنه لا يخاف عليك أيها المريد أن تلتبس عليك الطرق الموصلة إلى الله عز وجل، لأن الله سبحانه بينها بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ووجود العارفين المرشدين الذين لا يطلبون على ذلك أجرا، ولا يرومون من وراء التعريف به تعالى منفعة، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك حتى يعميك عن رؤيتها، وعن رؤية الحق، فقد قال الإمام البلخي: الطريق واضح، والحق لائح، والداعي قد أسمع، فما التحير بعد هذا إلا من العمى.

فالهوى متى غلب قلبا أعماه، ومتى غلب نفسا سلبها اتزانها، وكانت عبدة لشهواتها من حيث تدري أو لا تدري، فيكون من شرار الخلق الذين وصفهم النبي ﷺ بقوله: (شرار أمتي قوم ولدوا في النعيم وغذوا فيه، همتهم ألوان الثياب، وألوان الطعام،

ويتشدقون في الكلام)[١].

فالعيب ليس في أن تتعم بنعم الله، ولكن العيب أن يميل بك الهوى عن الشكر، وأن تستأثر بك النعم فتحسب أنك من المستحقين لها، والمنعمين المدللين، فالنعمة قد تكون طريقا للاستدراج، والهوى قد يلتبس عليك فيضلك عن سبيل الله، وهو ما يخاف عليك منه ابن عطاء الله، وينبهك إليه أيها المريد، فتنبه.

وقد كان السلف الصالح ممن يرى الطريق الحق ويتبعه، ولا يميل مع الهوى أينما مال، فقد جاء بنو عدي بن كعب إلى حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، فقالوا: إن الله قد أكثر هذا الخير وفشا، فلو أتيت أباك فكلمتيه أن يصيب لنفسه، ويصل قرابته، فأتته، فقالت: يا أبتاه، فذكرت ذلك له، فقال: يا بنية، أنت امرأة نصحت قومك وغششت أباك، إن لي صاحبين مضيا أمامي، وإن أنا لم أسلك طريقهما خشيت أن لا أرافقهما في المنزل، والله لأشركنهما في وخش[٢] المعيشة، لعل الله يشركني معهما في صفوه يوم القيامة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن أخوف ما أتخوف عليكم اثنتين: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، وارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل.

وإن كانت النفس والهوى والشهوة سابقات على الإرادة الصادقة فلابد لصاحبها من الوقوف والنظر والفكر حتى ينقي قلبه مما عرضت به النفس والهوى والشهوة، ويجعل إرادة الله مكان ذلك وأمامه، فيقبله القلب ساءه أو سره، ثم يتحفظ ويتعاهد حتى يختم العمل الذي افتتحه بالإرادة الصادقة بمثل ذلك، وبعد فراغه من العمل ما دام

---

(١) أخرجه الحاكم في الحديث رقم٦٤١٩، ولم يعلق عليه، المستدرك ٣/٦٥٧.

(٢) **الوخش**: الرديء من كل شيء.

الروح في جسده.

وصدق من قال: اجعل نفسك تابعا في طريق الحق، ولا تجعلها قائدا إلى طريق الباطل.

وقال عمر بن الخطاب ﵁: قد أفلح من عصم من الهوى والطمع والغضب، وليس فيما دون الصدق من الحديث خير.

وكان ذو النون يقول: إن لله خالصة من عباده، ونجباء من خلقه، وصفوة من بريته، صحبوا الدنيا بأبدان، أرواحها في الملكوت معلقة، أولئك نجباء الله من عباده، وأمناء الله في بلاده، والدعاة إلى معرفته، والوسيلة إلى دينه، هيهات بعدوا وفاتوا، وواراتهم بطون الأرض وفجاجها، على أنه لا تخلو الأرض من قائم فيها بحجته على خلقه، لئلا تبطل حجج الله، ثم قال: وأين؟ أولئك قوم حجبهم الله من عيون خلقه، وأخفاهم عن آفات الدنيا وفتنها، ألا وهم الذين قطعوا أودية الشكوك باليقين، واستعانوا على أعمال الفرائض بالعلم، واستدلوا على فساد أعمالهم بالمعرفة، وهربوا من وحشة الغفلة، وتسربلوا بالعلم لاتقاء الجهالة، واحتجزوا عن الغفلة بخوف الوعيد، وجدوا في صدق الأعمال لإدراك الفوت، وخلوا عن مطامع الكذب ومعانقة الهوى، وقطعوا عرى الارتياب بروح اليقين وجاوزوا ظلم الدجا، ودحضوا حجيج المبتدعين باتباع السنن، وبادروا إلى الانتقال عن المكروه قبل فوت الإمكان، وسارعوا في الإحسان تعريضا للقعود عن الإساءة، ولاقوا النعم بالشكر استجلالا لمزيده، وجعلوه نصب أعينهم عند خواطر الهمم وحركات الجوارح من زينة الدنيا وغرورها، فزهدوا فيها علانا، وأكلوا منها قصدا، وقدموا فضلا، وأحرزوا ذخرا، وتزودوا منها التقوى، وشمروا في طلب النعيم بالسير الحثيث والأعمال الزكية، وهم يظنون بل لا يشكون أنهم مقصرون، وذلك أنهم عقلوا فعرفوا، ثم اتقوا وتفكروا، فاعتبروا حتى أبصروا، فلما أبصروا استولت عليهم طرقات أحزان الآخرة، فقطع بهم الحزن حركات ألسنتهم عن الكلام من غير هي، خوفا من التزيين فيسقطوا من عين الله، فأمسكوا وأصبحوا في الدنيا مغمومين، وأمسوا فيها مكروبين، مع عقول صحيحة، ويقين ثابت، وقلوب شاكرة، وألسن ذاكرة، وأبدان

صارة، وجوارح مطيعة، أهل صدق ونصح وسلامة، وصبر وتوكل ورضا وإيمان، عقلوا عن الله أمره فشغلوا الجوارح فيما أمروا به، وذكر وحياء، وقطعوا الدنيا بالصبر على لزوم الحق، وهجروا الهوى بدلات العقول، وتمسكوا بحكم التنزيل، وشرائع السنن، ولهم في كل ثارة منها دمعة، ولذة وفكر وعبرة، ولهم مقام على المزيد للزيادة، فرحمة الله علينا وعليهم وعلى جميع المؤمنين والصالحين.

وإن أردت كيف تقوى على هذا فاسمع إلى هذه النصيحة الحكيمة فهي ختام تلك الحكمة البديع لابن عطاء، فقد ورد أن ذا النون قال لفتى من النساك: يا فتى، خذ لنفسك بسلاح الملامة، واقمعها برد الظلامة، تلبس غدا سرابيل السلامة، واقصرها في روضة الأمان، وذوقها مضض فرائض الإيمان تظفر بنعيم الجنان، وجرعها كأس الصبر، ووطنها على الفقر حتى تكون تام الأمر. فقال له الفتى: وأي نفس تقوى على هذا؟ فقال: نفس على الجوع صبرت، وفي سربال الظلام خطرت، نفس ابتاعت الآخرة بالدنيا بلا شرط ولا ثنيا، نفس تدرعت رهبانية القلق، ورعت الدجى إلى واضح الفلق، فما ظنك بنفس في وادي الحنادس سلكت، وهجرت اللذات فملكت، وإلى الآخرة نظرت، وإلى العيناء أبصرت، وعن الذنوب أقصرت، وعلى الذر من القوت اقتصرت، ولجيوش الهوى قهرت، وفي ظلم الدياجي سهرت، فهي بقناع الشوق مختمرة، وإلى عزيزها في ظلم الدجا مشتمرة، قد نبذت المعايش ورعت الحشايش، هذه نفس خدوم، عملت ليوم القدوم، وكل ذلك بتوفيق الحي القيوم.

## ١٠٨- سُبْحانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الخُصوصِيَّةِ بِظُهورِ البَشَرِيَّةِ، وَظَهَرَ بِعَظَمَةِ الرُّبوبِيَّةِ في إظْهارِ العُبُودِيَّةِ

إن الله عز وجل يغار على أوليائه من كل شيء، ويدافع عنهم بكل شيء، فقد قال في الحديث القدسي: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب)[١]، وما ذكر الله حربه لأحد إلا لآكل الربا ومن عادى وليا.

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٥٠٢، الصحيح ٨/١٠٥.

وهو دائما يسترهم من أعين الخلائق، فلا يعرّفهم إلا لمن هم أهل لذلك، ولذا قال ابن عطاء الله تنزه الله عما لا يليق به، الذي ستر -لحكمته وعلمه- سر الخصوصية التي خص بها أولياءه من المعارف والأسرار والكرامات بظهور البشرية، أي بالأحوال التي تعرض للبشر، فقد يكون بعض الأولياء خوّاصا، أو حلاجا، أو بزازا، أو راعيا يرعى الغنم، ويفعل فعل البشر العاديين من الأكل والشرب والمزاح والضحك ليستر خصوصيته بهذه الأشياء التي يقوم بفعلها، فلا يعرفه كثير من الناس، ولولا هذا الستر لكان سر الله مبتذلا غير مصون.

وقوله: ظهر بعظمة الربوبية، العظمة في إظهار آثار العبودية على عباده من الافتقار إلى غناه، والعجز إلى قدرته، وبذلك تظهر عظمة الربوبية من خلال حجاب العبودية.

وإنما كان ذلك لأن طالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار، ويستعبدهم، ويملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم، لأن المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه، ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة، وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا، ويبغي أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع والطوع، مع الفرح بالعبودية والطاعة له، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك العبد بكثير.

ولذا فإن من الصبر حبس النفس عن الخمول والتواضع والذلة، إيثارا للآخرة على الدنيا، وهربا إلى الله تعالى، وتحققا بوصف العبودية.

والسد بين المريد وبين الحق أربعة: المال والجاه والتقليد والمعصية، وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة، فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل، وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه، بالتواضع وإيثار الخمول، والهرب من أسباب الذكر، وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه.

وقد أدرك العارفون قيمة الخفاء، وروعة خمول الذكر تواضعا، والبعد عن الشهرة الزائفة، فكانوا إذا جُهلوا فرحوا، وإذا عرفوا خافوا، لأنهم عرفوا من النبي ﷺ أن أحب

الناس إلى الله الأتقياء الأخفياء.

فعن علي بن أبي طلحة أن النبي ﷺ قال: (لا يستكمل الرجل الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرة الشيء، وحتى يكون ألا يعرف في طاعة الله أحب إليه من أن يعرف في معصية الله)(١).

وعن عبد الله بن شداد (أن النبي ﷺ خرج إلى بطحاء من المدينة، فإذا الناس ينطلقون إلى رجل من أكابر أهل المدينة، يعودونه من مرض، كأنهم عرف فرس، فانطلق هو وأصحابه حتى مروا ببطحان، فإذا هو بزنجية قد أعلق ولدان المدينة في رجليها حبلا وهم يسحبونها، فقال النبي ﷺ لأصحابه: أترون هذه الزنجية، والذي نفس محمد بيده -أو كما شاء الله أن يقول:- لهي خير من ملء الأرض من صاحبكم هذا الذي تساوقون إليه من العشية)(٢).

ويقول علي رضي الله عنه: طوبى لكل عبد نومة، يعرف الناس ولا يعرفونه، يعرفه الله منه برضوان، أولئك مصابيح الهدى، تجلى عنهم كل فتنة غبراء مظلمة، ويفتح الله لهم أبواب رحمته، أولئك ليسوا بالمذاييع البذر، ولا الجفاة المرائين.

وعن أبي طاهر أن ابن مسعود نودي بالصلاة، فأجاب إليها، فأتى أصحاب الأطمار، ولم ير من ذوي البزة أحدا، فقال: ما لي لا أرى من ذوي البزة أحدا؟، ثم قال: خلقان الثياب، جدد القلوب، ينابيع العلم، مصابيح الليل، خرس البيوت، مستخفون في الأرض، معروفون في أهل السماء.

ويقول عبد الله بن عمرو بن العاص: إن أول ثلاثة يدخلون الجنة الفقراء المؤمنين، الذين يتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كان للرجل منهم حاجة لم تقض حتى يموت وهي تجلجل في صدره.

وكان السري السقطي يقول: اجتهد في الخمول، فإن أحوالك تشهرك بين أوليائه

(١) ذكره أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين ٤/٣٥٩.

(٢) ذكره المعافي بن عمران في كتابه الزهد ص٢١٩.

إذا صح مقامك فيها.

وقال الفضيل بن عياض: بلغني إن الله تعالى يقول في بعض ما يمن به على عبده: ألم أنعم عليك؟ ألم أسترك؟ ألم أخمل ذكرك؟.

وقال أيضا: إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا تعرف؟ وما عليك أن لا يثنى عليك؟ وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله تعالى؟.

وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك.

## ١٠٩- لا تُطَالِبْ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ وَلَكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ

يجب على المريد أن يتأدب أولا مع الله، وثانيا مع رسول الله ﷺ، وثالثا مع شيخه وجميع الخلق، ومن تأدبه مع الله تعالى ألا يسيء الظن به، فيقول دعوت فلم يستجب لي، أو تأخر مطلبي، فهذا اعتراض على الله عز وجل، ولكن المريد إنما يقصد بدعائه إظهار العبودية له فقط، لأن ما قُدّر سيكون بغير طلب، لذلك قيل: لو تقدم الأدب لما تأخر الطلب، لأنه لا يسأل عما يفعل، فالله يعطي في الوقت الذي يريد، فلا تطالبه بشيء ليس لك فيه حق، وقف عند حدود الأدب مع الله تعالى تنجو من العطب.

وقد قال العلماء قديما: من العجب إلحاحك في طلب أغراضك! وكلما زاد تعويقها، زاد إلحاحك! وتنسى أنها قد تمتنع لأحد أمرين: إما لمصلحتك، فربما طلبت معجل أذى، وإما لذنوبك، فإن صاحب الذنوب بعيد عن الإجابة.

وقال بعضهم: الدعاء محجوب عن السماء بفساد الطعمة.

ويقال: إنه الله لا يستجيب دعاء عبد حتى يصلح طعمته ويرضى عمله.

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر ألستم مقرين بالإساءة؟ فقالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنا قد سمعناك تقول ما على المحسنين من سبيل، وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون

مغفرتك إلا لمثلنا؟ اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا، فرفع يديه ورفعوا أيديهم، فسقوا.

وقيل لمالك بن دينار: ادع لنا ربك، فقال: إنكم تستبطئون المطر، وأنا أستبطىء الحجارة.

وقال عطاء السلمي: منعنا الغيث، فخرجنا نستسقي، فإذا نحن بسعدون المجنون في المقابر، فنظر إلي فقال: يا عطاء أهذا يوم النشور أو بعثر ما في القبور؟ فقلت: لا، ولكنا منعنا الغيث، فخرجنا نستسقي، فقال: يا عطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية؟ فقلت: بل بقلوب سماوية، فقال: هيهات يا عطاء، قل للمتبهرجين لا تتبهرجوا، فإن الناقد بصير، ثم رمق السماء بطرفه، وقال: إلهي وسيدي ومولاي، لا تهلك بلادك بذنوب عبادك، ولكن بالسر المكنون من أسمائك، وما وارت الحجب من آلائك، إلا ما سقيتنا ماء غدقا فراتا، تحيي به العباد، وتروي به البلاد، يا من هو على كل شيء قدير، قال عطاء: فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت، وجادت بمطر كأفواه القرب، فولّى وهو يقول:

أفلح الزاهدون والعابدونا إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة حبا فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شغلتهم عبادة الله حتى حسب الناس أن فيهم جنونا

وعن فضيل بن عياض قال: قدمت شعوانة فأتيتها فشكوت إليها، وسألتها أن تدعو بدعاء، فقالت: يا فضيل أما بينك وبين الله ما إن دعوته استجاب لك؟ قال: فشهق الفضيل وخر مغشياً عليه.

فإن أردت إجابة دعاء، أو قبول رجاء نظف طرق الإجابة من أوساخ المعاصي، وانظر فيما تطلبه، هل هو لإصلاح دينك، أو لمجرد هواك؟، فإن كان للهوى المجرد، فاعلم أن من اللطف بك والرحمة لك تعويقه، وأنت في إلحاحك بمثابة الطفل يطلب ما يؤذيه، فيمنع رفقًا به، وإن كان لصلاح دينك، فربما كانت المصلحة تأخيره، أو كان صلاح الدين بعدمه.

وفي الجملة، تدبير الحق عز وجل لك خير من تدبيرك لنفسك، وقد يمنعك ما تهوى ابتلاء، ليبلو صبرك، فأره الصبر الجميل، تر عن قربٍ ما يسرك.

ومتى نظفت طرق الإجابة عن أدران الذنوب، وصبرت على ما يقضيه لك، فكل ما يجري أصلح لك، عطاءً كان أو منعًا.

فيا من تتعجل بسوء أدب، وتلح في الطلب، وتزعم التأخر في إجابته، هلا نظفت طريق الذنوب وتركت لله الإجابة، فعطاؤه عطاء، ومنعه عطاء، وكل شيء عنده بأجل مسمى سبحانه وتعالى.

## ١١٠- مَتَى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلًا لِأَمْرِهِ، وَرَزَقَكَ فِي البَاطِنِ الاِسْتِسْلَامَ لِقَهْرِهِ، فَقَد أَعْظَمَ المِنَةُ عَلَيكَ

أيها المريد الحبيب متى جعلك الله في الظاهر ممتثلا لأمره، بأن زين ظاهرك بالتقوى، وأعانك على القيام بالطاعات واجتناب المحرمات، ثم رزقك في الباطن الاستسلام والانقياد لقهره، مع الرضا بقضائه وقدره، خيره وشره، حلوه ومره، فقد أعظم النعمة والمنة عليك، فلا نعمة أفضل من ذلك، ولا متاع أفضل من هذا المتاع، ولا لذة تفوق تلك اللذة، إن رضاك بقضائه وقدره، وتذوق الطاعة في السر، والإظهار بها في العلن نعم لا يعرفها كثير من الناس.

وليعلم المرء أن الجزع لا يرد المصيبة بل يضاعفها، وهو في الحقيقة يزيد في مصيبته، بل يعلم المصاب أن الجذع يشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه، هب أنك سخطت على قضاء الله، وهب أنك لم ترض بما قضى لك أو عليك، أيرجع القضاء، أم يرد القدر، أم يرفع البلاء، إن السخط يجعل من المصيبة اثنتين، ويزيد البلاء دون فائدة تعود على العبد في دين أو دنيا.

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: أول شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ: أني أنا الله لا إله إلا أنا ومحمد رسولي، من استسلم لقضائي،

وصبر على بلائي، وشكر لي نعمائي، كتبته صديقا، وبعثته يوم القيامة مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر لنعمائي، فليتخذ إلها سوائي.

ويقول ابن المبارك: المصيبة واحدة، فإذا جزع صاحبها صارت اثنتين، يعني صارت المصيبة اثنتين: إحداهما المصيبة، والثانية ذهاب أجر المصيبة، وهو أعظم من المصيبة.

وذُكر أن في بعض الكتب مكتوبا ستة أسطر: في السطر الأول من أصبح حزينا على الدنيا أصبح ساخطا على الله، وفي الثاني من شكا مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه، وفي الثالث من لا يبالي من أي باب أتاه رزقه لا يبالي من أي أبواب النار أدخله الله، وفي الرابع من أتى خطيئة وهو يضحك دخل النار وهو يبكي، وفي الخامس من كان أكبر همه الشهوات نزع الله خوف الآخرة من قلبه، وفي السادس من تواضع لغني لأجل دنياه أصبح والفقر بين عينيه.

أما إذا صبر واحتسب أخزى شيطانه، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزوه، فهذا هو الثبات في الأمر الديني.

قال بعض الحكماء: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم.

وقال يحيى بن معاذ: ابن آدم، مالك تأسف على مفقود لا يرده عليك الفوت؟ مالك تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت؟.

ومن علامة الرضا عن الله الرضا بقضاء الله، وهو سكون القلب الى أحكام الله، والتفويض إلى الله قبل الرضا، والرضا بعد التفويض.

وما أجمل قول الشاعر:

ليس عندي إلا الرضا بقضاء  اللَّه فيما أحببته أو كرهته
لو إليّ الأمور أختار منهــا  خيرها لي عواقبا مَا عرفته
ولو أني حرصت جهدي أن  أدفع أمرا مقدار مَا دفعته

فأرى أن أرد ذاك إلى من          عنده علم كل مَا قد جهلته

والرضا بقضاء الله يجعل العبد شاكرا لله على كل حال، سعيدا بما قدره، ينظر إلى الخير لا الشر، ويقول في كل شيء لعله خير، وقد حكي أن رجلا نظر إلى قرحة في رجل محمد بن واسع فقال: إني لأرحمك من هذه القرحة، فقال: إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني.

أرأيت لهذا الرضا الواسع والتقدير للنعم، أرأيت لهذه النفس الراضية المحبة كيف نظرت للخير، ولم تتأفف أو تسخط من قضاء الله، بل شكرت أنه لم يكن أشد.

وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من أكلة خرجت بها، ثم قال: الحمد لله الذي أخذ مني واحدة وّلّيت، لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت، ثم لم يدع ورده تلك الليلة.

وكان ابن مسعود يقول: الفقر والغنى مطيتان، ما أبالي أيتهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل.

وأتى صالح المري إلى عبد الله بن الحسن يعزيه على أمه، فقال: إن كانت هذه المصيبة قد أحدثت لك عظة في نفسك فهي نعمة عليك، وإلا فاعلم أن مصيبتك في نفسك أعظم.

وقال أبو حاتم رضي الله عنه: الحر لا يكفر النعمة، ولا يتسخط المصيبة، بل عند النعم يشكر، وعند المصائب يصبر، ومن لم يكن لقليل المعروف عنده وقع أوشك أن لا يشكر الكثير منه، والنعم لا تستجلب زيادتها، ولا تدفع الآفات عنها إلا بالشكر لله جل وعلا ولمن أسداها إليه.

لله ما أروع هؤلاء الناس، وما أطيب تلك النفوس الراضية بقضاء الله في كل حال، ألا بمثل هؤلاء تكون القدوة، والنظر إلى أفعال هؤلاء يريح القلب المحزون، ويهدي النفس الثائرة، ويفتر عندها كل رغبة في الحياة أو دنيا الأحياء، اللهم ارزقنا الرضا بقضائك وقدرك في كل حال، واجعلنا من الراضين الشاكرين، ولا تمنعنا نعمك

وعافيتك، إنك على كل شيء قدير.

## ١١١- لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُ كَمُلَ تَخْلِيصُهُ

أيها المريد إن هدفك الله عز وجل، فلا تنخدع بشيء سواه من الخوارق والكرامات، فإن هدفك أمامك، فإن التفتّ لغيره قد يزوغ قلبك، وتضل نفسك، ويكون العمل استدراجا لك من حيث لا تدري.

وهنا يبين ابن عطاء الله رحمه الله ذلك، فيقول ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه، أي أنه ليس كل من ثبت تخصيصه بإظهار الكرامات على يديه كالطيران في الهواء، أو المشي على الماء، وطي الأرض له، وما إلى ذلك من الكرامات كمل تخليصه من الأغيار والشهوات وآفات النفس، فإن الكرامات تظهر على أيدي المبتدئين في الطريق، ولا تظهر على أيدي الواصلين إلى الله من أهل التمكين، لأنهم لا يلتفتون إليها، بل شغلهم الشاغل هو مرضاة الله، وأكبر كرامة لهم هي الاستقامة على صراطه، وقد يُرزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة، وقد قال أبو يزيد: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقى في الهواء فلا تغتروا به حتي تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة.

وقيل: أجل الكرامات التي تكون للأولياء: دوام التوفيق للطاعات، والعصمة عن المعاصي والمخالفات.

ولذا ذكر العلماء أن محبة العوام لله من أجل النعم التي ينعم بها عليهم، أما محبة الخواص فهي ناشئة عن شهود جماله وبهائه، فغابوا في شهود جماله، وتاهوا في حضرة بهائه.

فهؤلاء باعوا أرواحهم في طلب مولاهم، وبالجملة إن أمر المحبة كبير، وبحرها خطير، لا يدركها كل مسلم، ولا يتنبه لها غافل، بل تحتاج حضورا وشهودا، وذوبا ورقة لا يقدر عليها من ظل في عالم الملك ولم يتجاوزه إلى عالم الملكوت وعالم الجبروت.

وقال الفضل بن سهل: من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها، ومن كانت ولايته

دون قدره تواضع لها.

وقال بعض البلغاء: الناس في الولاية رجلان: رجل يجل العمل بفضله ومروءته، ورجل يجل بالعمل لنقصه ودناءته، فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا، ومن جل عنه عمله ازداد به تجبرا وتكبرا.

وقال أبو سليمان الداراني: إن قوما طلبوا الغنى، فحسبوا أنه في جمع المال، ألا وإنما الغنى في القناعة، وطلبوا الراحة في الكثرة، وإنما الراحة في القلة، وطلبوا الكرامة من الخلق، ألا وهي في التقوى، وطلبوا النعمة في اللباس الرقيق واللين وفي طعام طيب، والنعمة في الإسلام الستر والعافية.

وقال أبو على الجوزجاني: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك عز وجل يطالبك بالاستقامة.

وكان بعض السلف يقولون: ألطف ما يخادع به الأولياء الكرامات والمعونات.

ولا يكون التخليص مع الرياء، ولا يكون كمال العبادة مع حب الظهور، فمن راءى الناس بعمله لم يخلص لله تعالى حتى وإن ظهرت عليه كرامات الدنيا، فهي فتنة له.

قال عبد الله بن مسعود: إن الله لا يسمع من مسمع، ولا مراء، ولا داع إلا داع دعاء ثبتا من قلبه، ولا يقبل إلا الناخلة من الدعاء.

ولما سئل أحد العلماء: كيف يهلك العبد بأعمال البر؟ قال: إنها أعمال من البر كانوا يرون أنها منجيتهم فكانت هي مهلكتهم، لما مازجها من الرياء، وحب المحمدة من المخلوقين، واتخاذ المنازل بالطاعات، وإقامة الجاه، وحب القدر، والميل إلى ثواب المخلوقين، فلما وردوا على الله عز وجل وجدوه قد أحبط أعمالهم وهم لا يشعرون، لأنهم كانوا قد تعجلوا ثواب أعمالهم من المخلوقين في الدنيا، فافتضحوا وفضيحة ما هناك باقية، ولم يجدوا من ثواب أعمالهم إلا كما وجد صاحب السراب وصاحب الرماد، فليس اسم الأعمال يراد، ولا تزيين ظاهرها، ولكن تقوى الله وما يقرب إليه زلفى، فليت بين العبد وبين كل عمل يباعد من تقوى الله ومن الله بعد المشرقين.

نسأل الله النجاة من الفتن، آمين.

**١١٢- لا يَسْتَحْقِرُ الوِرْدَ إلا جَهولٌ، الوارِدُ يُوْجَدُ في الدّارِ الآخِرَةِ، وَالوِرْدُ يَنطَوي بانْطِواءِ هذه الدّارِ، وأَوْلى ما يُعْتَنى بِه: ما لا يُخْلَفُ وُجودُه، الوِرْدُ هُوَ طالِبُهُ مِنْكَ، وَالوارِدُ أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ، وَأَيْنَ ما هُوَ طالِبُهُ مِنْكَ مِمّا هُوَ مَطْلَبُكَ مِنْهُ؟!**

أيها المريد لا تستحقرن الورد وتتشوف إلى الوارد، فالورد هو ما طلبه منك في الدنيا من طاعات وأوامر تقربك إليه، فلا تستحقر ذلك، وتتطلع إلى الوارد، وهو ما يرد عليك في الباطن من المعارف والأسرار والأنوار، فإن من يستحقر الورد فهو جهول، أي كثير الجهل بمراد الله، لأن الوارد هو الذي ينشأ عن الورد بعد إجلاء الباطن من الأغيار بالمجاهدة، فالورد ما كان من الخلق للحق، والوارد ما كان من الحق للخلق.

أما الورد فإنه ينطوي وينتهي بانتهاء هذه الدار، أي أن العبادات والطاعات تنتهي بالموت، لأن الآخرة ليست دار تكليف، وإنما هي دار تشريف، وأولى ما يعتنى به ما لا يخلف وجوده وهو الورد، أما الوارد فيوجد في الدار الآخرة، لأنه هو ما يرد على العبد في الباطن من معارف ولطائف وأنوار.

ثم قال: الورد يطلبه الله سبحانه وتعالى منك، فهو حقه عليك أن تقوم به، والوارد أنت تطلبه منه، فهو حظك منه، وأين ما هو طالبه منك، وهو الورد، مما هو مطلبك منه، وهو الوارد، فرق كبير بينهما، لأن قيامك بالطاعات أليق بالعبودية من طلبك لحظوظ المحبوب إليك، فهذا يبين أن الورد للمريدين أفضل من الوارد، لأنك متى تطهرت من العيب فتح الله عليك علوم الغيب، والوقت أثمن ما يملك الآدمي، فلا يقضه فيما لا ينفع، ويطلب ما لا يقدر عليه.

وقد قال بعض العارفين: أدركت أقوامًا كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم، فكما لا يخرج أحدكم دينارًا ولا درهمًا إلا فيما يعود نفعه عليه، فكذلك السلف لا يحبون أن تخرج ساعة بل ولا دقيقة من أعمارهم إلا فيما يعود نفعه

عليهم، ضد ما عليه أهل هذا الزمان من قتل الوقت عند المنكرات.

وقال الشاعر:

تبا لطالب دنيا لا بقاء لهــا كأنمـا هـي فـي تعريفها حلـم
صفاؤها كدر سرورها ضـرر أمـانها غــرر أنوارها ظلــم
شـبابها هرم راحـاتها سـقم لـذاتها نـدم وجدانهـا عــدم
لا يستفيق من الأنكاد صاحبها لو كان يملك ما قد ضمنت إرم
فخـل عنهـا ولا تركن لزهرتها فإنهـا نعـم في طيها نقــم
واعمـل لدار نعيم لا نفاد لهـا ولا يخاف بها موت ولا هــرم

فمن عرف ذلك تمسك بورده، ولم ينتظر واردا إلا ما يرسله الله، وانشغل بالمطلوب منه، لا بما يطلبه، لأن الورد أولى، ولا يستحقره إلا جهول، نسأل الله الفهم، آمين.

## ١١٣- وُرودُ الإمْدادِ بِحَسَبِ الاسْتِعْدادِ، وشُرُوقُ الأنْوَارِ على حَسْبِ صفاءِ الأسرارِ

إن النفس الإنسانية هي مرآة لصاحبها، فكلما صفت وصقلت مرآتها كانت أكثر استعدادا لتقبل ألطاف الله تعالى وأسراره، وهذا ما ينبه عليه ابن عطاء الله هنا، حيث يلفت نظر المريد إلى الأخذ بالأسباب، والقيام بحقوق الربوبية، وعدم التفريط في الشريعة، لأن ورود الإمداد من الله عز وجل يكون بحسب استعداد الشخص وملازمته أوراده، وتطهير باطنه بالجهاد المستمر الذي لا ينقطع، وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار، فلا يشرق باطن الإنسان بالعلوم اللدنية والمعارف الربانية إلا إذا كان الباطن خاليا من كدر التعلق بالأغيار والآثار والأكدار حتى تشرق المعارف فيه.

قال النصراباذي: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.

وكان أبو علي الدقاق رحمه الله يقول: الواردات من حيث الأوراد، فمن لا ورد له بظاهره لا وارد له في سرائره، وكلُّ وجدٍ فيه من صاحبه شيء فليس بوجد، وكما أن ما يتكلفه العبد من معاملات ظاهره يوجب له حلاوة الطاعات، فما ينازله العبد من أحكام باطنه يوجب له المواجيد.

وقيل: ليس من آداب المريدين كثرة الأوراد بالظاهر، فإن القوم في مكابدة إخلاء خواطرهم، ومعالجة أخلاقهم، ونفي الغفلة عن قلوبهم، لا في تكثير أعمال البر الذي لا بد لهم منه، إقامة الفرائض والسنن الراتبة، فأما الزيادات من الصلوات النافلة فاستدامة الذكر بالقلب أتم لهم، ورأس مال المريد الاحتمال عن كل أحد بطيبة النفس، وتلقى ما يستقبله بالرضا، والصبر على الضر والفقر، وترك السؤال، والمعارضة في القليل والكثير فيما هو حظ له، ومن لم يصبر على ذلك فليدخل السوق، فإن من اشتهى ما يشتهيه الناس فالواجب أن يحصل شهوته من حيث يحصلها الناس من كد اليمين وعرق الجبين، وإذا التزم المريد استدامة الذكر وآثر الخلوة فإن وجد في خلوته ما لا يجده قبله، إما في النوم، وإما في اليقظة، أو بين اليقظة والنوم من خطاب يُسمع، أو معنى يشاهد مما يكون نقضا للعادة، فينبغي أن لا يشتغل بذلك البتة، ولا يسكن إليه، ولا ينبغي أن ينتظر حصول أمثال ذلك، فإن ذلك كله شواغل عن الحق سبحانه، ولا بد له في هذه الأحوال من وصف ذلك لشيخه حتى يصير قلبه فارغا عن ذلك، ويجب على شيخه أن يحفظ عليه سره، فيكتم عن غيره أمره، ويصغر ذلك في عينه، فإن ذلك كله اختبارات، والمساكنة إليها مكر، فليحذر المريد عن ذلك وعن ملاحظتها، وليجعل همته فوق ذلك.

وقد يرد سؤال هنا: هل تنافي هذه الحكمة سابقتها أو تتضاد معها، والتي تقول: قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة أي بغير استعداد له؟.

والجواب بالنفي، فهي لا تنافي الحكمة السابقة، بل تتكامل معها، لأن هذه الواردات جاءت تفضلا من الله عز وجل، فهي تأتي بغتة، لكن لابد من الاستعداد لها، لئلا تأتي فتجد الباطن مشغولا بغير الله عز وجل، فتعود من حيث أتت، وذلك

كالعبادات والأعمال الصالحة، لا تدخل الإنسان الجنة بذاتها، وإنما دخول الجنة بمحض فضل الله عز وجل، والله أعلم.

**١١٤- الغافِلُ إذا أَصْبَحَ يَنْظُرُ ماذا يفْعَلُ، وَالعاقِلُ يَنْظُرُ ماذا يَفْعَلُ اللّهُ بِهِ**

يبين ابن عطاء الله رحمه الله في هذه الحكمة فرقا دقيقا مبنيا على طريقة التفكير التي تميز العاقل من الغافل، فالغافل يعتمد على الأسباب فقط، ويظن أنها الفاعلة بذاتها، فيقول ماذا أفعل اليوم، ويظن أنه هو الفاعل، فيكله الله إلى نفسه، فيرى من العذاب ما يرى ومن الهوى ما يزيغه عن الحق والصواب.

وأما العاقل إذا استيقظ من نومه فإنه يقول ماذا يفعل الله بي، وذلك لدوام يقظته فإنه لا يرى فاعلية في هذا الكون إلا لله عز وجل، فهو الفعال لما يريد، فيعلق به في جميع أفعاله وأقواله، فيرشده الله عز وجل لأصلح الأحوال وأحسن الأعمال، مع الراحة لقلبه وقالبه أي جسده، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

وقد فطن العلماء العارفون لذلك، ونصحوا به أتباعهم ومريديهم، فهذا حكيم ينصح مريده قائلا: إن الله تعالى خص أهل ولايته بغبطة الانقطاع اليه، ليعرفهم تواتر نعمه، ودوام إحسانه وفضله، فانصرفت هموم الدنيا من قلوبهم، وعظم شغل الآخرة في صدورهم، لما سكنها من هيبة ربهم، فألزموا قلوبهم ذل العبودية، وطرحوا أنفسهم في محجة التوكل على الله، واعلم يا أخي انك لا تكون متوكلا على الله إلا بقطع كل مؤمل دون الله، وكيف لا تسخو نفسك بقطع كل علاقة من قلبك وتفرغ قلبك للإقبال على الله، وصدق التوكل عليه، والله حسب من توكل عليه، والمتوكل الصادق في توكله لا يجد قلبه يخضع لمخلوق، لأن قلبه مملوء بالثقة بضمان الله، والمتوكل الصادق في توكله القليل من عطايا الله عظيم عنده عند صغر قدره لمعرفته بعظيم قدر الله، فهو ساكن إلى روح اليقين، وهي المنزلة التي يغبطه بها أهل الحرص على الدنيا، فمن سكن قلبه إلى أنه ليس نعمة في السماء والأرض إلا وهي لله استراح قلبه من عذاب الحرص.

ويقول آخر: من لم يعتز بطاعة الله لم يزل ذليلا، ومن لم يستشف بكتاب الله لم يزل عليلا، ومن لم يستغن بالافتقار إلى الله عاش الدهر فقيرا، ومن لم يتحقق بالعبودية لله فهو لكل شيء عبد، وفي قبضة الله كل أسير، ومن لم يتترس بالتوكل على الله أصابه كل رام، ومن لم يحتم بحماية الله لم يحمه سواه حام.

وكان بعض الصالحين إذا أصبح يقول: اللهم إني أصبحت لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني، ولا أتقي إلا ما وقيتني، اللهم وفقني كما تحب وترضى، ووجهني وجهة مرضية من تصريف قدرتك في كل فعل أو قول، بعزم أو فكر، فإن حضرتك لا تقبل الغير حتى تصدر لي أفعال الأكوان وما فيهن، أتصرف فيها بما تريد، فإنك فعال لما تريد، وأنت ألطف اللطفاء وأرحم الرحماء، وأكرم الكرماء، وعلى كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

فكن متمسكا دائما بالفاعل الحقيقي تُقضى حاجتك، وتُكفى همك وغمك.

### ١١٥- إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ العُبَّادُ وَالزُّهَّادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِغَيْبَتِهِمْ عَنِ اللّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَوْ شَهِدُوه فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ

يبين ابن عطاء الله رحمه الله الفرق بين العباد والزهاد، وبين العارفين والمحبين لله عز وجل فيقول: إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شيء لأنهم محجوبون عن الله تعالى برؤيتهم لأنفسهم، ومراعاة حظوظهم، فهم يعتمدون على عباداتهم وعلى زهدهم، ويطلبون بذلك الجنة، وكما قيل فإن الزهد في المزهود شاهد له بالوجود، لذلك فروا من الأشياء، واستوحشوا منها مخافة أن تفوت عليهم مقاصدهم.

أما العارفون بالله والمحبون له فلم يستوحشوا من شيء، لرؤيتهم الله في كل شيء، ظاهرا فوق كل شيء، وباطنا تحت كل شيء، ومع كل شيء، ولا يتحد بشيء، ولا يختلط بشيء، لأنه ليس كمثله شيء، بل إن الأشياء بالنسبة له عدم محض، فلا يرون في الأكوان كلها إلا الله عز وجل، فهامت أرواحهم به، فلم يخافوا من شيء، ولم يستوحشوا من شيء، لأنه ليس معه شيء، فلا يخافون الفتنة.

يقول شعيب بن حرب: دخلت على مالك بن مغول، وهو في دار بالكوفة وحده، فقلت له: أما تستوحش في هذه الدار؟ فقال: ما كنت أحسب أن أحدا يستوحش مع الله عز وجل، لأنه إذا أحب العبد ربه فلا وحشة عليه، بل هو أنسه، ويحدثه.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى شيء ولم يستوحش، قيل: وما هي؟ قال: معرفة الله تعالى.

وقال آخر: ما أشرف هذه المنزلة، وأعلى هذه الدرجة، وأعظم هذه الموهبة، إنما لا يستوحش مع الله من عمر قلبه بحبه، وأنس بذكره، وألف مناجاته بسره، وشغل به عن غيره، فهو مستأنس بالوحدة مغتبط بالخلوة.

وكان ذو النون يقول: دلائل أهل المحبة لله أن لا يأنس بسوى الله، ولا يستوحش مع الله، لأن حب الله إذا سكن في القلب آنس بالله، لأن الله أجل في صدور العالمين من أن يحبوه لغيره.

وكانت رابعة العدوية -رحمها الله تعالى- تنشد في هذا المعنى:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي    وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للحبيب مؤانس    وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

ولله در من قال:

لله در رجال واصلوا السهرا    واستعذبوا الوجد والتبريح والفكرا
فهم نجوم الهدى والليل يعرفهم    إذا نظرتهموا هم سادة بررا
كل غدا وقته بالذكر مشتغلا    عما سواه وللذات قد هجرا
يمسي ويصبح في وجد وفي قلق    مما جناه من العصيان منذعرا
يقول يا سيدي قد جئت معترفا    بالذنب فاغفر لي يا خير من غفرا
حملت ذنبا عظيما لا أطيق له    ولم أطع سيدي في كل ما أمرا
عصيته وهو يرخي ستره كرما    يا طالما قد عفا عني وقد سترا
وطالما كان لي في كل نائبة    إذا استغثت به من كربة نصرا
وإنني تائب مما جنيت وقد    وافيت بابك يا مولاي معتذرا

لعلـك تقبـل عـذري ثـم تجبرنـي    يوم الحساب إذا ما قدمت منكسرا
وقـد أتيـــت بـذلٍّ راجيـــا كرمـــا    إليك يـا سـيدي قد جئـت مفتقرا
ثم الصلاة على المختار سيدنا    عداد ما غاب من نجم وما ظهـرا

فانظر يا رعاك الله إلى تلك القلوب الصافية، المستوحشة من الخلق، المؤانسة بالله تعالى، وكيف أصبحت مملوءة بحبه، مقبلة عليه، ولا نعني بذلك أن تخلو بنفسك وتهجر الحياة والأحياء، وإنما نعني ألا تقتل وقتا في غير فكر أو ذكر أو عمل صالح، فمجالسة العلماء نعمة، والأخذ عنهم عطاء من الله، فهم يقربونك إلى الله، ويعرفونك به، ويذكرونك بفضله وآلائه، فتلك هي مجالس الذكر، وأما مجالس النميمة والتسري من غير فائدة فهي القاتلة أعاذنا الله وإياكم من اللغو والرفث.

## ١١٦- أَمَرَكَ في هذِهِ الدّارِ بِالنَّظَرِ في مُكَوَّناتِهِ، وَسَيَكْشِفُ لَكَ في تِلَكَ الدّارِ عَنْ كَمالِ ذاتِهِ

أيها المريد يا من تريد معرفة الله في الدنيا، أمرك فيها بالنظر في هذه الأكوان لتراه بصيرتك إن كان لك بصيرة، ظاهرا فيها من وراء حجاب، وتدل عليه آثاره، فتؤمن به إيمانا لا يعتريه شك.

وإذا كان المتقدمون لم يشهدوا من آلاء الله وآياته إلا ما تراه أعينهم من دنيا الناس فقد فتح لنا العلم الحديث الأبواب مشرعة لنرى آيات الله في الكون وفي أنفسنا، ففي النفس مثلا ما كشفه العلم من الشريط الوراثي للإنسان معجز بكل معاني الكلمة، ويكفي القول إنه تم الوصول إلى خريطة الجينات البشرية، وأن الشفرة الوراثية للطفل متى كتبت فإنها تحتاج جهاز حاسوب بسعة (٧٥٠ ميجا بايت)، وأن الشريط الوراثي لو تم حساب طوله الكلي الموجود داخل خلاياه التي تقدر بحوالي ١٠٠ ترليون خلية فإنه يقطع مسافة بين الشمس والأرض عشرين مرة.

ولو ذهبنا إلى عالم الفضاء لوجدنا حقائق مذهلة كشف عنها العلم الحديث، لقد كنا نعجب قديما من بعض الأحاديث التي تصف الجنة وسعتها ودرجاتها، والنار

وحفرها ودركاتها، وكنا نعجب أن وصف الله الدنيا بأنها لا تساوي لديه جناح بعوضة، فلما جاءت الكشوف الحديث وجدنا رحمة الله بعقولنا، فهي في الكون أقل من جناح البعوضة لنا، لقد كشف العلم أن شمسنا هذه من أصغر الشموس في الكون، وأنها تتسع لأن تبتلع داخلها أربعة ملايين كرة أرضية، وأن مجموعتنا الشمسية بكواكبها الضخمة وأقمارها الهائلة عددا ومسافة ومساحة، والمسافات الهائلة بين كل هذه الكواكب تكون مجموعة من ملايين المجموعات الشمسية، وأن كل ٤٠٠ مليون مجموعة شمسية يكونون ما يعرف بالمجرة، وأن ما وصل إليه العلم من توقع حتى الآن أكثر من ٤٠٠ مليون مجرة، وأن مجرتنا تعد من أصغرها حجما، وأن الأرض بالنسبة لما تم اكتشافه من الكون لا كل الكون هي أقل من حبة رمل في جبال الدنيا كلها، وكل ذلك في السماء الثانية كحلقة في فلاة، وجميع السماوات في الكرسي كحلقة في فلاة، والكرسي في العرش كحلقة في فلاة، وكل ذلك في يد الرحمن عدم محض، لكن ظهروا بنوره.

انظر إلى عظمة الله في خلقه، وسعة الكون الذي خلقه، فبالله عليك أيها المغرور المتكبر ماذا تساوي أنت من خلق الله، وما يكون نصيبك من هذا الكون، لقد عجبت ممن علموا هذه الحقائق المذهلة كيف لم يخروا ساجدين!!، وكيف لم تذل قامتهم أمام عظمة الإله الأعظم إلى يوم الدين!!.

وما أعظم الإعجاز القرآني إذ يقول سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١).

إنني حين قرأت هذه المعلومات، وحين شاهدت بعض الأفلام العلمية عنها كاد عقلي يطير من هذا الإعجاز، واقشعر بدني وارتعش جسمي من مجرد التصور فقط، وأدركت لماذا كان النبي ﷺ يكرر بعض الكلمات في دعائه، ويقول اللهم أنت الأكبر الأكبر، لأن النبي العظيم الذي أوتي مجامع الكلم، وكان أفصح الناس لسانا، وأعظمهم

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٣.

بيانا يكرر الكلمة لا عجزا عن وجود غيرها، ولا عيا من الفصاحة والبلاغة، ولكن المعاني المتدفقة عليه، وعلمه بعظمة الخالق جل وعلا تجعله لا يجد العبارة التي يصف بها عظمته وقدرته، فيلجأ لتكرار الكلمات لينفس بها عن مكنون هذا القلب المليء بالحكمة والمعرفة، والتي تعجز اللغة عن إخراج ما يحمله من المعاني.

وكل هذه الاكتشافات والدلائل مهما عظمت إنما هي في دنيا الناس، أما في الدار الآخرة فيكشف لك عن كمال ذاته، فتراه بعين البصر، لأن البصر يندمج في البصيرة يوم القيامة، فيصبح بصرك حديدا، ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(١)، وهذه الرؤية هي عين النعيم ونعيم النعيم، حتى قيل إن العارفين بالله يستعيذون من الجنة كما يستعيذ أهل النار من النار إذا تأخرت عليهم رؤية الله عزو جل، جعلنا الله منهم، آمين.

## ١١٧- عَلِمَ مِنكَ أَنَّكَ لاَ تَصبِرُ عَنهُ، فَأَشهَدَكَ مَا بَرَزَ مِنهُ

إن الحبيب لا يستطيع الصبر على رؤية محبوبه، فدائما يريد رؤياه، فالعارفون بالله والمحبون له في شوق ولهفة لا تنقطع لرؤية صاحب الإنعام والأفضال، والمنن والكرم والجود، فعلم الله ذلك منهم، وأنهم لا يصبرون على البعد حتى قال بعضهم:

أنتمو أنتمو في القلب وحدكمو وكل كلي مشغول بكلكمو

فإن نطقت لم أنطق بغيركمو وإن سكت فشغلي عنكمو بكمو

لما علم الله فيهم ذلك أشهدهم ما برز منه في الأكوان، رحمة بهم، فرأوا بعين بصيرتهم، وسكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، ورويت أكبادهم.

وفي الخبر المروي عن نبي الله داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنك تكثر مسألتي، ولا تسألني أن أهب لك الشوق، قال: يا رب وما الشوق؟ قال: إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني، وأتممتها بنور وجهي، فجعلت أسرارهم موضع نظري إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون

---

(١) سورة ق الآية ٢٢.

به إلى عجائب قدرتي، فيزدادون في كل يوم شوقاً إليّ، ثم أدعو نجباء ملائكتي، فإذا أتوني خرّوا لي سجّداً، فأقول: إني لم أدعكم لعبادتي، ارفعوا روؤسكم أُرِكُمْ قلوب المشتاقين إليّ، فوعزّتي وجلالي إنّ سماواتي لتضيء من نور قلوبهم كما تضيء الشمس لأهل الدنيا.

وسئل عابد فقيل له: يرحمك الله، أخبرني ما دليل الخوف؟ قال: الحذر، قلت: فما دليل الشوق؟ قال: الطلب، قلت: فما دليل الرجاء؟ قال: العمل، قلت: رحمك الله، نحن أين جاء ضعفنا؟ قال: لأنكم وثقتم حلم الله عنكم، وستر الله عليكم على معصيته، ثم أنشأ يقول:

إن كنت تفهم ما أقول وتعقل فارحل بنفسك قبل أن بك يرحل

وذر التشاغل بالذنوب وخلها حتى متى وإلى متى تتعـــــلل

وفي أخبار داود عليه السلام إن الله تعالى قال: يا داود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي، وأحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وائنسوا بي أؤانسكم، وأسارع إلى محبتكم، فإني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي، وموسى نجيي، ومحمد صفيي، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري، ونعمتها بجلالي.

فاللهم اجعلنا لك من المحبين، ولقضائك من الراضين، ولعبادتك من العاملين، واقبلنا وتقبل منا، واجعلنا من خلصائك وأصفيائك، وأتمم علينا نورنا، يا نور، فأنت على كل شيء قدير.

**١١٨- لمّا علِمَ الحقُّ منك وجُودَ المَلَلِ، لَوَّنَ لكَ الطّاعاتِ، وعَلِمَ ما فيكَ مِنْ وُجودِ الشَّرَهِ فَحَجَرَها عَلَيْكَ في بَعْضِ الأوْقاتِ، لِيكونَ هَمك إقامةَ الصلاة لا وُجودَ الصَّلاةِ، فَما كُلُّ مُصَلٍّ مُقيم**

إن الإنسان بطبعه يمل من العمل المتكرر، وترغب نفسه إلى التغيير، وتميل إليه بفطرتها، والله سبحانه هو الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وعلم أنه عجول ملول من تكرار العمل الواحد، لذلك نوّع له سبحانه الطاعات رحمة وشفقة به، فكان منها الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والصلاة على الحبيب المحبوب، صلوات الله وسلامه عليه، وما إلى ذلك من أنواع الواجبات والنوافل، حتى لا يسأم أو يمل.

وعلم أيضا سبحانه من وجود الشره، وهو مجاوزة الحد في التسارع إلى العمل، والعجل المؤدي إلى وقوع النقص والتقصير فيها، فحجرها، أي منعها عليك في بعض الأوقات، فجعل للفرائض أوقاتا معينة تؤديها فيها، وكذلك النوافل كرهها في بعض الأوقات، وإنما فعل ذلك ليتئد الإنسان، ويؤدي العبادة بجميع أركانها وشروطها، ويؤديها لمستحقها، مع طهارة الباطن من الأكدار والأغيار وغير ذلك، فليس المقصود وجود صورة الصلاة فقط، وإنما إقامة الصلاة، أي أداؤها بطمأنينة، وبجميع أركانها وشروطها، فليس كل مصل مقيم، وإنما ذكر الصلاة هنا دون سائر العبادات لكثرة وقوعها.

وهنا يعلم الإنسان أن العطاء والمنع من عنده، فيقف عند مراد الله منه، ولا يعجل ولا يعمل، ولا يطلب ما منع الله منه، وليحسن معنى العبودية لله عز وجل.

ففي الاستطراف والاستجداد لذة ونشاط، وفي الاستمرار على شيء واحد استثقال وملال، ولذلك لم تكن الصلاة سجودا مجردا، ولا ركوعا مجردا، ولا قياما مجردا، بل رتبت العبادات من أعمال مختلفة وأذكار متباينة، فإن القلب يدرك من كل عمل منهما لذة جديدة عند الانتقال إليها، ولو واظب على الشيء الواحد لتسارع إليه الملل.

ولذا كان العارفون قديما يقولون: إن الانسان محارف[١] للتفريط، معتاد للبغي، شغوف بالتسويف، مجبول على الملل والنسيان، وهو موصوف بعدم العزم، مطبوع على الأمل، منعوت بالجزع عند الشدة، وبقلة الشكر عند النعمة، مولع بالانخداع والاغترار.

وقد استفادوا فهم ذلك من النبي ﷺ، فقد كان يتخلل أصحابه بالنصيحة خوف السآمة والملل عليهم، بل كان يتعاهدهم وقتا بعد وقت، ولا يسرف في التذكير والعبادة حتى لا يملوا، ويذكرهم أنها ساعة وساعة.

وكان يقول لهم: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تكره عبادة الله إلى عباده، فإن المنبتّ لا يقطع سفرا، ولا يستبقي ظهرا)[٢].

وحين رآهم يستكثرون من العمل ما يفوق الطاقة ويقلدونه فيما اختص به من عبادة نبههم إلى الوسطية، فقد روت عائشة رضي الله عنها (أن النبي ﷺ كان يحتجر حصيرا بالليل فيصلي عليه، ويبسطه بالنهار فيجلس عليه، فجعل الناس يثوبون إلى النبي ﷺ فيصلون بصلاته حتى كثروا، فأقبل فقال: يا أيها الناس، خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل)[٣].

فما كل مصلٍّ بمقيم، لأن إقامة الصلاة تكون باستكمال الأركان وشروطها من السكينة والطمأنينة وغير ذلك.

## ١١٩- الصَّلَاةُ طُهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ أَدْنَاسِ الذُّنُوبِ، واستفتاحٌ لِبَابِ الغُيوب

يبين ابن عطاء الله -رحمه الله- في هذه الحكمة أن الصلاة التامة المستوفية للأركان والشروط والآداب من أهم العبادات، بل هي رأسها، والصلة بين العبد وربه،

---

(١) **محارف:** أي يتخذه حرفة.

(٢) أخرجه البيهقي في الحديث رقم٣٦٠٢، مرسلا، شعب الإيمان ٣٩٤/٥.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث رقم٥٨٦١، الصحيح ١٥٥/٧، وأخرجه مسلم في الحديث رقم٧٨٢، الصحيح ٥٤٠/١.

لأن الله يطهر القلوب بها من الذنوب الشبيهة بالأدناس، وبها أيضا يفتح أبواب الغيوب، أي ما غاب عنه في عالم الملكوت من المعارف والأسرار، لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(١)، ويقول النبي ﷺ: (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء، قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك)(٢).

وهي سفير المؤمن ومعراجه إلى الله عز وجل، ولذا يقول النبي ﷺ: (أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا)(٣).

واعلم أن القلب إذا تطهر من الذنوب والأكدار والأغيار نظر إلى ملكوت السماوات، واكتسب منها المعارف والأسرار التي تجعله يشرق بالأنوار.

والطهارة تنقسم إلى قسمين:

طهارة ظاهرة، وطهارة باطنة.

فأما الطهارة الظاهرة: فهي الطهارة من الحدث والخبث، والحدث ينقسم إلى حدث أصغر يستوجب الوضوء، وحدث أكبر يستوجب الغسل من الجنابة والحيض والنفاس، والطهارة الظاهرة قد تكون بالماء أو التراب، وهذه الطهارة شرط لصحة الصلاة.

وأما الطهارة الباطنية: فهي طهارة القلب من ثلاثة أشياء، من الأكدار، والآثار، والأغيار.

والأكدار: مثل الكبر والعجب والحسد والحقد والرياء والنفاق.

---

(١) سورة العنكبوت من الآية ٤٥.

(٢) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٤١٣، سنن الترمذي ٥٣٥/١.

(٣) أخرجه مسلم في الحديث رقم٦٦٧، صحيح مسلم ٤٦٢/١.

والآثار: كل ما يتعلق بمرآة القلب من صور مثل: المنازل والأولاد والزوجة والزراعات والتجارات، وما إلى ذلك.

والأغيار: كل ما سوى الله عز وجل من المكونات والمخلوقات.

فيشترط لصحة الصلاة الطهارة من الأحداث والخبائث، ويشترط لقبول الصلاة الطهرة من الأكدار والآثار والأغيار.

وطهارة الظاهر سهلة ميسورة، فإنها تكون بالماء أو التراب، أما طهارة الباطن فصعبة عسيرة، تحتاج إلى جهاد كبير لقطع العادات والعلائق، وتحتاج إلى مجاهدة الشيطان والدنيا والنفس والهوى، وهذا يصعب مجاهدته والتخلص منه.

وأما قبول الصلاة فإنه يحتاج إلى تحقق شروط صحة الصلاة الظاهرة، إضافة إلى شروط قبول الصلاة الباطنة، مع الإخلاص لله عز وجل، واستجماع القلب وحضوره، وعدم الغفلة عن ذكر الله سبحانه وتعالى، وتحقيق أركان الصلاة من طمأنينة وخشوع، وما إلى ذلك من أركان، لقول النبي ﷺ: (ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها)(١).

وهذا يستوجب منك التواضع لعظمة الله عز وجل، وعدم الاستطالة على خلق الله، وقطع نهار الإنسان في ذكر الله عز وجل، وأن يرحم المسكين واليتيم والأرملة، وذلك لقول النبي ﷺ: (قال الله تعالى: إني لا أتقبل الصلاة إلا ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خلقي، ولم يبت مصرا على معصيتي، وقطع نهاره في ذكري، ورحم المسكين، وابن السبيل، والأرملة، ورحم المصاب، ذلك نوره كنور الشمس، أكلؤه بعزتي، وأستحفظه ملائكتي، وأجعل له في الظلمة نورا، وفي الجهالة حلما، ومثله

---

(١) أخرجه الغزالي في الإحياء ١٥٩/١، وقال العراقي: حديث ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل لم أجده مرفوعا وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان ابن أبي دهرش مرسلا لا يقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب ولابن المبارك في الزهد موقوفا على عمار لا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه.

في خلقي كمثل الفردوس في الجنة)[١].

بذلك تقبل الصلاة، وبغير ذلك لا تقبل، بل تُلف في ثوب خلق، وتُلقى في وجه من صلى وتقوله له: ضيعتني ضيعك الله.

وخلاصة ما سبق سؤال: بأي شيء تقبل صلاة المصلي؟

١- بتحقق الطهارة الظاهرة من وضوء وغسل وتيمم.

٢- بتحقق الطهارة الباطنة من الأغيار والأكدار والآثار.

٣- بتحقق الإخلاص فيها، لأن الإخلاص روح العبادة، ومن شروط قبول الإعمال الصالحة الإخلاص فيها.

أما حضور القلب، والتلذذ بالطاعة، ووجدان حلاوتها في القلب، والاطمئنان فيها، فهذه من علامات القبول، فإن لم يجدها الإنسان لا ييأس من أعماله الصالحة، لأن الشرط الأول والأخير هو الإخلاص فيها، نسأل الله عز وجل أن يرزقنا الإخلاص في جميع أعمالنا وأقوالنا وأحوالنا، إنه كريم.

## ١٢٠- الصَّلاةُ مَحَلُّ المُناجاةِ، ومَعْدِنُ المُصافاةِ؛ تَتَّسِعُ فيها مَيادينُ الأسْرارِ، وَتُشْرِقُ فيها شَوارِقُ الأنْوارِ، عَلِمَ وُجودَ الضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أعْدادَها، وَعَلِمَ احْتِياجَكَ إلى فَضْلِهِ فَكَثَّرَ أمْدادَها

إن الله عز وجل جواد كريم رحيم أن فرض علينا إقامة الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة، لأنها محل مناجاة العبد لربه بتلاوة كلامه والثناء عليه، ومعدن المصافاة معه بتوجهه بكليته إليه، فبقدر إقبال العبد على ربه يكون إقبال الرب عليه، فالصلاة تتسع فيها القلوب، وتعمر بالمعارف والعلوم التي ترد من الله عز وجل لهذه القلوب، وتمد المؤمن بالأنوار والأسرار، فتنشرح القلوب، ولكن الصلاة المعتبرة هي صلاة الخاشعين، لا صلاة الغافلين، لقول النبي ﷺ: (ليس لك من صلاتك إلا ما

---

(١) أخرجه البزار في الحديث رقم٤٨٢٣، البحر الزخار ١٠٥/١١.

عقلت منها)[١]، ويقول الله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٢].

والخشوع في الصلاة استغراق كامل فيها، وانشغال بها عن غيرها، ولذا سئل بعض العلماء عن الخشوع، فقال: الخشوع قيام القلب بين يدي الحق سبحانه بهمٍّ مجموع.

وقال محمد بن علي الترمذي: الخاشع من خمدت نيران شهوته، وسكن دخان صدره، وأشرق نور التعظيم في قلبه، فماتت شهوته، وحيا قلبه فخشعت جوارحه.

وقال الحسن البصري: الخشوع الخوف الدائم اللازم للقلب.

وسئل الجنيد عن الخشوع فقال: تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: الخشوع في الصلاة أن لا يعرف المصلّي من على يمينه وعن شماله.

وعن علي رضي الله عنه قال: الخشوع في القلب، أن تلين كنفك للرجل المسلم، وأن لا تلتفت في الصلاة.

وعن معاذ بن جبل: من عرف من عن يمينه وشماله في الصلاة متعمدا فلا صلاة له.

وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم: يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئاتهم في الصلاة، من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعيم بها واللذة، ثم إصغاء القلب للفهم وخشوعه للتواضع، وسكون الجوارح للهيبة، ثم الترتيل في القراءة، والتدبر لمعاني الكلام، وحسن الافتقار إلى المتكلم في الإفهام، والإيقاف على المراد، وصدق الرغبة في الطلب، للاطلاع على المطلع من السر المكنون المستودع في الكتاب، وإن مر بآية رحمة سأل ورغب، أو آية عذاب فزع واستعاذ، أو مر بتسبيح أو تعظيم حمد وسبح

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة الماعون الآيتان ٤، ٥.

وعظم، فإن قال بلسانه فحسن، وإن أسره في قلبه ورفع به همه نابه قصده عن المقال، وكان فقره غاية السؤال.

ولما سئل أحد العلماء عن مقام المخبتين؟ قال: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا، فالمدح بالوصف لأهل هذا المقام هو الإخبات، وهو الخشوع والطمأنينة بحسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى في الآخرة.

وقال بعض الصحابة ﵃: يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئاتهم في الصلاة، من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعيم بها واللذة، ثم إصغاء القلب للفهم، وخشوعه للتواضع، وسكون الجوارح للهيبة، ثم الترتيل في القراءة، والتدبر لمعاني الكلام، وحسن الافتقار إلى المتكلم في الإفهام، والإيقاف على المراد، وصدق الرغبة في الطلب للاطلاع على المطلع من السرّ المكنون المستودع في الكتاب، وإن مرّ بآية رحمة سأل ورغب، أو آية عذاب فزع واستعاذ، أو مرّ بتسبيح أو تعظيم حمد وسبّح وعظّم، فإن قال بلسانه فحسن، وإن أسره في قلبه ورفع به همّه نابه قصده عن المقال، وكان فقره غاية السؤال.

وقد جعل الله عز وجل أول مراتب الفلاح الخشوع في الصلاة إعلاما بأن من فقده فهو بعيد بمراحل عن الفوز والنجاح الذي هو معنى الفلاح، وذلك حين ذكر صفات المؤمنين في أول السورة، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[(١)].

وكان حذيفة ﵁ يقول: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة.

ويروى في الخبر: يأتي على الناس زمان يضلون فيه دينهم، فلا يعرفونه، يصبح الرجل على دين، ويمسي على دين، يضل أمره على غير يقين، وتسلب عقول أكثر أهل ذلك الزمان، وأول ما يرفع عنهم الخشوع، ثم الإجابة، ثم الورع، ويقال: أول ما

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان الأولى والثانية.

يرفع من الناس الألفة.

ومن رحمة الله بنا أن قلل أعدادها، فجعلها خمس صلوات بدلا من خمسين صلاة، وعلم أيضا فقرنا واحتياجنا إلى الثواب فكثّر أمدادها، أي ثوابها وأسرارها وأنوارها، فجعلها خمسا في العمل، وخمسين في الأجر والمثوبة، فمن خشع في صلاته حصل لقلبه التعلق والنور، واستحق أن يمده الله تعالى بالأسرار والأنوار، فياله من كرم، نسأل الله أن نكون من أهلها، ومن المقيمين لها، إنه نعم المولى ونعم المعين.

## ١٢١- مَتى طَلَبْتَ عِوَضاً عن عَمَلٍ، طُولِبْتَ بِوُجُودِ الصِّدقِ فِيهِ، وَيَكْفي المُرِيبَ وِجْدَانُ السَّلامَةِ

ينبه ابن عطاء رحمه الله هنا على صنف من الناس يعاملون الله تعالى معاملة التاجر السوء، الذي لا يعمل إلا إذا أخذ الأجر، وهنا يبين ابن عطاء الله رحمه الله أنه متى طلبت عوضا على عملك طولبت بوجود الصدق فيه، أي الإخلاص في هذا العمل من عدم شهود الأغيار، فإن الأجر يكون على العمل الخالص لله عز وجل، وأنت أيها المسكين لا تستطيع إخلاص العمل لله عز وجل، وإنما عملت هذا العمل لحظ نفسك، لا لوجه مولاك، فإنه بهذا العمل الذي لا إخلاص فيه يكفيك أن تنجو به من عقاب الله عز وجل، لأنه يكفي المريب وجدان السلامة.

وكيف يكون الإخلاص كاملا وقد شغف الإنسان بالإطراء وحب الرياء مما يضيع عمله، والله تعالى لا يقبل من العمل شيئا إلا ما كان خالصا لوجهه، فإذا لم يكن خالصا فلا يقبل منه، ولا ثواب له في الآخرة.

ولهذا الإخلاص علامات عرفها العارفون بالله، ودلوا عليها، ومن ذلك ما ورد عنهم من أقوال هي تنبيه للغافل، وإيقاظ للنائم، ومن يظن نفسه مخلصا خاشعا خاضعا لله عز وجل، فقد قيل لذي النون المصري: متى يعلم الرجل أنه من صفوة الله تعالى؟ يعني من خواصه الذين اصطفاهم الله تعالى، قال: يعرف ذلك بأربعة أشياء: إذا خلع الراحة، يعني ترك الراحة، وأعطى من الموجود، يعني يعطي من القليل الذي عنده،

وأحب سقوط المنزلة، واستوت عنده المحمدة والمذمة.

وروي عن شقيق بن إبراهيم الزاهد أنه قال: حسن العمل ثلاثة أشياء: أولها: أن يرى أن العمل من الله تعالى ليكسر به العجب، والثاني: أن يريد به رضا الله ليكسر به الهوى، والثالث: أن يبتغي ثواب العمل من الله تعالى ليكسر به الطمع والرياء، وبهذه الأشياء تخلص الأعمال.

وقال علي ﷺ: كونوا بقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل، فإنه لا يقل عمل مع تقوى، وكيف يقل عمل يتقبل؟.

وقال الثوري: ما عالجت شيئا أشد علي من نيتي، لأنها تفلت علي، يعني تشرد أو تضعف، فتحتاج إلى مداواة لها، كما قال المنصور: المداومة على العمل حتى يخلص أشد من العمل.

وقد روي أن عابدا من بني إسرائيل عبد الله تعالى في سرب أربعين سنة، فكانت الملائكة ترفع عمله في السماء فلا يقبل، فقالت: ربنا وعزتك ما رفعنا إليك إلا حقا، فقال عز وجل: صدقتم ملائكتي، ولكنه يحب أن يُعرف مكانه.

فلذلك قال بعض السلف: من نجا من الكبر والرياء وحب الشهرة فقد سلم.

فإن أردت دليلا على العمل الذي يقع فيه الإخلاص فاسمع إلى قول أحد العارفين: العمل لا يصلح إلا بثلاث؛ التقوى لله عز وجل، والنية الحسنة، والإصابة.

وقال التياحي: للعمل أربع خصال لا يتم إلا بهن: معرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، والإخلاص به، والعمل على السنة، فأي عمل كان قبل هذه الأربع لا ينفع، فمنهم من يكون حسن الأداء لفرضه، كثير الندم والإشفاق من معاصيه، فيكون هذا أحسن حالا، ومنهم من يكون سيء الأداء، قليل الحزن والندم على ذنوبه، فيكون هذا أسوأ حالا، وليس يجدون في ذلك على قياس واحد، والله يغفر لمن يشاء الذنب العظيم ويعذب من يشاء على الذنب الصغير، لما سبق لهما في علمه، ولما نفذ لهما من مشيئته وحكمه، وقد يشترك الاثنان في معصية، ويتفاوتان في حكم المشيئة، ويتوب الله على من أحب، ويتقبل ممن يحب، والقبول غير العمل، فعلى العبد العمل، وإلى المولى

القبول، يقبل ممن يحب، ويرد ما يشاء ممن يشاء.

فمتى كان الإنسان مطالبا بالعوض عن عمله، ويعامل الله معاملة التاجر فليتقن العمل، وأظنه غير متقن، فليشكر الله أن وفقه له، وليرض بوجدان السلامة، وليته يجدها فيكون فائزا.

## ١٢٢- لا تَطْلُبْ عِوَضاً عَلَى عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلاً، يَكْفِي مِنَ الجَزَاءِ لَكَ عَلى العَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلاً

يا للعجب من هذه الإنسان الضعيف العاجز، الذي لا يملك حولا ولا طولا، يحتاج في إخراج فضلاته إلى رحمة الله وفضله، هو أضعف ما يكون خلقة، وأحوج ما يكون إعانة، وتراه مع ذلك مباهيا بما لم يعمل، فخورا بما لا يملك له طلبا ولا جمعا ولا إبقاء، فكيف لهذا العاجز أن يفاخر لما لم يعمل، أو يتباهى بما منّ الله عليه من فضله وهو غاض الطرف عن الناس، يشيح بوجهه كبرا وتعاليا، أم كيف له أن يطلب عوضا عن شيء لم يفعله بقوته، بل بفضل الله وحوله.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(١)، وإذا كان الله سبحانه هو الذي خلق جميع الأعمال التي ظهرت منك تفضلا من الله عز وجل، فكيف تطلب عوضا على عمل لست له فاعلا!!، هذا قمة الصلف والفجاجة أن يطلب الإنسان أجرا على ما لم يفعل، فإن مولاك عز وجل هو الفاعل في الحقيقة، وجعلك محلا لظهور فعله تفضلا منه، فيكفيك من الجزاء لك على العمل الذي أجراه على يديك بطريق المجاز أن يقبله منك، ولا يؤاخذك بعدم الصدق فيه من حيث أنه من كسبك.

ولذا يقول العلماء: جدد الإخلاص بقولك إياك نعبد، وجدد العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوة بقولك وإياك نستعين، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته، وأن له المنة إذ وفقك لطاعته، واستخدمك لعبادته، وجعلك أهلا لمناجاته، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين.

---

(١) سورة الصافات الآية ٩٦.

وينفى عن الإنسان الإعجاب بالعلم والعمل والرأي الصواب استحضار أن الذي وفقك للعمل إنما هو الله عز وجل، وأن النفس لا صنع لها في ذلك، وأنك إنما فعلته على كراهة منها، وأن من الخطأ أن تنسب الخير إلى من لم تعرفه إلا بالشر، وأن تقطعه عن من له الأمر كله، وأن النعم كلها منه، فمن وفقه الله للهدى، وأعطاه قوى لبلوغ المدى فراعى نفسه وزكاها، فقد أفلح، ومن حرم التوفيق، فأهمل نفسه ودساها، فقد خاب وخسر.

وقيل: ما أنعم الله على عبد نعمة أفضل من أن عرفه لا إله إلا الله، وفهمه معناها، ووفقه للعمل بمقتضاها، والدعوة إليها.

وقبول الله تعالى للعمل محض فضل منه سبحانه، والآثار التي وردت بقبول العمل تذهل فيما أعده الله من جزاء عليها، لا لأنها ثمرة فعل، وإنما لوجود الإخلاص فيها ويسبقها فضل محض الله بتوفيق للعمل، فعن أبي هريرة قال: إن الله عز وجل يقبل الصدقات، ويقبلها بيمينه، ولا يقبل منها إلا الطيب، وإنه ليربي اللقمة كما يربي أحدكم فصيله أو مهره حتى تصير اللقمة لصاحبها مثل أحد.

فالله سبحانه يقبل القليل من العبد كما يقبل الكثير قبولا واحدا سواء، وهكذا في سائر الأعمال، وكفى بقبول الله الصغير من عبده لعبده فوزا مع أن أعمال بني آدم كلها صغارا إلا ما قبل الله منها، فإذا قبل منها شيئا صار عظيما، وإن كان قبل ذلك صغيرا.

وقد ذكر عن علي بن أبي طالب ﵁ أنه كان يقول: إن لله في أرضه آنية، وإن من آنيته فيها القلوب، فلا يقبل منها إلا ما صفي وصلب ورق.

والعارف بالله تعالى يعلم أن الذي يجري هذه الأعمال كلها والأفعال هو الله عز وجل، فلا يطالب الله عز وجل بشيء على الإطلاق، فهو الفعال لما يريد.

فلا عمل ولا فعل له، ولا حساب له، كيف يُحاسب على شيء لم يفعله أو يختاره، فهؤلاء هم الذين يدخلون الجنة بغير حساب، ويجلسون على منابر من نور، والناس في الحساب.

ولأختم بهذه الوصية البديعة التي أوصى بها أبو بكر ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ حين أوصى له بالخلافة، فقال: إني موصيك بوصية إن حفظتها، فإن لله حقا في الليل لا يقبله في النهار، وإن لله حقا في النهار لا يقبله في الليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم، وحُقّ لميزان لا يوضع فيه يوم القيامة إلا الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا، وخفته عليهم، وحُقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف، إن الله ذكر أهل الجنة بصالح ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم، فيقول القائل: لا أبلغ هؤلاء، وذكر أهل النار بسوء ما عملوا؛ إنه رد عليهم صالح الذي عملوا، فيقول القائل: أنا أفضل من هؤلاء، وذكر آية الرحمة وآية العذاب، فليكن المؤمن راغبا وراهبا، فلا يتمنى على الله غير الحق، ولا تلق بيدك إلى التهلكة، فإن حفظت قولي لم يكن غائب أحب إليك من الموت، ولا بد لك منه، وإن أنت ضيعت قولي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه.

## ١٢٣- إِذَا أَرادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ

إن هذه الحكمة العظيمة الجليلة لو علمها الجاهلون ما تكبروا، ولا منّوا، ولعلموا أن الفضل كله لله عز وجل، إذا أراد الله سبحانه أن يظهر فضله وإحسانه على العبد المسكين خلق العمل الصالح فيه، وأجراه على يديه، ونسبه إليه، وأطلق ألسنة الخلق بالمدح والثناء عليه، فلا تظن أن الفعل فعلك، وأن الفضل فضلك، فإن الفضل كله لله عز وجل الذي خلق وسوى، وقدر فهدى.

فلو كانت الدنيا كلها لك فبذلتها ونفسك معها شكرا لما أنعم عليك من معرفة أنه ربك وأنت عبده، وأنه هو أمرك بعبوديته ونهاك عن عبودية غيره، لكان ذلك كله قليلا حقيرا في جانب نعمته عليك في ذلك.

فإن وجدت نفسك على الطاعة وأثنى عليك أحد فتذكر أن الفضل لله وحده، واستحي من مولاك الكريم أن تنسب شيئا لنفسك، وكن كما كان سهل بن عبدالله مؤدبا

مع ربه، فكان إذا عمل حسنة قال: يا رب أنت بفضلك استعملت، وأنت أعنت، وأنت سهلت، فيشكر الله له ذلك، ويقول له: وأنت يا عبدي أطعت وتقربت.

أما إذا نظر العبد إلى نفسه وقال أنا عملت، وأنا أطعت، وأنا تقربت، أعرض الله عنه، وقال: يا عبدي: أنا وفقت، وأنا أعنت، وأنا سهلت.

وإذا عمل العبد سيئة، وقال: يا رب أنت قدرت، وأنت قضيت، وأنت حكمت، غضب الله عليه، وقال له: يا عبدي، بل أنت أسأت، وأنت جهلت، وأنت عصيت، وإذا قال العبد: يا رب، أنا ظلمت، وأنا أسأت، وأنا جهلت، أقبل الله عليه، وقال له: يا عبدي أنا قضيت، وأنا قدرت، قد غفرت وحلمت وسترت.

والعمل الصالح يظهر على ملامح العبد متى بادر السيئة بالحسنة، وأتبع السيئة الحسنة ليمحوها، ويثبت عند الله توبته وإنابته.

فعن أبي عبيدة بن الجراح أنه كان يسير في العسكر ويقول: ألا رب مبيض لثيابه مدنس لدينه، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم أخطأ ما بينه وبين السماء والأرض ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن.

ولذا إذا غفل الإنسان عن هذا فينبغي له أن ينظر في سؤال الله له وكيف يجيب عليه، وانظر إلى موقفك منه سبحانه وهو يقول لك: يا عبدي، أما أجللتني، أما استحييت مني، استخففت بنظري إليك؟، ألم أحسن إليك؟، ألم أنعم عليك؟، ما غرك مني؟، شبابك فيم أبليته؟، وعمرك فيم أفنيته؟، ومالك من أين اكتسبته؟، وفيم أنفقته؟، وعملك ماذا عملت فيه؟.

قال الفقيه رضي الله عنه: من أراد أن يكسر العجب فعليه أربعة أشياء: أولها أن يرى التوفيق من الله تعالى، فإذا رأى التوفيق من الله تعالى، فإنه يشتغل بالشكر، ولا يعجب بنفسه. والثاني أن ينظر إلى النعماء التي أنعم الله بها عليه، فإذا نظر في نعمائه اشتغل بالشكر عليها، واستقل عمله، ولا يعجب به. والثالث أن يخاف أن لا يتقبل منه، فإذا اشتغل بخوف القبول، لا يعجب بنفسه. والرابع أن ينظر في ذنوبه التي أذنب، قبل

ذلك، فإذا خاف أن ترجح سيئاته على حسناته فقد قل عجبه، وكيف يعجب المرء بعلمه، ولا يدري ماذا يخرج من كتابه يوم القيامة، وإنما يتبين عجبه وسروره بعد قراءة الكتاب.

فالعبد المسكين هو الذي لا يعرف مولاه فينسب الأعمال والأفعال إلى نفسه، ويظن أنه الفاعل، فيتيه فخرا بما عمل من صالح، ويتبختر عجبا بما يحسبه خيرا قدمه لخلقه، ويمن على الناس بما يظنه قد فعله نفعا لهم، ولا يعلم أنه مستخدم من الله، ولولا ستر الله عليه لكان أشقى الناس وأكثرهم لؤما، نسأل الله نور البصيرة.

## ١٢٤- لا نِهَايَةَ لِمَذَامِكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيكَ، وَلا تَفْرُغُ مدائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيكَ

إن فضائل الله تعالى لا تعد ولا تحصى، ولا يمكن حصرها أو بيان عظمتها، فهي فوق القول، وتربو على الحصر والعد والوصف، وابن عطاء الله هنا يذكر المريد بشيء منها فيقول له: أيها المريد، لو أرجعك الله إلى نفسك فاعتمدت عليها فإن مذامك تكون لا نهاية لها، وذلك من علامات الطرد والإبعاد، أما إن أظهر جوده عليك فإنه لا تنتهي مدائحك، أي محاسنك التي تمدح بها، وفضائلك التي تذكر لأجلها، وينصرك على نفسك، فتكون ممن رحمه واجتباه، وأحبه واصطفاه، ووفقه لما يحبه ويرضاه، وبجميع المحامد حلاه، وجعله من أحبائه وأصفيائه.

ولذا حذرت السنة كل الحذر من الإعجاب بالنفس وإطرائها، حتى جعلها النبي ﷺ أشد المهلكات، فقد قال رسول الله ﷺ قال: (ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فهوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن)(١).

ولو رجعنا إلى دنيا العارفين ورأينا كيف كانوا يقولون على أنفسهم لبهرتنا أقوالهم،

---

(١) أخرجه البيهقي في الحديث رقم٦٨٦٥، شعب الإيمان ٣٩٦/٩.

ولعجبنا من أفعالهم، فهذا أحدهم يقول: اعلم أن الهوى يسري بصاحبه في فنون، ويخرجه من دار العقل إلى دائرة الجنون، وقد يكون الهوى في العلم، فيخرج بصاحبه إلى ضد ما يأمر به العلم، وقد يكون في الزهد فيخرج إلى الرياء.

وقال أبو حاتم رضي الله عنه: أفضل الناس من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة، ولا يترك المرء المتواضع إلا عند استحكام التكبر، فلا يتكبر على الناس أحد إلا بإعجابه بنفسه، وعجب المرء بنفسه أحد حصاد عقله، وما رأيت أحدا تكبر على من دونه إلا ابتلاه الله بالذلة لمن فوقه.

ومن يبغضه الله تعالى يظهر مذامه للناس، فيكون الازدراء في عيونهم، والكره والمقت في قلوبهم، وقد حذر الصحابة والعارفون من فئات يبغضها الله تعالى ويظهر مذامها للخلق، فعن علي بن أبي طالب، قال: أبغض الناس إلى الله ثلاثة: الشيخ الجهول، والغني الظلوم، والفقير المختال.

وعن أبي الدرداء ﵁ قال: ما في المؤمن مضغة أحب إلى الله عز وجل من لسانه، به يدخل الجنة، وما في الكافر مضغة أبغض إلى الله عز وجل من لسانه، به يدخل النار.

وذكر أن موسى عليه السلام ناجى الله تعالى فقال: يا رب من أبغض خلقك إليك؟ قال: يا موسى من تكبر قلبه، وغلظ لسانه، وضعف يقينه، وبخلت يده.

وفي التوراة: إذا أحب الله عبدا جعل في قلبه نائحة، وإذا أبغض عبدا جعل في قلبه مزمارا.

وفي الأثر: أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون، والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم في صدورهم فإذا لقوهم تملقوا لهم، والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطّاء، وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعا.

وقد يكون غضب الله على العبد عمىً يصيب قلبه، فيكون مستغلقا مع تهيئة كل الأسباب الموصلة للسعادة، ولكن الله يختم على قلبه، فلا تكون له منها فائدة، ولذا قال بعض العارفين: إذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا، ومنعه ثلاثا، أعطاه صحبة

الصالحين، ومنعه القبول منهم، وأعطاه الأعمال الصالحة، ومنعه الإخلاص فيها، وأعطاه الحكمة، ومنعه الصدق فيها.

ولو تأملت فيما سبق لوجدت أن الأفعال كلها تدور حول الرفق وحلاوة اللسان، وحسن التواضع والبعد عن العجب والغرور والكبر والبطر.

قال محمد بن سعيد المروزي: الأمر كله يرجع إلى أصلين، فعل منه بك، وفعل منك له، فترضى ما فعل، وتخلص فيما تعمل، فإذن أنت سعدت بهذين، وفزت في الدارين.

فكن على حذر أيها المريد أن تعجب بنفسك، واترك المدح لها والزهو بخلالها، فلو أحبك الله لأحبك العباد كلهم، ولو أبغضك الله فلن تنفعك محبة العالمين، ولصاروا مبغضين لك.

## ١٢٥- كُنْ بِأَوْصَافِ رُبُوْبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقًا، وَبِأَوْصَافِ عُبُوْدِيَّتِكَ مُتَحَقِّقًا

إن المريد إذا تحقق من أوصاف عبوديته، وهي الفقر والذل والعجز والجهل، واعترف بالعبودية لله عز وجل فإنه يشهد أوصاف الربوبية، وهي الغنى والعزة والقوة والعلم، فيتعلق بهذه الأوصاف فيكون غنيا بالله، عزيزا به، قويا بقوته، عالما بفضله وعلمه.

واعلم أن أوصاف العبودية هي شرف الإنسان وأصله، وأن تعلقه بأوصاف الربوبية هي عزته وقوته، وأن الإنسان إذا سيق له ما في الأرض جميعا لا تخرجه من صفته الأصلية وهي الفقر، ولا يصبح غنيا، وإنما غناه مجازي لا حقيقي، فالغني هو الله، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[(١)].

وقد كان النبي ﷺ مفاخرا بتلك العبودية في أكثر من حديث، فعن **عمر قال**: قال رسول الله ﷺ: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد،

---

(١) سورة فاطر الآية ١٥.

فقولوا عبده ورسوله)[١].

وعن عبد الله بن عبيد قال: أتي النبي ﷺ بطعام، فقالت له عائشة: لو أكلت يا نبي الله، وأنت متكئ كان أهون عليك، فأصغى بجبهته حتى كاد يمس الأرض بها، قال: (بل آكل كما يأكل العبد، وأنا جالس كما يجلس العبد، وإنما أنا عبد)[٢].

ولذا يحذر النبي ﷺ من التعلق بغير الله، وأنه من تعلق بشيء وُكّل إليه، ففي الحديث عنه ﷺ: (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئا وُكّل إليه)[٣]، فلينظر المرء بمن يتعلق، بالله القوي أم بالعباد العجزة، وليعلم المرء أنه متى كان حريصا على الدنيا، غير متحقق لأسباب ضعفه فإنه يعيش في الدنيا ذليلا، يهلكه الحرص، ولا ينال منها إلا ما أراده الله.

وصدق الشاعر إذ يقول:

ينال الغنى من ليس يسعى إلى الغنى ... ويحرم من يسعى له ويداوم

وما العجز يحرمه ولا الحرص جالب ... وما هو إلا حظوة ومقاسم

ويقول آخر:

ورزق الخلق مقسوم عليهم ... مقادير يقدرها الجليل

فلا ذو المال يرزقه بعقل ... ولا بالمال تقتسم العقول

وقيل: تعلق شاب بأستار الكعبة، وقال: إلهي لا شريك لك فيُؤتى، ولا وزير لك فيُرشي، إن أطعتك فبفضلك ولك الحمد، وإن عصيتك فبجهلي فلك الحجة علي، فبإثبات حجتك عليّ وانقطاع حجتي لديك إلا غفرت لي، فسمع هاتفا يقول: الفتى عتيق من النار.

---

(١) أخرجه أحمد في الحديث رقم١٦٤، المسند ٣٠٢/١.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٥٣/٢.

(٣) أخرجه النسائي في الحديث رقم٣٥٢٨، السنن الكبرى ٤٤٩/٣.

فمن كان بأوصاف ربه متعلقا، كان عليه متوكلا، والمتوكل ساكن القلب إلى المضمون، فمن قطع تعلق القلب بالأسباب لم ير شيئا إلا الله، لأن قدر الله جار على المتوكل وغيره.

ومن كان متعلقا بأوصاف عبوديته، فلا يلومن إلا نفسه، اللهم اجعل تعلقنا بك، وتوكلنا عليك، واقطع أملنا إلا فيك، ورجاؤنا إلا منك.

## ١٢٦- مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا لِلْمَخْلُوقِينَ، أَفَيُبِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ!!

إن كثيرا من الناس يأكلهم البطر، وتغرهم النعم، ويدفعهم الكبر إلى التشبه بالإله الأعظم، فبين لهم ابن عطاء رحمه الله في هذه الحكمة أن من أقبح القبائح وأكبر الذنوب والمعاصي أن يدعي العبد وصفا اتصف به مولاه، كأن يدعي الغنى، أو العزة، أو العظمة، أو القوة، أو العلم، وما إلى ذلك من صفات الربوبية، وهذه منازعة لصفات الله عز وجل، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: (الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما، قذفته في النار)(١).

وقد كان النبي ﷺ مثالا للتواضع، وردت عنه أحاديث كثيرة في ذم الكبر وأهله، فقد روى عمرو بن شعيب أن النبي ﷺ قال: (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن جهنم، يقال له: بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار: طينة الخبال)(٢).

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (من فارق الروح الجسد وهو بريء من ثلاث، دخل الجنة: من الكبر، والغلول، والدين)(٣).

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إن الذي يجر ثوبه من الخيلاء، لا ينظر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٢/٥٢.

(٣) أخرجه الدارمي في الحديث رقم٢٦٣٤، سنن الدارمي ٣/١٦٨٨.

الله إليه يوم القيامة)[١].

وعن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: (من يتواضع لله درجة، يرفعه الله به درجة، ومن يتكبر على الله درجة، يضعه الله به درجة، حتى يجعله في أسفل السافلين)[٢].

وروي أن نوحا عليه السلام قال لابنه سام: يا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الشرك بالله، فإنه من يأت الله مشركا فلا حجة له، ويا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الكبر، فإن الكبرياء رداء الله عز وجل، فمن ينازع الله رداءه يغضب عليه، ويا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من القنط، فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا ضال.

وقال بعض العارفين: لكل شيء آفة تفسده، فآفة العبادة الرياء، وآفة الحلم الذل، وآفة الحياء الضعف، وآفة العلم النسيان، وآفة العقل العجب بنفسه، وآفة الحكمة الفحش، وآفة اللب الصلف، وآفة القصد الشح، وآفة الزمانة الكبر، وآفة الجود التبذير.

وعن معاذ بن جبل قال: لا يبلغ عبد ذرى الإيمان حتى يكون التواضع أحب إليه من الشرف، وما قل من الدنيا أحب إليه مما كثر، ويكون من أحب وأبغض في الحق سواء، يحكم للناس كما يحكم لنفسه وأهل بيته.

وصدق من قال: التيه[٣] مفسدة للدين، منقصة للعقل، مهتكة للعرض، فانتبه.

وقال قتادة: من أُعطي مالا، أو جمالا، أو ثيابا، أو علما، ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالا يوم القيامة.

وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله، وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم٣٥٦٩، سنن ابن ماجه ١١٨١/٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم٤١٧٦، سنن ابن ماجه ١٣٩٨/٢.

(٣) وهو الكبر والزهو والغرور.

نعمة في الدنيا فلم يشرها[١]، ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقا من النار يعذبه إن شاء الله، أو يتجاوز عنه.

وقال أبو علي الجوزجاني: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصرة الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل.

فيا حظه من تواضع لله، واعتز بالله، ولم يجعل لنفسه علما ولا عزا ولا غنى، وافتقر إلى الله تعالى، وليعلم ابن آدم أن الفضل كله لله، وأن المنة كلها لله، لا يملك لنفسه فضلا عن أن يملك لغيره شيئا.

فإذا كان الله عز وجل منعك أن تدعي شيئا ليس لك مما هو للمخلوقين من الأموال أفيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين ذو الجلال والإكرام، فكن مؤدبا مع مولاك، وقف عند حدود العبودية تسلم وتنعم بصفات الربوبية، وهذا هو غاية الصوفية.

## ١٢٧- كَيْفَ تُخْرَقُ لَكَ العَوائِدُ وَأَنْتَ لَمْ تَخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ العَوَائِدَ

كثير من الناس تأخذه العزة بالإثم، ويحسب لنفسه فضلا، وأن لها عند الله مكانة، ويطلب من الله ما لم يفعله لنفسه، ويجعل لها من الفضل فوق ما لها من الخشوع والخضوع لله عز وجل خالصا، وهنا يبين ابن عطاء الله رحمه الله أن المريد الحقيقي لا يطمع في خرق العوائد له، بأن يظهر على يديه الكرامات وهو لم يخرق من نفسه العوائد التي اعتادها من كثرة الشهوات، وزيادة الغفلات، ومتابعة الملذات، واتباع الهوى، فإنه قد جرت عادة الله عز وجل بأن لا تخرق العوائد إلا لمن فني عن حظوظ نفسه، فكيف تخرق لك العوائد وأنت في أوحال الشهوات، وكما يقولون خير عادة ألا

(١) يشرها: بمعنى ينشرها.

تكون لك عادة.

يقول أبو على الجوزجاني: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك عز وجل يطالبك بالاستقامة.

ولن تصل إلى الله تعالى إلا بالاهتمام بنفسك، فتدربها على عبادة الله وخشيته، وتحب الناس في الله وتمقتهم لمعصيتهم لله لا لمصلحة نفسك، يقول أبو الدرداء ﵁: لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها كثيرة، ولن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم تقبل على نفسك، فتكون لها أشد مقتا من مقتك الناس.

وإن أردت مقياسا لذلك فاستمع إلى ما نقل عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه أنه كان يصف الرياء، يقول: ما كان من نفسك فرضيته نفسك لها، فإنه من نفسك فعاتبها، وما كان من نفسك فكرهته نفسك لها، فإنه من الشيطان، فتعوذ بالله منه.

وفرق الجنيد بين هواجس النفس ووساوس الشيطان بأن النفس إذا طالبتك بشيء ألحت، فلا تزال تعاودك ولو بعد حين حتى تصل إلى مرادها، ويحصل مقصودها، اللهم إلا أن يدوم صدق المجاهدة، ثم إنها تعاودك وتعاودك، وأما الشيطان إذا دعاك إلى زلة فخالفته بترك ذلك يوسوس بزلة أخرى.

ويقول أبو علي الدقاق: أنت عبد من أنت في رقه وأسره فإن كنت في أسر نفسك فأنت عبد نفسك، وإن كنت في أسر دنياك فأنت عبد دنياك.

وكان يقال: إذا عرفت نفسك لم يضرك ما قيل لك.

ولذا كان علماء الأمة وعارفوها يحذرون من النفس، فهذا الحسن يقول: نفسك يا ابن آدم فكايس عنها، فإنك إن وقعت في النار لم تنجبر أبدا.

وقال الفضيل الرقاشي ناصحا: لا يلهينك الناس عن نفسك، فإن الأمر يخلص إليك دونهم، ولا تقطع النهار بكذا وكذا، فإنك محفوظ عليك ما عملت، واعلم أني لم أر شيئا أشد طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم.

وعن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه قال: جاءه رجل، فقال: أوصني قال: هيئ جهازك، وقدم زادك، وكن وصي نفسك.

وكتب يوسف بن الحسين إلى الجنيد: لا أذاقك الله طعم نفسك، فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيرا أبدا.

وكان عبد الله بن منازل يقول: أفضل أوقاتك وقت تسلم فيه من هواجس نفسك، ووقت تسلم الناس فيه من سوء ظنك.

وكان النصراباذي يقول ناصحا: سجنك نفسك، فإذا خرجت منها وقعت في راحة أبدية.

وقال رجل لذي النون المصري: متى تصح لي العزلة؟ فقال: إذا قويت على عزلة نفسك.

وإن أردت علاجا فاسمع ما قاله السري لبعض جلسائه: لا تلزم نفسك طول الفكرة في ما يورث قلبك ضعف الإيمان، فإن ضعف الإيمان أصل كل إثم وهم وغم، ولكن اشغل قلبك بكل ما يورث اليقين، فإن اليقين يورث كل طاعة، ويباعد من كل غم وهم، ويؤمنك من كل خوف، ويقربك من كل روح وفرح.

فلا تعود نفسك شيئا معينا، وارتفع بها عن هذه العوائد التي اعتادت عليها حتى تظهر على يديك الكرامات، وتنعم بالقرب من رب الأرض والسماوات، أما إذا ظهرت كرامات وأنت لم تخرق العادات فهذه إهانات، وليست كرامات، لأنها استدراج من الله عز وجل، فاحذر ذلك أيها المريد، وافهم تسلم.

## ١٢٨- مَا الشَّأْنُ وُجُودُ الطَّلَبِ، إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ الأَدَبِ

هنا ينبه ابن عطاء الله رحمه الله على الأدب الذي هو أساس طريق القوم، لأن من زاد عنك في الأدب زاد عليك في التصوف والقدر، فيقول: ما الشأن المعتبر عند المحققين وجود الطلب لحوائجك من مولاك الكريم، أي ليس الشأن المعتبر كلما تحتاج شيئا تطلبه من الله عز وجل، وإنما الشأن المعتبر أن ترزق حسن الأدب مع الخالق الرازق بغير طلب أو سؤال، بأن تفوض الأمر إليه، وأن ترضى بما قسمه لك، ويكون شغلك الشاغل ذكره وشكره وحسن عبادته، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(إن الله تعالى يقول: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)[١].

وقال بعض العلماء: إن الله عز وجل يقول أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته، وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه.

وهذا شأن الكرام، فإنهم ينشغلون بذكر الله عز وجل عن طلب حوائجهم منه، وهم يعلمون أنه لا تخفى عليه خافية، وأنه يعلم السر وأخفى.

ثم العجب من سؤالاتك! فإنك لا تكاد تسأل عن شيء مُهم من الدنيا، بل فضول العيش، ولا تسأل صلاح القلب والدين مثل ما تسأل صلاح الدنيا.

فاعقل أمرك، فإنك من الانبساط والغفلة على شفا جرف، وليكن حزنك على زلاتك شاغلا لك عن مراداتك، فقد كان الحسن البصري شديد الخوف، فلما قيل له في ذلك؟ قال: وما يؤمنني أن يكون اطلع على بعض ذنوبي فقال: اذهب، لا غفرت لك؟.

هكذا يكون الذكر والخوف من الله عز وجل، إن حسن الأدب مرضاة لله عز وجل، مجلبة للخير، مدفعة للشر، وسوء الأدب مجلبة لكل بلاء وشر.

## ١٢٩- ما طَلَبَ لكَ شَيْءٌ مِثْلُ الاضْطِرارِ، وَلا أَسْرَعَ بِالمَواهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ الذِّلَّةِ والافْتِقارِ

أليس القرب من الله أكبر فوز، أليست مجاورة الله ونعمه أفضل مطلوب، أليس رضا الله فوزا مبينا، أليس فضل الله واسعا، أليس ستر الله سابغا، إن أردت ذلك كله وما يزيد عليه فافتقر إلى الله، واتبع ما يقوله لك ابن عطاء رحمه الله، فهو يقرر لك في هذه الحكمة أن أحسن مطلوب يطلبه العبد من ربه وهو مضطر إليه، أي لا يتوهم من نفسه حولا ولا قوة، ولا يرى لنفسه سببا من الأسباب يعتمد عليه، أو يستند إليه، بل يرى نفس كالغريق الذي لا يرى منقذا له إلا مولاه العلي القدير، فهذا مستجاب الدعوة،

---

(١) أخرجه البيهقي في الحديث رقم٥٦٧، شعب الإيمان ٩٣/٢.

لقول الله عز وجل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾(١)، وهذا شأن العارفين بالله دائما، فهم في اضطرار دائم في كل شيء، لأنه لا حول لهم ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ليس لها من دون الله كاشفة.

وإنما كان ذلك لأن من أحب أوصاف العباد إلى الله إظهار الفقر، ورؤية الاضطرار إلى الله، وهما سمة العبودية، وكان استغفار العبد إظهارا لفقره والافتخار بالعبودية لسيده، لا أن يمحو به ذنبا أذنبه، أو خطيئة اكتسبها.

ثم يقول: ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار، أي أن الذلة والافتقار أمران موجبان لإسراع مواهب الله إليك، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢)، فذلتهم أوجبت عزتهم ونصرهم، وكذلك ما رواه أبو موسى الأشعري ﷺ، قال: لما غزا رسول الله ﷺ خيبر، أو قال: لما توجه رسول الله ﷺ، أشرف الناس على وادٍ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: (اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصما ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا، وهو معكم، وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ، فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال لي: يا عبد الله بن قيس. قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة، قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله)(٣).

وسئل أحد العارفين: ما العبودية؟ قال: ترك الاختيار، وملازمة الافتقار، وقال: إياك أن تلاحظ مخلوقا وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلا.

ويقول آخر: إذا صح الافتقار إلى الله صحت العناية، لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بصاحبه.

---

(١) سورة النمل من الآية ٦٢.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٢٣.

(٣) متفق عليه ولفظه للبخاري، أخرجه في الحديث رقم٤٢٠٥، الصحيح ١٣٣/٥، وأخرجه مسلم في الحديث رقم٢٧٠٤، الصحيح ٢٠٧٦/٤.

وكان العارفون يعدون الذل لله من الغنائم التي لا يبيعونها بأغلى الأموال، ولا يريدون من الله لها بدلا، فهذا الأحنف بن قيس يقول: ما أحب أن لي بنصيبي من الذل حمر النعم.

وعن وهب بن منبه قال: ما عُبِد اللهُ عز وجل بمثل العقل، ويخرج من بيته فلا يستقبله أحد إلا رأى أنه دونه؛ الكبر منه مأمون، والخير منه مأمول، ويقتدي بمن قبله، وهو إمام لمن بعده حتى يكون الذل أحب إليه من العز، وحتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، وحتى يستقل الكثير من عمله، ويستكثر القليل من عمل غيره، وحتى يكون عيشه القوت، ولا يتبرم في طلب الحوائج، وحتى يكون الفقر إليه في الحلال أحب إليه من الغنى في الحرام، وحتى يكون الفقر في طاعة الله أحب إليه من الغنى في معصية الله، قال: ثم العاشرة ما العاشرة؟ بها ساد مجده، وعلا ذكره أن يخرج من بيته فلا يستقبله أحد من الناس إلا رأى أنه دونه.

وعن صالح بن حسان المؤذن قال: دخلت على عمر بن عبدالعزيز فسمعته يقول: لا يتقي الله عبد حتى يجد طعم الذل.

ويقول أبو حامد الغزالي واصفا حال السجود في الصلاة: إذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها، ورددت الفرع إلى أصله، فإنك من التراب خلقت وإليه تعود، فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله، وقل سبحان ربي الأعلى، وأكده بالتكرار، فإن الكرة الواحدة ضعيفة الأثر، فإذا رق قلبك، وظهر ذلك، فلتصدق رجاءك في رحمة الله فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر، فارفع رأسك مكبرا وسائلا حاجتك، وقائلا رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم.

ونختم بقول إبراهيم بن أدهم: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات، أوله: يغلق باب الرحمة، ويفتح باب الشدة، والثاني: يغلق باب العز ويفتح باب الذل، والثالث: يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد، والرابع: يغلق باب النوم ويفتح باب السهر، والخامس: يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر، والسادس: يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت.

فالإنسان إذا أظهر الذل بأن لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنه يمده بكنز من كنوز الجنة، فلا يرى التعاسة ولا الفقر ولا الهم ولا الحزن طوال حياته.

**١٣٠- لَوْ أَنَّكَ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ إِلاَّ بَعْدَ فَنَاءِ مَسَاوِيكَ وَمَحْوِ دَعَاوِيكَ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَدًا ؛ وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَكَ إِلَيْهِ غَطَّى وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ، وَنَعْتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ، لاَ بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ**

الله الله على كرم الله وفضله، اللهم إني أنا العبد الذليل وأنت الرب الكريم العزيز، أنا العبد الضعيف يا ربي، وأنت الرب القوي القادر المقتدر، أنا العبد الفقير يا ربي، وأنت الرب الغني المغني الوهاب الرزاق المعطي.

لو تأمل الإنسان في نفسه لوجد محاسنه كلها مساوئ، ولو كان رأس المخلصين، وأحوالها كلها دعاوى ولو كان أصدق الصادقين، فلولا تفضل الله عليكم، ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا، لذلك يقول ابن عطاء الله رحمه الله: لو أنك لا تصل إلى الله تعالى أيها المريد إلا بعد فناء مساويك أي عيوبك، ومحو دعاويك التي تدعيها من نسبة الأعمال إلى نفسك، بأنك تصلي وتصوم وتحج وما إلى ذلك، لم تصل إليه أبدا، لأن المساوئ والدعاوى طبعك الذي لا يتغير، ولو لم يكن إلا إرادتك تحصيل هذا الغرض بنفسك لكان كافيا في ذمك، لذلك قال العباس المرسي ﷺ: لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله، انقطاع أدب، لا انقطاع ملل.

ثم يقول ابن عطاء الله رحمه الله: لكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه، أي أظهر لك من صفاته العلية ما تغيب به عن صفاتك البشرية، فيقيمك في مقام الحب الذي قال فيه المولى عز وجل في الحديث القدسي: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا

أكره مساءته)[١].

فيغطي صفاتك بصفاته، ونعتك بنعته، فيوصلك إليه بهذا الحب الذي هو منه إليك، لا بما منك إليه من الأعمال الصالحة، لذلك قيل: إذا نقصت العبادة جبرها الحب، وإذا نقص الحب لم يجبره شيء، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾[٢]، فهل يعذب الحبيب حبيبه، المهم أن تتقرب إلى الله وتتأدب معه حتى يحبك هو.

أَهْـــون بـداركم الـدُّنْيَا وأهليهـــا ... وَاضرِبْ بها صفحات من محبيها
الله يعلـم أَنِّـي لسـت وامقهـــــا ... وَلَا أُرِيد بَقَاء سَـــاعَة فِيهَـــــا
لَكِن تمرغت فِـي أدناســها حقبـا ... وَبت أنشـــــرها حينا وأطويها
أَيَّـام أسـحب ذيلـي فِـي ملاعبهـا ... جهلا وأهدم من ديني وأبنيهـــا
وَكم تحملت فِيهَـا غير مكتـرث ... من شامخات ذنوب لست أحصيها
فَقَـلت أبقـى لعَلـي أهــــدم مَـا ... بنيت مِنْهَا وأدناسـي أنقيهـــــا
وَمن ورائـي عِقَـاب لست أقطعها ... حَتَّى أخفـف أحمـــالي وألقيهـــا
يَا ويلتي وبحـــار الْعَفو زاخــرة ... إِن لم تصبني برش في تثنيهـــا

يا رب أسألك بكل شيء هو لك، بالعرش والكرسي والحبيب والذات العلية أن تغمرني بصفاتك العلية، وأن تغرقني في بحر الوحدة حتى لا أرى، ولا أسمع، ولا أحس إلا أنت، ووحد همي فيك، ولا تجعل في قلبي سواك، ولا تجعل لي شاغلا إلا إياك، آمين.

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٥٠٢، الصحيح ٨/١٠٥.

(٢) سورة المائدة من الآية ١٨.

## ١٣١- لولا جَميلُ سَترِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أهْلاً للْقَبولِ

كثير من الناس يغره العمل، ويحسب نفسه قد أتى العبادة على وجهها، ويمشي بين الناس متصنعا التواضع والزهد، وما يدري أنه لولا فضل الله ما كان هناك عمل مقبول، ولولا جميل ستره لردت كلها في وجوهنا، فأين نحن من نعمه، وأين نحن من فضله وكرمه وسعة عطائه، ولذا يبين ابن عطاء الله رحمه الله أن الله هو الستار، فلولا ستره سبحانه وتعالى الجميل لم يكن عمل من الأعمال أهلا للقبول، لما يعتري هذه الأعمال من الرياء، وعدم الإخلاص لله عز وجل، فإن العبد دائما مبتلى بالنظر إلى نفسه، وفرحه بأعماله، ونسبتها إليه، وشهود حوله وقوته فيها، وهذا من الشرك الخفي القادح في الإخلاص، فلولا ستر الله الجميل ما قبل عمل على الإطلاق، فلا يعتمد العبد على عمله واجتهاده، وإنما يعتمد على حول الله وقوته، وفضله وكرمه.

لقد سُئل حاتم الأصم كيف يؤدي صلاته؟ فقال: أُكبّر تكبيراً بتحقيق، وأقرأ قراءة بترتيل، وأرفع ركوعاً بخضوع، وأسجد سجوداً بتذلل، وأعتبر الجنة عن يميني، والنار عن شمالي، والصراط تحت قدمي، والكعبة بين حاجبي، وملك الموت على رأسي، وذنوبي محيطة بي، وعين الله ناظرة إلي، وأعدها آخر صلاة في عمري، وأتبعها الإخلاص ما استطعت، ثم أسلم، ولا أدري بعدها أيقبلها الله مني، أم يقول: اضربوا بها وجه من صلاها.

هكذا كانت صلاتهم، وهكذا كانت أعمالهم، إنهم يؤدون العمل، ويدركون أن قبوله فضل ورحمة من الله تعالى، وليس من حسن العمل.

ولولا ستر الله تعالى على الخلق ما ظهر منهم فاضل، ولا قدر منهم عالم، ولا ظهرت آلاء الله على عباده، يقول عبدالكريم الجبلي رحمه الله: لولا المنافق ما عرف للمؤمنين عيب، ولولا الرياء ما عرف المستورون، ولولا أهل المعرفة، لكان الناس كلهم في معنى البهائم، ولولا ستر الله، لكان الناس كلهم مهتوكين، فمن كرمه جعل البر والفاجر في ستره، وإن لله عز وجل عبادا ما نظر إليهم منذ خلقهم بغضا لهم، وإن الله

يتعاهدهم، كما تتعاهد الأم الشفيقة طفلها في المهد.

وعن الأصم قال: كنا عند أبي تميمة الهجيمي فجاءه بكر بن عبد الله فقال: يا أبا تميمة كيف أصبحت؟ قال: بين نعمتين: أميل بينهما لا أدري أيتهما أفضل: ذنب ستره الله علي، فلا يستطيع أحد أن يرميني به، ومحبة رزقنيها الله من عباده، وعزة ما بلغها عملي.

وكان من دعاء الصالحين قولهم: اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك، واستعملني بأحب الأعمال لديك، التي تقربني إليك زلفى، وتبعدني من سخطك بعدا، أسألك فتعطيني، وأستغفرك فتغفر لي، وأدعوك فتستجيب لي، اللهم لا تؤمنني مكرك، ولا تولني غيرك، ولا ترفع عني سترك، ولا تنسني ذكرك، ولا تجعلني من الغافلين، اللهم أسبل علي كثيف سترك، وحط علي سرادقات حجبك، واجعلني في مكنون غيبك، واحجبني في قلوب خليقتك.

وقد كان العارفون على كثرة عبادتهم وقربهم من ربهم يشفقون من عدم القبول، ويخافون من رد العمل، ورفض التوبة والإنابة، وهم من الله على حذر، فما بالنا نحن وقد كثرت معاصينا، وقلت أعمالنا، وذهب عنها الإخلاص، ما بالنا وحالنا هذه نطمع في رضا الله من غير عمل، ونظن بأنفسنا الخير مع معصيتنا؟

إن أردت مقارنة بسيطة بينا حالنا وحالهم فاسمع لهذا العابد المتبتل وهو يناجي الله قائلا: يا رب، وعزتك ما أرد بمعصيتك مخالفتك، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولا لنظرك مستخف، ولكن سولت لي نفسي، وأعانني على ذلك شقوتي، وغرني سترك المرخي علي، فعصيتك بجهلي، وخالفتك بفعلي، فمن عذابك الآن من يستنقذني؟، أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا، وقيل للمثقلين حطوا، أمع المخفين أجوز؟ أم مع المثقلين أحط؟ ويلي، كلما كبرت سني كثرت ذنوبي، ويلي، كلما طال عمري كثرت معاصي، فإلى متى أتوب؟ وإلى متى أعود؟ أما آن لي أن أستحي من ربي؟

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، واسترنا في الدنيا والآخرة، واجعلنا لديك من المقبولين.

## ١٣٢- أَنْتَ إلى حِلْمِهِ إذا أَطَعْتَهُ أَحْوَجُ مِنْكَ إلى حِلْمِهِ إذا عَصَيْتَهُ

لا زال ابن عطاء رحمه الله يواصل حديثه عن الغرور بالعمل، والزهو بالصالح منه، ويذكر المريد بأن يبغي فضل الله ووجهه، ولا يزهو بعمله، ولا يظن أن عمله موجب للقبول، فيبين رحمه الله أن الإنسان الطائع أحوج إلى حلم الله عز وجل من الإنسان العاصي، وهذا خلاف ما يعتقده الإنسان، لأنه ربما أورثته طاعته عجبا واستكبارا، فصاحبها أحوج إلى حلم الله عز وجل، لينظر له نظر شفقة وحلم، وربما أورثته المعصية ذلا وافتقارا، فتوجب الشرف والرفعة عند الله عز وجل، فيكون الطائع المعتمد على عمله الصالح أحوج إلى حلم الله عز وجل من العاصي الذي يرى نفسه أنه عاص ومضطر إلى عفو الله وحلمه، فهو دائما مفتقر إلى مولاه، وهنا تحذير شديد من رؤية الأعمال، وعدم الاعتماد على الله عز وجل.

ولذا روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (لو لم تكونوا تذنبون لخشيت عليكم ما هو أكثر من ذلك، العجب العجب)(١).

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: النجاة في اثنتين: التقوى، والنية، والهلاك في اثنتين: القنوط، والإعجاب.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن من صلاح توبتك أن تعرف ذنبك، وإن من صلاح عملك أن ترفض عجبك، وإن من صلاح شكرك أن تعرف تقصيرك.

وروي أن عائشة رضي الله عنها سألها رجل فقال: متى أعلم أني محسن؟ قالت: إذا علمت أنك مسيء، قال: متى أعلم أني مسيء؟ قالت: إذا علمت أنك محسن.

وسمع رجل محمد بن واسع، يقول: واأصحاباه، ذهب أصحابي، قال: قلت: يرحمك الله، أليس قد نشأ شباب يقرءون القرآن، ويقومون الليل، ويصومون النهار،

---

(١) أخرجه البيهقي في الحديث رقم٦٨٦٨، شعب الإيمان ٣٩٩/٩.

ويحجون، ويقرءون؟ قال: فبزق، وقال: أفسدهم العجب.

وعن مطرف بن عبد الله قال: لأن أبيت نائما وأصبح نادما، أحب إلي من أن أبيت قائما، وأصبح معجبا.

وعن مسروق قال: بحسب الرجل من العلم أن يخشى الله عز وجل، وبحسب الرجل من الجهل أن يعجب بعلمه.

وقال أعرابي لرجل رآه معجبا بنفسه: يسرني أن أكون عند الناس مثلك عند نفسك، وأكون في نفسي مثلك عند الناس.

فانظر أيها المريد إلى هؤلاء الناصحين كيف كان تعاملهم مع الله تعالى، وافتقارهم إليه مع حسن طاعتهم، بل وتبشير النبي لعمر ﵁ بالجنة، ومع ذلك يخشى على نفسه من العجب، فما بالنا ونحن نطمع في رحمة الله ومرضاته مع تقصيرنا في العمل!!.

## ١٣٣- السَّتْرُ عَلَى قِسْمينِ: سَتْرٍ عن المعْصِيَةِ، وسَتْرٌ فيها؛ فالعامَّةُ يَطلبُونَ مِنَ اللّه تعالى السَّتْرَ فيها خشيةَ سُقُوطِ مرتبتهِم عِندَ الخلقِ، والخاصةُ يطلبون السترَ عنها خشيةَ سُقُوطِهِم مِن نَظَرِ المَلِكِ الحَقّ

ينبه ابن عطاء الله في هذه الحكمة الرائعة على خصلة كثرت في الناس، وفشت فيهم، وأصبحت سمة عصرنا، وهي أنهم يستخفون من الناس، ولا يستخفون من الله وهو معهم، وكأنهم يظنون أنه لا يعلم ولا يرى، وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فيبين نوعين من الخلق، النوع الأول هم عامة الناس، فهم يطلبون من الله الستر في المعصية خوف اطلاع الناس عليهم، وهذا شأن المرائين الذين يخشون الناس، ولا يخشون الله عز وجل.

وهؤلاء الناس يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وأن يستروا عن المعصية، لئلا تسقط هيبتهم عند الناس، وعلامة أصحاب الجاه في الدنيا وأصحاب الرياء المحبين

لذلك أنهم إذا سمعوا الثناء والمحمدة أحبوا ذلك، وازدادوا عزة وإعجابا بأنفسهم، وغفلة عن الاستدراج، وتمادوا، وتمنوا، وطمعوا أن ما ظهر عليهم من أعمالهم كان أحب اليهم مما خفي، ولم يخافوا من فتنة ولا من آفة.

ولذا حذر النبي ﷺ من هذه المراءاة في العمل الصالح فكان في العمل السيء أولى، فعن شداد بن أوس قال: قال ﷺ: (من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك)[١].

وعن جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: (من يسمّع يسمّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به، ومن كان ذا لسانين في الدنيا جعل الله له لسانين من نار يوم القيامة)[٢].

وقال ابن مسعود عن هؤلاء: من يرائي يرائي الله به، ومن يسمّع يسمّع الله به، ومن تطاول تعظما خفضه الله، ومن تواضع تخشعا رفعه الله، وموسع عليه في الدنيا مقتور عليه في الآخرة، ومقتور عليه في الدنيا موسع عليه في الآخرة، ومستريح ومستراح منه. قالوا: ما المستريح؟ قال: المؤمن إذا مات استراح، وأما المستراح منه فهو الذي يظلم الناس ويغشهم في الدنيا، فإذا مات فهو المستراح منه.

يقول العلماء تفسيرا للأحاديث السابقة: المسمع بعمله المرائي به، يظهر للناس وجاها فيهم ورتبة عندهم، يريهم أنه لله عابد وله طائع إرادة رفعة فيهم، فهو إنما يرائي به الصالحين من عباد الله الذين يعظم في أعينهم من يطيع الله، ويريدون أن يكونوا مطيعين لله متعبدين له، والله عز وجل إنما أراد من عباده إخلاص العمل له، وأن لا يريدوا بأعمالهم إلا الله وحده، ولا تكون أغراضهم في أفعالهم إلا رضاء الله والدار الآخرة، فإذا صرفوا إرادتهم بأعمالهم إلى غير الله بإظهار صالحها لهم، ومراءاتهم بها ليعظموا بها في أعينهم، ويجل عندهم أقدارهم، قلب الله عليهم، فأظهر للخلق مساوئ أعمالهم التي يخفونها عنهم، ويسترونها منهم، مما علم الله منهم، وسترها عليهم،

---

(١) أخرجه أحمد في الحديث رقم١٧١٤٠، المسند ٣٦٢/٢٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الحديث رقم١٦٩٧، المعجم الكبير ١٧٠/٢.

فيبديها لسائر خلقه من آدمي وملك، وسائر خلق الله، فيبغضونهم عليها، وتزدريهم أعينهم، وتقصر أقدارهم عندهم، ويحقرونهم ويمقتونهم على أعمالهم، فيفتضحون عندهم، وينتهكون فيما بينهم، فيفوتهم ما قصدوه، ويقلب عليهم ما أرادوه.

والنوع الثاني هم الخاصة، فهم يطلبون من الله عز وجل الستر عنها بأن يجعل بينهم وبينها حاجبا، حتى لا تخطر بقلوبهم مخافة سقوطهم من نظر الملك الحق.

وعلامة الخوف من الله ترك جميع ما كره الله، ولذا قال الفضيل بن عياض: من خاف الله خاف منه كل شيء، ويقال: إن الخوف من المخلوقات عقوبة نقصان الخوف من الخالق، وإن ذلك من قلة الفقه عن الله تعالى.

وقال أبو عبد الله الأنطاكي: عرض للخلائق عارض من الهوى أقعد المريد وألهى العاقل، فلا العاقل عرف داءه، ولا المريد طلب دواءه، ومن استعصم بالله عصم، ومن عصم حجب عن المعاصي، ومن توقى وقي، ومن التمس العافية عوفي، ومن استسلم إلى نفسه حجب عن الطاعة، وغلبه الهوى، فسلك به سبيل الردى، واستحوذ عليه الشيطان فكان من الغاوين، والمحروم من حرم السؤال، والسؤال مفتاح الإجابة، والكريم يعطي قبل السؤال، وأكثر منن الله على عبده قبل السؤال، استغن عمن عدل عنك بوجهه، وخل الطريق لمن لا يفيق، ولا تحجب النصح عن مستفيق، واقصد لقلبك قصد الطريق، واحبس لسانك حبس المضيق، والق الصديق بوجه طليق، وعامل الله بقلب سليم، وحاسب النفس بالحساب الدقيق.

ولذا كان دعاء العارفين منهم دائما هو دعاء سيدي أبي الحسن: اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها، وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها، واحملنا على النجاة منها ومن التفكير في طرائقها يا أكرم الأكرمين.

ولتتذكر أيها المريد أنه ما أضعف هذه الأمة إلا الرياء والنفاق، نسأل الله السلامة منهما، نحن والمسلمين، ومن تناسل منا إلى يوم الدين، آمين.

## ١٣٤- مَنْ أَكْرَمَكَ إِنَّمَا أَكْرَم فِيكَ جَمِيلَ سَتْرِهِ، فَالْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ لَيْسَ الْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١)، ويقول: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾(٢)، ولذلك بين ابن عطاء الله رحمه الله في هذه الحكمة ما في هاتين الآيتين من فضل عظيم لله عز وجل على العبد، فيقول: إن الناس الذين يكرمونك ويمدحونك إنما أكرموك ومدحوك بسبب جميل ستر الله عليك، فلولا جميل ستره ما نظروا إليك بعين الرضا، بل لو نظروا إلى ما فيك من العيوب لاستقذروك ونفروا منك، فغطى الله كل ذلك بكرمه وستره، فالشكر كل الشكر، والحمد كل الحمد لمن سترك وغطاك، وليس الحمد لمن أكرمك وشكرك من الناس.

فالعاقل كلما رأى النعم أحدث له ذلك ذلا وانكسارا، وكلما جدد له نعمة ازداد له ذلا وانكسارا، وخشوعا وخضوعا، وخوفا ورجاء، ومحبة، وإنما يحصل هذا للعبد بأمرين:

الأول: علمه بربه وكماله، وبره وغناه، وجوده وإحسانه، وفضله ورحمته، وأن الخير كله في يديه، وهو ملكه يؤتي منه من يشاء، ويمنع منه من يشاء، وله الحمد على هذا، وهذا أكمل حمد وأتمه.

الثاني: علمه بنفسه، ووقوفه على حدها وقدرها، ونقصها وضعفها، وظلمها.

ولكن قد يقول قائل: فما تقول فيما ورد عن النبي ﷺ من قوله: (من لا يشكر الناس لا يشكر الله)(٣).

نقول: نعم، نحمد هؤلاء لأنهم كانوا السبب في إجراء الشكر على ألسنتهم،

---

(١) سورة النور من الآية ٢١.

(٢) سورة النحل من الآية ٥٣.

(٣) سبق تخريجه.

والفضل على أيديهم، لكن الحمد والشكر الحقيقي لمن أعماهم عن عيوبك، وأظهر محاسنك، فلولاه ما حمد أحدٌ أحدا، كما أن الشكر لهؤلاء علامة على شكر الله، فإذا كان الإنسان غير شاكر لمن يراه، فكيف يكون شاكرا لله!!، وقد قال الشاعر:

إذا المرء لم يشكر قليلا أصابه    فليس له عند الكثير شكور
ومن يشكر المخلوق يشكر لربه    ومن يكفر المخلوق فهو كفور

وقال آخر:

فلو كان يستغني عن الشكر    ماجد لعزة ملك أو علو مكان
لما أمر الله العباد بشكره    فقال اشكروني أيها الثقلان

وما أجمل المذكر بنعمة الشكر القائل:

حافظ على الشكر كي تستجزل القسما    من ضيع الشكر لم يستكمل النعما
الشكر لله كنز لا نفاد له    من يلزم الشكر لم يكسب به ندما

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

## ١٣٥- مَا صَحِبَكَ إلاَّ مَنْ صَحِبَكَ وَهُوَ بِعَيْبِكَ عَلِيمٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلاَّ مَوْلاَكَ الْكَرِيمُ

يبين ابن عطاء الله رحمه الله صحبة الله للعبد، وأن الله عز وجل هو الصاحب الحقيقي، لأنه يقبل عليك بإحسانه العميم مع علمه بعيوبك، ولا يفعل ذلك إلا مولاك الكريم، فهو خير صاحب، لأنه يطلبك ويعتني بك لا لشيء يعود منك إليه، ولا يكون ذلك إلا من مولاك الكريم الذي لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، فإكرامه بلا مقابل، وإحسانه بلا سبب، فهو المتفضل على جميع الخلائق بإحسانه وجوده وكرمه على ما فينا من عيوب وذنوب.

فهو سبحانه الجدير بالصحبة والحب، لذلك قال بعض العارفين:

خذ عن الناس جانبا    وارض بالله صاحبا
قلّب الإنس كيف شئت    تجدهم كلهم عقاربا

فالمقصود من هذه الحكمة الحث على اجتناب الخلائق، والإقبال على صحبة الخالق، فهو كافيك، أليس الله بكاف عبده، بلى.

وليس معنى ذلك العزلة عن الناس، بل أن يصاحب الرجل من يدله على الله، ومن يكون أنسه بالله، وقد سئل رسول ﷺ عن الصحبة الخيرة وغيرها، فقد (قيل: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: اجتناب المحارم، ولايزال فوك رطباً من ذكر الله تعالى، قيل: يا رسول الله فأي الأصحاب خير؟ قال: صاحب إن ذكرت أعانك، وإن نسيت ذكرك، قيل: فأي الأصحاب شر؟ قال: صاحب إن سكت لم يذكرك، وإن ذكرت لم يعنك)[(١)].

وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: اللهم إني أعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتي إلا بموافقة شهوتي، وممن ساعدني على سرور ساعتي، ولا يفكر في حوادث غدي.

وقد كان الصوفية المخلصون من هذه النوعية الصالحة من البشر، فقد قيل للإمام أحمد بن حنبل: الصوفية يجلسون في المساجد بلا علم على سبيل التوكل، قال: العلم أجلسهم، فقيل: ليس مرادهم من الدنيا إلا كسرة خبز وخرقة، قال: لا أعلم على وجه الأرض أقواما أفضل منهم، قيل: إنهم يسمعون ويتواجدون عند القرآن فيحصل لبعضهم ما يحصل من الغشي والموت، كما كان يحصل ليحيى بن سعيد القطان فقال: لهم عذرهم.

فإن كان من الأصحاب واحد من هؤلاء طابت به الدنيا، وإن لم يكن، فالعزلة أولى، ألم ترى إلى التحذير من صحبة ذي الذنوب والأحمق، حيث يقول الشاعر صادقا في قوله:

احذر الأحمق أن تصحبه　　　إنما الأحمق كالثوب الخلق

---

(١) أخرجه العراقي في تخريج أحاديث الأحياء وقال لم أجده هكذا بطوله، ورواه الحسن مرسلا، ينظر: المغني عن حمل الأسفار ص٩٠.

كلمــا رقعتــه مـن جـــانب حركتـه الـريح وهنـــًا فـانخرق
أو كصدع في زجاج فاحش هل ترى صدع زجاج يلتصق
كحمـار السـوء إن أقضـمته رمـــح الناس وإن جاع نهـق
وإذا جالسـته فـي مجلـــس أفسد المجلس منـه بالخـــرق
وإذا نهنهتـه[١] كـي يرعـــوي زاد شـــرا وتمادى في الحمق
عجبـــا للناس في أرزاقهـم ذاك عطشـان وهذا قد غـــرق

نسأل الله عز وجل حسن الصحبة له، ودوام الخدمة في عزه وكرمه، والأنس به سبحانه وتعالى.

## ١٣٦- لَوْ أَشْرَقَ لَكَ نُورُ اليَقِينِ لَرَأَيْتَ الآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهَا وَلَرَأَيْتَ مَحَاسِنَ الدُّنْيَا وَقَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ الفَنَاءِ عَلَيْهَا

لولا عمى القلوب ما حَلَت الدنيا لأحد، لأنها في حقيقتها جيفة، ولا تساوي جناح بعوضة، فلو أشرق لك أيها المغرور بها نور اليقين في قلبك الذي به تحق الحق وتبطل الباطل، ويرى الأمور على حقيقتها لرأيت الآخرة حاضرة لديك، لأنها حق، فتكون أقرب إليك من شراك نعلك، فلا تحتاج الرحيل إليها، ولرأيت وأبصرت محاسن الدنيا الحاضرة لديك أنها فانية، وقد ظهرت كسفة الفناء عليها، لأنها باطلة وغرور، فهذه الحقيقة تجعلك تزهد في الدنيا، وتقبل على الآخرة الباقية.

وقد أحسن العارفون بالحديث عنها حين قالوا: فالسَّارُّ فيها غار، والنافع فيها غدا ضار، وصل الرخاء فيها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، سرورها مشوب بالحزن، وآخر الحياة فيها الضعف والوهن، فانظر إليها نظر الزاهد المفارق، ولا تنظر نظر العاشق الوامق، واعلم أنها تزيل الثاوي الساكن، وتفجع المغرور الآمن، لا يرجع ما تولى منها فأدبر، ولا ما هو آت فيها فينتظر، فاحذرها، فإن أمانيها كاذبة، وإن آمالها

---

(١) نهنهته: أي كفكفته وزجرته.

باطلة، عيشها نكد، وصفوها كدر، وأنت منها على خطر، إما نعمة زائلة، وإما بلية نازلة، وإما مصيبة موجعة، وإما منية قاضية، فلقد كدرت عليه المعيشة إن عقل، وهو من النعماء على خطر، ومن البلوى على حذر، ومن المنايا على يقين، فلو كان الخالق تعالى لم يخبر عنها بخبر، ولم يضرب لها مثلا، ولم يأمر فيها بزهد، لكانت الدار قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله تعالى عنها زاجر وفيها واعظ؟ فما لها عند الله عز وجل قدر، ولا لها عند الله تعالى وزن من الصغر، ولا تزن عند الله تعالى مقدار حصاة من الحصى، ولا مقدار ثراة في جميع الثرى، ولا خلق خلقا فيما بلغت أبغض إليه من الدنيا، ولا نظر إليها منذ خلقها مقتا لها، ولقد عرضت على نبينا ﷺ بمفاتيحها وخزائنها ولم ينقصه ذلك عنده جناح بعوضة فأبى أن يقبلها، وما منعه من القبول لها، ولا ينقصه عند الله تعالى شيء، إلا أنه علم أن الله تعالى أبغض شيئا فأبغضه، وصغّر شيئا فصغّره، ووضع شيئا فوضعه، ولو قبلها كان الدليل على حبه إياها قبولها، ولكنه كره أن يحب ما أبغض خالقه، وأن يرفع ما وضع مليكه، ولو لم يدله على صغر هذه الدار إلا أن الله تعالى حقرها أن يجعل خيرها ثوابا للمطيعين، وأن يجعل عقوبتها عذابا للعاصين، فأخرج ثواب الطاعة منها، وأخرج عقوبة المعصية عنها، وقد يدلك على شر هذه الدار أن الله تعالى زواها عن أنبيائه وأحبائه اختبارا، وبسطها لغيرهم اعتبارا واغترارا، ويظن المغرور بها والمفتون عليها أنه إنما أكرمه بها، ونسي ما صنعه بمحمد المصطفى ﷺ وموسى المختار عليه السلام بالكلام له وبمناجاته، فأما محمد ﷺ فشد الحجر على بطنه من الجوع، وأما موسى عليه السلام فرئي خضرة البقل من صفاق بطنه من هزاله(١)، ما سأل الله تعالى يوم أوى إلى الظل إلا طعاما يأكله من جوعه.

وما أروع قول أبي حامد الغزالي رحمه الله، ووصفه للدنيا وتحذيره منها، حيث

---

(١) كناية عن شدة جوعه حتى صار كالنبات الهزيل، حيث رئي في أطراف وجهه الشحوب والاصفار والاخضرار.

يقول: فكل مغرور بها إلى الذل مصيره، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره، شأنها الهرب من طالبها، والطلب لهاربها، ومن خدمها فاتته، ومن أعرض عنها واتته، لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات، ولا ينفك سرورها عن المنغصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها يسوق إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم، فهي خداعة مكارة، طيارة فرارة، لا تزال تتزين لطلابها، حتى إذا صاروا من أحبابها، كشرت لهم عن أنيابها، وشوشت عليهم مناظم أسبابها، وكشفت لهم عن مكنون عجائبها، فأذاقتهم قواتل سمامها، ورشقتهم بصوائب سهامها، بينما أصحابها منها في سرور وإنعام، إذ ولت عنها كأنها أضغاث أحلام، ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد، ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد، إن ملكت واحدا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس، جعلته حصيدا كأن لم يغن بالأمس، تمنى أصحابها سرورا، وتعدهم غرورا، حتى يأملون كثيرا، ويبنون قصورا، فتصبح قصورهم قبورا، وجمعهم بورا، وسعيهم هباء منثورا، ودعاؤهم ثبورا، هذه صفتها، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

فالله الله في الدنيا والغرور بباطلها، ولا يعني ذلك ترك العمل والتكسب، أو السعي في طلب الرزق، وإنما المراد أن يجعلها المرء في يده لا في قلبه، وألا تغره عن آخرته، أو تلهيه عن عمله الصالح، اللهم اجعلها في أيدينا، ولا تجعلها في قلوبنا، واجعلها سببا لطاعتك، لا سببا لمعصيتك، واكرمنا بفضلك يا عفو يا كريم.

## ١٣٧- مَا حَجَبَكَ عَنِ اللّهِ وُجُودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ، وَلَكِنْ حَجَبَكَ عَنْهُ تَوَهُّمُ مَوْجُودٍ مَعَهُ

إن وجود الله عز وجل ذاتي، وما عداه من الأكوان الدنيوية والأخروية وجوده وهمي، فهي عدم، ولولا أمداده لها ما ظهرت في الوجود، فيا أيها الإنسان ما حجبك عن الله عز وجل وجود موجود معه، إذ لا وجود في الحقيقة لما سواه من الأكوان، ولكن الذي حجبك عنه أوهامك الباطلة التي لا حقيقة لها أنه معه موجود، هذا الوهم هو الذي حجبك عن الله، وإلا فالله معكم أينما كنتم، وهو أقرب إليك من حبل الوريد،

أما توهمك أن ما سواه له وجود هو الذي حجبك عنه، ومن شهد ظلية الآثار لم يحصل له عائق عن الله، فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا تعوق السفن عن السير، والحجاب أمر توهمي لا حقيقي، فهو أقرب إليك من كل شيء، لأنه ليس معه شيء حتى يحجبه، سبحان الله عما يصفون.

من هنا ترقي العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة، واستكملوا معراجهم، فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله تعالى، وأن ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ لا أنه يصير هالكا في وقت من الأوقات، بل كل شيء سواه هالك أزلا وأبدا، لا يتصور إلا كذلك، فإن كل شيء سواه إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، وإذا اعتبر من الوجه الذى يسرى إليه الوجود من الأول الحق رؤى موجودا لا في ذاته لكن من الوجه الذى يلى موجده، فيكون الموجود وجه الله تعالى فقط. فلكل شيء وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه، فهو باعتبار وجه نفسه عدم، وباعتبار وجه الله تعالى موجود. فإذن لا موجود إلا الله تعالى ووجهه، فإذن كل شيء هالك إلا وجهه أزلا وأبدا.

وما أبدع قولي أبي الحارث المكي في حديثه عن الله عز وجل، حيث يقول: إن الله تعالى لا يحجبه شيء عن شيء، ولا يبعد عليه شيء، قريب من كل شيء بوصفه، وهو القدرة والدرك، والأشياء مبعدة بأوصافها، وهو البعد والحجب، فالبعد والأبعاد حكم مشيئته، والحدود والأقطار حجب بريته، والمسافة والتلقاء مكانة لسواه، والنواحي والجهات موضع للمحدثات، والنهار والليل مسكن للمصرفات، والبعد والفضاء مكان للمخلوقين، والتوسعة والهواء محل للعالمين، والأحكام والأقدار واقعة على خلقه، وهو سبحانه وتعالى قد جاوز المقدار والأحكام، وفات العقول والأوهام، وسبق الأقدار، واحتجب بعزه عن الأفكار، لا يصوره الفكر، ولا يملكه الوهم، حجب عن العقول تشج ذاته، ولم تحكم العقول بدرك صفاته، إذ ليس كمثله شيء فيعرف بالتمثيل، ولا له جنس فيقاس على التجنيس، وهو الله في السموات وفي الأرض، ثم استوى على العرش، وهو معكم أينما كنتم، غير متصل بالخلق ولا مفارق، وغير مماس لكون ولا متباعد، بل

متفرد بنفسه متحد بوصفه، لا يزدوج إلى شيء، ولا يقترن به شيء، هو أقرب من كل شيء بقرب هو وصفه، هو محيط بكل شيء بحيطة هي نعته، وهو مع كل شيء وفوق كل شيء، وهو أمام كل شيء، ووراء كل شيء، بعلو ودنو هو قربه، فهو وراء الحول الذي هو وراء حملة العرش، وهو أقرب من حبل الوريد الذي هو الروح، وهو مع ذلك فوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، وليس يحيط به شيء، وليس هو تعالى في كل هذا مكانا لشيء، ولا مكانا له شيء، وليس كمثله في كل هذا شيء، لا شريك له في ملكه، ولا معين له في خلقه، ولا نظير له من عباده، ولا شبيه له في اتحاده، وهو أول في آخريته بأولية هي صفته، وآخر في أوليته بآخرية هي نعته، وباطن في ظهوره بباطنية هي قربه، وظاهر في باطنيته بظهور هو علوه، لم يزل كذلك أزلا، ولا يزال كذلك أبدا، لا يتوجه عليه التضاد، ولا تجري عليه الحوادث والآباد، ولا ينتقص ولا يزاد، هو على عرشه باختياره لنفسه، فالعرش حد خلقه الأعلى، وهو غير محدود بعرشه تعالى، والعرش محتاج إلى مكان، والرب غير محتاج إليه، كما كان الرحمن على العرش استوى، الرحمن اسمه، والاستواء نعته، متصل بذاته، والعرش خلقه منفصل عن صفاته، ليس بمضطر إلى مكان يسعه، ولا حامل يحمله، ولا حيطة تجمعه، ولا خلق يوجده، هو حامل للعرش وللحملة بخفي لطفه، وجامع للعرش وللحفظة بلطيف صنعه، وموجد ما أحب لمن يحب من التجلي بمعالي أسمائه وصفاته بخفي لطفه ولطيف قربه، لاختصاص رحمته، وهو أظهر الكون من وراء الحول، هو ممكن للعرش ببسطه في توسعة الحول، وهو محيط بالعرش والحول بالقدرة والطول، لا يسعه غير مشيئته ولا يظهر إلا في أنوار صفته، ولا يوجد إلا في سعة البسطة، فإذا قبض أخفى ما أبدى، وإذا بسط أعاد ما أخفى، وكذلك جعله في كل رسم كون، وفعله بكل اسم مكان، مما جل فظهر، ومما دق فاستتر، لا يسعه غير مشيئته بقربه، ولا يعرف إلا بشهوده، ولا يرى إلا بنوره، هذا لأوليائه اليوم بالغيب في القلوب، ولهم ذلك غدا في المشاهدة بالأبصار، ولا يعرف إلا بمشيئته، إن شاء وسعه أدنى شيء، وإن شاء لم يسعه كل شيء، إن أراد عرفه كل شيء وإن لم يرد لم يعرفه كل شيء، إن أحب وجد عند أي

شيء، وإن لم يحب لم يوجد بشيء، وقد جاوز الحدود والمعيار، وسبق القبل والأقدار، ذو صفات لا تحصى ولا تتناهى، ليس محبوسا في صورة، ولا موقوفا بصفة، ولا محكوما عليه بحكم، ولا موجودا بلمم، لا يتجلى بوصف مرتين، ولا يظهر في صورة لاثنين، ولا يرد منه بمعنى واحد كلمتان، بل لكل تجل منه صورة، ولكل عبد عند ظهوره له صفة، وعن كل نظرة كلام، وبكل كلمة إفهام، ولا نهاية لتجليه، ولا غاية لأوصافه، ولا نفاد لكلماته، ولا انقطاع لأفهامه، ولا تكييف لمعانيه، إذ ليس في التوحيد كيف، ولا للقدرة ماهية، ولا يشبهه بهذه الأوصاف خلق، إذ ليس للذات كفؤ، إذا احتجب عن العيان والأبصار رفع ذاته عن القلوب والأفكار، فلم يخيله عقل، ولم يصوره فكر، لئلا يملكه الوهم، فيكون مربوبا وهو رب، ولا ينظر إليه بفكر فيكون مقهورا وهو قاهر، لا يعقل بعقل، لأنه عاقل العقل، ولا يدرك بحيطة، وهو محيط بكل حيطة، حتى يتجلى آخرا بإحسانه، كما تجلى أولا بحنانه، فيشهد بحضوره، وينظر بنوره، وليس هذا لسواه، ولا يعرف بهذا إلا إياه.

تعالى الله في علاه، إنها كلمات خرجت من جوف عالم عابد متبتل تكاد تقطر عبودية وخشية وخوفا ومراقبة ووصفا بلغ من الدقة ما تتناهى معه الكلمات، فجل الواحد الأحد الكبير الأكبر، العظيم الأعظم، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

## ١٣٨- لَوْلا ظُهورُهُ في المُكَوَّناتِ ما وَقَعَ عَلَيْها وُجودُ إبصارٍ. وَلَوْ ظَهَرَتْ صِفاتُهُ اضْمَحَلَّتْ مُكَوَّناتُهُ

إن جميع المكونات لا تراها العيون إلا إذا كان فيها نور يقع على العينين فترى، فلولا إمداد الله عز وجل لهذه المكونات بالأنوار من وراء حجاب عن طريق الروحانية المحمدية التي أرسلها رحمة للعالمين لما ظهر شيء منها للعيان، أما إذا تجلى التجلي الحقيقي، وظهرت صفاته، اضمحلت مكوناته، أي زالت وتلاشت، وأصبح لا وجود لها، وذلك لقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾[١].

---

(١) سورة الأعراف من الآية ١٤٣.

فمن رحمة الله تعالى بجميع المكونات أن خلق الروحانية المحمدية التي هي البرزخ بين الأحدية والواحدية، وبين البطون والظهور، فبها أي بهذه الروحانية ظهرت المكونات، وبها هديت، وبها رزقت، ولذلك أشار بقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾(١)، وقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٢).

ولو ظهرت الأسرار لرجع الكون لطيفا، ومثال ذلك قطعة الثلج فظاهرها جامد وباطنها مائع، فإذا ذابت رجعت إلى أصلها ماء، ولم يبق للثلج أثر، فمن وقف مع ظاهر الثلج أنكر الماء الذي في باطنها وكان جاهلا بحقيقتها، ومن نفذ إلى باطنها عرف أصلها وفرعها، وكذلك الأكوان ظاهرها غرة لمن وقف مع كثافتها، وباطنها عبرة لمن نفذ إلى أصلها، وكذلك جبريل عليه السلام إذا دخل في الكثيف أصبح دحية الكلبي، وإذا دخل في اللطيف أصبح ملكا، فمن رآه كثيفا قال دحية الكلبي وأنكر أن يكون ملكا، ومن عرف أصله لم ينكر ولم يقف مع ظاهره، ويسمون هذه الأسرار التي قامت بها الأكوان معاني، ويسمون الأكوان أواني حاملة للمعاني، فلو ظهرت المعاني لاضمحلت الأواني، ومن وقف مع حسن الأواني حجب عن أسرار المعاني.

يقول أحد العارفين: لا تنظر إلى الأواني، وخض بحر المعاني، علك تراني.

ويقول ابن الفارض:

ولطف الأواني في الحقيقة تابع     للطف المعاني والمعاني بها تسمو

فالأواني كلها لطيفة في الحقيقة، تابعة للطف المعاني، لأنها منها، وإنما تكثفت في حق أهل الحجاب الذين وقفوا مع ظواهر الأشياء، واشتغلوا بخدمة الحس قلبا وقالبا، فعظم عليهم الحس، وقويت دائرة حسهم، وغلظ الحجاب في حقهم، فعبادتهم حسية، وفكرتهم حسية، وذلك بصحبتهم لأهل الحس، ولو أصبحوا أهل المعاني لاشتغلوا بخدمة المعاني حتى تتلطف لهم الأواني.

---

(١) سورة المائدة من الآية ١٥.

(٢) سورة النور من الآية ٣٥.

فكل من صحب أهل المعاني تلطفت في حقه الأواني، ولم ير إلا المعاني.

قال أحد العارفين: ومما منّ الله علي بصحبة أهل المعاني أني إذا نظرت إلى الكون بعين بصيرتي من عرشه إلى فرشه ذاب التلاشي، ولم يبق له أثر والله ذو الفضل العظيم.

وسئل سيدي أحمد بن يوسف عن ذات الله تعالى هل هي من معنوية أم حسية، فقال: هي حسية لا تدرك.

وهذا يدل على تحقيق المعرفة، لأن ذات الله تعالى موجودة لطيفة لا تدركها الأبصار، ولا تكيفها العقول، فتصفه بصفات المعاني والمعنوية، ولو كان صفة أو معنى كما يزعمه النصارى لم تتصف بصفات المعاني ولا المعنوية، لأن الصفة والمعنى لا يقوم بنفسه، ولابد أن يقوم بغيره، والصفة لا تتصف بصفة أخرى.

يقول العارفون: لا تنظر إلى الأواني، وخض بحر المعاني، فالأكوان أواني حاملة للمعاني، فتحصل أن الحس لا قيام له إلا بالمعنى، وهي معاني أسرار الذات، وهي الخمرة الأزلية معاني لخفائها ولطافتها.

فتحصل من ذلك أن الحس لا قيام له إلا بالمعنى، وهي معاني أسرار الذات، فصار قيام الأشياء كلها بالله، ولا وجود لها معه، أي قامت الأشياء كلها بالذات العلية.

**١٣٩- أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الباطِنُ، وَطوى وُجودَ كُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الظّاهِرُ**

إن الله عز وجل هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.

فالله هو الباطن الذي لا يشاركه في البطون شيء، فلذا أظهر كل شيء، أي جعل المكونات كلها ظاهرة ولا باطن فيها غيره، وبمقتضى اسمه الظاهر أن لا يشاركه في الظهور شيء، ولذلك طوى وجود كل شيء في ذاته، فلا ظهور لغيره معه، لأن المكونات جميعها عدم محض، فلا وجود لها إلا مع وجوده، فهو الظاهر الذي اختفى في ظهوره كل شيء، وهو الظاهر من جهة التعريف، والباطن من جهة التكييف، سبحانه وتعالى.

يقول بعض العارفين: إن الذات هي عين الصفات، والصفات هي عين الذات.

وأنه لما كان لا ظهور للذات إلا من أنوار الصفات، ولا قيام للصفات إلا بالذات، والصفات لا تفارق الموصوف صار كأن هذا عين هذا، فنطقوا بتلك العبارة تحاشيا للجمع وفرارا من الفرق، فقد سموا ما تكثف وظهر للحس صفاتا، وما بطن من سر الربوبية ذاتا.

ففي كل شيء اسم من أسمائه، واسم كل شيء من اسمه، فإنما أنت بين أسمائه وصفاته وأفعاله باطنا بقدرته، وظاهرا بحكمته، ظهر بصفاته وبطن بذاته، حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، وكشف العلم بالإرادة، وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع في الصنعة، وأظهر الصفة بالذوات، فهو باطن في غيبه، وظاهر بحكمته وقدرته، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١).

وقد كان نبي الرحمة ورسول الهداية وأعظم عابد محمد ﷺ خير متبتل لربه عارف بجلاله وجماله، فكانت عبادته ومناجاته عبرا وآية لعابد يجل الله تعالى بصفاته العلا ويحمل من الخشو والخضوع له ما لم تعرفه ولن تعرفه البشرية في كل مراحل حياتها، فعن عبد الله بن عباس قال: (كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال: اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيام السماوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت)(٢).

وعن علي بن أبي طالب ﷺ عن رسول الله ﷺ (أنه كان إذا قام إلى الصلاة

---

(١) سورة الشورى الآية ١١.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث رقم٧٣٨٥، الصحيح ١١٧/٩، وأخرجه مسلم في الحديث رقم٧٦٩، الصحيح ٥٣٢/١.

المكتوبة رفع يديه حذو منكبيه، ويصنع ذلك إذا قضى قراءته وأراد أن يركع، ويصنعه إذا رفع رأسه من الركوع، ولا يرفع يديه في شيء من صلاته وهو قاعد، فإذا قام من سجدتين رفع يديه كذلك فكبر، ويقول حين يفتتح الصلاة بعد التكبير: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، سبحانك أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنبي جميعا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، أنا بك وإليك، ولا منجا، ولا ملجأ إلا إليك، أستغفرك وأتوب إليك، ثم يقرأ، فإذا ركع كان كلامه في ركوعه أن يقول: اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، وأنت ربي، خشع سمعي وبصري ومخي وعظمي لله رب العالمين، فإذا رفع رأسه من الركوع قال: سمع الله لمن حمده، ثم يتبعها: اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، فإذا سجد قال في سجوده: اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، وأنت ربي، سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين، ويقول عند انصرافه من الصلاة: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وأنت إلهي لا إله إلا أنت)(١).

انظر إلى هذه الدعوات الخالصة والمناجاة المبدعة هل عرفت البشرية عابدا كمحمد ﷺ، وهل سمعت مثل هذا الخشوع والتوقير لله رب العالمين؟، إنها أدعية لا تخرج إلا من قلب امتلأ حبا بالله، وفني في الله، حتى كانت العبارات غير كافية للتعبير عما في هذا القلب العظيم للرب الجليل.

وانظر إلى مناجاة هذا العارف العابد وهو يقول: إلهي! أنا عبدك وابن عبديك، ها أنا قائم بين يديك، متوسل بكرمك إليك، لا تزلني عن مقام أقمتني فيه، ولا تنقلني

---

(١) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٣٤٢٣، سنن الترمذي ٥/٤٨٧.

إلـى موقـف سـلامة مـن نعمـك إلا أنـت، أتتصـل إليـك ممـا كنـت أواجهـك بـه مـن قلـة استحيائي من نظرك، وأستغفرك من ذنوبي التي ابتزت قلبي حلاوة ذكرك، وأطلب العفو منك؛ إذ العفو نعت لكرمك، يا من يعصى ويرضى كأنه لم يعص، يا حنانا لشفقته على عباده، ومنانا بلطفه، ومتجاوزا بعطفه عن خلقه، طهر قلبي من أوساخ الغفلة، وانظر إلي نظرك إلى من ناديته فأجابك، واستعملته بمعونتك فأعطاك وصلّ اللهم وسلم على محمد عبدك ورسولك، وهب لي صبرا ويقينا، واغفر ذنبي العظيم، وتجاوز لي عن سيئاتي يا أرحم الراحمين.

هذه قلوب امتلأت حبا بالله، وامتلأت نورا من نور الله، فانطلق اللسان على ما ملك من مباني ليعبر عما جال في قلبه من معاني، وأنى للألفاظ المحدودة أن تحيط بهذا النور الساري في الأجساد، هذا النور الذي غمر النفس فاطمأنت، واستولى على القلوب فاستقرت، وملك الأرواح فهدأت، وخضعت له النفوس وخشعت، اللهم اقبلنا واجعلنا لديك من المقبولين يا رب العالمين.

**١٤٠- أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا في الْمُكَوَّنَاتِ، وَمَا أَذِنَ لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَوَاتِ الْمُكَوَّنَاتِ: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ فَتَحَ لَكَ بَابَ الإِفْهَامِ، وَلَمْ يَقُلْ: انْظُرُوا السَّمَوَاتِ؛ لِئَلاَّ يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ الأَجْرَامِ**

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١)، ففي هذه الآية أمرك الله عز وجل أن تنظر ما في المكونات من آثار قدرته، وبدائع صنعته، لتستدل بذلك على آثار الأسماء والصفات، ولم يأذن لك أن تقف مع ذوات هذه المكونات، فإنه سبحانه وتعالى ما نصب تلك المكونات لتراها، بل لترى فيها مولاها، لذلك فتح لك باب الأفهام، ولم يقل انظروا السماوات، لئلا يدلك على وجود الأجرام.

وفي هذه الحكمة يرشد ابن عطاء رحمه الله المريدين إلى التفهم والنظر

---

(١) سورة يونس الآية ١٠١.

والاعتبار، فيقول لك أي افهم أن هذه المكونات موجودة لغيرها لا لذاتها، فتنظر في الأكوان لترى فيها آثار الرحمن، فتدلك على وجود قيوم السماوات والأرض، وما سواه عدم محض.

فما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى، وكمال حكمته، ومنتهى جلاله وعظمته.

فسبحان من أظهر العجائب في مصنوعاته، ودل على عظمته بمبتدعاته، وحث على تصفح عبره وآياته، وأظهر قدرته في البناء والنقض، والهشيم والغض، فسعد من تدبر، وسلم من تفكر، وفاز من نظر واستعبر، ونجا من بحر الهوى من تصبر، وهلك كل الهلاك وأدبر، من نسي الموت مع الشعر المبيض، وضعف القوة، وحضور المرض، وخوار العزيمة، وانهيار الصحة.

وقد كان العارفون والعباد يحثون الناس على التفكر والاعتبار في خلق الله تعالى لا في ذات الله جل جلاله، وكانوا يقولون: على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب.

وقال الحكيم بن عمير صاحب رسول الله ﷺ: كونوا في الدنيا أضيافا، واتخذوا المساجد بيوتا، وعلموا قلوبكم الرقة، وأكثروا التفكر والبكاء، لا تختلفن بكم الأهواء.

وعن الحسن قال: تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله.

وروي عن عامر بن قيس أنه قال: أكثر الناس فرحا في الآخرة أطولهم حزنا في الدنيا، وأكثر الناس ضحكا في الآخرة، أكثرهم بكاء في الدنيا، وأخلص الناس إيمانا يوم القيامة، أكثرهم تفكرا في الدنيا.

وقال الفقيه رضي الله عنه: إذا أراد الإنسان أن ينال فضل التفكر، فليتفكر في خمسة أشياء: أولها: في الآيات والعلامات، والثاني: في الآلاء والنعماء، والثالث: في ثوابه، والرابع: في عقله، والخامس: في إحسانه إليه وجفائه له.

وإن أردت معرفة ما تتفكر فيه فانظر إلى ما قاله بعض الحكماء: لا تتفكر في

ثلاثة أشياء: لا تتفكر في الفقر، فيكثر همك وغمك، ويزيد في حرصك، ولا تتفكر في ظلم من ظلمك فيغلظ قلبك، ويكثر حقدك، ويدوم غيظك، ولا تتفكر في طول البقاء في الدنيا، فتحب الجمع، وتضيع العمر، وتسوف في العمل.

وقال آخرون: تمام العبادة في صدق النية، وتمام صلاة العمل في التواضع، وتمام هذين بالزهد في الدنيا، وتمام هذه كلها بالهم والحزن في أمر الآخرة، وتمام الهم والحزن ملازمة ذكر الموت بقلبك، وكثرة التفكر في ذنوبك.

وقال رجل لسعيد بن المسيب: يا أبا محمد لا نقوى على ما يقوى عليه هؤلاء قال: وما يقوى عليه هؤلاء؟ قال: يواظبون على الصلاة ما بين الظهر إلى العصر، فقال: إنما العبادة التفكر في أمر الله والورع في دينه.

فيا أرباب الغفلة اذكروا، ويا أهل الإعراض احضروا، ويا غافلين عن المنعم اشكروا، ويا أهل الهوى خلوا الهوى واصبروا، فالدنيا قنطرة فجوزوا واعبروا، وتأملوا هلال الهدى فإن غم عليكم فاقدروا، فقد نادى منادي الصلاح حي على الفلاح، فأسمع أهل الطول والعرض، فإن لم تسمعوا، أو سمعتم وأعرضتم فأنتم المشؤومون، وقد فاز من لبى نداء الخالق جل وعلا.

اللهم اجعلنا ممن لبي، وذكر، وشكر، وحمد، وهلل، وكبر.

## ١٤١- الأَكْوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِهِ، وَمَمْحُوَّةٌ بِأَحَدِيَةِ ذَاتِهِ

إن الأكوان كما قلنا سابقا من حيث ذاتها عدم محض، ولم تثبت إلا بإثباته تعالى، وإيجاده لها، وظهوره فيها، فالثبوت لها أمر عارض، وإلا فهي في الحقيقة ممحوة بأحدية ذاته، فمن نظر إلى أحدية ذاته لم يجد للأكوان ثبوتا، بل يرى الله فقط في الأكوان جميعها، ومن نظر إلى الواحدية قال بثبوت الأكوان، لأن الواحدية هي صفة للذات الظاهرة في الأكوان، والأحدية هي الذات البحت التي لا تقبل معها أحدا، فهي لا تنقسم ولا تتعدد، وهي قاهرة لا تقبل أحدا معها.

فالأحدية بحر بلا أمواج، والواحدية بحر مع موج، فالحق سبحانه وتعالى عند

العارفين كالبحر، ولله المثل الأعلى، والأكوان كالأمواج التي يحركها ذلك البحر، فهي ليست عينه ولا غيره، ولابد للصوفي من أن يعلم وحدة الوجود، بأنه لا يوجد في الأكوان إلا الله، فالفعل فعله، والأمر أمره، والقيومية قيوميته، فهو قيوم السماوات والأرض، ووحدة الشهود أينما تولوا فثم وجه الله، فهو أظهر من الظهور، وهو معكم أينما كنتم.

فالله تعالى عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر في جو الهواء، ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وحركات الخواطر، وخفيات السرائر بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفا به في أزل الآزال، لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال.

وهو سبحانه وتعالى مريد للكائنات، مدبر للحادثات، فلا يجري في الملك والملكوت قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أو ضر، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر، فوز أو خسران، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره، وحكمته ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر، ولا فلتة خاطر، بل هو المبدىء المعيد، الفعال لما يريد، لا راد لأمره، ولا معقب لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته، فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة، أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك.

## ١٤٢- النّاسُ يَمْدَحونَكَ لِما يَظُنُّونَهُ فيكَ، فَكُنْ أَنْتَ ذاماً لِنَفسِكَ لِما تَعْلَمُهُ مِنها

إن الإنسان العاقل هو الذي يعرف حقيقة نفسه، ولا يفرح بمدح المادحين وثناء الناس عليه، فالناس يمدحون صفاتك الظاهرة لهم، ويظنون أن أوصافك حميدة، فلا تغتر بمدح هؤلاء، وكن أنت ذاما لنفسك، لما تعلمه منها من العيوب والقبائح التي لا

تعد ولا تحصى، ولا يعلمها أحد غيرك إلا الله، فمن فرح بمدح المادحين فقط أوقع نفسه في الغرور، وساق إليها أنواع الشرور.

ولذا جعل العارفون العقل الميزة الكبرى التي تميز المريد، وجعلوا لذلك دلائل فقالوا: إن محبة المرء المكارم من الأخلاق وكراهته سفسافها هو نفس العقل، فالعقل به يكون الحظ، ويؤنس الغربة، وينفي الفاقة، ولا مال أفضل منه، ولا يتمُّ دين أحد حتى يتم عقله.

ويقول الشاعر:

وأفضل قسم الله للمرء عقله　　فليس من الخيرات شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله　　فقد كملـت أخلاقه ومآربـــه
يعيش الفتى في الناس بالعقل إنه　　على العقل يجري علمه وتجاربه
يزيد الفتى في الناس جودة عقله　　وإن كان محظورا عليه مكاسبه

ولكي يكون المرء ذا عقل لابد أن يلتقط أطايب الحكم، وأن يجالس العقلاء، فلا يدع عقله يموت وقلبه يموت معه، فالواجب على العاقل أن يكون بما أحيا عقله من الحكمة أكثر شغفا منه بما أحيا جسده من القوت، لأن قوت الأجساد المطاعم، وقوت العقل الحكم، فكما أن الأجساد تموت عند فقد الطعام والشراب، كذلك العقول إذا فقدت قوتها من الحكمة ماتت.

قال أبو حاتم: كفى بالعاقل فضلا وإن عدم المال، بأن تصرف مساوى أعماله إلى المحاسن، فتجعل البلادة منه حلما، والمكر عقلا، والهذر بلاغة، والحدة ذكاء، والعي صمتا، والعقوبة تأديبا، والجرأة عزما، والجبن تأنيا، والإسراف جودا، والإمساك تقديرا، فلا تكاد ترى عاقلا إلا موقرا للرؤساء، ناصحا للأقران، مواتيا للإخوان، متحرزا من الأعداء، غير حاسد للأصحاب، ولا مخادع للأحباب، ولا يتحرش بالأشرار، ولا يبخل في الغنى، ولا يشره في الفاقة، ولا ينقاد للهوى، ولا يجمح في الغضب، ولا يمرح في الولاية، ولا يتمنى ما لا يجد، ولا يكتنز إذا وجد، ولا يدخل في دعوى، ولا يشارك

في مراء، ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضيا، ولا يشكو الوجع إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يمدح أحدا إلا بما فيه، لأن من مدح رجلا بما ليس فيه فقد بالغ في هجائه، ومن قبل المدح بما لم يفعله فقد استهدف للسخرية.

فمن عيوب النفس الاغترار بالمدائح الباطلة، ومداواتها أن لا يغره كلام الناس مع ما يعرفه بنفسه، فإن حقيقة الأمر يخلص إليه دونهم، وإن ثناءهم عليه دون ما يعرفه الله منه ويعرفه هو من نفسه لا ينجيه، فلم يخبره به.

والعاقل من يبتعد عن المدح، ولا يغتر به، وإذا مدح بشيء التزم بقول بعض السلف ﷺ: فقد روي أن أبا بكر كان يقول في الرجل يمدح في وجهه: التوبة منه أن يقول: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، واجعلني خيرا مما يظنون.

فاللهم يا من أظهر الجميل، وستر على القبيح، ولم يؤاخذ بالجريرة، ولم يهتك الستر، اجعلنا كما يظن الناس فينا من خير، وتب علينا، واغفر لنا ما لا يعلمون وتعلم، إنك أنت الأعز الأكرم.

## ١٤٣- المؤمِنِ إذا مُدِحَ اسْتَحَى مِنَ اللّهِ تَعالى أنْ يُثْنى عَلَيْهِ بِوَصْفٍ لا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ

إن العبد المؤمن المستيقظ الفطن إذا مدحه الناس بوصف ليس فيه فلا يفرح بذلك، ويعد ذلك من إحسان الله عليه، واستحيا من الله أن يثني الناس عليه بوصف محمود لا يشهده من نفسه، فيرجع إلى نفسه باللوم والاستحقار، ويكثر الشكر لربه الذي أظهر له هذه المحاسن، فيسلم بذلك من غوائل نفسه وشرورها، وينسب ذلك كله لله عز وجل.

يحكى أن أبا حنيفة النعمان ﷺ قال في حقه رجل وهو يسير في الطريق: إن هذا يصلي الفجر بوضوء العشاء، ولم يكن الإمام يفعل ذلك، فقال: سبحان الله، وشكر الله على حسن ظن الناس به، وألزم نفسه، فصلى بوضوء العشاء الفجر حتى قضى نحبه.

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب، وآفة الفتور، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه، ويتأمل ما في خطر الخاتمة، ودقائق الرياء، وآفات الأعمال، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح، ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه، وعليه أن يظهر كراهة المدح للمادح، فمن أشد الجهل اغترار الإنسان بما يقوله الناس بالظن الكاذب، وترك الوجل مما يتحققه من ذنوبه وعيوبه.

قيل للإمام أحمد: ما أكثر الداعين لك، فتغرغرت عينه، وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجا.

وقال سفيان بن عيينة: لا يضر المدح من عرف نفسه، وأُثني على رجل من الصالحين، فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني، وقال آخر لما أُثني عليه: اللهم إن عبدك هذا تقرب إلي بمقتك، وأنا أشهدك على مقته.

وعن طاهر بن الفضل بن سعيد الحلبي قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: لما بلغت خمس عشرة سنة قال لي أبي: يا بني قد انقطعت عنك شرائع الصبي، فاختلط بالخير تكن من أهله، ولا تزايله فتبين منه، ولا يغرنك من مدحك بما تعلم أنت خلافه منك؛ فإنه ما من أحد يقول في أحد من الخير ما لم يعلم منه إلا قال فيه عند سخطه عليه من الشر على قدر ما مدحه، واستأنس بالوحدة من جلساء السوء، ولا تنقل أحسن ظني بك إلى أسوأ ظني بمن هو دونك، فاعلم أنه لن يسعد بالعلماء إلا من أطاعهم؛ فأطعهم تسعد، واخدمهم تقتبس من علمهم. قال سفيان: فجعلت وصية أبي قبلة أميل إليها، ولا أميل معها، ولا أعدل عنها.

وقال حكيم: إذا افترى عليك أحد بما أنت بريء منه عند الله تعالى فينبغي أن لا تكره ذلك، ولا تشتغل بذمه، بل تتفكر في ثلاثة أمور:

أحدها: إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، وما ستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك، ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه.

والثاني: أن ذلك كفارة لبقية مساوئك وذنوبك، وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك، فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقربك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله.

وأما الثالث: فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله، وأهلك نفسه بافترائه، وتعرض لعقابه الأليم، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله فتشمت به الشيطان وتقول: اللهم أهلكه، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه، اللهم تب عليه، اللهم ارحمه.

هكذا الأتقياء لا يحبون المدح، ولا يحزنون من الذم، ويدعون لمن يفترون عليهم، ولو مدحوا ما اغتروا، بل إن كان المادح صالحا اعتبروا مدحه شهادة أمام الله، وإن كان غير ذلك ما اغتروا بمدحه، ولا زادهم ذلك إلا تواضعا لله وخشية منه.

## ١٤٤- أَجْهَلُ النّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقينَ ما عِنْدَهُ لِظَنِّ ما عِنْدَ النّاسِ

لا زال ابن عطاء رحمه الله يوجه مريده إلى تعامله مع الناس، وضبطه لنفسه، فيذكره بعدم الغرور بالمدح الزائف، وألا يلفته ذلك عن حقيقة ما فيه، فيكون مدخلا للشيطان إلى قلبه، وقد يكون استدراجا من الله له، فليحذر، فإن من أجهل الناس من يقدم الظن على اليقين، وأجهل الناس من ترك يقين ما عنده من عيوب نفسه لظن ما عند الناس من صلاح حاله، فهم يحكمون عليه بالظاهر، والله هو الذي يعلم السرائر، فيقدم ما عند غيره على ما يعلمه من نفسه، وهذا من الجهل العظيم والضلال المبين.

وإنما حذر ابن عطاء من المدح، لما يعلمه من حب الإنسان للمدح وكراهيته للذم، وصدق الشاعر إذ يقولك

يهوى الثناء مبرزٌ ومقصرٌ     حب الثناء طبيعة الإنسان

وقد كان العلماء والعارفون على حذر من المدح وأهله اتباعا لهدي النبي ﷺ في ذلك، فقد روى همام بن الحارث (أن رجلا جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد، فجثا على ركبتيه، وكان رجلا ضخما، فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما

شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: إذا رأيتم المداحين، فاحثوا في وجوههم التراب)[١].

والمراد بالداحين هنا هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة وجعلوه بضاعة يستأكلون به الممدوح ويفتتونه، فأما من مدح الرجل على الفعل الحسن والأمر المحمود يكون منه ترغيباً له في أمثاله، وتحريضاً للناس على الاقتداء به في اشباهه فليس بمداح، وإن كان قد صار مادحاً بما تكلم به من جميل القول فيه، وقد استعمل المقداد الحديث على ظاهره، وحمله على وجهه في تناول عين التراب بيده وحثيه في وجه المادح.

ولم يرد بذلك ﷺ من مدح رجلا بما فيه، فقد مدح رسول الله ﷺ في الشعر والخطب والمخاطبة، ولم يحث في وجه المادحين، ولا أمر بذلك.

وقد فهم العلماء والعارفون من صالحي هذه الأمة هذا الفرق الدقيق، فكانوا يَمدحون ويُمدحون من غير فخر ولا عجب، ولا تزلف ولا رياء ولا مداهنة ولا نفاق، بل كان الواحد منهم يستخفي بعمله ولا يغره مدح الناس له، فقد كان سفيان الثوري عالما في الحديث، ويعلمه لثلاثمائة محبرة أي عالم، وحين يرى الأنظار قد شدت إليه، وسكت الناس، وأخذوا ينظرون إليه، طوى صحيفته، وخرج من المجلس، وقال: أُخذنا ولم ندر.

ودخل شيخ من أهل خراسان على الإمام أحمد فقال له: يا أبا عبد الله، الله الله، فإن الناس يحتاجون إليك، وقد ذهب الناس، فإن كان الحديث لا يمكن فمسائل[٢]، فإن الناس مضطرون إليك. فقال أبو عبد الله: إليّ أنا؟ واغتم من قوله، وتنفس الصعداء، ورأيت في وجهه أثر الغم. وقيل له: جزاك الله عن الإسلام خيرا. فقال: قيل لعمر بن عبد العزيز: جزاك الله عن الإسلام خيرا، فقال: لا، بل جزى الله الإسلام عني خيرا. ثم قال أبو عبدالله للرجل: أنا؟ ومن أنا؟ وما أنا؟.

ولذا كان من آفات المدح للممدوح أنه إذا أثنى عليه فرح، وفتر، ورضي عن

---

(١) أخرجه مسلم في الحديث رقم٣٠٠٢، الصحيح ٢٢٩٧/٤.

(٢) أي إن لم يمكنك الحديث فعلمنا مسائل من الفقه والعلم.

نفسه، وقل تشميره للعمل، فإن سلم المدح من هذه الآفات، لم يكن به بأس.

ومن هنا قال العلماء: لا يجب على الناس أن يكرهوا الثناء الحسن والمحمدة، ولا يجب عليهم أن يحبوا المذمة عملوا الحسنات أو لم يعملوا إذا لم يكن ذلك منهم من معنى فاسد، لأن المرائي وإن كان يريد العمل على أن يحب المحمدة ويكره المذمة فإن الصادق لا يجب عليه أن يكره الثناء ويحب المذمة، وإن أكثر الصادقين قد مُدحوا وأُثني عليهم ولم يضرهم ذلك شيئا، وإنما الفرق بينهما أن المرائي إرادته وأمله في عمله جاه الدنيا والمنزلة عند أهلها، فأفسد عمله بنيته وإرادته، نال الذي أراد من ذلك أو لم ينله، حمدوه على عمله أو لم يحمدوه، ذموه أو لم يذموه، وغير المرائي إنما كره المذمة لحال ما فيها من الكراهية، مثل السقوط من أعين الناس، والبغضة والمقت من المؤمنين، وأشباه ذلك، والثناء الحسن والقول الجميل أحبه لموضع ستر الله، ولما جاء من الرجاء في الثناء الحسن والقول الجميل، والمحبة من الناس ومودتهم له، وكان اعتقاد نيته وعزمه في أول أمره وآخره ألا يريد بذلك إلا وجه الله وحده والدار الآخرة، حمدوه أو ذموه، أحبوه أو أبغضوه.

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب، وآفة الفتور، ويتذكر أنه يعلم من نفسه ما لا يعلمه المادح، وأنه لو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه.

فكيف إذاً يترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس؟

أليس هذا من العجب، ومما يدعو إلى العجب!!!

ولذا كان الصحابة والعارفون لا يغرهم مدح، ولا يطربهم ثناء، بل كانوا لله في خشية، ومن مدحهم لم يخرجهم ذلك عن طورهم بل دعوا الله أن يجعلهم كما ظن المادح فيهم، ويرجون من الله الإخلاص، فهذا عمر رضي الله عنه يقول: اللهم اجعل عملي صالحا، واجعله لك خالصا، ولا تجعل لأحد فيه شيئا.

وقيل: من أحب المدح وكره الذم فهو منافق.

وقال عمر رضي الله عنه لرجل: من سيد قومك؟ قال: أنا، قال: لو كنت كذلك لم تقل.

وقال آخر: لا يزال فيك خير ما لم تر أن فيك خيرا.

وسئل بعض العلماء: ما علامة النفاق؟ قال: الذي إذا مدح بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه.

وكان سفيان ﷺ يقول: إذا رأيت الرجل يحب أن يحبه الناس كلهم، ويكره أن يذكره أحد بسوء، فاعلم أنه منافق.

وقال بشر بن الحرث: سكون النفس إلى المدح أضر عليها من العاصي.

ورأى يوسف بن الحسين مخنثا، فأعرض عنه إزراءً عليه، فالتفت إليه المخنث وقال: وأنت أيضا يكفيك ما بك، ففزع من قوله، فقال: وأي شيء تعلم؟ قال: لأن عندك أنك خير مني، فاعترف يوسف بقوله، فتاب واستغفر.

وقال بعض العارفين: لا يثبت لأحد مقام في التوكل حتى يستوي عنده المدح والذم من الخلق فيسقطان، وحتى يؤذى فيصبر على الأذى.

وقال عمر مولى عفرة: أقرب الناس إلى النفاق الذي إذا زكي بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه، وأبعد الناس منه من يتخوف أنه لا ينجيه حقيقة ما هو فيه.

وقال ابن المقفع: قابل المدح كمادح نفسه.

وقال بعض الحكماء: من رضي أن يُمدح بما ليس فيه فقد أمكن الساخر منه.

وقيل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالفة: عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح؟!، وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب؟!.

وما أروع قول الشاعر:

| | |
|---|---|
| يا جــاهلا غره إفراط مادحــه | لا يغلبن جهل من أطراك علمك بك |
| أثنى وقال بلا علم أحــاط به | وأنت أعلــم بالمحصــــول من ريبك |

## ١٤٥- إِذَا أَطْلَقَ الثَّنَاءَ عَلَيكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ فَأَثْنِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ

إذا أطلق الله سبحانه وتعالى ألسنة الناس بالثناء عليك وأنت لست أهلا لهذا الثناء لما تعلمه من عيوب وتقصير، فأثن على الذي ستر عيوبك، وأظهر محاسنك بما

هو أهله، أي تكثر الثناء على الله تعالى، والشكر الدائم الذي لا ينقطع، لأنه ستر منك القبيح وأظهر المليح، ولا تغتر بمدح المادحين، فتهلك مع الهالكين، وتندم على ذلك يوم الدين.

وإنما نهي عن كثرة المدح، لأنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر، ورضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قل تشميره، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك.

ولذا كان العارفون بالله تعالى في كل عصر يضعون المدح موضعه، فلو مُدحوا من أحد شكروا الله تعالى على إحسانه بإظهارهم أحسن مما يظنون بأنفسهم، وتصاغرت قلوبهم ونفوسهم، ولذلك يقول بعضهم: ما سمعت ثناء أو مدحة إلا تصاغرت إليّ نفسي، وعلامة هؤلاء الصالحين أنهم إذا مدحوا ازدادوا تواضعا، وحدثوا خوفا من الاستدراج، وما يخفى من عملهم هو أحب مما يظهر.

وعلامة أصحاب الجاه في الدنيا، وأصحاب الرياء المحبين له أنهم إذا سمعوا الثناء والمحمدة أحبوا ذلك، وازدادوا عزة وإعجابا بأنفسهم، وغفلة عن الاستدراج، وتمادوا وتمنوا وطمعوا أن ما ظهر عليهم من أعمالهم كان أحب إليهم مما خفي، ولم يخافوا من فتنة ولا من آفة.

وعلى من يُمدح أن يتوجه بالشكر إلى الله عز وجل الذي يرفع الشدائد، ويحسن الذكر، ومنه يكون إطلاق الألسنة بالثناء، نعمة أو استدراجا، وما أروع قول الشاعر مخاطبا الله عز وجل:

إِلَيْك مددت الْكَفّ فِي كل شدَّة ... ومنك وجدت اللطف من كل جَانب
وَأَنت ملاذي والأنام بمعزل ... هل مُسْتَحِيل فِي الرَّجَاء كواجب
وَإِنِّي لأرجو مِنْك مَا أَنْت أَهله ... وَإِن كنت خطاءً كثير المعايب
رجاؤك رَأس المَال عِنْدِي وَربحه ... وزهدي فِي الْمَخْلُوق أَسْنَى مَنَاقِب
فحقق رجائي فِيك يَا رب واكفني ... شماتة أعدائي وأسوة صَاحب
وَمن أَيْن أَخْشَى عدوا وإساءة ... وسترك خَلْفي من جَمِيع الجوانب

فيا محسنا فِيمَا مضى أَنْت قَـــادر        على اللطف فِي حَالي فَحسّن عواقـب

فاللهم اجعلنا من الشاكرين لنعمك، الراضين بقضائك، واجعل باطننا خيرا من ظاهرنا، واجعلنا لديك من المقبولين.

## ١٤٦- الزُّهَّادُ إِذَا مُدِحُوا انْقَبَضُوا لِشُهُودِهِمُ الثنَاءَ مِنَ الخَلْقِ، وَالْعَارِفُونَ إِذَا مُدِحُوا انْبَسَطُوا لِشُهُودِهِمْ ذَلِكَ مِنَ المَلِكِ الحَق

يخلط كثير من الناس بين الزهاد والعارفين ويحسبهم جميعا مرتبة واحدة، أو صنفا متماثلا، فيقع في خلط وزيغ، فكان ابن عطاء الله رحمه الله دليلا هاديا يعرف الناس الاصطلاح وأهله، ويبين أن هناك فرقا كبيرا بين الزهاد والعارفين بالله، فالزهاد إذا مدحوا انقبضوا خوفا من الاغترار القاطع لهم عن الله تعالى، وذلك لشهودهم الثناء من الخلق، فهم في غيبة عنه سبحانه وتعالى.

وأما العارفون الحاضرون مع ربهم إذا مدحوا انبسطوا، لشهودهم ذلك من الملك الحق، لأنهم لا يشاهدون معه غيره، بل يقولون ألسنة الخلقة أقلام الحق.

وقد كان ابن عطاء الله يمدح شيخه أبا العباس المرسي في وجهه، فيقع عنده المدح موقعا عظيما، وصاحب هذا المقام إذا ذمه أحد لا يجد في نفسه عليه، ولا يؤذيه لعدم شهوده الذم منه، وهؤلاء يعلمون تماما أن الفاعلية لله عز وجل، فليس للإنسان من أمره شيء، فالأمر كله لله عز وجل، يفعل في ملكه ما يريد، ويجري على خلقه ما يشاء، فإنه فعال لما يريد، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

أما الزهاد والعباد فيعتمدون على أفعالهم الصالحة، وأقوالهم الطيبة، ويطلبون الأجر عليها، فشتان ما بين هؤلاء وهؤلاء.

ولما كان هناك فرق بين الزهاد والعارفين في المعنى كان هناك فرق بينهم في استقبال الثناء والمدح، فالزاهد إذا مدح انقبض خشية الفتنة والزيغ، أما العارف فإنه إذا مدح حدث له البسط لرؤيته لربه، ولنه يعلم أنه ما مدحه إلا لأن الله تعالى أجرى المدح على لسانه.

ومن هنا كانت نظرتهم للمدح والثناء أو الذم نظرة موضوع لا نظرة رياء وسمعة، ولذا ذُكر أن رجلا من التابعين مدحه رجل في وجهه فقال له: يا عبد الله لم تمدحني؟ أجربتني عند الغضب فوجدتني حليما؟ قال: لا. قال أجربتني في السفر فوجدتني حسن الخلق؟ قال: لا. قال: أجربتني عند الأمانة فوجدتني أمينا؟ قال: لا. فقال: ويحك ما لأحد أن يمدح أحدا ما لم يجربه في هذه الأشياء الثلاثة.

وروي أن أبا بكر الصديق ﷺ كان إذا مدح قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوئنا.

وقيل لبعض الحكماء: أتحب أن تهدى إليك عيوبك؟ قال: نعم، من ناصح.

وقد ذكر عن مطرف أنه قال: ما سمعت ثناء أو مدحة إلا تصاغرت إليّ نفسي.

وقال زياد بن أبي مسلم: ليس أحد مسمع ثناء أو مدحة إلا تراءى له شيطان، ولكن المؤمن يراجع.

فالعارفون ينبسطون بوقوع المدح، ولكنه لا يخرجهم عن معرفتهم بأنفسهم، وتواضعهم لله وخشيتهم منه، وذلهم إليه سبحانه وتعالى.

ولذا ينبغي للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب، ومرائي المحاسن والعيوب، على ما ينبهونه عليه من مساوئه التي صرفه حسن الظن عنها، فإنهم أمكن نظرا، وأسلم فكرا، ويجعلون ما ينبهونه عليه من مساوئه عوضا عن تصديق المدح فيه.

وقد قال بعض الحكماء: في تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال.

وقال الفضل بن سهل: من كانت ولايته فوق قدرة تكبر لها، ومن كانت ولايته دون قدرة تواضع لها.

ولما علم الشاعر الفصيح اغترار البعض بالمدح، وزيغ بعض النفوس تيها بالثناء نبه الناس قائلا:

وما شرفٌ أن يمدح المرء نفسه     ولكـــن أعمـــالا تذم وتمـــدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه     ولا كـــل أصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظا     ولا كل من ضم الوديعة يصلح

## ١٤٧- مَتَى كُنْتَ إِذَا أُعْطِيْتَ بَسَطَكَ الْعَطَاءُ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ الْمَنْعُ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى ثُبُوْتِ طُفُوْلِيَّتِكَ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُوْدِيَّتِكَ

إن الله عز وجل يحب الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، الرجال الثابتين الذين لا يبسطهم العطاء، ولا يقبضهم المنع، لأنهم يعلمون أن العطاء منه والمنع منه، فهم لا يفرحون بالمظاهر، وإنما يفرحون بالظاهر، لا تقربهم إلى مولاهم النعم، ولا تبعدهم عنه النقم.

لذا قال ابن عطاء الله رحمه الله: أيها المريد إذا وجدت من نفسك أنك إذا أعطيت شيئا مرادا لك بسطك هذا العطاء، وإذا منعت منه قبضك هذا المنع، فاستدل بذلك على تطفلك على أهل الله، وعدم صدقك في طريق الحق، بل أنت مدع كذاب، وأنت لست منهم، فتكون كالمتطفل الذي يدخل مع الأضياف في ضيافتهم، وهو لا يستحق الدخول معهم، واستدل بذلك أيضا على عدم صدقك في عبوديتك، فالمتحقق في العبودية ليس له حظ لنفسه فيفرح أو يحزن، فالبسط عند العطاء، والقبض عند المنع من علامات بقاء حظ النفس، والعمل على تحصيله، وذلك لقول الله عز وجل: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[١]، وصدق المثل: أوردها سعد وسعد مشتمل[٢]، ما هكذا يا سعد تورد الإبل.

ولذا كان العارفون بالله يدركون هذا جيدا، فهذا مطرف بن عبد الله بن الشخير يقول: إن أحب عباد الله إلى الله الشكور الصابر، الذي إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر.

---

(١) أي يرتدي شملته.

(٢) سورة الحديد من الآية ٢٣.

ويقول ابن عيينة: الزاهد من إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلي صبر.

وجعلوا علامة سعادة العبد أنه إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر.

فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قال: شكا نبي من الأنبياء إلى ربه، فقال: يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك، تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء، ويكون العبد الكافر، لا يطيعك، ويجترئ على معاصيك، تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا، فأوحى الله تعالى إليه: أن العباد لي، والبلاء لي، وكل يسبح بحمدي، فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فأزوي عنه الدنيا، وأعرض له البلاء، فيكون كفارة لذنوبه، حتى يلقاني فأجزيه بحسناته، ويكون الكافر له السيئات، فأبسط له في الرزق فأزوي عنه البلاء حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته.

وعن يزيد الرقاشي قال: إذا دخل الرجل القبر، قامت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن شماله، والبر يطل عليه، والصبر يحاج عنه يقول: دونكم صاحبكم، فإن حججتم وإلا فأنا من ورائه، يعني إن استطعتم أن تدفعوا عنه العذاب، وإلا أنا أكفيكم ذلك، وأدفع عنه العذاب.

فإن قلت كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار؟ فاعلم أن الكافر قد خبيء له ما هو أكثر، وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم، ويطول عليه العقاب.

وقد ذكر في الخبر أن مؤمنا وكافرا في الزمن الأول انطلقا يصيدان السمك، فأخذ الكافر يذكر آلهته، فما رفع شبكته حتى أخذ سمكا كبيرا، وجعل المؤمن يذكر الله فلا يجيء، ثم أصاب سمكة عند الغروب، واضطربت فوقعت في الماء، فرجع المؤمن وليس معه شيء، ورجع الكافر وقد امتلأت شبكته، فأسف ملك المؤمن الموكل به، فلما صعد إلى السماء أراه الله سكن المؤمن في الجنة، فقال: والله ما يضره ما أصابه بعد أن يصير إلى هذا، وأراه مسكن الكافر في النار، فقال: والله ما يغني عنه ما أصاب من الدنيا بعد أن يصير إلى هذا.

وقال رجل لسهل رضي الله عنه: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي. فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع؟.

فالمؤمن الكامل الإيمان يشكر الله تعالى في السراء، ويصبر في الضراء، فينال خير الدارين، أما ناقص الإيمان فإنه يتضجر ويتسخط من المصيبة، فيجمع الله عليه نصيبه منها ووزر سخطه، ولا يعرف للنعمة قدرها، فلا يقوم بحقها، ولا يشكر الله، فتنقلب النعمة في حقه نقمة، وأما العارفون بالله فلا يرون إلا الله فقط، يرونه في النعمة والنقمة معا، فهم دائمو الشكر لله في جميع أحوالهم.

ولذا قيل: الصبر عند الصدمة الأولى، وعند كل بلاء، وعند كل لقاء، من رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

ويقال: مروءة الصبر عند الحاجة والفاقة بالتعفف والغنى أكثر من مروءة الإعطاء.

وقال أبو الفرج بن الجوزي: الرجل كل الرجل من يصبر على العافية.

وهذا الصبر متصل بالشكر، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر، وإنما كان الصبر على السراء شديدا لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضور الطعام اللذيذ.

إن الطريق إلى الله تهذيب وتدريب، وفهم نزاهة، وعدم تعلق بغير الله عز وجل، فهلا فهمت ذلك وعملت به؟، نسأل الله السلامة.

## ١٤٨- إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلاَ يَكُنْ سَبَبًا لِيَأْسِكَ مِنْ حُصُولِ الاسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ

إن الاستقامة لا يناقضها فعل الذنب لأول مرة إذا جرى القدر بذلك، وإنما يناقضها الإصرار والعزم على فعله ثانيا.

لذلك قال ابن عطاء الله رحمه الله: أيها المريد إذا وقع منك ذنب على حسب مقامك فلا يكن سببا مقتضيا ليأسك من حصول الاستقامة، أي اعتدال الأحوال في

العبودية مع الله عز وجل، فإذا وقع منك الذنب فالواجب أن تبادر بالتوبة منه، وعدم الرجوع إليه، فإنه قد يكون آخر ذنب قدره الله عليك، فلا تيأس أبدا من الله عز وجل، ولا تقنط، فهذا شيمة الكافرين.

ولذلك كان العارفون بالله يقولون لمريديهم: النجاة في اثنتين، والهلكة في اثنتين: النجاة في النية، والتقوى، والهلكة في القنوط والإعجاب.

وكان عمر بن الخطاب ﵁ يقول: إن من صلاح توبتك أن تعرف ذنبك، وإن من صلاح عملك أن ترفض عجبك، وإن من صلاح شكرك أن تعرف تقصيرك.

وروي عن وهب بن منبه ﵁ أنه قال: كان فيمن كان قبلكم رجل عَبَدَ الله سبعين سنة، يفطر من سبت إلى سبت، فطلب إلى الله حاجة فلم يعطها، فأقبل على نفسه، وقال: لو كان عندك خير قُضيت حاجتك، وإنما أتيت من قبلك، فنزل عليه ملك من ساعته فقال: يا ابن آدم إن ساعتك التي ازدريت نفسك فيها خير من عبادتك التي قد مضت.

وقال علي كرّم اللهُ وجهه للرجل الذي أطار الخوف عقله حتى أخرجه إلى القنوط قال له: يا هذا، يأسك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنبك.

وذكر أن ابن مسعود مر برجل يذكر قوما فقال: يا مذكر لا تقنط الناس.

وحكي عن الحسن البصري رضي الله عنه: أنه تاب على يده شاب يقال له العباس، وكان كثير المعاصي، ثم تاب، ثم نكث، سبعين مرة يتوب وينكث حتى كان آخر عمره وقد حضرته الوفاة، قال لوالدته: أدركيني بالشيخ حتى أجدد التوبة على يديه، فلعل الله يقبلني، فأتت العجوز إلى الشيخ وسلمت عليه، وقالت له: أنا أم العباس، وقد حضرته الوفاة وهو يريد تجديد التوبة على يديك، فقال لها: اذهبي فلا حاجة لي فيمن يتوب وينكث، فرجعت باكية، وقالت: ويحك يا عباس إن الشيخ قد أبى أن يأتيك لقبح أفعالك، فقال: إلهي وسيدي ومولاي، إن الشيخ قطعني فلا تقطعني ولا تقطع رجائي منك. ثم قال لوالدته: إذا أنا متّ فضعي رجلك على وجهي، وضعي في رقبتي حبلاً، واسحبيني في الأسواق، وقولي هذا جزاء من عصى الله، فلعله يراني

فيرحمني بفضله وكرمه. فهمت أن تضع رجلها على وجهه، وإذا بهاتف يقول: لا تضعي قدمك موضع السجود، واعلمي أن الله سبحانه وتعالى قد غفر له وأعتقه من النار، فجهزته ووارته بالتراب وانصرفت، فرأى الحسن البصري رب العزة في المنام، وهو يقول: يا حسن، ما حملك على أن تقنط عبدي من رحمتي، أليس أنا الذي خلقته ورحمتي وسعت كل شيء، وعزتي وجلالي لئن عدت إلى مثلها لأمحونك من ديوان الصالحين.

فاليأس من روح الله تعالي الذي يستريح إليه المكروب من الذنوب، والقنوط من رحمة الله تعالى التي يرجوها المبتلى بالذنوب أعظم من ذنوبه، وهو أشد من جميع ذنوبه، لأنه قطع بهواه على صفات الله تعالى المرجوّة، وحكم على كرم وجهه بصفته المذمومة، فكان ذلك من أكبر الكبائر، وإن كانت ذنوبه كبائر.

إن الرجاء مقام جليل، وحال شريف نبيل، لا يصلح إلا للكرماء من أهل العلم والحياء، وهو حال يحول عليهم بعد مقام الخوف، يروحون به من الكرب، ويستريحون إليه من مقارفة الذنب، ومن لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء، ومن لم يقم في مقام الخوف لم يرفع إلى مقامات أهل الرجاء.

فاجعلنا اللهم لك من الطائعين وعند الذنب من الراجين لا اليائسين، ولا تجعلنا نيأس من كرمك وعفوك، يا عفو، يا غفور، يا رحيم.

## ١٤٩- إِذَا أَرَدْتَ أَن يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الرَّجَاءِ فَاشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الْخَوْفِ فَاشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ

يبين ابن عطاء الله رحمه الله تعالى للمريد أبواب الرجاء والخير، فيقول له إذا أردت أيها المريد أن يفتح الله لك باب الرجاء حتى ترجوه فاستحضر بقلبك ما هو واصل منه إليك من الأفضال والنعم التي لا تعد ولا تحصى مع عصيانك له، وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد أي استحضر ما هو واصل منك إليه من عظيم المخالفات، وارتكاب السيئات، فإذا غلب عليك هذا الحال اشتد بك الخوف، وعلمت

وتحققت من قول النبي ﷺ عن رب العزة: (وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة)[١].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (يا رسول الله في هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[٢] أنهم إلى ربهم راجعون يا رسول الله، هو الذي يسرق، ويزني، ويشرب الخمر، وهو يخاف الله؟ قال: لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل)[٣].

وقال ذو النون: ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء، فإذا غلب الرجاء تشوش القلب.

وكان أبو الحسين الضرير يقول: علامة السعادة خوف الشقاوة، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده، فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين.

وقيل للحسن: يا أبا سعيد كيف نصنع؟، نجالس أقواما يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمنٌ، خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف.

ولما سمع الحسن البصري هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[٤]، قال: المؤمنون قوم ذلل، ذلت والله الأسماع والأبصار والجوارح، حتى يحسبهم الجاهل مرضى، والله ما بالقوم من مرض، وإنهم لأصحاء القلوب، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، وقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن والله ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتعز بعزاء الله، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله عليه نعمة إلا في مطعم، أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه.

---

(١) أخرجه ابن حبان في الحديث رقم٦٤٠، صحيح ابن حبان ٤٠٦/٢.

(٢) سورة المؤمنون من الآية ٦٠.

(٣) أخرجه أحمد في الحديث رقم٢٥٢٦٣، المسند ١٥٦/٤٢.

(٤) سورة الفرقان من الآية ٦٣.

ولا يصل إلى هذا المقام إلا من أخلص قلبه لله، وظهر منه الصبر في البلاء والشكر في الرخاء، ودوام الحمد لله على كل حال، يقول أبو الفيض المصري: لا يسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه.

وقال: خوف النار عند خوف الفراق بمنزلة قطرة قطرت في بحر لجي، وكل مؤمن بالله تعالى خائف منه، ولكن خوفه على قدر قربه، فخوف الإسلام اعتقاد العزة والجبرية لله تعالى، وتسليم القدرة والسطوة له، والتصديق لما أخبر به من عذابه وما تهدد به من عقابه.

وقال الفضيل بن عياض: إذا قيل لك تخاف الله فاسكت، لأنك إن قلت لا كفرت، وإن قلت نعم فليس وصفك وصف من يخاف.

وشكا واعظ إلى بعض الحكماء فقال: ألا ترى إلى هؤلاء أعظهم وأذكرهم فلا يرقون؟ فقال: وكيف تنفع الموعظة من لم يكن في قلبه لله تعالى مخافة؟!.

ولسنا نعني بالخوف رقة كرقة النساء، تدمع عين الرجل، ويرق قلبه حال السماع، ثم ينساه على القرب، ويعود إلى لهوه ولعبه، فهذا ليس من الخوف في شيء، بل من خاف شيئا هرب منه، ومن رجا شيئا طلبه، فلا ينجيك أيها المريد إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى، ويحثك على طاعته، ويباعد بينك وبين خوف الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة، فيقول أحدهم استعنت بالله، نعوذ بالله، اللهم سلم، اللهم سلم، وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم، فالشيطان يضحك من استعاذتهم، لأنها لا تقيهم مع خوفهم المرضي هذا شيئا، ولا تجدي معهم نفعا، فأهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقا، بأن يدرك أنه لا مقصود سوى الله تعالى، ولا معبود غيره.

وأما ثمرة الخوف والرجاء فهي العلم بالله عز وجل، والحياء من الله عز وجل، وهو أعلى سريرات أهل المزيد، يستبين أحكام ذلك في معنيين؛ هما جملة العبد أن يحفظ رأسه وما حواه من السمع والبصر واللسان، وأن يحفظ بطنه وما وعاه وهو القلب والفرج واليد والرجل، وهذا خوف العموم، وهو أول الحياء.

فأما خوف الخصوص فهو أن لا يجمع ما لا يأكل، ولا يبني ما لا يسكن، ولا يكاثر فيما عنه ينتقل، ولا يغفل ولا يفرط عما إليه يرتحل، وهذا هو الزهد، وهو حياء مزيد أهل الحياء من تقوى أصحاب اليمين، وكل من لم يستعمل قلبه في بدايته، ويجعل الخوف حشو إرادته لم ينجب في خاتمته، ولم يكن إماما للمتقين عند علو معرفته.

وأعلى الخوف أن يكون قلبه معلقا بخوف الخاتمة، لا يسكن إلى علم ولا عمل، ولا يقطع على النجاة بشيء من العلوم وإن علت، ولا لسبب من أعماله وإن جلت، لعدم علمه تحقيق الخواتم، فقد قيل: إنما يوزن من الأعمال خواتمها.

وقد كان عبد الواحد بن زيد إمام الزاهدين قبلهما يقول: ما صدق خائف قط ظن أنه لا يدخل النار، وما ظن أن يدخل النار إلا خاف أن لا يخرج منها أبدا.

وقد قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: يخرج من النار رجل بعد ألف عام ويا ليتني ذلك الرجل، هذا لشدة خوفه من الخلود في الأبدية، قال: فبعد أن أخرج منها بوقت لا أبالي.

أرأيت أيها المريد كيف يكون الخوف والرجاء، إنه عمل بإخلاص وخوف من الله لا ينتهي إلى حد، وثقة في الله وحسن ظن، وعمل بما أمر مع توجس القبول، فلا يفاخر بعمل ولا يرجو مع سوء نية ورياء بعمل.

اللهم اجعلنا من الصالحين الخائفين الراجين المخلصين المقبولين، إنك سميع مجيب.

## ١٥٠- رُبَّما أفادَكَ في لَيْلِ القَبْضِ ما لَمْ تَسْتَفِدْهُ في إشْراقِ نَهارِ البَسْطِ ﴿لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾

إن العارف بالله عز وجل لا يدري أيهما أقرب إليه نفعا، هل ليل القبض أم إشراق نهار البسط، فهو لابد أن يفوض الأمر لله عز وجل، ويرضى بما يختاره الله له، لكن ابن عطاء الله رحمه الله قال ربما أفادك أيها العارف من المعارف والأسرار في

حال القبض الشبيه بالليل بجامع السكون والهدوء في كل ما لم تستفده في إشراق البسط الشبيه بالنهار بجامع الانتشار في كل، فإن صاحب البسط دائما يحب نشر ما عنده من الأسرار والمعارف، فيحصل له الحجب من الله للعارف، بخلاف صاحب القبض فإنه لا يحصل له الحجب، لعدم نشر أسراره ومعارفه.

ولذا كان النبي ﷺ يختبر إيمان الناس بالقبض والبسط، ويتعاهدهم بذلك ليعرف يقينهم، ففي الحديث الذي رواه ابن عباس، قال: دخل رسول الله ﷺ على عمر ومعه أناس من أصحابه، فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا -ثلاث مرات- فقال عمر في آخرهم: نعم، نؤمن على ما أتيتنا به، ونحمد الله في الرخاء، ونصبر على البلاء، ونؤمن بالقضاء، فقال رسول الله ﷺ: مؤمنون ورب الكعبة)[١].

وروي عن علي رضي الله عنه: أنه لما دخل البصرة واستقام له الأمر دخل جامعها فجعل يخرج القُصّاص، ويقول القصص بدعة، فانتهى إلى حلقة شاب يتكلم على جماعة فاستمع إليه، فأعجبه كلامه، فقال: يا فتى أسألك عن شيئين، فإن خرجت منهما تركتك تتكلم على الناس وإلا أخرجتك كما أخرجت أصحابك، فقال: سل يا أمير المؤمنين. فقال: أخبرني ما صلاح الدين، وما فساده؟ قال: صلاحه الورع، وفساده الطمع. قال: صدقت، تكلم، فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس.

فعلى الموقن أن يشكر في القبض والمنع، كما يشكر في العطاء والبسط، ثم يشهد الشاكر بقلبه شهادة يقين، ويعلم أن وصفه وصف العبودية، وحكمه أحكام العبيد، محكوم عليه بأحكام الربوبية، وأنه لا يستحق على الله شيئا، وأن الله عز وجل يستحق عليه كل شيء، فالعبد خلق الله وصنعته، والرب صانعه ومالكه، فإذا شهد العبد هذه الشهادة رأى أن لله عز وجل عليه كل شيء، فرضي منه بأدنى شيء، ولم ير له على الله تعالى شيئا، ولم يطالب مولاه بشيء.

---

(١) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٩٤٢٧، المعجم الأوسط ١٦٣/٩.

## ١٥١- مَطَالِعُ الأَنوَارِ - القُلُوبُ وَالأَسْرَارُ

لله ما أجمل هذا الاختصار، وما أحلى هذا التعبير، وما أروع هذا البيان، إن ابن عطاء الله رحمه الله يختصر في هذه الجملة أقوالا كثيرة وشروحا مطولة، فيذكر في كلمات قصار أن مواضع طلوع الأنوار، وهي المعارف الإلهية والأنوار الربانية إنما هي قلوب العارفين وأسرارهم، فهي كالسماء التي تشرق فيها الكواكب، وهذه هي أنوار معنوية، فهي في الحقيقة أشد إشراقا من النجوم والكواكب.

وإذا كان الله عز وجل قد حرس السماء بالكواكب والشهب كيلا يسترق السمع منها فقلب المؤمن أولى بذلك.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي: لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن المطيع؟.

ولكي تعمر هذه القلوب، وتكون مطلعا من هذه المطالع لابد أن يتعاهدها صاحبها بالأدب، وأن يلطفها بأطايب الحكم، لتنجلي صفحتها، وتخلص من شوائبها، فقد قال لقمان لابنه: يا بني، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله تبارك وتعالى ليحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

وكان عبدالله بن مسعود يقول: إن هذه القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره.

وقال الحسن البصري: إن القلوب تموت وتحيا، فإذا هي ماتت فاحملوها على الفرائض، فإذا هي أحييت فأدبوها بالتطوع.

وقال العارفون ينصحون مريديهم: إن إبليس إنما يسور عليك في الآثام من وسوسة نفسك، وخراب قلبك، وخرابه إنما يكون إذا كان فارغا من الخوف اللازم، والحزن الدائم، فحينئذ ينفث فيه بالوسوسة لآمال الدنيا والجمع لها مخافة فقرها مع لزوم طول الأمل لقلبك، وإعراضه عن الله تعالى، وانقطاع مواد عظمة الله منه، وفراغه من الهيبة والحياء منه، فإذا وجد القلب عامرا خنس ونفر منه، ولم يجد فيه مساغا، ولا من جوانبه مدخلا، لأن القلب عامر بالخوف والأحزان والفكر، فهو منير مضيء، يرى

العبد بنور قلبه مداخل إبليس فيرميه بالإنكار لما يدعو إليه، ويعتصم بما أيده الله به من نور قلبه، فيدحره عنه، فيولي الخبيث إلى قلب قد فقد الخوف، فخرب وأظلم، فلا نور فيه.

ولذا كان عبدالله بن مسعود يقول: إن لهذه القلوب شهوة وإقبالا، وإن لها فترة وإدبارا، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها.

وما أجمل قول الشاعر:

وإذا تشاجر في فؤادِك مرةً      أمران فاعمد للأعفِّ الأجملِ

وإذا هممت بأمرِ سوءٍ فاتئد      وإذا هممت بأمر خيرٍ فافعلِ

فهذه الطريقة من أنجع الطرق توصيلا للنور إلى القلب، وجعله عامرا بحب الله عز وجل، فيشرق نوره، ويكون مطلعا للأنوار والأسرار.

## ١٥٢- نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي القُلُوبِ مَدَدُهُ مِنَ النُّورِ الوَارِدِ مِنْ خَزَائِنِ الغُيُوبِ

تتعلق هذه الحكمة بما قبلها تعلق المفصل بالمجمل، فإذا كان ابن عطاء قد بين محل الأنوار ومطالعها فإنه هنا يفسر مدد النور النازل على القلب، فيذكر في هذه الحكمة أن أنوار اليقين التي أودعها الله عز وجل في قلوب العارفين به إنما تستمد من النور الوارد من خزائن الغيوب، وهو نور الأوصاف الأزلية، فهي لا تغيب أبدا.

ولذا من غمرته الأنوار الإلهية لطفت قلبه، وزكت نفسه، فيرى الخير في كل شيء، ويرى الشر كله في البعد عن الله، وانطفاء نور قلبه عنده أشد من انطفاء سراج حياته، وأن حياة القلب أولى عنده من حياة النفس، وطعام القلوب أنوارها كما طعام النفوس المأكولات والمشروبات.

ولذا قال لقمان لابنه: يا بني، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله تبارك وتعالى ليحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

وعن عبد الله قال: إن هذه القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره.

قال الأصمعي: سمعت أعرابيا، يقول: إذا ثبتت الأصول في القلوب، نطقت

الألسن بالفروع، والله يعلم أن قلبي لك شاكر، ولساني لك ذاكر، وهيهات أن يظهر الود المستقيم في القلب السقيم.

ولما نودي ابن مسعود بالصلاة، فأجاب إليها، فأتى أصحاب الأطمار، ولم ير من ذوي البزة أحدا، فقال: ما لي لا أرى من ذوي البزة أحدا، ثم قال: خلقان الثياب، جدد القلوب، ينابيع العلم، مصابيح الليل، خرس البيوت، مستخفون في الأرض، معروفون في أهل السماء.

وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن يزيد بن ميسرة وهو ابن حلبس قال: قال الحواريون: يا مسيح الله، انظر إلى بيت الله، ما أحسنه قال: آمين، آمين، بحق أقول لكم: لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله؛ إن الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الحجارة شيئا، إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة، بها يعمر الله الأرض، وبها يخرب الأرض إذا كانت على غير ذلك.

وعن علي بن أبي طالب ﵁ أنه كان يقول: إن لله في أرضه آنية، وإن من آنيته فيها القلوب، فلا يقبل منها إلا ما صفي وصلب ورق.

والقلب الخرب لا يعمر بالأنوار، ولا يكون مستودعا لها، ولذا يقول بعض العارفين: الحكمة تهوي من السماء إلى القلوب، فلا تسكن في قلب فيه أربع خصال: الركون إلى الدنيا، وهمّ غد، وحسد أخٍ، وحب شرف.

فإن أردت أن يكون قلبك مستودعا للأنوار فذكه بالأعمال الصالحة، والأوراد المتتالية، والإخلاص لله في السر والعلن، تصفو نفسك، ويخلص قلبك، وتكون مستحقا للأنوار والأسرار بفضل الله الخالق العظيم الغفار.

فقد قال الحسن: إن القلوب تموت وتحيا، فإذا هي ماتت فاحملوها على الفرائض، فإذا هي أحييت فأدبوها بالتطوع.

قال ابن المبارك رحمه الله: القلب مثل المرآة إذا طالت في اليد صدئت، وكالدابة إذا غفل عنها عدلت.

## ١٥٣- نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ، وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصَافِهِ

لا زال ابن عطاء الله يغرد لمريديه في الأنوار ومنبعها وكيفية استقبالها، وهنا يبين أنواع النور فيذكر أن النور على قسمين:

نور يدرك بالحواس، ونور مستودع في القلوب والأسرار.

أما النور الأول المدرك بالحواس، كنور الشمس والقمر يكشف لك به عن آثاره، وهي الأكوان، والأكوان كل شيء مخلوق حتى الجنة والنار من الأكوان، فيستدل بالأثر على المؤثر وهو الله عز وجل.

وقد استدل أهل الأغيار بالأثر على المؤثر، وهم عامة العلماء.

أما النور الثاني وهو النور المستودع في القلوب والأسرار، فهو نور اليقين المودع في قلوب العارفين أهل الاستبصار، فهو يكشف لك به عن أوصافه الأزلية الجمالية والجلالية والكمالية[١] حتى تراها بعين القلب أي البصيرة، فإنك تشهد بها المؤثر الذي خلق الأثر، فلا تحتاج إلى الاستدلال عليه بالآثار، وإنما تراه بنور القلوب والأسرار، وفرق شاسع بين الأعمى والبصير، فالأعمى يحتاج إلى العصا التي تدله على الطريق، والبصير لا يحتاج إليها.

فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى، وقد قيل لذي النون المصري بم عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي.

والكلام في هذه الأمور قد لا يفهمه كثير من الناس، ولذا يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه، ومهما أحبه حصلت اللذة، فاللذة تبع المحبة بالضرورة، والمحبة تبع المعرفة

---

(١) أسماء الله الجمالية مثل: السلام والمؤمن والوهاب والرافع والنافع والباسط، أما أسماء الله الجلالية مثل: الجليل والجبار والقادر والقابض والكبير، أما أسماء الله الكمالية فمثل: الرحمن الملك والخالق والسميع والبصير، وما إلى ذلك من الأسماء.

بالضرورة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي، والذكر الدائم، والجد البالغ في الطلب، والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته، وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته.

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى **الأقوياء**، ويكون أول معرفتهم بالله تعالى، ثم به يعرفون غيره.

وإلى **الضعفاء** ويكون أول معرفتهم بالأفعال، ثم يترقون منها إلى الفاعل، وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وبقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وإلى الثاني الاشارة بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الآية، وبقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وغير ذلك من الآيات، وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين، وهو الأوسع على السالكين، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر، والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر.

فإن قلت كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة، والتوصل به إلى المحبة، فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق، فهو غامض، والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق، فلا فائدة في إيراده في الكتب، وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام، وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر، واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس، والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته، وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية، إذ ما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى، وكمال حكمته، ومنتهى جلاله وعظمته، وذلك مما لا يتناهى.

### ١٥٤- رُبَّمَا وَقَفَتِ الْقُلُوبُ مَعَ الأَنْوَارِ كَمَا حُجِبَتِ النُّفُوسُ بِكَثَائِفِ الأَغْيَارِ

وهذه الحكمة تكملة لما قبلها من حكم وحلقة من سلسلة القلوب والأنوار التي

يبينها ابن عطاء الله، حيث يذكر هنا حكمة عظيمة ينبغي التنبه لها والتأمل فيهان فيبين أن الأغيار قد تكون أغيار أنوار، وقد تكون أغيار ظلام، كأغيار الأنوار التي كانت تأتي للنبي ﷺ.

فيقول ابن عطاء الله: ربما وقفت القلوب عن سيرها إلى الله عز وجل مع الأنوار التي هي لطائف الأغيار من العلوم والأسرار الربانية، فتحجب بها القلوب عن الذات العلية كما تُحجب النفوس الظلمانية بكثائف الأغيار، أي الأغيار الكثيفة، كالشهوات والعادات الإنسانية، فالأنوار حجاب نوراني، والشهوات والعادات حجاب ظلماني.

ولذا قيل لحكيم: ألا تعظ فلانا، فقال: ذلك على قلبه قفل ضاع مفتاحه، فلا سبيل إلى معالجة فتحه.

وهنا نعلم أن الإنسان قد يحجب بالأنوار كما أنه يحجب بالظلام، ولذا كان العلماء يقولون: التواضع لله جل وعز على ضربين. أحدهما: تواضع العبد لربه عندما يأتي من الطاعات غير معجب بفعله ولا راء له عنده حالة يوجب بها أسباب الولاية إلا أن يكون المولى جل وعز هو الذي يتفضل عليه بذلك، وهذا التواضع هو السبب الدافع لنفس العجب عن الطاعات، والتواضع الآخر: هو ازدراء المرء نفسه واستحقاره إياها عند ذكره ما قارف من المآثم حتى لا يرى أحدا من العالم إلا ويرى نفسه دونه في الطاعات وفوقه في الجنايات.

فمن اغتر بالأنوار وأعجب بما جاء إليه لم يكن له نور، بل كان حجابا يحجبه عن الحق، ولذا روى الحرث بن نبهان قال: سمعت محمد بن واسع، يقول: وا...أصحاباه، ذهب أصحابي قال: قلت: يرحمك الله أليس قد نشأ شباب يقرءون القرآن ويقومون الليل ويصومون النهار ويحجون ويقرؤون؟ قال: فبزق وقال: أفسدهم العجب.

وقال خالد بن برمك: من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليق أن لا ينزل به كبير مكروه، العجلة، واللجاجة، والعجب، والتواني، فثمرة العجلة الندامة، وثمرة اللجاجة الحيرة، وثمرة العجب البغضة، وثمرة التواني الذل.

وروي عن شقيق بن إبراهيم الزاهد أنه قال: حسن العمل ثلاثة أشياء: أولها أن

يرى أن العمل من الله تعالى ليكسر به العجب، والثاني أن يريد به رضا الله ليكسر به الهوى، والثالث أن يبتغي ثواب العمل من الله تعالى ليكسر به الطمع والرياء، وبهذه الأشياء تخلص الأعمال.

وقال أبو بكر الواسطي: حفظ الطاعة أشد من فعلها؛ لأن مثلها كمثل الزجاج سريع الكسر، ولا يقبل الجبر، كذلك العمل إن مسه الرياء كسره، وإذا مسه العجب كسره، وإذا أراد الرجل أن يعمل عملا وخاف الرياء من نفسه فإن أمكنه أن يخرج الرياء من قلبه فينبغي له أن يجتهد في ذلك، وإن لم يمكنه فينبغي أن يعمل ولا يترك العمل لأجل الرياء، ثم يستغفر الله تعالى مما فعل فيه من الرياء فلعل الله تعالى أن يوفقه للإخلاص في عمل آخر.

## ١٥٥- سَتَرَ أَنْوَارَ السَّرَائِرِ بِكَثَائِفِ الظَّوَاهِرِ؛ إِجْلَالاً لَهَا أَنْ تُبْتَذَلَ بِوُجُودِ الإِظْهَارِ وَأَنْ يُنَادَى عَلَيْهَا بِلِسَانِ الاشْتِهَارِ

بعد أن بين ابن عطاء الله رحمه الله الأنوار ووصولها إلى القلوب، وكيفية الحجب بها، بين هنا مدى حب الله عز وجل لأوليائه، ودفاعه الدائم عنهم حتى فيما يرد عليهم من أنور، فقال: لقد ستر الله عز وجل أنوار قلوب أوليائه، وهي ما حل بقلوبهم من العلوم والمعارف بالظواهر الكثيفة، أي الأحوال التي يتعاطونها، كالصنائع والحرف الظاهرة، وإنما ستر هذه الأنوار من عدم الظهور صونا لها من أن تبتذل بهذا الظهور، أو ينادى عليها بلسان الاشتهار، فإن في ذلك نوعا من الاستخفاف بها.

ولذلك تجد الأولياء والعارفين بالله يبخلون بها إلا بالرمز والإشارة دون العبارة، أدبا مع مولاهم، وصونا لما وهبه واختصهم به من الأسرار والمعارف والأنوار.

وتجدهم في كراماتهم لا يتباهون، بل يقومون بما يصون سرهم إلا ما أظهره الله تعالى، فقد روى عبد الله بن عبد الرحمن قال: حج سفيان الثوري مع شيبان الراعي، فعرض لهم أسد في بعض الطرق، فقال له سفيان: أم ترى كيف قطع علينا الطريق، وأخاف الناس. قال شيبان: لا تخف، فلما سمع الأسد كلام شيبان، بصبص إليه، وأخذ

شيبان بأذنه وفركها، فبصبص وحرك ذنبه وولى هاربا، فقال سفيان: ما هذه الشهرة يا شيبان؟ قال: أو هذه شهرة يا سفيان؟ لولا مكان الشهرة لوضعت زادي على ظهره حتى أتيت مكة.

وقال بعض العارفين: إن لله عبادا أحبوه واطمأنوا إليه، فذهب عنهم التأسف على الفائت، فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاما وما شاء كان، فما كان لهم فهو واصل إليهم، وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم، وحق المحب إذا رجع من غفلته في لحظته أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب ويسأله ويقول: رب بأي ذنب قطعت برك عني وأبعدتني عن حضرتك، وشغلتني بنفسي وبمتابعة الشيطان، فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ما سبق من الغفلة، وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه، ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئا إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا، وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته.

وكان الفضيل بن عياض يقول: إن الله عز وجل يحب العالم المتواضع، ويبغض الجبار، ومن تواضع لله ورثه الله الحكمة.

ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه، فقالوا: لو سألت الله تعالى دفعهم، فسكت، ثم قال: إن لله عبادا في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون، قيل: لم؟ قال: لأنهم لا يحبون ما لا يحب.

وكان الحسن يقول: إن لله عبادا كمن رأى أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى.

وكان سميط يقول: أتاهم من الله وعيد وقذهم، فناموا على خوف، وأكلوا على تنغيص.

هؤلاء هم الأسياد الذين تاقوا إلى الله تعالى، ورقوا في المدارج، وساروا في المنازل حتى بلغوا أقصاها، بهم تعمر الدنيا، وبهم تحلو الحياة، ويحلو الموت معهم وفي جانبهم.

فاللهم بلغنا القرب منك، وأذقنا لذة الفناء فيك، ومتعنا بالنظر إلى وجهك الكريم، ولا تحرمنا فضلك ونعمك.

## ١٥٦- سُبْحانَ مَنْ لَمْ يَجْعلِ الدَّليلَ على أوليائِه إلا مِنْ حَيثُ الدَّليلِ علَيه، وَلَمْ يوصِلْ إليهمْ إلا مَنْ أرادَ أنْ يوصِلَهُ إليهِ

يبين ابن عطاء الله رحمه الله أنه لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه هو جل جلاله وتعالى في أسمائه وصفاته.

فهو سبحانه وتعالى احتجب واستتر في سرادقات العزة والكبرياء عن إدراك الأبصار، كذلك ستر أولياءه بكثائف الظواهر من الصنائع الخسيسة، صيانة لهم عن الأغيار، والأغيار ما سوى الله عز وجل.

فكما ستر ذاته ستر أولياءه عن الأغيار، وقوله: ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه، أي لا دليل على معرفتهم إلا بالعناية الإلهية التي بها عرفت الربوبية، كما قال أبو بكر الصديق ﷺ حينما سئل: بم عرفت ربك؟، قال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي، فقيل له: يتأتى لبشر أن يدركه؟، فقال: العجز عن الإدراك إدراك، والبحث عن سر ذات الله إشراك.

وقال أبو الحسن يحيى بن الحسين القاهري: قدمت مصر، فجئت إلى حلقة ذي النون، فرآني وفي استظهار على الحاضرين، فقال لي: لا تفعل، فإن الله تعالى أخفى ثلاثا في ثلاث: أخفى غضبه في معصيته، وأخفى رضاءه في طاعته، وأخفى ولايته في عباده، فلا تحقرن شيئا من معاصيه، فلعله أن يكون فيه غضبه، ولا تحقرن شيئا من طاعته، فلعله يكون فيه رضاؤه، ولا تحقرن أحدا من خلق الله، فلعله أن يكون وليا من أوليائه.

وعن سري السقطي قال: مكثت أربعين سنة أسأل الله عز وجل أن يريني ولياً من أوليائه، قال: فلم أر أحداً، فخرجت إلى الثغر وصعدت جبل اللكام، بينما أنا أمشي في المحجة إذ رأيت قوماً جلوساً نحو ثلاثين نفساً مرضى، عليهم ثياب خلقان، فسلمت

عليهم ووقفت، فقلت: لأي شيء أنتم جلوس في هذا القفر؟ قالوا: نحن من هذه المدينة التي في أسفل الجبل إذا كان رأس كل شهر في مثل هذا اليوم في مثل هذا الموضع نجلس، فإذا كان الظهر أقبل علينا رجل من هذا الموضع فنقوم إليه فيدعو الله لنا، فقعدت معهم، قال: فلما أن كان الظهر أقبل رجل أسمر شديد السمرة عليه مئزر صوف، فقرأ على كل واحد، قال: فلحقته قلت له: قف علي يرحمك الله أكلمك، فالتفت إلي وقال: يا سري، لا تعامل غيره فتسقط من عينه.

فإذا ما أحبك الله عز وجل، وأراد أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته، فإنه لم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه، فلا يجمع عليهم إلا من جمع قلبه عليه، ولا يحبهم إلا من أحبه الله، فهم القوم الذين لا يشقى جليسهم.

## ١٥٧- رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلَى غَيْبِ مَلَكُوتِهِ، وَحَجَبَ عَنْكَ الاسْتِشْرَافَ عَلَى أَسْرَارِ العِبَادِ

إن صون حرمات الله عز وجل وخصوصيات الخلائق عظيمة، فلا يطلع أحدا عليها حتى لا تلوكها الألسن، وتنتهك الأعراض، فيقول: ربما أيها المريد أطلعك مولاك على عالم الملكوت وما فيه من عرش وكرسي وجنة ونار وملائكة وغير ذلك، وحجب عنك الاستشراف أي الاطلاع على أسرار العباد، وما في قلوبهم من خير أو شر لطفا بك من أن تقع في الغيبة والعجب بأعمالك الصالحة، فتهلك والعياذ بالله.

وهذه الحكمة تحذر كل التحذير للمكاشفين من أن يتحدثوا في أعراض الخلائق وأحوالهم، فإن الله يسبغ ستره على عباده ويأمر الناس بالستر فمن كشف ستر غيره كشفه الله تعالى.

ومن هنا يقول ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم

القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة)(١).

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: (من ستر مؤمنا، كان كمن أحيا موءودة من قبرها)(٢).

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (من ستر عورة أخيه المسلم، ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم، كشف الله عورته، حتى يفضحه بها في بيته)(٣).

لقد حذر النبي ﷺ من أمر صعب وواقع خطير، فأشر الناس من يذيع سرا أنت قائله له، أو يتتبع عورتك ليفضحك عند خلقه، وأكثر الناس دناءة من يفشو ما عرف عن غيره ولم يحفظ سره أو يستر عورته.

روي عن بعض السلف أنه قال: أدركت قوما لم يكن لهم عيوب، فذكروا عيوب الناس، فذكر الناس لهم عيوبا، وأدركت أقواما كانت لهم عيوب، فكفوا عن عيوب الناس، فنسيت عيوبهم.

وقال جعفر بن محمد رحمه الله: إذا بلغك عن أخيك الشيء تنكره فالتمس له عذرا واحدا إلى سبعين عذرا، فإن أصبته، وإلا، قل لعل له عذرا لا أعرفه.

وقال ميمون بن مهران رحمه الله: ما بلغني عن أخٍ لي مكروهٌ قطٌّ إلا كان إسقاطُ المكروه عنه أحبَّ إلي من تحقيقه عليه، فإن قال: لم أقل؛ كان قوله: لم أقل أحبَّ إلي من ثمانية يشهدون عليه.

وقال عباد بن عباد الخواص الشامي رحمه الله: فليكن أمركم فيما تنكرون على إخوانكم نظرا منكم لأنفسكم، ونصيحة منكم لربكم، وشفقة منكم على إخوانكم، وأن تكونوا مع ذلك بعيوب أنفسكم أعنى منكم بعيوب غيركم، وأن يستطعم بعضكم بعضا

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٢٤٤٢، الصحيح ١٢٨/٣.

(٢) أخرجه أحمد في الحديث رقم١٧٣٣١، المسند ٥٦٦/٢٨.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم٢٥٤٦، سنن ابن ماجه ٨٥٠/٢.

النصيحة، وأن يحظى عندكم من بذلها لكم وقبلها منكم.

## ١٥٨- مَنِ اطَّلَعَ عَلَى أَسْرَارِ العِبَادِ، وَلَمْ يَتَخَلَّقْ بِالرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ كَانَ اطلاعه فتنة عليه، وسبباً لجَرِّ الوَبَالِ إليه

كثير من الناس يود لو عرف أسرار الناس فكشفهم، واطلع على عوراتهم ففضحهم، ولا يدري أن الاطلاع على الفتنة دون التخلق بالرحمة فتنة كبرى، ولذا يبين ابن عطاء الله رحمه الله أن الأسوأ من الناس ذاك الذي يمن عليه المولى عز وجل بالمكاشفة والاطلاع على أسرار العباد، ولم يتخلق بالرحمة الإلهية التي قال عنها النبي ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[١].

فمن تحلى بالمكاشفة ولم يتحل بالرحمة كان اطلاعه على أسرار الخلائق فتنة عليه، وسببا لجر الوبال إليه، من ادعاء المعرفة، والعجب بنفسه، وفضح ما عرفه عنهم، والعمل على هتك أستارهم، وما إلى ذلك من المهلكات، ولذلك قالوا: غير المكاشف خير من المكاشف، فالمكاشف مشغول بكشفه، وغير المكاشف مشغول بربه.

ومن اطلع على أسرار العباد فلم يصنها أو كشفها لغيره بغية إيذاء ولو كان السر حقا كانت من أشد الوبال والنكال عليه، فمن تتبع عورات الناس أو كشف أستارهم كشفه الله وتتبع عورته وفضحه في جوف بيته، ففي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع، فقال: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله)[٢].

ونهى الله تعالى عن التجسس وتتبع عورات الناس وفضحهم، وما أجمل قول بكر المزني: احملوا إخوانكم على ما كان فيهم، كما تحبوا أن يحملوكم على ما كان فيكم،

---

(١) أخرجه الترمذي في الحديث رقم١٩٢٤، سنن الترمذي ٣/٣٨٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٢٠٣٢، سنن الترمذي ٣/٤٤٦.

فليس كل من رأيت منه سقطة، أو زلة وقع من عينيك، فأنت أولى من يرى ذاك منه، فإن كان فيك صلاة فلا تعجبن بها فلعل صاحب المعصفر والشعر وينال من النبيذ أحيانا أوفى للعهد منك، وإن كان منك وفاء للعهد فلا تعجبن به، فلعل الذي تمقته في بعض صلاته أوصل للرحم منك، وإن كان منك صلة للرحم فلا تعجبن بها، فلعل الذي تمقته في بعض حالاته أكثر صوما منك، وإذا رأيت من هو أكبر سنا منك، فقل: هذا خير مني، صام وصلى وعَبَدَ الله قبلي، وإذا رأيت من هو أصغر منك، فقل: هو أحدث مني سنا، وأقل ذنوبا، وإذا رأيت من هو أقل منك مالا، فقل: هذا خير مني، زويت عنه الدنيا خيارا أو بطرا، وأعطيتها لشقائي إلا أن يرحمني ربي، وإذا رأيت الناس أكرموك ورأوا لك حقا، فقل: هذا الفضل منهم علي، وإذا رأيتهم استخفوا بك، فقل: هذا خطئي وذنبي، واتخذ أكبر المسلمين لك أبا، وأوسطهم لك أخا، وأصغرهم لك ابنا، أيسرك أن تعذب الطفل الصغير؟ أو تظلم الشيخ الكبير؟ ولتشغلك ذنوبك عن ذنوب العباد، وتذاب أيام الحياة الدنيا في التوبة والاستغفار، وليسعك ما أنعم الله به عليك، عما أنعم الله به على العباد، وتذاب أيام الحياة في الشكر، ولا تنظروا في ذنوب الناس كالأرباب، وانظروا في ذنوبكم كالعبيد، ولا تعاهد القذاة في عين أخيك، وتدع الجذع معترضا في عينك والله ما عدلت.

فكن أيها المريد رحيما لنفسك، ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك، والفقير بمالك، والصغير والكبير بشفقتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك ودفع غضبك، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقه، فكل ما تفعله من خير دق أو جل فصادر عن صفة الرحمة، وصدق الشاعر إذ يقول:

بادر إلى الخير يا ذا اللب مغتنما ... ولا تكن من قليل الخير محتشما

واشكر لمولاك ما أولاك من نعم ... فالشكر يستوجب الأفضال والكرما

وارحم بقلبك خلق الله وارعهموا ... فإنما يرحم الرحمن من رحما

اللهم وفقنا لسلوك سبيل أهل الطاعة، وارزقنا الثبات عليه، والاستقامة، وعافنا

من موجبات الحسرة والندامة، وأمنا من فزع يوم القيامة، اللهم آمين.

## ١٥٩- حَظُّ النَّفْسِ في الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، وَحَظُّهَا في الطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ، وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَى صَعْبٌ عِلاَجُهُ

إن النفس دائما وأبدا تطلب ما فيه حظ لها، وتبحث عما فيه ملذاتها وشهواتها، وتوسوس لصاحبها ليرضيها بكل سبيل، ويغنمها من كل لذة.

ولقد بين ابن عطاء الله رحمه الله أن حظها في المعصية كأكل الحرام والزنا والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك من المعاصي ظاهر جلي.

وحظها في الطاعة باطن خفي، لأن ظاهرها في الطاعة التقرب إلى الله عز وجل، والنفس حظها في الباطن مدح الناس، وذكرها بالصلاح والتقوى، فيتولد فيها العجب والكبر الخفي، وهذا هو الداء العضال الخفي، ومداواة ما يخفي صعب علاجه، لأنه يحتاج إلى بصيرة وإدانة دائمة للنفس، وعدم إسناد أي عمل خير إليها، لذا كان العارفون بالله عز وجل يتهمون أنفسهم إذا مالت إلى عبادة من العبادات، فإن رأوا فيها حظا لأنفسهم تركوها.

وخالف النفس والشيطان والهوى    وإن همو محضوك النهي فاتهم

كان أحد العارفين تحدثه نفسه بالخروج للجهاد في سبيل الله، فتثبت وقال: يا رب، نبهني لمقصدها فإني متهم لها، فألقى الله في روعه أنها تريد أن تستريح من تعب مجاهدتك لها، فإنك كل يوم تقتلها مرات عديدة، وتمنعها من شهواتها، فأرادت أن تقتل مرة واحدة فتستريح، فترك الخروج إلى الغزو، واشتغل بما هو فيه.

وكذلك قول سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

ولذا قالوا: قوت الزهد الذي لابد منه وبه تظهر صفة الزاهد، وينفصل به عن الراغب هو أن لا يفرح بعاجل موجود من حظ النفس، ولا يحزن على مفقود من ذلك،

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٣.

وأن يأخذ الحاجة من كل شيء عند الحاجة إلى الشيء، ولا يتناول عند الحاجة إلا سد الفاقة، ولا يطلب الشيء قبل الحاجة.

ومن محبة الهوى إيثار عاجل حظ النفس على آجل ما وعدت به، ويقدم محبتها على محبة الله عز وجل، وهي مطبوعة على محبة الهوى، وكراهة الحق، أمارة بالسوء فيما تسر، كذابة فيما تظهر من الخير.

نسأل الله أن يعيننا عليها، وأن يرزقنا جهادها، وكبح جماحها، وترويضها على الرضا بما قدر الله تعالى، والبعد عن الهوى والمعاصي، وأن تكون منقادة لنا، لا منقادين لها، اللهم آمين يا رب العالمين.

## ١٦٠- رُبَّما دَخَلَ الرِّياءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لا يَنْظُرُ الخَلْقُ إلَيْكَ

يبين ابن عطاء الله رحمه الله في هذه الحكمة أن الرياء نوعان، رياء جلي ظاهر، ورياء خفي باطن.

فالرياء الجلي الظاهر هو العمل الصالح الذي تعمله أمام الناس من أجل أن يذكروك بالصلاح، ويوقروك، فهو لم يكن خالصا لله عز وجل، وإنما كان من أجل الناس للسمعة والمدح.

ثم يقول: وربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك، وهذا هو الرياء الخفي الباطن الذي هو أخفى من دبيب النمل، وهو أن يعمل الرجل بالعمل الصالح الذي لا يراه فيه أحد، ولكن يقصد في قلبه توقير الناس له، والمسارعة في قضاء حوائجه، ويغضب على من قصر في حقه، ويتوعده بالعقوبة، وتستشرف نفسه وترتاح للطاعة والعبادة، فمن شاهد في نفسه شيئا من هذه العلامات فليعلم أنه مراء بعمله، وإن أخفاه عن سائر الخلائق، وهذا الرياء الخفي لا يسلم منه إلا العارفون بالله عز وجل، لأنهم لا يرون لأنفسهم عملا ولا فعلا، فقد غيب الله نظرهم عن رؤية الخلق بما أودعه في قلوبهم من نور اليقين، فلا يرون فاعلية إلا لله عز وجل.

وحتى تنجو من هذا الداء العضال لا تنسب لنفسك عملا حتى ترائي فيه،

فالفضل كله لمن أعان ووهب وستر وغفر.

ولذا سئل أحد العلماء كيف يهلك العبد بأعمال البر؟، فقال: إنها أعمال من البر كانوا يرون أنها منجيتهم فكانت هي مهلكتهم، لما مازجها من الرياء، وحب المحمدة من المخلوقين، واتخاذ المنازل بالطاعات، وإقامة الجاه، وحب القدر، والميل الى ثواب المخلوقين، فلما وردوا على الله عز وجل وجدوه قد أحبط أعمالهم وهم لا يشعرون، لأنهم كانوا قد تعجلوا ثواب أعمالهم من المخلوقين في الدنيا فافتضحوا، وفضيحة ما هناك باقية، ولم يجدوا من ثواب أعمالهم إلا كما وجد صاحب السراب وصاحب الرماد، فليس اسم الأعمال يراد، ولا تزيين ظاهرها، ولكن تقوى الله وما يقرب إليه زلفى.

فإن أردت معرفة المرائي من غيره فإن ذلك يسير، حيث إن المرائي هو الذي يكون مذهبه ونيته في أول عمله وآخره طلب الثناء والمحمدة، والرفعة والتكرمة عند الناس، وإحراز المنافع به، فذلك الذي جاءه الويل والثبور في الدنيا والآخرة، فإن كان يعرف معرفة حق أن ما أعجبه لهذا المعنى ولم يعجبه ذلك لما نال من الجاه عندهم فلا جناح عليه، وعلامته أن يزداد تواضعا، ويحدث خوفا من الاستدراج، وما يخفى من عمله فهو أحب مما يظهره، لأنه طمع في طريقة الصالحين.

## ١٦١- اسْتِشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ في عُبُودِيَّتِكَ

ينبه ابن عطاء الله رحمه الله المريدين إلى الفرار من الخلق إلى الخالق، وإخفاء الأعمال الصالحة، وكتمان الأحوال، تحقيقا لسلامة قلوبهم، وحبا في إخلاصهم لمعبودهم، خوفا من الوقوع في الرياء وحب الظهور، لذلك قال: تطلعك أيها المريد وميلك إلى أن يعلم الخلق بخصوصيتك التي خصك الله بها من الأعمال الصالحة والفعال الطيبة هذا دليل على عدم صدقك في عبوديتك، لأن صدق العبودية طرح الأغيار كلها، والنظر إلى الواحد القهار.

إن العبد يعلم أنه لا مال ولا عمل له حتى تستشرف نفسه بهما، فالفضل كله لله،

فهو صاحب النعم وصاحب المنن، لكن إذا تمكن العبد في اليقين، وأيد بالرسوخ والتمكين، وتحقق بحقيقة الفناء ورُدّ إلى وجود البقاء، فخرج بعد ذلك حرا من الشهوات والأوهام والنزوات، فله أن يحدث بنعمة الله عليه بإظهار الأعمال ومحاسن الأحوال، ليقتدي غيره به في الطريق.

وعلامة أصحاب الجاه في الدنيا وأصحاب الرياء المحبين لذلك أنهم إذا سمعوا الثناء والمحمدة أحبوا ذلك، وازدادوا عزة وإعجابا بأنفسهم، وغفلة عن الاستدراج، وتمادوا وتمنوا وطمعوا أن ما ظهر عليهم من أعمالهم كان أحب اليهم مما خفي، ولم يخافوا من فتنة ولا من آفة، وكذلك إذا كره المذمة إنما كرهها، لأنه أحب أن يكون مكانها مدحة وثناء، لينال بذلك الجاه والقدر والمنزلة والرفعة عند الناس، فهي كراهية سقيمة مذمومة، وصاحبها مغرور مخدوع.

والرياء على وجهين، رجل قد عمل أعمالا من البر، فنال بها ثناء وجاها وقدرا، وهو يريد فيما يستقبل من الأعمال الإخلاص، فمن لم يقدر على ترك الرياء فيما يستقبل كان فيما عمل ونال به الجاه والقدر والمحمدة من الناس من الإخلاص أبعد، ورجل عمل أعمالا ولم يقصد بها إلا حب الظهور والسمعة.

والرياء إنما هو أن تكون الارادة كلها للدنيا، فمنه ما يكون العبد يريد بعمله في أصل العمل المحمدة والثناء، ومنه ما يكون العبد يريد به في أصل عمله وجه الله والدار الاخرة، ويحب أن يحمد بعمله ويثنى عليه، ومنه ما يكون العبد يريد بعمله وجه الله وحده والدار الآخرة، فإذا دخل في العمل على ذلك الإخلاص عرض له بعض ما ذكرنا من الآفات، فقبلها وأحب أن يحمد على عمله، وأن يتخذ به منزلة عند أحد من المخلوقين.

واعلم أن لذة الرياء وحلاوته لذة تخالط القلوب، وتجري في العروق، فاحذر ذلك في ابتداء أول العمل، وتفقد الهمة، وتقص تصحيح الإرادة، وكن في ذلك كله مراقبا لله وحده.

جعلنا الله من المخلصين له، وأبعدنا عن الرياء ودواعيه، وجعل أعمالنا خالصة

لوجهه الكريم، اللهم آمين.

## ١٦٢- غَيِّبْ نَظَرَ الْخَلْقِ إِلَيكَ بِنَظَرِ اللّه إِلَيْكَ، وَغِبْ عَنْ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ

لا يزال ابن عطاء الله يطوف بالمريد حول إخلاص العمل لله وحده، ويلقنه الحكمة بعد الحكمة لتخلص له نفسه، ويخلص له عمله، وينجو من آفات النفس ومهلكاتها.

وفي هذه الحكمة يبين ابن عطاء الله رحمه الله كيف يحقق المريد صدق العبودية مع الله عز وجل، فقال: إذا أردت أن تكون أيها المريد صادقا في العبودية فغيب نظر الخلق إليك، وأقبل على الله بالكلية، فلا يكون لك شعور بنظر الخلق إليك اكتفاء منك بنظر الله إليك وإقباله عليك، فعطاء الناس مزعوم، وعطاء الله حقيقي، وإقبال الخلائق نفاق، وإقبال الله أرزاق.

وقد وعظ أحد العارفين الناس فقال لهم: من أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن أقبل على الله بقلبه أقبل الله برحمته إليه، وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه، ومن كان مرة ومرة فالله يرحمه وقتا ما.

وقد روي أن العبد إذا قام يصلي قال الله عز وجل: ارفعوا الحجب، فإذا التفت قال: أرخوها، وقد فسر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله عز وجل إلى غيره، فإذا التفت إلى غيره أرخي الحجاب بينه وبين العبد، فدخل الشيطان، وعرض عليه أمور الدنيا، وأراه إياها في صورة المرآة، وإذا أقبل على الله ولم يلتفت لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله تعالى وبين ذلك القلب، وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب، فإن فر إلى الله تعالى وأحضر قلبه فر الشيطان، فإن التفت حضر الشيطان، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة.

وإن أردت الوصول إلى ذلك راقب الله في كل أعمالك، واجعله دونك في كل أفعالك، لأنك إذا راقبت الله تعالى أحسنت الفعل والترك، فما فعلت إلا لله، وما تركت

إلا طلبا لرضاء الله وخشيته، ولذا قيل: إن الاكياس إذا دعتهم النفوس إلى أن تقطعهم بخدائعها عن سبيل نجاتهم حاكموها الى الحياء من الله تعالى فأذلها حكم الحياء.

والمراقبة في ثلاثة أشياء، مراقبة الله في طاعته بالعمل، ومراقبة الله في معصيته بالترك، ومراقبة الله في الهم والخواطر، ومراقبة القلب لله عز وجل أشد تعبا على البدن من مكابدة قيام الليل وصيام النهار وإنفاق المال في سبيل الله.

وثمرة المراقبة أنك تجد الآخرة أكبر همك ومبلغ علمك، وأن الدنيا في عينيك قليلة لأنها بضاعة من لا عقل له، يعيش بها ويموت لأجلها، ولا يفقه عن آخرته شيئا، ولذا قال بعض العلماء: كلما قل العقل كثرت الأماني.

وكتب بعض السلف إلى بعض إخوانه من أبناء الدنيا يعظه: أخبرني عن هذا الذي تكدح فيه وتحرص عليه من أمر الدنيا هل بلغت فيه ما تريد وأدركت ما تتمنى؟ فقال: لا والله، فقال: أرأيتك هذا الذي أنت حريص عليه لم تنل منه ما تريد فكيف تنال من الآخرة وقد أعرضت عنها وصرفت عنها فما أراك تضرب إلا في حديد بارد.

وقال بعض العلماء: من ظن أنه يدخل الجنة بغير عمل فهو متمنٍّ، ومن قال أدخلها بعمل فهو متعنٍّ.

وإن أردت خلاصة كل ذلك فانظر إلى ما كتبه أبو عثمان إلى الشاه يسأله: ما الذي لا بد للعبد منه؟ فكتب: أما في الجملة فالله تعالى ذكره لا بد منه، وأما في الآداب: فاتباع كتابه، واعتناق سنة رسوله ﷺ، والاشتغال في كل وقت بما هو أولى بك من آداب خدمته، وترك السكون إلى النفس والاغترار بخدعتها، ودوام مراقبة القلب فيما يخص ويعم، والجهد في طلب الحلال، فإنه أس الأمر وعموده، وترك الركون إلى البطالين.

فتمسك أخي المريد بالعروة الوثقى، واترك الأوهام المخادعات، نسأل الله لنا ولك السلامة والمعرفة آمين.

## ١٦٣- مَنْ عَرَفَ الحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ فَنِيَ بِهِ غَابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئًا

يبين ابن عطاء الله رحمه الله قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾(١)، فقد قال هو معكم، ولم يقل أنتم معي، لأن العدم المحض لا وجود له إلا بالله، والمتحقق في مقام المعرفة يشهد الله عز وجل في كل شيء، فلولاه ما كان شيء، وما قام شيء، لأنه هو قيوم السماوات والأرض، وبه استنار كل شيء، وهذا في حال الصحو يشاهده في جميع الأكوان، أما في حال الفناء حين تفنى صفاته في صفاته، وتتحقق في مقام الفناء فإنه يغيب عن كل شيء حتى عن حسه ونفسه، فلا يرى في الوجود ظاهرا إلا الله عز وجل، ويخرج بعد ذلك حرا من جميع القيود.

وأما من أحب الله عز وجل لم يقدم عليه في المحبة شيئا من شهواته ومراداته، بل لم يفضل عليه شيئا من الأكوان، لأن حقيقة المحبة ملأت نياط القلب بالمحبوب، واستولت على خاطره، حتى لا يدعه لغيره في حال من الأحوال.

فهذه الأمور علامات للعارفين في هذه المقامات، ومن يدعي غيرها فهو كاذب.

والمحبة من أعلى مقامات العارفين، وهي إيثار من الله تعالى لعباده المخلصين، ومعها نهاية الفضل العظيم، فكل مؤمن بالله فهو محب لله، ولكن محبته على قدر إيمانه، وكشف مشاهدته، وتجلي المحبوب له على وصف من أوصافه.

ومن علامة المحبة كثرة ذكر الحبيب، وهو دليل محبة المولى لعبده، وهو من أفضل مننه على خلقه، وفي الخبر: أن لله في كل يوم صدقة يمن بها على خلقه، وما تصدق على عبد بصدقة أفضل من أن يلهمه ذكره.

يقول أبو محمد سهل: من علامة الإيمان حب الله عز وجل، ومن علامة حب الله حب القرآن، ومن علامة حب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ حب

---

(١) سورة محمد من الآية ٣٥.

السنة، ومن علامة حب السنة بغض الدنيا، وعلامة بغضها أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغة.

وقال بعض العلماء: إذا تم التوحيد تمت المحبة، وإذا جاءت المحبة تم التوكل، فتم إيمانه وخلص فرضه وسمي ذلك يقينا.

وقال الفضيل بن عياض في فرض المحبة: إذا قيل لك: تحب الله؟ فاسكت، فإن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، فليس وصفك وصف المحبين، فاحذر المقت.

وقال أحد العارفين: ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة، ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة، ولم يتحقق بشيء من ذلك.

وقال آخر: كل أهل المقامات يرجى أن يعفى عنهم ويسمح لهم إلا من ادعى المعرفة والمحبة، فإنهم يطالبون بكل شعرة مطالبة، وبكل حركة وسكون، وكل نظرة وخطرة، لله، وفي الله، ومع الله.

## ١٦٤- إِنَّمَا حَجَبَ الْحَقَّ عَنْكَ شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ

لا زال ابن عطاء رحمه الله يدل المريد ويعرفه بالله تعالى، وكيفية سلوك طريقه، ويضع يده على ما لا يمكن لغيره من عامة الناس إدراكه، فيذكره بحضور الله تعالى وقربه منه، ويذكره أن الله سبحانه وتعالى أقرب إليه من حبل الوريد، فكانت شدة القرب حجابا، لأن الحجاب كما يكون بشدة البعد يكون كذلك بشدة القرب، فأنت لم تر الله عز وجل، لإحاطته التامة بك، ظهر فبهر فلا تراه العيون، سبحانه وتعالى عما يصفون.

فعلى المريد أن ينشغل بالله، وأن يجتهد فيما يقربه منه سبحانه، وقد قال حكيم: عشرة تورث، التواضع يورث الرفعة، والندامة تورث التوبة، ورؤية المنة تورث الشكر، والإياس من الناس يورث التوكل، والعزلة من الخلق تورث الأنس بالحق، وكظم الغيظ يورث زيادة العقل، وصدق النية يورث الجهد في العمل، وزيادة العمل تورث زيادة الخشية، ومخالفة النفس تورث موافقة الرب عز وجل، واستعمال المروءة في دين الله

يورث مقام القرب من الله تعالي.

والمريد الصادق يطلب القرب من الله تعالى، لا أن ذلك بقرب بمكان أو بتماس سطوح الأجسام، أو بكمال جمال صورة، بأن يصير مبصراً حاضراً في القوة الباصرة صورته، وإنما بالقرب منه لدرجة أن يفنى في الله عز وجل، وهذا القرب قرب الكمال لا في المكان.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: إن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا، كما أن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجاباً، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السماوات والأرض حجاباً بينك وبينه، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره، وشغلك نفسك وشهواتك شغل بغيره، وأنت لا تزال مشغولاً بنفسك وبشهوات نفسك، فكذلك لا تزال محجوباً عنه، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى، والمشغول ببغض نفسه أيضاً مشغول عن الله تعالى بكل ما سوى الله.

ويقول في موضع آخر: إن كان من نصيحة في هذ المقام فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة، حتى تدرك أي شيء أنت، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خلقت، وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاؤك.

وقد جمعت في باطنك صفات: منها صفات البهائم، ومنها صفات السباع، ومنها صفات الشياطين، ومنها صفات الملائكة، فالروح حقيقة جوهرك، وغيرها غريب منك، وعارية عندك، فالواجب عليك أن تعرف هذا، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة، فإن سعادة البهائم في الأكل، والشرب، والنوم، والنكاح، فإن كنت منهم فاجتهد في أعمال الجوف والفرج.

وسعادة السباع في الضرب، والفتك، وسعادة الشياطين في المكر، والشر، والحيل، فإن كنت منهم فاشتغل باشتغالهم.

وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق، فإن كنت من جوهر الملائكة، فاجتهد في معرفة أصلك، حتى تعرف

الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب، وتعلم أن هذه الصفات لأي شيء ركبت فيك، فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها، ولكن خلقها حتى تكون أسرك، وتسخرها للسفر الذي قدامك، وتجعل إحداها مركبك، والأخرى سلاحك، حتى تصيد بها سعادتك.

فإذا بلغت غرضك فقاوم بها تحت قدميك، وارجع إلى مكان سعادتك، وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار العوام درجات الجنة.

## ١٦٥- إِنَّمَا احْتَجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ، وَخَفِيَ عَنِ الأَبْصَارِ لِعِظَمِ نُورِهِ

لا زال ابن عطاء الله رحمه الله يطوف بنا في الحضرة الإلهية، ويكشف لنا ما نتوصل إليه من القرب إلى الله ومنه، فيذكر لنا أن الحجاب في الحقيقة إنما هو من الخلق، لضعف بصرهم عن مقاومة الظهور، فإن الظاهر لذاته لا يحجب من ذاته، فالله عز وجل من شدة ظهوره في الأكوان هو عين خفائه عن الأنام بداية، كالشمس حجبت بالأنوار عن أن تدركها الأبصار، وحجب عن الأبصار لعظيم نوره، فهو الأول الذي لا شيء قبله، والآخر الذي لا شيء بعده، والظاهر الذي لا شيء فوقه، والباطن الذي لا شيء تحته، وهو على كل شيء قدير.

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يدرك القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا ... وكيف يعرف من بالعزة اشتهرا

فسبحان من احتجب عن الظهور بشدة ظهوره، واستتر عن الأبصار بإشراق نوره، ولولا احتجابه بسبعين حجاباً من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته، ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبُهتت العقول، ودهشت القلوب، وتخاذلت القوى، وتنافرت الأعضاء، ولو رُكّبت القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادي أنوار تجليله دكا دكا، فأنى تطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش.

وكما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، ولكن لشدة ظهوره، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت، فتكون قوة

ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام، وضعف ظهوره، فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه.

فلا جرم أن أورثت شدة الظهور خفاء، فهذا هو السبب في قصور الأفهام، وأما من قويت بصيرته، ولم تضعف منته، فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى، ولا يعرف غيره، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله، وأفعاله أثر من آثار قدرته، فهي تابعة له، فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها، ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل، ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق.

فكل العالم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله، وعرفه من حيث إنه فعل الله، وأحبه من حيث إنه فعل الله، لم يكن ناظرا إلا في الله، ولا عارفا إلا بالله، ولا محبا إلا له، وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه، بل من حيث إنه عبدٌ لله، فهذا الذي يقال فيه إنه فني في التوحيد، وإنه فني عن نفسه، وإليه الإشارة بقول من قال: كنا بنا، ففنينا عنا، فبقينا بلا نحن، فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها، وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله عز وجل.

تعالى الله الكبير المتعال، الذي ظهر في كل شيء، واستتر عن العيون من شدة الظهور حتى لا تراه.

## ١٦٦- لاَ يَكُنْ طَلَبُكَ تَسَبُّباً إِلَى الْعَطَاءِ مِنْهُ فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ، وَلْيَكُنْ طَلَبُكَ لِإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ وَقِيَاماً بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ

انتقل ابن عطاء الله رحمه الله بمريده إلى مقام آخر من مقام المعرفة بالله تعالى، وتهذيب حواسه ليدرك مع من يتعامل، ومن يعبد، جل في علاه، فبين أن عطاء الله للإنسان بلا سبب، فإياك أن تظن الأسباب فاعلة بذاتها، وتنسى أن الفعال لما يريد هو الله عز وجل، لذا قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(١)، فقد قال هنا من رزقه، ولم يقل من رزقها، لأن المخلوق مفتقر إلى الخالق، والأسباب مخلوقة، وهذا ما وقع فيه أكثر الخلق باعتقادهم أن الأسباب هي التي تأتي بالأرزاق، وهذا شرك خفي.

فنبه ابن عطاء الله رحمه الله بهذه الحكمة الغافلين، فقال: لا تقصد بطلبك من الله أن يكون تسببا، أي سببا موصلا إلى العطاء منه تعالى، فهو يعطي بلا سبب، فإن اعتقدت ذلك فإنه يقل فهمك عن الله.

فإن قيل: ما الحكمة من الطلب من الله بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٢)؟.

يقول ابن عطاء الله: إن الحكمة هنا إظهار العبودية لله عز وجل، أي إظهار أنك عبد فقير، لا غنى لك عن سيدك ومولاك، وإن أعطاك الدنيا وما فيها.

وكذلك القيام بحقوق الربوبية من التذلل والخضوع له سبحانه وتعالى، لذا قال الإمام أبو الحسن الشاذلي: لا يكن همك في دعائك الظفر بقضاء حاجتك، فتكون محجوبا عنه، وليكن همك مناجاة مولاك والتذلل له.

وقال أحد العارفين: إن الله لا يسمع من مسمع، ولا مراء، ولا داع إلا داع دعاء ثبتا من قلبه، ولا يقبل إلا الناخلة من الدعاء.

---

(١) سورة الملك الآية ١٥.

(٢) سورة البقرة من الآية ٦٠.

وعن الحسن، قال: كانوا يجتهدون في الدعاء ولا تسمع إلا همسا.

وعن وهب بن منبه قال: قال المسيح: أكثروا ذكر الله عز وجل وحمده وتقديسه، وأطيعوه فإنما يكفي أحدكم من الدعاء، إذا كان الله عز وجل راضيا عنه أن يقول: اللهم اغفر لي خطيئتي، وأصلح لي معيشتي، وعافني من المكاره، يا إلهي.

وبعد أن بين ابن عطاء الله المقصود بالطلب هنا علل كون الطلب لا يكون سببا للعطاء بثلاثة حكم متتالية فقال:

## ١٦٧- كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ اللاَّحِقُ سَبَباً في عَطَائِهِ السَّابِقِ؟

بين ابن عطاء الله رحمه الله أن عطاء الله –عز وجل– ومقدراته كلها تمت في الأزل، رفعت الأقلام وجفت الصحف، فكيف يكون طلبك الذي تطلبه أنت الآن في عالم الزمن سببا في عطائه الذي قدره في عالم الأزل، بلا شك لا يكون الطلب سببا فيه لتأخره عنه، والسبب لابد من تقديمه على المسبب، فعطاء الله بلا سبب.

والفارق بين العارف بالله وغيره يظهر في طريقة تعاطيه للأسباب ونظره إليها، فلو أن معطين أعطوا الناس لانقسموا في النظر إليهم إلى فريقين، فأما أهل اليقين فيعتبرون بالأسباب، ويعجبون من التسبب، فيزدادون بذلك هدى وإيمانا، لشهودهم المعطي المانع واحدا في العطاء والمنع، ولمعرفتهم بجريان الحكمة فيما جادت به الشريعة ثبت لهم مقامان: الشكر له، والصبر عليه، وأما الغافلون فيضطربون لذلك، ويثبتون بنظرهم إلى الأسباب والأيدي، فيمدحون المعطين، ويذمون المانعين عندهم، فينقصون ذلك، فقد صار المال فتنة للفريقين، يكشف إيمانهم، وتمتحن للتقوى قلوبهم.

ولذا قال بعض العلماء: احتجب عن العموم بالأسباب، فهم يرونها، وحجب الأسباب بنفسه عن الخصوص، فهم يرونه ولا يرونها.

فالمريد الحق من يعرف أن الأسباب مجرد دواعي لا مكان لها مع مسببها وهو الحق جل وعلا، فلو أراد شيئا لكان، ولجعل عدوك يسوق لك الخير، ولو لم يرد شيئا لمنعك، ولجعل أحب الناس إليك مانعا له، فاعتبر وتصبر، وافهم الأمور على حقيقتها

تسعد في المعاش والمعاد.

ولذا يقال: لو هرب العبد من رزقه كما لو هرب من الموت لأدركه.

وقال أحد العارفين لمريديه: اعلم أن الله يرزقك لسبب وبغير سبب، وكل سبب فهو ثابت، لا تعلم متى يأتيك رزقك كما لا تعلم متى يأتيك الموت، ألا ترى أن الله وعدك أن يرزقك وغيب رزقك عنك بالقضاء، وله وقت ينزل فيه، فلو احتلت بكل حيلة أن يأتيك قبل وقته لم تقدر على ذلك حتى ينزل في وقته، واعلم أن الواثق بالله نفى عن قلبه التهمة لله، وإن كنت في ظل سبب فلا يميلن قلبك إلى السبب، وليكن قلبك مع الله عز وجل.

ولا يكونن هذا الأمر إلا لمن حقق التوكل على الله، ولذا كان التوكل عند علماء الأمة علامة الإيمان، فهذا عن سعيد بن جبير يقول: التوكل على الله عز وجل جماع الإيمان.

ونقل عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: أي بني، إن الدنيا بحر عميق، قد غرق فيه ناس كثير، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله عز وجل، وحشوها الإيمان بالله عز وجل، وشراعها التوكل على الله لعلك تنجو، ولا أراك ناجيا.

وقال أحد الحكماء: إن الله تعالى خص أهل ولايته بغبطة الانقطاع اليه ليعرفهم تواتر نعمه، ودوام إحسانه وفضله، فانصرفت هموم الدنيا من قلوبهم، وعظم شغل الآخرة في صدورهم لما سكنها من هيبة ربهم، فألزموا قلوبهم ذل العبودية، وطرحوا أنفسهم في محجة التوكل على الله.

وكان سفيان الثوري رحمه الله يقول: إذا كمل صدق الصادق لم يملك ما في يديه.

وقال عبد الله بن مسعود: من اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله، ولا تحمدن أحدا على رزق الله، ولا تلومن أحدا على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهة كاره، وإن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

وقال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم التوكل على من تكفل بالأرزاق، إذ التوكل هو نظام الإيمان، وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر ووجود الراحة، وما توكل أحد على الله جل وعلا من صحة قلبه حتى كان الله جل وعلا بما تضمن من الكفالة أوثق عنده بما حوته يده إلا لم يكله الله إلى عباده، وآتاه رزقه من حيث لم يحتسب.

## ١٦٨- جَلَّ حُكْمُ الأَزَلِ أَنْ يَنْضَافَ إِلَى الْعِلَلِ

إن الله عز وجل إذا رزق وبسط في المواهب كان ذلك لغير علة، فجل حكمه سبحانه أن يضاف إلى العلل، فحكمه في العباد نازل، وقضاؤه فيهم عادل وواقع، وقدره فيهم محتم، لا يملك أحد رده، رضي من رضي وسخط من سخط.

فما قضاه الله عز وجل وكتبه في عالم الأزل من الأقدار التي قدرها لعباده بإرادته المطلقة ومشيئته النافذة أن تضاف هذه الإرادة وتلك المشيئة إلى العلل، وهي الأسباب التي تحدث من الإنسان في عالم الزمن، هذا مستحيل أن يضاف ويتعلق ما قدره الله في الأزل بطلب الطالب في عالم الزمن، فليس طلبك الذي تطلبه من مولاك وأنت في عالم الزمن يكون سببا في العطاء، فقد قدر وشاء، ودبر واختار، وجفت الأقلام ورفعت الصحف، وما قدره في الأزل هو الذي يجري عليك الآن في عالم الزمن، فليس طلبك اللاحق سببا في عطائه السابق، فافهم واعلم أن طلبك هو لإظهار العبودية والقيام بحقوق الربوبية.

واسمع لقول النبي ﷺ: (لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم غير ظالم لهم، ولو رحمهم، كانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم، ولو كان لك جبل أحد، أو مثل جبل أحد ذهبا، أنفقته في سبيل الله، ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنك إن مت على غير هذا، دخلت النار)(١).

---

(١) أخرجه أحمد في الحديث رقم٢١٦١١، المسند ٤٨٦/٣٥.

وقد أردف النبي ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما يوما خلفه، ثم التفت إليه ناصحا، فثبت هذه النصائح في قلبه وعلمها له، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما: (أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوما، فقال له رسول الله ﷺ: يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف)(١).

وفي الحديث عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس، فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده، ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: من نزل وحده، ومنع رفده، وجلد عبده. قال: أفأنبئكم بشر من هذا؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: من يبغض الناس ويبغضونه، قال: «أفأنبئكم بشر من هذا؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من لم يقل عثرة، ولم يقبل معذرة، ولم يغفر ذنبا. قال: أفأنبئكم بشر من هذا؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: من لم يرج خيره، ولم يؤمن شره)(٢).

ولأن الإنسان لا يعرف أين الخير فليحمد الله على كل حال، ولا يتمنين ما لا يعلم خيره من شره، وما أجمل ما قاله عمر ﷺ: ما أبالي على أي حال أصبحت، على ما أحب، أو على ما أكره، لأني لا أدري الخير، فيما أحب أو فيما أكره.

وقال لقمان لابنه: يا بني ارج الله رجاء لا تأمن فيه مكره، وخف الله مخافة لا تيأس فيها من رحمته، فقال: يا أبت وكيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد. قال: يا بني، إن المؤمن لذو قلبين: قلب يرجو به، وقلب يخاف به.

---

(١) أخرجه أحمد في الحديث رقم٢٦٦٩، المسند ٤٠٩/٤.

(٢) أخرجه أحمد في الحديث رقم٦٧٥، المسند ٣٢٥/١.

وعن شقيق قال: خرجنا في ليلة مخوفة فمررنا بأجمة فيها رجل نائم، وقيد فرسه فهي ترعى عند رأسه، فأيقظناه، فقلنا له: تنام في مثل هذا المكان؟ قال: فرفع رأسه، فقال: إني أستحي من ذي العرش أن يعلم أني أخاف شيئا دونه، ثم وضع رأسه فنام.

وسئل لقمان أي الناس خير؟ قال: المسلم العالم الغني. قالوا: الغني في المال؟ قال: لا، ولكن الذي إذا احتيج إليه نفع. قال: قيل له فأي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئا.

وكان الجنيد، يقول: لم يبطء على الخلق ما وعدوا، وإنما تخلفوا عما أمروا، فأبطأ عليهم ما وعدوا.

فافهم أيها المريد تلك النصائح الغالية تعش عزيزا في الدنيا محبوبا من الله تعالى، ويقر في قلبك أنه ما من أحد يملك لك مع الله ضرا ولا نفعا إلا ما قدره لك، وما أجمل نصيحة الناصح: اكتم الأوجاع، وأظهر التعفف، واستبطن الثقة، واستشعر اليأس وحسن الفقر، واصبر على ما أصابك، وارض بما قسم الله لك، وكن من وعد الله على يقين، ومن آثارك في وجل، ولا تتكلفن ما قد كفيته، ولا تضيعن ما وكلت بطلبه، وافتقر إلى الله في كل عطائه، وارغب في النجاة منه، واعف عمن ظلمك، وأعط من حرمك، وصل في الله من قطعك، وآثر في الله من أحبك، وابذل نفسك ومالك لإخوانك، وارع حقوق المولى في دينك، ولا يعظمك كبير من المعروف تفعله، ولا تحقرن صغيرا من المنكر تفعله.

### ١٦٩- **عِنَايَتُهُ فِيكَ لاَ لِشَيْءٍ مِنْكَ وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجَهَتْكَ عِنَايَتُهُ وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُهُ ؛ لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إِخْلَاصُ أَعْمَالٍ وَلاَ وُجُودُ أَحْوَالٍ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلاَّ مَحْضَ الإِفْضَالِ وَعَظِيمَ النَّوَالِ**

يبين ابن عطاء الله رحمه الله أن عطاء الله بلا طلب ولا سبب، واستدل بهذه الحكمة على ذلك.

فعناية الله عز وجل بخلقه من الأزل بمحض فضل الله عز وجل وإحسانه، لا

لشيء قدمه الإنسان لخالقه في الأزل، بل هو كان حينذاك عدما محضا، فأنت أيها الإنسان لم تكن شيئا حين واجهتك عنايته، وقابلتك رعايته، ولم يكن في أزله إخلاص أعمال بدنية منك، ولا وجود أحوال قلبية، بل لم يكن هناك في عالم الأزل إلا محض الأفضال وعظيم النوال من العظيم المتفضل الجواد، فكيف تعتقد بعد ذلك أن الدعاء سبب مؤثر في العطاء، بل إن العطاء محض فضل الله عز وجل يعطيه بلا سبب ولا دعاء، لذلك قال بعض العارفين: أقسام قسمت، وأحكام أجريت، كيف يستجلب بحركات، أو تنال بسعايات.

ولذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون الناس كيف يتعاملون مع الله، وكيف يكون يقينهم بالله تعالى، وجاء العارفون والعلماء من بعدهم ليبينوا ما أجمله الصحابة من حكم، وما تركوه من درر فقد روي عن علي بن أبي طالب ﵁ أنه قال: قوام الإسلام بأربعة أركان: اليقين، والعدل، والصبر، والجهاد.

وقد فسر العلماء هذه الأربعة فقالوا: أما اليقين فهو على وجهين: أحدهما: أن يعمل لله خالصا، ولا يطلب به عرض الدنيا، ولا رضا المخلوقين، والثاني: أن يكون آمنا بوعد الله وهو الرزق.

وأما العدل فهو على وجهين: أحدهما: أنه لو كان عليه حق يؤديه قبل الطلب، والثاني: إذا كان له على غيره حق يرفق بطلبه.

وأما الصبر فهو على وجهين: أحدهما: أن يصبر على أداء فرائض الله تعالى، والثاني: أن يصبر عما نهاه الله تعالى عنه.

وأما الجهاد فهو على وجهين: أحدهما: أن لا تغفل عن عدوك، وهو الشيطان، فإنك إن غفلت عنه، فإنه لم يغفل عنك، فهو كالذئب إذا وقع في الغنم فكل شاة غفلت عنها أخذها. والثاني: إن أكثر فتنة بني آدم لأجل المال فارض باليسير من المال لكيلا يغرك.

وهذا نبي الله سليمان عليه السلام يقول لابنه: يا بني إنما يستدل على تقوى الرجل بثلاث: حسن التوكل، فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر

فيما قد فات.

وقال بعض الحكماء: صفة أولياء الله تعالى ثلاث خصال: الثقة بالله في كل شيء، والفقر إلى الله في كل شيء، والرجوع إلى الله في كل شيء.

وقال فضيل بن عياض رحمه الله: أحب الناس إلى الناس من استغنى عن الناس، ولم يسألهم شيئا، وأبغض الناس إليهم من احتاج إليهم، وأحب الناس إلى الله من احتاج إليه، وسأله، وأبغض الناس إليه من استغنى عنه، ولم يسأل منه شيئا.

وذكر أن لقمان الحكيم لما حضرته الوفاة قال لابنه: يا بني كثيرا ما أوصيتك إلى هذه الغاية، وإني لموصيك الآن بست خصال، فيها علم الأولين والآخرين.

أولها: أن لا تشغل نفسك بالدنيا إلا بقدر ما بقي من عمرك.

والثاني: اعبد ربك بقدر حوائجك إليه.

والثالث: اعمل للآخرة بقدر ما تريد المقام بها.

والرابع: ليكن شغلك في فكاك رقبتك من النار، ما لم تظهر لك النجاة منها.

والخامس: لتكن جرأتك على المعاصي بقدر صبرك على عذاب الله.

والسادس: إذا أردت أن تعصي الله، فاطلب مكانا لا تجد الله فيه ولا ملائكته، فهل أنت واجده؟.

وقال أبو يعقوب السوسي: لا تطعنوا على أهل التوكل فإنهم خاصة الله الذين خصوا بالخصوصية فسكنوا إلى الله، واكتفوا به، واستراحوا من هموم الدنيا والآخرة.

وقيل لأبي محمد: متى يصح لعبد التوكل؟ قال: إذا دخل عليه الضر في جسمه، والنقص في ماله، فلم يلتفت إليه شغلا بحاله للنظر إلى قيام الله عليه.

**١٧٠- عَلِمَ أَنَّ الْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ظُهُورِ سِرِّ الْعِنَايَةِ فَقَالَ ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَلِكَ لَتَرَكُوا الْعَمَلَ اعْتِمَادًا عَلَى الأَزَلِ فَقَالَ ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾**

يبين ابن عطاء الله رحمه الله أن الله عز وجل قسم الخلائق إلى قسمين:

قسم وصل إلى الله بعين الجود، وقسم وصل إليه ببذل المجهود.

لكن الجميع يتشوفون ويتطلعون للوصول إليه بسر العناية، فيطلبون ذلك بالدعاء والأعمال الصالحة، ويعتقدون تأثير ذلك فيها.

فبين لهم الله –سبحانه– أنه يختص برحمته من يشاء من عباده، فقال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾(١)، فليس الجميع يصل إليه بالدعاء والأعمال الصالحة، وبين لهم المولى –عز وجل– أن ليس الأمر كما تظنون، وزجرهم بقوله تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(٢)، فلا علة لذلك من العباد.

وكذلك علم سبحانه أن لو خلاهم أي تركهم وما يعتقدون لتركوا العمل الذي هو مقتضى العبودية لله عز وجل، اعتمادا منهم على سابق الأزل، أي على ما قدره الله لهم في الأزل، فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣)، فجعل الإحسان بالأعمال الصالحة علامة على العناية الإلهية الأزلية، وإن كان في الحقيقة ليس الأعمال الصالحة علة موجبة للرحمة عند المحققين، لأنه جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل.

فأراد الله عز وجل بذلك أن يعتقد الخلائق أنهم بأعمالهم الصالحة يصلون إلى الله عز وجل، فبين لهم أن الأمر ليس كذلك في قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾(٤)، وخشي منهم أن يتواكلوا ويتركوا العمل اعتمادا على حكم الأزل، فقال: ﴿إِنَّ

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٠٥.

(٢) سورة الأنعام من الآية ١٢٤.

(٣) سورة الأعراف من الآية ٥٦.

(٤) سورة البقرة من الآية ١٠٥.

رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾[١]، ترغيبا لهم في الأعمال الصالحة.

ولذا بين النبي ﷺ أن محض فضل الله عز وجل سابغ على الجميع، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لن ينجي أحدا منكم عمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة، سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا)[٢].

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (سددوا وقاربوا، واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل)[٣].

وقد حقر الله تعالى من يرائي بعمله ويظن أنه منجيه من الله تعالى فعن عبد الله بن عمر قال: من يسمع الناس بعمله، سمع الله به سامع خلقه، وحقره، وصغره.

وعن العلاء بن زياد أن رجلا كان يرائي بعمله، فجعل يشمر ثيابه ويرفع صوته إذا ما قرأ، فجعل لا يأتي على أحد إلا سبه ولعنه، ثم رزقه الله شيئا بعد ذلك، فخفض من صوته، وجعل صلاته فيما بينه وبين ربه عز وجل، فجعل لا يأتي بعد ذلك على أحد إلا دعا له بخير وسمت عليه.

كما بين النبي ﷺ أن من يخشى الله تعالى ويسيء الظن بعمله قد يكون ذلك سببا لقبوله ومدعاة لرضا الله تعالى عنه، فعن حذيفة أن النبي ﷺ قال: (كان رجل ممن كان قبلكم يسيء الظن بعمله، فقال لأهله: إذا أنا مت فخذوني فذروني في البحر في يوم صائف، ففعلوا به، فجمعه الله ثم قال: ما حملك على الذي صنعت؟ قال: ما حملني إلا مخافتك، فغفر له)[٤].

فالنية في العمل خير من العمل، ولذا ورد عن عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال: تأويل حديث النبي ﷺ؛ أنه قال: (نية المؤمن خير من عمله)، ومعنى هذا الحديث

---

(١) سورة الأعراف من الآية ٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٤٦٣، الصحيح ٩٨/٨.

(٣) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٤٦٤، الصحيح ٩٨/٨.

(٤) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٤٨٠، الصحيح ١٠١/٨.

حسن، وذلك أن الله عز وجل يخلد المؤمن في جنته بنيته لا بعمله، ولو جزي بعمله؛ لم يستوجب التخليد؛ لأنه عمل في سنين معدودة، والجزاء يقع بمثلها وأضعافها، وإنما يخلده الله عز وجل بنيته؛ لأنه كان ناويا أن يطيع الله عز وجل أبدا لو أبقاه أبدا، فلما اخترمه دون نيته؛ جزاه عليها التخليد أبدا، وكذلك الكافر نيته شر من عمله؛ لأنه كان ناويا أن يقيم على كفره أبدا، فلما اخترمه الله عز وجل دون نيته؛ جزاه التخليد في جهنم أبدا.

## ١٧١- إِلَى المَشِيئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَا تَسْتَنِدُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ

وهذه حكمة جليلة القدر، عظيمة النفع، وتنبيه بديع من ابن عطاء الله رحمه الله على أمر في غاية الدقة والأهمية، حيث أراد من هذه الحكمة أن يتعلق الخلائق بأحكام الأزل، ويبعدهم عن الاعتماد على الأسباب والعلل، فقال: إن مشيئة الله عز وجل وإرادته تمت في عالم الأزل، ويستند إليها كل شيء موجود في عالم الزمن.

فلابد أن يعتقد الإنسان أن كل شيء يستند إلى مشيئة الله عز وجل، وليست المشيئة تستند إلى شيء من المكونات أو الأسباب والعلل، فإذا ما علم الإنسان ذلك طرح الأسباب والعلل، وارتاح قلبه، واطمأنت نفسه، ولزم العبودية والافتقار، وترك التدبير والاختيار، وعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ولذا كان العارفون أكثر الناس راحة في البال، وهدوءً في النفس، إذ لم يعلقوا نفوسهم بما لم يرد الله عز وجل، ويأخذون بالأسباب تطبيقا لأمره، لا لأنها مسببة بذاتها، وما أجمل قول الشاعر:

يريد المرء أن يعطي مناه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

ولما سئل الجنيد رحمه الله عن الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى أهو أتم أم الاستغناء بالله تعالى؟، فقال: إذا صح الافتقار إلى الله عز وجل فقد صح الاستغناء بالله تعالى، وإذا صح الاستغناء بالله تعالى كمل الغنى به، فلا يقال أيهما أتم الافتقار

أم الغنى، لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى.

ومتى تمت للإنسان هذه النعمة لم يؤثر فيه فقر ولا غنى، قال إبراهيم بن أدهم: طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى، وطلب الناس الغنى فاستقبلهم الفقر.

ولذا قالوا عن التوكل: الأمر كله إلى مالكه، والتعويل على وكالته، وهو من أصعب منازل العامة عليهم، وأوهى السبل عند الخاصة، لأن الحق قد وكل الأمور كلها إلى نفسه، وأيأس العالم من ملك شيء منها.

ومن فهم وعلم وصل إلى درجة أعلى من التوكل، وهي تفويض الأمر كله لله جل وعلا، فالتفويض ألطف إشارة، وأوسع معنى من التوكل، فإن التوكل بعد وقوع السبب والتفويض قبل وقوعه وبعده، وهو عين الاستسلام، والتوكل شعبة منه.

فالزم مشيئة الله تعالى، وارض بما قسم تكن أغنى الناس وأعفهم، واجعل الأسباب منتجة بالله، وليست منتجة بذاتها، واعتقد في ذلك بكل جوارحك تسلم، ويسلم لك دينك.

## ١٧٢- رُبَّمَا دَلَّهُمُ الأَدَبُ عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ اعْتِمَادًا عَلَى قِسْمَتِهِ وَاشْتِغَالاً بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن هؤلاء العارفين بالله تعالى، العالمين بأن الله –عز وجل– قد دبر وشاء واختار في الأزل، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، دفعهم هذا إلى ترك الطلب من الله تأدبا لا مللا، واعتمادا على ما قسمه الله لهم وقدره لا كسلا وتواكلا، وكان شغلهم الشاغل هو تحقيق معنى العبودية، بأن شغلهم ذكر الله عن مسألته، لما علموه في الحديث القدسي (عن النبي ﷺ قال: يقول الله عز وجل: إذا شغل عبدي ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)[1]، لأن السائلين يسألونه لهم فأعطاهم العفو، والذاكرون ذكروه فأعطاهم الرضا عنه عز وجل، فإن مَنْ نسي غير الله فقد ذكر الله تعالى، وهو أهل للعطاء بلا طلب.

---

(١) أخرجه البزار في الحديث رقم١٣٧، البحر الزخار ٢٤٧/١.

وقال بعض العلماء: إن الله عز وجل يقول: أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته، وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه.

على أن العارفين بالله يشهدون أن ما يوصله العبيد إليهم من أقسام رزقهم إنما هي ودائع لهم عندهم، وأنه حق لهم بأيديهم يؤدونه إليهم قليلا قليلا، ويوفونهم إياه شيئا فشيئا، إلا أنهم لا يسألونهم إياه، ولا يطالبونهم به، وإن كان لهم عندهم حسن أدب فيهم وحسن اقتضاء، لأن من حسن الاقتضاء ترك الطلب، ولقوة يقينهم برازقهم أنه يوفيهم نصيبهم غير منقوص، فقد سكنوا إلى قديم وعده كما نظروا إلى بسط يده.

يقول أحد العارفين: رأيت من نفسي عجبا! تسأل الله عز وجل حاجاتها، وتنسى جناياتها!! فقلت: يا نفس السوء! أومثلك ينطق؟! فإن نطق، فينبغي أن يكون السؤال العفو فحسب. فقالت: فممن أطلب مراداتي؟! قلت: ما أمنعك من طلب المراد، إنما أقول: حققي التوبة وانطقي، كما نقول في العاصي بسفره إذا اضطر إلى الميتة: لا يجوز له أن يأكل، فإن قيل لنا: أفيموت؟! قلنا: لا، بل يتوب ويأكل. فالله الله من جراءة على طلب الأغراض، مع نسيان ما تقدم من الذنوب التي توجب تنكيس الرأس، ولئن تشاغلت بإصلاح ما مضى، والندم عليه، جاءتك مراداتك.

أما حال العباد والزهاد فهو الطلب من الله عز وجل، لقول النبي ﷺ: (الدعاء مخ العبادة)[١]، فلكل وجهة هو موليها.

**١٧٣- إِنَّمَا يُذَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الإِغْفَالُ، وَإِنَّمَا يُنَبَّهُ مَنْ يُمْكِنُ مِنْهُ الإِهْمَالُ**

يرد ابن عطاء الله -رحمه الله- على العباد والزهاد فيقول إنما يُذكّر من يجوز عليه الإغفال، فالتذكير بالدعاء والطلب ممن يجوز عليه الإغفال، والله عز وجل لا يغفل ولا ينسى، ولا تأخذه سنة ولا نوم.

وكذلك يُنبه على المراد منه من يمكن منه الإهمال، وكل من الإغفال والإهمال مستحيلان على الله عز وجل، فهو يعلم السر وأخفى، ويعلم دبة النملة السوداء في

---

(١) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٣٣٧١، سنن الترمذي ٣١٦/٥.

الليلة الظلماء، فهو معكم أينما كنتم، سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية، فمنع العارفين علمهم بهذا عن الطلب من الله عز وجل.

ولذا لما سأل أعرابي رسول الله ﷺ قائلا: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

وعن وهب قال: أوحى الله تبارك وتعالى إلى نبي من أنبيائه: هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينيك الدموع، وادعني؛ فإني قريب مجيب.

وعن محمد بن كعب القرظي قال: قرأت في التوراة أو قال في صحف إبراهيم الخليل فوجدت فيها: يقول الله: يا ابن آدم ما أنصفتني، خلقتك ولم تك شيئا، وجعلتك بشرا سويا، خلقتك من سلالة من طين، فجعلتك نطفة في قرار مكين، ثم خلقت النطفة علقة، فخلقت العلقة مضغة، فخلقت المضغة عظاما، فكسوت العظام لحما ثم أنشأتك خلقا آخر، يا ابن آدم، هل يقدر على ذلك غيري؟ ثم خففت ثقلك على أمك حتى لا تتبرم بك ولا تتأذى، ثم أوحيت إلى الأمعاء أن اتسعي، وإلى الجوارح أن تفرقي، فاتسعت الأمعاء من بعد ضيقها، وتفرقت الجوارح من بعد تشبكها، ثم أوحيت إلى الملك الموكل بالأرحام أن يخرجك من بطن أمك، فاستخلصك على ريشة من جناحه، فاطلعت عليك، فإذا أنت خلق ضعيف، ليس لك سن يقطع، ولا ضرس يطحن، فاستخلصت لك في صدر أمك عرقا يدر لبنا باردا في الصيف حارا في الشتاء، واستخلصته لك من بين جلد ولحم ودم وعروق، ثم قذفت لك في قلب والدك الرحمة، وفي قلب أمك التحنن، فهما يكدان عليك ويجهدان، يربيانك ويغذيانك، ولا ينامان حتى ينومانك، يا ابن آدم أنا فعلت ذلك بك لا لشيء استأهلت به مني، ولا لحاجة استعنت بك على قضائها، يا ابن آدم فلما قطع سنك وطحن ضرسك أطعمتك فاكهة الصيف في أوانها، وفاكهة الشتاء في أوانها، فلما أن عرفت أني ربك عصيتني، فادعني فإني قريب مجيب، واستغفرني فإني غفور رحيم.

وهذا للمريد، فهو مطالب بالدعاء إلى الله تعالى والسؤال منه وله، والتقرب إليه بالتناجي والطلب، مع الثقة أن الخالق جل وعلا لا يغفل ولا ينام، ولا يشغله شيء عن

شـيء، أمـا العـارف فهـو قـد وصـل بالثقـة إلـى الله تعـالى أنـه لا يطلـب ولا يـدعو لا للاستغناء وإنما أدبا مع الله وخشية منه.

وقد سئل بعض العارفين أن يدعو الله فقال: أخشى إن دعوت أن يقال لـي: إن سألتنا ما لك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا، وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك في الدهور.

فمن نوّر الله قلبه بالإيمان قويت معرفته، واستنارت بنور اليقين، فاستقام بـه قلبـه، واطمأنـت بـه نفسـه، وسكنت، ووثقت، وأيقنت، وائتمنتـه علـى نفسـها، فرضيت لهـا بـه وكيلا، وتركت التدبير عليه، فإن وسوس لـه عدو بالرزق والمعايش، لم يضطرب قلبه ولم يتحير، لأنـه قد عرف ربـه معرفة أنـه قريب، وأنـه لا يغفل ولا ينسـى، وأنـه رءوف رحيم، وأنه رب غفور رحيم، وأنه عدل لا يجور، وأنه عزيز لا تمتنع منه الأشياء، وأنـه يجير ولا يجار عليـه، فكما خلقـه محتاجا مضطرا، فإنـه سيوصلـه إليـه من حيث يريد الـرب تبـارك وتعـالى، لا مـن حيث يريد العبد، علـى الهيئـة التـي يريـد الـرب، لا علـى الهيئـة التـي يريد العبد، وبمقدار ما يريد الـرب، لا بمقدار مـا يريد العبد، وفـي الوقت الذي يريد الرب، لا في الوقت الذي يريد العبد.

تعـالى فـي ملكـه، وعـز فـي جاهـه، لا سلطان عليـه، ولا طريـق إليـه إلا عبادتـه والتذلل إليه، إنه عفو غفور.

## ١٧٤- وُرُودُ الفَاقَاتِ أَعيادُ المُرِيدِينَ

بين ابن عطاء الله –رحمه الله– في هذه الحكمة أن الناس فيما يعتقدون مذاهب، فمنهم من تكون النعم هي أعياده، ومنهم من تكون النقم هي أعياده.

فقـال إن أيـام تـوارد الفاقـات أي البلايـا والمحـن هـي أعيـاد المريـدين، أي أيـام مسراتهم وأفراحهم، فإنهم يفرحون بالفاقات، لأنها تذكرهم دائما بالله عز وجل، ولأنها أيام قبض، ولا يفرحون بأيام البسط، خوفا من أن تكون استدراجا لهم، أو أن تلهييهم النعم عـن المـنعم، كمـا أن الفاقـات فيهـا شـدة افتقـار إلـى الله عـز وجـل، وكسـر لنفوسـهم

وشهواتهم، فكما يفرح عامة الناس بأيام الأعياد وأيام البسط كذلك يفرح المريدون بأيام القبض والفاقات.

ولا يعني ذلك أن يطلب الإنسان الفقر، أو أن يطلب البلايا، وإنما المراد من ذلك أن يرضى عند وقوع البلايا، وكان العلماء يقولون: لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق، ولا غنى كالرضا، وأحق ما صُبر عليه ما لا سبيل إلى تغييره، وأفضل البر الرحمة، ورأس المودة الاسترسال، ورأس العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون، وطيب النفس حسن الانصراف عما لا سبيل عليه، وليس من الدنيا سرور يعدل صحبة الأحبة، ولا فيها غم يعدل غم فقدهم.

وإنما أراد ابن عطاء من تلك الحكمة مد المريد بالصبر والرضا بقضاء الله فيه، وأن القبض قد يكون خيرا من البسط، لأن البسط قد يورث الحرص الذي هو أشر الشرور ورأس كل مذلة، وصدق الشاعر إذ يقول:

الحرص عون للزمان على الفتى ... والصبر نعم القرن للأزمان

لا تخضعن فإن دهرك إن ... رأى منك الخضوع أمده بهوان

وإذا رآك وقد قصدت لصرفه ... بالصبر لاقى الصبر بالإذعان

وما أروع قول أبي العتاهية:

قد شاب رأسي ورأسُ الحرصِ لم يَشُبِ ... إن الحريصَ على الدنيا لفي تعبِ

مالي أراني إذا حاولت منزلةً ... فنلتُها طمحت نفسي إلى رتبِ

لو كان ينفعني علمي وتجربتي ... لم أشف غيظي من الدنيا ولا كَلَبي

فالبلايا المقرِّبة إلى الله خير من النعم التي تُبعِد عنه، ولذا كان يفرح بها المريدون، ويجعلونها أيام أعياد وفرح لا أيام حزن وترح.

وقد كان ابن عطاء الله رحمه الله دقيقا في عباراته فقال: ورود الفاقات أعياد المريدين، ولم يقل أعياد العارفين، لأن المريد نفعه لنفسه، فنفعه قاصر، فورود النعمة له تكون اختبارا كما البلايا اختبارات، وقد تطغيه النعمة، فتعكس له طريق وصوله،

فتزل قدمه، وتضل وجهته، وتنعدم بصيرته، فتكون النعمة سببا لفتنته وبلائه الأخروي، واكنت الفاقة مقربة له من الله، فلا يطغى ولا يتكبر ويسير في طريق الهدى على بصيرة، لا يفتتن بمال، ولا يغره زخرف.

أما العارفون فإنها لا تكون أعيادا لهم، لأن ورود النعم عليهم لا ينسيهم ربهم، فقد مروا بالاختبارات الكثيرة حتى أصبحت النعم عندهم لا شيء، فلا يفرحون بها، ولا تلهيهم عن عبادتهم، فوجودها كعدمها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن العارف نفعه متعد لا قاصر، فإذا رُزق النعم فإنه ينفقها في سبيل الله، فتكون في يده لا في قلبه، فيعم نفعها لغيره، ولا يتأثر بها، ولا تطغيه.

فهو يعلم أن كل حال إلى زوال، ولذا قالوا: لا يفرح غني حتى يطغى ويبطر، ولا ييأس فقير حتى يعصي ويكفر، فإنه لا فقر يدوم ولا غنى يدوم، وكم من رجال نشأوا على فرش حرير وشربوا بكؤوس الذهب، وورثوا كنوز المال، وأذلوا أعناق الرجال، وتعبدَوا الأحرار، فما ماتوا حتى اشتهوا فراشًا خشنا يقي الجنب عض الأرض، ورغيفًا من خبز يحمي البطن من قرص الجوع، وآخرون قاسوا المحن البلايا، وذاقوا الألم والحرمان، وطووا الليالي بلا طعام! فما ماتوا حتى ازدحمت عليهم النعم، وتكاثرت الخيرات، وصاروا من سراة الناس!! وسيسوي الموت بين الأحياء جميعا: الغني والفقير؛ فدود الأرض لا يفرق بين المالك والأجير، ولا بين الصعلوك والأمير ولا بين الكبير والصغير، فلا يجزع فقير بفقره، ولا يبطر غني بغناه.

ولذا كان ابن مسعود يقول: اللهم إني أعوذ بك من غنى يطغي، أو فقر ينسي، أو هوى يردي، أو عمل يخزي.

وقال النعمان بن بشير على المنبر: إن للشيطان مصالي وفخوخا، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله.

وهذه آفات تطال المريدين، فكانت الفاقات أعيادا لهم، وكانت النعم اختبارا صعبا قد يزيغ بهم عن طريق الرشاد، أما العارف فإنه شكور غير كفور، على الضراء

صبور، قد خبر الحياة وعلم ما فيها، فلا يسره مال، ولا تفرحه نعمة، ولا تبطره رفاهية، ولا تغره دنيا، بل هو في كل ذلك ناظر إليها نظر شكر، غير مفتون بها، ولا مباه بكثرتها، ولا ميال إلى زخرفها، وهو ينفقها في مرضاة الله تعالى، فكانت نعمة عليه ونعمة على غيره.

## ١٧٥- رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ الْمَزِيدِ في الْفَاقَاتِ مَا لاَ تَجِدُهُ في الصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ

لا يزال ابن عطاء يحلق بالمريد في فضاء واسع من الحكمة والمعرفة والقرب من الله عز وجل، وتهوين الدنيا في نظره حتى لا يغره فيها بسط، ولا يحزنه فيها قبض، فيبين في هذه الحكمة أن الفاقات وهي المحن والبلايا ربما وجد فيها العارف بالله عز وجل من صفاء النفس وطهارة القلب وكثرة الحسنات ما لا يجده في العبادات، لأن الفاقات مباينة للهوى والشهوات، بخلاف العبادات فإن حظ النفس فيها قد يعتريها، وقد يعتمد عليها.

يضاف إلى ذلك أن المحن والبلايا يكون العبد فيها مضطرا إلى مولاه، والمضطر مجاب الدعوة، فقد قال الله عز وجل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾(١).

فإن حكمة الله واسعة، وهو بمصالح العباد أعلم من العباد، وغدا يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله عليها كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه، إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب، والبلاء من الله تعالى تأديب، وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد.

والبلايا على مقادير الرجال، فكثير من الناس تراهم ساكتين، راضين بما عندهم من دين ودنيا، وأولئك قوم لم يرادوا لمقامات الصبر الرفيعة، أو علم ضعفهم عن مقاومة البلاء فلطف بهم.

أما العارف الذي يذوق لذة معرفة الله والقرب منه في كل شيء فإنه يجد في

---

(١) سورة النمل من الآية ٦٢.

البلايا متعة لا يجدها في العبادة، يقول ذو النون المصري رضي الله عنه: إن لله عباداً كانت البلايا عندهم عملا، والشدائد عندهم سكرا، والأحزان عندهم رطبا.

ومما يلزم الانتباه له هنا التفرقة بين ابتلاء المؤمن وعقاب الكافر والفاسق، فالمؤمن حين يبتلى يكون راضيا حامدا، ومن هنا كان الوقوف معه ومساندته في بلائه مما يؤجر عليه المسلم، لأنه يعينه على اختبار الله له، ويكون لطفه له في هذا البلاء.

أما الكافر والفاسق والعاصي لله تعالى حين ينزل به البلاء فإياك ان تعينه او تقف معه، لأن الله عز وجل يعاقبه فهل تقف أمام الله تعالى لترفع عقوبته عن عبده الآبق، إنك إن وقفت معه أو حاولت تخفيف البلاء حينئذ فإنك تكون معرضا لعقاب الله جل وعلا، ولذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾(١).

ويقول الحسن: خصلتان من العبد إذا صلحتا صلح ما سواهما: الركون إلى الظلمة، والطغيان في النعمة.

وقيل، وقع التحابب بين صالح وظالم، فعذب الصالح بميله للظالم، وغفر للظالم بمحبته للصالح.

## ١٧٦- الْفَاقَاتُ بُسُطُ الْمَوَاهِبِ

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن الفاقات والشدائد والمحن والبلايا هي التي تقرب العبد من ربه حتى تدخله حظيرة القدس، وتجلسه على بساط الإنس، فتحصل له المواهب الربانية، والعلوم اللدنية، والنفحات الرحمانية، والتجليات الإلهية، والمنزلة العلية عند مليك مقتدر.

والطريق إلى هذا الأمر ليس سهلا ميسورا، ولا معبدا بالدعة والراحة، بل هو طريق ملئ بالأشواك والمتاعب، والمحن والاختبارات القاسية، فلابد للمريد فيها أن يتحلى بصفات معينة ليصل إليها، يقول سهل بن عبد الله: اجعلوا طعامكم الشعير،

---

(١) سورة هود الآية ١١٣.

وإدامكم الجوع، وحلاوتكم التمر، ومالحكم الملح، ولباسكم الصوف، وبيوتكم المساجد، ودفاءكم – أو قال: رواقكم – الشمس، وسراجكم القمر، وطيبكم الماء، ودينكم الحذر، وعلمكم الارتضاء، وزادكم التقوى، وأكلكم بالليل، ونومكم بالنهار، وكلامكم الذكر، وهمتكم الفكرة والعبرة، وملجأكم وسندكم وناصركم المولى، ولباسكم الحياء، ومالكم الثقة، واجعلوا ضميركم على هذا إلى الممات، قال: ولا يتم هذا للعبد حتى يشاهد الله بقلبه، يعاين الغيب، وينكشف له اليقين، فتهون عليه الأمور الشدائد، وبمكاشفة اليقين مشوا على الماء وفي الهواء، ومن لم يعط هذا فليس في شيء.

فانظر إلى مقامك أيها المريد، هل يمكنك الوفاء بذلك والصبر عليه، إن صبرت نلت أعظم الدرجات، لأن الفاقات في حقك ستكن من بسط المواهب.

واعلم أن هؤلاء الأقوام أشرقت وجوههم في الدنيا بحسن المجاهدة، وتشرق وجوههم يوم القيامة بالقرب والمشاهدة، أشرقت وجوههم في الليل بنور السهر، وتشرق غدا بمشاهدة الحق إذا ظهر، أشرقت وجوههم في الدنيا بجريان الدموع على الخدود، وتشرق غدا في جنان الخلود.

اللهم اجعلنا من المقبولين، العابدين، الشاكرين، العارفين، المغفور لهم يا رب العالمين.

## ١٧٧- إِنْ أَرَدْتَ وُرُودَ الْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ صَحِّحِ الْفَقْرَ وَالْفَاقَةَ لَدَيْكَ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– في هذه الحكمة أن الإنسان في احتياج دائم لله عز وجل، لا يستغني عنه لحظة واحدة، وإلا كان في عالم العدم، فيقول: أيها المريد، إن أردت ورود المواهب الربانية والعطايا الإلهية عليك صحح الفقر والفاقة أي الحاجة لديك، بأن تتحقق من ذلك تماما، فلا يكون عندك استغناء عن مولاك، وحتى تتحقق من أنه لا يوجد في قلبك كبر ولا عجب ولا كدر يمنعك من ورود المواهب إليك، فقد

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[(١)]، لذا يطلق على المتصوفة صفة الفقراء.

وقد قال بعض العارفين:

إني إليك مدى الأنفاس محتاج     لو كان في مفرقي الإكليل والتاج

ومن صدق الافتقار إلى الله عز وجل أخذ الصدقة التي تصدق بها عليه، فإن قبلها من مولاه فهو الصادق في فقره، وإن لم يقبلها فهو الكاذب في فقره، وكم من فقير كذاب والعياذ بالله.

يقول محمد بن عبد الله الفراغاني: سمعت الجنيد وقد سئل عن الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى أهو أتم أم الاستغناء بالله تعالى؟ فقال: إذا صح الافتقار إلى الله عز وجل فقد صح الاستغناء بالله تعالى، وإذا صح الاستغناء بالله تعالى كمل الغنى به، فلا يقال أيهما أتم الافتقار أم الغنى، لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى.

وقال أبو حاتم ﷺ: القناعة تكون بالقلب، فمن غني قلبه غنيت يداه، ومن افتقر قلبه لم ينفعه غناه، ومن قنع لم يتسخط وعاش آمنا مطمئنا، ومن لم يقنع لم يكن له في الفوائت نهاية لرغبته والجد والحرمان.

وكان ذو النون يقول: سلب الغنى من حرم الرضا، من لم يقنعه اليسير افتقر في طلب الكثير.

ويقول سهل بن عبد الله: ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب إليه من الافتقار.

ولا يكون ورود المواهب إلا إذا افتقر إلى الله تعالى، ورب معصية تورث انكسارا وافتقارا خير من حسنة أورثته عزا واستكبارا، ولذا قيل: أنين المذنبين أحب إلى الله تعالى من زجل صوت المسبحين؛ لأن زجلهم يشوبه الافتخار، وأنين أولئك يشوبه الانكسار، والمؤمن حبيب الله يصونه ويصرفه عما يفسده إلى ما يصلحه والعجب

---

(١) سورة الأعراف من الآية ١٤٦.

يصرف وجه العبد عن الله والذنب يصرفه إليه؛ لأن العجب ينتج الاستكبار، والذنب ينتج الاضطرار ويؤدي إلى الافتقار، وخير أوصاف العبد افتقاره واضطراره إلى ربه، قيل هذا معنى قول بعض السلف: إن العبد يعمل الذنب يدخل به الجنة لخوفه من أجله، ويعمل الحسنة يدخل بها النار لكبره وعجبه وريائه بها.

## ١٧٨- تَحَقَّق بِأَوْصَافِكَ يُمِدُّكَ بِأَوْصَافِهِ، تَحَقَّقْ بِذَلِكَ يُمِدُّكَ بِعِزِّهِ، تَحَقَّق بِعَجْزِكَ يُمِدُّكَ بِقُدْرَتِهِ، تَحَقَّق بِضَعْفِكَ يُمِدُّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ

كثير من الناس تعجبه قوته المتهالكة، ويغره غناه الزائف، أو تملأ نفسه الكاذبة أمنية باطلة ومناصب عاطلة، فيظن نفسه شيئا وهو لا شيء، ويحسب لنفسه قيمة، ولا قيمة له، ويحسب نفسه قويا وهو أضعف الضعفاء، لذا جاءت هذه النصيحة للمريد لينظر لنفسه ويهذبها، فيبين أنه لابد للمريد أن ينظر إلى نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[(١)].

فإذا نظر المرء في نفسه وتحقق منها وجد أنه ذليل، عاجز، فقير، ضعيف، لا حول له ولا قوة إلا بالله عز وجل، وهذه هي الأوصاف الذاتية للعبد، أما القوة والعزة والغنى فهي أوصاف عارضة، وليست ذاتية، تزول وتأتي، وليس لها دوام، لأن دوام الحال من المحال.

أما صفات الله تعالى فهي الغنى المطلق، والعزة المطلقة، والقوة التي لا حدود لها، والقدرة المطلقة، فإذا تحقق الإنسان من صفاته، وجلس طول حياته على بساط الذل والعجز والضعف وقال: يا عزيز، يا قادر، يا قوي، مَن للذليل العاجز الضعيف سواك، وقال ذلك بصدق وتحقق، أمده الله بعزته وقدرته، وحوله وقوته، أي أنه إذا تحقق من أوصاف العبودية أمده الله بأوصاف الربوبية، فيكون بين الناس عزيزا قويا، مهابا غنيا، قادرا بالله عز وجل وليا، ويضفي صفاته إلى صفاته دون اتحاد أو حلول.

وقد طلب الله تعالى ذلك من عباده بأن يظهروا صفاتهم الأصيلة لينالوا صفات

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢١.

الله تعالى وتتنزل عليهم البركات، ففي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا، فليحمد الله ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه)(١).

## ١٧٩- رُبَّمَا رُزِقَ الْكَرَامَةَ مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الاسْتِقَامَةُ

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن الكرامة الحقيقية هي الاستقامة، لذا قالوا: خير كرامة الاستقامة، وليست الكرامة خرق العوائد، فقد قال رحمه الله: ربما رُزِق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة، فعند المحققين من أهل التصوف والمعرفة أن الكرامة التي هي الأمر الخارق للعادة قد تحدث من الأشخاص العاديين الذين لم تكمل لهم الاستقامة، وتكون لهم استدراجا، فالاستقامة خير كرامة، وهي اتباع كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ بالفهم المنير الواسع، لا الفهم المظلم الضيق الذي يؤدي إلى العسر والحرج كما يفهمه البعض، لذا قال أبو يزيد البسطامي: لو أن رجلا بسط مصلاه على الماء، وتربع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه في الأمر والنهي.

---

(١) أخرجه مسلم في الحديث رقم٢٥٧٧، الصحيح ٤/١٩٩٤.

وقيل: إن فلانا يمر في ليلة إلى مكة، فقال: إن الشيطان يمر في لحظة من المشرق إلى المغرب.

وقال بعض الحكماء: طريق الآخرة واحد، والناس فيه صنفان، فصنف أهل العدل، وصنف أهل الفضل، والعدل عدلان، عدل ظاهر فيما بينك وبين الناس، وعدل باطن فيما بينك وبين الله، وطريق العدل طريق الاستقامة، وطريق الفضل طريق طلب الزيادة، والذي على الناس لزوم العمل به طريق الاستقامة، وليس عليهم لزوم طريق الفضل.

فإن سأل سائل عن حقيقة الاستقامة قلنا له ما قاله العلماء العارفون: حقيقة الاستقامة أن لا يقابل ما استقبل من عمره بمثل ما وقع الاعوجاج به، وأن يتبع سبيل من أناب إلى الله، وأن لا يصحب جاهلا فيرديه، ثم الاشتغال بإصلاح ما أفسد في أيام بطالته، ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوا، فإن الله عز وجل لا يصلح عمل المفسدين، كما لا يضيع أجر المحسنين، ثم الاستبدال بالصالحات من السيئات، والصالحات من الحسنات ليكون ممن تبدل سيئاته حسنات لتحققه بالتوبة وحسن الإنابة، لأن التبديل يكون في الدنيا، يبدل بالأعمال السيئة أعمالا حسنة.

## ١٨٠- مِنْ عَلاَمَاتِ إِقَامَةِ الْحَقِّ لَكَ فِي الشَّيءِ: إِقَامَتُهُ إِيَّاكَ فِيهِ مَعَ حُصُولِ النَّتَائِجِ

لما بدأ ابن عطاء –رحمه الله– في الحديث عن الاستقامة والكرامة، وبين أن الاستقامة أولى من الكرامة، بدأ في بيان بعض معانيها ولطائفها، فكانت هذه الحكمة البديعة التي يبين فيها أن الإنسان قد يقيم نفسه، فيقول على نفسه، فيكله الله إليها، فيتخبط في حياته بدون ثمرة ولا فائدة، وقد يقيمه الله عز وجل في الشيء، فبين ابن عطاء الله رحمه الله علامة إقامة الله –عز وجل– للعبد في الشيء، وهي وجود ثمرات ونتائج هذه الإقامة، مع دوام الحال وتحقق المراد من وجود الثمرات، وسلامة الدين، ووجود الربح والكسب الحلال الطيب، هذا كله دليل على إقامة الله للعبد.

من لم يكن مستقيما في صفته لم يرتق من مقامه إلى غيره، ولم يبن سلوكه على صحة.

ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله: اهدنا الصراط المستقيم، إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

وليعلم المريد أنه مهما صفت القلوب استغنى عن تكلف إظهار ما فيها، ومن كان نظره إلى صحبة الخلق فتارة يعوج وتارة يستقيم، ومن كان نظره إلى الخالق لزم الاستقامة ظاهرا وباطنا، وزين باطنه بالحب لله ولخلقه، وزين ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده، فإنها أعلى أنواع الخدمة لله، إذ لا وصول إليه إلا بحسن الخلق، ويدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة.

واعلم أن الله –عز وجل– إذا أراد بعبد خيرا بصّره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عين نفسه.

ولذا يقول العلماء: من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه، فإن من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره، ومن خفي عليه عيب نفسه، ومحاسن غيره، فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرف، ولن ينال محاسن غيره التي لا يبصر أبدا.

وروي عن عمر ﵁: كفى بالمؤمن من الغي ثلاث، يعيب على الناس بما يأتي به، ويبصر من عيوبهم ما لا يبصر من عيوب نفسه، ويؤذي جليسه فيما لا يعنيه.

ولا يتحصل ذلك إلا إذا جعل المرء من نفسه واعظا لنفسه، وقد كان النبي ﷺ ينبه صحابته على ذلك فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خطب على ناقته فقال: (يا أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب، وكأن من نشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون، نبوئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم، قد نسينا كل واعظة، وأمنا كل جائحة، طوبى لمن شغله عيب نفسه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، ورحم أهل الذل

والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبى لمن أذل نفسه، وحسنت خليقته، وصلحت سريرته، وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنة، ولم يعدها إلى بدعة)[1].

**١٨١- مَنَ عَبَّرَ مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِه أَصْمَتَتْهُ الإِسَاءَةُ، وَمَنْ عَبَّرَ مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِ اللّه إِلَيْهِ لَمْ يَصْمُتْ إِذَا أَسَاءَ**

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن الناس نوعان، فمنهم من يتكلم من بساط إحسانه، ومنهم من يتكلم من بساط إحسان الله إليه، فالأول يتكلم اعتمادا على نفسه وعمله الطيب، أو يعتمد على ذلاقة لسانه وحلاوة تعبيره، متباهيا بما انعم الله عليه من حسن البيان، وطلاوة التعبير، وطلاقة التفكير، وحسن الرد، وشدة الفهم كما يتوهم، والثاني يتكلم اعتمادا على ربه، فهو يتخلى من حاله إلى الله، يعلن عجزه عن التعبير إلا بالله، فهو يملك حلاوة منطقه، وروعة قلبه، ودقة عبارته.

والأول ينبسط لسانه بالنصيحة والموعظة للناس، ويعبر من بساط إحسانه اعتمادا على أعماله الصالحة، فإذا ما تذكر سيئاته أصمتته أي أسكنته الإساءة فينقبض عن التعبير عند صدور المعصية منه، وقد يتكلم بالكلمة الجميلة ولكنها لا تصل إلى القلب، لأنها خرجت من اللسان فما جاوزت الآذان.

وأما الثاني وهو العارف بالله، الذي يعبر من بساط إحسان الله إليه، فإنه لا ينقبض، ولا يصمت إذا أساء، ولم يسكت عن التعبير إذا صدرت منه معصية، لأن غيبته عن نفسه، ومشاهدته لوحدانية ربه وفاعليته أطلقت لسانه، وجعلته جريئا على ذلك، لأنه يعلم أن الله خلقه وخلق عمله، فلا ينسب لنفسه شيئا.

ولذا قال العلماء في صنوف العالم: اعلم أن من عمل بعلم أو نطق به فأصاب الحقيقة عند الله تعالى فله أجران، أجر التوفيق وأجر العمل، وهذا مقام العارفين، ومن نطق بجهل أو عمل به وأخطأ الحقيقة فعليه وزران، وهذا مقام الجهال، ومن قال أو

---

(١) أخرجه البزار في الحديث رقم٦٢٣٧، البحر الزخار ٣٤٨/١٢.

عمل بعلمه وأخطأ الحقيقة فله أجر لأجل العلم، وهذا مقام علماء الظاهر، ومن قال بجهل أو عمل عملا وأصاب الحقيقة فعليه وزر لتركه طلب العلم، وهذا مقام جهلة العابدين.

وقال الشعبي: يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم: ما أدخلكم النار، وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم؟ فيقولون: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله، وننهى عن الشر ونفعله.

وقال حاتم الأصم رحمه الله: ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به، ففازوا بسببه وهلك هو.

وقال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا.

وما أجمل قول الشاعر:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما ... إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا ... فالموبقات لعمري أنت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها ... وأنت أكثر منهم رغبة فيها

## ١٨٢- تَسْبِقُ أَنْوَارُ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ، فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ وَصَلَ التَّعْبِيرُ

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن الكلام لا يصل إلى القلوب والأسرار إلا إذا كان نورا من الله عز وجل أي موجب، أما لو خرج سالبا أي ظلاما فلا يصل للأفهام، وهنا يبين أن كلام العارفين الذين سماهم بالحكماء تسبق أنوارهم أقوالهم، أي تسبق الأنوار فتصل إلى القلوب والأفهام قبل النطق بالكلام، لأن هذه الأنوار هي المدد الذي أمدهم الله به، فيخرج من قلوبهم أنوار ناشئة من نور أسرارهم تسبق أقوالهم، فحيث صار وحصل التنوير في قلوب العارفين وصل التعبير إلى قلوب السامعين، فينتفعون بأقوالهم في جميع شؤون حياتهم، فليس العبرة بالوعظ والكلام الذي يصل الآذان، وإنما العبرة بالأنوار والأسرار التي تصل إلى القلوب والأفهام، فحيث صار التنوير وصل

التعبير، فالعارف بالله الذي يسمى حكيما تأتيه الواردات النورانية من الله ومن الأولياء، فتقذف في قلوبهم، فتقذفها قلوبهم إلى عقولهم، فتحولها العقول إلى ألسنتهم، فتخرج كلاما طيبا ينتفع به المخلصون من العباد.

ومنبع الحكمة كلها القلب، فمتى صلح القلب صلح حاله كله، فليراقب المرء قلبه قبل لسانه، يقول بعض الحكماء القلب مثل بيت له ستة أبواب، ثم قيل لك احذر ألا يدخل عليك من أحد الأبواب شيء فيفسد عليك البيت، فالقلب هو البيت، والأبواب: العينان، واللسان، والسمع، والبصر، واليدان، والرجلان، فمتى انفتح باب من هذه الأبواب بغير علم ضاع البيت.

أما من فسد قلبه فقد قلت بضاعته، فلا ينفعه حلاوة حديث، ولا طلاوة عبارة، ولا ينفعه عمل أداه، ولا فرض قام به، وقد روي عن بعض الحكماء أنه قال: مثل من يعمل الطاعات للرياء والسمعة كمثل رجل خرج إلى السوق، وملأ كيسه حصاة، فيقول الناس ما أملأ كيس هذا الرجل، ولا منفعة له سوى مقالة الناس، ولو أراد أن يشتري له شيئا لا يُعطى به شيء، كذلك الذي عمل للرياء والسمعة لا منفعة له من عمله سوى مقالة الناس، ولا ثواب له في الآخرة.

فاجعلنا اللهم ممن أنرت قلوبهم بحكمتك، وقبلت أعمالهم، ورفعت أقدارهم، وأبعدتهم عن الدونية بكل ألوانها وأطيافها.

## ١٨٣- كُلُّ كَلَامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ الْقَلْبِ الَّذِى مِنْهُ بَرَزَ

بعد أن بين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن الكلام طبع لصاحبه جاء في هذه الحكمة الغالية ليبين للمريد الاهتمام بالقلوب، كما قال الحبيب المحبوب ﷺ: (ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[١].

ومعنى الحديث أنه إذا صلحت للعبد نيته دامت للعبد استقامته، وإذا خلص

---

(١) سبق تخريجه.

وصفا من شوب الكدر والهوى خلصت الأعمال من الرياء، وصفت من الشهوات والأهواء، وإذا فسدت نيته بحب الدنيا فسدت أعمال الجوارح بحب المدح والرياء.

ولذا قال بلال بن سعد: إن العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه، فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى، فإن صلحت نيته فبالحري أن يصلح ما دون ذلك.

فكل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي برز منه، فإن كان القلب سليما من الأغيار والأكدار ومليئا بالأنوار والأسرار فإن اللسان الذي هو ترجمان القلب تخرج منه هذه الإشراقات والأنوار كلاما طيبا، ينتفع به السامعون، ويزدادون لسماعه سرورا.

وإن كان القلب مليئا بالأكدار والأغيار خرج الكلام ظلاما تكدر به السامع، وقسى قلبه، لهذا قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾[١].

ولكي يكون القلب عامرا لابد أن يتعاهده صاحبه بالكلمة الطيبة، والحكمة العالية، فقد قال لقمان لابنه: يا بني، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله تبارك وتعالى ليحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

وقال الإمام الغزالي: إن أردت حفظ الجوارح فعليك بتطهير القلب؛ فهو تقوى الباطن، والقلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد، فاشتغل بإصلاحه لتصلح به جوارحك، وصلاحه يكون بملازمة المراقبة.

---

(١) سورة إبراهيم الآيات ٢٤، ٢٥، ٢٦.

## ١٨٤- مَنْ أُذِنَ لهُ في التَّعْبيرِ فُهِمَتْ في مَسامِعِ الخَلْقِ عِبارَتُه، وَجُلِّيَتْ إليْهِمْ إشارَتُهُ

كثير من الناس لا يدري أن كل النعم هبات من الله تعالى، وأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فمن تفضل الله عليه وأذن له في التعبير من العارفين عن الحقائق والعلوم اللدنية فهمت في مسامع الخلق عبارته، فلم يحتج إلى معاودة شرح، وتكرار بيان، وجليت أي ظهرت إشارته إليهم، فلم يحتاجوا معها إلى إظهار وإطناب وتفصيل، بخلاف غير المأذون له من العارفين، كما سيأتي في الحكمة التالية.

فليس كل العارفين في درجة الفهم والتعبير سواء، بل ميز الله تعالى بينهم، ومنح كلا منهم ما يشاء من فضله، ومن أفضل المنن أن يأذن الله له في التعبير، فهنا يخرج الكلام منه سلسا رقراقا، لا اعوجاج فيه، ولا غموض، يخرج منه ولا يدري كيف كان، لأنه من عند الله تعالى يلقيه في روعه، ويخرجه على لسانه، وليس له فيه اجتهاد، وإنما هو علم ناتج عن التقوى، وهو علم لدني من الخالق جل وعلا، فهل يقع أن يجادل في هذا مجادل، أو يحاول أن يقلده متطفل أعوج!!

لا شك أن البيان نعمة من المبين على ألسنتنا جل وعلا، فليفهم المريد أن من أذن الله له في التعبير جعل عبارته مسموعة في آذان الخلق، واقرة في قلوبهم، محبوبة إلى نفوسهم، راكزة في أذهانهم، تصل إليهم بأسرع طريق، كأن القلب يحدث القلب، وليس كلاما يقرع الأسماع.

فكن أيها المريد عند حدود الأدب، واعلم ذلك جيدا، ولا تعاند من أذن الله له، أو تحاول أن تجعل اجتهادك كسبيا بتلوين العبارة، وتذويق الإشارة، ولوك اللسان بمعسول الكلام، دون إخلاص من القلوب، وتسليم من الروح، وكسب من العلي العظيم.

## ١٨٥- رُبَّما بَرَزَت الحَقَائقُ مَكْسُوفَةَ الأنْوَارِ إذا لم يُؤذَنْ لك فيها بالإظْهَارِ

لا زال ابن عطاء –رحمه الله– يحلق بالمريد في آفاق عالية من الحكمة والموعظة الحسنة، ولا زال يبين أصناف العارفين من يأخذ عنهم ومن يترك منهم،

فيذكر أن الحقائق وهي العلوم والمعارف الإلهية إذا لم يأذن بها الله تعالى بالإظهار على ألسنة العارفين فإنها تخرج مكسوفة الأنوار، فتمجها المسامع، ولا يكون لها سطوة واستبصار على قلوب وأسماع المستمعين، فقد شبه الحقائق التي لم يؤذن لصاحبها بإظهارها كالمرأة المكسوفة شديدة الحياء، التي تقدم رجلا، وتؤخر أخرى حياءً من الرجال، فتكون أنوار الحقائق هكذا.

لذا قال سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل وتفهم من أحدهما وترد على الآخر، ويقول في مقام آخر: إن الرجل قد يكون مشحونا بالعلوم والمعارف، والحقائق لديه مشهودة، ولا يمكنه التحدث بها، حتى إذا أُعطي العبارة كان كالإذن من الله له فينطلق.

فالعمل قبول، والكلام قبول، فمن قبل الله قوله وأذن له في التعبير خرج الكلام من فمه نورا، ووصل إلى السامع ولو كان عاميا، ومن كان كلامه ظلاما خرج الكلام من فمه معقدا لا يُفهم، غامضا لا يُدرك، ويُرد على صاحبه، ولا ينتفع به سامع.

يقول فضيل بن عياض رحمه الله: إذا كان العالم راغبا في الدنيا حريصا عليها، فإن مجالسته تزيد الجاهل جهلا، والفاجر فجورا، وتقسي قلب المؤمن.

وقال سهل التستري رحمه الله: العلماء ثلاثة، عالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله، وهم المفتون في الحلال والحرام، وهذا العلم لا يورث الخشية، وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله، وهم عموم المؤمنين، وعالم بالله تعالى، وبأمر الله تعالى، وبأيام الله تعالى، وهم الصديقون، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم، وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة، ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة، فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه، وظهر خشوعه.

## ١٨٦- عِبَارَاتُهُمْ إِمَّا لِفَيَضَانِ وَجْدٍ، أَوْ لِقَصْدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ، فَالأَوَّلُ حَالُ السَّالِكِينَ، وَالثَّانِي حَالُ أَرْبَابِ الْمُكْنَةِ وَالْمُحَقِّقِينَ

لا زال ابن عطاء -رحمه الله- يحلق في فناء العبارة والتعبير، وما يقع على ألسنة العارفين من حلاوة العبارات التي قد تغمض على فهم العوام، وتدركها قرائح الخواص، فيبين هنا أن عبارات العارفين بالله -عز وجل- لا تخرج عن أحد أمرين:

الأمر الأول: فيضان وجد.

والأمر الثاني: قصد هداية مريد.

أما الأمر الأول، وهو فيضان وجد السالكين للعلوم والمعارف الباطنية فيخرج قهرا عنهم، لأنه إذا زاد الإناء طف، وهذا حال السالكين المهديين تظهر الحقائق على ألسنتهم من شدة الوجد، وزيادة المعارف، وهؤلاء علماء الآخرة، وأهل الملكوت، وأرباب القلوب، وهم المقربون من أصحاب اليمين.

ولهذا قال المشايخ: الوجد المصادفة، والمواجيد ثمرات الأوراد، فكل من ازدادت وظائفه ازدادت من الله تعالى لطائفه.

ولهؤلاء علامات خاصة وطرق متفردة، يقول الشبلي:

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة ... وأيسر ما في الذكرِ ذكرُ لساني
وكدت بلا وجدٍ أموت من الهوى ... وهام على القلب بالخفقان
فلما أراني الوجدُ أنك حاضري ... شهدتك موجودا بكل مكان
فخاطبت موجودا بغير تكلّمٍ ... ولاحظت معلوما بغير عيان

والأمر الثاني: وهو أن العلوم والمعارف تخرج على ألسنتهم بقصد هداية مريد، وهم أرباب المكنة، أي التمكين المتحكمين في وجدهم، فيلزمهم ذلك لما فيه من الإرشاد إلى سلوك سبيل الهدى والرشاد.

أما من عبر لا عن فيضان وجد كان دعيا كذابا، وإذا عبر المتمكن لغير هداية مريد كان ذلك من إفشاء السر الذي لم يؤذن له فيه بالإباحة، فاتق الله واحذر التقليد

فتهلك.

## ١٨٧- الْعِبَارَاتُ قُوتٌ لِعَائِلَةِ الْمُسْتَمِعِينَ وَلَيْسَ لَكَ إِلاَّ مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن فهم الإنسان للمعاني يختلف باختلاف الناس، فكل إنسان له رزق في الفهم، كما أن له رزقا في المال، فيقول إن العبارات التي يعبر بها العارفون بالله عن العلوم والمعارف اللدنية هي من حيث معناها قوت لأرواح المستمعين، كما أن الأطعمة والأشربة الحسية قوت للأبدان، والأقوات المعنوية تختلف باختلاف الطبائع كالأقوات الحسية، فإن بعض الأطعمة قد تصلح لشخص دون آخر، للاختلاف في الطبيعة والمزاج، كذلك الأقوات المعنوية، منها ما يصلح لواحد دون آخر، وليس لك إلا ما أنت آكل، أي ليس لك من كلامهم إلا ما فهمته عنهم، لاختلاف المذاهب، وتباين المطالب، فقد تُلقى العبارة على جماعة فيفهم كل واحد منهم ما لا يفهمه الآخر، وقد يفهم بعضهم من الكلام معنى لم يقصده المتكلم، وذلك لقول الله عز وجل: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾(١)، وقد سمع فتى قائلا يقول:

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فإن الوقت ضاق عن الصغار

فخرج الفتى هائما على وجهه حتى وصل مكة، ولم يزل مجاورا بها حتى مات.

فالفهم يختلف من إنسان إلى آخر، وهو قوت وشراب، فلينظر كل إنسان أين مشربه، وليبحث كل واحد عما يوافق طبعه، وأنى لمن أبعده الله عن المعاني أن يذوقها، وكيف لمن حرم الفهم أن يسبر غورها، أو يستجلي صعائبها.

وأذواق الناس في الانتقاء والتمتع بالحكم والعلوم والمعارف متفاوتة، فهناك من يستلذ بما يسمع أيما لذة، وتدخل الكلمة قلبه فيهيم على وجهه، ولا يتحمل، فيصرخ، وهناك دَعْيٌّ يؤدي حركات ولم تخالج الحكمة قلبه، ولا مست حواسه، ولا نورت

---

(١) سورة البقرة من الآية ٦٠.

بصيرته، والناس في طلبها كذلك متفاوتون، فهناك من لا يهمه إلا لقمة يأكلها، أو شربة يشربها، فهو كالبهائم لا تشغله إلا شهوتا البطن والفرج، وهناك من يعدها من أهم متاع الدنيا، بل هي عنده لذة العيش، يقول أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا، الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب الثمر.

وكان العلماء يقولون في الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى إنها عشرة، وهي:

أحدها: قراءة القرآن بالتّدبّر والتّفهّم لمعانيه وما أريد به.

الثّاني: التّقرّب إلى الله بالنّوافل بعد الفرائض، فإنّها توصّله إلى درجة المحبوبيّة بعد المحبّة.

الثّالث: دوام ذكره على كلّ حال، باللّسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبّة على قدر نصيبه من هذا الذّكر.

الرّابع: إيثار محابّه على محابّك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلّبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبّه لا محالة.

السّادس: مشاهدة برّه وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظّاهرة، فإنّها داعية إلى محبّته.

السّابع: وهو من أعجبها، انكسار القلب بكلّيّته بين يدي الله تعالى. وليس في التّعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب، والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم يختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

العاشر: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر.

## ١٨٨- رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَقَامِ مَنِ اسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ وَذَلِكَ مُلْتَبَسٌ إِلاَّ عَلَى صَاحِبِ بَصِيرَةٍ

لا زال ابن عطاء –رحمه الله– يحلق بنا في سماء صافية وجو منعش من حكم ذهبية، يتقلب بنا في تهذيب النفس، وتشذيب القلب، وغذاء العقل والروح، وهنا ينتقل بالحديث إلى حكمة بديعة، تستغلق على كثير من الناس، فيقول إن الكلام يعبر عما في باطن الإنسان، لذلك جعل الله –عز وجل– الإيجاب والقبول دليلا على الرضا الباطني للإنسان، ولذا قيل: تكلموا تُعرفوا، وقال بعض الحكماء: عقل المرء مخبوء تحت لسانه.

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة في الكلام، ويقول: إذا جالست الجهال فأنصت لهم، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم، فإن في إنصاتك للجهال زيادة في الحلم، وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم.

وقال الشاعر:

لسان الفتى نصف ونصف فؤادُه ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وهذا ما يؤكده ابن عطاء الله –رحمه الله– في تلك الحكمة، حيث يذكر أن من اطلع وتحقق في مقام من مقامات اليقين، كمقام التوبة والإنابة، والورع والزهد، والتوكل والخوف، والرجاء والمحبة، وغير ذلك من المقامات، فإن من وصل إليه وتحقق فيه فإن له أن يعبر عنه ويتكلم فيه، ويعبر أيضا من استشرف عليه وقارب الوصول إليه ولم يتحقق فيه، وذلك التعبير ملتبس على من يسمعه منهما، أي على من وصل إليه وعلى من استشرف عليه، إلا على صاحب البصيرة منهما، فإنه يرى من الكلام صورة المتكلم الباطنة من كمال أو نقص، لذا قالوا: لن يتكلم في الله إلا العارف بالله ذي البصيرة، لأن ذوو البصيرة لهم عيون ترى ما لا يرى الناظرون، وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين، ولا يرى الخصوصية إلا صاحب الخصوصية.

## ١٨٩- لا يَنْبَغي لِلسّالِك أنْ يُعبِّرَ عَنْ وارِداتِه؛ فإنَّ ذلِكَ يُقِلُّ عَمَلَهَا في قَلبِهِ ويَمْنَعُهُ وُجودَ الصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أمرا خطيرا يقع فيه بعض السالكين، وهو التعبير عن كل ما في قلبه، والحديث عن كل ما يرد عليه، مع أن الكلام إذا كان من فضة فإن السكوت من ذهب، فالمريد لا يتحدث ويعبر عن الواردات التي تأتيه من الله عز وجل من العلوم اللدنية، والأسرار والأنوار الإلهية اختيارا منه، وبدون شدة وجد أو هداية مريد، بل يصونها عن جميع الناس إلا عن شيخه، لأن إفشاءها للغير يقل عملها في قلبه، فلا يجعل له كمال الانتفاع بها، كذلك التحدث بها يمنعه وجود الصدق مع ربه، لأن النفس إذا تحدث بها اشرأبت، ووجدت لذة في هذا الكلام، فيغلب عليه حظ النفس.

وغير هذا فإن كثرة الكلام يقسي القلب، ويقل البهاء والمهابة، ويعقم الحكمة، ويكثر السقط.

وقد تواردت النقول والشواهد من العارفين للتحذير من كثرة الكلام، وقلة العمل، والتحدث بكل وارد وخاطر، فقد كان الفضيل بن عياض يقول: شيئان يقسيان القلب، كثرة الكلام، وكثرة الأكل.

وقال سفيان الثوري: أول العبادة الصمت، ثم طلب العلم، ثم العمل به، ثم حفظه، ثم نشره.

وقال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقل من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاء وأعظمهم بلاء من ابتلى بلسان مطلق وفؤاد مطبق، واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها، ويضع كل خصلة منها في موضعها، هو أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وناطق يرد به الجواب، وحاكم يفصل به الخطاب، وشافع تدرك به الحاجات، وواصف تعرف به الأشياء، وحاصد يذهب الضغينة، ونازع يجذب المودة، ومسلٍّ يذكي القلوب، ومعزٍّ تُرد به الأحزان.

وما أبدع قول الشاعر:

إن كان يعجبك السكوت فإنه قد كان يعجب قبلك الأخيارا
ولئن ندمت على سكوت مرة فلقد ندمت على الكلام مرارا
إن السكوت سلامة ولربمـــا زرع الكـــلام عداوة وضرارا
وإذا تقرب خاسر من خاسر زادا بذاك خســـارة وتبـــارا

وليحذر الإنسان من إغراء النفس بالكلام، وتحليته لصاحبها، فقد قيل: إن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك، اللهم أعنا على هدايتها، آمين.

**١٩٠- لاَ تَمُدَّنَّ يَدَكَ إِلَى الأَخْذِ مِنَ الْخَلاَئِقِ إِلاَّ أَنْ تَرَى أَنَّ الْمُعْطِى فِيهِمْ مَوْلاَكَ، فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ فَخُذْ مَا وَافَقَكَ الْعِلْمُ**

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن المعطي في الحقيقة هو الله، وأن الأسباب كلها مخلوقة لا تعطي شيئا، فهي عاجزة عن الإعطاء، وكذلك الخلائق لا يملكون شيئا حتى يعطوه إلى الخلائق، فيقول في هذه الحكمة: لا تمدن يدك أيها المريد، يا من تريد معرفة الله –عز وجل– إلى الأخذ من الخلائق إلا بشرطين.

الشرط الأول: أن ترى أن المعطي هو الله في الحقيقة، فلا ترى العطاء الذي يصل إليك من أي إنسان إلا من الله عز وجل حقيقة، وأن عطاء الخلق مجاز، فليكن باطنك التوحيد، وظاهرك الدنيا، وأن الخلق أسباب ووسائط، فلا تعلق قلبك بهم.

فإن كنت كذلك فحقق الشرط الثاني، وهو خذ ما وافقك العلم، أي خذ علم الظاهر على يد مكلف، رشيد، تقي، من أهل الشهادة، وخذ علم الباطن على يد شيخ عارف ورع، وبقدر حاجتك، بغير استشراف نفس وطمع، حتى تستطيع السير في الطريق، وتأدب بآدابهم في جميع أحوالك.

وضع في يقينك أنه إذا كان المعطي هو المانع فمن يعط؟، ولو كان الخير كله في قلب عبد ما قدر أن يوصل إلى قالبه من قلبه ذرة، ولا استطاع أن ينفع نفسه بنفسه خردلة، لأن قلبه وإن كان جارحته فهو خزانته، وله فيه ما لا يعلم هو، فهو لا يطلع

على ما فيه.

قال عبد الله بن مسعود: التوكل جماع الإيمان، وقد يبتلى المتوكل في توكله بالأسباب، والأشخاص، والأغراض، وضروب المعاني، كما يبتلى سائر أهل المقامات، ويبقى عليه من العدو نزغ وطيف لا غير، دون الاقتران والاستحواذ، يختبر بذلك صدقه في توكله حتى يرد في جميع ذلك نظره إلى وكيله، ليجزى جزاء الصادقين المقربين، أو ليكشف له دعواه، فيعلم كذب نفسه، فيكون مردودا إلى التوبة.

## ١٩١- رُبَّمَا اسْتَحْيَا الْعَارِفُ أَنْ يَرفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلَاهُ لاكْتِفَائِه بِمَشِيئَتِه فَكَيْفَ لاَ يَسْتَحِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَى خَلِيقَتِه؟

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– في هذه الحكمة علامة اعتماد العبد على مولاه، وهي ألا يرى أحدا في حياته سواه، فيعتمد عليه في جميع أموره، جلّت أو دقّت، كبرت أو صغرت، كثرت أو قلّت، فالعارف بالله ربما استحيا منه، فلا يسأله اكتفاء بما قضاه وقدره له في الأزل، فكيف لا يستحي من رفع حاجته إلى بعض العبيد، وهو يعلم أنهم فقراء إلى الله تعالى لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، فإذا كان يستحي أن يطلب من القادر المقتدر السميع العليم القائل في محكم تنزيله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(١)، فكيف يطلب من العاجز الفقير المحتاج!!.

فمن علامات المعرفة بالله الاستحياء منه، اكتفاء بالمشيئة، كما فعل سيدنا إبراهيم –عليه السلام– بعد أن ألقوه في النار بالمنجنيق، فعرضت له الأكوان قائلة: ألك بنا حاجة؟، فقال عليه السلام: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى، فقالت له: سله، فقال إبراهيم عليه السلام: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فقال الله –عز وجل– للنار: كوني بردا وسلاما على إبراهيم، وهذا بيان للمعتبرين وهداية للمستبصرين، وهو أن من خرج عن تدبيره لنفسه تولاه الله –عز وجل– بحسن التدبير له، فلما لم يسأل الله –عز وجل– النجاة وسلم نفسه لله سبحانه كان عاقبة استسلامه وجود السلامة، والإكرام من

---

(١) سورة غافر من الآية ٦٠.

العزيز المنان.

وإنما كان ذلك لأن الدنيا بحر عميق، من ولج فيه بغير علم غرق، ومن حسن التدبير للنفس ترك التدبير لله الواحد الأحد، لأن الطمع في الدنيا وطلب الأسباب فيها لا ينتهي، فلا يصل الإنسان إلى شيء حتى تمنيه النفس غيرها، ولو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا، وعلاج ذلك لا يكون إلا بأمور:

الأول: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق، وهو الأصل في القناعة، فإن من كثر خرجه، واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة، وفي الحديث: (ما عال من اقتصد)[١]، وعنه ﷺ: (ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب)[٢]، وكان ابن عباس يقول: القصد، والتؤدة، وحسن السمت، والهدي الصالح جزء من بضعة وعشرين جزءا من النبوة.

الثاني: أن يتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه، وإن لم يشتد حرصه.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الحرص والطمع من الذل والمداهنة.

الرابع: أن يكثر تأمله في تنعم الكفرة والحمقى، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء، ويستمع أحاديثهم، ويطالع أحوالهم، ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة الفجار أو الأبرار، فيهون عليه الصبر على القليل، والقناعة باليسير.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرنا في آفات المال، ويتم ذلك بأن ينظر أبدا إلى من دونه في الدنيا، لا إلى من فوقه، فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة، وعماد الأمر الصبر.

لذا لما سئل سيدي أبو الحسن الشاذلي عن الكيمياء[٣]، قال: أخرج الخلق من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم٤٢٦٩، المسند ٣٠٢/٧.

(٢) أخرجه البيهقي في الحديث رقم٦٨٦٥، شعب الإيمان ٣٩٦/٩.

(٣) ويقصد بها هنا تخليص القلب عن الكون باستئثار المكون.

قلبك، واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك.

وقال: ليس يدلك على فهم العبد كثرة عمله، ولا مداومة ورده، وإنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه، وتحرره من رق الطمع، وتحليه بحلية الورع.

نسأل الله نور المعرفة وحسن الأدب، آمين.

## ١٩٢- إِذَا الْتَبَسَ عَلَيكَ أَمْرَانِ، فَانْظُرْ إِلى أَثْقَلِهِمَا عَلَى النَّفْسِ فَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ لَا يَثْقُلُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا كَانَ حَقًا

يعرج ابن عطاء الله -رحمه الله- إلى تربية وتهذيب النفس، وكيفية محاسبتها، وتكون البداية في هذه الحكمة التي يضع بها ميزانا لدى المريد يعرف بها نفسه، وكيف يفرق بين الحق والباطل، فيقول له إن النفوس دائما وأبدا تميل إلى الدعة والراحة والهوى، وهذا هو حظها من الدنيا، وتنفر من الحقوق والواجبات والأوامر والنواهي، فالعاقل الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله.

فأنت في الحياة لو التبس عليك أمران واجبان تطلب الرزق أو تطلب العلم، أو مندوبان، كانشغالك بالنوافل أو مساعدة المحتاجين، فانظر أيهما أثقل على النفس فألزمها به، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا، فالشيء الذي تكرهه النفس ويثقل عليها هو الذي يهذبها ويروضها، فيكون نافعا لها.

وهذا الكلام للنفوس التي لم تصل إلى الاطمئنان، أما النفوس المطمئنة دائما فإنها تختار ما هو أنفع لها وأكثر ثوابا، وكل إنسان هو أعلم بنفسه وما يصلحها، فقد قال المولى عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(١).

فإذا قطع عليها العبد الطمع من أسباب الدنيا، وغلب بعقله هواها رجعت بطمعها إلى أسباب الآخرة لا محالة، لأنها بُنيت على الطمع، فإذا تجردت من أسباب الدنيا وأقبلت على نفسها بالإياس من المخلوقين رجعت برغبتها وطمعها الى أسباب الآخرة،

---

(١) سورة الشمس الآيتان ٩، ١٠.

فجدت في طلبها، واجتهدت، وعزفت عن الدنيا، وباينت الهوى، وخالفت العدو، وتبعت العلم، وكانت مطية للعقل، صابرة على مُرّ ما يدل عليه الحق، فنجت وأنجت.

وما أجمل قول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم يا فطالما استعبد الإنسان إحسان
خادم الجسم كم تشقى بخدمته أتطلب الربح فيما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وإن أساء مسيء فليكن لك في عروض زلته صفح وغفران
وكن على الدهر معوانا لذى أمل يرجو نداك فإن الحر معوان
واشدد يديك بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان
مَن يتق الله يُحمد في عواقبه ويكفه شر من عزوا ومن هانوا
من استعان بغير الله في طلب فإن ناصره عجز وخذلان

## ١٩٣- مِنْ عَلاَمَاتِ اتبِّاَعِ الْهَوَى الْمُسَارَعَةُ إِلَى نَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ، وَالتَّكَاسُلُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن الفرائض والواجبات أولى من النوافل، فمن كان عليه فرض من الفرائض، مثل صوم رمضان، أو صلاة فرض تركها لعذر مرض وما إلى ذلك فالأولى أن يأتي بها قبل النوافل، وهنا ينبه بأن من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى النوافل، فإن النفس لها حظ في كثرة النوافل، بأن تذكر بين الناس بالصلاح، وتتكاسل ويثقل عليها القيام بالفرائض والواجبات التي لا حظ لها فيها.

ولذا كان العارفون بالله يقيمون حدود الله بما لا يجعلهم مقصرين في الفرائض، ولو تركوا بعض النوافل، حتى كان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس، وروي أن عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفها، فقيل له: خففت يا أبا اليقظان، فقال: هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئا؟، قالوا: لا، قال: إني بادرت سهو الشيطان.

وكانوا يحذرون من اتباع الهوى، لأنه يضل عن سبيل الله، ولذا قال علي بن أبي

طالب ﷺ: إن أخوف ما أتخوف عليكم اثنتين: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، وارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: إنكم في زمان يقود إليه العمل الهوى، وإنه يوشك أن يأتي عليكم زمان يقود فيه الهوى العمل.

وما أبدع قول الشاعر:

إذا ما رأيت المرء يعتاده الهوى ... فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الأعداء جهلا بنفسه ... وقد وجدت فيه مقالا عواذله
وما يردع النفس اللجوج عن الهوى ... من الناس إلا حازم الرأي كامله

نسأل الله أن يبصرنا بعيوبنا، اللهم إنك افترضت علينا ما لا نطيق أداءه إلا بتوفيقك، فوفقنا لأداء ما افترضته، وحرمت علينا ما لا نمتنع من مواقعته إلا بحفظك فاحفظنا عن مواقعة ما حرمته، فلا نعتمد إلا عليك، اللهم ارحمنا برحمة تغنينا بها عن رحمة الراحمين، وارض عنا رضىً لا تسخط علينا بعده أبد الآبدين، آمين.

## ١٩٤- قَيَّدَ الطَّاعَات بِأَعْيَانِ الأَوْقَات لِئَلاَّ يَمْنَعَكْ عَنْهَا وُجُودُ التَّسْوِيفِ، وَوَسَّعَ عَلَيْكَ الوَقْتَ لِتبْقَى لَكَ حِصَّةُ الاخْتِيَارِ

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– مدى رحمة الله بعباده فيما أعطاك، وفيما فرض وترك، فهو الرحمن الرحيم، أيها المؤمن إن الله –عز وجل– أنعم عليك فيما فرضه عليك بنعمتين عظيمتين جليلتين:

الأولى: أنه قيد لك الطاعات الواجبة عليك بأعيان الأوقات المعينة لوقوعها فيها، ولم يطلق وقتها، كيلا يمنعك عن أدائها التسويف منك، فيفوتك جزيل العطاء.

والثانية: أنه وسع عليك الوقت رحمة بك، وعذرا لضعفك، ولم يضيقه عليك كي يبقى لك بقية اختيار، فتأتي بالطاعة في أول وقتها، أو في وسطه، أو في آخره، فإنه

رحيم كريم، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾(١).

ومن نعم الله على عبده في الطاعات أنه لم يجعلها كلها واجبات، بل جعل واجبات ومندوبات، وفروض وسنن، ففي الصلاة هناك الفرائض، وهناك السنن والنوافل لمن أراد الزيادة، وكل حسبما وسع الله في قلبه وحبب إليه الخير، وحتى في الفرض نفسه هناك الواجب وهناك النفل، فالصلاة فيها الفرض وفيها السنة، ولها أركان ومن أراد التطويل وزيادة القراءة فله ذلك وبه ثواب وأجر، وهكذا في الطهارة والزكاة والصيام وكل عبادة لها فرائض وسنن ونوافل.

وعمل الطاعات رغم وسعها يحتاج إلى نفس طيبة أبية، تمتنع عن الباطل، وتصفو للحق، فإنها إن زلت كانت لها من الله عقوبة وآية، وقد قال العلماء: إذا أراد الله هلاك امرئ عاقبه بثلاثة أشياء، أولها: يرزقه الله العلم، ويمنعه عن عمل العلماء، والثاني: يرزقه صحبة الصالحين، ويمنعه عن معرفة حقوقهم، والثالث: يفتح عليه باب الطاعات، ويمنعه من إخلاص العمل.

وضد الطاعة التغافل والتكاسل، والتغافل عما يكره الله قسوة في القلب، وفي قساوة القلب ذهاب حلاوة الأعمال، وفي ذهاب حلاوة الأعمال قلة الطاعات، وفي قلة الطاعات قلة الشكر، وفي ترك الشكر فساد ما عملت، وحرمان ما طلبت، وانقطاع الزيادة، نعوذ بالله من ذلك.

**١٩٥- عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ العِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِه، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ، فَسَاقَهُمْ إِلَيهِ بِسَلَاسِلِ الإِيجَابِ (عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ)**

يبين ابن عطاء الله -رحمه الله- حال عامة المسلمين، ولم يتكلم عن العارفين في هذه الحكمة بل تكلم عن المريدين، فقال: علم الله -عز وجل- قلة نهوض وقيام عامة المسلمين إلى معاملته منه، والتحقق في معنى العبودية، والقيام بحقوق الربوبية طوعا منهم، فأوجب عليهم وجود طاعته كرها، فخوفهم بعذابه وناره وغضبه ومقته في

(١) سورة النساء من الآية ١٤٧.

الدنيا والآخرة، ليحملهم بذلك إلى طاعته، فكأنما ساقهم إليه بسلاسل الإيجاب والتخويف منه، واستدرجهم بذلك إلى جنته ونعيمه المقيم عند مليك مقتدر.

وقد جعل المولى جعل وعلا الفروض والواجبات سبيلا لجذبهم إليه، وسوقهم إلى طاعته وجنته، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: (ما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه وما يزال يتقرب عبدي إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ولئن سألني لأعطينه ولئن دعاني لأجيبنه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أن فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته)(١).

فما ظننا بعبد يعقل بالله، وينطق بالله، ويسمع بالله، ويبصر بالله، ويبطش بالله، ويمشي بالله، كيف يكون سعيه وآثاره منقلبة في الدنيا.

ثم قال ابن عطاء الله: وقد عجب ربك من قوم يُساقون إلى الجنة بالسلاسل، لأن الإنسان دائما لا يعرف مصلحة نفسه، ويريد دائما العاجلة مع أن الله عز وجل يقول له: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾(٢)، لكن هواه وشيطانه ونفسه والدنيا يتغلبون عليه، فيسحبه المولى عز وجل إلى جنته بالبلايا والمحن والتخويف، وما إلى ذلك، رحمة به.

ولقد كان تخويفه -سبحانه وتعالى- لعباده سببا لحصول الاعتقاد، والاعتقاد سبب لهيجان الخوف، وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها، فمن سبق له في الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة.

فإذا لم يسمع لم يعلم، وإذا لم يعلم لم يخف، وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا، وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقي في حزب الشيطان، وكانت جهنم مصيره

---

(١) أخرجه البزار في الحديث رقم٨٧٥٠، البحر الزخار ١٥/٢٧٠.

(٢) سورة الضحى الآية ٤.

والعياذ بالله، فمن عرف هذا تعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل، فما من أحد إلا وهو مقود الى الجنة بسلاسل الأسباب، وهو تسليط العلم والخوف عليه، وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل، وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه، فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار.

والحكمة كذلك تحذر من صنف من أصناف المغرورين وهم من تعلقوا بالنوافل وأهملوا الواجبات، ترى الواحد منهم يصلي قيام الليل وهو عاق لأبويه وآكل للمال الحرام، ومرتكب للفواحش والكبائر، ومهمل في الواجبات، متجرئ على المحرمات، فكيف يكون ذلك؟ يقول الغزالي في وصف هذه الفرقة: فمنهم فرقة أهملوا الفرائض، واشتغلوا بالنوافل، وربما تعمقوا حتى خرجوا إلى السرف والعدوان كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه، ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة من النجاسة، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة، بعيدة وربما أكل الحرام المحض.

فما أحرى بالمؤمن الصادق التزامه بالواجبات وبعده عن المحرمات، وطاعته لله في الواجبات أكثر من طاعته في النوافل، وتحرى الواجب فقام به، وزاد من النوافل بعد أداء فرائض الله عليه وابتعاده عن معاصيه.

## ١٩٦- أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ طَاعَتِهِ، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلاَّ دُخُولَ جَنَّتِهِ

يظن بعض الناس أنه متى فعل الواجب عليه لله من فرائضه فقد تفضل وأدى ما لله عليه وأوفى بنعمه عليهم، وما درى أنه لو صام وقام ليل نهار، وفعل من الطاعات واجبا ونفلا فلن يبلغ أداء ولا شكر نعمة من نعم الله عليه، وأن الله غني عن الخلائق أجمعين، فهو لا تنفعه طاعة الطائعين ولا معصية العاصين، فهو غني بذاته عن كل مخلوق، لكمال ذاته، فيقول: لقد أوجب الله –سبحانه وتعالى– عليك أيها العبد في الظاهر وجود خدمته، وفي الحقيقة والباطن أنه ما أوجب عليك إلا دخول جنته، فخلق

لك الأسباب، وأمرك أن تأخذ بها تعبدا حتى يدخلك بكرمه وفضله الجنة، وترتفع درجتك، فهذا بما عملته في الدنيا، لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(١).

ولذا قد يعسف بأوليائه، ويعنف بأحبابه لتمكنه منهم ومكانتهم عنده، ولعلمه أنهم لا يريدون له بدلا، ولا يبغون عنه حولا، إذ ليست لهم راحة لسواه، ولا بغية في سواه، ولا لهم همة إلا إياه، كما قال بعض المحبين: ويلي منك وويلي عليك، أفزع منك وأشتاق إليك، إن طلبتك أتعبتني، وإن هربت منك طلبتني، فليس لي معك راحة، ولا لي في غيرك استراحة.

فالله –سبحانه– غير محتاج لعبيده، بل هم له محتاجون، وعلى بابه واقفون، وإليه متذللون، وذلهم هذا سبب العز في الدنيا والآخرة، وصدق من قال:

إذا تذللت الرقاب تواضعاً ... مناً إليك فعزها في ذلها

وليس مقصودا من الفقر هنا فقر المال، بل الفقر والاحتياج إلى الله تعالى مع غناه عنا، ولذا قال العارفون في تفسير الآية: إن المقصود هنا الفقر الخاص الذي هو شعار أولياء الله – تعالى– وأحبائه، وهو خلو القلب من التعلق بغير أو سوى، والتملي بشهوده – تعالى– في سائر الحركات والسكنات، حشرنا الله في زمرتهم، لما من به علينا من حقائق محبتهم، آمين.

## ١٩٧- مَنِ اسْتَغْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ اللّهُ مِنْ شَهْوَتِهِ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ فَقَدْ اسْتَعْجَزَ القُدْرَةَ الإلَهِيَّةَ ﴿وَكان اللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أنه لا يأس من روح الله، ولا ييأس الإنسان العاصي من كرم الله مهما كانت ذنوبه، فإنه لا ييأس من جوده وكرمه إلا الكافر الذي لا يعرف الله عز وجل، لذلك قال: من استغرب أن يخلصه الله –عز وجل– من شهوته التي آسرته، أو أن يخرجه من وجود غفلته التي استهوته، فقد استعجز أي نسب

(١) سورة فاطر الآية ١٥.

إلى الله عز وجل العجز وعدم القدرة، وهذا ينافي قدرة الله المطلقة، فهو يقول للشيء كن فيكون، فهو القادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾(١).

ولذا قال سيدنا علي ﷺ: ألا أدلكم على الفقيه كل الفقه؟، قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: من لم يؤيس الناس من روح الله، ومن لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى، ومن لم يؤمن الناس من مكر الله، ومن لم يزين للناس معاصي الله، ولا ينزل العارفين الموحدين الجنة، ولا ينزل العاصين المذنبين النار، حتى يكون الرب هو الذي يقضي بينهم.

وقال للرجل الذي أطار الخوف عقله حتى أخرجه إلى القنوط، قال له: يا هذا أيأسك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنبك؟.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله.

فعلى العبد العاصي لمولاه ألا ييأس منه أبدا، ولا يستكثر ذنبه أبدا، ويلزم بابه، ويطرق عليه بالذل والافتقار، فإن الله يفرح بعبده التائب إليه، ويمده بعنايته ورعايته وتفضله عليه بالتوبة والفوز بالنعيم المقيم.

فإياك إياك أن تستطيل زمان البلاء، وتتضجر من كثرة الدعاء، فإنك مبتلى بالبلاء، متعبد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله، وإن طال البلاء.

## ١٩٨- رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الأَنْوَارُ فَوَجَدَتِ القَلْبَ مَحْشُوًّا بِصُوَرِ الآثَارِ فَارتَحَلَتْ مِن حَيْثُ جَاءَتْ

يبين ابن عطاء الله -رحمه الله- أن النعم لا تُعرف إلا بفقدها، فأراد الله -عز وجل- أن يورد عليك الشهوات والغفلات الشبيهة بالظلم، ليعرفك -سبحانه وتعالى- قدر ما منّ به عليك من أنوار وأسرار، وإنقاذه للعاصي، فيزداد شكرك وإقبالك على الله

---

(١) سورة الكهف من الآية ٤٥.

بعد أن أخرجك من الظلام إلى النور.

وكان العارفون يقولون: ومن لم يعرف قدر النعم سُلبها من حيث لا يعلم، ما خلع الله على عبد خلعة أحسن ولا أشرف من العقل، ولا قلده قلادة أجمل من العلم، ولا زينه بزينة أفضل من الحلم، وكمال ذلك التقوى.

ويقول آخر: ولا يجب للعاقل أن يعتمد على مجاورة نعم الله عنده فلا يقضي منها حقوقها، لأن من أساء مجاورة نعم الله أساءت مجاورته، وتحولت عنه إلى غيره.

فإذا تفكر العبد في الآيات والعلامات يزيد به يقينا ومعرفة، وأما التفكر في الآلاء والنعماء فيقصد به أن ينظر إلى نعم الله تعالى.

ولما سئل بعض الحكماء عن الفرق بين الآلاء والنعماء، قال: كل ما ظهر فهو الآلاء، وما بطن فهو النعماء، ومثل ذلك: اليدان آلاؤه، وقوة اليدين نعماؤه، والوجه آلاؤه، وحسن الوجه والجمال نعماؤه، والفم آلاؤه، وطعم الطعام نعماؤه، والرجلان آلاؤه، والمشي نعماؤه، فإذا كان للعبد رجلان ولم يكن له قوة المشي، فقد أعطي الآلاء، ولم يعط النعماء، والعروق والعظام آلاؤه، وصحتها وسكونها نعماؤه.

وقال بعضهم: الآلاء إيصال النعمة، والنعماء دفع البلية.

فمن حلت به بلية وفقد نعمة فليصبر وليحتسب، فإنما هو اختبار من الله عز وجل، وبيان لقدر ما أنعم عليه عز وجل، ليكون لله حامدا شاكرا.

ألا فتقربوا إلى الله تعالى بالخوف من زوال النعم، وشدة الحياء من التقصير في الشكر، واشكروا الله على نعمه آناء الليل وأطراف النهار.

## ١٩٩- مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ بِوِجْدَانِهَا عَرَفَهَا بِوُجُودِ فِقْدَانِهَا

لا زال ابن عطاء يتحدث عن النعم وتقديرها حق قدرها، فإذا كان ما سبق من اختبار ليعرف المرء قدر النعم، فليحذر العاقبة عند التقصير والبطر، والافتراء على النعم والاستهانة بها، فإن من لم يعرف قدر النعم بوجدانها فليعرفها بفقدانها، فإن الإنسان يظل في نعم الله –عز وجل– وهو لا يدري بذلك، لانشغاله بأمور دنياه،

وانكبابه على الدنيا، ويعرفها ويبكي عليها لفقدانها، لذا قال: من لم يعرف قدر النعم بوجدانها لغفلته عن ذلك عرفها بوجود فقدانها، فإنه لا يعرف فقدان نعمة الكلام إلا الأخرس، ولا نعمة البصر إلا الأعمى، والنعمة إما أن تقع ضرورية، كالعينين مثلا، وإما أن تقع في محل الحاجة، كالزيادة على قدر الكفاية من المال، وكلاهما له أهميته، وإن كانت النعمة الأولى أشد، وفقدها أكثر ألما.

وقد قال الشاعر:

فإن كنت في خير فلا تغترر به ... ولكن قل اللهم سلم وتمم
فمن لم يصن عرضا إذا ما استفاده ... ويشكر لأهل الخير يسلب ويذمم

فمن شكر نعم الله تعالى دامت لديه، ومن كفر بها عذبه الله تعالى بفقدانها ليرى كم كانت عظيمة عنده، ومن أشد آلام الحياة فقدان النعم وزوالها بعد وجودها والتمتع بها، فمن حرم النعم بداية لا يسعه تقدير قيمتها حقيقة، ولكن من ذاقها وعرف حلاوتها، وتجاهلها حتى زالت فإن ألمها لديه شديد، وفقدانها منه حسرة، ولذا وجب على المرء التفكر في نعم الله تعالى وشكرها عليها، ومن أجمل ما سمعت ما يرويه أحد الفضلاء عن أبيه أنه كان يقول له: "إذا وُجد الخبز فالملح بشرقة"، أرأيتم لهذا الشكر، وتلك القناعة العظمى، إن الرجل الكبير يرى أن وجود الخبز نعمة، ووجود الملح نوع ترفيه عليه، فما بالنا وقد زادت النعم، وزادت معه شكوى الناس من الفقر، أليس ذلك من العجب.

فمن شكر النعم دامت لديه، ودلت على جوهر طيب، ونفس قانعة، يقول الشاعر:

وإذا اصطنعت الى أخيك ... صنيعة فانس الصنيعة
والشكر من كرم الفتى ... والكفر من لؤم الطبيعة
والصبر أكرم صاحب ... فاصحبه إن نزلت فجيعة

ولنختم بهذه الرائعة لشاعر يقول فيها ناصحا ابن آدم:

همومك بالعيش مقرونة فما تقطع العيش إلا بهمّ
إذا تم أمرٌ بدا نقصـُــه ترقب زوالا إذا قيل تـــم
إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وحـــام عليها بشكر الإله فإن الإله ســـريع النقم
حـــلاوة دنياك مســمومة فما تأكل الشهد إلا بسـّم

نسأل الله دوام النعم، والبعد عن النقم، ونعوذ به من السلب بعد العطاء.

## ٢٠٠- لا تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ النِّعَمِ عَنِ القِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ

لا زال ابن عطاء –رحمه الله– يري مريده طريق التعامل مع نعم الله تعالى، وكيفية شكرها لتدوم، فيذكره بأن النعم لا تشغل العبد المؤمن عن المنعم، فلا تشغلك المظاهر عن الظاهر، وأنت تعلم أن ذلك يحط من قيمتك وقدرك عند الله عز وجل، فيقول: لا تدهشك النعم المتتالية عليك والتي لا تعد ولا تحصى عن القيام بحقوق شكرك لله عز وجل فتزول منك، كما قال أبو الدرداء ﵁: أحسنوا مجاورة نعم الله، لا تملوها، ولا تنفروها، فإنها لقلما نفرت عن قوم فعادت إليهم.

ويقول أحد العارفين: من أخذ بحظه من شكر الله، وحمده، ومعرفة نعمه، والثناء عليه والتحميد له، فقد استوجب بذلك من أدائه إلى الله القربة عنده والوسيلة إليه، والمزيد فيما شكره عليه من خير الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.

وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير يقول: إن أحب عباد الله إلى الله الشكور الصابر، الذي إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر.

وكان يزيد بن ميسرة يقول: لا تضر نعمة معها شكر، ولا بلاء معه صبر، ولا بلاء في طاعة، طاعة الله خير من نعمة في معصية الله.

وذكر عن إبراهيم بن أدهم قال: من أصبح لزمه شكر أربعة أشياء.

أولها: أن يشكر، فيقول الحمد لله الذي نور قلبي بنور الهدى، وجعلني من

المؤمنين، ولم يجعلني ضالا.

والثاني: أن يقول الحمد لله الذي جعلني من أمة محمد ﷺ.

والثالث: أن يقول الحمد لله الذي لم يجعل رزقي بيد غيره.

والرابع: أن يقول الحمد لله الذي ستر علي عيوبي.

وقال ابن أبي الحواري فقلت له: يا أبا محمد (يعني ابن عيينة) قد أنعم عليه فشكر، وابتلي فصبر، وحبس النعمة، كيف يكون زاهدا؟ فضربني بيده، وقال: اسكت، من لم تمنعه النعماء من الشكر، ولا البلوى عن الصبر، فذلك الزاهد.

ويقول الشاعر:

الشـــكر يفتح أبوابا مغلقة ... لله فيهـــا على من رامه نعم

فبادر الشكر واستغلق وثائقه ... واستدفع الله ما تجري به النقم

فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك عند الله عز وجل، والإنسان المؤمن قدره عظيم جدا، لذا فإن العارف بالله دائما وأبدا يلهث بالشكر والحمد، ولا تلهيه النعمة عن المنعم، ولذلك قدرهم عند الله لا حد له، بل إن الله يرضى لرضاهم، ويغضب لغضبهم.

ويحاسب الله تعالى عبده على عدم شكره ويسأله عنه ففي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا ابن آدم ألم أحملك على الخيل والإبل وأزوجك النساء، وجعلتك تربع وترأس؟ فيقول: بلى. فيقول الله تعالى: يا ابن آدم فأين شكر ذلك؟)(١).

نسأل الله ألا تلهينا النعم عن المنعم، آمين.

## ٢٠١- تَمَكُّنُ حَلاَوَةِ الهَوَى مِنَ القَلْبِ هُوَ الدَّاءُ العُضَالُ

قلنا فيما سبق إن الهوى من أعداء القلب، سلاحه الكلام، وسجنه الصمت، فإذا تمكنت حلاوته من القلب والنفس فإنه يكون كالداء العضال الذي لا يخرج منهما بسهولة ويسر، فمهما جاهد الإنسان نفسه فإنه يغلبها، وذلك يحتاج إلى العناية الإلهية

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم١٠٣٧٨، المسند ٢٤٤/١٦.

والوارد الرباني الذي يجعل الإنسان في خوف مزعج أو شوق مقلق، كما سيأتي في الحكمة التالية.

وعلى العاقل أن يعرف أن الرأي والهوى متعاديان، وأن من شأن الناس تسويف الرأي، وإسعاف الهوى، فيخالف ذلك، ويلتمس أن لا يزال هواه مسوفا ورأيه مسعفا.

وإذا بدهك أمران لا تدري أيهما أصوب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك، فخالفه، فإن أكثر الصواب في خلاف الهوى.

وقد أدرك الصحابة ﷺ منهاج رسول الله ﷺ في تأديب النفس، وكبح جماحها، وذم الهوى والعمل به، وأن مخالفة النفس وتأديبها يجعلها تمضي على الصلاح، فقد روي أنه دخل أناس من بني عدي على حفصة ابنة عمر، فقالوا: لو كلمت أمير المؤمنين أن يأكل طعاما هو أطيب من هذا الطعام، ويلبس ثيابا ألين من هذه الثياب، فإنه قد بدت علباء رقبته من الهزال، وقد كثر المال، وفتحت الأمصار، فدعته، فقالت له ذاك، فقال لها: يا بنية، هلم صاعا من تمر، فجاءوا بصاع من تمر عجوة، فقال: افركوه بأيديكم، ففركوه، فقال: انزعوا تفاريقه، يعني أقماعه، فجلس عليه فأكله كله، ثم قال: أتروني لا أشتهي الطعام، إني لآكل الخبز واللحم، ثم إني لأترك اللحم وهو عندي، فلا آكل به، وآكل بالسمن، ثم إني لأترك السمن وهو عندي، فلا آكل به، ولو شئت لأكلت، ولكني أتركه وآكل بالزيت، ثم إني لأترك الزيت وهو عندي، لا آكل به، وآكل بالملح، وإني لأترك الملح وهو عندي، وإن الملح لإدام، ولو شئت لأكلته به، وأكثر أكل قفار، أبتغي ما عند الله. يا بنية، أخبريني بأحسن ثوب لبسه رسول الله ﷺ عندك؟ قالت: نمرة نسجت له فلبسها، فقال رجل من أصحابه: اكسنيها، فكساها إياه. قال: فأخبريني بألين فراش فرشتيه عندك قط؟ قالت: عباءة كنا ثنيناها له، فغلظت عليه فدبغناها، ووسادة من أدم محشوة بليف، فقال: يا بنية، مضى صاحباي على حال إن خالفتهما خولف بي عنهما، إذن لا أفعل شيئا مما تقولين.

وكان ابن مسعود ﷺ قال: إنكم في زمان يقود إليه العمل الهوى، وإنه يوشك أن يأتي عليكم زمان يقود فيه الهوى العمل.

فالله الله في اتباع الهوى، وانفلات النفس، وسيطرة حلاوة الهوى على القلب، فذاك المرض الذي لا شفاء منه إلا أن يأذن الله تعالى، فابعد عن أسبابه وتجنب مواطنه وقد نفسك إلى العمل الصالح، وجنبها موارد الهوى تسلم وتغنم.

## ٢٠٢- لا يُخْرِجُ الشَّهْوَةِ مِنَ القَلْبِ إِلاَّ خَوفٌ مُزْعِجٌ أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ

إن الشهوة التي تمكنت من القلب وأصبحت كالداء العضال لا يخرجها من القلب إلا وارد شديد يرد على القلب من صفات الجلال والقهر، يجعل الإنسان في خوف مزعج من لقاء الله عز وجل وعذابه الأليم، أو شوق إلى الله عز وجل مقلق يرد من أسماء الجمال والكمال، يجعله في شوق شديد للقاء الله سبحانه، وذلك لما أعده الله للطائعين من النعيم المقيم.

وإنما كان ذلك لأن الهوى إذا خالط القلب مزجه، وغلفه بالشهوة، فلا يرى غيرها، ولذا كان السلف الصالح يحذرون منه، فهذا الحسن البصري يقول: شر داء خالط قلبا، يعني الهوى.

ويقول وهب بن منبه: أعون الأخلاق على الدين الزهادة في الدنيا، وأوشكها ردى اتباع الهوى، ومن اتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة في الدنيا حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف استحلال المحارم بغضب الله عز وجل، وغضب الله الداء الذي لا دواء له إلا رضوان الله عز وجل، ورضوان الله لا يضر معه داء، فمن يرد أن يرضي الله ربه يسخط نفسه، ومن لا يسخط نفسه لا يرضي ربه، وإن كان الإنسان كلما كره من دينه شيئا تركه أوشك أن لا يبقى معه من دينه شيء.

وقال رجل لأحد العارفين: ما بالنا نسمع هذا العلم فنفهمه ونعقله، ولا يبقى على القلب منه شيء؟ قال: لأن نيران الشهوات في الخوف قد التهبت، فهي نيران سود، مظلمة بالهوى، وهي مؤدية إلى نار الله الكبرى، فإذا التهبت ارتفع إلى القلب، وأحرق تلك الأنوار، فخلا القلب من الموعظة والعلم الذي عليه، وهي شبيهة بالنار التي تلهب حمرتها، فتحتاج إلى ماء كثير حتى تطفئه، كلما ألقيت عليه قبضة من شيء، أو

رشت عليه قليل ماء، انطفأ قليلا ثم التهب، فكذلك صاحب الشهوة، إذا سمع الموعظة ذبل قلبه، وتخسفت نفسه، لما يصل إليه من الخوف، لأن الوعيد مما تتكسر به النفس، وتخمد شهواتها.

فاحفظ قلبك من الهوى، ونفسك من الشهوات بقوة المراقبة لله عز وجل، وبزيادة الأعمال الصالحة، حتى يكونا أنقياء من هذا الداء العضال، نسأل الله السلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر.

## ٢٠٣- كَمَا لا يُحِبُّ العَمَلَ المُشْتَرَكَ، لا يُحِبُّ القَلْبَ المُشْتَرَكَ، العَمَلُ المُشْتَرَكُ لا يَقْبَلُهُ، وَالقَلْبُ المُشْتَرَكُ لا يُقْبِلُ عَلَيْه

إن الله –عز وجل– أغنى الأغنياء عن الشرك، فهو القائل: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(١)، ويقول ﷺ: (إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك)(٢)، ففي هذا الخبر دليل على أن الله تعالى لا يقبل من العمل شيئا إلا ما كان خالصا لوجهه، فإذا لم يكن خالصا فلا يقبل منه، ولا ثواب له في الآخرة، ومصيره إلى جهنم.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كان آخر الزمان صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله خالصا، وفرقة يعبدون الله رياء، وفرقة يعبدون الله يستأكلون به الناس، فإذا جمعهم الله يوم القيامة، قال للذي يستأكل الناس: بعزتي وجلالي، وما أردت بعبادتي؟ قال: وعزتك وجلالك أستأكل به الناس. قال: لم ينفعك ما جمعت شيئا تلجأ إليه، انطلقوا به إلى النار، ثم قال للذي كان يعبده رياء: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ قال: بعزتك وجلالك رياء الناس. قال: لم يصعد إلي منه شيء، انطلقوا به إلى النار، ثم يقول للذي كان يعبده خالصا: بعزتي وجلالي ما أردت

---

(١) سورة الكهف من الآية ١١٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم١٥٨٣٨، المسند ٢٥/١٦١.

بعبادتي؟ قال: بعزتك وجلالك أنت أعلم بذلك مني أردت به ذكرك ووجهك. قال: صدق عبدي، انطلقوا به إلى الجنة)[١].

والله تعالى يغار على قلب عبده الطائع أن يدخله شيء من المخلوقات أو المكونات فينشغل بها عنه سبحانه وتعالى، فهو لا يحب العمل المشترك، أي المشوب بالرياء والنفاق وملاحظة الخلق، كذلك لا يحب القلب الذي فيه محبة غيره من المخلوقات، لذا قال: ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا، فالعمل المشترك لا يقبله، أي لا يثيب عليه، ولا يؤجر صاحبه، لفقد شرط الإخلاص لله عز وجل، والقلب المشترك لا يقبل عليه، أي لا يرضى عن صاحبه، لعدم صدقه في محبته، والإقبال عليه بالكلية.

ولذا كان بلال بن سعد يقول: عباد الرحمن، إن العبد ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله وقد أضاع ما سواها، فما زال الشيطان يمنيه فيها ويزين له حتى يرى شيئا دون الله، فقبل أن تعملوا أعمالكم فانظروا ما تريدون بها، فإن كانت خالصة لله فأمضوها، وإن كانت لغير الله فلا تشقوا على أنفسكم، ولا شيء لكم، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا.

والشرك قد يكون ظاهرا، وهو ما يقع من عوام الناس، بمراءاتهم بما يعملون، وقد يكون شركا خفيا، وقد أوضحه أبو حامد الغزالي –رحمه الله– بعبارة قوية رصينة، حيث يقول عن الشرك الخفي ومن يبتلى به من الناس: إنما يبتلي به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم، وجاهدوها، وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير، وإظهار العمل والعلم، فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى

---

(١) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٥١٠٥، المعجم الأوسط ٢٠٩/٥.

إظهار الطاعة، وتوصلت إلى اطلاع الخلق، ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس، ولم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في التقريظ والإطراء، ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام، وتبركوا بمشاهدته ولقائه، ورغبوا في بركة دعائه، وحرصوا على اتباع رأيه، وفاتحوه بالخدمة والسلام، وأكرموه في المحافل غاية الإكرام، وسامحوه في البيع والمعاملات، وقدموه في المجالس، وآثروه بالمطاعم والملابس، وتصاغروا له متواضعين، وانقادوا له في أغراضه موقرين، فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات، وشهوة هي أغلب الشهوات، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات، لإدراكها في الباطن لذة اللذات، وشهوة الشهوات، فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية.

## ٢٠٤- أَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي الوُصُولِ، وَأَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي الدُّخُولِ

إن الواردات التي ترد على القلب هي أنوار جاءت من الأسرار الإلهية والمعارف الربانية، وهي تأتي من خزائن الغيوب إلى القلب الخالي من الأكدار والأغيار والآثار، وهي تنقسم قسمين:

الأول: أنوار أذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب، فهي استشرفت ظاهر القلب ولم تدخل فيه، فتحقق بها من حقيقة الأشياء، فرأى أن الدنيا لا تساوي جناح بعوضة، وأنها جيفة وطلابها كلاب، وأن الآخرة هي خير وأبقى ونعيمها دائم، وعرف نفسه التي بين جنبيه، وعرف ربه القائم بكل شيء، وهو مع كل شيء، وهذا النور يسمى بشعاع البصيرة.

والثاني: أنوار أذن لها في الدخول إلى سويداء القلب، فبها عرف القلب ربه معرفة حقيقية، فلا يحب سواه، ولا يعبد غيره، لأنه علِمَ عين اليقين أن الكون كله ظلمة، ولولاه ما كان شيء، ولا ظهر شيء، فهام في حبه، فهو في سكر حتى يلقاه،

وقد قيل لبعض العارفين: متى يرفع القلب الذي سجد لله عز وجل؟ قال: لا يرفع من سجوده إلا عند الموت.

ويقول ذو النون: قوم عبدوا الله بإخلاص من الصدق، فأوصل إليهم خالصا من البر.

وقد بين النبي ﷺ أن القلب أنواع كما الواردات أنواع، ولا يكون الإذن للواردات إلا للقلب المنفتح المخلص له، فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد: فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف: فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس: فقلب المنافق عرف، ثم أنكر، وأما القلب المصفح: فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه)(١).

ومن أراد جلاء قلبه فليتبع ما جاء عن النبي ﷺ، فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد. قيل: يا رسول الله، فما جلاؤها؟ قال: تلاوة القرآن)(٢).

وقال بعض الحكماء: كما أن الحديد إذا لم يستعمل غشيه الصدأ حتى يهلكه، كذلك القلب إذا عطل من الحكمة غلب عليه الجهل حتى يميته.

وقال الحسن: إن القلوب تموت وتحيا، فإذا هي ماتت فاحملوها على الفرائض، فإذا هي أحييت فأدبوها بالتطوع.

وعن يحيى بن معاذ الرازي قال: الحكمة تهوي من السماء إلى القلوب، فلا تسكن في قلب فيه أربع خصال: الركون إلى الدنيا، وهمّ غد، وحسد أخ، وحب شرف.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم١١١٢٩، المسند ٢٠٨/١٧.

(٢) أخرجه البيهقي في الحديث رقم١٨٥٩، شعب الإيمان ٣٩٢/٣.

**٢٠٥- رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الأَنْوَارُ فَوَجَدَتِ القَلْبَ مَحْشُوًّا بِصُوَرِ الآثَارِ فَارتَحَلَتْ مِن حَيْثُ جَاءَتْ**

إن واردات الله هي أنواره الإلهية التي ترد على القلب، تحتاج للدخول فيه إلى خلوة من الآثار، فإن وجدت شيئا من ذلك أي من المكونات من حب المال والأولاد والزوجة والمتاع وغير ذلك رجعت من حيث أتت، أي رجعت إلى الله عز وجل، لأنها لا تقبل شريكا في القلب، فهي أنوار قدسية، فإن كان في القلب أدناس وأغيار وآثار فلا تدخل هذا القلب.

ولذا قال بعض العارفين: إن الله –سبحانه وتعالى– اطلع على قلوب طائفة من عباده فلم يرها تصلح لمعرفته ولا موضعا لمشاهدته، فرحمها فوهب لها العبادات والأعمال الصالحات، ثم اطلع على قلوب طائفة أخرى من خلقه فلم ير جوارحهم تصلح لخدمته، ولا موضعا لمعاملته، فاستعملهم للدنيا، وعَبَّدَهم لأهلها.

ولذا فإن المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا مرائي، يا غادر، يا خاسر، يا فاجر، اذهب فخذ أجرك ممن عملت له، فلا أجر لك عندنا.

ولا يتصور شرك الرياء لمن عبد الله تعالى تعظيما وإجلالا، لأن تعظيمه يمنعه من أن يعصيه بشرك الرياء.

وقال بعض الحكماء: مثل من يعمل رياء وسمعة كمثل من ملأ كيسه حصى ثم دخل السوق ليشتري به، فإذا فتحه بين يدي البائع افتضح، وضرب به وجهه فلم يحصل له به منفعة سوى قول الناس: ما أملأ كيسه، ولا يعطى به شيئا، فكذلك من عمل للرياء والسمعة لا منفعة له في عمله سوى مقالة الناس، ولا ثواب له في الآخرة.

وقيل لحكيم: ألا تعظ فلانا، فقال: ذلك على قلبه قفل ضاع مفتاحه، فلا سبيل إلى معالجة فتحه.

فمن كان قلبه خالصا لله تعالى كان مهيأ لتلقي الأنوار والأسرار، ومن كان قلبه مغلقا فهو مهيئ لتلقي وساوس الشيطان، وأين هذا من ذاك؟، ولذا كانوا يقولون: إنما

تحوم الشياطين على القلوب إذا كانت مشحونة بالصفات المذمومة، فإنها مرعى الشيطان وجنده، ومن خلص قلبه من تلك الصفات، وصفاه من شوائبها لم يطف الشيطان حول قلبه أبدا.

## ٢٠٦- فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الأَغْيَارِ يملأْهُ بِالمَعَارِفِ وَالأَسْرَارِ

إن واردات الأنوار التي ترد على القلب وتولد المعارف والأسرار تحتاج إلى قلوب خالية من الأغيار كما قلت، أي خالية عما سوى الله عز وجل، فلا يتعلق قلبه بشيء من الكون، علويا كان أو سفليا، حسيا كان أو معنويا، دنيويا كان أو أخرويا، فإن خلا القلب من كل هذه الأغيار ولم يشغله إلا محبة الله عز وجل والفناء فيه ورحلت عنه كان القلب مهيأً لأن يملؤه الله تعالى بالأسرار والأنوار والمعارف، فإن قلبه إذا خلا من غير الله تعالى، وانشغل بالكلية إليه، رفعه الله تعالى إلى مقام اليقين.

وإذا رُفع إلى مقام اليقين تولاه الله تعالى بواسطة أنوار الروح، فكان الروح مكان إلقاء الحق حتى يرد عليه من الله تعالى بواسطة أنوار الروح من السرائر ما لا يطلع عليه الملك، ولا يكون ذلك حتى تفنى خواطر النفس بالهوى، ولا تبقى منها باقية، وتطوى النفس فتندرج في الروح، فلا يظهر منها داعية، ثم يتولاه الله تعالى بنور اليقين، فيسطع له نور اليقين من خزانة الغيب المحجوب بمكاشفات الجبروت، فيشهد العبد شهادة الحق بالحق، معاينة الغيب بفقد كونه ووجد كينونته، وما لا يصلح بعد ذلك كشفه إلا لأهله أو لمن سأل عنه، وهذا يكون في مقام التوحيد وهذا أنصبة المقربين.

أما القلوب المشغولة بالأكدار فلا تدخلها المعارف والأسرار.

قال إبراهيم بن أدهم: فرغ قلبك من ذكر الدنيا يفرغ عليك الرضاء إفراغا.

وما أجمل القول: يا هذا، سرادق المحبة لا يضرب إلا في قاع فارغ، نزه وفرغ قلبك من غيري أسكنه.

والأنوار أربعة، والقلب موجه جهات أربعة، إلى الملك والملكوت، وإلى العز

والجبروت، فبنور العقل يشهد الملك، وبنور الإيمان يشهد الملكوت وهو الآخرة، وبنور اليقين يشهد العزة وهي الصفات، وبنور المعرفة يشهد الجبروت وهو الوحدانية، والجبار تعالى فوق القلب محيط به، يكاشفه بما شاء فيغلب عليه وجد ما أشهده.

فاعلم رعاك الله أن هذا مقام لا يدركه كثير من الناس، بل هم مثل الكبريت الأحمر أندر من الندرة، لأنهم صفوا قلوبهم لله تعالى، فألقى عليهم من أنواره ما لا يجده غيرهم من الناس.

## ٢٠٧- لا تَسْتَبْطِئْ منه النَّوَالَ، وَلَكِنْ اسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ الإِقْبَالِ

يقول المثل: من تعلق بالأغيار لا يصلح أن يكون من الأخيار، لذلك يقول ابن عطاء الله –رحمه الله– بلسان الحال والحكمة: أيها المريد لا تستبطئ من ربك العطايا والأنوار، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال عليه بترك ما عداه، وأخرج من القلب من سواه، وإذا أقبلت عليه سبحانه وتعالى بالكلية أقبل عليك بالكلية، فكما يكون العبد يكون الرب جل في علاه، يقول ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)(١).

وفي حديث آخر يقول ﷺ: (إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك؟ قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا وتحميدا، وأكثر لك تسبيحا، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال:

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث رقم٧٤٠٥، الصحيح ١٢١/٩، وأخرجه البخاري في الحديث رقم٢٦٧٥، الصحيح ٢٠٦١/٤.

يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم)[١].

فمن ذكر الله تعالى وانشغل قلبه به لم يستبطئ منها شيئا، بل اتهم نفسه بالتقصير، فهذا الله -عز وجل- يتقرب من ابن آدم أكثر من قربه إليه، وما ذلك إلا من رحمته به، وحبه له، وحدبه عليه.

وقد قال بعض العلماء: إن الله -عز وجل- يقول: أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته، وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه.

وكان ابن مسعود ﷺ يحلف بالله تعالى قائلا: ما أحسن عبد بالله تعالى ظنه إلا أعطاه الله تعالى ذلك، لأن الخير كله بيده، أي فإذا أعطاه حسن الظن بالله تعالى فقد أعطاه ما يظنه، لأن الذي حسن ظنه به هو الذي أراد أن يحققه له.

اللهم اجعلنا من المتقربين والمقربين منك وإليك، واجعلنا ممن نحسن الظن بك، وتقبل منا ظننا، واجعله يا رب خيرا ومقبولا لديك، إنك أنت الأعز الأكرم.

## ٢٠٨- حُقُوقٌ فِي الأَوْقَاتِ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا، وَحُقُوقُ الأَوْقَاتِ لا يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا، إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلاَّ وَللّهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ، وَ أَمْرٌ أَكِيدٌ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللّهِ فِيهِ؟

لقد قسم ابن عطاء الله -رحمه الله تعالى- الأوقات التي هي حق لله -عز وجل- على العبد إلى قسمين:

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٤٠٨، الصحيح ٨/٨٦.

الأول: حقوق في الأوقات، والثاني: حقوق الأوقات.

فالأول: الحقوق التي في الأوقات التي يمكن قضاؤها إذا فاتت على الإنسان، مثل الصلاة والصيام والزكاة، فهذه الحقوق يمكن قضاؤها في وقت آخر لمن فاتت عليه، إما أن يؤديها في أول الوقت، أو في وسطه، أو في آخره.

والثاني: حقوق الأوقات: وهي التي لا يمكن قضاؤها، وهي الحقوق الباطنة التي تعتري الإنسان، مثل النعمة والطاعة والبلية والمعصية، إن فات وقتها فلا تؤدى في وقت غيرها، لأن هذه الأشياء تتجدد دائما، فإذا فات وقت الأولى لا يستطيع أن يؤديه في وقت الثانية.

ولقد بين ذلك سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله فقال: أوقات العبد أربعة لا خامس لها، النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية، ولله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية، فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه لها، ودفعه للقيام بها، ومن كان وقته المعصية فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار والندم، ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله، ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر.

لكن لو تعددت نعم الله على العبد، ولم يستطع أن يحصيها فالشكر هنا هو العجز التام، لأن العجز عن الإدراك إدراك.

لذا قال النبي ﷺ: (من أعطي فشكر، وابتلي فصبر، وظَلَم فاستغفر، وظُلِم فغفر، ثم سكت، فقالوا: يا رسول الله، ما له؟ قال: أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)(١).

فأوقات هذه الأشياء الأربعة لا تسع غيرها، لأنها تتجدد في كل لحظة، فإن فات شكرها أو الصبر عليها لا يستطيع الإنسان أن يؤديه في وقت غيرها، فيجب عليك أن تتأدب مع الأوقات بأدائها في وقتها، وعدم ضياعها فتندم.

---

(١) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٦٦١٣، المعجم الكبير ١٣٨/٧.

## ٢٠٩- مَا فَاتَ مِنْ عُمُرِكَ لا عِوَضَ لَهُ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لا قِيْمَةَ لَهُ

يبين ابن عطاء الله -رحمه الله- أن عمر الإنسان محسوب عليه بالنفس، ومسؤول عنه يوم القيامة كما قال الصادق المصدوق: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل: عن شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه)(١)، فما ظنك بنفسك وضعف قلبك، والله -عز وجل- يكرر عليك ذكر إحسانه إليك، ومخالفتك له، وقلة حيائك منه، فأعظم به موقفاً، وأعظم به من سائل لا تخفى عليه خافية، وأعظم بما يداخلك من الحزن والغمَّ والتأسف على ما فرطت في طاعته وركوبك معصيته.

فإذا تبالغ فيك الجهد من الغم والحزن والحياء بدا لك منه أحد الأمرين: أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك، ويغبطك الأولون والآخرون، وإما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء، فغلوه ثم الجحيم صلوه، وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك، وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله، وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك صفة في الميزان.

وهنا ينبهك ابن عطاء إلى ما قد يكون لك من حساب عسير أو يسير، وينبهك إلى عمرك ووقتك، لئلا ينقضي عليك فتندم، فيقول لك: أيها المريد لا عودة له، فهو إما شاهد لك أو عليك، فإن كنت قد ضيعته في الهوى والملذات كانت الحسرة والندامة يوم القيامة، وإن كنت قد استعملته في الطاعات فيكون لك السرور والحبور يوم القيامة والحياة الطيبة في الدنيا كما وعدك ربك بذلك، ووعد الله لا يتخلف، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٢).

ثم يقول ابن عطاء: وما حصل لك منه لا قيمة له، أي لا يقيم هذا الوقت

---

(١) أخرجه البزار في الحديث رقم١٤٣٥، البحر الزخار ٤/٢٦٦.

(٢) سورة الزلزلة الآيتان ٧، ٨.

بشيء لنفاسته، كما قال سيدنا علي رضي الله عنه: بقية عمر المرء ما لها ثمن، يدرك فيها ما فات، ويحيي ما أمات.

وكان عمر بن عبدالعزيز يقول:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نـوم والأسـى لك لازم
تُسَـر بما يفنى وتفـرح بالمنى ... كما سُرّ باللذات في النوم حالم
وشــغلك فيما سوف تكره غِبَّه ... كــذلك في الدنيا تعيش البهائم

وقال مورق العجلي: يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن، وينقص عمرك وأنت لا تحزن، تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك.

وما أجمل قول الشاعر:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ... ندمت على التفريط في زمن البذر

وقال آخر:

أعيناي هلا تبكيان على عمري ... تناثر عمري من يدي ولا أدري
إذا كنت قد جاوزت ستين حجة ... ولم أتأهب للممـــات فما عذري

اللهم ارزقنا المحافظة على أوقاتنا، وبصّرنا بعيوبنا، واقبضنا إليك غير فاتنين ولا مفتونين، آمين آمين يا رب العالمين.

### ٢١٠- مَا أَحْبَبْتَ شَيْئًا إلا كُنْتَ لَهُ عَبْداً، وَهُوَ لا يحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْداً

تالله ليس هناك محبوب للعبد سواه، ولا مجير له إلاه، فهو صاحب النعم والمنن والإحسان والإكرام، وهو الذي يكلؤكم بالليل والنهار، نعمه لا تعد ولا تحصى، ولولاه ما كان هذا الوجود، ولولاه ما اهتدى إنسان، ولا ظهر إلى هذا الوجود حيوان، ولا كان هناك ماء ولا حياة، فكيف لا يُحَب والنبي ﷺ يقول: (أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي)(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٣٧٨٩، سنن الترمذي ١٣٤/٦.

فالحب لا يكون إلا لله وحده الذي منه كل شيء، وإليه يعود كل شيء، وعطاؤه حقيقي وغير مجذوذ، لذلك قال الإمام الجنيد رحمه الله: إنك لن تكون على الحقيقة له عبدا وشيء مما دونه لك مستَرِق، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديتك بقية، فإن المكاتب عبد ما بقي عليه درهم.

والواجب على العبد أن يخلص قلبه من حب غير الله، والتعلق بغير الله، وما بعد ذلك كله يعد من شكر الله، فالحياء من تتابع النعم هو من الشكر، والمعرفة بالتقصير عن الشكر شكر، والاعتذار من قلة الشكر شكر، والمعرفة بعظيم الحلم وكثيف الستر شكر، والاعتراف بما أعطى من حسن الثناء وجميل النشر أنه من النعم من غير استحقاق من العبد، بل هو مضاف إلى نعمه هو من الشكر، وحسن التواضع بالنعم والتذلل فيها شكر.

أما إذا تعلق قلبه بحب العباد، أو حب الدنيا، أو حب النساء، فقد أصبح منقادا لهؤلاء الأحبة، وهنا يقول ابن عطاء الله رحمه الله: أنت عبد لما تحب، لانقيادك إلى محبوبك، لذلك قال النبي ﷺ: (تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة[١]، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش[٢]، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة[٣]، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع[٤])[٥].

أي أن محبة الشيء ملزمة للعبودية له، فاجعل محبتك لمن تلزمك عبوديته، وتعود عليك بغاية النفع عنايته، وليس ذلك إلا لمولاك القدير، فإذا أحببت غيره تركك

(١) الثوب من الخز أو الحرير.
(٢) إذا أصابته شوكة فلا خرجت شوكته بالمنقاش.
(٣) مؤخرة الجيش.
(٤) كناية عن إهماله وعدم الاكتراث من الناس لشأنه، لضعفه عندهم وعدم شهرته ومعرفته.
(٥) أخرجه البخاري في الحديث رقم٢٨٨٧، الصحيح ٣٤/٤.

وما تحب، لأنه لا يقبل الشريك، أما حب الغير فيكون عن طريقه، فتحب أولادك، لأنه أمرك بحبهم، والعطف عليهم، وكذلك كل شيء تحبه من أجل الله عز وجل.

## ٢١١- لا تَنْفَعهُ طَاعَتُكَ ولا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ، وَإِنَّمَا أَمَرَكَ بِهَذَه وَنَهَاكَ عَنْ هَذَه لِمَا يَعُودُ إِلَيْكَ

إن الله -سبحانه وتعالى- هو الغني الحميد، لا يعود عليه نفع من عبيده، ولا يلحقه ضرر منهم، فهو لا يعتريه نقص من معصية العاصين، ولا تلحقه زيادة من طاعة الطائعين، لأن له صفة الكمال الذاتي، وله صفة الإيجاد والإمداد، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، سبحانه وتعالى.

ولذا كتب سليمان إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما: إني أنام، وأقوم، وأحسب نومتي كما أحسب قومتي، وأحسب نومتي طاعة لله تعالى، هذا الحق، فإيفاؤه إياه طاعة لله، ولأن في نومته استجلاب القوة لقومته، وتشحيذ الطبع، وحثا منه لنفسه على طاعة ربه عز وجل، وحبب عبادة الله إلى نفسه؛ لأن الله عز وجل أحب من عباده أن يحبوه، ويؤثروه، ويقبلوا بها عليه، ولذلك كلفهم الأعمال لتشتغلوا بها عما دونه، وتقبلوا بها عليه، وتتوجهوا بأدائها إليه، فإذا تحملوا منها فوق طاقتهم ملوا، فتركوها، وفي تركها ترك الإقبال عليه، والتوجه إليه، وهو غني عن أفعال عباده، ولا يزيده طاعتهم، ولا ينقصه معصيتهم، وإنما أراد منهم إظهار فقرهم إليه، ورؤية اضطرارهم إليه، وعجزهم ليغنيهم، ويقويهم، ويجعلهم ملوكا خالدين، وأغنياء لا يفتقرون، وأقوياء لا يضعفون، سبحان اللطيف بعباده، والرءوف بهم.

وإنما أمرك الله بالطاعة ونهاك عن المعصية لحكمة يرجع نفعها إليك، وهذه نعمة عظيمة من الله، ومنة ساقها إليك، لترفع قدرك عنده، فله الحمد وله الشكر على ما أعطانا وأولانا به من نعمه، وما أجمل قول الشاعر حين ناجى ربه هاتفا:

يا فاطـــر الخلق البديع وكافــلا     رزق الجميع سحاب جودك هاطل
يا مسبغ البر الجزيل ومسبل الـ     ســـتر الجميل عميم طولك طائل

يا عـالم السر الخفي ومنجز الـ ... وعـد الوفي قضاء حكمك عادل
عظمت صفاتك يا عظيم فجل أن ... يحصي الثنـاء عليك فيها قائل
الذنب أنـت له بمنِّك غافـر ... ولتوبـة العاصي بحلمك قابل
أتتـك من ألطافه الفرج الذي ... لم تحتسـبه وأنت عنه غافل
يا موجـد الأشياء من ألقى إلى ... أبواب غيرك فهـو غِرٌّ جاهل
ومن استراح بغير ذكرك أو رجا ... أحـدا سواك فذاك ظل زائل
عمـل أريد به سـواك فإنه ... عمـل وإن زعم المرائي باطل
وإذا رضيت فكل شيء هيـن ... وإذا حصلت فكل شيء حاصـل

اللهم أدم نعمك علينا، وابعد عنا النقم، يا من لا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، هب لنا اللهم يا رب ما لا يضرك، وأعطنا ما لا ينقصك، أفرغ اللهم علينا يا رب صبرا وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين.

## ٢١٢- لا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَلا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّهِ إِدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ

لا زال ابن عطاء يصف الطريق للمريد، وينبهه أن عبادته وطاعته إنما هي له لا لربه، وإذا كانت صورة لله تعالى فإنها حقيقة وجوهرا نفع للعبد وعز له، فإن الله له العزة التي لا تضام، فلا يزيده إقبال من أقبل عليه، ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر عنه، لأنه لا يحتاج لأحد من مخلوقاته، وكل مخلوقاته تحتاج إليه، فهو القاهر فوق عباده، له العزة والكبرياء، ولولاه ما كان شيء، فكيف يحتاج الخالق إلى المخلوق؟ أم كيف يحتاج العزيز إلى الذليل؟ وكيف يحتاج الغني إلى الفقير؟.

وانظر إلى جماع ذلك كله في الحديث القدسي الذي رواه أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر ﵁ عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال

إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا، فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه)(١)، قال سعيد: كان أبو إدريس الخولاني، إذا حدث بهذا الحديث، جثا على ركبتيه.

إن الله العزيز الكريم لا تنفعه طاعة من أطاع، ولا تزيد طاعتك في ملكه شيئا، وإنما هي أعمال توف لأصحابها، فإن قوة الناس لا تساوي ذرة بالنسبة لقوة المخلوقات التي خلقها الله كالسموات والارض والجبال، وقوة المخلوقات كلها لا تساوي ذرة بالنسبة لقوة الله، وقوة الناس وقوة المخلوقات كلها بيد الله، وفي قبضة الله، يعز بها من يشاء، ويذل بها من يشاء، ويهلك بها من يشاء، والله بكل شيء عليم.

## ٢١٣- وُصُولُكَ إِلَيْهِ وُصُولُكَ إِلَى العِلْمِ بِهِ، وَإِلا فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ

إن غاية العارفين بالله –عز وجل– الوصول إليه، فبين ابن عطاء الله –رحمه الله تعالى– معنى الوصول إلى الله في هذه الحكمة، فقال: وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، أي وصولك إلى الله هو وصولك إلى العلم الحقيقي به، لأن الله –عز وجل– ليس في مكان معين حتى نستطيع قطع المسافة إليه، ولا في زمان معين حتى نستطيع

(١) أخرجه مسلم في الحديث رقم٢٥٧٧، الصحيح ١٩٩٤/٤.

قطع الزمان إليه، لأنه متنزه عن المكان والزمان، وإنما الوصول إلى الله بالعلم الحقيقي والمعرفة الحقيقية لله عز وجل.

لذلك لا يتكلم عن الله إلا العالم بالله، وهو العارف به، أما غير ذلك فلا يتحدث عن الله عز وجل، فمن كان مقامه العلم بالله، كان حاله الخوف منه، ومن كان مقامه الرجاء لله تعالى كانت حاله المعاملة له، وقرب العبد علي حسب قرب الله تعالى من قلبه، وقرب الله تعالى منه بقدر علمه بالله تعالى، واتساعه في العلم بالله عز وجل على نحو مكانه من مزيد الإيمان، ومزيد إيمانه على قدر إحسان الله تعالى إليه، وإحسانه إليه على قدر عنايته به وإيثاره له، وعلم الله من وراء ذلك، وذاك سر القدرة.

والمعرفة بالله تعالى هي رأس كل شيء، لأن الناس إنما يخلصون في أعمالهم على قدر معرفتهم به، ويتواضعون لله على قدر معرفتهم به، ويشكرون الله على نعمه على قدر معرفتهم به، ويرجون الله ويخافون على قدر معرفتهم به، ويحسنون الظن على قدر معرفتهم به، ويصبرون على طاعته وعن معصيته وعلى كتمان طاعته وعلى المصائب التي تنزل بهم أحكامها على قدر معرفتهم به، ويحبون ما أحب، ويبغضون ما أبغض على قدر معرفتهم به، فمن فاتته المعرفة بالله دخله النقص في جميع ما ذكرنا على حسب ما فاته من المعرفة، وعلى حسب ما رزق منها.

ولذا يقول العارفون: إن التبحر في العلم بالله بحسن المعرفة يملأ القلب نورا، يحرق ذلك النور جميع نيران النفس، من الشهوات الهاوية في القلب إلى الإخلاد والتمكث، فلذلك تراه في الآخرة يطفئ نوره نيران الآخرة والتمكث على الجسر، وهكذا صفة المؤمن يومئذ على الجسر ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

(١) سورة التحريم من الآية ٨.

## ٢١٤- قُرْبُكَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ مُشَاهِداً لِقُرْبِهِ، وَإِلا فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وَوُجُودُ قُرْبِهِ

يقول الله عز وجل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(١)، ويقول العارف بالله عز وجل: أنا قريب من الله، فما هذا القرب؟.

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– هذا القرب فيقول: قربك منه أن تكون مشاهدا لقربه منك، فيستفيد بهذه المشاهدة شدة المراقبة، والتأدب والهيبة من الله –عز وجل– بحيث لا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، فإحساسك بأنه يراك هو الذي يجعلك دائما مراقبا لله، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه، وكل ذلك يكون بالبصيرة وليس بالبصر.

وأفضل الحياء المراقبة لله عز وجل، والمراقبة في ثلاثة أشياء، مراقبة الله في طاعته بالعمل، ومراقبة الله في معصيته بالترك، ومراقبة الله في الهم والخواطر، وهو ما ورد في حديث أبي هريرة ﷺ قال: (كان النبي ﷺ بارزا يوما للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث، قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام: أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(٢).

يقول العارفون في التعليق على هذا الحديث: هذا الذي قاله ﷺ: فإن لم تكن تراه فإنه يراك إشارة إلى حال المراقبة، لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه، واستدامته لهذا العلم مراقبة لربه، وهذا أصل كل خير له، ولا يكاد يصل إلى هذه الرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة، فإذا حاسب نفسه على ما سلف، وأصلح حاله في الوقت، ولازم طريق الحق، وأحسن بينه وبين الله تعالى مراعاة القلب، وحفظ مع الله تعالى الأنفاس، راقب الله تعالى في عموم أحواله، فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب، ومن

---

(١) سورة ق الآية ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في الحديث رقم٥٠، الصحيح ١/١٩.

قلبه قريب، يعلم أحواله، ويرى أفعاله، ويسمع أقواله، ومن تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة، فكيف عن حقائق القربة؟.

## ٢١٥- الْحَقَائِقُ تَرِدُ فِي حَالِ التَّجَلِّي مُجْمَلَةً، وَبَعْدَ الْوَعْيِ يَكُونُ الْبَيَانُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ أن عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن الحقائق التي هي العلوم والمعارف اللدنية التي يقذفها الحق –سبحانه وتعالى– في قلوب العارفين الذين خرجوا من رق الأغيار، ونقوا قلوبهم من الآثار والأكدار، تأتي هذه التجليات مجملة إلى قلوب العارفين، لا تتبين لهم معانيها العظيمة، يتجلى الله عليهم فيكون الإنسان في هذا الحالة في ذهول واصطلام، وبعد الوعي والإفاقة بزوال ذلك التجلي يكون البيان، فيتبين لهم معناها بإرجاعها إلى الكتاب والسنة، والتثبت من الوارد أنه وارد من الله تعالى، أو أنه وارد من الشيطان، بإرجاع الوارد إلى العلوم النقلية والعقلية، فالحقيقة إن خالفت الشريعة تكون باطلة، لأن الذي جاء بالشريعة هو الذي أتى بالحقيقة، وهو لا يناقض نفسه سبحانه وتعالى.

وأوقات التجلي هذه هي بركة العمر التي تزيد فيه، فتجعله أكثر من غيره بمئات السنين بركة، فإن البركة في العمر أن تدرك في عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك من عمره الطويل بغفلته، فيرتفع لك في سنة ما لا يرتفع له في عشرين سنة، وللخصوص من المقربين في مقامات القرب عند التجلي بصفات الرب إلحاق برفيع الدرجات، وتدارك ما فات عند أذكارهم وأعمال قلوبهم اليسيرة في هذه الأوقات، فكل ذرة من ذكر بتسبيح، أو تهليل، أو حمد، أو تدبر وتبصرة، وتفكر وتذكرة، بمشاهدة قرب، ووجد برب، ونظرة إلى حبيب، ودنو إلي قريب، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين، الذين هم بنفوسهم واجدون، وللخلق مشاهدون، فمثل العارفين فيما ذكرته من قيامهم بمشاهدتهم، ورعايتهم لأمانتهم، وعهدهم في وقت قربهم وحضورهم مثل العامل في ليلة القدر، العمل فيها لمن وافقها خير من ألف شهر، وقد قال بعض

العلماء: كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر.

ولكي تصل هذه الواردات يلزمه الخلوة في بعض الوقت، لما لها من أثر عظيم في تلقي هذه الأنوار، فليس في كثرة المجالسة والمؤانسة تلقي وارد، ولا استقبال أنوار، ولا ورود أسرار، ومن ائتنس بالله تعالى لم يوحشه أحد من الخلق، وقد قال بعض العلماء: من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة، ومن آنسه قراءة القرآن، لم توحشه مفارقة الإخوان.

والخلوة تفرغ القلب من الخلق، وتجمع الهم بأمر الخالق، وتقوي العزم على الثبات، إذ في مخالطة الناس وهن العزم، وشتات الهم، وضعف النية.

والخلوة تقل الأفكار في عاجل حظوظ النفس، لفقد مشاهدتها بالأبصار، لأن العين باب القلب، ومنها يدخل آفاته، وعندها توجد شهواته ولذاته، ولذا قال بعض العلماء: من كثرت لحظاته دامت حسراته.

وقال بعض التابعين: إن العبد ليقعد في الخلوة على خصال من الخير فيخرج إلى الناس فيحللون ما عقده عقدة عقدة حتى يرجع وقد انحلت العقد كلها.

ومن هنا كان الصحابة والعارفون يحبون الخلوة ويحثون عليها، فعن مسلم البطين قال: أتيت شراف، فإذا شيخ كبير من طي يقال له: عدسة قال: قلت في نفسي: إني لأرى هذا قد لقي بعض أصحاب محمد رسول الله ﷺ، فسألته فقال: نعم مر بنا ابن مسعود هاهنا، فأهدى له أهلي شيئا من إقط وسمن وطير جاءت به رعانا من مسيرة أربع. فقال ابن مسعود: وددت أني حيث صيد هذا الطير، لا يكلمني أحد ولا أكلمه.

وقال مسلم بن يسار: ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله عز وجل والأنس بمحبته.

وفي الأثر عن الله تعالى أنه قال: كذب من ادعى محبتي إذا جنه الليل نام عني، أليس كل حبيب يحب الخلوة بحبيبه، فها أنا ذا قريب من أحبابي أسمع سرهم ونجواهم وأشهد حنينهم وشكواهم.

وروي عن بعض العلماء القدماء أن الله عز وجل أوحى إلى بعض الصديقين:

إن لـي عبـادا مـن عبـادي يحبـوني وأحـبهم، ويشـتاقون إلـي وأشـتاق إلـيهم، يـذكروني وأذكرهم، وينظـرون إلـي وأنظـر إلـيهم، فـإن حذوت طـريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك، قال: يا رب: وما علامتهم؟ قال: يراعون الظـلال بالنهار كما يراعـي الراعـي الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب، فـإذا جنهم الليل، واختلط الظـلام، وفرشت الفرش، ونصبت الأسرة، وخـلا كل حبيب بحبيبـه، نصـبوا لـي أقـدامهم، وافترشـوا لـي وجـوههم، ونـاجوني بكلامـي، وتملقـوا لـي بأنعامي، فبين صارخ وباك، وبين متأوه وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي، فأول ما أعطيهم ثلاثا أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيهما فـي موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة أقبل بوجهي عليهم فترى من أقبلت بوجهي عليه لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه.

وللعـارفين فـي مقـام الـواردات عجائـب وألـوان، ومـن جملـة مـا يجـرى فـي كلامهـم الـذوق والشـرب، ويعبـرون بـذلك عمـا يجدونـه مـن ثمـرات التجلـي، ونتـائج الكشـوفات، وبـواده الـواردات، وأول ذلك الذوق، ثم الشرب، ثم الري، فصفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني، ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب، ودوام مواصـلاتهم يقتضـي لهم الري، فصاحب الذوق متساكر، وصاحب الري صاحٍ، ومن قوى حبه تسرمد شربه، فإذا دامت به تلك الصفة لم يورثه الشرب سكرا، فكان صاحيا بالحق، فانيا عن كل حظ، لم يتأثر بما يرد عليه، ولا يتغير عما هو به، ومن صفا سره لم يتكدر عليه الشرب، ومن صـار الشراب له غذاء لم يصبر عنه ولم يبق بدونه.

وما أجمل قول العارف:

عجبت لمن يقول ذكرت ربي    فهل أنسى فأذكر ما نسيت؟
شـربت الحب كأسا بعد كأس    فمـا نفد الشــراب ولا رويـت

## ٢١٦- مَتَى وَرَدَتِ الْوَارِدَاتُ الإِلَهِيَّةُ إِلَيْكَ هَدَمَتِ الْعَوَائِدَ عَلَيْكَ ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾

لا زال ابن عطاء -رحمه الله- يحلق بنا في مقامات عالية للعارفين والمحبين، ويبين ألوانهم، ولما جاء الحديث عن الوارد وتجلياته صفا قلب الرجل، ودقت عبارته، وغمض المعنى على غير العارف، وأصبحت كلماته إشارات، ومعانيها لا تحددها العبارات، وهو هنا يبين أنه متى وصلت الواردات الإلهية، وهي المعارف والعلوم اللدنية والتجليات الربانية إليك أيها العبد هدمت العوائد التي اعتادتها النفس من الشهوات والملذات والهوى، لأن الواردات لها سطوة وجلوة على النفس، فإذا وردت على قلب مشحون بالأكدار والأغيار والآثار أزالته، كالملك الذي له سطوة على الجنود، لذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾[١]، كذلك الواردات تزيل الخبائث.

والوارد ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون بتعمد العبد، وكذلك ما لا يكون من قبل الخواطر فهو أيضا وارد، ثم قد يكون وارد من الحق، ووارد من العلم، فالواردات أعم من الخواطر، لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب أو ما يتضمن معناه، والواردات تكون وارد سرور، ووارد حزن، ووارد قبض، ووارد بسط، إلى غير ذلك من الأنواع والمعاني.

والعوائد ما تعوده المرء في حياته، فإن كانت عادة خير كان التزامه بها خيرا، وإن كانت عادة سوء كان بعده عنها مغنما، وإن كان الأفضل في كل حال ألا يلزم المرء نفسه بعادة، ولذا قالوا: خير عادة ألا تكون لك عادة، وقالوا: عادات السادات؛ سادات العادات.

ومن عادات الخير التي نصح بها العارفون أقوال مأثورة، وجمل نافعة منها قولهم:

- تاجروا الله بالصدقة تربحوا.

---

(١) سورة النمل من الآية ٣٤.

- اعص هواك وأطع من شئت.
- عجلوا المعروف قبل سوء الظن ولحاق السيئة.
- اترك الشر ما تركك.
- داو المودة بكثرة التعاهد.
- تَعَزّ عن الدنيا تعِزُّ.
- ارع حق من عظمك لغير حاجة إليك.
- عود نفسك الصبر على قرين السوء فإنه لا يكاد يخطيك.
- أعط من دونك ما تحب أن يعطيك من فوقك.
- أنصف مظلومك قبل أن ينصفه الدهر منك.
- استغن عن الناس يحتاجوا إليك.
- خفف طعامك تأمن أسقامك.
- كل قليلا تعش كثيرا.
- أحيوا الحياء بمجاورة من يستحيي منه.
- ارض من أخيك إذا ولي ولاية بعشر وده قبلها.
- انصح ولا تفضح.
- كن ذنبا في الخير، ولا تكن وأسأ في الشر.
- أغد عالما أو متعلما ولا تكن الثالث فتهلك.
- قارب الناس في عقولهم تسلم من غوائلهم.
- تعام عن ما تسوؤك رؤيته، وتصام عما يؤذيك سماعه.
- اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك.
- من أيقن بالخلف جاد بالعطية.
- من كثر رضاه عن نفسه كثر الساخطون عليه.

**٢١٧- الوَارِدُ يَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ، لأَجْلِ ذلِكَ لا يُصَادِمُهُ شَيْءٌ إلاَّ دَمَغَهُ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾**

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن الواردات الإلهية والتجليات الربانية التي تأتي من حضرة القهار، وترد على قلب العبد الذي أراد الله –عز وجل– أن يخلصه من رق الأغيار، وأراد به الخير، تأتي من اسمه القهار، ومعناه الغالب، من أجل ذلك لا يصادمه شيء من الأغيار إلا دمغه وأزاله، فالحق إذا ورد على الباطل فإنه يزيله ويمحوه، لذا قال الله عز وجل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(١).

والوارد لا يأتي إلا بحكم الله تعالى، ومتى حكم غلب وقهر، والقهار لا يصادمه شيء، فالحكم لله العلي الكبير، الواحد القهار، يقهر عباده كيف شاء، ويجري عليهم ما يشاء، وله الحجة البالغة، والعزة القاهرة، والقدرة النافذة، والمشيئة السابقة بوصف الربوبية، وبحكم الجبرية، وعليهم الاستسلام والانقياد، والطاعة والاجتهاد، طوعا وكرها، بوصف العبودية، وبحق الملكية.

وكذا الوارد لا يأتي إلا بتقوى، ولذا جاء: واتقوا الله ويعلمكم الله واتقوا الله واعلموا واتقوا الله واسمعوا، واعلم أن من عمل بعلم أو نطق به فأصاب الحقيقة عند الله تعالى فله أجران، أجر التوفيق وأجر العمل، وهذا مقام العارفين، ومن نطق بجهل أو عمل به وأخطأ الحقيقة فعليه وزران، وهذا مقام الجهال، ومن قال أو عمل بعلمه وأخطأ الحقيقة فله أجر لأجل العلم، وهذا مقام علماء الظاهر، ومن قال بجهل أو عمل عملا وأصاب الحقيقة فعلية وزر لتركه طلب العلم، وهذا مقام جهلة العابدين.

وقال تعالى لعيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني.

وقال بعض العلماء: مهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب، وعند ذلك يعمى

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ١٨.

القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين، ويستهين بأمر الآخرة، ويستعظم أمر الدنيا، ويصير مقصور الهم عليها، فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب، ولم يحركه إلى التوبة والتدارك، أولئك يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة.

قال ميمون بن مهران: إذا أذنب العبد ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع وتاب صقل، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران.

وقيل: وأفضل ما تشوغل به حفظ القرآن، ثم الفقه، وما بعد هذا بمنزلة تابع، ومن رزق يقظة دلته يقظته، فلم يحتج إلى دليل، ومن قصد وجه الله تعالى بالعلم دله المقصود على الأحسن.

نسأل الله أن يمن علينا وعلى أتباعنا وجميع المسلمين بهبات اسمه القهار، آمين.

## ٢١٨- كَيفَ يَحْتَجِبُ الحَقُّ بِشَيْءٍ، وَالَّذِي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ

انتقل ابن عطاء بعد أن تحدث عن الواردات ووردها وأثرها إلى موردها جل وعلا، وظهوره وخفائه، فبين أن الله –عز وجل– أظهر من الظهور، فهو الموجود الحقيقي، وجميع المخلوقات عدم محض، فلولا أنواره ما ظهر شيء في هذا الوجود، وبه قام كل شيء، لأنه قيوم السماوات والأرض، فكيف يكون لغيره الظهور وهو الذي أظهره، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر في كل شيء؟، وكيف يكون ما هو ظاهر فيه حجابا حتى يستدل به عليه؟، لا يقول بذلك إلا من طمس الله على بصيرته، ومن علامات ظهوره في كل شيء حضور القلب، وتلذذه بالطاعة ووجدان حلاوتها، فلولا وجوده ما شعر الإنسان بشيء من ذلك، فالإيمان له حلاوة تأتي من الواحد الديان.

فهو سبحانه فوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، وليس يحيط به شيء، وليس هو تعالى في كل هذا مكانا لشيء، ولا مكانا له شيء، وليس كمثله في كل هذا شيء، لا شريك له في ملكه، ولا معين له في خلقه، ولا نظير له من عباده، ولا شبيه له في اتحاده، وهو أول في آخريته بأولية هي صفته، وآخر في أوليته بآخرية هي نعته، وباطن في ظهوره بباطنية هي قربه، وظاهر في باطنيته بظهورٍ هو علوه، لم يزل كذلك أزلا، ولا يزال كذلك أبدا، لا يتوجه عليه التضاد، ولا تجري عليه الحوادث والآباد، ولا ينتقص ولا يزاد.

ولذا قيل في معاني اسمه الكريم: الأول: هو السابق للأشياء كلها، الكائن الذي لم يزل قبل وجود الخلق فاستحق الأولية إذ كان موجودا ولا شيء قبله ولا معه، وهو الآخر أي الباقي بعد فناء الخلق، وليس معنى الآخر ما له الانتهاء، كما ليس معنى الأول ما له الابتداء؛ فهو الأول والآخر وليس لكونه أول ولا آخر، وهو الظاهر بحججه الباهرة، وبراهينه النيرة، وبشواهد أعلامه الدالة على ثبوت ربوبيته، وصحة وحدانيته، ويكون الظاهر فوق كل شيء بقدرته، وقد يكون الظهور بمعنى العلو، ويكون بمعنى الغلبة، وهو الباطن أي المحتجب عن أبصار الخلق، وهو الذي لا يستولي عليه توهم الكيفية، وقد يكون معنى الظهور والبطون احتجابه عن أبصار الناظرين، وتجليه لبصائر المتفكرين.

ولذا لما قام رجل بين يدي ذي النون المصري فقال: أخبرني عن التوحيد ما هو؟ فقال: هو أن تعلم أن قدرة الله تعالي في الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، وليس في السموات العلا ولا في الأرضين السفلي مدير غير الله، وكل ما تصور في وهمك فالله بخلاف ذلك.

فالله سبحانه أول سبق وجود كل موجود، آخر يدوم بقاؤه بعد كل مفقود، ظاهر بعلوه وقهره فوق كل شيء، باطن بنفوذ علمه فلا يشذ عن إحصائه شيء، هو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش.

فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره، ولا

يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإن الأشياء تستبان بأضدادها، وما عمّ وجوده حتى أنه لا ضد له عسر إدراكه، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر.

## ٢١٩- لا تَيْأَسْ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لا تَجِدُ فِيْهِ وُجُودَ الحُضُورِ، فَرُبَّمَا قَبِلَ مِنَ العَمَلِ مَا لَمْ تُدْرَكْ ثَمَرَتُهُ عَاجِلاً

يحلق ابن عطاء في هذه الحكمة مع المريد في سماء الأعمال، ويزيل عنه القنوط في قبولها، أو اليأس من نوال رضا الله تعالى بها، فإن الله -عز وجل- دائما وأبدا يرغب عباده في العبادة والطاعة، فيقول: يا عبدي، لا تيأس من عمل لا تجد فيه حضور قلبك مع الله عز وجل، فإن ذلك علامة غير مطردة على قبول الأعمال، لأنه ربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا، وإنما الشرط في قبول العمل هو الإخلاص، أي قصد وجه الله عز وجل به، أما حضور القلب وتلذذ العبد به ووجدان حلاوته، وكل ذلك من ثمرات العمل الصالح، فهي علامات وليست شروطا للقبول.

ولذا اهتم العارفون بتنقية القلب من القنوط من رحمة الله تعالى، أو اليأس من قبول العمل، يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: النجاة في اثنتين، والهلكة في اثنتين: النجاة في النية، والنهى، والهلكة في القنوط، والإعجاب.

فالإياس من روح الله الذي يستريح إليه المكروب من الذنوب والقنوط من رحمة الله تعالى التي يرجوها المبتلي بالذنوب أعظم من ذنوبه، وهو أشد من جميع ذنوبه، لأنه قطع بهواه على صفات الله تعالى المرجوة، وحكم على كرم وجهه بصفته المذمومة، فكان ذلك من أكبر الكبائر، وإن كانت ذنوبه كبائر.

ولذا ورد في الأثر عن وهب بن منبه ﷺ أنه قال: كان فيمن كان قبلكم رجل عَبَدَ الله سبعين سنة، يفطر من سبت إلى سبت، فطلب إلى الله حاجة فلم يعطها، فأقبل على نفسه وقال: لو كان عندك خير قضيت حاجتك، وإنما أتيت من قبلك، فنزل عليه ملك من ساعته، فقال: يا ابن آدم، إن ساعتك التي ازدريت نفسك فيها خير من

عبادتك التي قد مضت.

وروي أن عليا رضي الله عنه قال لبعض الخائفين، وقد تاه عقله فأخرجه الخوف إلى القنوط: ما صيرك إلى ما أرى؟ فقال: ذنوبي العظيمة، فقال: ويحك إن رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك، فقال: إن ذنوبي أعظم من أن يكفرها شيء، فقال: إن قنوطك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك.

فيا أيها المريد: لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله، وتوقعك في القنوط من رحمته، فإن من عرف ربه وكرمه وجوده استصغر في جنب كرمه وعفوه ذنبه.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، آمين.

## ٢٢٠- لا تُزَكِّيَنَّ وارِداً لا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ، فَلَيْسَ المُرَادُ مِنَ السَّحَابَةِ الإِمْطَارَ، وَإِنَّمَا المُرَادُ مِنْهَا وُجُودُ الإِثْمَارِ

كثير من الناس يغتر بالظاهر دون الباطن، ويفرح بالمظهر دون الجوهر، ويغتر بالشيء ولا يدري باطنه، فالمهم من الشيء ثمرته المرجوة، وفائدته المبتغاة، وليس مجرد حصوله أو وجود وقوعه، وهذه الحكمة تركز على هذا الجوهر، حيث يبين ابن عطاء الله فيها للمريد هذا الفرق الدقيق، ويدله على هذا الأمر المهم، فيقول له: لا تفرح بأي وارد يرد عليك، لأنك لا تعلم ما في هذا الوارد، وهل هو خير لك وفيه ثمرة، أم هو شر لك ووبال عليك؟.

وهل يتأثر القلب بهذا الوارد فتنشط الجوارح للأعمال الصالحة أم لا؟، فليس المراد من السحابة الأمطار، بل ما ينشأ عن المطر من وجود الإثمار، وكذلك الوارد إذا لم تحصل به الثمرة المرجوة منه، وهي النهوض إلى العمل الصالح، وتهذيب النفس، تكون تزكيته نوعا من الاغترار، ولونا من الخديعة، لأنه حينئذ يكون مدحه لحظه راحة للنفس به، لكن ليس لما يحصل للقلب من استبصار ومنفعة حقيقية.

فالوارد الحقيقي الذي يأتي من الله –عز وجل– يكون نافعا للقلب والنفس، أما

الوارد الذي يأتي من الغرور فإنه يكون كالمطر الذي لا يُنتفع به، بل يؤدي إلى الأذى والعياذ بالله.

وهذا هو شأن الشيطان، يزين فقط للإنسان، ويغره بأشياء لا حقيقة لها، ولا دوام لوجودها، فأكثر الناس عيبا من يظن أنه متوفر[١] مع فترته وتقصيره، وهذا من قلة شكره في وقت توفيقه للقيام بهذه الحقوق، فلما قل شكره أزيل عن مقام التوفر إلى مقام التقصير، ويستر عليه نقصانه ويستحسن له أفعاله.

جعلنا الله تعالى ممن يعلمون فيعملون، ويخلصون فيقبلون، اللهم إنا نسألك بفضلك الواسع ألا تطمس على قلوبنا وأبصارنا، وأن ترينا الحق حقا وترزقنا اتباعه، وترينا الباطل باطلا وترزقنا اجتنابه.

**٢٢١- لا تَطْلُبَنَّ بَقَاءَ الوَارِدات بَعْدَ أَنْ بَسَطَتْ أَنْوَارَهَا وَأَوْدَعَتْ أَسْرَارَهَا، فَلَكَ فِي اللّهِ غِنىً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْس يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ**

إن الإنسان إذا وردت على قلبه الواردات وبسطت أنوارها عليه فإنه يأتنس بذلك، ولا يريد مفارقة هذه الحالة، فينبهه ابن عطاء الله هنا إلى ذلك، ويقول له لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها على قلبك، فتكيّفَ باطنُك وظاهرك بكيفيات العبودية، وأودعتك أسرارها، فلا تطلب بقاءها حتى لا تأتنس بها عن مولاك عز وجل، فتكون كمن اشتغل بالمظاهر وترك الظاهر، وكمن اشتغل بالنعم وترك المنعم، وليكن هدفك من الوارد هو ثمرته، ثم تعود بذلك لله عز وجل ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٢]، ولأن لك في الله -عز وجل- غنى عن كل شيء، وليس يغنيك عنه شيء، أليس الله بكاف عبده؟.

فمن كان الله معه كان الكون بيديه، فلا تنشغل بغيره، ولا تأتنس بسواه، وقد أدرك العلماء والعارفون ذلك، فاستغنوا بالله عن كل شيء، وتواصوا فيما بينهم بذلك، فقد

---

(١) يقصد بالتوفر هنا انقطاعه للعبادة وانشغاله بها.

(٢) سورة البقرة من الآية ١١٥.

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنهما- يقول له: يا أخي، من استغنى بالله اكتفى، ومن انقطع إلى غيره تعنى، ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع لم يغنه منها كثرة ما يجمع، فعليك منها بالكفاف، وألزم نفسك العفاف، وإياك وجمع الفضول، فإن حسابه يطول.

وقال بعض الحكماء: هيهات منك الغنى إن لم يقنعك ما حويت، فأما من أعرضت نفسه عن قبول نصحه، وجمحت به عن قناعة زهده، فليس إلى إكراهها سبيل، ولا للحمل عليها وجه إلا بالرياضة والمروءة، وأن يستنزلها إلى اليسير الذي لا تنفر منه، فإذا استقرت عليه أنزلها إلى ما هو أقل منه، لتنتهي بالتدريج إلى الغاية المطلوبة، وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة، ومن استغنى بالله افتقر إليه الناس.

اللهم أنت أنيسنا في وحشتنا، وأنت غنانا في فقرنا، وأنت ملاذنا من جميع المكونات، فأدم علينا هذه النعمة، آمين.

## ٢٢٢- تَطَلُّعُكَ إِلَى بَقَاءِ غَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وِجْدَانِكَ لَهُ وَاسْتِيحَاشُكَ بِفِقْدَانِ مَا سِوَاهُ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وُصْلَتِكَ بِهِ

إن العارف بالله -عز وجل- إذا وجد الله في قلبه لم يطلب بقاء غيره من الواردات الباطنية والنعم الظاهرة والعبادات وغيرها، ولو وصل إليه لم يستوحش من فقدان أي شيء، لأن الأنس بالله يكفيه عن كل شيء، فإن غاية الآمال ونعيم النعيم هو الأنس بالله، لذلك قال ابن عطاء في مناجاته: ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك.

وقال في هذه الحكمة: تطلعك إلى بقاء غيره من المكونات أو الواردات أو العبادات دليل على عدم وجدانك له، فلو وجده في قلبه لم يطلب سواه، ولم يتمن غيره، وكذلك استيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به، لأنك إذا وصلت إليه فلا تحتاج أن تأتنس بغيره.

ولهذا الأنس بالله علامات تدل عليه نبه إليها العارفون بالله تعالى، فمن الرجاء الأنس بالله تعالى في الخلوات، ومن الأنس به الأنس بالعلماء، والتقرب من الأولياء، وارتفاع الوحشة بمجالسة أهل الخير، وسعة الصدر والروح عندهم.

وقد أنشد بعض العارفين قائلا:

الأنس بالله لا يحويه بطال     وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم نجب     وكلهم صفوة لله عمال

وما أبدع قول ذي النون المصري في وصف الإيمان بالله والأنس به، وعلامات كل منهما، حيث قال: إن لله صفوة من عباده، فقيل له: يا أبا الفيض، فما علامتهم؟ قال: إذا خلع العبد الراحة، وأعطى المجهود في الطاعة، وأحب سقوط المنزلة، فقيل له: يا أبا الفيض، فما علامة إقبال الله عز وجل على العبد؟ قال: إذا رأيته صابرا، شاكرا، ذاكرا، فذلك علامة إقبال الله عليه، فقيل له: فما علامة إعراض الله عن العبد؟ قال: إذا رأيته ساهيا، لاهيا، معرضا عن ذكر الله عز وجل، فذاك حين يعرض الله عنه، قيل له: يا أبا الفيض، فما علامة الأنس بالله؟ قال: إذا رأيته يوحشك عن خلقه فإنه يؤنسك من نفسه، وإذا رأيته يؤنسك من خلقه فإنه يوحشك من نفسه.

فانظر يا رعاك الله أين أنت من ذلك، وأين حالك من هذه الحال، وأصلح من نفسك قدر ما يمكنك، وجاهدها لتلين وترضى، واسأل الله السلامة يغنمك إياها.

## ٢٢٣- النَّعِيمَ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَاقْتِرَابِهِ، وَالْعَذَابَ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِوُجُودِ حِجَابِهِ، فَسَبَبُ الْعَذَابِ وُجُودُ الْحِجَابِ، وَإِتْمَامُ النَّعِيمِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ

يبحث الناس جميعا عن النعيم وعن السعادة، وكذلك يختلفون في تكييف العذاب وأنواعه، والسعادة وألوانها، فجاء ابن عطاء الله –رحمه الله– بالبيان الشافي الكافي لهذه الأسئلة بقوله: النعيم وإن تنوعت مظاهره، أي الظاهرة من مأكل ومشرب وملبس ولذائذ، وكذلك النعيم الباطن من سعادة وطمأنينة وما إلى ذلك.

وكل ما يكون في تلك الدار من مظاهر النعيم إنما هو بشهود الله عز وجل في كل شيء بالبصيرة في الدنيا، وبالبصر في الآخرة، فأي شيء لا تشهد الله فيه فهو جحيم، والسعادة بكمال العبودية لله عز وجل، وبإحساس العبد أن الله قريب منه، فكل النعيم بشهوده واقترابه.

وأما إذا لم يشعر العبد بشهود الله واقترابه منه كان ذلك هو العذاب بعينه، لذا قال ابن عطاء الله رحمه الله: والعذاب إن تنوعت مظاهره في الدنيا والآخرة إنما هو بسبب احتجاب العبد عن الحنان المنان قديم الإحسان، وأما عند مشاهدته فليس ذلك بعذاب، فإن سبب العذاب وجود الحجاب، لا تلك المظاهر الكاذبة والمتع القليلة، ولذلك لم تكن النار عذابا على الملائكة الموكلين بها، ويبين الله تعالى ذلك في قوله سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾(١)، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجه الله الكريم، لا بتلك المظاهر والمتع الدنيوية التي أولها لذة وآخرها بلاء وأمراض وأسقام، وذلك لا يخفى على أحد.

وليتنبه الناس إلى أن سبب الفزع والخوف والهمّ الذي نعيشه الآن إنما هو بسبب وجود الحجاب بيننا وبين ربنا، فسبب العذاب وجود الحجاب، وسبب النعيم القرب من الكريم، فمتى اقتربوا من الله تعالى انمحى العذاب، وزال الوباء، وانفرجت الكروب، وانتهت الأوجاع، وحلت البركة، ونما الخير.

اللهم اجعل لنا من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ومن كل بلاء عافية، اللهم فارج الهم، كاشف الغم، مجيب دعوة المضطرين، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، ارحمنا رحمة تغننا بها عمن سواك يا لطيف.

وَكَم لِلّهِ مِن لُطفٍ خَفيٍّ ... يَدِقُّ خَفاهُ عَن فَهمِ الذَكيِّ
وَكَم يُسرٍ أَتى مِن بَعدِ عُسرٍ ... فَفَرَّجَ كَربَهُ القَلبُ الشَجيِّ
وَكَم أَمرٍ تُساءُ بِهِ صَباحاً ... وَتَأتيكَ المَسَرَّةُ بِالعَشيِّ

---

(١) سورة المطففين الآيتان ١٥، ١٦.

إذا ضاقَت بِكَ الأَحوالُ يَوماً فَثِق بِالواحِـــدِ الفَردِ العَلِيِّ
تَوَسَّـل بِالنَبِي في كُلِ خَطبٍ يَهـــونُ إِذا تُوُسِّـــلَ بِالنَبيِّ
وَلا تَجـزَع إِذا ما نابَ خَطبٌ فَكَـــم لِلَّهِ مِن لُطـفٍ خَفيِّ

نسألك اللهم النعيم المقيم بالنظر إلى وجهك الكريم، آمين.

## ٢٢٤- مَا تَجِدُهُ القُلُوبُ مِنَ الهُمُومِ وَالأَحْزَانِ فَلأَجْلِ مَا مُنِعَتْهُ مِنْ وُجُودِ العِيَانِ

لقد بنيت الدنيا على أنها دار بلاء وشقاء، لا دار متعة وبقاء، فهي دار لذتها ناقصة، ومتعتها زائلة، ونعيمها لا يدوم، لا تعطي إلا لتأخذ، ولا تكتمل إلا لتنقص، وما أعطت أحدا راحة وهدوء بال، بل بقدر ما تعطيك بقدر ما يكون معه من هم وغم، فخذ منها ما يكفيك، وخذ بقدره هما وغما، ولا تنتظر من ورائها راحة، فالراحة لم يخلقها الله في الدنيا فكيف تطلبها.

ولذا ينبه ابن عطاء الله إلى عدم التعلق بالدنيا أو الفتنة بزينتها، أو الاغترار بباطلها ومتعتها الفانية، ويبين أن سبب ما تجده القلوب من الهموم والأحزان هو عدم معاينة الحق سبحانه وتعالى بعين البصيرة في كل شيء ومع كل شيء، فإن رآه في كل شيء فلا يحزن على شيء، ولا يغتم من شيء، لأن معه من أوجد كل شيء، ومن خلق كل شيء، وبذلك يدوم فرحه ورضاه ونعيمه، ولذلك قال النبي ﷺ لأبي بكر وهما في الغار: لا تحزن إن الله معنا.

فمن استنار قلبه بنور المعرفة زال همه، وتباعد عنه غمه، ولزمته الأفراح والليالي الملاح، لذلك قال النبي ﷺ: (تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله له أموره، وجعل غناه في قلبه، وما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا جعل

الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة، وكان الله إليه بكل خير أسرع)[١].

وروي عنه ﷺ أنه قال: (من أصبح والدنيا أكبر همه يلزم الله تعالى قلبه ثلاث خصال: هما لا ينقطع عنه أبدا، وشغلا لا يتفرغ منه أبدا، وفقرا لا يبلغ منتهاه أبدا)[٢].

ويقول الشاعر:

وإنّ امرءًا دنياه أكبر همه    لمستوثق منها بحبل غرور

وسمع رجل أبا معاوية الأسود يقول في جوف الليل: من كانت الدنيا أكبر همه طال غدا في القبر غمه، ومن خاف ما بين يديه ضاق ذرعه، ومن خاف الوعيد لهى في الدنيا عما يريد، يا مسكين، إن كنت تريد لنفسك فلا تنامن الليل إلا القليل، اقبل من الدين الناصح إذا أتاك بأمر واضح، لا تهتم بأرزاق من تخلف، فليست أرزاقهم تكلف، وطّن نفسك للمقال إذا وقفت بين يدي رب العزة للسؤال، قدّم صالح الأعمال عند كثرة الاستعمال، بادر ثم بادر قبل نزول ما تحاذر، إذا بلغت روحك التراقي، وانقطع عنك من أحببت أن تلاقي، كأني بها إذا بلغت الحلقوم، وأنت في سكرات الموت مغموم، إذا انقطعت حاجتك إلى أهلك، وأنت تراهم حولك، وقد بقيت مرتهنا بعملك، فالصبر ملاك الأمر، وفيه أعظم الأجر، فاجعل ذكر الله من أجل شأنك، واملك فيما ينوي ذلك لسانك، ثم بكى أبو معاوية بكاء شديدا، ثم قال: أوه من يوم يتغير فيه لوني، ويتلجلج فيه لساني، ويقل فيه زادي.

ويقول أحد العارفين: ما ازداد عبد من السلطان قربانا إلا ازداد من الله بعدا، ولا كثر مال عبد إلا اشتد حسابه، ولا كثر شبعه إلا كثرت شياطينه، ومن أصبح أكبر همه غير الله فليس من الله، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

فاجعل اللهم غنانا بك، وعزتنا في جوارك، ومتعتنا وسعادتنا في معرفتك، والأنس بك، والقرب منك، واجعل اللهم غنانا في قلوبنا، واغننا بفضلك، واجعل الدنيا في أيدينا،

---

(١) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٥٠٢٥، المعجم الأوسط ١٨٦/٥.

(٢) أخرجه أبو الليث السمرقندي في كتابه تنبيه الغافلين ص٢٤٥.

ولا تجعلها في قلوبنا.

### ٢٢٥- مِنْ تمَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ وَيَمْنَعَكَ مَا يُطْغِيكَ

يتمم ابن عطاء هنا حديثه عن النعم، وكيفية التعامل معها، وعدم الالتهاء بها عن الوظيفة التي خلقنا الله تعالى لها، وهي العبودية له سبحانه وتعالى.

فكانت هذه الحكمة التي تتحدث عن النعم، وهو هنا يبين لعامة الناس أن من تمام النعمة عليه أن يرزقه الله عز وجل ما يكفيه بغير زيادة عن الكفاية، حتى لا تلهيه وتضيعه، لقول الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[١]، فإن أعطاه الله أقل من كفايته فإنه ينشغل قلبه بالكفاية، والسعي والسؤال عنها، وإن أعطاه أكثر من الكفاية فإنه يطغى ويتكبر بهذه الزيادة.

لذا قالوا: إذا كان العبد في كفاية ثم مال إلى الدنيا سلبه الله عز وجل حلاوة الزهد.

أما خاصة الناس والعارفين به فلا ينظرون إلى شيء، ولا يشغلهم شيء عن مولاهم القدير، لأنهم يظنون أنهم لا يملكون شيئا، فهم الفقراء إلى الله، ولو ملكوا كل شيء، ففي الحقيقة يعلمون أنهم ضيوف في هذه الدنيا، فإن أعطاهم لا يفرحون، وإن منعهم لا يحزنون.

لذا قال النبي ﷺ في الحديث القدسي: (إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح له إلا الغنى، ولو أفقرته أفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو بسطت له أفسده ذلك)[٢].

فالنعمة الحقيقية لأي امرئ أن يعطيه الله ما يكفيه، ويمنعه مما يطغيه، فالطغيان سبب للهلاك، وطريق للبوار، فالغنى الذي يكون سببا للطغيان مذموم، والفقر الذي يحيي النفوس ويقرب المرء إلى الله أفضل منه، وخير المؤمنين من إذا أعطي شكر

---

(١) سورة العلق الآيتان ٦، ٧.

(٢) أخرجه البيهقي في كتابه السماء والصفات ص٣٠٧، ولم يعلق عليه.

وإذا منع صبر.

فعن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ألهاكم التكاثر، قال: (يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟)(١).

ولا يعني ذلك أن يترك الإنسان الدنيا إذا أتته راغمة، أو ساقها الله إلى يديه دون طلب، بل يأخذ منها ويعطي، فالمال خير، وقد أورده الله في القرآن ستا وثمانين مرة، وسماه بالنص خيرا في آية الوصية، ولا يكون ذلك إلا لو كان المال خيرا، ولكن المال إذا أفضى إلى الطغيان كان نقمة لا نعمة، فليحذر الإنسان من ذلك، ولينتبه لفتنة الدنيا وزينتها، ولا تغره الدنيا ببهرجها، والحياة بزخرفها، وليركن إلى الله، ففي ذلك النجاة في الدارين.

## ٢٢٦- لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ يَقِلُّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن على قدر ما يفرح الإنسان في الدنيا بشيء من مال أو متاع أو جاه بقدر ما يحزن على فقده وضياعه، فإن قل فرحه بالشيء الذي أعطاه الله إياه قل حزنه عليه عند فقده، لذلك قال الله عز وجل: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(٢).

وروى أبو ذر رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول الله أخبرنا ما كان في صحف موسى؟ قال: كانت عبرا كلها، عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، وعجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل، قلت: يا رسول الله، أوصني، قال: أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس الأمر كله، قلت: يا رسول الله زدني، قال: عليك بتلاوة القرآن، وذكر الله، فإنه نور لك في الأرض، وذخر لك في السماء،

---

(١) أخرجه مسلم في الحديث رقم٢٩٥٨، الصحيح ٢٢٧٣/٤.

(٢) سورة الحديد من الآية ٢٣.

قلت: يا رسول الله زدني، قال: إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب، ويذهب بنور الوجه، قلت: يا رسول الله زدني، قال: عليك بالصمت إلا من خير، فإنه مطردة للشيطان عنك، وعون لك على أمر دينك، قلت: يا رسول الله زدني، قال: عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي، قلت: يا رسول الله زدني، قال: أحب المساكين وجالسهم، قلت: يا رسول الله زدني، قال: انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك، فإنه أجدر أن لا تزدرى نعمة الله عندك، قلت: يا رسول الله زدني، قال: قل الحق وإن كان مُرّا، قلت: يا رسول الله زدني، قال: ليردك عن الناس ما تعرف من نفسك، ولا تجد عليهم فيما تأتي، وكفى بك عيبا أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك، أو تجد عليهم فيما تأتي، ثم ضرب بيده على صدري، فقال: يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق)(١).

ولذا كان الزهاد فرحهم بالدنيا لا شيء، وكان ابن السماك يقول: الزاهد قد خرجت الأفراح والأحزان من قلبه، فهو لا يفرح بشيء من الدنيا أتاه، ولا يحزن على شيء منها، فإنه لا يبالي على عسر أصبح أم على يسر.

وقال أبو سعيد بن الأعرابي عن أشياخه الصوفية: إنما الزهد عندهم خروج قدر الدنيا من القلب، إذ هي لا شيء، ولا يكون في نفسه زاهدا، لأنه لم يترك شيئا إذ كانت لا شيء، وهذا لعمري هو الزهد في الزهد، لأنه زهد، ثم لم ينظر إلى زهده، فزهده إذ لم ير شيئا، لأنه زهد في لا شيء.

فالحزن ألم نفساني يعرض لفقد محبوب أو فوت مطلوب، وسببه الحرص على المقتنيات الجسمانية، والشره إلى الشهوات البدنية، والحسرة على ما يفقده أو يفوته منها، وإنما يحزن ويجزع على فقد محبوباته وفوت مطلوباته من يظن أن ما يحصل له من محبوبات الدنيا يجوز أن يبقى ويثبت عنده، أو أن جميع ما يطلبه من مفقوداتها لا بد أن يحصل له ويصير في ملكه، فإذا أنصف نفسه، وعلم أن جميع ما في عالم الكون

---

(١) أخرجه ابن حبان في الحديث رقم٣٦١، صحيح ابن حبان ٧٧/٢.

والفساد غير ثابت ولا باق، وإنما الثابت الباقي هو ما يكون في عالم العقل لم يطمع في المحال ولم يطلبه، وإذا لم يطمع فيه لم يحزن لفقده ما يهواه، ولا لفوت ما يتمناه في هذا العالم.

فيجب على الإنسان ألا يفرح بالمتاع القليل حتى لا يحزن عليه عند فقده وضياعه، فإن كان فرحه قليلا كان حزنه قليلا.

وعلى العاقل أن لا يحزن على شيء فاته من الدنيا أو تولى، وينزل ما أصابه من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب، وينزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب، ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها، ولا يبلغن ذلك سكرا ولا طغيانا، فإن مع السكر النسيان، ومع الطغيان التهاون، ومن نسي وتهاون خسر.

## ٢٢٧- إِنْ أَرَدْتَ أَنْ لا تُعْزَلَ فَلاَ تَتَوَلَّ وِلاَيةً لا تَدُومُ لَكَ

ينبه ابن عطاء الله المريد هنا على آفة عظيمة تنال كثيرا من الناس بدعوى الولاية والزهد، ومن يطرأ على النفوس من حب الإمارة والرئاسة في الدين أو الدنيا، فيقول له: إن أردت ألا تُعزل عن الولاية فلا تتول ولاية لا تدوم لك، فإنها نعمت المرضعة وبئست الفاطمة.

والولاية على الأشياء مغبتها عظيمة، وفتنتها كبيرة، لا يكاد يسلم منها من دخل فيها، ومن عافاه الله منها فقد سلم، وقد روي أن النبي ﷺ بعث رجلا أميرا على سرية، فلما قدم، قال: (كيف وجدت الإمارة؟ قال: يا رسول الله، كنت كبعض القوم إذا نزلت نزلوا، وإذا ركبت ركبوا، وأصلي بهم، قال: فما زال بي الأمر، حتى ما كان فيهم إنسان أفضل في نفسه مني، فقال النبي ﷺ: إن صاحب السلطان على باب عنت، إلا من عصم الله، فقال الرجل: لا جرم، والله يا رسول الله، لا أعمل على شيء أبدا)[١].

وعن المقداد بن الأسود قال: (استعملني رسول الله ﷺ على عمل، فلما رجعت

---

(١) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٣٦٠٣، المعجم الكبير ٤/٤٧.

قال: كيف وجدت الإمارة؟ قلت: يا رسول الله، إن الناس كلهم خول لي[١]، والله لا ألي على عمل ما دمت حيا).

وفي رواية قال المقداد: (كنت أُحمل وأُوضع حتى رأيت أن لي على القوم فضلاً، قال: هو ذاك، فخذ أو دع، قال: والذي بعثك بالحق لا أتأمر على اثنين أبداً)[٢].

وقال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب للعاقل طلب الإمارة، لأن من أوتيها عن مسألة وكّل إليها، ومن أعطيها من غير مسألة أعين عليها، ومن اشتهر بالرياسة فليحترز، لأن الريح الشديدة لا تحطم الكلأ، وهي تحطم دوح الشجر ومشيد البنيان.

وقال الباجي ناصحا ولديه: ولا يطلب أحدكما ولاية، فإن طلبها شين، وتركها لمن دُعي إليها زين، فمن امتحن بها منكما فلتكن حاله في نفسه أرفع من أن تحدث فيه بأوا[٣]، أو يبدي بها زهوا، وليعلم أن الولاية لا تزيده رفعة، ولكنها فتنة ومحنة، وأنه معرض لأحد أمرين: إما أن يُعزل فيعود إلى حالته، أو يسيء استدامة ولايته، فيقبح ذكره، ويثقل وزره، وإن استوت عنده ولايته وعزله كان جديرا أن يستديم العمل فيبلغ الأمل، أو يعزل لإحسانه، فلا يحط ذلك من مكانه.

وما أجمل قول القائل: من أراد خفق النعال خلفه[٤] فقد أراد الدنيا بأسرها ومن فيها، وكانت حقيقة أمره أن أعطوني دنياكم وخذوا ديني، واخلعوا لي دنياكم فقد خلعت لها ولكم ديني.

نعوذ بالله من فتنة الدنيا وزينتها، ومن فتنة الولاية وغرورها، اللهم سلمنا وسلم منا يا رب العالمين.

---

(١) **خول لي:** أي خدم لي.

(٢) أخرجه البيهقي في الحديث رقم٣٠٦، الزهد الكبير ص١٤٨.

(٣) **بأواً:** أي فخرا.

(٤) **خفق النعال خلفه:** أي مضي الناس وراءه تشريفا له وتعظيما لجاهه.

## ٢٢٨- إِنْ رَغَّبَتْكَ البِدَايَاتُ زَهَّدَتْكَ النِّهَايَاتُ، إِنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ

يقول ابن عطاء الله رحمه الله: إن دعتك أيها المغتر بالدنيا ومتاعها القليل كالمناصب والظهور والغنى وغير ذلك زهدتك نهايات الأمور بالعزل أو الموت، ونهاك عنها باطنها من كونها شاغلة لك عن طاعة الله عز وجل، فالأمور الدنيوية في الظاهر تسر، وفي الباطن تضر، فمن رغبته البدايات بإعطائه ما يريد زهدته النهايات بالوقوف بين يدي العليم الخبير، ومحاسبته على النقير والقطمير، والقليل والكثير، والعظيم والحقير.

وكذلك إذا غرتك البداية فأكثرت من الأكل والشرب والمتع زهدتك النهايات في الكبر والعجز والمرض والأوجاع، وما إلى ذلك.

ولكن أنى ذلك والناس لديهم فتنة بحب الجاه والظهور، وحب الرياسة، والاستماتة في الحصول على المناصب، والظهور بمكانة الجاه والعظمة، إنه مرض لا يعلم قدره إلا من عافاه الله منه، ولكن من عصمه الله من المرض يحب أن يكون مختفيا لا ظاهرا، ويكون عبدا مرؤوسا لا رئيسا، مجهولا لا معروفا يشار إليه بالبنان، أو تقوم له الناس وتقعد، ولذا يقول الفضيل رحمه الله: إن قدرت على أن لا تُعرَف فافعل، وما عليك أن لا تُعرف، وما عليك أن لا يُثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله تعالى.

وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١) جمع سبحانه بين إرادة الفساد والعلو وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعا.

وما أبدع قول الشاعر:

يا ساكن الدنيا تأهب وانتظر يوم الفراق

---

(١) سورة القصص الآية ٨٣.

وأعـــــد زادا للرحيـــل فسـوف يحـدى بالرفـاق

وابـك الذنــوب يـا دمــع تتهل من سحب المآق

يا من أضــاع زمانــــه أرضـيت ما يفني ببــاق

## ٢٢٩- إِنَّمَا جَعلَهَا مَحَلاً لِلأَغْيَارِ وَمَعْدِناً لِوُجُودِ الأَكْدَارِ تَزْهِيداً لَكَ فِيهَا

يقول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(١)، فالدنيا كلها ابتلاء وامتحان، لأن الله -عز وجل- جعلها محلا للأغيار، كالأمراض والمحن، ومعدنا للأكدار التي تكدر الإنسان من هم وغم وحزن ليزهدك فيها، فورود الأكدار من جملة النعم عليك، لكونها مؤثرة فيك، لتزهد فيها قبل أن يصل ضررها إليك، فلابد أن يعلم الإنسان طبيعتها وما جبلت عليه، فيحترز منها بالإقبال على الله عز وجل.

وقد فهم السلف الصالح حقيقتها، وتنبهوا إلى معناها، فزهدوا فيها، وأخذوا منها بحلال الله ما قدره لهم راضين، وجعلوها وسيلة للآخرة، لا دارا ومقرا للمتاع والحياة، يقول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: الدنيا دار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، الناس فيها رجلان: رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها.

ولا أجد لها وصفا أجمل مما قاله أبو حامد الغزالي -رحمه الله- حين قال عنها: فرّارة عن طلابها، شحيحة بإقبالها، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها، إن أحسنت ساعة أساءت سنة، وإن أساءت مرة جعلتها سنة، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة، وتجارة بنيها خاسرة بائرة، وآفاتها على التوالي لصدور طلابها راشقة، ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة، فكل مغرور بها إلى الذل مصيره، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره، شأنها الهرب من طالبها، والطلب لهاربها، ومن خدمها فاتته، ومن أعرض عنها واتته، لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات، ولا ينفك سرورها عن المنغصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها يسوق إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم، فهي خداعة

---

(١) سورة الملك الآيتان ١، ٢.

مكارة، طيارة فرارة، لا تزال تتزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها، كشرت لهم عن أنيابها، وشوشت عليهم مناظم أسبابها، وكشفت لهم عن مكنون عجائبها، فأذاقتهم قواتل سمامها، ورشقتهم بصوائب سهامها.

ولذا كان من فضل الله على المؤمن أن حالها وسرورها لا يدوم، وأن الأكدار تحل بها، لتنبه الغافل، وترشد الضال، وتهدي الحائر أنها ليست دار قرار، وأنها ممر إلى الآخرة لا مقر متاع وسرور، وإذا كانت كذلك كان حريا بالمريد أن ينتبه لها، وألا يغتر بخيرها، ولا يغتم بشرها وكدرها، فكل ذلك إلى زوال.

## ٢٣٠- عَلِمَ أَنَّكَ لا تَقْبَلُ النُّصْحَ (المجرّد) لِمُجَرَّدِ القَوْلِ، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَاقِهَا مَا سَهَّلَ عَلَيْكَ فِرَاقَهَا

إن الإنسان بطبعه محب للدنيا، ميال إلى زينتها، مفتون بمتعها وغرورها، ولذا تجده متعلقا بها، حريصا عليها، مقبلا على متاعها، متهالكا على جمعها، ولا يقبل مشورة غيره، ولا نصيحة من أحد، فيقول ابن عطاء الله رحمه الله: علم الله منك أيها الإنسان أنك لا تقبل النصح المجرد عن البلايا والأمراض والأوجاع، فأذاقك من ذواقها، أي أذاقك من الدنيا وما فيها ما يجعلك تتألم وتندم وتحزن، وما يسهل عليك فراقها، فإن العبد إذا نزل به شيء من ذلك فإنه يتمنى الموت لكي ينجو من عذاب الدنيا، ظانا أنه سيستريح بهذا الموت، أما من لم يستحكم في قلبه حب الدنيا فإن مجرد النصح يكفيه.

وهنا يجب على الإنسان أن يستمع لنصح الناصحين، ففي ذلك الخير العميم، أما من يركب رأسه ولا يسمع النصح فاتركه للدنيا، فإنها كفيلة بأن تذيقه من آلامها وأحزانها، وهي كفيلة بأن تعيد له ما شرد من ذهنه، وما نقص من عقله، وما فاته من حكمة.

وصدق سيدنا علي رضي الله عنه حين قيل له: يا أمير المؤمنين، صف لنا الدنيا؟ قال: وما أصف لكم من دار؟، من صح فيها أمن، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها النار.

ولكن لا يفهم مغلوط العقل أن المراد تركها، والبعد عن زخرفها كلية، بحيث يترك ماله يتلف، وولده يضيع، ويهيم على وجهه في الصحراء، ويجوب القفار رافعا شعار الزهد، ومدعيا كره الدنيا والفرار منها، فهناك قوم سمعوا ذم الدنيا، فتزهدوا، وما فهموا المقصود، فظنوا أن الدنيا تذم لذاتها، وأن النفس تجب عداوتها، فحملوا على أنفسهم فوق ما يطاق، وعذبوها بكل نوع، ومنعوها حظوظها، وفيهم من أدته الحال إلى ترك الفرائض، ونحول الجسم، وضعف القوى، ولقد وضع الله –جل وعلا– في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها، فكلما تاقت منعوها ظنا منهم أن هذا هو المراد، وجهلا بحقوق النفس، وكل ذلك لضعف الفهم المقصود، بل المقصود ألا تلج قلب الآدمي فتجعله يستحل الحرام، ويستقل الكثير، وتهجم الشهوات على بطنه، فتحرمه ذكر الله، ويهجم حب المال والجاه على قلبه فينسيه ربه، وإلا فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحبون الماء البارد، ويتلذذون بأطايب الطعام، فمن الذي حرم ما أحله الله في الدنيا من أطايب الطعام، ووجوه المتاع الحلال، وهذا سفيان الثوري، فإنه كان شديد المعرفة والخوف، وكان يأكل اللذيذ، ويقول: إن الدابة إذا لم يحسن إليها، لم تعمل.

ولكنهم مع ذلك تجدهم إذا فقدوا الدنيا صابرين، راضين بقضاء الله تعالى، فقد أذاقهم من نكد الدنيا ما يجعل زوالها عندهم لا يسبب لهم هما ولا غما، هكذا يكون الزهد والتزهد، فهو ليس ادعاءً، بل عمل وقناعة.

## ٢٣١- العِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شُعَاعُهُ، وَيَنْكَشِفُ بِهِ عَنِ القَلْبِ قِنَاعُهُ

عرج ابن عطاء الله في هذه الحكمة إلى الحديث عن العلم، ودخل مباشرة إلى العلم النافع والعلم الضار، فذكر أن العلم النافع هو العلم بالله عز وجل، والعلم بصفاته وأسمائه، والعلم بالأوامر والنواهي، والعلم بكيفية التعبد له، والتأدب بين يديه، وهذا هو العلم الذي ينبسط في صدرك شعاعه ونوره، وتطمئن به النفوس، ويكشف الله به عن القلب قناعه، أي غطاؤه، فتزول من القلب الشكوك والأوهام، ويحل اليقين، وتقر به

الحقائق، فتعرف قيمة الدنيا وحقيقتها، وقيمة الآخرة وما فيها من نعيم.

لذا قال الإمام الجنيد رحمه الله: العلم أن تعرف ربك، ولا تعدو قدرك.

أما العلم الضار فهو العلم الذي يبعدك عن الله عز وجل، ويلهيك بالدنيا والانشغال بها وبمتاعها القليل حتى تذهب إلى الله مفلسا.

وقد قال رسول الله ﷺ: (لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتجتروا[١] به المجالس، فمن فعل ذلك، فالنار النار)[٢].

وفي رواية عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار)[٣].

وقال لقمان لابنه: يا بني، لا تتعلم العلم لتباهي به العلماء، وتباري به السفهاء، وتماري به في المجالس، ولا تترك العلم زهادة فيه، ورغبة في الجهالة، إذا رأيت قوما يذكرون الله فاجلس معهم، فإن تك عالما ينفعك علمك، وإن تك جاهلا يزيدوك علما، ولعل الله تعالى إن يطلع إليهم برحمة فيصيبك بها معهم، وإذا رأيت قوما لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإن تك عالما لا ينفعك علمك، وإن تك جاهلا يزيدوك جهلا –أو قال: غيا– ولعل الله تعالى يطلع إليهم بسخطة فيصيبك بها معهم.

وما أجمل توضيح الحسن البصري –رحمه الله– في بيان النوعين من العلم، وأهمية العلم النافع وفضله، وسوء العلم الضار وخطره، حيث يقول: ما أعلم شيئا أفضل من الجهاد في سبيل الله، ومن خرج من بيته في طلب باب من العلم حفته الملائكة بأجنحتها، وصلت عليه الطيور في جو السماء، والسباع في البر، والحيتان في البحر، وآتاه الله أجر اثنين وسبعين صديقا، ألا فاطلبوا العلم، واطلبوا للعلم السكينة، والحلم، والوقار، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، ولمن تعلمونه، ولا تباهوا به

---

(١) تجتروا: أي تصدروها فخرا.

(٢) أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح عن جابر ؓ في الحديث رقم٢٥٤، سنن ابن ماجه ٩٣/١.

(٣) أخرجه الترمذي في الحديث رقم٢٦٥٤، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، سنن الترمذي ٣٢٩/٤.

العلماء، ولا تماروا به السفهاء، ولا تختلفوا به إلى الأمراء، ولا تطاولوا به على عباد الله، فتكونوا من جبابرة العلماء الذين أدركهم سخط الله، فكبهم على مناخرهم في نار جهنم، اطلبوا علما لا يضركم في عبادة الله، واعبدوا الله عبادة لا تضركم في طلب العلم، فإنه لا ينتفع بهذا إلا هذا، ولا تكونوا كأقوام تركوا طلب العلم، وأقبلوا على العبادة، حتى إذا نحلت جلودهم على أجسادهم، خرجوا على الناس بأسيافهم، ولو أنهم طلبوا العلم لكان العلم يحجزهم عما صنعوا، وإن العامل بغير علم كالحائد عن الطريق، فهو لا يزداد اجتهادا إلا ازداد بعدا، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه، قيل له: عمن هذا يا أبا سعيد؟ قال: لقيت فيه سبعين بدريا، واغتربت في طلبه أربعين عاما.

فاطلب العلم أيها المريد ليكون معينا لك على معرفة الله عز وجل، ومعرفة صفاته وأسمائه، وإتقان كيفية عبادته على هدى ونور، واحذر أن يكون العلم لأجل الجاه والدنيا، أو أن يطلبه لمراء أو رياء، فإن المماري به مهجور لا ينتفع، والمرائي به محقور لا يرتفع، ومن ابتغى به غير الله عز وجل ذل في الدنيا والآخرة.

والأخبار الواردة في الحض على العلم النافع والتحذير من العلم الضار تدل على عظيم خطر العلم، فإن العالم إما متعرض لهلاك الأبد، أو لسعادة الأبد، وإنه بالخوض في العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة.

وقال سفيان الثوري رحمه الله: يهتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل.

وقال الحسن: عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة، وأنشدوا:

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... ومن يشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

## ٢٣٢- خَيْرُ العِلْمِ مَا كَانَتِ الخَشْيَةُ مَعَهُ

بعد أن بين ابن عطاء الله –رحمه الله– أنواع العلم في الحكمة السابقة، وبين علامة العلم النافع بأنه يسطع نوره وشعاعه في القلب عرج هنا على بيان خير أنواع العلوم فقال إنه ما كانت معه الخشية، ولقد أثنى الله تعالى على العلماء الذين يخشون ربهم فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١)، وقال ﷺ: (يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما يخشى الله من عباده العلماء)(٢).

ففي هذه الآية جعل الله –سبحانه– الخشية مقاما في العلم حققه بها، والخشية حال من مقام الخوف، والخوف اسم لحقيقة التقوى، والتقوى معنى جامع للعبادة، وهي رحمة الله تعالى للأولين والآخرين.

قال رجل للشعبي: أيها العالم، فقال: إنما العالم من يخشى الله.

فإذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن، وعلى الجوارح، وعلى الصفات.

فالعالم الذي لا يخشى الله ولا يخافه ليس بعالم في الحقيقة وإنما مدع للعلم، ولذا قال ابن عطاء الله رحمه الله: خير العلم ما كانت معه الخشية، أي أن العلم النافع هو ما كان صاحبه ملازما للخشية، وهي الخوف من الله عز وجل، وهذا ما كان عليه الأنبياء والعلماء والأولياء في الزهد في الدنيا، والإقبال على الله، والخوف والخشية منه.

لذا قال الشاعر:

لو كان للعلم من دون التقى شرف ... لكان أفضل خلق الله إبليس

ويقول الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ

---

(١) سورة فاطر من الآية ٢٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٩٢٩، ولم يعلق عليه المعجم الكبير ٣٩٥/١٩.

غَافِلُونَ﴾[١]، لأنهم اكتفوا بالقشور، وغفلوا عن اللباب، واهتموا بالمظهر، واختفى عنهم الجوهر، فلم يقع العلم منها موقعه من القلب، فلم يستقر بما فيه، ويقنعه بما أوتي، ويخشع لخالق الأرض والسماء.

فالزم التقوى إن أردت أن تكون من العلماء العاملين، وقل اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

## ٢٣٣- العِلْمُ إِنْ قَارَنَته الخَشْيَةُ فَلَكَ، وَإِلاَّ فَعَلَيْكَ

لا زال ابن عطاء في هذه الحكم يحلق بمريده في فضاء العلم، ويزيل عن عينه غشاوة الغرور بكل علم، أو الاغترار بكل عالم، فبين أن العلم منه ما هو نافع، ومنه ما هو ضار، وذلك بحسب الهدف منه، وما يوصل مريده إليه، وفي هذه الحكمة يبين أن العلم النافع الذي يقارنه العمل والخشية من الله عز وجل، فهو لك، وفي ميزان حسناتك، وترتفع به في الجنة درجتك لتكون مع النبيين والصديقين والشهداء.

والخشية المقصودة من العلم أن تستعمله فيما يحبه الله ويرضاه، لأن التقرب إلى الله بالعلم هو غاية القوم، وقد حث عليه النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[٢].

وقد ذكر أبو سليمان الخطابي في معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال: أحدها بسط الأجنحة. والثاني: أن المراد به التواضع لطالب العلم. والثالث: النزول عند مجالس العلم وترك الطيران.

---

(١) سورة الروم الآية ٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح في الحديث رقم٢٢٣، سنن ابن ماجه ١/٨١.

ومنها قوله ﷺ: (إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علما، فلا بورك في طلوع شمس ذلك اليوم)[١].

ولو تتبعنا الآيات والأحاديث التي وردت في فضل العلم والعلماء لما كفاه مجلدات كبار مع شروحها التي اهتم بها العلماء، وما ورد عنهم من أقوال هي غاية في الحكمة كأطايب الثمر، وقد جمع جزءً كبيرا منها ابن عبدالبر في كتابه: جامع بيان العلم وفضله، فكان الرجوع إليه كافيا.

ولذا ورد عن الأئمة العلماء والحكماء الكبار أقوال بينت مكانة العلم وفضله، فقد قال عنه الإمام مالك رضي الله عنه: إن طلبه لحسن إذا صحت فيه النية، لكن انظر ماذا يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي، ومن حين تمسي إلى حين تصبح، فلا تؤثرن عليه شيئا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خُيّر سليمان بن داود -عليهما السلام- بين العلم والمال والملك، فاختار العلم، فأُعطي المال والملك معه.

وكان أحد العارفين يقول لمريديه: أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت؟ قالوا: بلى، قال: كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت.

وقال بعضهم: مَن اتخذ الحكمة لجاما اتخذه الناس إماما، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

فبان من كل ذلك أن العلم من أفضل الأعمال إن كان خالصا لله عز وجل، ولا تؤثر عليه شيئا.

---

(١) سبق تخريجه.

أما إذا كان العلم خاليا من تقوى الله سبحانه، ولا خشية منه، بأن قصد به المباهاة والتعاظم والكبر، وأخذ الأجر عليه، فهو عليه لا له، وهو عليه وزر لا له أجر، وعقابه يوم القيامة على علمه، وعليه لعنته في الدنيا والعياذ بالله.

فالعلم الحقيقي الذي هو لله -عز وجل- يجعل صاحبه متواضعا، يبذله بدون أجر كما قال الله عز وجل: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، وكما قال الإمام الشافعي ﷺ: إن الغصن المثمر متدل متواضع، والغصن غير المثمر متعال مرتفع.

نسأل الله عز وجل علما في خشية، نبتغي به مرضاة الله عز وجل ورضوانه.

## ٢٣٤- مَتَى آلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذَّمِّ إِلَيْكَ، فَارْجِعْ إِلَى عِلْمِ اللّهِ فِيكَ، فَإِنْ كَانَ لا يُقْنِعُكَ عِلْمُهُ فِيكَ بِكَ، فَمُصِيبَتُكَ بِعَدَمِ قَنَاعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الأَذَى مِنْهُم

لله ما أبدع قولك يا ابن عطاء، وما أروع تلك الحكمة التي ينفجر منها الإخلاص كما ينفجر الماء الزلال من باطن الأرض، فيروي العطشى، وينجي الهلكى، ويحيي الأرض الموات.

لا زال -رحمه الله- يحلق بمريده نحو الإخلاص والتجرد في كل علم وعمل، وهو هنا ينبهه على أمر في غاية الخطورة، وهو نوع من الشرك الخفي، وذلك أن يبتغي بعلمه أو عمله غير الله تعالى، ومن ثم يؤلمه عدم إقبال الناس عليه، ويوجعه انصرافهم عنه، لأنه توجه بعلمه إليهم، وابتغى من ورائه حسن المدح وجميل الثناء.

فإن العارف بالله عز وجل دائما وأبدا ينظر إلى الله وحده، فلا يفرح إلا لإقبال الله عليه، ولا يحزن إلا لإعراض الله تعالى عنه، ولا يجعل لكلام الناس فيه أي وزن، لا لمدحهم ولا لذمهم.

لذا قال ابن عطاء الله رحمه الله: متى آلمك عدم إقبال الناس عليك بالمدح، أو آلمك توجههم إليك بالذم فارجع إلى علم الله فيك، فإنه هو الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم ظاهرك وباطنك، ولا يخفى عليه شيء من أمرك، فإن كنت عنده مخلصا في

أعمالك وأقوالك فلا تحزن ولا تغتم لذم الذامين، وإن كنت عنده منافقا ممقوتا مرائيا، فلا تغتر بمدح المادحين، فإن كان لا ينفعك علم الله تعالى فيك، وحكمه عليك، بل نظرت إلى حكم المخلوقين عليك، فمصيبتك الحاصلة لك بعدم قناعتك بعلمه فيك أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم، لبعدك عن الله، وعدم الرضا بعلمه، والحكم حكمه، والأمر أمره، ولا وزن لكلام الخلائق.

ولذا كتب بعض الأدباء إلى أخيه ناصحا: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل.

وقال داود الطائي: من أكبر همه التقوى لو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما إلى نية صالحة، فكذلك الجاهل بالله تعالى وأيامه همه الدنيا والهوى، ولو تعلقت جوارحه بكل أعمال الصالحات لكان مرجوعا إلى إرادة الدنيا وموافقة الهوى، لأن سرها كان همه النفس لعاجل عرض الدنيا.

وقال محمد بن الحسين: ينبغي للرجل أن تكون نيته بين يدي عمله.

وقال أيوب السجستاني: تخلص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال.

وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العلم.

وقال بعض العلماء: طلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير.

وقال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمال أمرك تصبح ولا تهم لله تعالى بمعصية وتمسي ولا تهم لله تعالى بمعصية.

وقال بعض السلف: إن نعمة الله تعالى أكثر من أن تحصوها، وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها، ولكن أصبحوا توابين، وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك.

وعن بعض المريدين: أنه كان يطوف على العلماء يقول: من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملا لله تعالى، فإني أحب أن لا تجيء علي ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله تعالى، فقيل له: قد وجدت صاحبك، اعمل الخير ما

استطعت، فإذا أفترت أو تركته فهمّ بعمله، فإن الهامّ بعمل الخير كعامله.

## ٢٣٥- إِنَّمَا أَجْرَى الأَذَى عَلَى أَيْدِيهِمْ كَيْ لا تَكُونَ سَاكِنًا إِلَيْهِم، أَرَادَ أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ

إذا أحب الله عبدا أجرى الأذى له على يد الخلائق حتى لا يركن إليهم، ويطمئن إلى مؤانستهم، فيسوقونه بأذاهم إلى الله سوقا، ويلقي البعض في قلبه أن الله كل شيء، لما يراه منهم من أذى، وهمّ وغم، ونكد وكيد، وحسد وحقد وكذب، فلا يرى الخلاص إلا في الركون إلى الله عز وجل.

ولو أدرت بصرك إلى الناس وتتبعت من تتعامل معهم من الخلائق رأيت عجبا، فكم أسديت من معروف، وكما قدم من مال وعمل لقريب وغريب ثم هو بعد او زلة يحسبها عليك ينقلب بل ويصيح لك أنك ما فعلت معه خيرا، بل ويقولها بصريح اللسان وبوقاحة البيان وباندهاش الفاجر: وماذا فعلت لي، بل إن كثيرا من الزوجات تتنكر لزوجها البار بعد أن أغناها من فقر وكساها من عرى وأكرمها وصانها فإن توقف عن العطاء لحظة تقول وماذا فعلت لي، والأبناء يقولون لأبيهم أو أمهم وماذا فعلت لنا.

والحق أن نكران الجميل ونسيان المعروف والتصرف بحماقة مع من قدم لك الخير لون من الفجور وخصلة من النفاق وصنف من التبجح يقتل من قدم المعروف إن لم يصبر ويحتسب، ولذا لما خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمر على النساء، فقال: (يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار. فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن، قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل. قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم. قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان دينها)[(١)].

وفي رواية عن عبد الله بن عباس أنه قال: خسفت الشمس، فصلى رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٣٠٤، المسند ٦٨/١.

ﷺ، والناس معه، فقام قياما طويلا، قال: نحو من سورة البقرة، قال: ثم ركع ركوعا طويلا، ثم رفع فقام قياما طويلا، وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعا طويلا، وهو دون الركوع الأول، ثم سجد، ثم قام قياما طويلا، وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعا طويلا، وهو دون الركوع الأول، ثم رفع فقام قياما طويلا، وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعا طويلا، وهو دون الركوع الأول، ثم سجد، ثم انصرف وقد تجلت الشمس، فقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله، فقالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت. فقال: إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقودا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار، فلم أر كاليوم منظرا قط، ورأيت أكثر أهلها النساء، قالوا: لم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط)[١].

ولما كان بعض الناس يفتتن بهذا النكران، ويؤلمه ذلك الجحود نبهه ابن عطاء رحمه الله أن ذلك فضل لا ألم، وأنه نعمة لا نقمة، فإن الله تعالى له في ذلك حكمة تبين لك أنك محبوب لا مكروه، وأن ما قدمت من خير محفوظ لا مضيع، ولذا يقول ابن عطاء رحمه الله تعالى: إنما أجرى الأذى لك أيها المريد على أيدي الخلق لأجل ألا تكون مائلا إليهم بقلبك، فالأذى في الحقيقة نعمة عليك، لأنه أوصلك بهذا الأذى إلى صاحب النعم والمنن، وخالق البشر، وصاحب القوة والقدر، فنعم هذا الأذى.

أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء، فإذا نظرت إلى الأكوان ولم تر فيها المكون أزعجت منها حتى تبحث عنه ولا تركن إليها، فإذا وجدته في قلبك أغناك عن كل شيء، ولم تفقد شيئا، لذلك قال بعض العارفين: الصيحة من العدو سوط الله يضرب به القلوب الغافلة إذا ساكنت غيره، ولولا ذلك لرقد العبد في ظل العز

---

(١) أخرجه مالك في الحديث رقم٦٤٠، الموطأ ٢/٢٦٠.

والجاه، وهو حجاب عن الله عظيم.

وكان بعض العارفين يقول: اللهم إني أسألك اعوجاج الخلق علي، حتى لا يكون لي ملجأ إلا إليك.

قال صاحب لطائف المنن: اعلم أن أولياء الله حكمهم في بداياتهم أن يسلط الله الخلق عليهم، ليطهروا من البقايا، وتكمل فيهم المزايا، ولئلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، لذلك قال النبي ﷺ: (من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن أتى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه، فادعوا له، حتى تعلموا أن قد كافأتموه)(١).

وإنما كان ذلك ليتخلص القلب من رق الإحسان، ويتعلق بالملك الحق الديان.

## ٢٣٦- إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لا يَغْفُلُ عَنْكَ، فَلاَ تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيَتُكَ بِيَدِهِ

بعد أن تحدث ابن عطاء الله –رحمه الله– في الحكم السابقة عن العلم وأهميته لدرء الوساوس، وعبادة الله تعالى على المنهاج القويم، وعرج على بيان أذى الناس وفضله في رد العبد إلى ربه وعدم الركون إليهم، توجه لمريده بالنصح فيما يخص العدو الأكبر وهو الشيطان الرجيم، فبدأ بهذه الحكمة، حيث يقول له إن الشيطان لا يغفل عنك، ومهمته في الدنيا أن يغويك ويضلك، وقد حذرك الله منه، فاتبع تحذيره، ولا تقع في شراك هذا الشيطان اللعين، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾(٢).

هذا ما قاله الله عز وجل في حق الشيطان، لكن الناس –والعياذ بالله– في هذا الزمن اتخذوا الشيطان وليا وصديقا، وحبيبا ورفيقا، ومؤانسا في كل مكان، واستعملوا

---

(١) أخرجه أحمد في الحديث رقم٥٣٦٥، المسند ٢٦٦/٩.

(٢) سورة فاطر من الآية ٦.

أشياء تجلبه إليهم في كل وقت وفي كل مكان من وضع التماثيل والصور في البيوت، والاستماع إلى التلفاز بالأغاني والرقص الخليع، وما إلى ذلك من وسائل جذب الشياطين، فكثر في هذا الزمن جانب السالب، وقلّ جانب الموجب، فأصبح الزمن زمن الشيطان، لأن الشياطين والمردة من الجن تملأ البيوت والطرقات، فهم قد أمنوا نزول الملائكة، فالملائكة لا ينزلون إلا في زمن يكثر فيه الموجب وهو النور، أما السالب وهو الظلام فهو بيئة الشياطين والعياذ بالله، ولذلك أصيب أغلب الخلائق بهم، وسيطروا على عقولهم، وعلى فكرهم، وعلى أجسامهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وهنا يقول ابن عطاء الله رحمه الله: إذا علمت أن الشيطان مهمته أن يضلك، وتيقنت من ذلك بالأدلة القطعية، وأنه لا يغفل عنك في الليل أو النهار، ولا في الصحة ولا في المرض، ولا في الإقامة ولا في السفر، أي لا يشغله عنك شاغل، وهو يراك ولا تره فما العمل؟ وما النجاة منه، النجاة منه أن تلوذ إلى مولاك بالكلية، فلا تغفل أنت عن ذكر من ناصيتك بيده، وهو الله عز وجل، حتى تكون عبدا من عباده بتحقيق معنى العبودية الكاملة له، فيدخلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(١)، ويأمن من قول الشيطان الرجيم الذي ورد حكاية في كتاب الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾(٢).

فداوم على حضور القلب مع الله عز وجل، والهث بذكره وشكره متى استطعت حتى يمن عليك بالدخول في حماه، وذلك لقول ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه إلى النبي ﷺ: (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله

---

(١) سورة الحجر من الآية ٤٢.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧.

خنس)[١].

ويقول ابن عباس: (لآتينهم من بين أيديهم) معناه ينسيهم الآخرة، (ومن خلفهم) معناه يزين لهم الدنيا، (وعن أيمانهم) معناه يصدهم عن الحق، (وعن شمائلهم) معناه يزين لهم الباطل.

فالواجب أن لا يغفل الإنسان عن كيده، ولا يذهل عن مكره، بأن يجتهد ويدق في ترقب مداخله وحيله، ويصرف وساوسه بحيلها.

ولا تغفل عن مولاك الذي ناصيتك بيده، وقد قال ﷺ: (إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني)[٢].

فاستعن بمن يراه ولا تراه، وأكثر من الإنابة والاستغفار، والاعتصام بالله عز وجل، والتوكل عليه، حتى تنجو من مكايده، نسأل الله رب العرش العظيم أن يعيننا عليه برحمته ورعايته وعنايته، آمين.

## ٢٣٧- جَعَلَهُ لَكَ عَدُوًّا لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ، وَحَرَّكَ عَلَيْكَ النَّفْسَ لِيَدُومَ إِقْبَالُكَ عَلَيْهِ

عمد ابن عطاء الله -رحمه الله- في هذه الحكمة إلى بيان الغاية من جعل الشيطان عدوا لابن آدم، فبين أن تسليط المولى عز وجل الشيطان والنفس على الإنسان نعمة منه سبحانه لمن يدقق في الأمر وينعم النظر، لأنهما يسوقان العبد سوقا إلى مولاه، فالحمد والشكر لله على ذلك، فالعطاء منه نعمة، والمنع منه نعمة، وتسليط الشيطان والنفس عليك نعمة، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، فلا يأتي من الجميل إلا كل جميل.

لذلك يبين ابن عطاء الله -رحمه الله تعالى- ذلك بقوله إنه جعل الشيطان لك

(١) أخرجه أبو داود في الحديث رقم٣٣٧، الزهد لأبي داود ص٢٩٥.

(٢) أخرجه أحمد في الحديث رقم١١٢٣٧، المسند ٣٣٧/١٧.

عدوا ليحوشك إليه، أي ليردك به إليه سبحانه وتعالى، لأنك لا تطيق الشيطان، فتفر منه، وتحتمي بحمى الله، فأنت لا تستطيع رد غوايته عنك بنفسك، فتذهب إلى الله مضطرا للخلاص من حباله، والفكاك من شباكه.

وكذلك حرك عليك نفسك بطلب الشهوات والهوى ليدوم إقبالك عليه، لأنك لا تستطيع أن تقمع شهواتها وتهذبها إلا بمعونة مولاك الرحيم القائل في كتابه العزيز: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[١]، فهو الملهم فقط، وكل شيء يجعلك تلوذ به وتقبل عليه فهو نعمة عظيمة، لأنها عرفتك بالحنان المنان، الرحيم الغفور، ذي الجلال والإكرام.

ومتى كنت من حزب الله وأوليائه اهتديت بنوره، فاستهنت بلذة العاجل، وطلبت سعادة الآجل، وأعاذك من الشيطان وشركه ووسوسته.

ولكن هل يكفي في دفع الشيطان مجرد ذكر الله تعالى، وقول الإنسان لا حول ولا قوة إلا بالله فقط، أم يجب معه أمور أخرى، لا شك أن ذكر الله تعالى له أهميته في دفع هذا اللعين، ولكن لابد أن يكون ذلك الذكر خارجا من نور، ومن قلب ممتلئ بالإيمان بالله تعالى، أما القلب المريض فلا ينفع فيه التعوذ، وعلاج القلب في ذلك سد هذه المداخل، بتطهيره من الصفات المذمومة، كالكبر والبطر، والحقد والحسد، وعدم شكر النعم، والمشي بين الناس بالنميمة، إذا قطعت من القلب أصول مثل هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات، ولم يكن له استقرار، ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى، لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى، وتطهيره من الصفات المذمومة، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب، فلا يدفع سلطان الشيطان.

وما أروع تمثيل أبي حامد الغزالي -رحمه الله- في بيان غواية الشيطان ووسوسته حين قال: مثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك، فإن لم يكن بين يديك

---

(١) سورة الشمس الآيتان ٧، ٨.

خبز أو لحم فإنه ينزجر، بأن تقول له اخسأ، فمجرد الصوت يدفعه، فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يهجم على اللحم، ولا يندفع بمجرد الكلام، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب، فلم يتمكن من سويدائه، فيستقر الشيطان في سويداء القلب.

نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونعوذ به من شر الشيطان وشركه.

### ٢٣٨- مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِه تَوَاضُعًا فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا، إِذْ لَيْسَ التَّوَاضُعُ إِلاَّ عَنْ رِفْعَةٍ، فَمَتى أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ تَوَاضُعًا فَأَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ

بدأ ابن عطاء الله تعالى في هذه الحكمة ببيان أهم مداخل الشيطان إلى القلب وهو الكبر، فهو أذم الصفات وأسوؤها عاقبة، وهو هنا ينبه على أدق الأمور في الكبر، وهو الكبر الذي يأتي من حيث لا يدري الإنسان، الكبر الذي يأتي من ادعاء التواضع، أو أن يقر في نفس المرء أنه متواضع، وأن ذلك هو الكبر الحقيقي.

فالإنسان يجب عليه أن يعرف نفسه تماما، ويحذر منها كل الحذر، لأنها هي أساس المعاصي والذنوب، فكل معصية وشهوة وغفلة بسبب رضاك عن نفسك، لذا قال الله عز وجل: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(١).

وهنا يحذر ابن عطاء الله -رحمه الله تعالى- فيقول أن من أثبت لنفسه تواضعا بأن خطر بباله أنه متواضع فهو المتكبر حقا، لأن التواضع الذي أثبته لنفسه ناشئ عن شهود رفعة كان يستحقها، وتنازل عنها إلى ما دونها، وشهود ذلك من نفسه هو عين التكبر، لذا قال سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾(٢)، مع أنه لا همّ ولا أذنب، فأي إنسان يثبت لنفسه تواضعا، وأنه نزل عن الدرجة التي كان يستحقها فهو المتكبر، ولا ينفي عنك التكبر إلا بأن لا ترى لنفسك قيمة ولا مرتبة، قال بعض العارفين: علامة عدم التكبر ألا ترى لنفسك

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢١.

(٢) سورة يوسف من الآية ٥٣.

قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب.

ومن علامات عدم الكبر ألا يغضب إذا عوقب، ولا يكره أن يذم أو يقذف بالكبائر، ولا يحرص أن يكون له عند الناس قدر ومنزلة وجاه.

ولقد ضرب الصوفية أروع الأمثلة على ذلك، فهذا إبراهيم بن أدهم الذي مسكه اللصوص وأخذوا يضربونه على رأسه حتى سال الدم من وجهه، فكتب به في الأرض لا إله إلا الله، وهو يقول لهم: أعطها، كم عصت الله، فتعجب اللصوص من قوله ومما حدث، فقالوا: من أنت، فعرفهم باسمه، فتابوا جميعا وأنابوا إلى الله.

وكذلك سيدي أبو يزيد البسطامي كان يقول: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، قيل له: فمتي يكون تواضعا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاما أو حالا، هؤلاء الذين كنسوا بأرواحهم المزابل.

وقال بعضهم: لا يجوز للإنسان أن يرى لنفسه مزيّة على غيره، ولو كان كافرا لعدم أمن العاقبة، لذلك قال النبي ﷺ: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس)(١).

فاحذر من الكبر، فإنه يتسلل إلى النفس من حيث لا تشعر بذلك، وهو من شيم إبليس، فقد كان إبليس يسمى طاووس الملائكة من كثرة عبادته لله عز وجل، حتى قيل إنه ما ترك شبرا من الأرض إلا وسجد لله فيه، فلما اختبره الله عز وجل وقال له اسجد لآدم، وهو من طين، ثارت نفسه، وقال: أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين، ونسي أن الذي خلقه هو الذي أمره، وامتنع عن السجود، فعلم بذلك أنه ما سجد لله سجدة واحدة، وإنما كان يسجد رضاء لنفسه، فطرده الله ولعنه إلى يوم الدين ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٢)، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة الأعراف من الآية ٩٩.

إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(١).

واحذر أخي المسلم من نفسك، أعاننا الله عليها برحمته وكرمه وعفوه، آمين.

## ٢٣٩- لَيْسَ المُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ، وَلَكِنَّ المُتَوَاضِعَ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ

لما تحدث ابن عطاء الله -رحمه الله- عن الكبر والتواضع بيّن الفروق الدقيقة والخيط الرفيع الذي يفصل بين المتكبر والمتواضع، وأرى المرء من نفسه ما قد يخفى عليه، فالفرق بين الكبر والتواضع دقيق، وقد يلبس الشيطان اللعين على المسلم ليخدعه عن نفسه، ويمنعه من رؤية حقيقته، ويطمس على بصيرته فترى أن لها الحق فيما ليس حقا، أو يزين لها الباطل حقا، فتهلك والعياذ بالله.

فهو في هذه الحكمة لا زال يشدد على التواضع لما له من أهمية كبرى في حياة الإنسان، ولوقوع الكثير من الناس في الكبر دون أن يدرون، أو يعلمون، حيث يقول ابن عطاء الله -رحمه الله- إنه ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، مثال ذلك أن من جلس في آخر المجلس وأرى من نفسه أنه يستحق الجلوس في صدر المجلس وإنما فعل ذلك تواضعا فهو المتكبر.

ولكن المتواضع الحقيقي الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع، أي يرى نفسه أقل من أن يجلس في آخر المجلس، وأن جلوسه في آخر المجلس فوق ما يستحق، لكونه لا يرى لنفسه قدرا ولا رتبة، فهذا هو المتواضع.

ولذا يقول ابن مسعود ﵁: إن من رأس التواضع أن ترضى بالدون من المجلس، وأن تبدأ بالسلام من لقيت.

وذكروا التواضع عند الحسن وهو ساكت، حتى إذا أكثروا عليه، قال لهم: أراكم قد أكثرتم الكلام في التواضع، قالوا: أي شيء التواضع يا أبا سعيد؟ قال: يخرج من بيته فلا يلقى مسلما إلا ظن أنه خير منه.

---

(١) سورة الأنفال من الآية ٢٤.

فمن عالج نفي العز من نفسه، ووفقه الله لذلك فنال نفيه سهل عليه المسير في طريق محبة الله عز وجل، ومحجة الايمان، وسبيل الاستقامة، ومدارج الصالحين، وهان عليه معالجة الصدق في عمله، واطمأنت نفسه إلى التذلل والتواضع، وطاب له طريق العدل، لأنه لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على قبول الحق وفيه العز، ولا يقدر على التواضع الذي هو شرف التقوى وحليتها وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر على ترك العصبية وفيه العز، ولا يقدر على سلامة القلب وفيه العز، ولا يقدر على النصح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء على الناس وفيه العز.

## ٢٤٠- اَلتَّوَاضُعُ الحَقِيقِيُّ هُوَ مَا كَانَ نَاشِئاً عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ وَتَجَلِّي صِفَتِهِ

يبين ابن عطاء الله -رحمه الله- التواضع الحقيقي بعد أن أوضح التواضع المزيف الذي يخفي في داخله كبرا، فقال إن التواضع الحقيقي لا تبقى معه شائبة كبر، وهو ما كان ناشئا عن شهود عظمة الله عز وجل، وتجلي صفة هذه العظمة عليه، فلا يرى عظيما ولا كبيرا في الكون إلا الله عز وجل، وظهور هذا التجلي في قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وعند ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين وتخضع للحق والخلق بمحو آثارها، وسكون وهجها وغليانها، ولا يكون ذلك إلا بالمجاهدة المستمرة، وشهود عظمة الله في كل لحظة من لحظاتها، وعدم الغفلة، واعتقاد العبد أنه عدم محض، وأنه لا شيء حتى يثبت لنفسه شيئا، لأن التواضع يرفع المرء قدرا، ويعظم له خطرا، ويزيده نبلا، والتواضع يكسب السلامة، ويورث الألفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصد.

ولذا قال عروة بن الزبير: التواضع أحد مصائد الشرف.

وقال بعض الحكماء: ثمرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبة.

وقال بعض السلف: قليل التواضع يكفي من كثير العمل، وقليل الورع يكفي من

كثير العلم.

والتواضع تواضعان، أحدهما محمود، والآخر مذموم، والتواضع المحمود ترك التطاول على عباد الله والإزراء بهم، والتواضع المذموم هو تواضع المرء لذي الدنيا رغبة في دنياه.

وقد وضع الصحابة الأجلاء والعلماء العارفون علامات يعرف بها المتواضع الحقيقي من المتكبر، فمن علامة التواضع ألا يدعوك أحد إلى حق إلا قبلته ولم ترده، ولا ترى أحدا من المسلمين إلا رأيت نفسك دونه.

وهذا عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته[١]، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، والتواضع أحب إليه من الشرف، وحتى يكون حامده وذامه عنده سواء، قال: ففسرها أصحاب عبد الله، قالوا: حتى يكون الفقر في الحلال أحب إليه من الغنى في الحرام، وحتى يكون التواضع في طاعة الله أحب إليه من الشرف في معصية الله، وحتى يكون حامده وذامه في الحق سواء.

ويقول كذلك: إن من رأس التواضع أن تبدأ من لقيت بالسلام، وأن ترضى بالدون من شرف المجلس، وتكره المدحة والسمعة والرياء بالبر.

## ٢٤١- لا يُخْرِجُكَ عَنِ الوَصْفِ إلاَّ شُهُودُ الوَصْفِ

وهنا يحلق ابن عطاء -رحمه الله- بالمريد إلى آفاق عالية من المعاني، فيبين له كيفية الخروج من الكبر والعجب، فيقول له لا يخرجك من الوصف إلا شهود الوصف، ومعنى ذلك أنه لا يخرجك عن وصفك النفساني إلا شهود الوصف الرباني، فإن لم تشهد بعين قلبك عظمته وكبرياءه وجلاله فلا تتوهم أن لك نصيبا من التواضع الحقيقي، فإذا شهدت عظمة الله وكبرياءه أخرج ذلك عظمتك وكبرك من نفسك، وإذا شهدت غناه أخرج ذلك غناك، وإذا شهدت قوته أخرج ذلك قوتك، وإذا شهدت عزته

---

(١) **بذروته:** أي بأعلاه، والمقصود أن يدني نفسه من الناس.

أخرج ذلك عزتك، وعلمت حقيقة نفسك أنك أنت الضعيف الفقير، الذليل العاجز، الذي لا حول له ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فإنه لا يخرجك عن أوصاف نفسك الذميمة إلا شهود أوصاف ربك العظيمة، فلا يخرجك عن دناءة نفسك إلا شهود كرم ربك، ولا يخرجك عن شهود أوصافك الحادثة إلا شهود أوصاف ربك القديمة، فيخرجك عن شهود فعلك بشهود فعله، وعن شهود صفاتك بشهود صفاته، وعن شهود ذاتك بشهود ذاته.

وبذلك تفيض صفات مولاك على صفاتك، فتبقى بربك في جميع الأحوال لا بنفسك، فتحقق من ذلك حتى يرضى عنك مولاك، نسأل الله عز وجل ألا يقبضنا إلا بعد التحقق والعمل، آمين.

## ٢٤٢- المُؤْمِنُ يَشْغَلُهُ الثَّناءُ عَلَى اللّهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِراً، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ اللّهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوظِهِ ذَاكِراً

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن المؤمن الحقيقي من عرف نفسه وعجزها، وأسند كل الكمال لله –عز وجل– وأنه ليس له من الأمر شيء، وأن الفاعلية في هذا الكون لله عز وجل، فهو الفعال لما يريد، فلا يرى لنفسه عملا صالحا، وإنما يشاهد الأفعال كلها من الله عز وجل، فإن صلى، أو صام، أو حج، أو عمل عملا صالحا لا ينسبه لنفسه، وإنما ينسبه إلى ربه أن وفقه لذلك، فيشغله الثناء على الله –عز وجل– عن أن يشكر نفسه، كما تشغله حقوق الله –عز وجل– عن حظوظ نفسه، فتكون العبادة خالصة لوجه الله سبحانه، دون أن يطلب بذلك ثوابا من جنة وغير ذلك، فلا يخشى إلا الله عز وجل، ويعلم أن الفضل كله لله، وليس له شيء من ذلك، فالله هو الذي صلى على أعضائه، وهو الذي زكى، وهو الذي حج، ثم نسب كل ذلك إليه فضلا وتكرما، لأنه هو الغني عن أي شيء ونحن الفقراء المحتاجون، فشكرا من كل قلب مخلص لله رب العالمين.

وقد كان سيد العابدين محمد ﷺ أكثر الداعين وخير من أثنى على رب العالمين،

فها هو في دعائه يثني على ربه ويتعبد بشكره وحمده، فعن عائشة، قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان وهو يقول: (اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)(١).

وعن علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول في آخر الوتر: (اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)(٢).

وانظر إلى هذا الدعاء الجميل والثناء الحسن الخارج من الفم الطاهر، حيث كان النبي ﷺ يفتتح الصلاة قائلا: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك، وإذا ركع، قال: اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي، وإذا رفع، قال: اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، وإذا سجد، قال: اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه، وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين، ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا

---

(١) أخرجه مسلم في الحديث رقم٤٨٦، الصحيح ٣٥٢/١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم١١٧٩، سنن ابن ماجه ٣٧٣/١.

إله إلا أنت)[١].

وكان داود النبي عليه السلام يقول في دعائه: سبحانك اللهم، أنت ربي تعاليت فوق عرشك، وجعلت خشيتك على من في السماوات والأرض، فأقرب خلقك منك منزلة أشدهم لك خشية، وما علم من لم يخشك؟ وما حكمة من لم يطع أمرك؟.

فعلامة المسلم الحق أن يشغله الثناء على الله بما هو أهله عن أن يكون لنفسه شاكرا، فأفضل الأعمال ما دخل في أوله لله تعالى، وخرج منه بالله تعالى، وأفضل النيات أن لا تريد بعملك إلا وجه الله تعالى وحده، تعظيما لحق الربوبية، وإلزاما للنفس وصف العبودية، فإن لم يكن هذا المقام عن مشاهدة وجه ذي الجلال والإكرام فمشاهدة ما رغب فيه وشوق إليه من الآخرة عن مقام الرجاء.

وإن أردت ثناء بعطاء فهذا ما ورد في الأثر عن دعاء سيدنا آدم عليه السلام، ففي الخبر أنه طاف آدم سبعا بالبيت حين نزل، ثم صلى وجاه باب الكعبة ركعتين، ثم أتى الملتزم، فقال: اللهم إنك تعلم سريرتي وعلانيتي، فاقبل معذرتي، وتعلم ما في نفسي وما عندي، فاغفر لي ذنوبي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي، ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت لي، والرضا بما قضيت علي، فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم، قد دعوتني بدعوات واستجبت لك، ولن يدعوني بها أحد من ولدك إلا كشفت همومه وغمومه، وكففت عليه ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، وتجرت له من وراء تجارة كل تاجر، وأتته الدنيا وهي راغمة وإن كان لا يريدها.

## ٢٤٣- لَيْسَ المُحِبُّ الَّذِي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عِوَضاً وَيَطْلُبُ مِنْهُ غَرَضاً فَإِنَّ المُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ لَكَ، لَيْسَ المُحِبُّ مَنْ يُبْذَلُ لَهُ

إن الحب الحقيقي من يحب لأجل الله وحده، لا يحب الرجل لذاته أو لصفاته، وإنما يحبه من أجل الله وحده، ويبغضه من أجل الله وحده، وهذا هو العمل الخالص

(١) أخرجه مسلم في الحديث رقم٧٧١، الصحيح ١/٥٣٤.

لوجه الله عز وجل، لذلك قال الله عز وجل لموسى: يا موسى، هل عملت لي عملا قط، قال: يا رب، صليت لك، وزكيت لك، وصمت لك، وحججت لك، قال: كل ذلك لك وليس لي، قال: يا رب، دلني على عمل يكون خالصا لك، قال: الحب فيّ، والبغض فيّ.

والحب في الله هو الحب الحقيقي الذي لا مراء ولا نفاق فيه، لذلك قال ابن عطاء الله رحمه الله ليس المحب الحقيقي هو الذي يرجو من محبوبه عوضا على أعماله، كدخول الجنة، أو النجاة من النار، أو يطلب منه غرضا من الأغراض الدنيوية أو الأخروية، لكن المحب الحقيقي من يبذل لك، أي يعطيك ما تريده، وليس المحب الحقيقي من تبذل له، لأن المحبة الحقيقية أخذ خصال المحبوب لحبة قلب المحب، فلا يكون عنده التفات لغير محبوبه، فمن عبد الله عز وجل لجنته، أو خوفا من ناره ليس محبا له، وأول ما يفنى من الإنسان هو خاطره في محبوبه، فلا يرى شيئا إلا رأى فيه محبوبه.

ولذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثة على كثبان المسك حتى يفرغ الناس من الحساب: إمام قوم يلتمس به وجه الله تعالى، ورجل قرأ القرآن يلتمس به وجه الله تعالى، ومؤذن ينادي بصلاة يلتمس به وجه الله تعالى.

ويقول أحد العارفين: من علامة الإيمان حب الله عز وجل، ومن علامة حب الله حب القرآن، ومن علامة حب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ اتباعه، وعلامة اتباعه الزهد في الدنيا.

ويقول ذو النون المصري: اعلموا أن المحب لله –عز وجل– يعظم عنده الإيثار لله، لأنه ليس شيء عنده أعظم من الله، فينبغي للمحب لله أن يرى عليه أثر ذلك من رفض الدنيا، لأنه من المحال أن يجتمع في القلب حب الله مع حب الدنيا، فمن أحب الله لم ينظر إلى ما يناله من الدنيا، ولا تكون له حاجة إلى غير من أحب.

ويقول أيضا: دلائل أهل المحبة لله أن لا يأنس بسوى الله، ولا يستوحش مع الله، لأن حب الله إذا سكن في القلب آنس بالله، لأن الله أجلّ في صدور العالمين من أن

يحبوه لغيره.

وهذا أحد العارفين ينبه مريده قائلا: إياك أن تطمع في الأنس بالله وأنت تحب الأنس بالناس، وإياك أن تطمع في حب الله وأنت تحب الفضول، وإياك أن تطمع في المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس.

هذا هو الحب الحقيقي الذي يجبر به الله -عز وجل- نقص العبادات، ويرفع به إلى أعلى الدرجات، وليس الحب الذي يدعيه الناس الآن، الذي يؤدي إلى المهالك والبوار، فحب اليوم هو حب الجزار لذبيحته.

لذا قال الشاعر:

مالي سوى روحي وباذل نفسه      في حب من يهواه ليس بمسرف

فلئن رضيت بها لقد أسعفتني      يا خيبة المسعى إذا لم تُسعف

ويقول آخر:

لئن بقيت في العين مني قطرة      فأنا إذا في العاشقين ذليل

ومن أراد بأعماله ما عند الله تعالى من ثواب الآخرة من حظوظ نفسه، ومعاني شهواته، ولذته من النعيم في الجنان، واتخاذ الحور الحسان، مما وصف الله تعالى وندب، لم يقدح ذلك في إخلاصه، ولم يغير صحة نيته من قبل أن الله تعالى مدحه ورغب فيه ووصفه، إلا أن هذا نقص في مقام المحبين، وعيب عندهم كعيب من عمل لعاجل حظه من دنياه، وهو شرك في إخلاص الموحدين الذي اختصوا بالعبودية، فعتقوا من أسر الهوى بالحرية.

يا رب ارزقنا الحب الحقيقي، وخلص قلوبنا من الحب الكاذب، آمين.

**٢٤٤- لَوْلا مَيَادِينُ النُّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ، إذ لا مَسَافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَطْوِيَهَا رِحْلَتُكَ، وَلاَ قَطِيعَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَمْحُوَهَا وُصْلَتُكَ**

لولا شهوات النفوس ومألوفاتها وحوم الشياطين عليها لنظر الإنسان إلى ملكوت السماوات، ولدخلت حظيرة القدس، ولرأى الله أقرب إليه من حبل الوريد.

وهنا يبين ابن عطاء الله -رحمه الله- أنه لولا شهوات النفوس وعاداتها التي تعيش فيها، وتخوضها كما تخوض الفرسان في الميادين الواسعة التي تجري فيها الخيول ما تحقق سير السائرين إلى الله عز وجل، لأن الله في الحقيقة هو أقرب إليك من حبل الوريد، فالذي حجب النفوس عن رؤية ذلك هي الشهوات والمألوفات والعادات، لذا قيل خير عادة ألا تكون لك عادة ولا قطيعة، إذ لا مسافة بينك وبين الله عز وجل حتى تطويها وتقطعها بالسير، وإنما البعد هو الحجاب الذي حجبك الله به من الشهوات وغيرها، فالبعد منسوب إليك لا إلى ربك، إذ لا مسافة حسية في الحقيقة بينك وبين ربك قطعتها رحلتك، ولا قطيعة، أي لا مقاطعة توجب البعد المعنوي بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك، لأن ذلك لا يكون إلا بين المتعادين والمتخاصمين، وأين أنت من معاداة ربك، فليس هناك حجاب يمنع وصولك إلى الله -عز وجل- إلا حجاب نفسك، ولا يزال ذلك الحجاب بينك وبين الله عز وجل، والعذاب الذي تراه في الدنيا قبل الآخرة حتى يزول ذلك الحجاب بكسر شهوات النفس وترك مألوفاتها، وتطهيرها من كل ما يغضب الله عز وجل، لذا قيل: إن سبب العذاب وجود الحجاب، وكمال النعيم في النظر إلى وجهه الكريم.

ولا يكون ذلك إلا بالجهاد للنفس، لأن النفس بلهاء، فإذا مرت في الحلال، فتمكنت منه سلست[(١)] في الحرام، إذا لم يكن في القلب ما يقيد النفس عن الحرام، ويقويها حتى لا تسلس، وأدب النفس أن يمنعها الحلال، حتى لا تطمع في الحرام، وذلك أن النفس قد اعتادت لذة التكلم بالكلام، فإذا لم يلزمها الصمت فيما لابد منه حتى تعتاد السكوت عن الكلام فيما لابد منه، فقد ماتت شهوة الكلام، فاستراح وقوى على الصدق، وكذلك شهوة النظر، فاعتياد النفس لذة رمي البصر حيثما وقع من غير مبالاة، فإذا لم يلزمها الخفض عما لابد منه، اعتادت نفسه رمي البصر، فإذا ألزم عينه الغض عن النظر، ورمى بها إلى الأرض إذا مشى وقام وقعد، ماتت شهوة النظر إلى

---

(١) أطاعت ولانت واستسهلت الحرام.

الأشياء، واعتادت غض البصر وحفظه، وكذلك شهوة السمع واليدين والرجلين والبطن والفرج، فالمجاهدة هاهنا إذا عزم العبد على مجاهدة النفس، ألزم كل جارحة من هذه الجوارح السبع الفطام عن عملها حلالاً كان أو حراماً، حتى تموت تلك الشهوة، لأن تلك الشهوة هي شهوة واحدة، أحل له بعضها، وحرم عليه بعضها، ابتلاءً واختبارا من الله تعالى لعباده، وتدبيرا لهم، فما علم أنه يصلح لهم ويصلحون عليه أطلقه لهم، وما علم أنه يفسدهم وأنهم يفسدون عليه حظره عليهم.

نسأل الله السلامة من النفوس، آمين.

## ٢٤٥- جَعَلَكَ فِي العَالَمِ المُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ لِيُعْلِمَكَ جَلَالَةَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْهَا أَصْدَافُ مُكَوَّنَاتِهِ

يحلق ابن عطاء الله -رحمه الله- في أجواء النفس الإنسانية جسما وروحا، فيعطي كل مجال من حكمه ما ينبه به الغافل ويوقظ به النائم، وهو هنا يطوف بنا حول تكريم الإنسان، ليبين له كيف كرمه الله تعالى، وأن عليه أن يثبت أنه أهل للتكريم بالعمل لمرضاة الله تعالى.

فلقد فضل الله سبحانه الإنسان على سائر مخلوقاته، وكرمه، فخلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وعلمه الأسماء كلها، وجعله على صورته، وجعله خليفته في أرضه، وسخر له كل شيء، وجعله عبدا له، لكن الإنسان جحود لا يشكر لربه ما أولاه من نعم، وما أعطاه من منن، فأراد ابن عطاء الله -رحمه الله تعالى- أن يبين ذلك بإجمال في هذه الحكمة، فقال جعلك الله أيها الإنسان في عالم متوسط بين ملكه، وهو عالم الشهادة أو العالم الحسي، وبين ملكوته وهو عالم الغيب أو العالم المعنوي، ولم يجعلك من عالم واحد، أي جعل فيك من العالمين، فجعل فيك من عالم الملك جسمك، ومن عالم الملكوت روحك وسرك، لتعلم جميع المخلوقات جلالك وقدرك، وأنك أنت سيد هذا الوجود عبدا لربك، لذا قال الله -عز وجل- للدنيا: يا دنيا، اخدمي من خدمني، واستخدمي من خدمك، فإذا أطعت الله كانت جميع المكونات في

خدمتك، وإن عصيت الله عز وجل استخدمتك وخالفتك جميع المخلوقات، ومن كان هذا شأنه فليله طويل.

وبذلك أي بالروحانية والجسمانية انطوى في الإنسان العالم الأكبر، لذا الشاعر:

وتحسب أنك جرم صغير     وفيك انطوى العالم الأكبر

وإذا ما نظرت إلى تكريم الله لك علمت أنك جوهرة نفيسة تنطوي أي تحتوي عليك للخدمة والحفظ مكونات الله جميعها التي هي لك كالأصداف المحيطة بالجوهرة، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(١)، ويقول سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(٢)، وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له.

ويبين العلامة الشرقاوي –رحمه الله– انطواء العوالم كلها في الإنسان بقوله: فيك من صفات الملائكة العقل والمعرفة والعبادة.

ومن صفات الشياطين الإغواء والتمرد والطغيان.

ومن صفات الحيوانات أنه في حال الغضب يكون كالأسد، وفي حال غلبة الشهوة يكون كالخنزير لا يبالي أين يلقي نفسه، وفي حال الحرص على الدنيا والشره يكون كالكلب، وفي حال الاحتيال والخداع يكون كالذئب.

ومن صفات النبات والأشجار أنه يكون في مبدئه غضا طريا مترعرعا، وأنه ينبت في بطن أمه أربعة أشهر بسر الحياة التي ينبت بها النبات وليس بالروح، وفي آخره يكون يابسا أسود.

ومن صفات السماء أنه محل للأسرار والأنوار ومجمع الملائكة.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠.

(٢) سورة الجاثية من الآية ١٣.

ومن صفات الأرض أنه محل لنبات الأخلاق والطباع، ومنه اللين والخشن.

ومن صفات العرش أن قلبه محل التجلي.

ومن صفات اللوح أنه خزانة للعلوم.

ومن صفات القلم أنه ضابط لها.

ومن صفات الجنة أنه إذا حسنت أخلاقه تنعم به جليسه.

ومن صفات النار أنه إذا قبحت أخلاقه احترق به جليسه.

فالإنسان مجمع ذلك كله، فكيف يستهين بنفسه وقد وهبه الله كل ذلك، فالشكر لمن وهب، لا الشكر لمن بذل.

## ٢٤٦- إِنَّمَا وَسِعَكَ الكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جِسمَانِيَّتُكَ وَلَمْ يَسَعْكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُ رُوحَانِيَّتِكَ

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن العالم السفلي، وهو عالم الملك يسع جثمانية الإنسان من أنه يجد فيه كل ما يحتاجه لجسده من طعام وشراب وتفكه، أما روحانيته فلا يسعها عالم الملك، لعدم وجود غذائها فيه، وإنما يسعها عالم الملكوت، فترقى بمعراج كمالاتها إلى الحضرة القدسية، لأن عشقها وحبها في الله رب العالمين.

ولذا يقول الشاعر:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته     أتطلب الربح فيما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها     فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

فأنت أيها الإنسان أصبحت إنسانا بالروح لا بالجسد، فنظرك إلى عالم الملك ينزل بك إلى أسفل سافلين، ونظرك إلى عالم الملكوت يرفعك إلى أعلى عليين، فانظر لنفسك ما تختاره.

ومن هنا كان الاهتمام بالروح وغذائها عمل الصالحين وكلفة الواعظين وهمة القاصدين، فهم لا يستريحون إلا بالعمل، ولا تنضبط حياتهم إلا بخفة أرواحهم، ولا يعيرون الجسد وشهواته اهتماما، بل يلجمون أنفسهم عن النظر إلى ما يغذي البدن

دون ما يغذي الروح، وكان الوسط في كل ذلك خيرا فإن من جاوز الوسط أتعب نفسه وأهلك روحه، ولذا قال أحد العلماء ناصحا: اعلم أنك إن جاوزت الغاية في العبادة، صرت إلى التقصير، وإن جاوزتها في حمل العلم، لحقت بالجهال، وإن جاوزتها في تكلف رضى الناس، والخفة معهم في حاجاتهم، كنت المحشود المصنع، واعلم أن بعض العطية لؤم، وبعض السلاطة غيم، وبعض البيان عي، وبعض العلم جهل، فإن استطعت ألا يكون عطاؤك جورا، ولا بيانك هذرا٤، ولا علمك وبالا، فافعل.

وروي أن داود قال لسليمان عليهما السلام: أي شيء أبرد؟ وأي شيء أحلى؟ وأي شيء أقرب؟ وأي شيء أبعد؟ وأي شيء أقل؟ وأي شيء أكثر؟ وأي شيء آنس، وأي شيء أوحش؟. قال: أحلى شيء روح الله بين عباده، وأبرد شيء عفو الله عز وجل عن عباده، وعفو العباد بعضهم عن بعض، وآنس شيء الروح تكون في الجسد، وأوحش شيء الجسد تنزع منه الروح، وأقل شيء اليقين، وأكثر شيء الشك، وأقرب شيء الآخرة من الدنيا، وأبعد شيء الدنيا من الآخرة.

وإنما تخف الروح برؤية من يحب الله ومن يذكرك بالله، وتثقل برؤية من يبعدك عن الله ويحدثك عن الدنيا، فتشعر وكأن ثقلا على قلبك، وهما يجثم على صدرك، وقد أطلق العلماء والعارفون على هذه الفئة مسمى الثقلاء، فهذا الهيثم بن عدي يسأل: الأعمش: مم عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء. وقال الأعمش: قال جالينوس: لكل شيء حمى وحمى الروح النظر إلى الثقيل.

وقال ابن سيرين سمعت رجلا يقول: نظرت الى ثقيل مرة فغشى علي.

وقال الشافعي رحمه الله: ما جالست ثقيلا إلا وجدت الجانب الذي يليه من بدني كأنه أثقل علي من الجانب الآخر.

فإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقيل لم يأمن أن يغتابه، وأن يستنكر ما هو صنع الله، فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن أو محاسدة أو نميمة أو غير ذلك لم يصبر عن مكافأته، وكل ذلك يجر إلى فساد الدين، وفي العزلة سلامة عن جميع ذلك.

وإن أردت معرفة سر الروح فاستمع إلى ما يقوله أبو حامد رحمه الله: فمن عرف

سر الروح فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته، وأنه في العالم الجسماني غريب، وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته، بل بأمر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم عليه السلام، وعبر عنه بالمعصية، وهي التي حطته عن الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته، فإنها في جوار الرب تعالى، وأنه أمر رباني، وحنينه إلى جوار الرب تعالى له طبعي ذاتي إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته، فينسى عند ذلك نفسه وربه، ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه، إذ قيل له ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم، وهذه إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون، وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون، فإنها تضر بهم كما تضر رياح الورد بالجعل، وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش.

## ٢٤٧- الكَائِنُ فِي الكَوْنِ وَلَمْ تُفْتَحُ لَهُ مَيَادِينُ الغُيُوبِ، مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ مَحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ

يقصد ابن عطاء الله –رحمه الله– بالكون عالم الملك، وهو الدنيا، فالإنسان في الدنيا مهما كان وسعها فهو مسجون فيها ولم تفتح له ميادين الغيوب، وهي خزائن العلوم والمعارف الغيبية والأسرار الربانية الشبيهة بالميادين حتى تتغذى منها روحه، ويستنير بها قلبه، ويشاهد الأسرار والأنوار، فيتسع بها صدره، ويزول بها همه، أما إذا لم تفتح له ميادين الغيوب، فهو مسجون بمحيطاته، أي شهواته المحيطة به، ومحصور في هيكل ذاته، أي في هيكل ذاته النفسانية.

أما من طهر نفسه من الشهوات، وتخلص من سجن الرعونات فقد وصل إلى أعلى الدرجات، وسعد في دنياه وأخراه بفتح ميادين الغيوب من عالم الغيب والشهادة، وقد جاء في الأثر أن الله –عز وجل– يقول للعبد: عبدي اجعلني مكان همك أكفك كل هم.

وهذه هي السعادة التي يبحث عنها الكثير، فلا يجدها ولا يعرفها، أن تعرج من سجن الدنيا إلى عالم الملكوت الذي لا نهاية له، فقد خلق الله ألف ألف عالم لا يعلم كل عالم عن الآخر شيئا.

فمن لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله، وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا، ومقاساة الشهوات فيها، وقدم على محبوبه، وانقطعت عنه العوائق والصوارف، وتوفر عليه النعيم، مع الأمن من الزوال أبد الآباد، ولمثل ذلك فليعمل العاملون.

**٢٤٨- أَنْتَ مَعَ الأَكْوَانِ ما لَمْ تَشْهَدِ المُكَوِّنَ، فإذَا شَهِدْتَهُ كَانَتِ الأَكْوَانُ مَعَكَ**

يقول ابن عطاء الله –رحمه الله– أنت مع الأكوان أيها العبد الضعيف ما لم تشهد المكون سبحانه وتعالى فيه، وقائما عليه، ومدبرا له، ومظهرا له، فإذا شهدته وعرفته حق المعرفة كانت الأكوان معك، ومتبركة بك، حتى الحيوانات والجمادات والطيور، أما إذا كنت مع الأكوان ولم تشهد المكون كان ليلك طويلا وتعرضت للذل والضلال، وتهتم وتغتم، وتتشكك، وتجوع وتعرى، لأن الأكوان سوف تستخدمك ولا تخدمك، لأنك أنت مع الأكوان ولست مع المكون، أما الذي يرى المكون في الأكوان يقول الله للأكوان اخدميه ولا تستخدميه، ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[١].

يقول بعض العارفين: إنني أدخل السوق والأشياء تشتاق إلي وأنا عن جميعها حر.

ويقول آخر: أشرقت على إبراهيم بن أدهم وهو في بستان يحفظه وقد أخذه النوم، وإذ بحية في فيها طاقة نرجس تروح بها عليه.

فكم من أولياء سخر الله لهم الأسود والعقارب والحيات، وغير ذلك، لأن الإنسان إذا كان مع الله كان الكون بيديه.

(١) سورة سبأ من الآية ١٠.

وحقيقة التوكّل كما ذكره العلماء اعتماد القلب على الله تعالى في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، فهو يعلم أن الأمر كله منه وإليه، والتسخير بيده، وأن ليس في الدنيا شيء يحدث بدون إرادته.

والمتوكل على الله استغنى بالمعطي المانع عمن ليس بمانع ولا معط، فهو غني بالله عمن سواه، فقير إلى الله، قد سكن قلبه عن الاضطراب، فليس لمخلوق في قلبه خطر، فمن وثق بغير الله لا يغنيه، والمتوكل لزم التقوى فجعل الله له مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب، ولم يقل من حيث يحتسب.

وقال رجل لمعروف الزاهد: أوصني، قال: توكل على الله حتى يكون جليسك وأنيسك، وموضع شكواك، وأكثر ذكر الموت حتى لا يكون لك جليس غيره، واعلم أن الشفاءَ لما نزل بك كتمانُه، وأن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك، ولا يعطونك ولا يمنعونك.

وما أجمل قول الشاعر:

توكل على الله فهو الذي     يسبب للرزق أسبابه

ويأتيك بالرزق من حيث     لا تظن ويفتح أبوابه

وكل محب صفا حبه     لمولاه راض بما نابه

اجعلنا اللهم ممن استغنى بك عن غيرك، ورجاك رجاء لم يخطر به على باله سواك، وأكرمنا بفضلك واجعلنا من المتوكلين عليك.

## ٢٤٩- لا يَلْزَمُ من ثُبُوتِ الخُصُوصيَّةِ عَدَمُ وَصْفِ البَشَرِيَّةِ، إنَّمَا مَثَلُ الخُصُوصيَّةِ كإشْرَاقِ شَمْسِ النَّهَارِ، ظَهَرَتْ في الأُفُقِ ولَيْسَتْ منْهُ، تارةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصَافِهِ على لَيْلِ وُجُودِكَ، وَتَارَةً يَقْبِضُ ذَلِكَ عنْكَ فَيَرُدُّكَ إلَى حُدُودِكَ، فَالنَّهارُ لَيْسَ مِنْكَ وإلَيْكَ وَلَكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ

إذا كانت الحكم العطائية متميزة بالاختصار والإيجاز فإن ابن عطاء –رحمه الله– خرج عن هذا النمط في الحكمة هذه والتي تليها، نظرا لكون الشرح منه لها مهما،

وبيانها مطلوبا حتى لا تستغلق على سامعه، ويفوت إدراكها على مريده.

وقد بين في هذه الحكمة أن الإنسان لا يستطيع أن يتخلص من أوصافه البشرية بالكلية، ولا يلزم من ثبوت الولاية والكرامة أن يتخلص من أوصافه البشرية، فإن الكينونة التي منحها الله للعبد هي كينونة حال، لا كينونة مقام، فكينونة الحال تكون للولي صاحب الخصوصية يقول للشيء كن فيكون في بعض الوقت، وتتخلف في الوقت الآخر، فيقول للشيء كن فلا يكون، وبذلك يشعر بالنقص والعجز والبشرية، بخلاف الرب فإن الكينونة عنده كينونة مقام، وليست كينونة حال، ففي جميع أحواله لا تتخلف الكينونة، فيقول دائما للشيء كن فيكون في الحال.

يقول ابن عطاء الله –رحمه الله– لا يلزم من ثبوت الخصوصية لأحد الخواص بأن تظهر عليه النعوت القدسية والأنوار الربانية والكرامات وغير ذلك عدم وصفه بالبشرية بالكلية، بل هو بشر تعتريه هذه الصفات، وهي الجهل والفقر، واللذة والألم، والجوع والعطش، وما إلى ذلك من صفات البشر، فمثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت في الأفق، أي في نواحي السماء وليس هو منها، فالنور ليس ذاتيا له، وإنما عرض لإزالة الظلمة، فكذلك الهبات الربانية والأوصاف القدسية ليست ذاتية للعبد، بل هي عارضة على أوصافه، لأنه تارة تشرق أوصافه سبحانه وتعالى التي هي كالشمس على وجودك الشبيه بالليل المظلم لما فيه من الأوصاف الدنيئة فتغلب عليها، وتظهر خصوصيتك فتكون غنيا بالله بعد أن كنت فقيرا، وقادرا بالله بعد أن كنت عاجزا، وعالما بالله بعد أن كنت جاهلا، إلى غير ذلك، فالنهار الذي هو الخصوصيات التي ظهرت عليك ليس منك، وإليك أي أنه ليس من أوصافك الذاتية، ولكنه وارد عليك من إشراق شموس أوصافه، ثم يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك، فهنا ليس القبض سلبا للإشراقات والأنوار، وإنما هو تنبيه للقاصدين على أن الأمر كله لله وحده، فهو الذي يأتي بالخصوصيات، والخصوصيات تنزل بالقلب، فلا تأفل أنوار القلوب والسرائر أبدا، لكن ذلك لا يمنع من ثبوت وصف البشرية.

ولذا قال أحد العارفين: اعلم أن الواثق بالله نفى عن قلبه التهمة لله وان كنت في

ظل سبب، فلا يميلن قلبك إلى السبب، وليكن قلبك مع الله عز وجل.

ويقول آخر: لما رأيت النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق، تريد بذلك تغنيا أو مباهاة أو رياء، علمت أنها خلطت حراما بحرام، فضيعت الشكر، وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر، فلما رأيت سوء أدبها منعتها، حتى إذا ذلت وانقمعت، ورآني ربي مجاهدا في ذاته حق جهاده هداني سبيله، فصرت عنده بالمجاهدة محسنا فكان الله معي، ومن كان مع الله فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل؛ وقذف في القلب من النور نورا عاجلا في دار الدنيا، حتى يوصله إلى ثواب الآجل.

وعن شعيب بن حرب، قال: دخلت على مالك بن مغول، وهو في دار بالكوفة وحده، فقلت له: أما تستوحش في هذه الدار؟ فقال: ما كنت أحسب أن أحدا يستوحش مع الله عز وجل، لأنه إذا أحب العبد ربه فلا وحشة عليه، بل هو أنسه، ويحدثه.

قال الشيخ أبو سليمان: ما أشرف هذه المنزلة، وأعلى هذه الدرجة، وأعظم هذه الموهبة، إنما لا يستوحش مع الله من عمر قلبه بحبه، وأنس بذكره، وألف مناجاته بسره، وشغل به عن غيره، فهو مستأنس بالوحدة، مغتبط بالخلوة.

وقال بعض العارفين: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب كان العبد محبا للآخرة وللدنيا، وكان مرة مع الله تعالى ومرة مع نفسه فإذا دخل الإيمان إلى باطن القلب أبغض العبد الدنيا وهجر هواه.

**٢٥٠- دَلَّ بِوجود آثَارِه عَلَى وُجُودِ أَسمائِه، وَبِوُجُودِ أَسمائِه عَلَى ثُبُوت أَوْصَافِه، وَبِوُجُودِ أَوْصَافِه عَلَى وُجُودِ ذَاته، إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ الوَصْفُ بِنَفْسِه، فَأَهْلُ الجَذْبِ يَكْشِفُ لهم عَنْ كَمَالِ ذَاته، ثُمَّ يَردُّهُمْ إِلى شُهُودِ صِفَاته، ثُمَّ يَردُّهُمْ إِلى التَّعَلُّقِ بِأَسمائِه، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلى شُهُودِ آثَارِه، وَالسَّالِكُونَ عَلَى عَكْسِ هَذَا، فَنِهَايَةُ السَّالِكِينَ بِدَايَةُ المَجْذُوبِينَ لكِنْ لا بِمَعْنَىً وَاحِدٍ، فَرُبَمَّا التَقَيَا في الطَّرِيقِ، هَذَا في تَرَقِّيه وَهَذا في تَدَلِّيهِ**

لله ما أروع هذا الشرح، وما أبدع هذا البيان، نظم من الحكم كأنه شعر بل أفخم، وكأنه جواهر وللآلئ بل أنقى، وكأنه خطابة بليغة بل هو أرقى، ورغم طول الشرح على غير عادة ابن عطاء في حكمه إلا أن الحكمة آية من آيات البلاغة، وفن من فنون التعبير يعجز من يقرأه إلا عن الصياح بصوت بالغ الله الله الله.

وابن عطاء الله -رحمه الله- يبين في هذه الحكمة أن من عباد الله -عز وجل- من يصل إلى الله بعين الجود، ومنهم من يصل إليه ببذل المجهود، فمن يصل إليه بعين الجود يسمى المجذوب الذي اختطفته يد العناية، أما من يصل إليه ببذل المجهود فيسمى بالسالك للطريق، والمجذوب يستدل على الله بنور الله، أي يستدل بالمؤثر على الأثر، والسالك يستدل على الله بالأثر الذي يدله على المؤثر، أي يستدل بمخلوقات الله على ذاته.

لذا قال ابن عطاء الله -رحمه الله- إن الله سبحانه وتعالى دل على وجوده بالآثار، وهي مصنوعاته ومكوناته، وبوجود آثاره على وجود أسمائه، لأنه لا يصدر هذا الملك العظيم إلا عن مالك قادر، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه من القدرة والعلم والإرادة، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته، وعلل ذلك بقوله: إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه، ثم قسم أهل الوصول إلى قسمين:

الأول: أرباب الجذب، والثاني: أرباب السلوك.

فأرباب الجذب الذين اختطفتهم يد العناية يكشف لهم أول ما يكشف عن كمال ذاته، بأن تزاد المعرفة عندهم والأنوار والأسرار حتى يرون الله عز وجل بعين القلب،

وهي البصيرة، فينجذبون إلى الذات العلية بالكلية، ثم يردهم إلى شهود صفاته، فيشاهدون بنور المعرفة ارتباطها بالذات، ثم يرجعهم إلى التعلق بالأسماء، بأن يشاهدوا بالذوق تعلقها بالآثار، ثم يردهم إلى شهود الآثار، أي صدورها عن الأسماء، فهؤلاء هم الذين وصلوا إلى الله عز وجل بعين الجود، فلا يرون شيئا من المخلوقات إلا رأوا الله قبله، وهم يستدلون على الله بنور الله، أي يستدلون بالمؤثر على الأثر.

وأما السالكون فهم على عكس هذا، لأنهم يستدلون بالأثر على المؤثر، أي بالمخلوقات على الخالق، فأول ما يظهر لهم هو الآثار، فيستدلون بها على الأسماء، وبها على الصفات، وبها على كمال الذات، فهؤلاء الذين يستدلون بالمخلوقات على الخالق يقولون ما رأينا شيئا إلا رأينا الله بعده، لكن نهاية السالكين هي بداية المجذوبين، وبداية السالكين نهاية المجذوبين، لكن لا بمعنى واحد، فإن مراد المجذوبين شهود الأشياء بالله، ومراد السالكين شهود الأشياء لله، ففرق بين العلم لله والعلم بالله.

العلم لله لأهل السلوك، والعلم بالله لأهل الجذب، والجذب يكون جذبا كليا وجذبا جزئيا، فأي صوفي فيه حالة جذب.

فأهل السلوك على تحقيق الفناء والمحو، لأنك لو وصلت إلى الذات العلية فإن صفاتك تحترق في صفاته، وأهل الجذب مسلوك بهم طريق البقاء والصحو، لأنهم خرجوا من الذات العلية أحرارا من الأغيار، فربما التقيا في الطريق، أي في منزلة من المنازل، كشهود الأسماء أو الصفات، السالك في ترقيه من الخلق إلى الخالق، والمجذوب في تدليه من الحق إلى الخلق.

وبالجملة إن أهل السلوك هم أهل الظاهر، وأهل الجذب هم أهل الباطن.

## ٢٥١- لا يُعْلَمُ قَدْرُ أَنْوَارِ القُلُوبِ وَالأَسْرَارِ إِلاَّ فِي غَيْبِ المَلَكُوتِ، كَمَا لا تَظْهَرُ أَنْوَارُ السَّمَاءِ إِلاَّ فِي شَهَادَةِ المُلْكِ

إن أنوار القلوب وأسرارها لا تظهر إلا في عالم الملكوت، وهو عالم الآخرة، فتستدل الملائكة بها على صاحبها الذي تخرج منه وتهدي إليه كما يهتدي الإنسان

بضوء القمر والكواكب، أما أنوار الكواكب فلا تظهر إلا في شهادة الملك، أي الملك المشاهد، وهي الدنيا، ونور القلب الذي يسمى بنور الإيمان ليس له أفول، أي لا يغيب أبدا، فيناسبه الدار الباقية، أما أنوار الشموس والكواكب فإنها تأفل وتغيب، فيناسبها الدار الفانية.

ونور القلوب يأتي من صفات الذات، وأنوار الكواكب تأتي من انعكاس نور الملكوت، فمن كان إيمانه بالغيب أكمل كان نوره وأسراره أتم وأشمل، ويكون له أعظم منازل الامتنان من الحنان المنان قديم الإحسان.

وإنما تعمر القلوب بذكر الله وطاعته، وهو ما جبل عليه الكون وتوافقت عليه الأكوان، يقول ذو النون: وجدت صخرة بيت المقدس عليها أسطر، فجئت بمن ترجمها فإذا عليها مكتوب: كل عاص مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف هارب، وكل راج طالب، وكل قانع غني، وكل محب ذليل.

وعلى العاقل أن يجلو صفحة قلبه ليتلقى الأنوار في هذه الدار، فتكون منيرة في عالم الملكوت، يقول أبو حاتم: الواجب على العاقل أن لا ينسى تعاهد قلبه بترك ورود السبب الذي يورث القساوة له عليه، لأن بصلاح الملك تصلح الجنود، وبفساده تفسد الجنود، فإذا اهتم بإحدى الخصلتين تجنب أقربهما من هواه، وتوخى أبعدهما من الردى.

وقال: لن تصفو القلوب من وجود الدرن فيها حتى تكون الهمم في الله هما واحدا، فإذا كان كذلك كفي الهم في الهموم إلا الهم الذي يؤول متعقبه إلى رضا الباري جل وعز، بلزوم تقوى الله في الخلوة والملاء، إذ هو أفضل راد العقلاء في دارهم، وأجل مطية الحكماء في حالهم.

وقال عمر بن الخطاب ﵁: جالسوا التوابين، فإنهم أرق أفئدة.

وعن إسماعيل بن زياد قال: قدم علينا عبد العزيز بن سليمان عبادان في بعض قدماته، فأتيناه نسلم عليه، فقال لنا: صفوا للمنعم قلوبكم يكفكم المؤن عند همكم، ثم قال: لو خدمت مخلوقا فأطلت خدمته ألم يكن يرعى لخدمتك حرمة؟ فكيف بمن ينعم

عليك وأنت مسيء إلى نفسك؟ تتقلب في نعمه وتتعرض لغضبه؟ هيهات هيهات، همة البطالين، ليس لهذا خلقتم، ولا بذا أمرتم.

وعن يحيى بن معاذ الرازي قال: الحكمة تهوي من السماء إلى القلوب، فلا تسكن في قلب فيه أربع خصال: الركون إلى الدنيا، وهم غدٍ، وحسد أخ، وحب شرف.

## ٢٥٢- وِجْدَانُ ثمَرَاتِ الطَّاعَاتِ عَاجِلاً وَبَشَائِرُ العَامِلِينَ بِوُجُودِ الجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلاً

إن الله –سبحانه وتعالى– بفضله وكرمه على عباده الطائعين جعل لهم في الدنيا مبشرات تدل على قبول أعمالهم الصالحة في الدار الآخرة.

فبين ابن عطاء الله –رحمه الله– ذلك بقوله إن ما يجده العاملون من ثمرات الطاعات عاجلا في الحياة الدنيا من أنوار اليقين، وصدق الإخلاص، وإشراق الأنوار، والتلذذ بالطاعات والمناجاة، كل ذلك بشائر لهم برضوان الله عنهم وعن أعمالهم، وبفضله وجوده يقبلها منهم، ويجازيهم عليها في الآخرة.

ولذلك لما سأل أبو ذر النبي ﷺ قائلا: (يا رسول الله، أرأيت الرجل يعمل العمل لله يحبه الناس عليه؟ قال: تلك عاجل بشرى المؤمن)(١).

والمعنى أن الله تعالى إذا تقبل العمل أوقع في القلوب قبول العامل ومدحه، فيكون ما أوقع في القلوب مبشرا بالقبول، كما أنه إذا أحب عبدا حببه إلى خلقه، وهم شهداء الله في الأرض، وذلك متى حمده الناس دون التعرض منه لمدحهم.

وليس هذا فقط، بل إن شهادة الناس على المرء توجب له جنة أو نارا، فهم شهداء الله على خلقه، فمن المحال ان يخدع شخص كل الناس بطيب خلق او عدمه، ولو خدعهم بعض الوقت فلن يخدعهم كل الوقت، ولذا روى أنس بن مالك ﵁ قال: مروا بجنازة، فأثنوا عليها خيرا، فقال النبي ﷺ: وجبت، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا، فقال: وجبت. فقال عمر بن الخطاب ﵁: ما وجبت؟ قال: هذا أثنيتم عليه خيرا،

(١) أخرجه مسلم في الحديث رقم٢٦٤٢، الصحيح ٢٠٣٤/٤.

فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرا، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض)[١].

وعن عبد الله بن بريدة، قال: جلس عمر مجلسا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسه تمر عليه الجنائز، قال: فمروا بجنازة فأثنوا خيرا، فقال: وجبت. ثم مروا بجنازة فأثنوا خيرا، فقال: وجبت. ثم مروا بجنازة فقالوا خيرا، فقال: وجبت. ثم مروا بجنازة فقالوا: هذا كان أكذب الناس. فقال: إن أكذب الناس أكذبهم على الله، ثم الذين يلونهم من كذب على روحه في جسده، قال: قالوا: أرأيت إذا شهد أربعة؟ قال: وجبت، قالوا: وثلاثة؟ قال: وجبت، قالوا: واثنين؟ قال: وجبت، ولأن أكون قلت واحدا أحب إلي من حمر النعم. قال: فقيل لعمر: هذا شيء تقوله برأيك، أم شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا، بل سمعته من رسول الله ﷺ)[٢].

وقد بين علماء الحديث المراد منه فقالوا: والمراد بالوجوب الثبوت، أو هو في صحة الوقوع كالشيء الواجب، وحاصل المعنى أن ثناءهم عليه بالخير يدل على أن أفعاله كانت خيرا فوجبت له الجنة، وثناءهم عليه بالشر يدل على أن أفعاله كانت شرا فوجبت له النار، وذلك لأن المؤمنين شهداء بعضهم على بعض.

فالمؤمن إن كان قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله عز وجل ولكنه لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فسر بحسن صنيع الله عز وجل، ونظره له، ولطفه به، حيث كان يستر الطاعة والمعصية، فأظهر الله عليه الطاعة وستر المعصية، فيكون فرحه بذلك لا بحمد الناس، وقيام المنزلة في قلوبهم، أو يستدل بإظهار الله الجميل وستر القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل به في الآخرة، فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرمونه عليه، فهذا رياء.

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم١٣٦٧، الصحيح ٩٧/٢.

(٢) أخرجه أحمد في الحديث رقم٣٨٩، المسند ٤٤٧/١.

## ٢٥٣- كَيْفَ تَطْلُبُ العِوَضَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ؟ أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ الجَزَاءَ عَلَى صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ؟

بعد أن بين ابن عطاء الله –رحمه الله– في الحكمة الماضية أن حمد الناس لشخص هو من عاجل بشرى المؤمن عرج هنا على أمر آخر ينبغي للمريد أن يتنبه له، وهو ألا يطلب عوضا على عمله الذي تصدق الله به عليه، فإن قمة البجاحة مع الله –عز وجل– أن يطلب الإنسان أجرا على عمل لم يعمله، أو على صدق لم يقم به، بل هو مهدى إليه ومتصدق به عليه، وهذا ما عليه كثير من الناس، لم يستحيوا من الله عز وجل فيبين هنا ابن عطاء الله –رحمه الله– أن طلب العوض على عمل هو في الحقيقة لله سبحانه وتعالى، لقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(١)، فقد خلق الخلق وصنعهم، وأوجد قدرتهم وحركتهم، فجميع أفعال عباده مخلوقة له، ومتعلقة بقدرته، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن الله منّ على قوم فألهمهم الخير، فأدخلهم في رحمته، وابتلى قوما فخذلهم وذمهم على أفعالهم، ولم يستطيعوا غير ما ابتلاهم فعذبهم، وهو عادل، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون)(٢).

وقد حذر النبي من الاتكال على العمل فقط، لأنه هدية من الله تعالى، وأن من وفق إلى السعادة علم أن العمل من الله وإليه، فيدعو الله أن يمن عليه بفضل عمل الصالحات وينعم عليه بشكر ربه جل وعلا، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لن يدخل أحدا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت: إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب)(٣).

---

(١) سورة الصافات الآية ٩٦.

(٢) أخرجه الذهبي في الكبائر ص١٥٤، وابن حجر الهيتمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر ص١٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في الحديث رقم٥٦٧٣، الصحيح ١٢١/٧، وأخرجه مسلم في الحديث رقم٢٨١٦، الصحيح ٢١٦٩/٤.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (سددوا وقاربوا، واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل)(١).

وعن عبد الله، قال: (حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات، فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار)(٢).

وليس معنى ذلك أن يترك المرء العمل، وإنما نفي الاغترار به، وأن العمل وحده لا يكفي، وأن يعمل كل امرئ لما خلق له، وييسر لما خلق له، وهو ما أثبته النبي ﷺ أن الموفق يعمل لما وفقه الله له، والمغضوب عليه يمنعه غضب الله عليه أن يقرب من الصالحات عملا، فيتخذ الشرور كلها أصلا، فيأكل الحرام ويشرب الحرام ويكسب المال الحرام، حتى يلقى الله وما له عنده حسنة فيكون وقودا لجهنم والعياذ بالله، ولذا لما وردت هذه الأحاديث عن النبي ﷺ تساءل الصحابة ﭫ عن أثر العمل، وأجابهم ﷺ بجواب قاطع، فعن عمران بن حصين قال: (قال رجل: يا رسول الله، أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم. قال: فلم يعمل العاملون؟ قال: كل يعمل لما خلق له، أو: لما يسر له)(٣).

فكيف تطلب أجرا على ما لم تعمل، بل إن الله هو المتصدق عليك به، وكذلك طلبك الجزاء على صدق أي إخلاص هو مهديه إليك، هذا قمة البجاحة والفجاجة مع

---

(١) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٤٦٤، الصحيح ٩٨/٨، وأخرجه مسلم في الحديث رقم٢٨١٨، الصحيح ٢١٧١/٤.

(٢) أخرجه البخاري في الحديث رقم٣٣٣٢، الصحيح ١٣٣/٤.

(٣) أخرجه البخاري في الحديث رقم٦٥٩٦، الصحيح ١٢٢/٨.

الله سبحانه.

وقد أبدع ابن عطاء هنا حين استخدم أسلوب الاستفهام الاستنكاري، ولم يستخدم الأسلوب الخبري، لأن المقام مقام تعجب واستنكار، لا مقام تذكير وتنبيه، ولقد عبر ابن عطاء الله عن الأعمال بالصدق، وعن الإخلاص فيها بالهدية، للفرق البيّن بينهما، فيكفي الإنسان من عمله أنه لا يحاسب عليه إذا أداه، لأنه يعلم تماما أنه لولاه سبحانه ما صلينا ولا زكينا، فلا تؤاخذنا اللهم بما فعل السفهاء منا.

## ٢٥٤- قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوارُهُمْ أَذْكَارَهُمْ، وَقَوْمٌ تَسبِقُ أَذْكَارُهُمْ أَنْوَارَهُمْ، وَقَوْمٌ تَتَسَاوَى أَذْكَارُهُمْ وَ أَنْوارُهُمْ، وَ قَوْمٌ لا أَذْكَار وَلاَ أَنْوَار نَعُوذُ باللّهِ مِنْ ذَلِكَ

قسم ابن عطاء الله الناس هنا في الأذكار والأنوار وجعلهم أصنافا أربعة، وبين أنهم رغم قربهم جميعا من الله تعالى إلا أنهم ليسوا على درجة واحدة من الرفعة والمكانة عند الله تعالى، فبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن الناس على أقسام:

**أولهم**: أهل الجذب أو المراد، وهم تسبق أنوارهم أذكارهم، وهم الذين رفع عنهم التكليف لجذب عقولهم إلى الذات العلية، والتكليف مناطه العقل، هؤلاء واجهتهم الأنوار، فحصل منهم الأذكار، وهؤلاء يرون الحقيقة قبل الشريعة، ومن ثم فهم يعملون الحقيقة قبل الشريعة، ولذا فهم لا يتبعون، ولا يكونون قدوة في الطريق.

**وثانيهم**: السالكون أو المريدون، وهم تسبق أذكارهم أنوارهم، فمتى اجتهدوا في الأذكار حصلت لهم الأنوار، واهتدوا بها إلى الوصول إلى العزيز الغفار، وذلك لقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(١)، يعني نفوسهم وأموالهم، وجاهدوا عدوهم إذ يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء، فصابرهم فغلبوه فباعوا النفوس والأموال، فأعتقوا من رق الهوى، ونجوا من أهوال الحساب، وهذا جهاد للباطن، فهو شاق وصعب.

ولذا قيل: من ظن أنه يفتح له شيء من هذه الطريقة، أو يكشف له عن شيء

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٩.

منها إلا بلزوم المجاهدة فهو في غلط.

وقال آخر: من لم يكن له في بدايته قومة لم يكن له في نهايته جلسة.

وما أبدع قول إبراهيم بن أدهم: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات أولها: أن يغلق باب النعمة، ويفتح باب الشدة.

والثاني: أن يغلق باب العز، ويفتح باب الذل.

والثالث: أن يغلق باب الراحة، ويفتح باب الجهد.

والرابع: أن يغلق باب النوم، ويفتح باب السهر.

والخامس: أن يغلق باب الغنى، ويفتح باب الفقر.

والسادس: أن يغلق باب الأمل، ويفتح باب الاستعداد للموت.

**وثالثهم**: المؤمنون، وهم قوم تتساوى أنوارهم وأذكارهم، فلا يسبق أحدها الآخر، وهؤلاء ومن سبقهم هم من يتبعون، لأنهم يرون الحقيقة والشريعة معا، والمطلوب من المؤمن أن يكون متبعا للشرع قبل اتباعه للحقيقة، لأن اتباع الحقيقة فقط دون اتباع الشريعة يجعله في نظر الناس خارجا عن الملة.

**ورابعهم**: المنافقون: وهو قوم لا أنوار لهم ولا أذكار، والحكمة تحذر أمثال هؤلاء من العمل المردود المحبط والعياذ بالله، وهم قوم لا أذكار لهم ولا أنوار، فقد حرموا الذكر وحرموا معه الأنوار، ومن حرم ذلك ودخله الكبر فقد أحبط عمله وخسر خسرانا مبينا، ولذا يقول النبي الكريم ﷺ: (من أصبح حزينا على الدنيا أصبح ساخطا على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو الله عز وجل، ومن تضعضع لغني لينال من دنياه أحبط الله ثلثي عمله، ومن أعطي القرآن فدخل النار فأبعده الله)(١).

وجاء في الأثر: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إنك لن تتقرب إلي بشيء أحب إلي من الرضا بقضائي، ولم تعمل عملا أحبط لحسناتك من الكبرياء، يا موسى لا تضرع إلى أهل الدنيا فأسخط عليك، ولا تخف بدينك لدنياهم فأغلق عليك

---

(١) أخرجه البيهقي في الحديث رقم٩٥٧١، شعب الإيمان ٣٧٣/١٢.

أبـواب رحمتـي، يـا موسـى قـل للمـذنبين النـادمين: أبشـروا، وقـل للعـاملين المعجبـين: اخسروا.

ولا يتوقف الأمر عند عمل السيئات، بل يحبط عمل الخير برياء أو كبرياء، فالله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، ولما سئل أحد العارفين: كيف يهلك العبد بأعمال البر؟ قال: إنها أعمال من البر كانوا يرون أنها منجيتهم فكانت هي مهلكتهم، لما مازجها من الرياء، وحب المحمدة من المخلوقين، واتخاذ المنازل بالطاعات، وإقامة الجاه، وحب القدر، والميل الى ثواب المخلوقين، فلما وردوا على الله عز وجل وجدوه قد أحبط أعمالهم وهم لا يشعرون، لأنهم كانوا قد تعجلوا ثواب أعمالهم من المخلوقين في الدنيا، فافتضحوا وفضيحة ما هناك باقية، ولم يجدوا من ثواب أعمالهم إلا كما وجد صاحب السراب وصاحب الرماد، فليس اسم الأعمال يراد، ولا تزيين ظاهرها، ولكن تقوى الله وما يقرب إليه زلفى، فليت بين العبد وبين كل عمل يباعد من تقوى الله ومن الله بعد المشرقين.

وقال بعض البلغاء: مَنْ منَّ بمعروفه أسقط شكره، ومن أُعجب بعمله أُحبط أجره.

## ٢٥٥- ذَاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَنِيرَ بِهِ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِراً، وَذَاكِرٌ اسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِراً، وَالَّذِي اسْتَوَتْ أَذْكَارُهُ وَأَنْوَارُهُ فَبِذِكْرِهِ يُهْتَدَى، وَبِنُورِهِ يُقْتَدَى

لا زال ابن عطاء يذكر الفروق بين العارفين حسب جهادهم وقبولهم عند الله تعالى، فعرج هنا على بيان صنفين منهم، والحكمة مكملة لما قبلها، فالذي يذكر ليستنير قلبه هم السالكون إلى الله عز وجل، وأما ذاكر استنار قلبه فكان ذاكرا، لأن الأنوار تدفع اللسان إلى ذكر الحنان المنان، وهم أهل الجذب.

وهذا الذاكر قد بلغ تلك الدرجة بدوام ذكره لله عز وجل، ولهجه بالثناء عليه والشكر له، ولذا يقول معاذ رضي الله عنه: ما من شيء أنجى لابن آدم من عذاب الله من ذكر الله، قالوا: ولا السيف في سبيل الله ثلاث مرات، قال: ولا أن يضرب بسيفه في سبيل

الله عز وجل حتى ينقطع.

والعمل لا يكون مقبولا وذكرا طيبا إلا إذا كان خالصا، فالأعمال قد تغطيها المراءاة أو يغلفها الكبر فترجع إلى صحابها وقد أحبطت.

يقول إبراهيم بن أدهم: على القلب ثلاثة أغطية الفرح والحزن والسرور فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص والحريص محروم وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل.

ولعمري أن العجب من صفات النفس المتكبرة، وهو يحبط الأعمال، وهو من كبائر أعمال القلوب والذنوب من أخلاق النفس الشهوانية، ولأن يبتلي العبد الشهواني بعشر شهوات من شهوات النفس خير له من أن يبتلي بصفة من صفات النفس مثل الكبر، والعجب، والبغي، والحسد، وحب المدح، وطلب الذكر؛ لأن هذه منها؛ معاني صفات الربوبية، ومنها أخلاق الأبالسة، وبها هلك إبليس، وشهوات النفس من وصف الخلقة وبها عصى آدم ربه فاجتباه بعدها وتاب عليه وهدى.

ولذا قيل: الزهد والورع يجولان في القلب كل ليلة، فإن صادفا قلبا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا.

وخلاصة القول في القبول وعدمه تلك المصفاة التي تصفي الأعمال الصاعدة إلى الله تعالى، ففي الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل: حدثني حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال: فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت، ثم سكت، ثم قال سمعت النبي ﷺ قال لي: يا معاذ. قلت: لبيك، بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: إني محدثك حديثا إن أنت حفظته نفعك، وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة، يا معاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض، ثم خلق السموات، فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها، قد جللها عظما، فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى، له نور كنور الشمس، حتى إذا صعدت به إلى السماء الدنيا زكته فكثرته، فيقول الملك للحفظة: اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا صاحب الغيبة، أمرني ربي

أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري. قال: ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد، فتمر به فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضروا بهذا العمل وجه صاحبه، إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، إنه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم. قال: وتصعد الحفظة بعمل يبتهج نورا من صدقة وصيام وصلاة، قد أعجب الحفظة، فيجاوزون به إلى السماء الثالثة، فيقول لهم الملك الموكل بها: فقوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الكبر، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدري، له دوى من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا به السماء الرابعة، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، اضربوا به ظهره وبطنه، أنا صاحب العجب، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، إنه كان إذا عمل عملا أدخل العجب في عمله. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به السماء الخامسة، كأنه العروس المزفوفة إلى أهلها، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضروا بهذا العمل وجه صاحبه، واحملوه على عاتقه، أنا ملك الحسد، إنه كان يحسد الناس، من يتعلم ويعمل بمثل عمله، وكل من كان يأخذ فضلا من العبادة يحسدهم، ويقع فيهم، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام، فيجاوزون بها إلى السماء السادسة، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، إنه كان لا يرحم إنسانا قط من عباد الله أصابه بلاء، أو ضر أضر به، بل كان يشمت به، أنا ملك الرحمة، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد وورع، له دوي كدوي الرعد، وضوء كضوء الشمس، معه ثلاثة آلاف ملك، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، اضربوا به جوارحه، اقفلوا به على قلبه، إني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي، إنه أراد بعمله غير الله

تعالى، إنه أراد رفعة عند الفقهاء، وذكرا عند العلماء، وصيتا في المدائن، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء، ولا يقبل الله عمل المرائي. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى، وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحجب كلها إلى الله عز وجل، فيقفون بين يديه، ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله. قال: فيقول الله لهم: أنتم الحفظة على عمل عبدي، وأنا الرقيب على نفسه، إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري، فعليه لعنتي، فتقول الملائكة كلهم: عليه لعنتك ولعنتنا، وتقول السموات كلها: عليه لعنة الله ولعنتنا، وتلعنه السموات السبع والأرض ومن فيهن، قال معاذ: قلت يا رسول الله، أنت رسول الله وأنا معاذ. قال: اقتد بي، وإن كان في عملك نقص يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن، واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم، ولا تزك نفسك بذمهم، ولا ترفع نفسك عليهم، ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة، ولا تتكبر في مجلسك، لكي يحذر الناس من سوء خلقك، ولا تناج رجلا وعندك آخر، ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا، ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار، قال الله تعالى: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ أتدري من هن يا معاذ؟ قلت: ما هن بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: كلاب في النار، تنشط اللحم والعظم. قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن يطيق هذه الخصال؟ ومن ينجو منها؟ قال: يا معاذ، إنه ليسير على من يسره الله عليه)(١).

## ٢٥٦- مَا كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرٍ إِلاَّ عَنْ بَاطِنِ شُهُودٍ أَوْ فِكْرٍ

إن صلاح الظاهر تابع لصلاح الباطن، لذا قال النبي ﷺ: (ألا وإن في الجسد

---

(١) ذكره أبو الليث السمرقندي نحن رقم٩٢٤، تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين ص٥٧٣، والغزالي في الإحياء ٢٩٦/٣، والحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ٣٨/١.

مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[(١)].

فصلاح القلب صلاح للأعضاء، إذ كل الأعمال الصالحة الظاهرة لا تكون إلا عن شهود الحق، والتفكر في آثار قدرته، وكل ذلك متعلق بالقلب.

وإنما كان ذلك لأن إبليس اللعين إنما يذهب للمرء لما يراه من وسوسة نفسه وخراب قلبه، بأن يراه فارغا من الخوف اللازم والحزن الدائم، فحينئذ ينفث فيه بالوسوسة لآمال الدنيا والجمع لها مخافة فقرها، مع لزوم طول الأمل للقلب، وإعراضه عن الله تعالى، وانقطاع مواد عظمة الله منه، وفراغه من الهيبة والحياء منه، فإذا وجد إبليس القلب عامرا بذكر الله خنس ونفر منه، ولم يجد فيه مساغا، ولا من جوانبه مدخلا، فهو قلب منير مضيء، فيتركه ويذهب إلى قلب قد فقد الخوف فخرب وأظلم، فلا نور فيه، ولا شيء أعجب إلى إبليس من ظلمة القلب وسواده، وانطفاء نوره، وتراكم الرين عليه، ولا شيء أثقل على الخبيث من النور والبياض، والنقاء والصفاء، وإنما مأواه الظلمة، وإلا فلا مأوى له ولا قرار في النور والبياض.

ومن أعمال القلب التي يزكو بها ولا يستغني عنها الإخلاص، والثقة، والشكر، والتواضع، والاستسلام، والنصيحة، والحب في الله تعالى، والبغض فيه، وقد كانوا يتعوذون من عمى القلوب، فهو شر العمى.

ولذا يقول العارفون: إذا صفا قلبك من الهوى، حينئذ تجد اليقين، لأن اليقين هو نور يحدث على قلبك من نور معرفتك، ونور إلهك الذي هو نور السموات والأرض ونور كل شيء، فإذا أقبلت على الله تبارك اسمه، أشرق القلب بالنور، فذلك اليقين، وإذا كان بالمرآة صدأ فقُلِبَ بها إلى عين الشمس، لم يشرق في البيت منه شمس، لأنه قد حال بين نور المرآة ونور الشمس ذلك الصدأ، فكذلك القلب إذا أقبلت على الله تعالى وعليه الهوى، لم يشرق بالنور الأعظم، لأن الهوى قد حال بين نور المعرفة وبين النور الأعظم، وهو اليقين، فإذا ذهب الهوى، فنظرت له، تلاقى النوران، فأشرق في

---

(١) سبق تخريجه.

صدرك، فأبصرته عين قلبك، فصار يقينا.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، وثبت قلوبنا على حبك، وحب نبيك، وحب من يحبك، إنك على كل شيء قدير.

## ٢٥٧- أَشْهَدَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يسْتَشْهَدَكَ، فَنَطَقَتْ بِأُلُوهِيَّتِهِ الظَّواهِرُ، وَتَحَقَّقَتْ بِأَحَدِيَّتِهِ القُلُوبُ وَالسَّرَائِرُ

يبين ابن عطاء الله –رحمه الله– أن الله عز وجل أَطْلَعَ العارف به على وحدانيته بتجلي أنوار المعارف على قلبه حتى شاهد ذلك واعترف بوحدانيته، كل ذلك قبل أن يستشهدك، أي قبل أن يطلب منك أن تشهد له بعظمته وجلاله بذكرك وعبادتك، لأن الذكر والعبادة الظاهرة شهادة منك بعظمة المعبود والمذكور، فنطقت بذلك الظواهر أي الجوارح، فأنت بالأعمال التي تدل على ذلك، وتحققت بأحدية الله القلوب والسرائر.

فمعرفة الله تعالى العامية مركوزة في النفس، وهي معرفة كل أحد أنه مفعول وأن له فاعلا فعله، ولذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(١).

فهذا القدر من المعرفة في نفس كل أحد، ويتنبه الغافل عنه إذا نبه عليه فيعرفه، والمراد به هنا إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة، فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مُقِرٍ وإلى جاحد.

ثم لما كان الإيمان مركوزا في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين: إلى من أعرض فنسي، وهم الكفار، وإلى من أجال خاطره فتذكر، فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها.

اللهم اجعلنا ممن هتف بوحدانيتك، وذل لعبودتك، وتشرف بعبادتك وحدك لا شريك لك.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢.

واكتساب قلوب الحكماء وأهل البصائر للخير أعمال خفية، تخفى على إبليس وعلى الحفظة، فهي أعمال نقية من الفساد، زاكية، قد حصلت مع خفة مؤنة على أهلها، جزيلة الثواب، مخلصات من عوارض العدو ومن هوى النفس، وذلك لأنها أعمال مستورة عن أعين العباد خاملة، لأن العبد يصل إليها قائما وقاعدا ومضطجعا، فأولئك هم أولو الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، وأكثر ذكرهم التفكر.

## ٢٥٨- أَكْرَمَكَ بكَرَامَاتٍ ثَلاَث: جَعَلَكَ ذَاكِراً لَهُ وَلَوْلا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلاً لِجَرَيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً بِهِ، إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً عِنْدَهُ فَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

إن عطاء الله للإنسان لا ينقطع، ومدده له وهباته لا تنتهي، ونعمه عليه لا تعد ولا تحصى، فهو صاحب العطايا والمنن، ولولا أمداده لصار الكون إلى عدم، وقد اختص ابن عطاء الله –رحمه الله– أفضل ثلاثة من هذه النعم في هذه الحكمة.

فقد خص الله الذاكرين بثلاث كرامات:

أولها: أن جعلك له ذاكرا، ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك، والذكر يكون باللسان والقلب، فلولا توفيق الله وفضله عليك لم تكن أهلا لذكره.

ثانيها: جعلك مذكورا به عند الناس، فيقولون هذا تقي نقي، وهذا ولي، وهذا رجل صالح، وما إلى ذلك من العبارات، فأنطق ألسنتهم بذلك بسبب تحقق نسبتك إليه، وهذه خصوصية لك عن سائر الخلق.

ثالثها: جعلك مذكورا عنده في الملأ الأعلى، فأتم نعمته عليك، لأن من أكبر النعم على الذاكر أن يذكر الله في عالم الملك، فيذكره الله –عز وجل– في عالم الملكوت مع الملائكة الكرام في حظيرة قدسه، وهذه كرامة ليس بعدها كرامة أن ألهمك ذكره، وجعل الخلائق يذكرونك، والملائكة وذاته العلية تذكرك.

فقد قال في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن

ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)(١).

ويقول النبي ﷺ: (لا يقعد قوم يذكرون الله -عز وجل- إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده)(٢).

والعندية هنا ليست مكانية، وإنما هي شرف ومكانة.

وأهل الذكر أهل كرامة عند الله تعالى حتى يُنفح من يجالسهم ولو لم يكن منهم، فقد قال لقمان لابنه: يا بني، إذا رأيت قوما يذكرون الله فاجلس معهم، فإنك إن تك عالما ينفعك علمك، وإن تك جاهلا علموك، ولعل الله تعالى يطلع عليهم برحمته، فتصيبك معهم، وإذا رأيت قوما لا يذكرون الله تعالى، فلا تجلس معهم، فإنك إن تك عالما لا ينفعك علمك، وإن تك جاهلا يزدك غيا، ولعل الله يطلع عليهم بسخطه فيصيبك معهم.

ولما كانت للذكر تلك المكانة عند الله تعالى فقد نبه عليها الصحابة رضوان الله عليهم والعارفون، ونصحوا بها تلاميذهم ومريديه، فقد قال معاذ بن جبل ﷺ: ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها.

وقال الحسن: الذكر ذكران: ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره، وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرم الله عز وجل(٣).

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان والدنيا، فيقول الشيطان للدنيا: ألا ترين ما يصنعون؟، فتقول الدنيا: دعهم، فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الحديث رقم٢٧٠٠، الصحيح ٢٠٧٤/٤.

(٣) أن يذكر الله عندما يشرف عليه من معاصيه.

وعن أبي هريرة ﵁ أنه إذا دخل السوق قال: أراكم ههنا وميراث رسول الله ﷺ يقسم في المسجد، فذهب الناس إلى المسجد، وتركوا السوق، فلم يروا ميراثا، فقالوا: يا أبا هريرة، ما رأينا ميراثا يقسم في المسجد، قال: فماذا رأيتم؟، قالوا: رأينا قوما يذكرون الله عز وجل، ويقرءون القرآن، قال: فذلك ميراث رسول الله ﷺ.

ولما كان الذكر شاقا على الشيطان، حارقا له، فإنه يحتال ليوقفه، ويلهي الناس عنه، ومن عظيم حيل الشيطان في هذا الأمر أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات، قال عبد الله بن مسعود﵁: جلس قوم يذكرون الله تعالى، فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع، فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا، فأفسد بينهم، فقاموا يقتتلون، وليس إياهم يريد، فقام الذين يذكرون الله تعالى فاشتغلوا بهم، يفصلون بينهم، فتفرقوا عن مجلسهم، وذلك مراد الشيطان منهم.

## ٢٥٩- رُبَّ عُمُرٍ اتَّسَعَتْ آمَادُهُ وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ، وَرُبَّ عُمُرٍ قَلِيلَةٌ آمَادُهُ كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ

إن العمر والأيام والساعات والأعمال كلها لا تقاس بميزان الزمان، بل تقاس بميزان البركة والقبول، والبركة من الله عز وجل، فإذا بارك الله في عمر الإنسان فإنه سوف يحوز من الذكر والطاعة ومتاع الدنيا ما لا نهاية له في وقت قليل وعمر قصير، وإذا لم يبارك في عمره فإنه مهما عاش من عمر، ومهما حرص على وقت، لا يكتسب من الدنيا إلا الفتات القليل من الطاعات والمتاع، لذا قال ابن عطاء الله رحمه الله: رب عمر لشخص اتسعت آماده، أي اتسع زمنه حتى طال، وقلت أمداده، أي فوائده وعطاياه، فلا يكتسب في عمره كثرة طاعات ولا متاع، ويكتب عند الله من الغافلين.

ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده، بأن تكثر طاعاته وأعماله الصالحة، وينميها الله له حتى تصبح كجبل أحد، فالعبرة بالبركة في العمر لا بطوله.

فإن البركة في العمر أن تدرك في عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك من عمره الطويل بغفلته، فيرتفع لك في يوم ما لا يرتفع له في عشرين سنة، وللخصوص من المقربين في مقامات القرب عند التجلي بصفات الرب اللحاق برفيع الدرجات، وتدارك ما فات عند أذكارهم وأعمال قلوبهم اليسيرة في هذه الأوقات، فكل ذرة من ذكر بتسبيح، أو تهليل، أو حمد، أو تدبر وتبصرة وتفكر، وتذكرة بمشاهدة قرب، ووجد برب، ونظرة إلى حبيب، ودنو إلي قريب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين الذين هم بنفوسهم واجدون، وللخلق مشاهدون.

ولو جلنا بأنظارنا إلى أعمال السلف الصالح والعارفين بالله لرأينا العجب، فهذا الإمام النووي –رحمه الله– صنف شرح صحيح مسلم في تسع عشرة مجلدا، وروضة الطالبين في أحد عشر مجلدا، وكتب من المجموع تسع مجلدات، ورياض الصالحين، وتهذيب الأسماء والصفات في ثلاث مجلدات، والأذكار، وغيرها من الكتب، مع أنه كان يدرس ويعبد الله، حتى إن من يراه يقول إنه لا يفعل شيئا غير عبادته، ومع ذلك مات وعمره لم يجاوز الرابعة والأربعين، فأي بركة في عمر كهذا، بل إن لسائل أن يسأل متى تعلم؟، متى علّم؟، متى عبد؟، متى كتب كل هذا؟، إنها البركة.

وهذا الإمام السيوطي الذي عاش ما يزيد على الستين بقليل، وقد كتب ما يزيد على سبعمائة مؤلف في علوم عدة، حتى كان هو وكتبه مادة لعشرات بل مئات الدراسات والرسائل العلمية في التفسير، والحديث، والفقه وقواعده، وأصول الفقه، واللغة، والأدب، والتراجم، وغيرها، فمتى أنجز الرجل كل هذا العلم إلا ببركة العمر، إن كتبه لو وضعت أمام ناقل ينقلها فقط بقلمه الموجود تلك الأيام لاحتاج أكثر من ستين عاما، فمتى تعلم؟، ومتى عبد؟، ومتى عاش حياته؟، ومتى تولى مناصب عديدة أفاد فيها وأجاد؟، إنها البركة في العمر.

وهذا الإمام السرخسي يؤلف كتابه المبسوط وهو في السجن مع تلاميذه يملي عليهم وهم يكتبون حتى وصل إلى باب الشروط فأطلق وأنجز بقية الكتاب في ثلاثين مجلدا، فأي ضيق انقلب عنده سعة، وأي ظلمة عاش فيها قلبها بفضل الله وبالعلم نورا

وذكرا، إن الرجل الكبير لم توهنه الوحدة، ولم تقيده ظلمات السجن، ولم تلن عزيمته بما يلقى من عنت سجانيهن ولكنه قلب كل ذلك علما ونورا وخلوة لذكر والعلم.

اللهم بارك لنا في أعمارنا وآجالنا وعلمنا وساحتنا، وفيمن تناسل وتواصل منا إلى يوم الدين يا أرحم الراحمين، آمين.

## ٢٦٠- مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمُرِهِ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مِنْ مِنَنِ اللّهِ تَعَالَى مَا لا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ العِبَارَةِ، وَلَا تَلْحَقُهُ الإِشَارَةُ

لا زال ابن عطاء يحلق في رحاب بركات الله تعالى على ابن آدم، بأن يجعل له في عمله البركة والقبول، فكانت هذه الحكمة التي تعد تفسيرا وزيادة بيان للحكمة السابقة ومكملة لها، فمن بارك الله له في عمره، بأن رزقه الله التوفيق والعناية، واليقظة والذكاء، جعله الله يغتنم أوقاته في الأعمال الصالحة البدنية والقلبية، ولا يضيع شيئا منها، بل يراقب أنفاسه، ويجعلها جميعا فيما ينفعه في دنياه وأخراه، ومن فعل ذلك واتقى الله حيثما كان أدرك في يسير الزمن من العطايا والمنن الإلهية والهبات الربانية من الله عز وجل ما لا يدخل تحت دائرة العبارة، لقصورها عن الإحاطة به، ولا تلحقه الإشارة إليه، لعلوه في مقامه ومنصبه، فيرتفع له كل يوم وليلة من الأعمال الصالحة ما لا يعد ولا يحصى، فتكون لياليه كلها كليلة القدر، وأيامه كلها أعيادا وعطايا ومنحا، لذلك قال النبي ﷺ: (حسن الملكة نماء، وسوء الخلق شؤم، والبر زيادة في العمر، والصدقة تمنع ميتة السوء)(١).

والمراد بالزيادة هنا البركة في العمر، بحيث يفعل في عمره من البر والطاعات والأعمال الصالحة ما لا يفعله غيره في الأزمنة الطويلة الخالية من البركة ورضوان الله تعالى، وهذا ما نعيشه ونراه من البّر الرحيم، ولله الحمد والمنة.

وقد كان الحسن –رحمه الله– إذا تلا قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ

---

(١) أخرجه الطبراني في الحديث رقم٤٤٥١، ولم يعلق عليه، المعجم الكبير ١٧/٥.

فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[١]، قال: يا إخواني، هي والله أيامكم هذه، فاقطعوها بالجد والاجتهاد، ولا تضيعوها، فخلوها فراغا من حسن المعاملة، وبطالتك فيها عن الشغل بمعادك المحصول عليك منها.

اللهم اجعلنا ممن باركت في عمره، وعلمه، وعمله، واجعله لديك مقبولا يا أرحم الراحمين.

## ٢٦١- الخِذْلَانُ كُلُّ الخِذْلَانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ الشَّوَاغِلِ، ثَمَّ لا تَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ، وَتَقِلَّ عَوَائِقُكَ، ثُمَّ لا تَرْحَلَ إِلَيْهِ

إن من أكبر الخذلان للإنسان أن يفرغه الله من شواغله الدنيوية، أو أن يعطيه ما يكفيه من الدنيا ثم يلهث عليها، ولا تتوجه همته إلى الله عز وجل بالاشتغال بالذكر والطاعة، وبكل شيء يقربه إلى الله عز وجل.

وأيضا أن تقل عوائقك التي تشغلك عن الإقبال عليه بأن زوّجت الأولاد، وخرجت إلى المعاش، وتولى أولادك ما كان يتعلق بك، ثم لا تقبل على الله عز وجل، أو ترحل إليه بالكلية.

ولذا يقول النبي ﷺ: (اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)[٢].

لذا قال سيدي علي الخواص: يقول الله عز وجل للعبد: لقد فرغتك من شواغلك، ولم أجعلك في صنعة ولا مهنة، فلم لم تقبل علي؟.

ويقول الإمام القشيري: فراغ القلب من الانشغال نعمة عظيمة، فإذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب هوى، وانجر في قيادة الشهوات، شوش الله عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجد.

وكان العارفون بالله يتواصون بالعمل في هذه الحالات، وينبهون إلى عاقبة

---

(١) سورة الحاقة الآية ٢٤.

(٢) أخرجه النسائي في الحديث رقم١١٨٣٢، السنن الكبرى ١٠/٤٠٠.

تركها، وفجاجة الاستهانة بها، فهذا غنيم بن قيس يقول: كنا نتواعظ في أول الإسلام بأربعة: اعمل في فراغك لشغلك، واعمل في صحتك لسقمك، واعمل في شبابك لكبرك، واعمل في حياتك لموتك.

وهذا آخر يقول لتلاميذه ومحبيه: ينبغي أن لا تضيع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك، والثقة بسالف عملك، فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك، والعمل فرصة فراغك، فليس كل الزمان مستسعدا، ولا ما فات مستدركا، وللفراغ زيغ أو ندم، وللخلوة ميل أو أسف.

ويقول بعض الحكماء: لا تمض يومك في غير منفعة، ولا تضع مالك في غير صنعة، فالعمر أقصر من أن ينفد في غير المنافع، والمال أقل من أن يصرف في غير الصنائع، والعاقل أجل من أن يفني أيامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره، وينفق أمواله فيما لا يحصل له ثوابه وأجره.

وما أجمل قول الشاعر:

بادر شبابك أن تهرما وصحة جسمك أن تسقما
وأيام عيشك قبل الممات فما قصر من عاش أن يسلما
ووقت فراغك بادر به ليالي شغلك في بعض ما

فينبغي للإنسان أن يعرف قدر حياته، ويغتنم كل ساعة تأتي عليه، ويقول لا أدري كيف يكون حالي في ساعة أخرى، ويتفكر في ندامة الموتى، وإنهم يتمنون الحياة مقدار ركعتين، أو مقدار قول لا إله إلا الله، وإنك قد نلتها، فاجتهد في عبادة الله تعالى، قبل أن يأتيك وقت الندامة والحسرة.

نسأل الله ألا يسلبنا النعم، وأن يديم علينا المنن، ولا يحرمنا فضله، إنه جواد كريم، آمين.

## ٢٦٢- الفِكْرَةُ سَيْرُ القَلْبِ فِي مَيَادِينِ الأَغْيَارِ

انتقل ابن عطاء الله في هذه الحكمة والتي تليها إلى آخر ما ينصح به المريد

وهو الفكرة، فهو وضع قواعدها لها في ثلاث حكم متتالية كانت هذه أولها، فهو يقول له: إن الفكرة التي يريدها الله -عز وجل- من الآدمي هي سير القلب، وجولانه في مشاهدة الأغيار، وهي جميع المخلوقات التي خلقها الله عز وجل، وهذه المخلوقات لاتساعها شبيهة بالميادين، فقد قال الله سبحانه: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١)، أي تفكروا وانظروا في عجائب المخلوقات.

وأما التفكر في ذات الله -عز وجل- فمنهي عنه، لأن الله أكبر من أن تفكر فيه العقول، والفكر يختلف باختلاف صاحبه.

وإنما كانت للفكرة هذه المكانة لأن القلب مع الفكر يحيا إن كانت الفكرة في الآخرة، ويموت إن كانت الفكرة في الدنيا، فإذا فكر المرء في الجنة أو النار، أو في شيء من أمور الآخرة، وقع لتلك الفكرة ظل على الصدر، فتمثل ذلك الشيء بين عيني القلب، فصار كأنه ينظر إليه، وإذا ذكر الله تبارك وتعالى لم يقع لذكره ظل على الصدر، ولكنه يشرق النور، ويتلألأ النور في الصدر، حتى يكاد يغشى بصر القلب، لأن النور إنما أشرق في الصدر، لأنه نوره، فإذا ذكر الأشياء، فالأشياء مخلوقة، فوقع للأشياء ظل، وإذا ذكره تلألأ النور، ولم يقع في الصدر ظل.

ولذا كان العارفون يتواصون بالفكرة في الله تعالى، أو فيما يقرب إليه من شكر أو ذكر أو حمد، ويحذرون من التفكر في الدنيا وشهواتها وملذاتها التي لا تنتهي، ويزيدها الشيطان بريقا ولمعانا، فيجعل الشهوة وكأنها نار عارمة، حتى إذا وصلها تحصلها سرابا لا تشبع من جوع، ولا تروي من ظمأ، فيزين له غيرها، ولا يزال الأمر كذلك حتى ينقضي عمره، وينتهي أجله، ويقع في الحسرة والندامة، ولذا يقول أحد العارفين ناصحا مريده: لا تلزم نفسك طول الفكرة في ما يورث قلبك ضعف الإيمان، فإن ضعف الإيمان أصل كل إثم وهم وغم، ولكن اشغل قلبك بكل ما يورث اليقين، فإن

---

(١) سورة يونس الآية ١٠١.

اليقين يورث كل طاعة، ويباعد من كل غم وهم، ويؤمنك من كل خوف، ويقربك من كل روح وفرح.

ويقول آخر: الفكرة مرآة المؤمن، تريه حسنه وقبحه، وكان يقال: التفكر نور، والغفلة ظلمة، ويقال: شجرة المعرفة تسقي بماء الفكرة، وشجرة الغفلة تسقي بماء الجهل، وشجرة التوبة تسقي بماء الندامة، وشجرة المحبة تسقي بماء الاتفاق والموافقة.

وقال الجنيد: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد.

وقال آخر: أنفع الخوف ما حجزك عن المعاصي، وأطال منك الحزن على ما فاتك، وألزمك الفكرة في بقية عمرك، وأنفع الرجاء ما سهّل عليك العمل.

وقال ذو النون المصري: مفاتح العبادة الفكرة، وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى، ومخالفتهما ترك شهواتهما.

نسأل الله عز وجل النجاة من النار، وأن يجعل فكرنا سديدا، وعمرنا مديدا في طاعته ورضوانه، وأن يجعلنا ممن يعملون فيخلصون فيقبلون، آمين.

## ٢٦٣- الفِكْرَةُ سِرَاجُ القَلْبِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلا إِضَاءَةَ لَهُ

لا زال ابن عطاء الله يحلق بمريده في رحاب الفكرة التي هي من أهم ما يرد على الآدمي في حياته، فبها يحيا القلب أو يموت، وفي هذه الحكمة يبين له أن الفكرة هي أساس نور القلب وسراجه الذي يستضيء به، إذ بها تنجلي دقائق الأمور، ويماط اللثام عن غوامض الحقائق، فيرى أن الآخرة خير له من الدنيا، وأنها حقيقة لا تساوي جناح بعوضة، وأنها جيفة وطلابها كلاب، وأن الآخرة خير وأبقى، وأنها حق، وما إلى ذلك من الحقائق.

كذلك تعرف الشيطان ومداخله ومكايده، وتعرف آفات النفس وغرور الدنيا والهوى، وعلاج ذلك، فإن ذهبت الفكرة منه فلا إضاءة له، فيكون كالبيت المظلم الخرب، فيتخبط في جميع حياته، وتكون نهايته والعياذ بالله النار.

والفكرة إنما هي تلمس البصيرة لمعرفة الغاية من الدنيا والعاقبة فيها، يقول

الهروي في منازل السائرين: اعلم أن التفكر تلمس البصيرة لاستدراك البغية، وهو ثلاثة أنواع: فكرة في عين التوحيد، وفكرة في لطائف الصنعة، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال، فأما الفكرة في عين التوحيد فهي اقتحام بحر الجحود، لا ينجى منه إلا الاعتصام بضياء الكشف، والتمسك بالعلم الظاهر، وأما الفكرة في لطائف الصنائع، فهي ماء يسقي زرع الحكمة، وأما الفكرة في معاني الأعمال والأحوال، فهي تسهل سلوك طريق الحقيقة، وإنما يتخلص من الفكرة في عين التوحيد بثلاثة أشياء: بمعرفة عجز العقل، وبالإياس من الوقوف على الغاية، وبالاعتصام بحبل التعظيم، وإنما تدرك لطائف الصنائع بثلاثة أشياء: بحسن النظر في مبادئ المنن، والإجابة لدواعي الإشارات، وبالخلاص من رق الشهوات، وإنما يوقف بالفكرة على مراتب الأعمال والأحوال بثلاثة أشياء: باستصحاب العلم، واتهام المرسومات، ومعرفة مواقع الغير.

ويحذر العارفون بالله من انخفاض الفكرة وذهابها، وذلك لأن الفكرة بين العقل والشهوة، فالعقل فوقها، والشهوة تحتها، فمتى ارتفعت الفكرة ومالت نحو العقل صارت رفيعة فولدت المحاسن، وإذا اتضعت ومالت نحو الهوى والشهوة، صارت وضيعة، وولدت المقابح.

ولذا يؤكدون على أن الفكرة الحسنة أساس لنور القلب، فالذي يلزم تطهيره من النفس هو القوى الثلاث: قوة الفكرة بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم، وقوة الشهوة بقمعها حتى تحصل العفة والجود، وقوة الحمية بإسلاسها حتى تنقاد للعقل، فتحصل الشجاعة والحلم، ويتولد من اجتماع ذلك العدالة، فجميع الرذائل تنبعث من فساد هذه القوى الثلاث: أما فساد الفكرة، فيتولد منه الخبث أو البله، وأما فساد القوة الشهوية، فيتولد منه الشره أو خمود الشهوة، وأما فساد الحمية، فيتولد منه التهور أو الجبن، ومن محصول هذه الأشياء أو حصول بعضها يحصل إما الظلم وإما الانظلام.

وإصلاح الفكرة يكون بالتعلم، حتى يميز بين الحق والباطل في الاعتقاد، وبين الصدق والكذب في المقال، وبين القبيح والجميل في الفعال.

ولما كان الصدرُ مقرَّ قوى الإنسان من الفكرة والشهوة والغضب، قال ﷺ: (لا

يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه)[١]، والمراد باستقامة إيمانه استقامة أعمال جوارحه في طاعة ربه، فإن أعمالها لا تستقيم إلا باستقامة قلبه، ومعنى استقامة القلب أن يكون ممتلئا من تعظيم الله وحبه، وحب طاعته، وكراهة معصيته وغضبه، ولا يمتلئ بذلك إلا إذا امتلأ فكرا.

قال عبدالله بن عبيد بن عمير: الإيمان قائد، والعقل سائق، والنفس حرون[٢]، فإن أبى قائدها لم تستقم لسائقها، وإن أبى سائقها لم تطع قائدها.

ولأهمية التفكر والاعتبار كان العارفون بالله يذكرون به في كل موضع، فعن الحسن قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وعن الفضيل قال: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

وقيل لإبراهيم بن أدهم: إنك تطيل الفكرة، فقال: الفكرة مخ العقل.

وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بقول القائل:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة

وقال أبو سليمان: عودوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه.

وما أروع قول الجنيد رحمه الله: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسم بنسيم المعرفة، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد، والنظر بحسن الظن لله عز وجل، ثم قال: يا لها من مجالس ما أجلها، ومن شراب ما ألذه، طوبى لمن رُزِقه.

اللهم ارزقنا مجلس التفكر في ميدان التوحيد، وتنسم معرفته، والشرب بكأس محبتك من بحر ودادك، وارزقنا النظر بحسن الظن إلى وجهك الكريم، اللهم آمين.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الحديث رقم١٣٠٤٧، المسند ٣٤٣/٢٠.

(٢) الحرون من الدواب ما إذا حركته لم يتحرك ووقف في مكانه.

## ٢٦٤- الفِكْرَةُ فِكْرَتَانِ: فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وَإِيمَانٍ، وَفِكْرَةُ شُهُودٍ وَعِيَانٍ، فَالأُولَى لأَرْبَابِ الاعتبارِ، وَالثَّانِيَةُ لأَرْبَابِ الشُّهُودِ وَالاستِبْصَارِ

ختم ابن عطاء الله حكمه بالكلام عن الفكرة التي هي مدعاة لكل ما سبق من حكمه، وكأنه يقول إذا كانت الحكم السالفة كلها مواعظا لك فلن تنتفع بها إلا إذا كانت لديك الفكرة، وهو هنا يقسم الفكرة إلى نوعين، فبين –رحمه الله– أن الفكرة التي هي سراج القلب وضياؤه، والتي هي السير في ميادين الأغيار أي الخلائق فكرتان: الأولى: فكرة أرباب الاعتبار أو السالكين، والثانية: فكرة أرباب الشهود والاستبصار، أو أهل الجذب.

فالأولى: وهي فكرة أرباب الاعتبار، فكرة تصديق وإيمان، وهم يستدلون بالأثر على المؤثر، أي بالمخلوقات على الخالق، فيستدلون بالأثر، وهو الحركة والسكون وما إلى ذلك من الآثار على الأسماء، أو بالأسماء على الصفات، وبالصفات على الذات، لأنه يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات.

والثانية: وهي فكرة أرباب الشهود والاستبصار، فهي فكرة شهود وعيان، أي فكرة ناشئة عن المشاهدة والمعاينة للذات العلية بعين البصيرة، فهم يستدلون بالمؤثر على الأثر.

والفرق بينهما أن كلاهما مصدق بالله، وكلاهما سائر إلى الله، إلا أن المجذوب حصل له هبة من الله تسمى بعين الجود، فقطع المنازل كالبرق، ووصل إلى الذات العلية بالأنوار الربانية والعطايا والمنح الإلهية، فهو يرى الله عز وجل بعين القلب، وهي البصيرة، فلا يحتاج إلى دليل يدله عليه، وهذا ما كان عليه الصالحون من أهل الفطرة، عرفوا الله بغير دليل.

وأما السالكون، وهم قوم مؤمنون مصدقون، فقطعوا الطريق والمنازل بالجهاد، وعرفوا الله بالاستدلال، أي بالأثر الذي دلهم على المؤثر، ولكن شتان بين من تأتيه الأنوار فتحرك لسانه بالذكر، ومن يذكر الله لتأتيه الأنوار، هذا هو الفرق بينهما.

ولما كانت الفكرة على هذه الدرجة من الأهمية فإنها لا تتأتى لذات خاملة، ولا

لعقل شارد، ولا لنفس لاهية لاهثة وراء الدنيا ومتاعها، إذ كيف تصح الفكرة لقلب غافل!!، وكيف تقع اليقظة لعقل ذاهل!!، وكيف يحصل الفهم للُب عاطل!!، لقد خاب الغافلون وفاز المتقون، من كتب عليه الشقاء كيف يسلم!!، ومن عمي قلبه كيف يفهم!!، ومن أمرضه طبيبه كيف لا يسقم!!، ومن اعوج في أصل وضعه فكيف يتقوم!!، هيهات من خلق للشقاء أن يبعد عنه، بل هو للشقاء يكون، وإذا كان للمرء فكرة ففي كل شيء له عبرة، فصاحب الفكرة كل ذرة من ذرات الأكوان له شيخ مرشد.

اللهم اجعلنا من أهل الفكرة والمعرفة، ومُنّ علينا بفضلك العميم، إنك خير مسؤول، وبالإجابة جدير.

## خاتمة في: مكاتباته -رحمه الله- لبعض إخوانه

بعد أن أنهيت شرح الحكم بهذا الشرح المتوسط بين الإطناب والإيجاز فإني أختمه بجملة من مكاتبات ابن عطاء رحمه الله إلى بعض إخوانه وتلاميذه، حيث كانت هذه المكاتبات بها من البلاغة والعظة ما لا يقل عن الحكم، وأعده مكملا لها، ولذا ذكرتها هنا بشرح مبسط.

فقد كتب لهم يقول: أما بعد:

### ١- فإن البدايات مجلات النهايات

والبدايات ما يظهر على المريد في أول دخوله الطريق من مجاهدة ومكابدة، وصدق وتصديق، وهو مظهر ومجلاة للنهايات، فيتجلى فيها ما يكون في النهايات، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته بعظيم الفتح، وتحقيق معنى العبودية، والقيام بوظائف الربوبية، وبذلك تشرق نهايته بالفتح والأسرار والأنوار.

يقول الشاعر:

قدرِ الكدِّ تكتسبُ المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي
ومن رام العلا من غير كد أضاع العمر في طلب المحال
تروم العز ثم تنام ليلاً يغوص البحر من طلب اللآلي

فمن كان صادق العزم في البداية فاعلم أنه من أهل العناية والرعاية.

### ٢- ومن كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته

البداية بالله ألا ترى لنفسك حولا ولا قوة، لا في عمل، ولا في حال، ولا في مجاهدة، ولا في مكابدة، فكل ما يظهر منك من الأعمال والأحوال هو من الله عز وجل، واهبه إليك، ومتفضل به عليك، كذلك تجلي قلبك من الأغيار أي مما سوى الله عز وجل، بذلك تصبح بالله بدايتك، وإليه تكون نهايتك.

وأيضا يجب على المريد أن يصحح في بدايته ما يفتقر إليه في سلوكه من علم الشريعة وعلم الحقيقة، فالعمل بلا علم جناية، والعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية.

**٣- والمشتغل به أيها المريد الصادق هو الذي أحببته وسارعت إليه، والمشتغل عنه هو المؤثر عليه.**

والمشتغل به أيها المريد هو الأعمال الصالحة التي تقربك من مولاك، وتوصلك إلى حظيرة القدس التي تبلغ فيها مناك، وخصوصا كثرة الذكر والأوراد التي توصلك إلى محبوبك.

والذي تشتغل عنه، أي تغيب عنه، وهو الذي تركته وآثرت عليه مولاك فلا جرم أن الله يبلغك ما تريد (إن الله يرزق العبد على قدر همته)، قال الشاعر:

إذا العبد ألقى بين عينيه عزمه وأعرض عن كل الشواغل جانباً
فقد زال عنه العار بالعزم جالباً عليــه قضاء الله ما كان جالبــاً

وقال الفضل: من رأيتموه وكلامه حكمة، وهمته فكرة، ونظره عبرة، فلا تهتموا منه[١]، فإنه قد قطع عمره في عبادة، وسلوكه أبدا في زيادة، ومن رأيتموه يطيل الأمل ويسيء العمل، فاعلموا أن داءه عضال.

**٤- وأن من أيقن أن الله يطلبه صدق الطلب إليه**

إن اليقين سكون القلب وطمأنينته بحيث لا يبقى فيه اضطراب ولا ريب في جميع الأمور.

ومن أيقن أن الله يطلبه بالقيام بحقوق العبودية ووظائف الربوبية، أو يطلبه بالتوجه إليه والفرار مما سواه.

وصدق الطلب: بأن يتوجه إلى ما طلبه منه مولاه بصدق النية بإفراد القلب والقالب لجهة المطلوب، بحيث لم يبق له التفات لغيره، فلم يثق إلا به، ولم يعتمد ولم يتوكل إلا عليه، فهو كافيه عن كل شيء، أليس الله بكاف عبده؟ بلى.

---

(١) والمراد لا تحملوا همه، فقد كفاه الله الهمّ والغم.

### ٥- ومن علم أن الأمور بيد الله انجمع بالتوكل عليه

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(١).

فمن علم أن الأمور كلها بيد الله عز وجل لم يبق له نظر إلى سواه، وانجمع بكليته إليه، وتوكل عليه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

### ٦- وأنه لابد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه، وأن تسلب كرائمه

هذه العبارة تسلية للمريد عما يفوته في حال سلوكه من زهرات الدنيا الفانية، فإنه إذا علم أن هذا الوجود الذي يعيش فيه بما فيه من متع سيزول ويفنى في يوم من الأيام، فمتاعها قليل، وحلالها عتاب، وحرامها عذاب، وأن بهجتها وجمالها ونفاستها سوف تسلب ولا دوام لها، فدوام الحال من الحال.

### ٧- فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى

فمن علامة العقل (التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله)(٢)، فالعاقل هو الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، من تثبت في حياته، وميز بين الشيء النافع له والضار، والحق والباطل، والحسن والقبيح، وكل ما يفنى وإن طال فهو قبيح، وكل ما يبقى وإن غاب فهو حسن مليح، نوره بحلاوة الزهد في الدنيا والإقبال على المولى، لأن حب الدنيا ظلمة، فإذا خرج من القلب دخله النور، وهو حلاوة الزهد، وراحة القناعة، وبرد الرضا، ونسيم التسليم، وظهرت تباشيره أي مبشرات تبشره بالإقبال، وروح الوصال، وجنة المعارف والجمال، فهم المفردون السابقون.

### ٨- قد أشرق نوره وظهرت تباشيره

وإذا تحقق بهذا المقام فقد أشرق النور في قلبه، وظهرت تباشيره المبشرة له

---

(١) سورة هود من الآية ١٢٣.

(٢) أخرجه الحاكم في الحديث رقم٧٨٦٣، المستدرك ٣٤٦/٤.

بالقبول وروح الوصال وجنة المعارف والجمال.

**٩- فصدف عن هذه الدنيا مغضيا، وأعرض عنها، موليا فلم يتخذها وطنا، ولا جعلها سكنا، بل أنهض الهمة فيها إلى الله تعالى**

إن من علامة حب الآخرة ترك الدنيا، وعلامة تركها ألا يفرح بالموجود بها، ولا يتأسف على ما فاته منها، ولا يمكن ذلك إلا بترك الانتصار للنفس ومخالفتها، لأنها جيفة وطلابها كلاب، روى سهل بن سعد قال: (كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحليفة، فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها، فقال: أترون هذه هينة على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها قطرة أبدا)[١]، ويقول ﷺ: (الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله، وما والاه، أو عالما، أو متعلما)[٢].

فلما علم المريد حال الدنيا وما فيها أعرض عنها لقذارتها وهوانها على الله عز وجل، غاضا بصره عنها، ولم ينظر إليها، وأعرض عنه موليا، فلم يلتفت إليها بقلبه، ولم يتخذها وطنا على سبيل التمتع بها، ولا جعلها سكنا على وجه المحبة لها، بل أنهض الهمة فيها إلى الله عز وجل، ولكن ليس معنى ذلك أن تترك الدنيا، وإنما المراد من كلام ابن عطاء الله ألا يتعلق لبه بها، فاجعلها في يدك فقط، وخذ بالأسباب تعبدا لله عز وجل، فقد قال الله تعالى لمن أعطاه ملك الأرض وهو سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣].

وقال له: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٤].

قال سيدي عبدالقادر الجيلاني ؓ عن الدنيا: أخرجها من قلبك، واجعلها في

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم٤١١٠، سنن ابن ماجه ١٣٧٦/٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الحديث رقم٤١١٢، سنن ابن ماجه ١٣٧٧/٢.

(٣) سورة ص الآية ٣٩.

(٤) سورة ص الآية ٣٠.

يدك، فإنها لا تضرك.

وقال سيدي الحضرمي ﷺ: ليس الرجل الذي يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرقها، وإنما الرجل الذي يعرف كيفية إمساكها فيمسكها.

وقال الشيخ زروق ﷺ: لأنها كالحية، وليس الشأن في قتل الحية، وإنما الشأن في إمساكها حية.

فالمعرض عنها هو من انقطعت عنه الحظوظ النفسية والشهوات الدنيوية، فيصح قصده إلى الله، وينفرد قلبه بالتوجه لمولاه.

### ١٠- وصار فيها مستعينا به في القدوم عليه

وهذا ابتداء سفره بقلبه إلى الحضرة العلية، وقطع عقبات النفس مستعينا به سبحانه وتعالى، لا بأعماله ولا أفعاله في القدوم عليه، والوصول إلى حضرته القدسية، ولا يصح ذلك إلا بالتبرؤ من الحول والقوة، ومن ظن أن اجتهاده يوصله لمرغوبه فقد جهل، ومن صح اعتماده على الله وصل، ثم بين السر فقال:

### ١١- فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها دائما لسيارها

شبه عزم المريد بالمطية التي لا يقر قرارها، دائما سيرها إلى الله عز وجل، لا يسكن قرارها في موطن دون سيدها، لأن الشوق أقلقها، وخوف فوات اللحوق أزعجها، فلا تستقر في محل يعوقها عنه من المقامات السنية والمكاشفات البهية.

### ١٢- إلى أن أناخت بحضرة القدس وبساطة الأنس

الإناخة هي النزول وحط الحمول، ولما وصلت الروح إلى مشاهدة الأحباب فتح لها الباب، فأزالت ما كان عليها من الأثقال، وجلست على بساط النزاهة والكمال، وهي حضرة القدس، فعلم أن الله عز وجل أجل من أن يُعرف، وأعظم من أن يُوصف، وبساط الأنس أي المؤانسة لكل واصل، وقد وصف رحمه الله تلك الحضرة بقوله:

**١٣- محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة**

قال بعض المحققين: المراد **بالمفاتحة** نداء الحق بمعاني أسمائه وصفاته، والمواجهة إقبال الرب على العبد، والمجالسة ملازمة ذكر الله تعالى (أنا جليس من ذكرني) والمحادثة أن يتكلم في سره بالمعارف والأسرار المفاضة عليه من ربه، والمشاهدة كشف لا يصاحبه وهم، والمطالعة معاني أوصافه على بساط أوصافك.

وقيل إن المفاتحة: هي مفاتحة علام الغيوب، فأنت تفاتحه بطلب العطاء، وهو يفاتحك بكشف الغطاء.

وأما **المواجهة:** فهي مواجهة أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، فأنت تواجهه بأنوار التوجه، وهو يواجهك بأنوار المواجهة، وهي كشف الحجاب، وفتح الباب، وأنت تواجهه بالطاعة، وهو يواجهك بالمحبة.

وأما **المجالسة:** فهي مجالسة الأدب والهيبة، فأنت تجالسه بالأدب والحياء، وهو يجالسك بالتقريب والاجتباء، أنت تجالسه بذكره وهو يجالسك ببره.

وأما **المحادثة:** فهي المكالمة القلبية، وهي الفكر والجولان في عظمة الجبروت، فأنت تحادثه في سرك بمناجاته وسؤاله، وهو يحادثك بمزيد إحسانه.

وأما **المشاهدة:** فهي كشف حجاب الحس عن نور القدس، أو هي كشف رداء الصون عن الكون، فأنت تشاهد ذاته في عالم الملكوت، وهو يشاهدك في عالم ملكه، أنت تشاهد ربوبيته، وهو يشاهد عبوديتك.

والحاصل أن المشاهدة من العبد هي شهود العظمة بالعظمة، ومشاهدة الرب للعبد هي إحاطة علمه بأحواله وأسراره.

وأما **المطالعة:** فهي مطالعة أسرار الملك والملكوت والجبروت وأسرار القدر، فأنت تطالعه بالتوجه إليه، وهو يطالعك بالترقي إليه، وأنت تطالع مواقع قضائه وقدره فتتلقاها بالقبول والرضا، وهو يطالع أحوالك وسرائرك، فيكشف عنك الحجب ويوسع

عليك الفضاء، أنت تطالعه بالتقرب والإقبال، وهو يطالعك بالمحبة والوصال، فيتلقاك بالإقبال والوصال.

وهذه الأسرار لا يذوقها إلا أهل الأذواق، فكل واحد يذوق منها على قدر شربه ووجده.

**١٤- صارت الحضرة عشش قلوبهم، إليها يأوون، وفيها يسكنون**

صارت الحضرة لقلوبهم بمنزلة العش للطير، ففيه تشبيه حالهم بحال الطائر، لأنهم إليها يأوون، فكأن أرواح العارفين طيور الحضرة، تطير في الملكوت، وتسرح في الجبروت، ثم تأوى إلى عش العبودية في الظاهر، وعش الشهود في الباطن، فالحضرة التي هي عشش قلوب العارفين هي حضرة الذات، وههنا حصل لهم التحقق بمقام الفناء والمحو، وهو مقام الجمع الذي انتهى به سيرهم إلى الملك الحق، ثم بعد ذلك يتحققون بمقام البقاء، وهو مقام الفرق الذي يؤمرون فيه بمخالطة الخلق، وهو المراد بقوله:

**١٥- فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين**

أي حقوق الله الواجبة عليهم عند مخالطة الناس الشبيهة بالسماء بجامع صعوبة الارتقاء إلى كلٍّ، أو أرض الحظوظ أي حظوظ أنفسهم التي يحصل لهم الارتفاق بها.

إن النزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ خروج عن الحضرة وليس كذلك، إذ من كان عمله بالله، وتصرفاته كلها بالله، لا خروج له عن الحضرة، وإنما النزول في حقه بالقالب فقط دون القلب، فالقلب لا يخرج من عشه أبدا بعد أن تمكن منه وذاق حلاوته، فكل من بلغ أن يكون علمه بالله ومن الله وإلى الله لا يكون نزوله للشريعة خروجا عن الحضرة، لا سيما الصلاة التي هي معدن المصافاة، فيها تتسع ميادين الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار.

قال الشيخ زروق ﷺ: التوحيد عرش، والشريعة المطهرة كرسي ذلك العرش، والحقوق المفصلة فيها سماؤها، والحظوظ النفسانية أرضها، فكل حقيقة لا تصحبها شريعة لا عبرة بصاحبها، وكل شريعة لا تعضدها حقيقة لا كمال لها.

ونزولهم هذا بالإذن من الله عز وجل لهم في النزول، لإرشاد الخلق بما يشرق في قلوبهم من النور الذي يجعله علما على ذلك، والتمكن في مقام البقاء حتى تحصل لهم القوة على مخالطة الناس وتحمل أذاهم، ولم يكن ذلك إلا بعد رسوخهم في اليقين بالله تعالى.

**١٦- فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة، بل دخلوا في ذلك بالله ولله ومن الله وإلى الله.**

فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة عن الله، بل نزلوا إليها بالأدب التام مع الخلق، واليقظة الكاملة بمشاهدة الحق، فإنهم يرون الله في كل مشهود، فإذا آذاهم شخص تحملوه لله الذي أوجده، ورأوا أن الذي سلطه عليهم مولاهم لذنب فعلوه لا يليق بهم، وإذا أكرمهم شخص شكروه، مع ملاحظة أن الذي حرك قلبه للإكرام مولاهم، ولم ينزلوا إلى الحظوظ بالشهوة النفسانية، والتمتع بها كما هو مقصد أصحاب النفوس الدنيئة، بل دخلوا في ذلك كله من الحقوق والحظوظ بالله مستعينين، ولله ملاحظين، ومن الله آخذين، وإلى الله متوسلين، قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(١).

والحاصل: أن أهل الحضرة نزولهم بالله، وعملهم بالله، لا يرون لأنفسهم حولا ولا قوة، ولا يطلبون من ربهم جزاء ولا أجرة، إذ محال أن يطلب الجزاء على عمل غيره هذا في حال نزولهم إلى سماء الحقوق.

وأما نزولهم إلى أرض الحظوظ فإنما هو لأداء حقوق العبودية، فليس نزولهم بشهوة النفس ونيل متعها، ولكن لتحقق فنائها وموتها، وقد انقلبت حظوظهم حقوقا،

---

(١) سورة هود من الآية ١٢٣.

ولأجل هذا المعنى قال سيدنا عمر ﵁: إني لأتزوج النساء وأجامعهن وليس لي في ذلك شهوة، قالوا: ولم تفعل ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: رجاء أن يخرج من صلبي ما تكثر به أمة محمد ﷺ.

وقد قال النبي ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[1].

فتحصل أن مقام الزوال يقتضي الفناء عن الحظوظ كلها، ولم يبق إلا الواحد الأحد.

### ١٧- وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق، ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني، واستسلامي وانقيادي إليك إذا أخرجتني

وقد عبر بهاتين العبارتين عن السفرين المذكورين، فالمدخل هو سفر الترقي، لأنه دخول على الله عز وجل في حال فنائه عن رؤية غيره، والمخرج هو سفر التدلي، لأنه خروج إلى الخليقة للإرشاد والهداية في حال بقائه وتحققه في هذين المقامين، وهما مقام الفناء ومقام البقاء، هذا هو معنى صدقية مدخله ومخرجه، وإنما طلب هذا ليحصل له به ذهابه عن رؤية حظ نفسه، ففي المدخل يشاهد حول الله وقوته، فينتفي عنه بذلك النسبة إلى نفسه، وفي المخرج يستسلم لربه وينقاد إليه، فينتفي عنه بذلك مراعاة حظه.

### ١٨- ثم قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾، ينصرني، وينصر بي، ولا ينصر علي، ينصرني على شهود نفسي، ويقيني عن دائرة حسي

صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، يا رب اجعل لي من عندك سلطانا نصيرا، أي مددا إلهيا لا يصادمه شيء إلا دمغه، ينصرني على أعدائي، وينصر بي أحبابي الذين أقمتني لإرشادهم، ولا تنصر علي أحدا من أعدائي، وهم الدنيا والهوى والشيطان ونفسي، فإن ذلك والعياذ بالله من علامات الخذلان، ثم

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في الحديث رقم١٥، كتاب السنة ١٢/١.

خص النفس لكونها أعدى الأعداء بقوله: ينصرني على شهود نفسي، بأن لا أشاهد لها فعلا من الأفعال، ويفنيني عن دائرة حسي، أي عما يدور به حسي من الأكوان حتى أصل بعدم التعلق بها إلى أعلى درجات الكمال.

## ١٩- إن كانت عين القلب تنظر إلى أن الله واحد في منته فالشريعة تقضي أنه لابد من شكر خليقته.

إذا كانت البصيرة التي هي عين القلب تنظر إلى أن الله سبحانه وتعالى واحد في عطيته، فهو المعطي في الحقيقة لا غيره، فهو صاحب المنن والنعم الحقيقي الذي يجب أن يشكر أولا وآخرا هذه هي الحقيقة.

لكن الشريعة أمرتنا أن نشكر أيضا من وصلت النعمة على يده، لأن عين القلب وهي البصيرة من شأنها ألا ترى إلا المعاني دون المحسوسات، كما أن البصر لا يرى إلا المحسوسات دون المعاني والحكم للغالب منهما، فمن غلب بصره على بصيرته لا يرى إلا الحس فهو الغافل، ومن غلبت بصيرته على بصره ولا يرى إلا المعاني وهي معاني التوحيد وأسرار التفريد، فالبصيرة لا ترى إلا نور الحق دون ظلمة الخلق، لكن لابد من إثبات الحكمة وهي الشريعة، والشريعة تستوجب شكر الخليقة، لقول الله عز وجل: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[١]، ولقول النبي ﷺ: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس)[٢]، فإذا أنعم الله عليك بنعمة، سواء كانت دنيوية أم دينية على يد أحد من خلقه فعليك في ذلك أمران:

الأولى: قلبية، وهي الاعتقاد أنها من الله بلا واسطة، وأن ما سواه مقهور على إيصالها لك عملا بالحقيقة.

والثانية: لسانية، وهي أن تدعو له وتثني عليه عملا بالشريعة.

ثم قسم الناس باعتبار الحقيقة إلى قسمين، وواسطة، وهذا في حالة ورود النعمة

---

(١) سورة لقمان من الآية ١٤.

(٢) أخرجه الترمذي في الحديث رقم١٩٥٤، وقال: هذا حديث صحيح، سنن الترمذي ٣/٤٠٣.

عليهم، فقال:

**٢٠- وأن الناس في ذلك على ثلاثة أقسام، غافل منهمك في غفلته قويت دائرة حسه، وانطمست حضرة قدسه، فنظر الإحسان من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين، إما اعتقادا فشرك جلي، وإما استنادا فشرك خفي.**

هذا هو النوع الأول وهو العامي الذي قويت دائرة حسه، لتعلقه بالأكوان، وانطمست حضرة قدسه، والمراد بها هنا هي عين البصيرة، فأبعدته عن المكون الحقيقي والمعطي الأزلي، واعتقد أن المؤثر والمعطي هو العبد، أو هو الكون، فهذا شركه ظاهر جلي يخرجه من الملة.

وإذا نسب ذلك إلى العبد استنادا فذلك شرك خفي، لكونه أشرك مع الله غيره، ففي إيمانه نقصان، لقوله لولا فلان تسبب لي في هذا الأمر ما وصل لي من الله، والتوحيد الخالص أن يعتقد أن العبد مقهور، وأن الموصل له إنما هو مولاه.

**٢١- أما القسم الثاني فهو صاحب حقيقة، غاب عن الخلق بشهود الملك الحق، وفني عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب، فهو عبد مواجه بالحقيقة، ظاهر عليه سناها، سالك للطريقة، قد استولى على مداها، غير أنه غريق الأنوار، مطموس الآثار، قد غلب سكره على صحوه، وجمعه على فرقه، وفناه على بقائه، وغيبته على حضوره.**

الحقيقة هي شهود نور الحق في مظاهر الخلق، أو شهود نور الربوبية في قوالب العبودية، فصاحب الحقيقة هو الذي يغيب عن الخلق بشهود نور الملك الحق، ويفنى عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب، فهذا العبد كوشف بالحقيقة فغلب عليه ضياؤها، وسلك طريقة القوم واستولى على نهايتها، فهو من الخواص، لا ينظر إلى الأسباب، وإنما ينظر إلى مسبب الأسباب، فهذا وإن كان كاملا بالنسبة لأهل الغفلة إلا أنه ناقص بالنسبة لخواص الخواص الذين جمعوا بين الأمرين، وهم أهل المعرفة، فالخواص غرقى في بحار التوحيد، مطموسة بصيرته عن النظر إلى الآثار والخلق، قد

غلب سكره وهو عدم إحساسه بالآثار على صحوه، وهو إحساسه بها، وجمعه وهو رؤية الحق وحده، على فرقه وهو رؤية الحق والخلق، فهو في مقام الجمع لا في مقام الفرق.

**ملحوظة مهمة:** الجمع هو رؤية الحق بلا خلق، والفرق قبل الجمع رؤية الخلق بلا حق، فإن كان الفرق بعد الجمع فهو رؤية الحق والخلق، أي أنهم يشهدون الواسطة والموسوط من غير فرق بينهما، إذ لولا الواسطة ما كان الموسوط، أي أنهم يشهدون الشريعة والحقيقة معا.

**٢٢- أما القسم الثالث: فهم خواص الخواص، قال وأكمل منه عبد شرب فازداد صحوا، وغاب فازداد حضورا، فلا جمعه يحجبه عن فرقه، ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه يصده عن بقائه، ولا بقاؤه يصده عن فنائه، يعطي كل ذي قسط قسطه، ويوفي كل ذي حق حقه.**

وهو الذي شرب من كأس التوحيد، فازداد صحوا بعد سكره، وغاب عن الخلق فازداد حضورا معهم بربه، فقد شرب بالكأس، وجمع بين المزيتين، فباطنه مكمل بالحقيقة، وظاهره مجمل بالشريعة، فيشكر الخلق والحق، ولا يغيب عن الحق في حال مخالطة الخلق، ليعطي كل ذي قسط قسطه، ومن أهل هذا المقام الصديق الأكبر رضي الله عنه بطريق الوراثة عن النبي ﷺ، فتراهم مستغرقين في الفكرة والنظر، ومع ذلك يحسون بدبيب النملة حتى يظن من لم يبلغ مقامهم أنهم من أهل الغفلة، لكثرة ما بهم من الفطنة، وهم مستغرقون في الحضرة، وقد كان عليه الصلاة والسلام يصلي بالناس، فإذا سمع بكاء الصبي خفف شفقة على أمه[١].

فأهل هذا المقام الكامل هم العارفون بالله، لا يحجبهم جمعهم عن فرقهم، فهم مجموعون في فرقهم، ومفرقون في جمعهم، يشهدون الحق حال شهودهم الخلق، ولا

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في الحديث رقم٧٠٧، الصحيح ١٤٣/١، وأخرجه مسلم في الحديث رقم٤٧٠، الصحيح ٣٤٢/١.

يصدهم فناؤهم عن بقائهم، فظاهرهم مشغول بالحس، وباطنهم معمور بالمعنى، يعطون كل ذي حق حقه، فيعطون الحقيقة حقها بشهود الحق في الباطن، والشريعة حقها باستعمال الجوارح في حقها في الظاهر، ويوفون كل ذي قسط قسطه، فيوفون الناس قسطهم من الإحسان والحق حقه في توحيده بالجنان.

أفردوا الحق بالإنعام، وشهود الإحسان، وأثنوا على الوسائط باللسان، وقد قال سيدي الشاذلي ﷺ: الجمع في باطنك مشهود، والفرق على لسانك موجود.

**ملحوظة مهمة:** من اختاره الله في الأزل واصطفاه، ورعته عين العناية، وهو قليل نادر بين الخلائق، فإنه لا يحتاج إلى المرور على هذه الأحوال والمقامات، وهؤلاء هم المدلون على الله العارفون به، أما غيرهم فلابد من المرور على هذه المقامات، ولابد أن تعتريهم هذه الأحوال من سكر وصحو وجذب، ثم سلوك وجمع، ثم فرق وفناء، ثم بقاء، نعم قد يكون بعض الأفراد أقوياء يجذبون إلى حضرة الحق مع مشاهدة الخلق، ويسيرون بين جذب وسلوك، وأما من لم يصحب العارفين الذين سلكوا هذه المقامات فلا يطمع في نيل هذا المقام أبدا.

ثم استدل على المقام الثاني وهو الجذب والفناء، والثالث وهو الصحو والبقاء بقصة السيدة عائشة رضي الله عنها مع أبيها، وهي قضية الإفك، فقال:

**٢٣- وقال أبو بكر الصديق ﷺ لعائشة رضي الله عنها لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله ﷺ: "اشكري رسول الله، فقالت: لا أشكر إلا الله"، دلها أبو بكر ﷺ على المقام الأكمل، مقام البقاء المقتضي لإثبات الآثار، وقد قال الله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾(١)، وقال ﷺ: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس)(٢)، وكانت هي في ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها، غائبة عن الآثار، فلم تشهد إلا الله الواحد القهار.**

(١) سورة لقمان من الآية ١٤.

(٢) سبق تخريجه.

كان أبو بكر الصديق ﷺ في مقام الفرق الذي هو أعلى من مقام عائشة إذ ذاك، فإنها كانت في مقام الجمع، لأنها كانت مصطلمة، أي فانية عن شاهدها، أي عن حكم بشريتها، غائبة عن الآثار، فلم تشهد إلا المؤثر، وهو الواحد القهار، ولم يكن هذا الحال لازما لها في جميع أوقاتها، بل ترقت عنه إلى مقام الفرق كأبيها.

وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾(١)، مع قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(٢)، فقال له: اتق الله حق تقاته بقلبك، واتق الله بجسمك ما استطعت، فتكون جامعا للشريعة والحقيقة.

ولما سئل ﷺ عن قوله ﷺ: (وجعلت قرة عيني في الصلاة)(٣)، هل ذلك خاص به ﷺ أم لغيره منه نصيب، فأجاب بقوله: إن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود، فالرسول ﷺ ليس هناك معرفةً كمعرفته، وليس هناك قرة عينٍ كقرته، وإنما قلنا إن قرة عينه في صلاته بشهود جلال مشهوده، لأنه قد أشار إلى ذلك بقوله في الصلاة، ولم يقل بالصلاة، إذ هو صلوات الله عليه وسلامه لا تقر عينه بغير ربه، وكيف وهو يدل على هذا المقام، ويأمر به من سواه بقوله ﷺ: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(٤)، ومحال أن يراه ويشهد معه سواه.

فإن قال قائل: تكون قرة العين بالصلاة، لأنها فضل من الله وبارزة من عين منة الله، فكيف لا يفرح بها؟، وكيف لا تكون قرة العين بها؟، وقد قال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٥)، فاعلم أن الآية قد أومأت إلى الجواب لمن تدبر سر الخطاب، إذ قال: فبذلك فليفرحوا، ولم يقل: فبذلك فافرح يا محمد، قل لهم فليفرحوا بالإحسان والتفضل، وليكن فرحك أنت بالمتفضل، كما قال في

---

(١) سورة آل عمران من الآية ١٠٢.

(٢) سورة التغابن من الآية ١٦.

(٣) أخرجه أحمد في الحديث رقم١٢٢٩٣، المسند ٣٠٥/١٩.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سورة يونس الآية ١٠.

الآية الأخرى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(١).

فبيّن ابن عطاء الله أن قرة العين هو كمال الفرح والسرور، وهذا يختلف باختلاف الناس قوة وضعفا على حسب معرفتهم بمعبودهم الذي يتناجونه في صلاتهم، ومعروف أن أكمل الناس في المعرفة هو سيد الخلق أجمعين، فكانت قرة عينه بربه لا بالصلاة، بخلاف غيره من البشر.

**ومما كتبه رضي الله عنه لبعض إخوانه قوله:**

الناس في ورود المتن على ثلاثة أقسام:

**النوع الأول:** فرح بالمنن، لا من حيث مهديها ومنشئها، ولكن بوجود متعته فيها، فهذا من الغافلين، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾(٢).

**والنوع الثاني:** فرح بالمنن، من حيث أنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٣).

**والنوع الثالث:** فرح بالله، ما شغله من المنن ظاهر متعتها ولا باطن منتها، بل شغله النظر إلى الله عما سواه، والجمع عليه فلا يشهد إلا إياه، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(٤).

فالأولون هم العوام، والنوع الثاني هم الخواص، والنوع الثالث هم خواص الخواص.

فالنوع الأول نظر إلى المتعة الزائلة، والنوع الثاني نظر إلى تفضل الله عليهم بهذه النعم، وأما النوع الثالث فهم في غاية الشرف والكمال، لأنهم لم ينظروا بعين

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٩١.

(٢) سورة الأنعام من الآية ٤٤.

(٣) سورة يونس الآية ١٠.

(٤) سورة الأنعام من الآية ٩١.

البصيرة إلا للمنعم المفضال، فلم ينظروا إلى ظاهر متعة النعم، ولا إلى باطن مننها، من حيث إنها منة من الله، بل شغله النظر إلى المنعم بها عمن سواه.

ثم قال ابن عطاء الله: وقد أوحى الله إلى داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: يا داود، قل للصديقين بي فليفرحوا، وبذكري فلينعموا، أي من كان كثير الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال، فلا ينبغي أن يفرح إلا بكونه عبدا لذي العزة والجلال، ولا يتلذذ إلا بذكر الكبير المتعال، فإنه إذا كان بهذه المنزلة يبلغه سيده الآمال.

نسأل الله تعالى أن يجعل فرحنا وإياكم به، وبالرضا منه، وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه، وألا يجعلنا من الغافلين، وأن يسلك بنا مسلك المتقين بمنه وكرمه، آمين، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

## ملخص الحكم العطائية

بعد الانتهاء من شرح الحكم العطائية وبيان ما فيها من معان كبيرة تحتاج إلى مجلدات في شرحها، نضع بين يدي المريد جملة مختصرة من المعاني العظيمة والفضائل والشيم الجليلة التي لا يستغني عنها أي مريد والتي لا ينبغي أن يجهلها أي سالك، وهي :-

١- عدم الاعتماد الكامل علي العمل الصالح فقط، فإن ذلك يقلل الرجاء في الله عز وجل عند وجود الذلل.

٢- لا ينبغي أن يتجرد الانسان من الأسباب إلا إذا علم أن الأسباب قد سقطت في حقه.

٣- إن أقدار الله نافذة لا تغيرها الهمم العالية، ولا تتجاوزها حيل كل البشر ولو اجتمعوا.

٤- لا تدبر لك أمرا فصاحب التدبير جل جلاله قد دبر وقدر في الأزل، وإن دبرت لنفسك شيئا فليكن مصحوبا بالتفويض.

٥- لا تجتهد فيما ضمن لك من الرزق والأجل واجتهد فيما طُلب منك من

الأعمال الصالحة.

٦- إن وعد الله لا يتخلف ووعيده يتخلف، فلا يأس مع الله.

٧- حسب الوارد الذي يرد إليك تكون أعمالك وأفعالك.

٨- الإخلاص روح الأعمال.

٩- العمل بلا علم جناية، والعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية.

١٠- التعرف على الله بالبلايا خير من التعرف عليه بالعطايا.

١١- حب الظهور يقصم الظهور.

١٢- العزلة مع الفكر حياة القلوب وأنوارها.

١٣- لا تشرق القلوب إلا بخلوها مما سوي الله عز وجل.

١٤- رؤيتك لله في كل شيء يهون عليك كل شيء.

١٥- معرفتك لله عز وجل عين النعيم، وجهلك به عين الجحيم.

١٦- أجهل الناس هو الذي يريد أن يحدث في الكون غير ما أراده الله.

١٧- ارض بما قسم الله لك تكن أغني الناس.

١٨- السائر إلي الله لا يشغله شيء عن الله، ولا يوقفه شيء عن الوصول إليه، وأن إلي ربك المنتهي.

١٩- أنفاسك أقدار فاغتنمها في الخير، وافهم طبيعة الحياة فإنها أغيار وأكدار ولسيت متاعا، ولم يخلق الله راحة فيها، فلا تكن لحوحا في طلبها.

٢٠- ما تطلبه بربك يُقضى، وما تطلبه لنفسك لا يُقضى.

٢١- الرجوع الى الله في البدايات دليل على النجاح في النهايات.

٢٢- إذا صلح الباطن صلح الظاهر، فانشغل بعيوبك عن عيوب غيرك.

٢٣- لا يصلح حالك إلا اذا عرفت الله معرفة تنفي الجهل، ولا يكون ذلك إلا عن طريق خبير "الرحمن فسأل به خبيرا".

٢٤- النفس أساس كل معصية وفساد فاحذر منها كل الحذر.

٢٥- كان الله ولم يكن معه شيء، وهو علي ما كان عليه كان.

٢٦- الموت نهاية كل حي، فلا تغفل عن نهايتك.

٢٧- لولا الورد ما كان الوارد، ولولا الوارد ما كان الورد.

٢٨- حسن الظن بالله أساس الفوز والنجاة.

٢٩- النور يُكشف به، والبصيرة تحكم، والقلب يقبل أو يدبر.

٣٠- النور جند القلب، والظلمة جند النفس.

٣١- اعلم أن الفاعل الحقيقي في هذا الكون هو الله، فالأمر أمره، والمشيئة مشيئته، والاختيار اختياره، والعبد عبده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٣٢- الإقبال علي الله يكون بالاختيار، وإلا كان بسلاسل الاختبار.

٣٣- الفرح كل الفرح يكون ببروز العبادة من الله للعبد.

٣٤- أساس كل ذل ومهانة الطمع فيما سوي الله عز وجل، والحرص على غير رضا الله.

٣٥- كم للوهم من قتيل فاترك أوهامك.

٣٦- شكر النعمة يزيدها، ويمنع النقمة، وكفرها يزيلها ويجلب الذلة.

٣٧- من اسُتدرج فقد بدأ هلاكه.

٣٨- المراد مجتبى بعين الجود من الأزل، والمريد مختار ببذل المجهود، وشتان بين الاثنين، بين من أعده الله لمحبته، وبين من جعله الله لخدمته.

٣٩- واردات الله تأتي بغتة منه بلا سبب، وقد تأتي بسبب.

٤٠- أجهل الناس من انشغل بعيوب الناس وترك عيوب نفسه.

٤١- مقامك عند الله حيث أقامك في الدنيا.

٤٢- نعمة النعم أن يرزقك الله الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية.

٤٣- يقبضك الله ثم يبسطك ثم يخرجك منهما إليه.

٤٤- القبض عند العارفين أفضل من البسط، والمنع أفضل من العطاء.

٤٥- فقرك ذاتي، فلا يزيله الغنى العارض.

٤٦- العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان.

٤٧- الأكوان ظاهرها غرة، وباطنها عبرة.

٤٨- ما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل.

٤٩- العاقل من يري الموت أقرب إليه من شراك نعله فيستعد له، والغافل من ينساه حتى يدركه.

٥٠- لا تطلب ثوابا للطاعات، يكفيك أن يقبلها الله منك.

٥١- أوحشك من خلقه ليؤنسك به.

٥٢- ذنب يورث ذلا وافتقارا خير من طاعة تورث عزا واستكبارا.

٥٣- لولا نعمة الإمداد ما كان الإيجاد.

٥٤- العارف لا ينتهي اضطراره، ولا يكون عند غير الله قراره.

٥٥- إذا أطلق لسانك كان إيذانا بصلاح حالك.

٥٦- نور ملكه بنور آثاره، ونور ملكوته بأنوار أوصافه.

٥٧- تظهر أنوار البواطن في عالم الملكوت، وأنوار الظواهر في عالم الملك.

٥٨- الابتلاء يحاديه اللطف، والبلاء لا لطف فيه.

٥٩- الهوي سم قاتل، والشهوة هي الثعابين.

٦٠- ظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية.

٦١- ستر الخصوصية بظهور البشرية.

٦٢- من زاد عليك في الأدب زاد عليك في التصوف.

٦٣- الاستقامة أكبر كرامة.

٦٤- السعادة في الافتقار إلى الله، والتعاسة في الافتقار إلى الناس.

٦٥- تقوي الله همُّ كل سالك.

٦٦- صفاء الأسرار يقي من عذاب النار ويدخل دار الأبرار.

٦٧- العارف يري الله في كل شيء، فلا يستوحشه في شيء، والعابد لا يري الله في شيء فيستوحشه في كل شيء.

٦٨- العارف لا يقبضه الثناء، والعابد يقبضه الثناء.

٦٩- النظر في مكوناته يكشف الله عن كمال ذاته.

٧٠- لوّن لك الله الطاعات كي لا تمل منها.

٧١- الصلاة كهف المؤمن واستفتاح لأبواب الغيوب.

٧٢- فضل الله عليك أن خلق ونسب اليك.

٧٣- كن بأوصاف ربوبيته متعلقا، وبأوصاف عبوديته متحققا.

٧٤- خير عادة ألا تكون عادة، فكيف تخرق لك العوائد وأنت لم تترك العوائد.

٧٥- أفضل الدعاء حال الاضطرار.

٧٦- لو أحب الله عبدا ستر عيوبه وأظهر محاسنه.

٧٧- المطيع أحوج إلي حلم الله من العاصي.

٧٨- التوهم بأن مع الله أحدا يحجبك عنه.

٧٩- أجهل الناس من ترك حقيقة ما عنده لظن ما عند الناس.

٨٠- إذا صدقت في عبوديتك لا يؤثر عليك المنع أو العطاء.

٨١- إن أثر عليك المنع والعطاء كنت متطفلا علي موائد الظرفاء.

٨٢- الشدائد تصقل الرجال.

٨٣- مهبط الأنوار القلوب والأسرار.

٨٤- الطاعات تحجب الإنسان كما تحجبه المعاصي والشهوات.

٨٥- ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر.

٨٦- لا يصل إلي الولي إلا ولي.

٨٧- دل علي أوليائه بالدليل إليه.

٨٨- أعراض العباد مصانة مستورة فإياك أن تظهرها.

٨٩- حظ النفس من المعصية ظاهر، وحظها من الطاعة باطن.

٩٠- مداواة الباطن أصعب من مداواة الظاهر.

٩١- الرياء والنفاق والكبر والعجب والظهور سم قاتل ومحبط للعمل.

٩٢- من عرف الله شهده في كل شيء، ومن فني فيه غاب عن كل شيء، ومن

أحبه لم يؤثر عليه شيئا.

٩٣- احتجب بشدة ظهوره، وخفي لعظيم نوره.

٩٤- غاية الله من عبده إظهار كمال العبودية، والقيام بحقوق الربوبية.

٩٥- عطاء الله سابق علي طلب العبد اللاحق.

٩٦- الأسباب ليست فاعلة بذاتها.

٩٧- الفعال لما يريد هو الله ولا أحد سواه.

٩٨- العارف بالله تسبق أنواره أقواله، فحيث صار التنوير وصل التعبير.

٩٩- الكلام يخرج حسب ما في القلب من أنوار وأسرار.

١٠٠- من أذن له في التعبير وصل كلامه الى الخلق.

١٠١- الغاية من الحديث هداية مريد أو فيضان وجد.

١٠٢- لا يتحدث المريد عن ارداته، فإن ذلك يقلل من عملها في قلبه، ويمنعه من الصدق مع ربه.

١٠٣- اجعل باطنك أخرويا وظاهرك دنيويا.

١٠٤- اجعل حياتك بين الجمع والفرق.

١٠٥- المعطي الحقيقي هو الله، والمعطي المجازي هم الخلق.

١٠٦- لا تنسب لنفسك ما الله فاعله.

١٠٧- لا تعرف قدر النعمة إلا بفقدها.

١٠٨- يا لحزن من أتته الأنوار فارتحلت إلي العزيز الغفار.

١٠٩- الحب لغير الله ذل ومهانة، والحب لله عز وجل عزة وكرامة.

١١٠- الله غني عن طاعة من أطاعه، ولا تؤثر فيه معصية من عصاه.

١١١- لا تيأس أبدا من روح الله، وأحسن الظن به دائما.

١١٢- لا تقف في سيرك إلي الله إلا عنده، وأن إلى ربك المنتهي.

١١٣- من تمام النعمة أن يرزقك الله ما يكفيك ويمنعك مما يطغيك.

١١٤- دوام الحال من المحال.

١١٥- البدايات ترغب، والنهايات تزهد.

١١٦- الظاهر يلهيك، والباطن يحذرك.

١١٧- الدنيا محل للأغيار ومعدن للأكدار، فكن فيها زاهدا.

١١٨- من لم يقبل النصح المجرد فالدنيا كفيلة بتأديبه.

١١٩- العلم النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعه، ويكشف للقلب قناعه.

١٢٠- إذا أحب الله عبدا ساقه إليه بأذى الخلق له واستيحاشه منهم.

١٢١- الشيطان هو العدو المنسي في حياتنا فإياك أن تنساه.

١٢٢- الشيطان عدو كل انسان، فلا يغفل عنه ولا ينام.

١٢٣- الشيطان يراك ولا تراه، فاستعن بمن يراه ولا يراه.

١٢٤- لا يخرج الإنسان من الكبر إلا مشاهدة الله في كل شيء، ومعرفة حقيقية نفسه.

١٢٥- الحب فناء خاطرك في خاطر محبوبك.

١٢٦- المحب لا يطلب من محبوبه عوضا.

١٢٧- السائر من سارت نفسه إلي الله، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها.

١٢٨- ليس الوصول إلى الله بقطع الأزمنة والمسافات، وانما هو سير القلوب إلي علام الغيوب.

١٢٩- جعلك الله بين ملكه وملكوته لتصلح لخلافته.

١٣٠- الملك يسع جسمانيتك، والملكوت يسع روحانيتك، فلا بد من الجمع بينهما.

١٣١- من كان مع الله كان الكون بيديه.

١٣٢- قوم تسبق أنوارهم أذكارهم، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم.

١٣٣- من بارك الله في عمره أدرك من فضائل الله الكثير.

١٣٤- الخسران المبين لمن فرغه الله من شاغله ولم يقبل عليه.

١٣٥- هو البداية وهو النهاية، فلم الزيغ والذهول؟.

١٣٦- الفكرة حياة القلب ونوره، فإذا ذهبت فلا ضياء له.

١٣٧- الفكرة تصديق وايمان، أو شهود عيان، فالأولي لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار.

وأختم بهذه الحكمة الجليلة العظيمة التى يجب وضعها نصب العينين وهي (إن النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه، فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر إلي وجه الله الكريم)

واعلم أن ما تجده القلوب من الهموم والأحزان سببه عدم رؤية الله في كل مكان وزمان.

وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم

**ختـــام:**

اللهم لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد، وعلى أتباع سيدنا محمد، كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون، اللهم كما وفقت لشرح هذه الحكم، وأعنتنا في طلب مرادها كما تيسر لنا، اللهم اجعل عملنا خالصا لوجهك الكريم، اللهم انفع به كل من سمع، وارو به ظمأ كل من شرب، وداو به قلب كل مريض، واردد به يقظة كل غافل، واجعله لنا زادا ونحن عن الدنيا راحلون، وفي القبور ساكنون، واجعله اللهم نورا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، وتقبله منا بقبول حسن، وأنبته نباتا حسنا، واروه بماء فضلك، وانفع به بوافرك كرمك، ولا تحرمنا أجره، ولا أجر من عمل فيه، أو نشره، أو أهداه، إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير.

اللهم يا من ليس في الوجود سواه، يا من عليه يُعتمد، ومن فضله يُسأل، وإليه يُستند، يا أحد يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، يا كثير الخير، يا دائم المعروف، يا من الملائكة في خدمته صفوف، وعلى طاعته عكوف، يا جار المستجير، ومن هو على كل شيء قدير، يا غياث الملهوف، يا من بيده القبض والبسط، وبيده تقوم السموات والأرض، يا من امتدت لمسألته أكف السائلين، وخرت لعبادته وجوه الساجدين، وعجت بتلبيته أصوات الملبين، وطمحت إلى معروفه أبصار الآملين، يا عالم السر والنجوى، يا من إليه المشتكى، يا من عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، يا من يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، يا من إذا انتهت الشكوى إليه فقد بلغت المنتهى، يا فالق الحب والنوى، اللهم نشكو إليك ما نحن فيه من طاعتك مقصرون، وعلى معصيتك مصرون، وبعظمتك جاهلون، وبحكمك مغترون، وعن القيام بما يلزمنا في حقك عاجزون، اللهم اجعلنا من الذين يعاملونك بما تحب وتعاملهم بما يحبون، وينصرفون عما تكره وتصرفهم عما يكرهون، وألحقنا بالذين وجهوا

إليك وجوههم، وأخلصوا لك أعمالهم، ولم يعتمدوا على أحد إلا عليك، ولم يستندوا إلا إليك، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

والحمد لله أولا وآخرا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا وعظيمنا محمد، وعلى آله وصحبه وآل بيته الطيبين الأطهار، واحشرنا اللهم في زمرته، وأنلنا شفاعته والورود على حوضه، واسقنا بيده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدا، اللهم آمين، آمين، آمين.

# فهرس الموضوعات

**صدر عن مؤسسة ساحة الإمام الحسين ﷺ بأسيوط:**

١- دليل الحيران، مجموعة أحزاب وأوراد بعدد أيام الأسبوع.

٢- حزب الوقاية من الغواية. ٣- الدروس الحسينية في شرح الحكم العطائية.

٤- مراقي السالكين شرح منازل السائرين. ٥- أحكام العمرة.

٦- الخلاصة في الفقه الإسلامي المقارن (في أحد عشر مجلدا).

*** سلسلة مفاهيم حول التصوف، وصدر منها:**

١- عثرات في الطريق إلى الله. ٢- التصوف وصفات الصوفي الحقيقي.

٣- مصطلحات الصوفية. ٤- أولياء الله الصالحون. ٥- خواطر في الخلق والتصوف.

٦- التقوى طريق السعادة في الدارين. ٧- المعاني والمباني في النصوص الشرعية.

٨- الحكم والمعاني من فروع الفقه الإسلامي. ٩- كيفما تعامل الله يعاملك. ١٠- العقيدة في الإسلام.

١١- الزواج بين المباني والمعاني. ١٢- المال بين المباني والمعاني. ١٣- ما يحبه الله.

١٤- ما يبغضه الله. ١٥- تحقيق العبودية والقيام بحقوق الربوبية. ١٦- أهمية الشيخ في حياة المريد.

١٧- تصحيح النهايات بتصحيح البدايات. ١٨- العلاج بالرقى الشرعية. ١٩- القضاء والقدر.

٢٠- شمائل الذات البشرية لخير البرية ﷺ. ٢١- الحقيقة المحمدية.

*** سلسلة اختصار الفقه الإسلامي على طريقة السؤال والجواب:**

١- الفقه الإسلامي تطوره ومذاهبه. ٢- كتاب الطهارة. ٣- كتاب الصلاة.

٤- كتاب الزكاة. ٥- كتاب الصيام. ٦- كتاب الحج والعمرة.

٧- كتاب النكاح. ٨- كتاب فُرَق النكاح. ٩- كتاب الرضاع والحضانة.

١٠- كتاب النفقات. ١١- كتاب الإجارة والاستصناع. ١٢- كتاب الشفعة.

١٣- كتاب الصيد والذبائح. ١٤- كتاب الأضحية. ١٥- كتاب الأيمان والنذور.

١٦- كتاب الكفارات. ١٧- كتاب الأشربة والزينة. ١٨- كتاب البيوع.

١٨- كتاب الربا والسلم والصرف. ١٩- كتاب التوثيقات (الرهن والحوالة والكفالة). ٢٠- كتاب الوكالة.

٢١- كتاب الشركات. ٢٢- كتاب الهبة. ٢٣- كتاب المزارعة والمساقاة.

٢٤- كتاب المفقود واللقطة واللقيط. ٢٥- كتاب الوديعة والعارية. ٢٦- كتاب الوقف.

٢٧- كتاب القضاء والدعوى. ٢٨- كتاب الشهادة والبينات. ٢٩- كتاب القسمة.

٣٠- كتاب الحدود. ٣١- كتاب الحرابة والبغي. ٣٢- كتاب الجنايات.

٣٢- كتاب الجهاد. ٣٣- كتاب الغصب. ٣٤- كتاب الحجر والحبس.

٣٥- كتاب الصلح والإقرار. ٣٦- كتاب المواريث والوصايا.